جورج صيدح

أدبنا وأدباؤنا في المهاجر الأميركية

الطبعة الثالثة

منقحة ومزيدة

دار العلم للملايين
بيروت

الطبعة الاولى : القاهرة ١٩٥٦
الطبعة الثانية : بيروت ١٩٥٧
الطبعة الثالثة : بيروت ١٩٦٤

أدبنا وأدباؤنا

في المهاجر الأميركية

بيان الطبعة الثالثة

طبعة جديدة للكتاب الذي صدر في طبعة أولى عن جامعة الدول العربية عام ١٩٥٦ ، وصدر في طبعة ثانية عن «دار العلم للملايين» في بيروت عام ١٩٥٧ . وكانت الطبعة الأولى مجموعة المحاضرات التي ألقاها المؤلف في معهد الدراسات العربية العالية في القاهرة . وفي الطبعة الثانية أعيد نشرها وأضيفت اليها المحاضرات التي لم يتسع الوقت لالقائها في المعهد المذكور ، كما أضيف أيضاً ملحق أول عن أمسية شعرية جرت في ندوة المعهد ، وملحق ثانٍ عن مناظرة أدبية بين الاستاذ عزيز أباظه والمُحاضر حول (اثر المهجر في الشعر العربي) جرت في ندوة الجامعة الاميركية وعلّق عليها كلٌ من الاساتذة محمد زكي عبد القادر ونظير زيتون والياس قنصل .

أما في هذه الطبعة الثالثة فقد حذفنا الملحقَين المذكورين وحذفنا معهما كل ما يستغني عنه البحث من الشواهد لكي نضع مكانه دراسات جديدة عن أدباء أغفلناهم في الطبعة السابقة ، ودراسات مستوفيَة عن أدباء لم نُعطِ عنهم المعلومات الشافية ، ودراسات أخرى استطعنا ان نتعمق ونتوسع في معالجتها بفضل الاتصالات والتحريات والمطالعات التي

أتيحت لنا في سبع سنوات مرّت على كتابة الطبعة السابقة . وغايتنا هي أن نقدّم للقارئ في ذات الحجم موسوعةً عن أدب المهجر أغزر بالمعارف وأقرب إلى الكمال . وان شاء القارئ أن يُلمّ بالجديد من الاضافات والتعديلات التي دخلت على هذه الطبعة دون أن يكلّف نفسه قراءة الكتاب كله ، فاننا نرشده اليها بدليل مفصّل نضعه في آخر هذا البيان .

لقد طُلب منا إعادة الطبعة السابقة كما هي لأن الإقبال على الكتاب مضمون ، يُعفي المؤلف «تجارياً» من مشقّة التجديد والتجويد . فأبى علينا الضمير الأدبي هذه الصفقة السهلة ، وحدانا إلى التزام الدقة والمشقة في ما نقدّمه للقراء من أوصاف الأدب المهجري كما هو اليوم لا كما كان منذ سبعة أعوام . لقد مشى بـه الزمن من حال إلى حال . ثلاثة وعشرون من أركانه ارتحلوا إلى العالم الثاني . وثلاثة غادروه عائدين إلى أوطانهم . ستٌ من الصحف التي نعرفها احتجبت وأربع من المطابع العربية تفككت وتأمركت . وكم من مدرسة أقفلت ومن ندوة أقفرت ومن أقلام تعبت أو تحطمت . كل هذا دفع بالأدب المهجري خطوات إلى الوراء ووضعه على شفا الاخطار ، مهدّداً بالانهيار .

قرأنا في رسالة كتبها الأديب المهجري الكبير جورج حسون معلوف في سان باولو عام ١٩٥٨ ما يأتي :

« ان الأدب المهجري يقطع الآن مرحلته الاخيرة . وقد لا يبقى منه بعد بضع سنين إلا أكواخ هزيلة إلى جانب انقاض تلك القصور والمعاقل . وبموت « ابو ماضي » طوي علم الشعر المهجري الأكبر . وزملاؤه من شعراء الجنوب أخذوا يصفون . والناثرون عراهم الزهد والكلال . والمدد لا يعلل ولا يعد بالقليل فضلاً عن الكثير . والقراء ما زالوا يتناقصون يوماً فيوماً وينظرون إلى هذه المأساة بعين من زجاج .. لا رفة ولا دمعة ! إنا لله وإنا اليه راجعون .. كأن هذا الأدب لم يكن عمود السحاب في تيه الغربة .

في ذمة التاريخ هذا الأدب القصير العمر الذي كتب له أن يشرق في جو العربية كقوس قزح ، جميلاً فتاناً ، وان يظل طرفاه خفيين يغلفهما الغموض ! » .

لا نحمّل أدباء المهجر مسؤولية هذا التحوّل المريع الذي فرضته سنّة الله في الاحياء والاشياء من خلقه . فلم يكن باختيارهم انحلال (الرابطة القلمية) في نيويورك ، واحتجاب (العصبة الأندلسية) في سان باولو . لقد انقرض الرابطيون في الأولى ، وتشتّت المعتصبون في الثانية ، حتى لم يبق في البرازيل من سبعة وعشرين عضواً نشيطاً سوى سبعة أعضاء متقاعدين . ولكننا نأسف على استسلامهم متفرقين للعوامل المتحالفة ضدهم مجتمعة : الضعف . الملل . انقطاع المدد . ضغط المحيط . جحود العشيرة . كساد الصنعة . كانوا خط الدفاع الأمامي في صفوف المهاجرين ضد غزوة العجمة للغتهم وأدبهم وثقافتهم ، فتخلّوا عن مهمة القيادة وتنكبوا عن رسالة الإيقاظ التي كانوا يؤدونها في المجتمع المهجري إلى نهاية النصف الثاني من هذا القرن ، فلما خلا الميدان منهم كان متوقعاً من الحكومات العربية أن تحلّ محلّهم وتدرأ خطر تلاشي الكيان العربي وذوبانه في البوتقة الاميركية بكل وسيلة من وسائل الدفاع عن النفس .

وسائل الدفاع عديدة وقد أصبحت معروفة ، تهدف كلها إلى الابقاء على اللغة العربية في أفواه المهاجرين وعلى العاطفة القومية في صدورهم . ولا سبيل إلى ذلك إلاّ بالمدارس التي تعلّم العربية وبالصحف التي تذيع وتوجّه وتستنخي بلغة الضاد . فإذا تكفّلت الحكومات العربية بنفقات عشر مدارس وخمس صحف يومية كبيرة تُنشئها إن لم تكن موجودة ، أو تدعمها وتنقذها من الافلاس إن كانت موجودة ، موزعةً بين نيويورك وسان باولو وبونس ايرس وسنتياغو ومكسيكو ، تكون كفلت عروبة كتلة بشرية تزيد عن مليون نفس تكاد تفقد شخصيتها وتتلبس الشخصية المحلية الغريبة . هذا عدا عن ان شعور المهاجر باهتمام

حكومته بـه ينعش معنوياته ويبعث فيه روح المقاومة للغريب وروح التعاون مع عشيرته . فهل يعجز المسؤولون في امتنا عن عمل ايجابي كهذا ، عمل واحد من النوع المفيد المحسوس نخزي بـه عيون الشامتين ؟..

إن المهاجرين صدّروا أموالاً طائلة إلى الوطن في قرن كامل ، فماذا يمنع الأوطان من ردّ جزء صغير إلى مصدره عند الحاجة اليه ؟ وكلمة الحاجة لا تعني ان الجوالي المغتربة افتقرت وعجزت عن نفقات المدارس والصحف التي تكلمنا عنها . بل يعني انهـا تقاعست عن العمل الجماعي وتراخت صلاتها بأصولها بعد ما تكاثرت وتشابكت فروعها بالبيئة الاجنبية حتى ضاعت ذواتها أو كادت . فالعمل الجازم الحاسم من جانب حكوماتنا الوطنية هذا وقته ، ولا غنى عنه . والأمل معقود على سرعة التلبية من حكام إذا قالوا فعلوا ، وان جهلوا أمراً سألوا . فقد يجهلون ان ثروة علمية أدبية خلّفها المهاجرون تتبدّد في امبركا لأن الذين رحلوا تركوها لذرية لا تفهم العربية ولا تعرف قيمتها (آثار ابو ماضي وعبد المسيح حداد وحسني غراب) ، وقد يجهلون ان ثروة أخرى مثلها وأدها المهاجرون الاحياء في الجوارير لعجزهم المادي عن طبعها ونشرها (آثار الدكتور ابو شادي في حوزة كريمته صفية ، ودواوين فرحات ونصر سمعان وقيصر سليم الخوري ومؤلفات جورج ليان وتوفيق مقصود وعبد الله بري) . وفي هاتين الظاهرتين ما يثبط همة كل أديب ويزهده في الانتاج ما لم يكن حاملاً عدةً مالية إلى جانب رسالته الروحية .

« ان أطواق النجاة التي تُلقيها الدول العربية تذهب أدراج الرياح إن جاءت في غير ابّانها ، وكان الجيل الذي تريد انقاذه ليست عنده ارادة السباحة ولا صلاحية البقاء . فلم تعد العروبة في نفسه سوى ظلال باهتة تهمّ بالتلاشي . »

هذا القول الحكيم هو للأديب المصري الحصيف رضوان ابراهيم ،

نشرته مجلة الاديب عام ١٩٦٠ وتناقلته الصحف . وفيه يقول :

« الحق ان الادب المهجري ظاهرة عربية في دنيا الفن . شعلة تتوهج بلا زيت . ثم تخبو بلا رياح ، لتخلف في عيون المستضيئين بها موجات من الحسرة والحيرة والظلام . »

ثم ييأس الكاتب من معالجة هذا المريض العزيز فيترحم عليه قائلاً :

« كان إحدى الحلقات التطورية في تاريخ أدبنا المعاصر ، لا نهاية الحلقات . وتأثيره ليس بالتأثير الوحيد ولا هو التأثير الأبدي . فياليت آباء المهاجرين يورثون أبناءهم عروبة القلب ان لم يورثوهم عروبة الكلمة ، فتبقى قلوبهم عربية مؤمنة وان اصطنعت اللسان الاجنبي . »

هذه الغيرة على الأدب المهجري تشتعل في صدور الأدباء العرب المقيمين — ولا سيما الأدباء المصريين — بينما هي تخمد في صدور المهجريين. فمن الغرابة ان يقلّ اهتمامهم بأدبهم حين يزيد اهتمام الشعوب العربية به . لقد تعمقت جذوره في تربة الأدب العام في السنوات العشر الأخيرة وأصبح شغل الدارسين والنقّاد والمتأدبين . عشرات الطلاب يجعلون آثاره اطروحات للدكتوراه . أفواج من الشعراء يعيشون تجربة شعرائه . أجيال من النشء تعيش في جوّه وهوائه . الدكتور ثروت عكاشة ينشر ثلاث ترجمات جديدة لكتب جبران . حكومات (روتينية) تغيّر عاداتها وتظهر حسن نيتها بدعوة بعض أدباء المهجر لضافتها (الشاعر القروي — فرحات — عبد المسيح حداد — عبد اللطيف الخشن) . ومصر أصدرت طبعة جديدة لديوان القروي بعد ان اشترت حقوق النشر منه . وسوريا أصدرت كتابين عن أدب المهجر على نفقتها . ولبنان نظّم وما زال ينظّم مؤتمرات للمغتربين في بيروت . فما أبعد الخطى التي خطاها هذا الأدب منذ عام ١٩٥٦ ، يوم كنت أقف على المنبر في القاهرة لأقول قولاً أصبح اليوم بعيداً عن الانصاف : « ان مصر لم تفتح للأدب المهجري بابها الواسع ولم تتحمس له » .

اليوم — طوباكم يا أدباء المهجر — أصبح لكم في مصر مكتب دائم هو منزل الأستاذ وديع فلسطين . وفي لبنان مكتب مثله هو منزل الأستاذ محمد قره علي . وفي سوريا مكتب ثالث هو منزل الاستاذ فريد جحا . وفي العراق المكتب الرابع هو منزل الاستاذ جعفر الخليلي . فاتقوا الله واشكروها له نعمة ، ولاخوانكم المحامين عنكم يداً كريمة . هؤلاء .. وأمثالهم كثيرون ، يعرفون اعذاركم ان جمدت أقلامكم وخفتت أصواتكم ، فلا يدينونكم ان نمتم على أمجادكم فترة في غفلة الدهر ، بعد ان وفيتم للعلى القسط والمهر .

ان أقرب الشواهد على عدم اكتراث المهاجرين بأدبهم في هذا الزمن هو هذا الكتاب الذي نقدّمه للقراء الآن في طبعته الثالثة . لقد باعت منه المكتبات في الاقطار العربية اربعة آلاف نسخة وطلبت المزيد . أما في المهاجر الاميركية فلم يقرأه من مليوني عربي إلاّ الذين أهديت اليهم نسخٌ منه . وقد شاء السيد المفضال يوسف اليازجي ان يعجم عود المهاجرين بعرض عشر نسخ منه في مكتبة اليازجي .. ففعل .. ولم تشجعه النتيجة على طلب غيرها . وكان في الاسواق كتاب من أنفس الكتب عن أدب المهجر ألّفه الاستاذ محمد عبدالغني حسن واستهلكت مصر منه ثلاث طبعات متوالية في ثلاث سنين . نرجح ان اخواننا المهاجرين لم يعرفوا هذا الكتاب ولا سمعوا به ، كأنما قُدّر لهذا الأدب أن لا تكمل سعادته من جميع النواحي . فحين ينبُه ذكره هنا يخمل شأنه هناك ، وحين يجدب نتاجه في المهجر تنصبّ عليه الدراسات في الوطن .

وبعد ، فلنختم الكلام بقول نظير زيتون :

« ما على الأدب العربي في العالم الجديد ، إذا انقطع عن التغريد ، بعد سبعين عاماً من الابداع والتجديد ، لا عليه أن يمضي إلى مصيره

المحتوم بعدما أيقظ النائمين ونبّه الغافلين وصال بطلاً عملاقاً في الميادين ، وفتح للفصحى فتحها المبين ، فان انقطع عنه الوحي أو كاد ، بعدما جاهد في سبيل العروبة أنقى جهاد ، فقد أدّى رسالته ، وصان للحرف كرامته وسلم للتاريخ أمانته » .

باريس ايلول ١٩٦٤ **جورج صيدح**

دليل القارىء
الى الجديد في هذه الطبعة الجديدة

١ – أضيف إلى الفصل الثاني عشر «أدباؤنا في الولايات المتحدة الشمالية» دراسات عن الدكتور أحمد زكي ابو شادي ، وصفية ابو شادي ، والدكتور جورج (ابو علي) خير الله ، وانيس بقلة ، وقيصر وحيد ، وراجي ظاهر ، وتوفيق فخر ، وامين زيدان . مع نبذات عن يوسف نعمان المعلوف ، وسليم العازار ، ونقولا حداد ، ويوسف الخال ، ومحمد علي الحوماني .

وأضيف إلى الفصل الثالث عشر «ادباؤنا في البرازيل» دراسة عن الدكتور حبيب اسطفان ونبذات عن انيس واكيم الراسي وجورج الخوري كرم وجبران سعادة وميكال هيكل نمر والأب برنردوس قزي وانطون انيس شكّور وشاهين معلوف وداود قسطنطين الخوري واسكندر شاهين .

وأضيف إلى الفصل الرابع عشر «أدباؤنا في الارجنتين» دراسات عن سيف الدين الرحال والامير امين ارسلان وسليم مفرج مع نبذتين عن سعاد مرهج وشاكر سلوم .

وأضيف إلى الفصل السادس عشر «أدباؤنا في فنزويلا» اشارة إلى

الشاعر فؤاد الخشن وإلى الكاتب خلدون نويهض .

وإلى الفصل التاسع عشر أضيفت دراسة عن محمد سعيد مسعود في كوبا.

٢ – ثمانية ابحاث لم تكن وافية في الطبعة السابقة فأعيدت كتابتها :

الفصل العاشر «شعر المباسطات» مع سبع دراسات عن امين الريحاني ، جميل معلوف ، فوزي معلوف ، ميشال نعمان معلوف ، الياس عبد الله طعمه ، نظير زيتون وجورج عساف .

٣ – التوسع في البحث جرى في مواضع كثيرة وأخصها في الفصول التالية :

الفصل الاول – قوافل المهاجرين . الفصل الخامس – التأثر والتأثير . الفصل الثاني عشر – في دراسات ايليا ابو ماضي وعبد المسيح حداد وتوفيق ضعون والياس فرحات وشفيق معلوف ونعمة قازان .

٤ – الوفيات بين عام ١٩٥٧ و ١٩٦٤ :

فقد المهجر الشمالي ايليا ابو ماضي ومراد ابو ماضي وعبد المسيح حداد والدكتور جورج خير الله وانجلينا دياب وقيصر وحيد ووديع باحوط .

وتوفي في البرازيل الشيخ وديع اليازجي ووهيب اسكندر عوده وداود شكور ورزق الله حداد وسعيد اليازجي ومدحت غراب .

وفي الارجنتين شاكر سلوم ويعقوب غطاس ونعمة النعمة وروفائيل بستاني وجورج عساف والدكتور جورج صوايا ورشيد رستم .

وفي المكسيك داود مجاعص والياس ملحم زخريا .

وفي الاكوادور الدكتور جورج قدوم .

مدخل المحاضرات

أتمنى لو انني الآن مستمعٌ بين المستمعين أصغي إلى أحد كبار المحاضرين الذين ألفوا هذا المنبر ، فأرتوي بأدبه وأستنير بعلمه . فأنا ما عدت من المهجر لأعلّم بل لأتعلم . ان مَن غادر وطنه العربي في مطلع الصبا وقضى عمره في أوساط أعجمية اللسان ، وفي أعمال لا تمتّ إلى الأدب بصلة ، يشعر متى عاد إلى داره بالمدى البعيد الذي يفصله عن قافلة الأدب الحديث ، وبالحاجة إلى مراجعة الكتب المدرسية لاستنباط القواعد والشواهد التي ركدت في ذاكرته على مرّ الزمن .

هذا الوضع ، الذي يعرفه الأستاذ ساطع الحصري مدير معهد الدراسات العربية العليا ، لم يحمله على حجب الثقة عني بل تفضل فدعاني إلى الكلام أمامكم في موضوع « أدب المهجر » وهو معتمد بلا شك على خبرتي — وقد عايشت أدباء المهجر ثلاثين عاماً — لا على أدبي وعلمي . فهو يتوقع أن أدلي اليكم بمعلومات مفيدة عن سيرة الأدب والأدباء في المهاجر ، لا أن أباهركم بالبيان البليغ أو بالنظريات العلمية والتحاليل الفلسفية . سأكون واقعياً في الدراسة ، أميناً للتاريخ ، أحصي وأسجل وألاحظ واستنتج غير متشبّث برأيي ، وأورد الشواهد التي على ضوئها تكوّنون رأيكم الخاص . ستسمعون في المحاضرة الأولى تاريخ الهجرة

مع بواعثها وتياراتها وحظ الأدباء منها ، مما يساعد على فهم الجو الذي نشأ فيه الأدب المهجري . ويليها تعريف لأدب المهجر كما أفهمه : نشأته ومراحل نموّه . أثره في الأدب العربي العام وفي الآداب العالمية . خصائصه ورسالاته ونواحي نشاطه . مآخذ خصومه عليه .

ثم أعكف على دراسة السير والآثار لكل أديب على حدة ، من شمال أميركا إلى جنوبها . حتى إذا فرغت من الأعلام البارزين ، عطفت على الأدباء المغمورين المتفرقين في مختلف الجمهوريات الاميركية ، أعرّفكم بهم ، وبأدبهم . وسوف أستشهد بشعري في بعض المواقف ولن أتحرّج ، شأن المؤرخ الذي يضع الأمانة في مقدمة الاعتبارات ويؤثر تهمة الاغترار بالنفس على تهمة التواضع المصطنع :

أنا يا نجوم الشرق ، يا ادباءه ما بينكم كفراشة المصباحِ
آليت بعد هيام عمري في الدجى أن استضيءَ ، ولو حرقتُ جناحي

ج. ص.

الفصل الأول

هجرة الأدباء

في تاريخ أجدادنا الأقدمين أمثلة من الهجرة مليئة ببوادر الشجاعة والبطولة والمغامرة والتضحية تغنى بها الشعراء ، فطارت أخبارها وازداد اغراؤها .

أول شاعر عربي رفع عقيرته بالدعوة إلى الهجرة هو الشنفرى في لامية العرب :

أقيموا بني أمي صدور مطيكم　　فإني إلى قوم سواكم لأميـل
فقد حُمّت الحاجات والليل مقمر　　وشُدت لطيات مطـايا وأرحل

والظاهر من كلام الشاعر انه نوى رحلة بعيدة المدى في جماعة من قومه . ولو كانت رحلته فردية عادية من الرحلات المألوفة عند محاضير العرب ، وهو أشهرهم ، لما وقف عندها ولا أشار إلى المطايا والأرحل ، بل كان امتطى قدميه واندفع يعدو من مكان إلى مكان دون استعداد

ولا استنفار . ها هو يعدد البواعث إلى الهجرة وفوائدها وهي أول دراسة في الموضوع تلقيها علينا الجاهلية :

وفي الأرض منأى للكريم عن الأذى وفيها لمن رام القلى متحوّل
لعمرك ما في الأرض ضيق على امرئ سعى راهباً أو راغباً وهو يعقل
لأستفّ ترب الأرض كي لا يرى له عليّ من الطَول امرؤ متطول

إذاً فالدوافع إلى الهجرة لم تتغير بتغير الأزمان : السلامة من الأذى . اجتناب الأحقـاد . الخوف من العدوان . السعي وراء الآمال . وأخيراً الانفة من الذل ومن مَنّ المتطولين .

وسمعنا بعده الطغرائي يقول في لامية العجم :

إن العلى حدثتني وهي صادقـة في ما تحدث ان العز في النقل
لو أن في شرف المأوى بلوغ منىً لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

والإمام الشافعي يتشدد في الدعوة إلى النزوح عن الأوطان :

ما في المقام لذي عقل وذي أدب من راحة فدع الأوطان واغترب
سافر تجد عوضاً عمن تفـارقـه وانصب فإن لذيذ العيش في النصب
إني رأيت ركودَ المـاء يفسده إن سال طاب وان لم يجر لم يطب
والتبر كالترب ملقى في أماكنـه والعود في أرضه نوع من الحطب

وقال في موضع آخر :

إذا قيل في الأسفار ذل ومحنـة وقطع الفيافي واقتحام الشدائد

فموت الفتى خير له من حياته | بدار هوان بين واشٍ وحاسد

وعقبه أبو تمام بالمعنى ذاته :

وطول مقام المرء في الحي مخلق | لديباجتيه ، فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة | إلى الناس إذ ليست عليهم بسرمد

ومن طالع مقدمة ابن خلدون يذكر الباب الذي حض فيه فيلسوف العرب على الرحلة في طلب العلم للاجتماع بالعلماء الاعلام والاستفادة من علمهم وأدبهم وتجاربهم . فكان أول من دعا إلى ايفاد البعثات العلمية في دنيا العرب .

ويلوح لنا أن جميع هؤلاء الشعراء والحكماء الذين حبذوا الهجرة لم يقدموا عليها ويجربوها بأنفسهم بل شاهدوا الحرب بالنظارات . انهم لم يسمعوا زفرة ابن زريق البغدادي الذي ارتحل من بغداد سعياً إلى الرزق في الأندلس فأخفق ومات غماً :

ما آب من سفرٍ إلاّ وأزعجه | عزم على سفر بالرغم يزمعه
تأبى المطالب إلاّ أن تكلفه | للرزق سعياً ولكن ليس يجمعه
كأنما هو في حلٍّ ومرتحل | موكّل بفضاء الله يذرعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة | رزقاً ولا دعة الإنسان تقطعه

ذلك أن دعاة الاغتراب عن الوطن يفترضون الهجرة سياحة موقتة هدفها الاستفادة من ثمرات الأرض الغريبة ومن علوم سكانها ثم العودة إلى الدار للتمتع بالفائدة الحاصلة ، وهم يفترضونها أيضاً مفلحة على طول الخط كأن وراء كل سعي حثيث نجاحاً مؤكداً ينتظره .

ما أبعد هذا الافتراض عن واقع الهجرة في العصر الذي نعيشه . هجر لبنان مليون من أبنائه ومضى قرن كامل على هجرتهم . فلنسأل كم كان عدد الناجحين من المليون ؟ واحداً في المئة ؟ وكم كان عدد العائدين ؟ واحداً في الألف ؟

أما الباقون فلا يزالون في المهاجر يدافعون أشباح الفاقة والعوز في أعمال تستنزف العافية والشباب ولا تفتح باباً لحياة أفضل . ان وراء كل مثر عظيم يعود إلى وطنه بالجيب العامر والسيارة الفخمة مئة من الفاشلين يقاسون شظف العيش ويمارسون أحط المهن ، تمنعهم كبرياؤهم من العودة إلى ديارهم فقراء أذلاء .

رأيناهم يطوفون « بالكشة »[1] على أبواب المنازل كالمتسولين أو يعملون في كنس الشوارع أو نقل أمتعة المسافرين .

ومن أوجع المشاهد أن نرى في عاصمة الارجنتين مغترباً عربياً يمسح الأحذية في المقاهي . فان قلت له ان عملاً كهذا ميسور في الوطن ، أجابك : كيف أعود إلى أهلي بيد فارغة .

وأدباؤنا في المهجر — إذا استثنينا أفراداً معدودين شذّوا عن القاعدة — هم من فريق الفاشلين من الناحية المادية . تعضهم الحياة بنابيْن : ناب الوحشة وناب الحرمان . وقد يتعود الأديب حياة الفقر في داره ، أما في دار الغربة فلا يطيقها ، ولا تنفعه في مرارة الواقع حلاوة الخيال . فإن حدثته عن العز في النُقل ، وطيب الماء في الجريان ، وشرف الشمس في الدوران ، وقيمة التبر في النزوح عن منجمه ، هز رأسه وقال لك : إن الذي يتلقى الضربات غير الذي يعدّها . ولو كان في معين الشعر ما يشفي غلة الأدباء لما تطرق اليأس إلى قلب الشاعر القروي فقال :

---

[1] الكشة هي صندوق من الزنك يحتوي على أنواع من الخردة الرخيصة يشده البائع المتجول إلى ظهره بسيور من الجلد .

هل بينكم من راحمٍ قاتل يزحزح الأيام عن كاهلي ؟
يقذف بي في درك اللج لا يلفظني موج إلى ســاحل

هجرة أبناء العرب إلى العالم الجديد كانت ضرورة لامهرب منها في ظروف خاصة . ثم أصبحت مغامرة لا مبرر لها عندما تغيرت الظروف . كانت وسيلة للنجاة من ضائقة فأصبحت غاية بعد انفراج الضائقة . كانت انتقالاً موقتاً فأصبحت استقراراً دائماً . كانت دواء لعلة عارضة فأصبحت داءً مزمناً يتعذر شفاؤه .

والمهاجر العربي خسر نفسه ، أو هو في طريق خسارتها عاجلاً أو آجلا . « وماذا ينفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه » . والوطن العربي بدأ يحس ألم الخسارة التي نكب بها ، فهو أحوج ما يكون إلى القوى الحية التي راحت تعمر وتبدع في بلاد الغرب ، وهو أحق من الأجنبي بمدد أبنائه في حومة الدفاع عن كيانه ، فالسبعون الف محارب الذين تطوعوا في الجيش الأميركي أثناء الحرب الأخيرة ، لهم مكان مهيأ على حدود فلسطين ، وأمامهم مهمة أشرف من تلك التي ضحّوا بأنفسهم في سبيلها . قال القروي :

ردّوا إلى الوطن القديم ترابــه هــذا أقــل البرّ يا غيّابـــه
ذاك الإهاب الغض تحت ثيابكم بالأمس كــان إهــابه وثيابــه
تتعجبون لضعفــه ولو انكم فيــه لكنتم جنده وحرابـــه
ليت الأحبة عند ازماع النوى للغرب أغلق دونهم أبوابـــه
أو ليت بر الشام أدرك أن في سفر الزنود العامرات خرابه

* * *

ما أسخف البلد الذي يباهي بأن أبناءَه يبنون في الغرب ناطحات السحاب بينما ضياعهم في الوطن خاوية خالية ينعب فيها الغراب ، وانهم

يولدون في الأكواخ ويموتون في القصور . وما أتعس الشعب الذي يتضاءل في بلاده ويتعاظم في بلاد الناس . وما أحقر السياسة الانعزالية التي تصطنع للسكان حدوداً في مساحة تضيق بهم وتأبى أن تفتح لهم حدود البلاد العربية المجاورة فتكفيهم وتكفي الوطن شر الهجرة الاضطرارية .

تود اليوم الحكومات العربية التي ينتمي اليها المهاجرون لو تسترجعهم إلى أرض الوطن ، فتتوسل إلى ذلك بالتصاريح المزوقة والوعود المشوقة حيث يلتقي حسن النية بقصر النظر . فعودة المغتربين هي غربة ثانية بالنسبة اليهم . لقب توثقت الصلات التي تربطهم بالمهجر ووهت صلاتهم بالوطن الأم في عشرات السنين التي مضت . فإن عادوا اليه لم يجدوا فيه الأواصر والأرحام التي جزعوا للانسلاخ عنها يوم هجرتهم وكانت مناط حنينهم في غربتهم . قلت في وصف المغتربين العائدين :

رب كهل عاد منهوك القوى	كان يوم البين طلاّع الثنايا
لم يجد من عهده في قومه	باقياً غير المخازي والشكايا
أكلَ الدهر على أترابه	فإذا عفّ فعن بعض النفايا
اللذاذات التي يشتاقها	أصبحت في أرذل العمر رزايا
والصبايا إن ترفقن به	قلن يا شيخ اجتنب برد العشايا
ولقد ينكره الأهل إذا	لم تعرّفه بأهليه العطايا
يا لها من غربة ثانية	في صميم الدار ما بين الولايا

هذه الغربة الثانية لا يُقدم عليها المهاجر ما لم تتوفر فيها ذات الحوافز التي حفزته للغربة الأولى . أعني الحوافز الاقتصادية . ومتى اصطرعت المصلحة مع العاطفة كانت الغلبة للأولى – ولو كره الشعراء .

قال القروي :

غريب الاماني في بلاد غريبة   فما ليَ أوطان ولا ليَ مهجر

وقال أخوه الشاعر المدني ، نزيل البرازيل :

يا برازيل لو دعتني بـلادي   يوم لاعـذر لي سوى أن أسافرْ
لست أدري وقد بذرتُ شبابي   فيك هل عائد أنا أم مهاجرْ ؟

« لو دعتني بلادي » خاطرة خطرت للشاعر وتركته حائراً بين الرجوع إلى مسقط رأسه ومرتع صباه وبين البقاء حيث بذر الشباب وأنجل الأولاد وأمّن لنفسه ولعائلته كفاف العيش . ونحن نرى أن لا موجب لحيرته لأن بلاده لن تدعوه وحكومة بلاده في شاغل عنه بمغازلة المغتربين الأغنياء ، تطمع باجتذاب أموالهم اليها ، إن صدّقوا تصميمها على التعاون معهم في مشاريع سرابية قيل انها تفيدهم وتفيد البلاد .

ولكنها في نشوة المغازلة تسعى إلى عكس ما تريد : تنشر الأنباء المثيرة عن ثرواتهم الضخمة وسلطانهم المديد فتشجّع المقيمين على المغامرة اقتداء بهم . ويسمع المهاجرون القدامى من أفواه القادمين أخبار الأزمات والفضائح والجرائم والفوضى الضاربة أطنابها في الوطن ، فينتزعون من أذهانهم فكرة العودة — حتى فكرة الزيارة العابرة لأرض الوطن .

أجدر بالحكومات أن تقلع عن المساعي العقيمة وتقبل بالأمر الواقع . ان المغتربين لن يعودوا . ولم يبق من مطمع للوطن إلا استبقاء الصلات بينه وبينهم والاستفادة من وضعهم الممتاز في تحسين حاله ، داخلياً وخارجياً : الاستفادة الداخلية هي استدرار مال المغتربين لمعونة أهلهم

المتخلفين وللمساهمة بالمشاريع العمرانية . والاستفادة الخارجية هي استغلال نفوذ المغتربين في استمالة الحكومات التي يعيشون في ظلها إلى جانب العرب في القضايا السياسية . ومعلوم أن لهذا الاستغلال مقدمات من الدعاوة والتوجيه بخلت بها الحكومات على المغتربين ، فأضاعت فرصة الاستفادة من نفوذهم . نذكر حادثة تاريخية واحدة على سبيل المثال : شاءت حكوماتنا أن تؤمن أكثرية الأصوات في الاقتراع على تقسيم فلسطين في جلسات الأمم المتحدة فأوفدت مندوبها [1] إلى جمهوريات اميركا اللاتينية في الشهر السابق لجلسة الاقتراع لكي يفاوض حكوماتها بهذا الشأن . وقد عاد من المفاوضات خائباً لأن اليهود سبقوه في المساعي وما كانت مساعيهم مرتجلة مبتسرة كمسعاه . وبفضل هذا السبق تقرر تقسيم فلسطين بأكثرية خمسة أصوات . ويعلم الله أن المغتربين العرب في اميركا اللاتينية كان في مقدورهم اكتساب عشرة أصوات بدلاً من خمسة لو وجهتهم الحكومات العربية إلى الغرض المنشود في الوقت المناسب ، ووفرت لهم وسائل الدعاوة الفعالة التي كانت متوفرة لليهود ، أو لو أهابت بأبنائهم أعضاء المجالس النيابية في تلك الجمهوريات ، وعددهم يقرب من ثلاثمائة نائب ، بأن يطرحوا القضية للمناقشة العلنية ويحولوا دون الاتفاقات السرية بين اليهود وبين الحكام المرتشين .

يظن المغتربون — وبعض الظن إثم — ان حكوماتهم لا تزودهم بالتوجيه ولا تمكنهم من وسائل الدعاوة لأن أدوات الدعاوة والتوجيه في المهجر

---

١ الدكتور فيكتور خوري سفير لبنان في لندن وقتئذ وسفيره اليوم في باريس ، كانت محطته الأولى كراكاس ، عاصمة فنزويلا ، في شهر آب سنة ١٩٤٧ . وكان من لطائفه في المأدبة الترحيبية التي استقبلناه بها ان أحد الحضور من انصاف الأميين نسفه خطاباً خنفشارياً بلا قافية ولا وزن سماه قصيدة ، وقدم للسفير صورتها ، فشكره السفير قائلا : « نسخة واحدة لا تكفي ، أحتاج إلى نسختين لكي أحتفظ بواحدة وأرسل الأخرى إلى حكومتي » .

هي أقلام الأدباء المهجريين . فكيف تلجأ إلى هؤلاء الأدباء وهي تتجاهل وجودهم ؟ وانها لا تتعاون مع أصحاب النفوذ منهم خوفاً من أن يمتد نفوذهم إلى أرض الوطن ويزاحم المقيمين على منصب الحكم .

نحن لا نؤكد هذا الزعم ولكننا نؤكد أن الإهمال – مقصوداً كان أو غير مقصود – جنى على الجوالي المغتربة جناية لا تغتفر . ففي اليوم الذي أعلن فيه تقسيم فلسطين وُلدت في المهاجر الجوالي الاسرائيلية بين ليلة وضحاها وانضم اليها اليهودي الحلبي والدمشقي والبيروتي ، متنكرين لأبناء العرب الذين كانوا إلى الأمس جيرانهم وعشراءهم وشركاءهم في الأعمال التجارية ، وجعلوا يشمتون بهم ويتغطرسون عليهم[1] . فشمخت رؤوس وتطأطأت رؤوس . وفي ذلك يقول فرحات :

بالأمس كنت إذا لقيت مفاخـراً ... فاخرتـه متشامخـاً اتبسـم
إن قال ممن أنت ؟ طرت حماسة ... وحـدجته بلواحـظ تتضرم
وأجبته – من أمـة جبـارة ... تفنى إذا غُزيت ولا تستسلم
فإذا سُئلت اليوم غالبني الحيا ... فسترت وجهي وانثنيت اتمتم
ماذا أقول وفي الفؤاد مرارة ... منهـا يسيل على اللسان العلقم

في كل بلد أوروبي بلغ فيه عدد المهاجرين العشرة في المائة من سكانه أنشئت وزارة خاصة تعنى بشؤونهم . أما في بلادنا فلا وزارة للمهاجرين في لبنان وقد هاجر منه نصف سكانه ولا وزارة في سورية وقد هاجر منها واحد من كل سبعة مواطنين .

أما مصر العزيزة فقد كفاها الله شر الهجرة . أفاض على أرضها

---

١ على اثر اعلان دولة اسرائيل تجمع اليهود العرب من أبناء دمشق المقيمين في المكسيك وأسسوا وحدهم لجنة فرعية صهيونية جمعت على الفور ٢٨٠ الف دولار وشهرتها حرباً عواناً على أبناء الجالية العربية . وجرى مثل ذلك في سائر الجمهوريات الاميركية .

خيرات النيل ، وعلى شعبها فضيلة القناعة تعصمه من نزوة الاغتراب .
لم أتعرّف في هجرتي الطويلة إلا إلى أديب مصري واحد هو الأستاذ سيف الدين الرحال المقيم في عاصمة الأرجنتين ، ولم أقرأ آثاراً أدبية لمغترب مصري سوى لمحمود الشريف المقيم في عاصمة البرازيل . أما الأديب الكبير الدكتور أحمد زكي أبو شادي فلا يدّعيه المهجر لأنه جاءه بأدب ناضج ترعرع في الكنانة وأنتج فيها أروع الآثار قبل النزوح عنها ، فكل كلام عن المهاجرين العرب يعني اللبنانيين وهم الكثرة الكاثرة (في ما عدا الأرجنتين) ويليهم السوريون فالفلسطينيون فنزر قليل من أهل العراق .

قوافل المهاجرين

أول من طرق المهجر الأميركي الشمالي للأقامة فيه هو أنطون البشعلاني اللبناني [١] عام ١٨٥٤ أقام في نيويورك ومات فيها . فنحن أمام تاريخ قرن كامل للهجرة اللبنانية . ثم تبعه أفراد من سكان سوريا ولبنان بعد الحادثة المعروفة بمذبحة سنة الستين .

قرأنا خبراً نشرته وكالة الانباء الاميركية في كونغتون عن وفاة تاجر لبناني اسمه جيمس بدور عن اثنين وتسعين عاماً تاركاً سلسلة مستودعات عددها سبعون للملابس الجاهزة . وقالت انه وصل إلى العالم الجديد عام ١٨٦٩ ومات عام ١٩٥٩ فكأنه أقام تسعين عاماً في اميركا ولم يكن عمره يوم دخلها سوى عامين . ذلك يعني انه كان مصحوباً بعائلته

١ حقق الدكتور فيليب حتّي ان القس الموصلي الياس بن حنا قام برحلة إلى اميركا بين عام١٦٦٠ وعام ١٦٨٣ وكتب عن رحلته فصلا نشرته مجلة الشرق عام ١٩٠٦ . ولا نعتبر ان الهجرة العربية بدأت به لأنه كان زائراً لا مهاجراً .

التي لا نعلم عنها شيئاً ، ولولا الثروة العظيمة التي أصابها لما نقلت الصحيفة أخباره .

وعلمنا من الآثار المكتوبة التي وقعنا عليها ان أقدم الأدباء هجرةً كان لويس صابونجي لأنه سجّل رحلته إلى نيويورك في قصيدة تاريخها عام ١٨٧٢ وصف فيها السنترال بارك ونشرها في ديوانه « النحلة » الذي صدر في الاسكندرية عام ١٩٠١ .

وبعده وقعنا على ديوان شعر صدر عام ١٨٩٥ في نيويورك لميخائيل رستم والد الشاعر المشهور اسعد رستم ، وهو جزءان وعنوانه « الغريب في الغرب » . ومرّ عقدان من السنين بعد ذلك لم نسمع فيهما من المغتربين سوى الأزجال اللبنانية . وقد تكاثر عدد المهاجرين على اثر الثورة العرابية عام ١٨٨٢ لما لجأ اللبنانيون والسوريون المقيمون في مصر إلى البواخر البريطانية فأقلتهم مجاناً إلى موانئ فرنسا وايطاليا ، ومنها استأنفوا السفر إلى كندا والولايات الشمالية . وأول من وصل منهم إلى اوستراليا كان عام ١٨٧٨ . وحصلت في تلك الفترة من الزمن هجرة طريفة هي هجرة الجمال العربية . يقول الجنرال ماك آرثر نقلاً عن أبيه الكابتن ماك آرثر ، إن الحكومة الاميركية استوردت الجمال من بلاد العرب عام ١٨٨٥ ، واستعملتها وسيلة للنقل في تعمير صحارى الاريزونا ولحمل المدافع الخفيفة في الحرب الأهلية . واعترافاً بفضلها أقاموا لها تمثالاً نحاسياً يمثل الجمل « خان » الملقب بسفينة الصحراء (رواية يعقوب عودات في كتاب الناطقون بالضاد في اميركا الشمالية) .

ومن الثابت ان هناك قافلة جمال عربية سبقت تلك الهجرة لأن تاريخها يرجع إلى عهد الرئيس أندرو جاكسن أي حوالي عام ١٨٣٠ . والدليل على ذلك ان امير مسقط حينما زار الولايات المتحدة بدعوة من الرئيس روزفلت عام ١٩٣٨ اعتبر قدومه رداً لزيارة مندوب الرئيس جاكسن الذي جاء إلى مسقط وعُمان واشترى عدداً من الجمال عاد بها

إلى امبركا مع عدد من الخدم الاعراب للعناية بها ولاستنسالها . ويتحدث الناس في واشنطون ونيويورك عن الحفاوة الملكية التي لقيها امير مسقط وحاشيته الكبيرة أثناء تلك الزيارة وعن سفره إلى المنطقة الصحراوية في اريزونا حيث أقام الجمال والرعاة في سابق الزمان ، أي قبل أن تعرف نيويورك الوجوه العربية بربع قرن .

وقد سبق أهلُ فلسطين اللبنانيين إلى الهجرة بصورة مصغرة ولكنهم لم يستقروا جميعاً في البلدان التي نزلوها كما فعل اللبنانيون . كانوا يزورونها حاملين المسابح والايقونات والتعاويذ المصنوعة في فلسطين لبيعها من المؤمنين المتعبدين . وبعد ان طافوا ثغور البحر المتوسط اجتذبهم معرض شيكاغو عام ١٨٩٣ فأموا امبركا الشمالية واستطابوا الأرباح فمكث بعضهم فيها والبعض توغل في الجمهوريات القريبة كالأكوادور وكولومبيا ، ثم في البعيدة كالبيرو والاوروغواي والبرازيل والارجنتين والشيلي . بينما اتجه أكثرهم إلى امبركا الوسطى حيث ندر ان تجد غير الفلسطينيين في الجوالي العربية هناك . وهم الآن كثرة فيجمهورية شيلي لهم المقام الأرفع في عالم الصناعة والتجارة .

وزحفت إلى شواطئ أمبركا موجات الهجرة من جبال العلويين وحمص وحماه وحلب ودمشق ، حيث السكان أكثر عوزاً وضنكاً وتعرضاً للاضطهاد المذهبي ، فاشتدت وضعفت المهاجرة تبعاً لقوة ذلك الضغط لا لنسبة عدد السكان . لذلك نرى أن عدداً النازحين من حمص وحماه أكثر من عدد النازحين من دمشق وحلب . واعتاد المغتربون السوريون الاقامة في العواصم والمدن فلم يخشوشنوا ويركبوا الأخطار كاللبنانيين الذين يتوغلون في مجاهل البلاد ويعمرون المزارع الغامرة ، وقد صدق فيهم قول شكري الخوري في جريدة « ابو الهول » : لو كان للقمر طريق لكنت ترى لبنانياً حاملاً « كشته » صاعداً اليه وخلفه لبنانياً شكَّ دواته في زناره لينشئ مدرسة أو جريدة في القمر . وقد وصفهم الشاعر صيدح بقوله :

رب أحجار بها الشرق ازدرى | أصبحت في حائط الغرب دعامه
وعظيم شاب في دار النوى | لن تلاقي داره إلاّ عظامه
كمت الأوطان فاه فاعتلى | منبر المهجر يستوفي كلامه
من رآه في المفازات رأى | أسداً يستنجز الغاب طعامه
وله أجنحة النسر إذا | نفر الرزق ، وأطراف النعامه
كيف يرتاح وتذكار الحمى | كلما أقعده الجهد أقامه
كم هذى مستصرخاً لبنانه | وكم استعدى على البين شآمه
وتأسى بالليالي سترت | دمعه الجاري على خد الكرامه
يبعث المال سلاماً للحمى | فالحمى يأبى بلا مال سلامه

لم يتجه المهاجرون ناحية أميركا الجنوبية إلاّ بعد وصولهم إلى الشمال بعشرين عاماً . وأقدم هجرة إلى البرازيل كانت عام ١٨٧٤ حين وصلها شقيقتان لبنانيتان من عائلة زخريا وتبعهما خمسون مهاجراً آخرون في الأعوام العشرة التالية . ويُحكى ان لبنانياً اسمه يوسف موسى مزيارة وصل إلى البرازيل على مركب شراعي عام ١٨٨٠ ، ولم يتكاثر عدد المهاجرين في البرازيل إلاّ في نهاية القرن بعد أن عُقدت معاهدة المهاجرة بين الحكومة العثمانية وحكومة البرازيل على أثر زيارة الامبراطور بطرس الثاني لفلسطين ولبنان[1] ، وبعد أن فشلت ثورة يوسف بك كرم في لبنان فهرب فريق من جنوده إلى اميركا الجنوبية .

وفي العام الثمانين وصل أول مهاجر فلسطيني إلى تشيلي اسمه الياس جبرائيل دعيق . وبعد عامين وصلت طلائع المهاجرين إلى البيرو

---

١ ذكر الاستاذ أكرم زعيتر في كتابه « مهمة في قارة » انه رأى في المتحف الامبراطوري في بترو بوليس القريبة من عاصمة البرازيل كتباً عربية أهداها الشيخ ابراهيم اليازجي إلى الامبراطور بدرو الثاني وكتب عليها كلمة الاهداء شعراً بخطه . والمعروف ان الامبراطور المذكور كان يعرف العربية .

وكولومبيا ، وكان سانتياغو صوما عواد أول مهاجر إلى المكسيك عام ١٨٨٢ وفي العام الرابع والثمانين وصل أول مهاجر لبناني إلى الارجنتين واسمه ميخائيل ملحم السمعاني .

وكان أن اتجهت سياسة حكومة الأرجنتين إلى تنشيط المهاجرة اليها توسلاً لاستثمار أراضيها الزراعية الواسعة ، فاستنبطت وسائل فريدة لاجتذاب السواعد القوية من أوروبا وآسيا وفتحت أبوابها للمهاجرين العرب ، فأقبلت قوافلهم غفيرة متتابعة حتى زاد عددهم على ثلاثمئة ألف . والظاهر أن وفرة الخيرات في الارجنتين وتشابه المناخ والعادات وسهولة التعايش مع النزالات الأجنبية التي استوطنت البلاد ، حملت أبناء سورية على إيثار هذا المهجر فتكاثروا فيه واستطابوا عيش القناعة الهنيء .

ليس موضوعنا تاريخ الهجرة بجميع مُلابساتها ، ولكن علينا أن نشير إلى كل ملابسة ، إقتصادية كانت أو اجتماعية ، تمتّ بصلة إلى حياة أدبائنا المهاجرين حتى نلمّ بالمؤثرات التي تحكمت في نشأة أدبهم وتطوره. فنبادر إلى القول إن البيئة الاميركية في المهجر الشمالي كانت أقوى وأفعل في نفوسهم منها في المهجر الجنوبي ، فلم يصمد الطابع العربي لعوامل الانحلال في الشمال كما صمد لها في الجنوب ، ومثله العاطفة الوطنية .

إن أدباء الشمال أثبتوا وجودهم بمؤسسات انشأوها قبل انتهاء القرن الماضي . فصدرت أول جريدة لهم في نيويورك عام ١٨٨٨ وهي كوكب اميركا لأولاد عربيلي ، وبعدها جريدة العصر لنعوم مكرزل عام ١٨٩٤ ثم جريدة الأيام ليوسف نعمان المعلوف عام ١٨٩٧ ، وتبعتها عام ١٨٩٨ جريدة الهدى لنعوم مكرزل . يقابلها خمس جرائد صدرت في البرازيل ما بين عام ١٨٩٥ وعام ١٩٠٠ هي : الفيحاء لسليم بالش ١٨٩٥ ، والرقيب لنعوم لبكي واسعد خالد ١٨٩٧ ، والبرازيل لقيصر ابراهيم معلوف ١٨٩٨ ، والمناظر لنعوم لبكي ١٨٩٩ والصواب لمخائيل مراد عام ١٩٠٠ .

وقد وقع اختيار المهاجرين الأوّل على الأحياء المهملة يتكتلون فيها ويعرضون على أرصفتها عاداتهم وتقاليدهم (النرجيلة وطاولة النرد والمأكولات الشرقية) . تجمعوا في نيويورك في شارع واشنطون . وفي بوسطن في الحي الصيني . وفي سان باولو في شارع ٢٥ دي مارسو . وفي ريو دي جانيرو في شارع الفانديكا . وفي بونس ايرس في شارع ريكونكستا . وفي نيويورك تروى النوادر عن منازعات كانت تقوم بينهم وبين جيرانهم في الحيّ ، من مواطنين وغرباء ، وعن مناوشاتهم مع الايرلنديين المعروفين بالبخل .

في هذا المحيط ترعرع أبو الأدب المهجري ، أمين الريحاني ، وعميده جبران خليل جبران .

وأول جمعية اتصل بنا خبر تأسيسها في نيويورك هي الجمعية السورية المتحدة عام ١٩٠٧ ثم تكاثرت الجمعيات بتأثير حوادث البلاد العربية ، ما بين سورية وفلسطينية ولبنانية وانشأت فروعاً عديدة تسمت بأسماء ابطال الثورة العربية . واندمجت أخيراً في أحلاف ثلاثة تجمع كل المتحدرين من أرومة عربية . وبقي معهد الشؤون العربية الاميركية يرعى مصالح الدول العربية ويوالي النشرات والمحاضرات وإذاعات الراديو بإشراف شخصيات عربية كبيرة مثل حبيب كاتبه واسماعيل الخالدي والدكتور خليل طوطح . وكان للنزالة العربية نادٍ كبير اشترته بالتقسيط ، وبعد أعوام توقفت عن دفع الأقساط فاسترجع صاحب الدين العقار . وظلت هذه الجالية الكبيرة بلا ناد تجتمع فيه ولا منبر تقف عليه . وأصبحت تعقد الاجتماعات عند الحاجة اليها في الفنادق والمطاعم .

وفي تلك الأثناء كانت الجوالي العربية في الجنوب تشيد المباني الضخمة لأنديتها وأكبرها النادي الحمصي والنادي السوري ونادي جبل لبنان الرياضي ومنتدى حلب في سان باولو . وهي مؤسسات لا مثيل لها في الشرق من حيث الفخامة والاتساع وتوفير الوسائل الكفيلة بحاجات العصر

في حقول الثقافة والرياضة والاجتماع . وكانت تبني الملاجئ والكنائس ودور الأيتام وتتعهد المدارس العربية بالرعاية والاقبال . وهذا الازدهار في الحياة الاجتماعية رافقه ازدهار في الحياة الأدبية . كما تبع زوال المؤسسات العربية في الشمال خمول في الانتاج الأدبي .

بواعث الهجرة

عدّد المؤرخون الأسباب التي حدت أبناء العرب إلى هذه الهجرة الجماعية فقالوا : طموح كامن في طبيعتهم منحدر اليهم بداهة واستطراداً من أجداد جابوا القفار وخاضوا البحار . وقالوا : مرونة وقدرة على الاقتباس والتكيف السريع في أي محيط غريب نزلوه ، فرضها عليهم الموقع الجغرافي وأرهفها الاختلاط الكثير بالغرب . وقالوا : هو ضيق المجال في بلد صغير المساحة كثير السكان صخري التربة . وقالوا : هي السياسة التركية التي جعلت شعارها : فرّق تسد ، فجعلت الدين فارقاً بين أبناء الوطن الواحد . وقالوا : هي مظالم الولاة واستبداد الاقطاعيين وفقدان الحرية والأمان .

صحيحة كل هذه العوامل ، ولكن العامل الأهم والأقوى هو العامل الاقتصادي . فقر وحرمان لم ينفع في مداواتهما جهد ولا نشاط ، في وسط رجعي النزعة وفي ظل حكومة غاشمة ، تستحل الأرزاق وتهدد الأرواح . فالفلاح الذي لا تعرف قدره اللحم إلاّ مرة في العام ، وغرفته المظلمة تضيق بالزوج والأولاد والبهائم ، ورزقه مباح للحاكم ولرجل الدين ، يسمع الأخبار عن بلاد بعيدة تدر الخيرات وتؤمن الحريات فتنتابه رعشة تسري في مفاصله وتجعله كالمحموم يهذي بكلمة الهجرة ويعلق عليها كل أمانيه .

ويقيناً لو أتيح لهذا المحموم معرفة الغيب وتمثلت له الأهوال التي تنتظره في السفر ، والمصاعب التي ستعترضه في المطاف ، لعدل عن الهجرة رغم كل العوامل القاهرة التي دفعته اليها :

لقد سمعنا أبو ماضي يسوّغ هجرته بقوله :

لبنان لا تعذل بنيك إذا همُ ... ركبوا إلى العلياء كل سفين
لم يهجروك ملالةً لكنهم ... خُلقوا لصيد اللؤلؤ المكنون
لمّا ولدتهمُ نسوراً حلّقوا ... لا يقنعون من العلا بالدون
والنسر لا يرضى السجون وان تكن ... ذهباً . فكيف محابس من طين ؟
الأرض للحشرات تزحف فوقها ... والجو للبازي وللشاهين

سامح الله شاعرنا على تعريضه بإخوانه المتخلفين في هذا البيت الأخير. فما كلهم حشرات تزحف في أرض الوطن ، ولا كل النازحين بزاة تحلق في الجو ، ولكن أعذب الشعر أكذبه .

ولم يمض وقت طويل على وصول « أبو ماضي » إلى المهجر حتى تبدل رأيه في الهجرة فقال :

نحن في الأرض تائهون كأنا ... قوم موسى في الليلة الليلاء
ضعفاء محقّرون كأنا ... من ظلام والناس من لألاء
واغتراب القويّ عزّ وفخر ... واغتراب الضعيف بدء الفناء

هذا هو القول الصواب . وما أسمى الشاعر إذا جاء بأعذب الشعر وأصدقه .

ووقف الشاعر القروي وهو في ريق الشباب يودع قريته في لبنان :

أبَيت جوارها أرضاً بغير الذلّ لا ترضى
بلاد خسْفها أمسى على أبنائها فرضا
أجس يد الرجاء فلا أحس لقلبه نبضا

حتّى إذا ازف الرحيل واستشعر الفراق ، أخذته الحيرة فقال :

نصحتك يا نفس لا تطمعي وقلت حذار فلم تسمعي
فإن كنت تستسهلين الوداع كما تدّعين ، إذاً ودّعي
رزمت الثياب ، فلِم تحجمين وفيم ارتعاشك في أضلعي
سأقضي بنفسي حقوق العلى وارجع ، فانتظري مرجعي

وها هو ذا بعد أربعين عاماً في غربة داجية يتأكله الندم وتفضحه الشكوى :

ناء عن الأوطان يفصلني عمن أحب البر والبحر
في وحشة لا شيء يؤنسها إلاّ أنا والعود والشعر
حولي أعاجم يرطنون فما للضاد عند لسانهم قدر
ناس ولكن لا أنيس بهم ومدينة ، لكنها قفر

وفرحات ، ماذا غنم من هجرته ؟ أما لازمه الفقر في غربته كما لازمه في وطنه :

إني لأحمل ثقل الفقر منتصباً عالي الجبين والقى الدهر مبتسما
وليس فقريَ طفلاً عمره سنة لكنه توأمي لما نَمَوْتُ نما

أتراه كان يغادر لبنان لو كاشفته النجوم بما تخبئه له حياة الغربة من مفاجآت قاسية ؟

لقد وجد نفسه في حالة يحسد معها أصدقاءه على كسرة يأكلونها وقطرة يشربونها فكتب اليهم من داخل البرازيل :

هنيئاً لكم حول الخوان اجتماعكم	وصاحبكم يطوي الفيافي بلا زاد
وعندكم المـــاء النمير مسيلـــه	جزاف على وجه الثرى وانا صاد
وأولادكم في الجوخ تدفا جسومهم	فما همكم أن يقتل البرد أولادي ؟
فما شفعت بي نزعـة عربيـــة	ولا أدب تاهت بـه لغـة الضـاد
ولا وطن ناء لنا في ترابـــه	بقية آبـــاء كرام وأجـــداد

ونسيب عريضه ، لاقى من أثقال الحياة في الغربة ما حبّب اليه حياة الوطن على علاتها :

أحبّ بلادي وإن لم أنم	قرير الجفون بأحضانهـــا
فكم أنّت النفس من يأسها	وناءت بأثقـــال أشجانهـــا
تود الرجوع إلى عشها	وليس الرجوع بإمكانهـــا

لقد انفطر قلبه لمجرد تخيله الأم الجائعـة وهي تهدهد طفلهـــا في السرير :

ظلام الليـــل قـــد جنّـــا	وبوق الهمّ قـــد رنّـــا
فنم يـــا طفـــل لا يهنـــا	غـــنيٌّ بات شبعـــانـــا !
الا يـــا هـــمّ يكفينـــا	لقـــد جفّت مآقينـــا
لو ان الدمـــع يغذونـــا	أكلنـــا بعـــض بلوانـــا

أيّ تعس ذاك الذي جعل الشاعر الإنساني المفضال يدعو على الغنيّ الشبعان . لو جاع الشاعر لما أطلق لنقمته العنان ولكن الجائع هو ولده ، وليس لديه ما يغذوه إلا البلوى ، فيتمنى لو أطعمه بعض بلواه ، لا كل بلواه لأنه يراها كبيرة جداً ، أكبر من أن تهضمها معدة الطفل .

وهذا ندره الحداد شبّ وشاب في نيويورك ، فلنسمع ترنيمته في الشيخوخة :

وقفتْ مطايانا فليس لها حاد وليس بنافع زجر
لم يبقَ إلاّ الشعر نسكبه خمراً إلى أن ينتهي العمر
يا ويل أهل الشعر كم شبعوا جوعاً وكم سكروا ولا خمر

ويعلم الله كم في المهاجر من أديب مقهور يردد هذا البيت :

لم يبقَ إلاّ الشعر نسكبه خمراً إلى أن ينتهي العمر

حتى شفيق معلوف ، وهو من المجدودين القلائل في دنيا الاغتراب ، يرى أن الهجرة بعثرت آماله كما يبعثر الموج نثرات الزبد :

أترى على الموجات من أملي قطعاً مبعثرة من الزبدِ
إني خلعت على جوانبه أحلام أمسي وابتسام غدي

وخامر مثل هذا الشعور تاجراً غادر بيته وأهله وصحبه في مصر عقب حطمة مالية حلّت به فأمّ مجاهل اميركا يستر فيها حاله عن عيون الشامتين ، وكأنه الأسد الجريح أحس بدنو الأجل فتسلل من عرينه إلى

الأدغال البعيدة حيث لا عين ترى خور عزيمته واحتضار هيبته :

وطني أين أنا ممن أود ... أوَ ما للحظ بعد الجزر مدّ ؟
ما رستْ حيث رست فلك النوى ... لو أباحوا ليَ في الدفة يد
غاب خلف البحر عني شاطئ ... كل ما أرّقني فيه رقد
فيه أهلي . فيه جنات جرت ... تحتها الأنهار والرزق جمد
فيه مر العيش يحلو وأرى ... في سواه زبدة العيش زبد
وطني ما زلت أدعوك أبي ... وجراح اليتم في قلب الولد
ما رضيت البين لولا شدة ... وجدتني ساعة البين أشد
فتجشمت العنا نحو المنى ... وتقاضاني الغنى عمراً نفد
هل درى الدهر الذي فرقنا ... أنه فرق روحاً عن جسد؟
وطني طوحتَ بي في مهجر ... يرهق الحر بأنواع النكد
ضاق بالنابه صدراً قومه ... فعلى لقمته سمُّ الحسد
شاعر يُرجى ولا يرجو ولا ... يجتدي إلاّ من الله المدد
عزّ من يفهم شكوى روحه ... رب حشد فيه بالروح انفرد
عاف ورد الماء فيه ولغت ... حشرات الأرض فاستسقى البرد
وتمنى الموت حتى لا يرى ... غارة الهر على ذيل الأسد

المراحل في حياة المهاجرين

سمعت محاضرة في موضوع الهجرة قال المحاضر فيها ان هجرة العرب إلى الأقطار الاميركية كانت ملحمة رائعة مذهلة تشيع الفتنة وتثير

الطمع . وأصرّ المحاضر على تسميتها « ملحمة » لأن مقومات الملاحم توافرت فيها : مغامرات عجيبة وحوادث خارقة وبطولة في الجهاد آلت إلى النصر المبين . وتمنى لو استوحى الشعراء هذه الوقائع ونظموها ملحمة عربية كبرى .

لا شك أن في مظاهر الهجرة كما نراها اليوم مادة شعرية برّاقة الألوان، تطل منها صورة المهاجر العربي الأعزل من كل سلاح ، لا علم ولا مال ، تلفظه أمواج الحياة على شاطئ غريب وتُكرهه على منازلة الأقوياء في عقر دارهم . وما هي إلا جولة مع مكائد الزمن حتى يخرج العربي من الحومة عزيزاً كريماً ويحتل الصدارة في مرافق الصناعة والتجارة ويمتد نفوذه إلى الأوساط السياسية الحاكمة .

هذا فتح من فتوحات العرب لا بأس من تخليد ذكراه في الشعر ، شرط أن يتعامى الشاعر عن الصوَر القاتمة في آفاق الهجرة . فهي صوَر تطغى فيها الظلال الدكناء على بهجة الأضواء ، وتصبغ الشعر بألوان المراثي .

يستفاد من كلام الأديب المهجري توفيق ضعون في كتاب « ذكرى الهجرة » ان الهجرة في زمن العثمانيين كانت محظورة رسمياً ، ومباحة عملياً بواسطة المهربين . كانت البواخر الصغيرة حالما ترابط في ميناء بيروت توفد سماسرة من ذوي الحناجر القوية إلى أسواق المدينة والقرى لإذاعة نبأ وصولها وموعد سفرها فيهرع القرويون إلى استدانة المال اللازم للسفر من المرابين برهن كل ما يملكون من عقار وأثاث ، وتبدأ عملية التهريب . السمسار يسلم المهاجر إلى العسكري المتولي مراقبة الشاطئ ، والعسكري يصعد به من وراء الجمرك إلى ماعونة محملة بالبضائع ، وقائد الماعونة يدخله في الباخرة بصفة حمّال . وفي الباخرة يتسلمه القهوجي ويضعه في أحد المستودعات . وبهذا الوضع يصل المسافر إلى مرسيليا . ومنها يتسلمه سمسار جديد وينزله في خان قذر ولا يحمله إلى باخرة تنقله

إلى امیرکا إلاّ حينما يفرغ جيبه من الفلس الأخير . هناك في الباخرة الذاهبة إلى امیرکا يلتقي بأمثاله المهاجرين ويعيش معهم عيشة القطيع الذي تطارده الذئاب . إن صعدوا إلى ظهر الباخرة تعرضوا للحر والبرد والامطار والرياح ، وإن احتشدوا في المطابق السفلى كادوا يختنقون . وكم مرة سلط عليهم البحارة أنابيب الماء الساخن لمنعهم من الاحتجاج على سوء المعاملة . وكم مرة حملتهم الباخرة إلى حيث لا يقصدون وأنزلتهم البلد الذي يوافق مصلحتها . في كل بلد ينزلونه يتكتل أبناء القرية الواحدة وتتخذ كل كتلة وجهة . السعيد منهم من يجد على المرفأ إنساناً في انتظاره أو يعرف عنواناً لنسيب أو صديق أو يحمل كتاب توصية يؤمّن له الطعام والمـأوى في الليلة الأولى . أما من لم تتوفر لديه هذه الوسائل ففراشه رصيف الشارع ، وطعامه الكسرة الباقية من زاد السفر في جعبته .

هكذا تبدأ حياة الأديب في المهجر . الخاطر مكسور والمعنويات في درجة الصفر . لا أمل ولا نجاة إلاّ في العمل . ولكن في أي حقل يعمل وهو الغريب الجاهل الأبكم الخالي الوفاض . التجارة تستلزم رأسمال ، والزراعة تتقاضى المهاجر جهود السنين الطويلة وما هو في حدسه إلا عابر سبيل ، يستعجل الثراء ليغذي أهله الجياع في الوطن وليدفع ما استدان من المرابي وليعود إلى داره في أقرب وقت .

من هذه الضائقة الخانقة تولدت في المهاجر مهنة « الكشة » . فالمهاجر يجد من يأتمنه على القليل التافه من لعب ودبابيس وأمشاط وكشاكش وصابون وعطور يضعها في علبة ويطوف بها على المنازل طارقاً أبوابها عارضاً سلعه بالإيماء والإشارة على ربات البيوت . وبعد التجوال طوال النهار في احياء المدينة يعود بغلّته إلى صاحب المتجر ليحاسبه على ما باع وما بقي ويجدد محتويات صندوقه استعداداً لجولة الغد .

بعد أسابيع قليلة تنضب موارد رزقه في احياء المدينة فينتحي الضواحي

ثم ينتقل إلى القرى والدساكر المجاورة بصندوق أضخم حجماً وأثقل وزناً ، لأنه جنى ارباحاً وزادت ثقة التاجر به . ولا تمضي شهور حتى تراه متجولاً في داخل البلاد ساعياً على قدميه ، وعلى كتفه صندوق يتراوح وزنه بين الخمسين والثمانين كيلوغراماً ، وكلما توغل في المجاهل اتسع له مجال الكسب لعدم وجود من يقتحم الأخطار وينافسه في الأسعار .

هذه هي المشقات التي عاناها أدباؤنا في أسفارهم . وهذا هو نوع الحياة التي عاشوها في المراحل الأولى من هجرتهم . هو جحيم كان لا بُدّ من المرور به في الطريق إلى النعيم . كفاح لاقى فيه المُهاجر الجوّال من عنت الطبيعة ومن عداء الإنسان ما لم يلقه أبطال الأساطير . ولكنه المجنى الوحيد الذي يجد فيه النواة الصالحة لزراعة الآمال ، نواة أحسن البعض استثمارها فجنوا الاستقرار والاستقلال المادي ، وبعضهم نزف عليها قوى الشباب وهدر أغلى حقبة من العمر دون جدوى .

وقائل يقول إننا نتكلم عن زمن عفا في زمن تبدلت فيه وسائل السفر فأصبحت مأمونة الجانب قريبة المأخذ . وجوابنا أن أدباءنا المشهورين ليسوا حديثي العهد بالهجرة . فجبران خليل جبران وأمين الريحاني وندره حداد وعبد المسيح حداد هاجروا في أواخر القرن الماضي . ونسيب عريضة ورشيد أيوب هاجرا في العام الخامس من هذا القرن . وفرحات في العام العاشر . ونعيمة وأبو ماضي في العام الثاني عشر . والشاعر القروي في العام الثالث عشر . وشكر الله الجر في التاسع عشر . وأحدثهم هجرة هو شفيق معلوف في العام السادس والعشرين . والحال التي وصفناها دامت إلى العقد الثالث من هذا القرن .

أذكر سهرة جمعت كرام المهاجرين في دار شيخ ثريّ في كراكاس ، عاصمة فنزويلا ، وكان قبل الهجرة معلماً في قريته (عبيه) جئنا نهنئه بدخول عامه السبعين وهو في حال من النعمة يُحسد عليها . سألته إن

كان يشعر بسعادة الغانم الظافر في هذا اليوم ، فأجابني : ليس هذا أسعد يوم في حياتي ، بل أسعد يوم في حياتي كان يوم أحصيت ما في جيبي من الأرباح بعد التجوّل « بالكشة » طيلة ثلاث سنوات ، فبلغت ثلاثمائة ليرة ، فاستطعت أن أشتري حماراً أحمل عليه صندوقي بدلاً من حمله على كتفي وأن أتوغل في التجوال إلى مسافات بعيدة لا يصل اليها من يزاحمني على الرزق .

ومثله تاجر كبير في سان باولو خلّف تركة ضخمة وكان كل ما يستهدفه من هجرته أن يجمع ما يبتاع به جملاً في قريته فيعود اليها ويكاري لحسابه بعد أن كان يعمل اجيراً لرجل من أصحاب الجمال .

وآخر من أصحاب الملايين كان يقول إن الاحديداب الملموح في ظهري والالتواء في كتفي هما نتيجة حمل « الكشة » الثقيلة مدة سنوات طويلة .

قال الشاعر مسعود سماحة وهو الذي أصبح بعد حمل الكشة كولونيلا في الجيش الاميركي :

كم طويت القفار مشياً وحملي	فوق ظهري يكاد يقصم ظهري
كم قرعت الأبواب غير مبال	بكلال وقرّ فصل وحر
كم توغلت في البراري وقلبي	سابح مثل زورق في نهر
كم تعرضت للعواصف حتى	خلت أن الثلوج في القفر قبري
كم توسدت صخرة وذراعي	تحت رأسي وخنجري فوق صدري

وقضى الشاعر القروي السنوات الأولى متجولاً في داخل البرازيل موفداً من أحد البيوتات التجارية لعرض مساطرها فعانده الحظ وقصد العاصمة طلباً للاستقرار . وإذا بالآمال تخيب وبالكآبة تشتد وترتد على قلبه سهاماً :

حنانيك ربي حنانيك ربي ... لقد قصمتْ ظهريَ القاصمه
بعيد المزار غريب الديار ... وحيدٌ ، وها أنا في عاصمه
أيا رب فاتحتي ما ترى ... فهل لك أن تحسن الخاتمه ؟

والذي نعلم أن الخاتمة كانت قاسية عليه مادياً ، ولكنها ألهمته رسالة شعرية تعوض عن حرمان الجسد . وهذا توفيق ضعون يروي لنا أنه انشأ مرة مدجحة في منزله وعلق الآمال على أرباح وفيرة من بيع البيض لا سيا إذا استثمر موهبته الأدبية في طريقة الإعلان عن بضاعته . ولعلمه أن البيض الطازج هو المرغوب فيه ، ابتكر لبضاعته هذا الشعار : «بيضات ضعون من (ذيل) الدجاجة إلى فم الزبون » . ولكن حياة المدجحة لم تطل بل كان السجع شؤماً عليها .

وحفلت حياة فرحات بالمغامرات المختلفة . استعان بتربية الماشية ، ولكن منذ بدأ يربيها تدهورت أسعارها وارتفع ثمن علفها . فطلق هذه التجارة الخاسرة ، وراح يعمل منضداً في مطبعة ولكنه اختلف مع صاحبها فتركها . ثم انتقل إلى مزرعة واشتغل بتربية الحملان ، وأخيراً احترف التجول بمساطر المحلات التجارية . وهو أحسن من وصف حياة البائع المتجول :

فنمسي وفي أجفاننا الشوق للكرى ... ونضحي وجمر السهد فيهن يلهب
ومأكلنا مما نصيد وطالما ... طوينا لأن الصيد عنا مغيّب
ونشرب مما تشرب الخيل تارة ... وطوراً تعاف الخيل ما نحن نشرب
حياة مشقات ولكنْ لبعدها ... عن الذل تصفو للأبيّ وتعذب
لئن كان صعباً حملك الهم والأذى ... فحملك مَنّ الناس لاشك أصعب
طوى الدهر من عمري ثلاثين حقبة ... طويت بها الأصقاع أسعى وأدأب
أغرّب خلف الرزق وهو مشرّق ... وأقسم لو شرّقت راح يغرّب

عشرون عاماً سلخها فرحات من شبابه في حياة التجول إلى أن توفق إلى صناعي كبير يعهد اليه بمساطر بضائعه لكي يعرضها على تجار الداخلية فارتقى إلى منزلة وكيل متجول ، ولكن حياة الوكيل لم تكن أيسر وأهنأ. ها هو يرسمها في لوحة الشعر :

ومركبة للنقل راح يجرّها ... حصانان محمرّ هزيل وأشهب
جلست إلى حوذيّها ووراءنا ... صناديق فيها ما يسر ويعجب
وراحت كأن البر بحر ، نجاده ... وأغواره أمواجه وهي مركب
تبين وتخفى في الربى وحيالها ... فيحسبها الراؤون تطفو وترسب
وتدخل قلب الغاب والصبح مسفر ... فتحسب أن الليل للّيل معقب
تمر على صمّ الصفا عجلاتها ... فنسمع قلب الصخر يشكو ويصخب
وترقص فوق الناتئات من الحصى ... فنوشك من تلك الخلاعة نُقلب

وما ألف فرحات هذا العمل وآنس تباشير النجاح فيه حتى ضاقت عين صاحب المصنع فأنقص عمالته من خمسة بالمئة إلى ثلاثة . فكتب اليه فرحات :

يا صاحب النول كلْ ... لحمي ولا تعتذر
إني الصديق الذي ... مهما تسيء يغتفر
أنقَصْتَ من أجرتي ... في ذا الزمان العسر
هل خفتَ أن أغتني ... أم خفتَ أن تفتقر؟
يا صاحب النول جرْ ... واظلم فلن أنتحر
من كان في أسفل ... الهوة لا ينحدر

إن حياة المهاجرين ، والأدباء منهم بنوع خاص ، لا تصلح لنظم

ملحمة شعرية مثلما لكتابة رواية فاجعة يتخللها فنون من الفكاهة وشؤون من موحيات العبر يتعظ بها من تحدثه نفسه بالمغامرة والاغتراب . وقد شرعت بكتابة الرواية وجمعت لها الاسانيد من أفواه المهاجرين الماهدين أصحاب الثراء الباذخ اليوم ، ولكن واحداً منهم لم يسمح لي بذكر اسمه في معرض الحكاية فعدلت عن إصدار الكتاب .

قصّ عليّ صديق من سراة الجالية اللبنانية في بونس ايرس أنه غداة وصوله إلى المهجر باع حقيبة ثيابه واشترى بثمنها ثوب خام مقصور ، فكانت قرينته تقوم بخياطة المرابيل وهو يطوف على المنازل ليبيعها من الخدم . وأخوه صاحب مغازل الصوف اليوم أكد لي أنه لم ينم على سرير إلاّ منذ زواجه أي بعد إقامته ثلاثة عشر عاماً في الأرجنتين كان خلالها ينام على الدكة الخشبية في حانوته .

وحدثني أديب كبير أنه عند وصوله إلى المهجر لم يجد من يأتمنه على بضائع يتاجر بها لأن هندامه كان نظيفاً أراب التجار في كفايته وفي استعداده للكفاح . وهم عادة يتجنبون التعامل مع باعة غير مُقترين أو استخدام المتأنقين في طعامهم ولباسهم . فإذا جاءهم طالب عمل وعلى عنقه طوق (رباط عنق) رفضوه اعتقاداً منهم أن مهاجراً من هذا النوع مقضي عليه بالاخفاق والفقر .

في نهاية هذه المرحلة التمهيدية تُفرق الحظوظ بين المهاجرين تبعاً لإمكاناتهم الأدبية والمالية ، فتضع هذا في العاصمة على رأس متجر كبير ، وهذا في قرية على باب حانوت صغير ، وذاك في ورشة بناء ، وذلك في إدارة مصنع ، وآخر في قاعة مطعم . وتضع أسوأهم حظاً في مكتب جريدة . ويزداد التفاوت بينهم بتوالي الاعوام فإذا هم بعد عقد من السنين طبقات متباعدة ، هذا بلغ الذروة من الغنى والرفعة وابتنى القصور وتصدّر المحافل ، وهذا لم يزل يعاقر خمرة الأدب ويستعطي القلم لقمة ملوثة بالحبر والدم . الأغنياء يحسبون الصحافيين

والأدباء عالة عليهم ، والأدباء يجدون في الأثرياء عيالاً على أقلامهم . وتكاد ترجح كفة المال فينبذ الأدباء من المجتمع لولا أن بعض الأثرياء المثقفين ضموا الأدباء إلى صدرهم وأنزلوهم المرتبة التي يستحقونها من مراتب الكرامة .

وبين الأغنياء من تأصلت في نفوسهم عادة الشح والتقتير بتأثير الأعوام الأولى لهجرتهم ، فلما بلغ مراقي الغنى ظل منكمشاً على نفسه بقوة الاستمرار لا يؤمن إلاّ بفضيلة البخل التي مهدت له سبيل الثراء ثم أصبحت عاراً على جبينه . ومنهم من لا قبل له بالتطور لأن تربيته القروية في بيئته الأصلية لم تؤهله لمعاشرة الأوساط الراقية فظل أميناً لعادات وتقاليد محيطه الأول ، لا يهمه أن يسخر الناس من طريقته في المأكل والملبس والحديث .

ومنهم من اندفع في تيار التطور الاجتماعي حتى فاق الأجانب بمظاهر البذخ والترف ، فشاد القصور ، وأقام الحفلات ، واقتنى الجواهر والسيارات ، وفتح يده للمبرات ، وأوثق الصلات بالأوساط الراقية وبالمراجع السياسية الحاكمة ، فكان عنواناً لاعتزاز الجوالي العربية وسبباً لتغني المقيمين بسلطان المغتربين تغنياً ينسجون فيه برداً وهاجاً من نسج الخيال فيبدو أكثر بهاء مما هو عليه في الحقيقة . وفي تلك الفترة تفتحت عبقريات الأدباء المغتربين ، فكتبوا ونظموا ما ازدان به مفرق العروبة حتى أنزلوا في روع المقيمين أن العروبة عنصر خالد وأن العربية لغة أهل الجنة ، تعيش تحت كل سماء .

ومن أقام في الأوساط المهجرية ورافق الجوالي في أطوار تقدمها يلاحظ أنها بلغت في مجالات المادة والاجتماع مستوى لم تصل اليه في المجالات الأدبية . والدليل على ذلك إهمالها شأن الصحافة وتقصيرها في تغذية المدارس التي تعلّم اللغة العربية . رأينا في أثناء هجرتنا مئات من الصحف تكاد لا تظهر للوجود حتى تختفي . لم يبقَ منها في نيويورك

إلا أربع جرائد ، وأربع في بونس ايرس ، واثنتان في سان باولو لا تمثلان أهمية الجالية العربية وضخامة ثروتها الأدبية والمادية . وكان في المكسيك ثماني عشرة دورية وفي تشيلي سبع جرائد احتجبت كلها أو تحولت إلى اللغة الاسبانية . وفي كولومبيا وفنزويلا وسائر الجمهوريات الوسطى لا أثر للصحافة العربية على الاطلاق . ويقضي الانصاف أن لا تحمل الجوالي وحدها مسؤولية هذا التقهقر بل نلقي معظم المسؤولية على بعض أصحاب الصحف من الجهلاء المغامرين الذين تطفلوا على المهنة وعبثوا بكرامتها وملأوا صحفهم بمواد سامة لا قبل للجوالي بازدرادها .

أما المدارس التي تعلّم اللغة العربية فلا أثر باقٍ لها إلا في المكسيك بعد ان دالت دولتها في الأرجنتين والبرازيل ، قامت في المكسيك على جهد فرد واحد متفان في سبيل لغته وقومه هو الأستاذ وديع بدران . وفي الارجنتين تعددت المحاولات وانشئت المدارس ولكنها كانت قصيرة العمر آخرها مدرسة ليلية ترعاها جمعية الشبيبة العربية في منتداها . أما في البرازيل فالجهود كانت كبيرة ومثمرة إلى عشر سنوات خلت . لقد ضمت المدارس ألوف الطلاب ثم أخذت بالتضاؤل لأن الآباء يؤثرون تزويد أبنائهم بالعلوم واللغات التي يتعلمها أقرانهم من أبناء البلاد حتى لا يقصروا عنهم في كفاح الحياة . فالكلية السورية البرازيلية التي انشأها المعلم وديع اليازجي وتخرج منها زهاء خمسة عشر ألف طالب قد أغلقت أبوابها ، قبل أن « تبرزل » الحكومة المدارس الأجنبية . وكذلك فعلت بمدرسة الأستاذ سليمان الصفدي .

وللمدارس العربية في سان باولو حكاية طويلة رواها توفيق ضعون في كتابه « ذكرى الهجرة » . وملخصها اتفاق وقّع عام ١٩٢٥ على تنفيذ اقتراح الدكتور فيليب حتّي بانشاء « المعهد البرازيلي للثقافة العربية » وانشاء كرسي لتدريس اللغة العربية في جامعة سان باولو . وبفضل جهود

جميل الصفدي وميكال نمر وتبرعات معمل يافث وجورج معلوف وفيليب لطف الله والياس عاصي وغطاس خوري ويوسف اليازجي تحقق المشروع . وكان أول من شغل الكرسي في الجامعة الاستاذ توفيق قربان مضحياً له بعمله التجاري ريثما تُرصَد لنفقات الكرسي الاعتمادات الثابتة من الحكومة اللبنانية أو من الجالية نفسها . ولكن الحكومة لم تلبّ ، وتبرعات الجالية لم تستمر ، فألغي الكرسي وأصبح « المعهد البرازيلي للثقافة العربية » اسماً بلا مسمّى وذكرى لمسعى مشكور .

اليوم يتبرع الاستاذ الغيور قربان بتدريس اللغة العربية خمس ساعات في الاسبوع في غرفة من غرف النادي الحمصي .

إلى جانب هذا المعهد وبذات التاريخ أُنشئت « الرابطة الأدبية الفنية » في سان باولو لتمثيل الروايات العربية الاخلاقية ، وكان قوامها نجيب حنكش وتوفيق ضعون وناصر شاتيلا .

فالمهاجر إذن قد أفلح إذا اعتبرنا عنوان الفلاح المحل التجاري والمصنع الكبير والقصر المنيف ، وأخفق باعتبار أن شخصيته الأدبية ما زالت دون شخصيته المادية . ولكن ما فاته من العلم والثقافة أغدقه على أولاده بسخاء يدعو إلى الإعجاب . فتجد أفقر المغتربين يقتدي بأغناهم في تثقيف أولاده حتى يبلغوا أرفع منزلة من العلم والتهذيب . وهؤلاء الأولاد هم الذين احتلوا اسمى المراكز في المجتمع ، فكان منهم نواب وقضاة وولاة ومديرون لأكبر المصارف وأطباء ومهندسون من الطراز الأول . ونلاحظ مع الأسف أنهم كلما تبحروا في العلوم وتدرجوا في الرقي اتسعت الهوة التي تفصلهم عن آبائهم وعن جاليتهم ، فالشجرة التي نمت في دار الأب العربي ليس له منها سوى العود . أما الزهور والأثمار فللبلد الغريب .

وفي سبيل هذا السلطان الواسع الذي يتمتع به اليوم الفريق الناجح من المهاجرين ، كان عليهم أن يضحوا بالعافية المتينة التي أسعفتهم في

الجهاد أول الأمر . فحينما بلغوا أهدافهم وجدوا أن نعمة العافية قد زالت عنهم وأصبحوا يشكون أمراضاً كثيرة ويطوفون على مصحات العالم طلباً للاستشفاء . ثم إنهم أضاعوا مزية أخرى كانت عاملاً من عوامل نجاحهم وهي الحرص الشديد والصبر على حياة الحرمان ، فهم اليوم ينفقون على الكماليات والمظاهر الاجتماعية ما لا ينفق بعضه الأثرياء الأجانب . قيل لي إن في بعض الحفلات الراقصة التي يحييها النادي الرياضي اللبناني في سان باولو كانت مصلحة الأمن العام ترسل عدداً من رجال البوليس السري مهمتهم الاختلاط بالجمهور للمحافظة على الجواهر النادرة ذات القيمة الخيالية التي تتلألأ على صدور السيدات وتغري الانتهازيين بالغنيمة الباردة . وحدّث ثري كبير كان قد أضناه السهر على مائدة الميسر قال : « واهاً على زمن التجول في الأحراج يوم كنا نحمل ما يوازي ثقلنا من السلع ونقتات بفضلات بيوت الفلاحين ونستجديهم قميصاً نستر بـه عرينا أو زاوية في الحظيرة نقضي بها ليلتنا . كنا في نعيم من صحة الجسد ، نبكر إلى العمل بنشاط الأسود وكل جولة نزهة . أما الآن وقد ملكنا فوق ما نحتاج اليه أصبحنا نشكو عسر الهضم والأرق ، نتيجة التفكير المتواصل بمطالب الحياة المتزايدة . فعلينا أن نخلق موارد جديدة حتى لا نقصر عن أمثالنا ومنافسينا من أغنياء الجالية . »

هذه هي ملامح البيئة العربية التي دخلها أدباؤنا وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ منها ، وقد رسمنا خطوطها الزاهية والقاتمة بإسهاب لأن تأثيرها في أدبائنا كان أقوى من تأثير البيئة الأجنبية . فهي المورد والمصدر الأساسيان في أدب المهجر .

الفصل الثاني

أدبُ المُهَاجِرين

في مذود الغربة القاسية ، في قبو عفن من شارع واشنطون في نيويورك ، فتح عينيه على الوجود أدبٌ طفلٌ ، وُلد مع القرن العشرين بعد أن تمخضت به الجوالي العربية زهاء نصف قرن . ولد في عسر وفقر كالأنبياء المرسلين ، وفي حذر وخوف ، كالعبيد الآبقين . غمره الظلام سنين عديدة وظل صوته النابي مكبوتاً لا يستوقف الأقدام المتسارعة على رصيف الشارع العالي .

أما أبوه – أمين الريحاني – فقد كبّر واستبشر وقصر همه على تغذية الوليد الهزيل بمداد القلم وعصير الروح . فما دلف الصغير من السرير حتى اعتلى المنبر وصاح : أنا الشرق .

وأخذت تتعالى الصيحات في اجواء المدينة المستهترة حتى برم بها الجوار وامتدت أيدي الكهان لخنقها في المهد . ولكن الأصداء ترامت إلى بعيد . إلى بوسطن ، إلى حي الصينيين في بوسطن ، إلى غرفة فنان

بائس يعيش في الحرمان على الاحلام المذهبة ، فيساهر الأفلاك ، ويسامر الرؤى ، ويستمع إلى همسات السكون في جنح الليل ، بينما أخته الى جانبه تستكدّ الإبرة والخيط حتى لا يطلع النهار على فراغ البيت من القوت ..

ذلك الرسام المغمور كان جبران خليل جبران ، فتى بشري ونابغة لبنان ، أصغى إلى نداء فتى الفريكة « ذلك الصوت الصارخ في البرية » فاهتزت له أوتار قلبه ودبت حياة جديدة في أنامله ، فألقى بريشته جانباً وأمسك القلم ليخط به باكورة إلهامه ، كتاب الموسيقى :

سكن الليل وفي ثوب السكون	تختفـــي	الاحـــلام
وسعى البدر وللبدر عيون	ترصـــد	الأيـــام
فتعالي يا ابنة الحقـل نزور	كرمـــة	العشـــاق
علنا نطفي بذياك العصير	حرقـــة	الأشـــواق

كان ذلك عام ١٩٠٥ والأدب الناشىء ابن القرن العشرين لما يزل طري العود ، يغالب عثرات القدم ولكنات اللسان ، حتى كان عام ١٩١٦ فجاءه ميخائيل نعيمه يكفله من أبيه ويربّيه حتى اشتد ساعده ، وتسددت خطاه ، وعمر صدره بنزوات الطموح ، فانتصب أمام تمثال الحرية في حوض نيويورك وخاطبه وجهاً لوجه :

« متى تحولين وجهك نحو الشرق أيتها الحرية ؟ أيتأتى أن يرى المستقبل تمثالاً لك بجانب الأهرام ؟ وعلى شاطئ بحر الروم ؟ متى تدورين مع البدر لتنيري ظلمات الشعوب المقيدة والأمم المستعبدة ؟ »

وما حانت سنة ١٩٣٠ حتى تبنته آلهة الشعر وغنّته الأملاك ألحان أبو ماضي ونسيب عريضة ورشيد أيوب فأخذته نشوة الزهو والطرب وراح إلى سجل التاريخ ، يكتب فيه اسمه وكنيته :

الأدب المهجري

هو أدب عربي البذار ، عربي الأرومة ، عربي الجنى . فرع عريق من دوحة العروبة حملته الرياح إلى مشاتل العالم الجديد فزكا في كل تربة وأينع تحت كل سماء . طبعت شمس الغرب ألوانها على أوراقه ، أما لبه فيحيا على إشعاع الشرق وقلبه يختلج بنسمات الصحراء .

تشابهت على منابته المتفرقة ظروف الحياة وطبائع المناخ فتشابهت أثماره شكلاً وتشاركت في الطعم ، وفي خصائص من رواء ونكهة وينوع لم تُعرف قبل في الدوحة الأم . ثمار راح صاحبها القديم يستوردها من العالم الجديد . ويتذوق فيها حلاوة الوفاء ومرارة الاغتراب ، كلما ذكر مصدرها البعيد ومنشأها بين الدخان والحديد .

أدب المهاجرين ، رسالة عربية لم يلصق بها الغرب إلاّ طابع البريد عبرت البحار إلى قراء العربية فسارع المتشوقون إلى فضّ الرسالة لكي يستمتعوا بما كتبه لهم الأحباب الغيّب . أما الكسالى فوقفوا عند الغلاف المختوم ، يتهجون حروف العنوان ، ويتكهنون عن المضمون بأمور ما أنزل الله بها من سلطان .

إن الأدب المغرّب يا سادتي ، هو من نتاج الأمة العربية سواء أنتج تحت ظلال الأرز أو على ضفاف النيل أو في مطارح المهجر . وأدب المهجر فرع يباهي بأصله ويعترف بفضل الجذور عليه ، فضل الأم على الولد ، أي الفضل الذي لا ينسى ولا يجحد . وحاشا للولد النجيب أن يتكبر على أمه إن أصاب نجاحاً وعزاً . وأنا لا أنوّه بنجاحه وأشيد بعبقريته فيما يلي من الحديث إلا ليقيني أن أمه تهنأ بذاك النجاح وتفاخر بتلك العبقرية .

وعندما أتصدى لتعريفه ، لا أجاري من قال « إنه كنز خالد لم تظفر بمثله اللغة العربية وهو يضاهي أرقى الآداب العالمية الحية » كما لا أجاري من قال عنه في سوريا « إنه هجين تعوزه العافية » أو من قال عنه في مصر « إنه صناعة بيانية مُزْوَرّة عن الذوق العربي السليم » أو من قال عنه في لبنان « إنه عبد الصورة الجامدة والاستعارات والكنايات البدائية » . وإنما أقول بتواضع إنه أدب جميل الطلعة طريف البزة عبقري اللسان والجنان ، شريف الوسيلة والغاية . اضطلع برسالة التجديد ورسالة الاصلاح فأدّاهما خير أداء وابتدع لنفسه شخصية قوية مرشحة للبقاء .

لا ضير على أدب المهجر من تضارب الآراء في قيمته وأثره ، شرط أن لا يتمادى الخلف إلى إثارة الحفائظ بين المستحسنين والمستهجنين أو إلى بث فكرة التنافس بين الأدباء المقيمين والمغتربين . فأدباء المهجر براء من كل ادعاء ومطمع ، لا يفاضلون أحداً ولا يطلبون من أحد شهادة امتياز ولا يتوقعون جزاء أو شكوراً على ما يحسنون . غيرهم ينادي بأقليمية الأدب وغيرهم يتشبث بإقطاعية الأدب ، غيرهم يطارد الشهرة ويعالج أبواب المصالح الشخصية . أما هم فأدبهم صوفية ديموقراطية تسع أدباء العالم قاطبة ، وتشدهم بالأكثر إلى أدباء العرب ، إخوانهم في الدم والروح وشركائهم في الوطن واللغة والاهداف .

إن يختلف ماء الحياة فماؤنـــا   عذب تحدّر من غمام واحد
أو يختلفْ نسبٌ ، يؤلف بيننا   أدب أقمناه مقـام الوالـد

(ابو تمام)

إن أتاحت ظروف المكان والزمان لهذا الأدب ان يتجمل بمزايـا وخصائص لم تتوفر لأدب المتخلفين في فترة من فترات التاريخ فما في

ذلك غضاضة ولا ملام على أحد . انني اعني بظروف المكان البيئة الاميركية التي دخل فيها الأدب العربي فتأثر مباشرة بأوضاعها كرجل زكي الفؤاد وبعاداتها كفرد اجتماعي ثم تأثر بجوها الفكري الواسع كأديب منتج . واعني بظروف الزمان تلك الحقبة التي عاشها الأديب المهجري بين خمول الأقلام وشيوع التقليد وفوضى الصحافة العربية وغفلة جماعات الأميين والرجعيين من بني قومه فما طلع عليهم بلون زاه جديد حتى لمع أدبه في محيطهم كما يلمع البرق في الظلام .

كتب ومحاورات

مما يشرف أدب المهجر اهتمام الأوساط الأدبية بترسم آثاره وإذاعة أخباره في مؤلفات ومحاضرات وأطروحات ومحاورات شغلت المنابر والمطابع ومحطات الإذاعة منذ أعوام إلى اليوم . ومما يشرفني أن أدعى للكلام في موضوع أشبع البحث فيه إلى هذا الحد ، كأن عندي ما أقوله بعد كل ما قيل ، وبعد الكتب التي صدرت عن الشعر العربي في المهجر الاميركي وكان أحدثها كتاب الاستاذ محمد عبد الغني حسن .

الأدب العربي يشبه نسر لقمان في تجديد شبابه . كلما أشرف على الهرم بسط جناحيه على جهات الكون وراد القمم — في فارس أو في الأندلس — سعياً لمجثم يسترد فيه عزمته ونشاطه . وقد جال جولته الأخيرة في العالم الجديد ونثر على شماله وجنوبه رياشاً تداعت من قوادمه وخوافيه ثم نمت واشتدت حتى أصبحت جناحاً جديداً كاملاً ، يعتمد عليه متى أعوزه جناح .

لم ينس نسر لقمان وديعته في نيويورك وسان باولو بل أخذ يتشوف

أثرها ، أو خبرها على الأقل . ومن ذا يأتيه بالأثر أو بالخبر ، إلاّ وسطاء الخير ، الكتّاب البحاثون الذين يتطوعون لخدمة الأدب يستقصون ما بعُد من آثاره ويدوّنون ما غاب من أخباره . إن للكتب التي صدرت عن أدب المهجر فضلاً لا يُنكر . لقد حققت التفاعل بين عناصر الأدب المقيمة والمغتربة وأوثقت الصلات بين من يعيش في ظل الوطن ومن يعيش تحت سماء الغربة فأصبحوا وكأنهم في جو مشترك ، وكأن البعيد منهم ماثل بين سمع الأمة وبصرها ، يُقرأ أدبه ويتردد اسمه قدر ما تقرأ آداب المقيمين وتتردد أسماؤهم إن لم نقل أكثر .

ولكنني أتساءل : لماذا عني المؤلفون بشعر المهاجرين دون نثرهم ؟ إن نتاج النثر في المهجر الاميركي فاق نتاج الشعر كمية وأهمية وانتشاراً . لقد نفذ إلى الأوساط العالمية حاملاً رسالة العروبة فقرأه الاميركي والانكليزي والفرنسي والأسباني والبرتغالي والألماني والايطالي ، بينما الشعر المهجري لم يتخط إلاّ نادراً نطاق الأوساط العربية في الوطن والمهاجر . فلو أحصينا عدد النسخ المطبوعة لجميع ما أصدره الشعراء من دواوين لوجدنا أنها لا توازي عدد ما طبع من كتاب واحد كتبه جبران نثراً . أيكون المؤلفون الكرام قد انقادوا لرغبة الناشرين الحريصين على المصلحة التجارية فكتبوا ما يجتذب القارئ العربي ، أم اعتقدوا مخلصين أن شعر المهاجرين هو أعلى مرتبة من نثرهم وأجدر بعناية التاريخ ؟ سألت واحداً من المؤلفين : لماذا لم يعقد في كل كتبه فصولاً عن النثر المهجري . فأجابني أن للمهاجرين الناثرين أضراباً في الوطن لا يحصى عددهم ، أما شعراء المهجر فلا مثيل لهم في محيطنا اليوم . وسألت واحداً من الناشرين في بيروت ان كان يعتقد أن دولة الشعر في طريق الزوال وأنصارها يتضاءلون يوماً عن يوم . فأجابني ان قراء العربية ما زالوا يقبلون على قراءة شعر المهجر ويشترون الكتب التي تنقده وتبحث فيه ، وكثيراً ما نفدت هذه الكتب وأعيد طبعها بينما كتب العلم

والفلسفة أكداس في المكتبات تنتظر المشترين . ولقد أكّد لي الاستاذ بهيج عثمان ان « دار العلم للملايين » تصدر كل سنتين طبعة جديدة لدواوين ابو ماضي الثلاثة ، أي الجداول والخمائل وتبر وتراب ، وانها قد أعادت طبعها للمرة الثالثة بعد وفاة الشاعر عام ١٩٥٧ .

أترك لسواي من النقاد تعليل هذه الظاهرة كي لا يقال عني ما يقال عن الفتاة المعجبة بأبيها . ولكنني أقرر أن محصول النثر الجبراني والنعيمي في عهد « الرابطة القلمية » فرض نفسه على القراء بجدة الصياغة وطرافة المعاني والأغراض . ثم فقد النثر شيئاً من تلك الروعة الأخاذة حينما انتقل زمام الأدب المهجري إلى أيدي « العصبة الأندلسية » ففاز الشعر وتقهقر النثر . ولكن ذلك لا يعفي من يكتب عن آداب المهجر من واجب عرضه من ناحيتيه ، الكفة الراجحة والكفة الشائلة ، حتى لا يضع أمام التاريخ صورة ناقصة .

هذا الدور الذي مر به أدب المهجر ، مر به الأدب العربي القديم في عهد بني أمية وبني العباس ودولة الأندلس ، فكانت الكفة الراجحة وقتئذ للشعر ديوان العرب كما يقول الأصمعي ، وعقب ذلك أدوار الانحدار التي توالت على الشعر حتى بلغت به الحضيض في عهد بني عثمان ، ثم تجددت المباراة في الأدب الحديث فكان السبق للشعر في عهد البارودي وشوقي وصبري وحافظ ومطران إلى أن برز للميدان طه حسين والعقاد والمويلحي والحكيم وهيكل وسلامة موسى والمازني وأصحابهم فسبق النثر الشعر بأشواط . وقد أيد هذا الرأي الدكتور طه حسين في أحاديثه مؤكداً أن الشعر — بعد شوقي — أصبح عاجزاً عن خلق الشباب وعن استهواء الجماهير ، وتمادى بعض النقاد إلى الزعم بأن شوقي نفسه لو ظهر في يومنا هذا لما بلغ من نفوس القراء ما بلغه في يومه ، لأن الأفكار تطورت بانتشار العلم والفلسفة انتشاراً واسعاً يضيق الشعر عن استيعابه والتعبير عنه .

ولا أدري كيف أوفق بين هذه الآراء وبين رواج الشعر المهجري رواجاً لم يؤثر فيه طغيان العلم والفلسفة ؟ أعلم أن الشعر يهدر وقت القارئ والناظم بقيوده ، وأن الوقت أصبح أثمن من قبل ، وأن تأدية الأفكار بطريقة النثر أسهل مأخذاً ، ولكن أين الروعة في الاداء ؟ أين الجمال الذي يجذب والنغم الذي يثير ؟ أين خلجة الروح ودفقة العاطفة ؟ إن الشعر هو تراث الشعوب الحي لا تتخلى عنه لأنها تحتاجه كلما ناجى انسان ربه ، أو هامس نفسه ، أو استعطف حبيبه ، أو هدد عدوه ، أو بكى ميته ، أو حنّ إلى وطنه البعيد . إنه أحب الأشكال التي تعكس الفكر وأقربها إلى قلوب البشر . « يضاعف الحياة بعالم جديد ويكملها بمثل أعلى ويطهّرها من درن المادة » . فإن قصر عن النثر يوماً ما ، فذلك لا يعني أن قد قضي عليه بالتقصير في كل زمان ومكان . والشعراء في نظر الشاعر السويسري كارار : « هم ترف الحياة ونعيمها ، هم للانسان كالربيع للطبيعة ، ما دام هناك شعراء فالنفوس تظل فتية والعالم بنجوة من الفناء ، ويا لسعادة الشعوب وعز الأمم التي لا تزال تبدع الشعراء والفنانين ، إنها جديرة بالحياة المجيدة لما يضفيه شعراؤها من الحيوية وألوان الفتنة ونعمة الحب » . هذا ما قاله شاعر سويسرا ، فلا غرابة في أن يقول شاعر العرب ابو ماضي :

كم خفضنا الجناح للجاهلينا　　وعذرناهمُ فما عذرونا
خبروهم يا أيها العاقلونا　　إنما نحن معشر الشعراء
يتجلى سر النبوة فينا

ونعود إلى الكتب التي صدرت عن أدب المهجر لنلاحظ شيئاً آخر : إن المؤلفين آثروا باهتمامهم ودراساتهم الأسماء الشهيرة في الشعر وأمهات القصائد التي تداولتها الأفواه والصحف ومحطات الإذاعة ، وهم بلا شك

قد أحسنوا الاختيار وأجادوا التعليق وخدموا الأدب . ولكن خدمة الأدب كانت أجل وأنفع لو نزلوا قليلاً من القمم إلى السهول وزودوا العالم العربي بآثار جديدة لم يصل اليها علمه ، وعرّفوه بأصحابها المغمورين أو الزاهدين في الشهرة . فقد يكون لهؤلاء أصوات شجية وأنوار خفية تستحق حيزاً صغيراً في روض البلابل وسماء الكواكب .

عذر المؤلفين أنهم بعيدون عن العالم الذي يكتبون عنه ولا صلة تصلهم به إلا الكتب التي تقع تحت أيديهم ، والقصائد التي تنشرها الصحف ، وهي لا تنشر إلا الجيد الممتاز . وما هذا بالعذر الذي يرتاح اليه وجدان الكاتب المؤرخ ولو ارتاح اليه الناشر والقارئ . إذ على المؤرخ ان يستقي المعلومات من مصادرها مهما بعدت ، بالمراسلة أو بالزيارة ، لا أن يقبع في مكتبه وينتظر هبوط الأخبار عليه من جريدة يشتريها ، أو من ديوان يهدى اليه . اللهم إلاّ إذا كان غرض المؤلف مجرد الإشادة بعبقرية الأدباء المهاجرين ، لا تاريخ أدبهم كاملاً ، فعندئذ يكون قد بلغ الغرض المنشود . بل جاوز الغرض ، على ما اعتقد . إنه القى في روع القراء ان كل الأدب المهجري .هو من الطراز الرائع الرفيع الذي استشهد به في كتابه .

النهضة الأدبية الحديثة

يجدر بي أن أحدد موقف الأدب المهجري من الأدب العربي العام وأن أوضح كيف شق طريقه بين التيارات الأدبية المعاصرة ، فألقي نظرة خاطفة إلى المراحل التي سبقت نشأته ثم واكبت نموه . على أنني لا أتكلم عن تلك المراحل بلهجة المؤرخ الواثق مما يقول كما أفعل عند

الكلام عن الأدب المهجري ، بل أفصح عن انطباعات رسخت في ذهني من المطالعات أثناء إقامتي في المهاجر ، انطباعات بريئة توفرت فيها سلامة النية . ولكنها لا تخول المغترب الغائب عن الدار حق «التفلسف» في أدب صاحب الدار المقيم في وسط التيار . فان حِدتُ عن جادة الصواب فالعذر واضح .

في مطلع هذا القرن كانت مصر مطمح أنظار الأدباء المهاجرين لما آنسوا في أوساطها الأدبية من بوادر الوعي والطموح وفي صحافتها من الحيوية . فاستبشروا بنهضة أدبية شاملة في ظل طائفة من الشعراء والكتّاب هم أنجب وأخصب من كتب ونظم بلغة الضاد منذ أجيال . لا أسميهم إجلالاً وتكرمة ، بل أكتفي بالإشارة إلى أن أمير الشعر وعميد النثر كانا في عدادهم ، وأن عهدهم كان العهد الذهبي للأدب العربي في الشرق ، خلعوا على سرباله البالي حللاً رائعه وهّاجة ، واستحثوا بنشاطهم نشاط الأدباء في مختلف الأقطار العربية ، ولكنهم – في نظر أدباء المهجر الاميركي الشمالي – لم يحرّروا الأدب من ذيول التقليد ولا فرضوا طابعهم عليه بل أبقوه في يد المحافظين ، يجيدون فيه ولكن لا يجددون .

وكان أن انقطعت المواصلات بين العالمين أثناء الحرب العالمية الأولى . وحينما استؤنفت وعاد المهاجرون إلى مطالعة آثار الأدب العربي ، أعجبوا بالأشواط التي قطعها أدباء مصر في تلك الفترة من الزمن ورأوا أن النهضة الأدبية تركزت في مفاهيم وأساليب جديدة ، وأن حركة الانطلاق نحو الاجواء العالمية التي تزعمها شيخ المجددين المرحوم خليل مطران قد آتت أكلها ، وأن هناك نهضة فكرية تساير – في وجهتها لا في مداها – الثورة التي أثارها أعضاء الرابطة القلمية في نيويورك عام ١٩٢٠ .

وفي تلك الفترة ذاتها كان الأدب المهجري قد اشتد ساعده بوصول

قافلة من المهاجرين المثقفين ، فيهم الشاعر والكاتب والعالم والمعلّم ، فأخذت الألحان المهجرية تنطلق من وراء البحار لتغلغل في مسامع الشرق وفي قلبه . فاستقبلها شيوخ الأدب بتحفظ واحتراس ، وأقبل عليهـا النشء الطالع يلتهمها التهاماً اذ وجد فيها ما راقه من جدة المباني وما سهل عليه فهمه من روائع المعاني .

ما بلغت تلك الدفقة المهجرية شواطئ لبنان ، حاملة بذور التجديد ، حتى رحب أدباؤه بها وكانوا أسبق البلاد العربية إلى الأخذ بسنتها — سنة اخوانهم المغتربين — بحكم العـاطفة الأخوية والذوق المشترك ، أو بحكم الثقافة الغربية التي تفشّت في لبنان أكثر مما تفشّت في غيره من الأقطار المجاورة ، لكثرة اختلاطه بالغرب ولكثرة معاهد العلم الأجنبية القائمة فيه ، ولوجود الانتداب الفرنسي الحالم « بفَرْنَسَةِ » الجبل .

كانت الشحنة الأولى من أدب المهجر صادرة من مصانع الريحاني وجبران ونعيمه وأبو ماضي ونسيب عريضه ورشيد أيوب وندره حداد ، وفيها من الأجناس : القديم والجديد والمتطرف . فما كان من اليسير على مصر وسوريا والعراق أن تتقبل البضاعة على علاتها كما فعل لبنان ، بل عكفت على التمحيص والنقد . وكان للبدعة المهجرية أنصار ، ولمحاربتها أنصار ، وتواترت الدراسات والمناقشات حتى أثارت اهتمام العامة بالأدب المهجري ، وإذا بالعامة تتذوقه وتتناشد شعر أبو ماضي مؤيدة بذلك فريق المناصرين .

أما الشحنة الثانية من أدب المهجر فقد وردت من سان باولو (البرازيل) بعد عشرة أعوام ولاقت قبولاً يكاد يكون اجماعياً في مختلف الأقطار العربية لأسباب ثلاثة : أولاً ، لاعتدالها في أساليب التجديد مع المحافظة على أصول اللغة بقوة وروعة . ثانياً ، لأن بضاعتها شعرية من الصنف الممتاز بجودة الصياغة وحرارة العاطفة ورخامة النغم . ثالثاً ، لأن النزعة القومية الوطنية هي الغالبة فيها ، فالشعوب الرازحة تحت الاحتلال أو

الانتداب ، المتعطشة إلى الانعتاق من نير الاستعمار لا يستهويها في محنتها مثل الشعر الوطني الحماسي الصادق النبرات ، الذي يعبر عن واقعها وعن شعورها وعن أمانيها ، كشعر القروي مثلاً .

لا شك أن الأدب المهجري ، بعد أن تزلزلت دعامته الأولى في الشمال بوفاة جبران عام ١٩٣١ ، وجد دعامته الثانية في الجنوب ، عندما تأسست « العصبة الأندلسية » في سان باولو في العام التالي ، فاحتفظ بالمستوى الرفيع الذي وضعته الرابطة القلمية فيه ، ولكنه راح يجهر بالشعر ويهمس بالنثر ، فما لفت أنظار الأقطار العربية إلا بآثاره الشعرية ، منذ ذلك التاريخ إلى اليوم . وفي هذه الأثناء كثيراً ما التقى شعراء العصبة الاندلسية بشعراء مصر على صعيد التجديد الذي مهّده مطران وجماعة أبولو ، ولكن المهجريين قطعوا أشواطاً أبعد في الابداع لأن الفكرة في شعرهم لم تطغ على الفن فتشوّه الجرس الموسيقي ، وأشواطاً أبعد في الانطلاق لأن فكرتهم لم تتقيد بوجهة السياسات المحلية . فتبدلت مواقف الفرسان في فترة من الزمن : السابقون أصبحوا لاحقين والمؤثرين متأثرين .

هذا الشعر الجديد الذي نفذ قوياً إلى الأقطار العربية ووصل نشيطاً إلى المحميات السبع وإلى المغرب الافريقي ، لم تفتح له مصر بابها الواسع بادئ ذي بدء ولم تتحمس له إلاّ في الآونة الأخيرة بفضل ما كتبه عنه الدكتور محمد مندور والأستاذ عباس محمود العقاد والاستاذ مصطفى عبد اللطيف السحرتي والشاعر محمد علي الحوماني والدكتور أحمد زكي أبو شادي ، وبفضل دراسات ظهرت حديثاً لكمال نشأت ونادية السراج ولدراسات صدرت قبلها لإسماعيل أدهم والدكتور محمد حسين هيكل وحسن كامل الصيرفي . ولا ننس عناية الأستاذ ساطع الحصري الذي أتاح منبر هذا المعهد الكريم للمحاضرين في الأدب المهجري ، ولا عناية الاستاذ حسن جلال العروسي الذي عُني باخراج كتاب خاص

عن الشعر العربي في المهاجر الاميركية كتبه الشاعر محمد عبد الغني حسن، فكان الكتاب الوحيد في موضوعه في مصر ، تقابله كتب عديدة عن شعر المهجر صدرت في لبنان وسورية والعراق . أقول لولا عناية هؤلاء الكرام المنصفين لظل ذكر الأدب المهجري خاملاً في الديار المصرية إلى اليوم .

اننا نفترض لهذه الظاهرة أسباباً قد تكون صحيحة وقد لا تكون . رأى أدباء مصر في شعر جبران أخطاء لغوية وفي شعر أبو ماضي جوازات لا يستعملها كبار الشعراء ، فأوجس المربّون شراً من البدعة المهجرية وخافوا أن تغزو الأوساط المدرسية وتفسد الذوق السليم في النشء الطالع . خطرٌ وهمي تراءى لهم وقد نفى وجوده الدكتور محمد مندور في فصل من كتابه « الميزان الجديد » ونفاه النقادة المدقق عباس محمود العقاد . ولو كانت اللغة ضعيفة والاساليب ركيكة في الشعر المهجري لما استوقف هذا الشعر أحداً ولا أثّر في أحد ولا عمّر ولا اشتهر . لقد جاءنا من البرازيل شعر القروي وفرحات والجرّ واضرابهم مشرق الديباجة متين السبك كأحسن الشعر العربي القديم رصانة وفصاحة وكان الاجدر بالمربين الغيورين على ثقافة النشء ان يعملوا على شيوع هذا النوع من الشعر وعلى ارشاد الطلاب اليه لكي يتشبه هؤلاء بالجيد الصالح من الشعر دون الضعيف والزائف . وفي شعر المهجر — كما في كل شعر — مراتب تتراوح بين العالي والمتوسط والدون ، والمرتبة الأولى وحدها هي المعول عليها في الدراسة والاستشهاد وهي المؤهلة للتأثير العميق المفيد وهي المسؤولة عن مكانة الشعر المهجري ، لا أي شعر قاله مهاجر ونشره في الوطن .

وكان في الجو المصري مخاوف أخرى غامضة نلمحها من خلال كلمة قالها عام ١٩٣٠ أديب كبير من أساطين الأدب في مصر ، قال : « يجب ان يتعاون المجدد والمقلد منا والا بقي الفوز في جانب السوريين

المتأمركين ، وامحت الثقافة الاسلامية » . وظاهر من هذا القول ان التيار المهجري كان جارفاً في غزوته للأقطار العربية (وذلك مما يشرفه) سوى انه – في زعم ذلك الاديب – كان غريباً عن الثقافة الاسلامية فأثار الهواجس في نفسه . وما كانت تخامره مثل تلك الهواجس لو زار المهاجر وخبر نفسية السوريين المتأمركين . ان الثقافة الاسلامية ازدهرت وتمجدت في تلك الأوساط المسيحية وشعت في أدب الكتّاب والشعراء اشعاعاً عفوياً غير مشوب برغبة أو برهبة ، والشواهد على ذلك كثيرة في شعر القروي وفرحات ونصر سمعان ومحبوب الشرتوني كما سنرى . وأقرب شاهد هو قول الدكتور أحمد زكي أبو شادي بعد أن عايش الأدباء المهجريين وخبر نزعتهم عن كثب ، فأكد انه وجد الادباء المسيحيين يغارون على الثقافة الاسلامية وعلى سمعة نبي الاسلام ويعدّونه قبل كل اعتبار بطلاً عربياً ومصلحاً فذاً ، ويحسبون ذلك صلة وثيقة بكرامتهم الوطنية (كتاب الرسالة الأدبية صفحة ٤٠) [١] .

---

١ لادباء المهجر شغف بالثقافة الاسلامية حمل بعضاً منهم إلى اعتناق الدين الاسلامي : كالدكتور جورج خير الله (ابو علي) في نيويورك ، والياس عبد الله طعمه (ابو الفضل الوليد) في سان باولو . أما الشاعر القروي فللثقافة الاسلامية المنزلة العليا في فؤاده . كتب عنه الاستاذ عبد اللطيف الخشن في جريدته « العلم العربي »انه سمعه يتلو القرآن الكريم كما يتلوه المسلمون المتعبدون ، بل قل في المسلمين من يعتنون به عناية الشاعر القروي . وانه زاره مرة عام ١٩٤٩ فوجده يتلو القرآن ويبكي بكاء الطفل ، ثم تنهد القروي وقال : « ويل لكم ايها المسلمون . أتذل أمة بين يديها هذا الكنز الثمين ويستعمر شعب يملك هذه القوة والعظمة ؟ أليست هذه قنبلة « ذرية » ؟

وأخص المهاجرين المدلهين بحب العربية هم الشعراء بدليل ما يقوله الشاعر القروي :

أضحك ما يضحكني مستعجم يسبني بلغة يسبها
وحقها ، لو لم أكن أحبه سامحته لأنني أحبها

فهذا الوله بالفصحى أخرجه من طبيعته البشرية إلى درجة من التسامح هي من طبيعة الملائكة والقديسين .

وعندنا ان ارتباط المهاجر المسيحي بالثقافة الاسلامية ليس مظهراً لعاطفة دينية بل لعصبية هي أقوى العصبيات وارسخها في نفسه ، نعني عصبية اللغة العربية ، انه يهوى في الثقافة الاسلامية تلك اللغة الجميلة ويهوى في القرآن الكريم ذلك البيان العربي الساحر ، ويهوى في ديار الاسلام ذلك الجو الأدبي الشرقي الذي ألفه وتعشقه ثم انفصل عنه بالانتقال إلى الجوّ الغريب . فان سمعت شعراءهم يحنّون إلى طبيعة بلادهم ومناظرها ويتوجعون للبعد عن أهلها فاعلم انهم أول ما يحنون اليه في سريرتهم هي اللغة العربية التي فارقت لسانهم والجو الأدبي الذي تبدل عما ألفوه .

يقول استاذنا العقاد — طيب الله ثراه وكرّم مثواه — في مقال عن شعراء المهجر الجنوبي نشره في مجلة قافلة الزيت عدد شهر آذار (مارس) سنة ١٩٦٤ ، أي الشهر الذي لقي فيه ربّه ، فكان من أواخر ما كتب ونشر :

« المهاجر العربي ، إنما فارق اللغة وليس له أعزّ منها ولا أحقّ بالتذكار والحنين . وهذه العلاقة تصبح عنده عصبية متوهجة تطوي في ثناياها كل ما عداها من عصبيات وعلاقات ، وتوشك أن تنقل اليها حماسة الدين وألفة الطبيعة وحدّة النخوة الوطنية . ويهون المساس بكل شيء ولا يهون المساس بهذه البقية الباقية من امانة القلب واللسان ! انها « اسلوب مشترك » بين جميع المهاجرين لا يعرفون اسلوباً غيره . فكلهم مظهر « لغوي » واحد من مظاهر تلك العصبية الشاملة ، وكلهم « متكلم » عربي قبل كل شيء ، ثم هو فلان بن فلان بعد ذلك . »

ولا يُنبيك مثل خبير .

وفي سورية وجد شعراء المهجر الجنوبي أنداداً لهم وأضداداً (اعفوني من ذكر الاسماء) . فمن أندادهم الشعراء المجددون المقتصدون في الأخذ من أدب الغرب وأساليبه ، ومن أضدادهم فريق تشبث بالقديم وما زال

يقلّده وفريق لم يكتف بالتجديد فراح يجدده . أما في العراق وفي فلسطين ، فلم يزاحم شعراء البرازيل شاعر الرابطة القلمية الأكبر — ايليا أبو ماضي — على الحظوة التي نالها في القطرين . ويقال ان لدواوين أبو ماضي رواجاً في العراق لا يطاوله أي ديوان آخر . وشاعرة فلسطين فدوى طوقان وقفت إعجابها على أبو ماضي ، أي على الشاعر الذي قال عنه الدكتور طه حسين انه لا يحسن الالفاظ والاوزان ... وقد كتبت هذه العبارة عنه : « انني أرفعه إلى القمة ولا أفضل عليه شاعراً عربياً آخر في القديم أو في الحديث . فالشعر العربي لم يعرف له نظيراً » . يقابل ذلك مناطق نفوذ واسعة الأطراف خُص بها الشاعر القروي ، ففي حوران وجبل الدروز وأطراف الجزيرة ، كان المجاهدون يرددون شعر القروي في مضاربهم ويجوّدونه كأنهم يجوّدون الآيات ...

أما في لبنان فبعد أن انتشى الشعراء زمناً طويلاً بخمرة الرومانسية من كؤوس أبو شبكة وبشارة الخوري وأمين نخلة صحا بعضهم على رغبة جامحة في تقليد الغرب وفي تجاوز المدى الذي قطعه شعر المهجر . فبشروا بالمذاهب المستحدثة كالرمزية والسريالية والوجدانية والفن للفن والشعر الحر ، وراح كلٌّ يتعصب لمذهبه ويحمل على كل مذهب عداه، لايستلهم إلاّ خياله ولا يعبر إلاّ عن ذاتية نفسه حتى أصبحت فكرة الشعب اللبناني وصورة حالته وأثر الحوادث في بلده لا تتمثل في شعر المقيمين بل تتمثل في شعر المغتربين .

ويقيننا أن هذا التطور الأخير ما هو إلا موجة عابرة سوف تتكسر وتتلاشى على صخور الشاطئ . وكم بدعة ظهرت قبلها واختفت كما يظهر الخفاش في الليل ويختفي في النهار .

قطع الأدب المهجري كل هذه المراحل ولم يبرح جو الحرية الذي نشأ فيه . ولم يتقيد بمذهب معين ولم يعتمد مقاييس ثابتة في الأساليب ، بل أخذ من كل فن طرفاً وانطلق في الاداء على سجية منشئيه ، لا يتغذى

إلاّ بزاد قلبهم ولبهم ولا يهمه إن كانت وسائلهم كلاسيكية أو رومانسية أو برناسية . قيل عن شعرهم في مصر إنه كلاسيكي على ضعف في الأداء . وقيل عنه في سوريا إنه رومانسي على شيء من الجفاء ، وقيل عنه في لبنان انه رمزي على عجز في الإيحاء . والحقيقة هي انه مزج الكلاسيكية بالرومانسية مزج الماء بالراح ، وطلى الواقعية بألوان الفن ، واستل من الرمزية أفاويه تطيب النكهة . أما المخدرات السريالية فلم تقع في كأسه . وإن كان لا بد من حصر هذا المزيج في مذهب مسمى فليكن مذهب الواقعية الفنية الذي ينقل الحقيقة الموضوعية في صورة شعرية تماوج بين خطوطها أحاسيس الشاعر الباطنية خاف الوان الواقع الخارجية . لا أجد تعريفاً أقرب من هذا إلى حقيقة الشعر المهجري .

توخّى أديب المهجر أن يهزّ القلوب قبل أن يبهر العقول . فعالج من المواضيع أقربها إلى حياة الإنسان واختار من الأساليب ما يروق للخاصة ويصلح للعامة . وزهد في كل مجد وكل مصلحة شخصية ، إلاّ مجد الضاد ومصلحة الوطن . وكم يسعده اليوم أن يرى النهضة الأدبية التي أسهم في خلقها بمقدار كبير سائرة إلى الأمام في طريق الكمال . فلا بأس من الأقاويل ولا حرج من تعدد المذاهب الأدبية ، ما دام الأدباء المعاصرون قد تحول اهتمامهم من الألفاظ والتراكيب إلى المعاني والأحاسيس والأفكار واعتمدوا الاستقلال الشخصي في الأسلوب ، واتجهوا اتجاهاً فكرياً عالمياً في المقال والقصة والرواية والنقد والتحليل النفسي ، فأصبح كل كاتب وشاعر يواجه مسؤولياته أمام الحياة وأمام الفن وأمام المجتمع .

دراسة الأب المهجري

لدينا وسيلتان لدراسة الأدب المهجري : الأولى ، تحري سيرة

الأديب المهاجر وأحوال البيئة التي خرج منها والبيئة التي دخل فيها حتى تنكشف لنا شخصيته والتأثيرات التي تعرض لها أدبه ، وحتى نعيش معه فترات التأمل والاكتناه التي سبقت الانتاج والنشر . فكما يقول سعيد عقل « لا وجود لأية شرارة جمال إلا ووراءها عمر من التحضير والكد » .

والأخذ بهذه الوسيلة عسير شاق لأن نجاحها رهنٌ بالمعلومات والتراجم التي نحصل عليها وهي أحياناً تتوفر وأحياناً تتعذر . وقد جمعنا منها القدر المستطاع ، حتى متى جاء دور الكلام على كل أديب بمفرده ، ذكرنا ما نعلم عن ظروف حياته الخاصة . أما التأثيرات العامة التي خضع لها جميع الأدباء المهاجرين ، كدوافع الهجرة وأغراضها ، ومحسناتها ومساوئها ، فقد تكلمنا عليها في فصل هجرة الأدباء .

والوسيلة الثانية هي تمحيص ما لدينا من آثار أدبية انتجها الأدباء المهاجرون والتحقيق في روعتها البيانية وقيمتها الفكرية والتوجيهية . فإن جمعنا هذه الآثار ورددناها إلى مصادرها وجدنا أن أعضاء الرابطة القلمية في الشمال وأعضاء العصبة الأندلسية في الجنوب انتجوا أكثرها وأروعها . وتتلوهما في الإنتاج الرابطة الأدبية في الأرجنتين ، ثم طائفة من الأدباء المتفرقين في مختلف الجمهوريات الاميركية .

هذه الآثار قوام المدرسة المهجرية ، هي المادة الأولى لدراستنا ، وأصحاب الآثار هم المادة الثانية . فما كل أديب طرق المهجر انطبع بطابع الأدب المهجري ، وأسهم في تكوينه وحق علينا ذكره في هذه الدراسات ، ولا الأدباء الذين اسهموا كانت ثمرات جهودهم متساوية ، بل تفاوتت كميةً وفاعلية بتفاوت مواهبهم وثقافاتهم وظروف معيشتهم ، وان تكن المؤثرات المتماثلة في حياة المهجر وحدت اتجاههم في الأدب . جميعهم حملوا إلى الاميركتين التربية الشرقية والثقافة العربية وتأثروا إلى حدٍّ ما بالبيئة الاميركية من حيث التحرر والاجتهاد والنزعة العملية .

فاكتسى أدبهم مسحة غربية مع الحفاظ على الروحانية الشرقية . لم يكتبوا أو ينظموا إلا بروح عربية ولمصلحة عربية ، حتى أولئك الذين كتبوا ونظموا بلغة أجنبية كانت الروح العربية تهيمن على نتاجهم والمصلحة العربية الهدفَ الأهم من أهدافهم . وكانت الثقافة والتاريخ والحضارة الشرقية أقوى من كل ما عداها من العوامل في تكوين أدبهم . انهم عملوا بقول غاندي : « لا أريد لبيتي أن يكون مستوراً من جميع الجهات ولنوافذي أن تكون مغلقة . أريد أن تهبّ على بيتي ثقافات كل الأمم بكل ما أمكن من حرية . ولكنني أنكر عليها أن تقتلعني من أقدامي » .

وجميعهم اشتركوا في مقاومة تيارات الحياة المادية وطغيان الفكر واللسان الأعجميين واستهتار الجيرة والعشيرة ، ولم يزالوا إلى اليوم يدافعون عن عوامل الانحلال والفناء عن لغتهم وأدبهم بصبر عجيب وعناد غريب . ليس فيهم أديب واحد نزح عن وطنه لكي يمارس حرفة الأدب في المهجر . فما مارسها إلاّ انقياداً لنزعة نفسية طاغية جعلته يحيد عن هدف الهجرة وينسى واجبه نحو ذاته المفتقرة إلى الأوَد ونحو عياله المترقبين النجدة ، فيبذل في سبيل أمته ولغته جهوداً كان نذرها لالتماس الرزق وحده . ولولا الضرورة القاهرة ما قسم تلك الجهود بين انتاج الأدب وتحصيل الرزق وراح يضرب في كل مجهل ويكدح في أعمال شاقة ما خُلق لها . فكان على حد كلمة طاغور : « كالكوكب الذي ينتزع من سمائه ليصنع منه عود ثقاب » .

هذه الأحوال المشتركة في حياتهم طبعت نتاجهم الأدبي بطابع خاص وهيأته لأداء رسالة واحدة .

ما هي الخصائص التي يتميز بها أدب المهجر ؟

وما هي رسالته ؟

الفصل الثالث

خصائص الأدب المهجري

يتميز أدب المهجر بصفة عامة هي التجديد الطامح إلى الكمال، وبخصائص قوية بارزة في قالبه وفي مضمونه .

ففي القالب ، يتميز الأدب المهجري بالتحرر التام من قيود القديم مع استبقاء ما لان منها للصياغة الحديثة وما طاوع منها نزعة التجدد . انتقال من الاتّباع إلى الإبداع ، ومن عبودية التقليد إلى الاستقلال بالشخصية الأدبية . لا جمود في القوالب الجاهزة ولا ميوعة في المسارب المستحدثة . انعتق النثر من المدلولات الثابتة والرواسب المحنطة ، وانطلق الشعر إلى أصوات متعددة وأوزان قصيرة مجزوءة وموشحات تتبارى بالفن مع ما خلّفته لنا الأندلس .

أما في المضمون ، فهذه هي خصائصه :

اولاً – الطابع العاطفي : رقة في العاطفة ما بعدها رقة . تتجلى في

الشوق والحنين إلى الوطن البعيد في نغمات مؤثرة ، لم تعرف لغة الضاد أوقع منها جرساً ولا أرهف حساً ، يتساوى فيها المجدودون والفاشلون في حياة الاغتراب . الناجحون لم تنسهم النعمة أوطانهم الأولى ، والخائبون زادت قسوة الحياة لهفتهم إلى حضن الأم ، إلى البيت المهجور ، إلى الكرم الأخضر ، إلى ملعب المدرسة . قال ابو ماضي :

الأرض ، سوريا أحب ربوعها عندي ولبنان أعز جبالها
تشتاق عيني قبل يغمضها الردى لو أنها اكتحلت ولو برمالها

وقال فرحات :

دار العروبة ، دار الحبّ والغزلِ هاجرت منك وقلبي فيك لم يزلِ
هلاّ مننت بلقيا أستردّ بها فجر الشباب ، فشمس العمر في الطفل
هذي الغريبة ما زالت تقبّلني والسمّ يقطر من أنيابها العُصُل
والله يشهد اني كلما رجعتْ مني اليك الصَّبا حمّلتها قُبَلي

وقال الشاعر صيدح يناجي دمشق الشام :

يا مسقط الرأس والأرحام تجمعنا حاشا تغيّرني في حبّك الغيَر
أنسى يميني ولا أنساك يا وطناً فيك ابتدا — ليته فيك انتهى — العمر
أوصيك بالروح . رتّبها متى انطلقت إلى ظلالك حيث النهر والشجر
حيث القباب على الأجداث حاضنة مجد الجدود الذي ضاقت به الحفر

ثانياً — الطابع الصوفي : حب الجمال المثالي جعلهم يحبون الطبيعة ويندمجون فيها . لقد ناجوها واستلهموها روائع الشعر وتعدوا في وصف

جمالها المشهد المنظور إلى ما وراءه من معانٍ وأسرار . فالطبيعة عندهم تحسّ وتشعر إلى أعمق مما تحسّ وتشعر به الحواس الخمس . « هي تفكّر خلالهم كما هم يفكّرون خلالها » حسب تعبير بودلير . قال القروي :

من لنفس تودّ لو تغمر الكونَ هياماً بحسنه المعبود
مثّلوا لي هذا الوجود بشيء أنا لا أستطيع ضم الوجود !

وقال أبو ماضي :

فَلْيَكُ الليل راهبي وشموعي الشهب. والأرض كلها محرابي
وكتابي الفضاء أقرأ فيه سوَراً ما قرأتها في كتابي
وصلاتي الذي تقول السواقي وغنائي صوت الصَّبا في الغاب
ولتكحّلْ يد السماء جفوني ولتعانقْ أحلامها أهدابي
وليقبّلْ فمُ الصباح جبيني وليعطّرْ أريجه جلبابي

ثالثاً – الطابع التأملي : هو نتيجة لتأملهم الطويل في الذات وفي ما حولهم من الكائنات ، شأن الفلاسفة الروحيين . انشغلوا بما انطوى في أعماق النفس من المخبآت والودائع وانشغلوا بمشاكل الوجود وقضايا الفناء والخلود فاتجهوا بفنهم إلى استجلاء غوامضها . وهذا الاتجاه نحو الحياة الروحية والمواضيع المجردة هو أروع ما سجله تاريخ الأدب الحديث من تجديد وبُعد نظر . وقد اشتهرت قصيدة الطلاسم لأبوماضي :

ليَ ذاتٌ غير أني لست أدري ما هيه
فمتى تعرف ذاتي كنه ذاتي ؟ لست أدري

إنني جئت وأمضي وأنا لا أعلمُ
أنا لغز وذهابي كمجيئي طلسم
والذي أوجد هذا اللغز سرٌ مبهم
لا تجادل . ذو الحجى من قال إني لست ادري

وكثرت الحيرة والتساؤلات في شعر نسيب عريضة كما سنرى .

رابعاً – الطابع الأخلاقي : أدب التوجيه نحو ممارسة الفضائل واجتناب الرذائل . يعتمد الصور الشعرية لبث دعوته أو يتغلغل في النفوس بوسائل القصص المثير فيوحي اليها النفور من القبيح والخسيس والشائن ، أو يزرع فيها بذور التمرد على ما في الأرض من ظلم وقسوة .

وهذا الأدب القصصي – في الشعر وفي النثر – يمحو الطلاء عن وجه البشر فتظهر نفوسهم على حقيقتها وتتكشف لهم مواضع الضعف والقوة منها فيرتسم أمامهم سبيل الإصلاح . وإن إصلاح النفس الإنسانية لا يقوم على المصانع والمدارس والملاجئ وحدها إن لم يكن هناك أدب تبعث الأخلاق الفاضلة التي طمستها همجية الحروب . وإنما الأمم الاخلاق...

خامساً – الطابع الواقعي : أدب هو مرآة الحياة يراوح بين أحوالها وأشكالها أو هو ، كما يقول نعيمه : « عين يقظى تلاحظ وتسجل ، وقلب ينبض بنبض الحياة فيما حوله ويتحسس مجاعة الأرواح » ، هذا الأدب يصور الواقع المحسوس بالبيان الفني فتصل رسالته إلى المجتمع متزودة بوسائل الإقناع وبجمالات الفن . وما الفن – في رأي طه حسين – إلاّ الارتقاء بالأشياء من الحياة الواقعية ، دون الخروج منها . ويقول كلاي : « إن الجمال المثالي عاجز عن تعزية الناس من أحداث الحياة ،

والحياة أكثر غنى وتنوعاً وأهمية من أية قطعة من الخيال أو تهويمة من تهاويم الأحلام أو همسة غامضة من المهمهات » .

سادساً – الطابع القومي : هو أدب الوطنية الصحيحة التي تركزت على أسس ثابتة كوحدة اللغة ووحدة التاريخ ووحدة الأهداف . ليست وطنية جغرافية ، لأن الحدود الجغرافية قابلة للتعديل . ولا هي وطنية دينية لأن الدين مشاع لأمم مختلفة ولا يشمل جميع أفراد الأمة الواحدة . أدب المهجريين أخلص للامة التي نجلته وللأرض التي ولد فيها . همه الإسهام في الحركات التحررية في الوطن الأم بإيقاظ الوعي وشحذ الهمم . ما حدثت حادثة ذات شأن في الأقطار العربية إلا كان المهاجرون لها بالمرصاد يعلقون عليها ويستخرجون منها العبر . وما نزلت محنة في الوطن إلاّ عاشوها معه بقلوبهم ، وبأدبهم . منهم من عاصر الحكم العثماني ثم حكم الانتداب الفرنسي فكان اتجاههم إلى التحرر والانعتاق طبيعياً فأطلقوا الدعوة إلى الثورة . ثم جاء عهد الاستقلال فتحول اتجاههم نحو طلب الإصلاح وحشد القوى لمجابهة الخطر الصهيوني تحت راية الاتحاد ، إن تعذرت راية الوحدة :

وما ضرّنا إن لم يك العرب وحدة وقد وحّدتنا في الجهاد المقاصد
أصابع كفّ المرء في العد خمسة ولكنها في مقبض السيف واحد

(الشاعر القروي)

سابعاً – الطابع الانساني : أدب يشع بروحانية الشرق ، يتطلع بروحه إلى المثل العليا في الحياة ويتعاون مع قوى الخير لخلق عالم أفضل ، شأن الأدباء العالميين .

يقول نعيمه : « إن الشرق كان أول من انتصر للإنسان ، وأول

من اعترف بنبعته الإلهية وغايته السماوية ، وأول من دعاه إلى محاربة الغرائز الحيوانية » . وأدباء المهجر هم أبناء الشرق ، سكنت روحانيته أرواحهم فلم تقوَ المادة على أن تطغى عليها ، وملأت حكمة العرب عقولهم فأدركوا أن سعادة الفرد لا قيمة لها إلاّ بسعادة قومه ، وسعادة القوم لا تكمل إلاّ بسعادة الإنسانية جمعاء . كما انهم تلقنوا من الديانة المسيحية التعاليم الانسانية وما فيها من رحمة ومحبة واخاء فبشروا بها بطريقة لا شعورية . قال فرحات :

ربةَ الحكمة إني شاعر يعشق الحكمة مذ كان صبيا
لا تخاليني لصيقاً بالثرى لا تمس الأرضُ إلا قدميا
إن في الإنسان من فطرته للثرى شيئاً وشيئاً للثريا

* * *

هذه هي الخصائص البارزة في الأدب المهجري . على ضوئها كتب رسالته شعراً ونثراً وعرضها على محكمة التاريخ .

الفصل الرابع

رسالة الأدب المهجري

يقول نعيمه : « ان الشعر المهجري أدى رسالته للشرق كاملة فكل ما جاء بعد فهو نور على نور » . فما هي تلك الرسالة ؟ أكل أديب مهاجر رسول ؟

إذا كانت رسالة الأدب الصحيح تقوم على تجميل الحياة بألوان الفن وتهذيب الحواس بموسيقى الألحان وإنارة العقول بالمعرفة وترقيق الاكباد بالمحبة وترويض الأخلاق بالفضيلة .

وإن كانت رسالة الأدب السامي تقوم على إنكار الذات والتضحية بالنفس في سبيل الوطن وبنيه حتى تتوفر لهم الحرية والكرامة والسعادة .

وإن كانت رسالة الأدب الأسمى تقوم على التجنيد لخدمة المثل العليا والسعي لخير الإنسانية جمعاء حتى يعيش البشر في عالم أفضل .

فهل اضطلع الأدباء المهجريون بواحدة من هذه الرسالات ؟

فريق من أدباء المهجر اتسم بالطابع الإنساني المثالي ، وفريق بالطابع

القومي الخالص ، ولكنهم جميعاً دون استثناء أدوا رسالة الأدب إلى المجتمع ورسالة الأدب إلى اللغة العربية .

الرسالة الانسانية

جبران ونعيمه في كل انتاجهما ، والريحاني وأبو ماضي وعريضة في بعض ما انتجوا ، أعطوا للانسانية من مواهبهم وأرواحهم وبشّروا بتعاليم سامية نفذت منها روحانية الشرق إلى البيئات الأجنبية ، وكان تأثيرها بليغاً في البيئة الاميركية حيث كانت النفوس مفتقرة إلى فلسفة روحية تولد على أرضها وتركن اليها ، إلى جانب الفلسفات المادية الغامضة الواردة من أوروبا والتي شبهها جبران بالمرايا تعكس رسوم الأشياء ولا تراها . وبالكهوف ترجّع صدى الأصوات ولا تسمعها . فوصلت رسالة الشرق الروحانية في حين الحاجة اليها . وقد رسم جبران خطوط نزعته الإنسانية بهذا الكلام : « الأرض كلها وطني والعائلة البشرية عائلتي لأني وجدت الإنسان ضعيفاً ومن الصغارة أن ينقسم على ذاته . والأرض ضيقة ومن الجهالة أن تتجزأ إلى ممالك وإمارات . أحن إلى بلادي لجمالها وأحب سكان بلادي لتعاستهم .

« أحب مسقط رأسي ببعض محبتي لبلادي . وأحب بلادي بقسم من محبتي للأرض ، وطني الحقيقي . وأحب الأرض بكليتي لأنها موقع الإنسانية ، روح الألوهية على الأرض ، أتشبب بذكر قريتي وأشتاق بيتاً ربيت فيه . ولكن إذا مر عابر طريق وطلب مأوى وقوتاً فمُنع وطُرد ، استبدلت حينئذ تشبيبي بالرثاء وشوقي بالسلوّ وقلت في ذاتي : إن البيت الذي يضِن بالخبز على المحتاج اليه والفراش على طالبه ، لهو

أحق البيوت بالدمار والخراب » . على ضوء هذه العاطفة الإنسانية نشأ أدب جبران في كل مناحيه من المقال إلى القصة . وتأثره بقية أعضاء الرابطة القلمية في أدبهم . ولم يتأثره أدباء الجنوب لاختلاف في تحديد الفكرة الوطنية : إذ يستحيل على الشاعر القروي أو فرحات أن يقرأ جبران على أننا نحب بلادنا لجمالها ونحب السكان لتعاستهم ، كأن الإنسان معفى من حب بلاده إن لم تكن جميلة ومن حب سكانها إن لم يكونوا تعساء .

أما نعيمه فتعاليمه الإنسانية أعمق جذوراً وأرحب مدى . فهو ما برح يحث الأدباء على أن يؤدوا الرسالة الشرقية الروحانية وان يستمروا على تأديتها كما أداها في الماضي الأنبياء لأنها أفضل الوسائل لسعادة الشرق وسعادة البشرية .

فنظرية نعيمه تناقض نظرية الريحاني القائل : أنا الشرق عندي فلسفات وعندي أديان ، فمن يبيعني بها طيارات ؟ !

الرسالة القومية

رسالة إيقاظ وإنقاذ . أيقظت الوعي القومي وحفزته إلى تحطيم الأنيار في ثورة تحررية تعقب الثورة القلمية ، وتنقذ الأوطان العربية من عبودية الاستعمار . أول من قام بهذه الرسالة الريحاني الذي وقف قلمه على نصرة العرب وقضى حياته في تأليف الكتب وإلقاء المحاضرات ومعاناة الأسفار دفاعاً عن قضيتهم . وتبعه الشاعر القروي ، شاعر الوطنية العارمة الثائرة ، وصنوه فرحات ، مطلق القذائف النارية من قصائده الوطنية ، وجميع شعراء الجنوب . أما في الشمال فكانت قصائد أبو ماضي الوطنية

تهز القلوب وتثير الحمية بالنغم الهادئ المستجاد دون أن يكون لها هدير السيل الجارف المنطلق من شعر القروي وفرحات . اسمعه يعاتب عشيرته:

وكم تستكين وتستسلم وقد بلغ السيل زنّارها
تبدلت النـاس والأنجم فهلاّ تُبدِّل أطوارهـا
متى يذكر الوطن الغافلون كما تذكر الطير أوكارها ؟

ونسيب عريضة ، من لم يسمع بقصيدته المتفجرة كأن أبياتها اضلاع تتكسر وتتطاير من صدره ؟ لقد ضاق بتقاعس المغتربين عن نجدة إخوانهم المنكوبين في الوطن ، على اثر الحرب العالمية الأولى ، فقال :

كفنوه — وادفنوه — أسكنوه — هوة اللحد العميق
واذهبوا لا تندبوه — فهو شعب ميّت ليس يفيق !
ولنتاجر — في المهاجر — ولنفاخر — بمزايانا الحسان
ما علينا إن قضى الشعب جميعاً ؟ أوَلسنا في أمـان ؟
ربَّ ثارٍ — رب عار — رب نار — حركت قلب الجبان
كلها فينا — ولكن لم تحرك ساكناً إلاّ اللسان . .

وجدير بالذكر ان جبران رغم إنسانيته المثالية التي تتعالى على الحدود والفروق والعصبيات لم يتجرد من العاطفة الوطنية ، بل جرى فيها قلمه مراراً بأحدّ اللهجات وأعنفها . ومقالاته (مات أهلي — يا بني امي — لكم لبنانكم ولي لبناني) مشهورة .

ومخائيل نعيمه ، ذلك المعلم الإنساني المبشر بغلبة الروح عـلى المادة ، ألم يختلج فؤاده بعاطفة وطنية عصفت فيه — يوم وصلته أخبار المجاعة في لبنان فزفر تلك الزفرة الدامية في قصيدة أخي ، القصيدة التي

خصها الدكتور مندور بأشد إعجابه :

أخي من نحن ؟ لا وطن ولا أهل ولا جار
إذا نمنا إذا قمنا رِدانا الخزي والعـــار
لقد خمّت بنا الدنيا كما خمّت بموتانا
فهاتِ الرفش واتبعني لنحفر خندقاً آخر
نواري فيه أحيـــانا

هذه الرسالة القومية تساير في مراميها الرسالة الإنسانية ولا تناقضها لأنها تدعو إلى إقامة العدل وإعلاء الحق وإعادة الحرية لوطن هو جزء من الوجود الشامل ، ولشعب هو جزء من الإنسانية ، وسعادة الكل تقوم على سعادة كل جزء منه . « إن العالم بأوسع معناه ينطلق من حدود الوطن ، والإنسان بأكبر ما يحتمل من الشمول إنما يبدأ في الإنسان اللاصق بأرض الوطن ، والفكر بأعظم ما فيه من طاقة التحليق إنما يأخذ جناحيه من تفاعل الانسان مع طبيعة الوطن » . (من كلام حسين مروة) .

وعبثاً حاول بعض دول الغرب تقديم الفكرة الأممية على الفكرة القومية في عقيدة الشعب ، لقد أسفرت محاولاتها عن غلبة الفكرة القومية تمشياً مع واقعها وتأميناً لسلامتها ، وعادت تبثها في يقين الشعب بوسائل التعليم والتربية والدعاوة . وإن الأمة العربية ، في حرج وضعها الحاضر وأمام الأخطار التي تهدد كيانها ، هي أحوج الأمم إلى تعزيز الفكرة القومية وجعلها عقيدة سائدة كل العقائد ، شاملة جميع طبقات الشعب ، إلى أن يأتي يوم تصان فيه حقوقها كأمة مستقلة سيدة نفسها فيفسح المجال للفكرة الأممية ، قال الريحاني : « لا تنسوا وطنكم في حبكم الإنساني ، ولا الإنسانية في نزعتكم الوطنية » .

الرسالة الاجتماعية

هي رسالة الإصلاح ، اشترك في أدائها كل شاعر وكاتب في المهجر على نسبة مكنته وأهليته ، فمنذ ما أطلق الريحاني الصرخة الأولى عام ١٨٩٨ إلى يومنا هذا ، لم تتغير اللهجة ولم يتبدل الهدف : ثورة على التعصب الديني وحرب على العلل التي تنخر جسم الشرق العربي كالطائفية والإقليمية والاتكالية والمحسوبية .

ذلك أن الأدباء ظلوا على اتصال وثيق وتجاوب عاطفي متبادل مع أبناء وطنهم طوال سني هجرتهم ، وعندما لمسوا في المهجر مظاهر الرخاء والطمأنينة التي يتمتع بها الشعب نتيجة لبراءته من داء الجهل والتعصب والإقطاع وما شاكل ، عمدوا إلى دعوة الإصلاح متمنين لو انتقلت تلك النعم الاجتماعية إلى الأوساط العربية في الوطن .

وقد كتب المرحوم الدكتور أبو شادي بهذا الصدد فقال :

إن تفكير الأديب المهاجر مزدوج ، فبينما يستوعب مسائل محيطه الراقي يتفاعل معه تفاعلاً واقعياً وعاطفياً ، نراه يحن إلى وطنه ويسهم في معالجة مشاكله ، وقد يكون على البعد المكافح الرائد وحامل علم الثورة .

قال عريضة :

أنا المهاجر ذو نفسين واحدة   تسير سيري وأخرى رهن أوطاني

وقال أبو ماضي :

أنا في نيويورك بالجسم ، وبالروح   في الشرق على تلك الهضاب
في ابتسام الفجر ، في صمت الدجى   في أسى تشرين في لوعة آب
أنا في الغوطة زهر ونـدى   أنا في لبنان نجوى وتصابي

والجميل في رسالتهم الاجتماعية انها تُقرأ من خلال السطور في قصة شائقة لنعيمه أو لجبران تتكلم حوادثها وتوحي العظات ، أو في رباعيات من رباعيات فرحات اللاذعة ، فلا يتبرم السامع بالعظات الصريحة الجافة .

وها هو فرحات في نقمته على رجال الدين ، سواء لديه أصحاب القلانس وأصحاب العمائم :

أثيرُ على التعصب نار حرب ... يطير على اللحى منها شرار
قذفت بها قلانسهم فطارت ... ولو خفّت مآثمهم لطاروا ..

*

لا يفهمون الدين إلا جُبَّة ... وعمامة وتنطعاً وهراء
أن يخسر الوطن اللواء وأخته ... وسواهما ، فالأمر ليس بلاء
أما إذا نقض الوضوء فنكبة ... تذري الجبال وتغمر الأوداء

وأدباء المهجر بوصفهم فنانين ، اختاروا لرسالتهم المذهب الواقعي ، أنسب المذاهب لرسالة الإصلاح على شرط أن يعنى بالناحية الفنية عنايته بتجارب الحياة العامة . والأديب الذي يوفق بين الواقع والفن ويحمل اعباء المسؤولية الاجتماعية هو الأديب العظيم ، لا ذاك الذي يقتصر على الخد والنحر والكأس والزهر .

الرسالة اللغوية

هي رسالة التجديد والتبسيط والابداع : نشرها المهجريون في زمن

كان الأداء فيه تقليداً ومسخاً وتعقيداً . بدأت بالريحاني وجبران ثم انضم اليهما نعيمه وأصبح زعيم الحركة المهجرية في تحرير اللغة ونقلها من وهدة الجمود إلى حياة نشيطة ، يعيش فيهـا الأدب بمقدار ما ينبض فيه من الأفكار والمعـاني لا بمقدار مـا يرتديه من الأزياء اللغوية . وما زال كتاب نعيمه « الغربال » دستور المجددين والناقدين . ولم يكتف أدباء المهجر بالنصيحة والإرشاد إلى نهضة لغوية بل طبقوا مذهبهم على إنتاجهم وجاء نثرهم وشعرهم فيضاً من الروح على مسارب الحياة . وكان ايليا ابو ماضي أول المتحمسين لمذهب التجديد ، وهو المذهب المخلوق له الملائم لأسلوبه السهل الممتنع . وجاء الريحاني بأسلوب الشعر المنثور فأقبل عليه الكثيرون من أدباء الوطن يقلدونه . قال يحيي مصر :

أكبر الشرقيات الباسمات للدهر	وأحدث الشرقيات الناهضات
هي أول من حمل ميزان القسط	وأول من استرقّ العبـــاد
لها الصولجان المرصع ألماسـاً	والسوط الملطّخ دمـــا
هي أول من قال للموت لا	وأول من قال للحياة نعم !
لها في الموت حيـــاة وفي	الحيـاة المـآثر الخالدات

مصر آية الزمان — ابنة فرعون — معجزة الدهر — فتاة النيل

وبرز جبران بأسلوب باهر أصبح مدرسة جديدة في البيان لما فيه من أخيلة وكنايات وألوان وألحان تعتلج بالنبض والحرارة والجمال . فهو في المهجر رائد التجديد الأول وأستاذه الأكبر . أعطى اللغة إمكانية جديدة في التنسيق والبيان للتعبير عن الجمال ، ورسم صوراً جديدة في كل موضوع عالجه . كم من الشعراء والكتّاب ناجوا الليل ووصفوا بحره الطامي وعيون كواكبه المشدودة اليه بأمراس ... ولكن جبران

خاطبه بغير ما ألفناه :

« يا ليل العشاق والشعراء والمنشدين
يا ليل الاشباح والأرواح والأخيلة
يا ليل الشوق والصبابة والتذكار

أيها الجبار الواقف بين أقزام المغرب وعرائس الفجر ، المتقلد سيف الرهبة ، المتوج بالقمر ، المتشح بثوب السكوت ، الناظر بألف عين إلى أعماق الحياة ، المصغي بألف أذن إلى أنة الموت والعدم .

في ظلالك تدب عواطف الشعراء ، وعلى منكبيك تستفيق قلوب الأنبياء ، وبين ثنايا ضفائرك ترتعش قرائح المفكرين .

أنا مثلك يا ليل ، أنا مسترسل منبسط هادئ مضطرب ، وليس لظلمتي بدء ولا لأعماقي نهاية » .

وقال في « اغنية المطر » :

« أنا خيوط فضّية تطرحني الآلهة من الاعالي فتأخذني الطبيعة وتنمّق بي الأودية .

أنا لآلئ جميلة نُثرت من تاج عشتروت فسرقتني يد الصباح ورصّعت بي الحقول .

انا أبكي فتبتسم الازهار وأتضع فترتفع الاشجار .

أصعد من قلب البحيرة وأسير على أجنحة الأثير » .

ولجبران ابتكارات لفظية هضمتها اللغة غذاء دسماً وأصبحت جزءاً من كيانها ، وهي أكثر من أن تعد : رقاد الحياة — جبهات الروابي — أحلام اللانهاية — برقع الأماني — كؤوس النرجس — أشباح اليقظة —

المجاعة الروحية – رماد الأجيال – مواكب الأجيال – قامات الأعشاب – أصابع الفجر الوردية – عويل الهاوية – تهليل الحكمة – قيثارة الروح – حنين السكينة – مطرقة من نور – ازميل من ريح .

ولنعيمه صور مبتكرة جارى فيها الغرب دون أن يقلده كقوله :

« انفذت الشمس أشعتها إلى الغرفة في يوم برده عضاض ولكن أنيابه من ذهب » .

وقوله في وصف عمله اليومي :

« اسخّر من العمل ساعات بكارى من حياتي لعدد من الريالات المومسات » .

لا شك أن هذه النفحة المهجرية أنعشت موات اللغة في المهجر وانطلقت منه إلى الأجواء العربية تملأها بالشذا المحيي .

والتجديد في أدب جبران وغيره من المهجريين ليس خيالياً إلاّ في أسلوب الأداء ، فالموضوع عندهم لا يخرج عن واقعية البيئة والعصر ، والتعبير ليس إلاّ امتداد الواقع إلى أجواء أعلى وأفسح .

ذلك ان التجديد لا ينحصر في الصيغة البيانية فحسب ، بل يشمل الإحساس والتفكير . ففي أدب المهجر جدة البيان تعكس جدة الفكر والشعور وعمق النظر إلى الحياة . هي صدى لنزعة خلاّقة في نفوس الأدباء تحفزهم إلى الإبداع . ولهذا السبب ظل أسلوبهم حيّـاً بينما نرى غيره من الأساليب الجديدة تظهر وتختفي سراعاً ، كالأزياء التي يستحثها هواة الطرافة ، يقبل عليها الناس زمناً ثم يهملونها . فالمعركة بين القديم والجديد ليست لفظية شكلية فحسب . بل هي أيضاً معركة مفاهيم وقيم عامة .

شرط التجديد هو الانتقال من الحسن إلى الأحسن ، لا إحلال البدعة محل الابداع ، والجدة وحدهـا لاترفع قيمة الحجارة الزائفة البراقة إلى مقام الجواهر الأصلية القديمة العهد ، لمجرد كونها من صنع اليوم .

والتجديد لا يبرر نقض قواعد اللغة والعبث بأوزان الشعر ، بل عليه أن يُغني اللغة ويقويها بالابتكار لا أن يسيء اليها بالتطرف والاستهتار .

فلا ننس نصيحة مارون عبود للأدباء الناشئين : كملوا رسالة القدماء ولا تنقضوها .

ليس من يفكر بعقل العصور البائدة ويكتب بأسلوب العصر مجدداً . لا يكفي الكاتب أن يزوّق نثره بالرموز الغريبة والاستعارات النابية ليعد مجدداً . ولا يكفي الشاعر أن يُطلّق الأوزان والقوافي وينظم الشعر الحر ليكون مجدداً .

شعراء المهجر التزموا أصول الشعر من حيث الوزن والرويّ ، ولكنهم تفننوا في تنويع الأصوات وتنسيق الأبيات فصبوا شعرهم في قوالب مختارة لا تقلد العربي القديم ولا الغربي الحديث . كما أبدعوا الحوار في مطولات وملاحم خلقوا لها تصاميم فنية ملائمة .

ولم تمنعهم قيود القوافي من الاستفاضة والإجادة . إن صعوبة القافية والوزن لا يشكوها غير المقلدين . أما المبدعون فيشقون طريقهم اليها على هدي موهبتهم الفطرية وبصيرتهم النيرة . والشاعر المطبوع الذي يعبر عن هزة داخلية في نفسه تعبيراً موسيقياً يجد في القافية ارهافاً للايقاع ، وفي الأوزان شكلاً ملائماً لتماسك الأصوات الخارجة من قلبه .

للشعر ، كما لكل الفنون الجميلة ، أصول وقواعد أساسية لا قيام له بدونها . وليس من الفن في شيء ان نتجاهلها أو نخالفها لمجرد كونها صعبة المنال . فالفنان الحقيقي يتلذذ بالتغلب عليها وباخضاعها لقوته الخالقة . وله لذة أخرى ، هي ان يشرك حاسة السمع في النشوة الشعرية مما يزيد في اهتزاز النفس والتهاب العاطفة وابتهاج الروح ، فالشعر يجب أن يُسمع لا أن يُقرأ فحسب .

لقد وقع في شعر جبران وفي نثره ، عدد قليل من الأغلاط اللغوية ،

وفي شعر أبو ماضي بعض الجوازات التي ندر استعمالها . وإنها لهفوات تغتفر لمن كان له مثل نتاج جبران وابو ماضي روعةً وضخامة . فيجب أن لا نعيرها من الاهتمام أكثر مما تستحقه . ثلمة صغيرة ، بحجم رأس الإبرة ، وفي الرداء الفضفاض لا تؤثر في رونقه العام ، وأقل من ذلك بكثير تأثيرها في قيمة الروح الخافقة طيّ الرداء ، في صدر لابسه .

فضل أدب المهجر في رسالته إلى اللغة العربية ليس في الكلمة العريقة نسباً ، المتينة جسماً ، السليمة اشتقاقاً ، بل في الكلمة الجميلة الفتانة اللماحة ، الساحرة ، المسحورة ، السافرة ، المقنعة ، تشد اليها أهداب القارئ ولا ترخيها حتى تلج قلبه ويلج قلبها .

حدثنا نزار قباني عن الكلمة الجميلة بأسلوبه الشعري الخاص ، وما أحسن ما قال :

« الأدب عندي هو تعبير غير عادي عن مشاعر عادية .

هو الكلمة الجميلة التي إن لم تفتح أمامك مغالق صخرة علي بابا فهي تفتح أمامك نافذة على وجه الله . والكلمة التي أكتب ليست طفلاً بلا نسب . إنها تراث عاطفي اجتماعي إنساني يحمل سعال أبي ونداء أمي وشجار صبيان حارتنا وطقطقة خشب الشوح في مخبز ضيعتنا وشكوى مزاريب بيتنا القديم التي لا أبيعها بسمفونيات الدنيا مجتمعة .

الكلمة الطيبة سهلة . أما الكلمة الجميلة ، فـآه ما أصعبها ! أن تقول لحبيبتك عطركِ مغرٍ كلمة طيبة . أما أن تقول لها إن لعطرها فماً ينادي فشيء آخر يتطلب أن تنبش نفسك من جذورها بحثاً عن كلمة صغيرة أميرة ... تطغى على الورق فرحة ، كفراشة حرير تحررت من شرنقتها » .

هذه الكلمة الجميلة هي اداة التعبير والتـأثير في أدب المهجر . وهي هديته الأولى للغة الضاد . فيها روح تتكلم عن الشرق ، كذلك الشعار المكتوب على واجهة جـامعة المكسيك : « الروح تتكلم عن امتي » .

رسالة عربية محلية

أدى أدب المهجر ، إلى جانب رسالته إلى الشرق العربي ، رسالة محلية إلى الجوالي العربية النازلة في المهاجر الامبركية . رسالة استفادها المغتربون واستفادتها اللغة العربية ، ثم آلت فائدتها إلى الوطن الأم .

سهر الأدباء على وضعية المغتربين وعلى منزلتهم الاجتماعية فكانوا الداعين لتوحيد الصفوف في وجه التيارات الأجنبية . دعاة التعاون والتفاهم بين أفراد الجالية ، دعاة التسامح في العقائد المذهبية ، دعاة التعامل الشريف مع الأجانب ، كي لا تحوطهم الكراهية ، دعاة الانسجام بالمظاهر والعادات مع المحيط الذي يعيشون فيه ، حتى لا يحق عليهم ازدراء الغرباء .

هم الألى روّحوا عن المغتربين هموم العيش في جوّ الاغتراب بأناشيدهم العذاب . وهم الألى رفعوا معنويات المغتربين بتمجيد عنصرهم وتقدير جهادهم ، وهم الألى وعظوهم بعظات التاريخ العربي ، فأثاروا فيهم فضائل الإقدام والثبات والصبر على المكاره . هم في الجوالي الفكر الهادئ واللسان الناطق واليد التي تعطي جزيلاً من القلب ولا تأخذ إلاّ قليلاً من الجيب . دورهم في الجوالي هو دور المتفرج على مسرح الأطماع المتصارعة والأعمال الكبيرة الناجحة . يرون الثروات تغدق على من حولهم فلا يمدون أيديهم إلى رشاش منها لأنهم في شغل عنها بعرائس الأدب والفن .

كتب الياس قنصل : « إن الواقع وقفنا على مفترق طريقين : الأدب مشدود اليه الفقر ، والتجارة في طيها الإثراء . فلم نتردد لحظة في الاختيار ، وما كان ليزيد في سؤددنا أن يكون بيننا مائة غني أكثر ، بيد ان المائة من الأدباء الذين ربحناهم هم أعلام هذا المجد الفكري الباذخ » .

وكان لأدب المهجر اليد الطولى في تغيير الصورة القاتمة التي أخذتها الشعوب الامبركية عن المهاجرين العرب . فهؤلاء كانوا في نظر الامبركيين جياعاً لاجئين لا يحسنون غير الاحتيال على الرزق ببيع الخردة وكانوا يعرفون بلقب (توركو) لأنهم جاءوا من أجزاء الامبراطورية التركية . وكانوا يستاؤون من تلك التسمية لأنهم لَيسوا في الواقع أتراكاً بل هاربين من جور الأتراك . فذلك اللقب (توركو) كان يوقظ في أذهانهم ذكريات مريرة . ثم اتضح بعد زوال الحكم التركي عن بلادهم ، ان العامل الأساسي في تحقيرهم هو مظهرهم الزري ومهنتهم الدنيئة (الكشة) ، فما تقلص عنهم لقب (توركو) حتى حل محله لقب « كله بعشرين » وهو نداء الباعة المتجولين منهم ، أو لقب (أكلة الحشيش) ، إشارة إلى اعتيادهم أكل الخضار في بيئة لا تأكل غير اللحوم . فلما لمع الأدباء العرب وظهر في انتاجهم أثر المواهب العقلية المبدعة ، أدرك الامبركيون أن لهؤلاء المهاجرين قيمة معنوية لا يمثلها ظاهرهم المهين وأهدافاً سامية غير هدف الاثراء من طريق التجارة والصناعة ، وأن الذين برزوا بنشاطهم في ميدان العمل المادي هم أنشط وأبرز في ميدان الفكر وحقل الفنون ، فتبدّل الرأي العام من تحقير إلى تقدير ومن ازدراء إلى إعجاب .

وأدباء المهجر رفعوا مستوى الصحافة العربية فيه بانتزاعها من أيدي الجهلاء المتطفلين ووضعها في يد الأكفياء المخلصين .

كانت صحافة المهجر في بادئ الأمر مسرحاً للدجل والابتزاز . امتهنها بعض التجار الفاشلين دون أن تؤهلهم لها المعرفة والاختبار ، وأخذوا يستغلون بساطة المغتربين ويمالئونهم على النزعات العصبية الطائشة أو يثيرون فيهم النعرات المذهبية طمعاً بالصيد في الماء العكر . فعندما أقبل الأدباء على ممارسة الصحافة ، وغذّوها بالأدب الصحيح وبالدعوة الخيّرة ، أصبحت مدرسة اللغة العربية في المهجر ، تعلم الأميين ما جهلوا وتذكّر

غير الاميين بما تعلموا ، وراحت تذيع أخبار الوطن فتوقظ الوعي وتشد الصلة المتراخية بين الوطن والمهجر . فأدباء المهجر هم الذين حالوا دون نسيان المغتربين لبلادهم وأهلهم ولغتهم فظلوا كتلة بشرية ذات كيان ووزن في الوجود ، ولولاهم لفقدت الجوالي المغتربة ذواتها واستحال عليها تلبّس شخصية جديدة جديرة باحترام الشخصيات المختلفة التي تكوّنت في المهجر .

ومن أفضالهم انهم نشّطوا المشاريع النافعة كالمدارس والمياتم والمصحات والأندية والمعابد وملاعب الرياضة والمكتبات ودور العجزة وقصور السفارات العربية . هذه المنشآت بلغت في البرازيل والأرجنتين مستوى رفيعاً يقضي بالإعجاب ويستبقي جميل الذكر إرثاً للأبناء والحفداء . ولولا أقلام الأدباء وخطبهم واهتمامهم بالنشر والتحبيذ والحث والاستدرار لما قام مشروع من هذا أو لظل هزيلاً ضئيل الشأن والنفع . ومن يعش في المهجر يلمس — ويا للأسف — حقيقة مؤلمة ، هي أن أكثر الأغنياء من حديثي النعمة لا يتبرعون للمشاريع العامة عن أريحية مطبوعة أو حباً بالخير المجرد ، بل طمعاً بالشهرة وبالظهور على صفحات الجرائد . فلولا مدائح الأدباء ، ونشرات الصحف ، ما انتفعت الجالية بشيء من مالهم . قال فيهم القروي :

لايبذلون لأجل البرّ خردلـة   إلاّ إذا قيل قبل الدفع قد دفعوا

وأفصح دليل على عقلية الجوالي المهاجرة في ذلك العهد قول عبدالمسيح حداد صاحب جريدة « السائح » : ان المشتركين الذين يفدون من الداخلية إلى نيويورك لكي « يتبضّعوا » ولا تنشر الجريدة خبر قدومهم يحردون ويقطعون الاشتراك .

وبعد المذاكرة في جلسة من جلسات الرابطة الأدبية صدر في «السائح» البيان التالي :

« تعلن إدارة « السائح » انها مستعدة لأن تنشر كل شيء عن المشاهير وانصاف المشاهير والذين لا شهرة لهم ، وعن أحوالهم وعن أسفارهم على شرط أن يعلموها بتشريفهم لهذه الحاضرة سواء أكان ذلك بزيارتهم للادارة أو بمكالمتها تلفونياً » .

ولا ينكر فضل الأدباء على أصحاب المال والأعمال . فهم الذين عرفوهم إلى جميع الناطقين بالضاد في كل قطر بما كتبوه عن مكانتهم وعن مآثرهم . ولولاهم لظلّ السراة والأغنياء ، المحسنون منهم وغير المحسنين ، وأصحاب المصانع والقصور ، نكرات حيث هم وفي كل مكان .

واليوم ، عندما يباهي الوطن بعبقرية أبنائه المغتربين ويشيد بمظاهر غناهم وبمنزلتهم الاجتماعية وبأعمالهم الخيرية ويغتبط بدوام الصلات التي تربطهم به وبالمعونة التي يؤدونها له ، عليه أن يذكر الأدباء المهجريين الذين تطوعوا لخدمة قضيته ، وخلقوا معظم من نسمّيهم محسنين .

وعندما يطل المياسير من شرفات بروجهم العاجية أو من نوافذ سياراتهم الفخمة على مشهد أديب لم يزل على حاله الأول ، يحمل على كتفه الفاقة وعلى ظهره عبء السنين ، عليهم أن ينظروا اليه نظرة العطف والتقدير ، وأن يحيوه باحترام تحية المدين إلى دائنه . قلت في هذا « الجندي المجهول » :

نحن الحفاة السائرون على الحصى	نحدو السراة الراكبين خيولا
للمجد نحملهم على أكتافنا	ولربما حمل الخفيف ثقيلا
حتى إذا عثر الأديب تفرقوا	عنه فلا يجد الأديب مقيلا
طرقوا المهاجر فاتحين ، وليتهم	فتحوا قلوباً مثلنا وعقولا
لو تعرف الفصحى مدى خدماتنا	ضفرت لنا من شعرها اكليلا

لا بُدّ من يومٍ أغر محجَّـــلِ   نلقى المنية فيه .. والتبجيـــلا
لم يخلد الجنديَّ وهو محارب   كخلوده في قبره مجهولا

وكان القروي أعنف لهجة حين قال :

أنت من أنت أيها الراكب التمبيـل   والعُجْب بين جنبيه راكب
أنت (توركو) ولو وطئت الثريا   وأقمت السهى ببابك حاجب
مستضام مهما اعتززت ، فقير   ولئن شِدت ناطحات السحائب

والقروي ليس من الرجال الذين يغضبون لمصلحة شخصية ، بل أحفظه تقصير الأغنياء في واجبهم نحو الوطن :

رأيت غناكم ماحلاً ما أفادكم   سوى أنه أغرى الغريب فسادكم
أقول لعلّ القول هزّ فؤادكم   رأيت يهوداً يشترون بلادكم
فيا ليت كنتم في السخاء يهودا

الفصل الخامس

التأثر والتأثير

من مآتي الأدب المهجري انه بعد أن أدى الرسالات التي ذكرناها إلى وطنه وقومه ، نقل إلى الغرب — بلسان الغرب — رسالة الشرق العربي واستطاع — على قلة وسائله المادية والمعنوية — أن يؤثر في البيئة الاميركية الغنية بوسائلها ، أكثر مما تأثر بها .

رأي جريء . لكم أن تعتمدوه أو تسفّهوه ، بعد أن تسمعوا البينات التي بُني عليها .

لقد ألّف أدباء المهجر مئات الأسفار بلغات أجنبية ضمنوها رسالة الشرق الروحية وتاريخ حضارة الأمة العربية ، شارحين فلسفتها وآدابها وعلومها في مختلف الحقول ومترجمين سيَرَ المشاهير من رجالها وآثار الكبار من شعرائها . كتبوا باللغة الانكليزية للولايات الشمالية وبالاسبانية لأميركا اللاتينية وبالبرتغالية لجمهورية البرازيل . فقرأ ما كتبوه ملايين من البشر واهتمت الأوساط الأدبية والمجامع العلمية بدراسة تلك الكتب

والتعليق عليها وأخذت تدعو المؤلفين العرب إلى القاء المحاضرات عنها بينما كانت دور النشر تتسابق للاستئثار بطبعها . استهوت العامة تلك المؤلفات بطرافة الأسلوب وجدة المواضيع . ولفتت الخاصة بقيمتها الفنية والتوجيهية والتاريخية فانتشرت انتشاراً كبيراً ، حتى أصبح الحديث عن وضعية الشرق ومدنية الغرب مألوفاً ، تسمعه في المجالس فيخيّل اليك أنك تجالس علماء مستشرقين ، يغرفون من فضائل العرب وآثارهم أكثر مما يعرف المهاجر العربي العادي .

قال لورنس في كتاب أعمدة الحكمة السبعة : « سيسعى العرب وراء الغنيمة إلى آخر الدهر . ولكن إذا اعترضت سبيلهم فكرة تركوا الغنائم وتبعوا الأفكار » .

الريحاني وجبران اعترضت لهما الفكرة فتبعاها وتركا الغنائم . ولكن شاء التوفيق أن تجدّ الغنائم في أثرهما منذ الساعة التي مسحا فيها القلم من حرف الضاد والتفتا إلى الشعوب الانجلو سكسونية يكالمانها بلغتها ، فتحول شق القصبة في يدهما إلى مجرى فسيح يسيل منه الرزق دفاقاً . ومنذ تلك الساعة صحا المواطنون العرب على ألمعية أدبائهم وعرفوا قدرهم . عادة العربي أن لا يؤمن بابن وطنه إلاّ متى سمع الشهادة بفضله من فم الغريب .

يصح في جبران ما قيل في المتنبي « جاء فملأ الدنيا وشغل الناس » . وجبران منذ صدرت كتبه الثمانية باللغة الانكليزية ملأ المكاتب وشغل القراء . فسّر في هذه المؤلفات علاقة الفرد بالفرد وعلاقته بخالقه بأسلوب بياني مجازي ساحر يجري فيه عصير الفكر الصافي ويتألق عليه وهج الخيال المتوقّد . كتاب « النبي » وحده طُبع فيما يزيد عن مليون نسخة وترجم إلى أربع وخمسين لغة وتكرّس في مناهج التعليم في المدارس . وهو في روحه شرقي عربي . حاول فيه جبران أن « يمشرق الغرب » حسب تعبير مارون عبود .

يؤثر عن الرئيس الاميركي الأسبق تيودور روزفلت قوله لجبران : « أنت أول عاصفة انطلقت من الشرق واكتسحت الغرب ، ولكنها لم تحمل إلى شواطئنا غير الزهور . »

والريحاني بارى جبران بالأثر الذي أحدثته مؤلفاته بالانكليزية وعددها أحد عشر كتاباً . وفاقه بعدد المحاضرات التي ألقاها في أندية الأدب وبالمقالات التي نشرها في امهات الصحف . استعرض في كتابه « أنشودة الصوفيين » أبرز مظاهر الحياة العربية وأشهر شعرائها . ومجّد روحها في كتاب « خـالد » ، وعالج قضايا العرب في كتاب « ليبانوس وصلاة في الصحراء » وكتاب « الأندلس » ، فأصبحت من قضايا الساعة في المحافل الأدبية ، وترجم لزوميات أبي العلاء .

روى عبد المسيح حداد أن الممثلة العالمية اليونور دوزي دعت الريحاني إلى مأدبة في منزلها ، وكان في ضيافتها الشاعران دانونزيو وروستان والموسيقي رافيل والرسام جان رينوار ، فجثت المضيفة أمام الريحاني وخاطبته بهذه الكلمات : « إن سقف بيتي أحقر من أن يظلك يا فيلسوف الشرق . أخبرني بالله عليك ، كيف يتفتح الورد في جنائن بـلادك وكيف تحرقون البخور في معابدكم القديمة . إنني أريد أن أعبد الإلـه الذي تعبدون » .

ويجيء ميخائيل نعيمه الأديب المسكوني بأدبه الروحاني المثالي ويضيف إلى سلسلة المؤثرات التي صنعها الريحاني وجبران ثلاث حلقات جديدة في كتبه الانكليزية الثلاثة « مذكرات أرقش وحياة جبران ومرداد » . فتغلغلت في النفوس آراوءه ونظرياته الاجتماعية فأصبح نعيمه معلم المدرسة الروحانية ولسان الحكمة الراسبة في شعوب الشرق . ثم نظم الشعر بالانكليزية بتوفيق مرموق وتُرجم ديوانه العربي « همس الجفون » إلى الانكليزية والاسبانية .

ولا ننسَ الأثر البليغ الذي تركه خطيب العصر المرحوم حبيب اسطفان

في مختلف الشعوب الاميركية . قضى عشرين عاماً متجولاً بين العواصم والمدن في كل جمهورية من جمهوريات اميركا يلقي المحاضرات عن دنيا العرب قديماً وحديثاً ، ويقوم بدعاية للقضايا العربية عجزت عنها الحكومات . كان معبود الجماهير في اميركا اللاتينية ، يتسابقون بالألوف لسماع كلمته سواء ألقاها في الجامعات أو الأندية أو المسارح أو السجون أو الثكنات . وقد نال من إكرام الحكومات وتمجيد الشعوب الاميركية ما لم ينله أصحاب الصوالج والتيجان ، في نشر المحاضرات التي القاها في البرازيل باللغة البرتغالية ومؤلفاً ضخماً باللغة الاسبانية عنوانه «الشعوب الاميركية» .

والدكتور فيليب حتّي ، العالِم التاريخي الأشهر ، أصدر ثلاثة عشر كتاباً بالانكليزية عن الشرق العربي ، بعضها تُرجم إلى مختلف اللغات. كان ولم يزل حجة العرب في العالَم الجديد . يناظر ويحاضر ويكتب عن قضيتهم منذ اربعين عاماً . وقد نقشت الحكومة الاميركية اسمه على حائط المعرض العالمي في نيويورك بين اثني عشر اسماً لعظماء الرجال الذين أتحفوا الديموقراطية بآثار ذات شأن . وفي أثناء الحرب الأخيرة اشترت الحكومة منه خمسين الف نسخة من كتابه «تاريخ العرب» وزعتها على الجنود المحاربين . والدكتور حتي ، بالاشتراك مع الدكتور نبيه فارس والدكتور ادوار جرجي ، جعل جامعة برنستون مركزاً عالمياً للدراسات العربية .

وكان من عوامل التأثير في البيئة الاميركية ستة كتب نشرها الدكتور نبيه فارس بالانكليزية وهي : الميراث العربي — النبالة عند العرب — العاديات في جنوبي الجزيرة — قصة ألف باء — الأكليل للهمداني — وفهرس المخطوطات العربية . وهناك حبيب كاتبه ، دكتور في التصوف الإسلامي وفلسفة الدين ومراسل أكبر الصحف الاميركية ، نشر ثلاثة كتب بالانكليزية : قصص وأساطير عربية — ليالٍ عربية — والروح

الجديدة في بلاد العرب . وزميله الدكتور خليل طوطح نشر كتابين بالانكليزية والعربية « ديناميت في الشرق الاوسط » وترجم مذكرات محمد كردلي .

وقد اثر أدباؤنا في البيئة الاميركية بمؤلفات الدكتور جورج خير الله وبمجلته « العالم العربي » وبترجمات نشرها المطران انطونيوس بشير لكتب جبران ، وبمواعظ القس متري الرحباني وخليل عساف ، وبمجلة سلوم مكرزل الانكليزية « العالم السوري » ، وبمؤلفات الدكتور فؤاد العقل والدكتور جورج الدبس وهما من مواليد مصر ، وبمحاضرات كان يلقيها في السنوات الأخيرة الدكتور شارل مالك ، وبإذاعات الدكتور أحمد زكي أبو شادي من محطة « صوت امبركا » ، وبمنشورات دورية كان يوزعها في كندا محمد سعيد مسعود دفاعاً عن حقوق العرب المغتصبة في فلسطين .

وفي المكسيك أثروا بمجلة الفريد قاوتجي الاسبانية ، ومجلة الفونس عواد « الأمير » ، وبمؤلفات سمعان يوسف سمعان ، وبكتاب الدكتور وليم نعمه عن تاريخ لبنان ، وكتابه « المنار » الذي قدم له عميد الطب في جامعة المكسيك الاستاذ « الكنترا أريرا » أي القنطرة الحديدية ، لأن العميد المذكور عربي الأصل .

وفي عاصمة الاكوادور أثروا بخمسين كتاباً وقصة أصدرها الدكتور الفيلسوف جورج قدوم .

وفي عاصمة كولومبيا أثروا بخطب الزعيم السياسي المشهور جبرائيل طربيه ، وبكتاب أخيه عن رحلته إلى الشرق ، وبمقالات الأديب جورج كروس (صليب) وباذاعات عقل أمين ، مدير الاذاعة العربية في برانكيا ، وبخطب عفيف سمعان .

وفي هافانا — كوبا — ذاعت كلمة العرب في جريدة « الاتحاد » لشكري بعقليني ، وفي مجلة خليل فارس الياس « الشرق الأدنى » ، كما

ذاعت في سانتو دومنغو بمجلة « لاليبانسيا » لصاحبها سليمان شاكر ، وبإذاعات نقولا هزيم في « الساعة اللبنانية » . ومثل ذلك في سان خوسه عاصمة كوستاريكا حيث تصدر مجلة « الشيخ » . ونجد في جميع الجمهوريات الاميركية الوسطى منابر ومحطات تذييع تنطق بلسان أبناء فلسطين المقيمين فيها .

وفي عاصمة فنزويلا أصدر الدكتور مانويل يونس كتابه اسمه «فلسفة الثقافة» ، تُرجم فيما بعد للعربية ، وأصدر خلدون نويهض عام ١٩٥٩ كتاباً « أرابيا » وكتب سيرة المحرر سيمون بوليفار ، وهو يذيع كلمة العرب في مجلة اسماها « الاندلس الجديدة » . وفيها مجلة يصدرها النادي اللبناني السوري باسم « الأرزة » ، وفي مدينة فالانسيا مجلة أخرى يصدرها عزيز موسى ابراهيم . وهناك الكاتب المؤرخ اسطفان فياض تملأ مقالاته أعمدة الصحف .

وفي الارجنتين فيض من المؤلفات باللغة الاسبانية ، أهمها آثار يوسف الغريب (استاذ الآداب العربية في جامعة قرطبة) وهي : كتاب حكمة العرب الذي أعيد طبعه ثلاث مرات في ثلاث سنوات — وكتاب آثار العرب وفلسفة ابن حيان ورسالة الاحلام . وهو الذي ترجم كتب جبران والريحاني وكليلة ودمنة إلى الاسبانية . ويليه في غزارة الإنتاج ملاتيوس خوري ، مؤلف عشرة كتب تاريخية ، وجورج الياس بكتبه اللغوية ، وخليل نبوت باذاعاته الاسبوعية من محطة « ليالي الصحراء» ، وعبد المسيح سرحان حداد بمناشير الدعاوة العربية التي يغرق بها المحافل والاسواق . وعلينا أن نشير إلى كتاب قسطنطين ملحم عن نهضة العرب . وهناك آثار الامير امين ارسلان التي بلغت خمس مسرحيات وسبعة كتب علمية وتاريخية أعيد طبعها من ثلاث مرات إلى سبع مرات بالاسبانية ، ومنها كتاب « مذكرات شرقية » الذي تُرجم ونُشر بالبرتغالية ، والمقالات الصحافية النفيسة التي كان لها الصدارة في

صحف الارجنتين . وهناك أيضاً اثر جليل أحدثه العلامة المصري سيف الدين الرحال بترجمته القرآن الكريم إلى الاسبانية .

ومن أدوات التأثير المنابر الاسبانية العديدة التي أقامتها الجالية العربية في أنديتها ، ليتوالى عليها خطباؤها المشهورون : حنا سرحان عبيد — أنور عبيد — موسى عزيزه — الياس ريشا — يوسف سلامه — ميشيل قزما — سليم قسطنطين — ابراهيم هاجر وغيرهم . ومثلها الصحف التي تصدر بالاسبانية كمجلة « العالم العربي » لعيسى نخله ، أو نصف اسبانية كالجريدة السورية اللبنانية التي يصدرها يومياً أمين قسطنطين منذ اربعة وثلاثين عاماً .

وفي مونتيفيديو ، عاصمة الاوروغواي ، ترجمت الآنسة ليلى نفاع كتباً لجبران والريحاني والمعري وكثيراً من آثار الشعراء العرب في كتاب « أصوات شرقية » .

وفي تشيلي عُني الأديب جميل شوحي بترجمة أشهر القصائد والمعلقات العربية في سلسلة من الكتب ، وخصّص جرجس أبو صباح جريدته ومحطة الإذاعة « العالم العربي » للشؤون العربية . وشغل جورج زعرور كرسي العربية في جامعة شيلي .

أما في البرازيل فقد انتشرت مؤلفات توفيق قربان ومحاضراته بالانكليزية والبرتغالية وكلها أبحاث علمية في أصول اللغات وتاريخ الحضارات . كما اشتهرت كتب موسى كريم صاحب مجلة « الشرق » ، وأهمها : خلفاء بغداد — حدث في دمشق — تأثيرات سياحية — شعراء وخلفاء . وهناك كتب علمية لجورج ليان كتبها بالبرتغالية إلى جانب مؤلفاته العشرين باللغة العربية ، وقصص لنعيم أبو سمره . ومعجم فؤاد نمر في سبعة مجلدات . وروايات ماريو نعمه . ومؤلفات جميل صفدي في اللغة والتاريخ . وكتب الياس سليمان اليازجي في تاريخ العرب والعلوم الرياضية . وترجمات اسكندر كرباج . ودراسات راجي باسيل .

وترجمة بابلو تقلا لرباعيات الخيّام . وترجمة مقدمة ابن خلدون ليوسف الخوري . وقد قرأ شعب البرازيل حكايات «الف ليلة وليلة» مترجمة بقلم الطبيبين جورج وسهيل غنام مع مقدمة رائعة كتبها الشاعر شفيق معلوف .

أما كبار شعراء المهجر فأثرهم في الأوساط الاميركية لم يتعد ترجمات لبعض قصائد أبو ماضي ونعيمه ونسيب عريضه والشاعر القروي . لم ينظم الشعر باللغة الانكليزية إلا جبران ونعيمه ومسعود سماحه ، ونظمته باللغة الاسبانية سيدات من المجتمع اللبناني الراقي : أولغا شمس في كولومبيا وليندا شراره في الارجنتين وليلى نفاع في الأوروغواي . أما باللغة البورتغالية فعدد شعرائنا كبير وتأثيرهم عظيم . فهناك جميل منصور حداد الذي أوفدته حكومة البرازيل سفيراً ثقافياً للشرق ، ألف عشرين كتاباً في النقد والفلسفة والاجتماع وترجم نشيد الانشاد ورباعيات الخيام . ثم سلمون جورج عضو المجمع العلمي البرازيلي الذي ترجم قصائد للقروي وشفيق معلوف شعراً برتغالياً ، فهو الذي نشر عام ١٩٤٥ ديواناً اسماه باسم القصيدة الرئيسية «حضن الأم» المنشورة فيه مع خمس وعشرين قصيدة أخرى للقروي ، وفي الديوان مقدمة بقلم الشاعر سلمون وتقاريظ بأقلام أعظم شعراء البرازيل .

ولما انعقد مؤتمر الآداب الدولي في سان باولو قدّم له شفيق معلوف دراسة تاريخية بارعة عن كتاب «الف ليلة وليلة» وألقى محاضرة عن الأدب العربي الحديث ، نشرها بأصلها البرتغالي نادي القلم عام ١٩٦٠ .

ثم صدرت ترجمة ملحمة بساط الريح لفوزي معلوف وترجمة ملحمة عبقر لأخيه شفيق فقامت للشعر العربي منارتان على الشواطئ البرازيلية . ثم ترجمت الملحمتان إلى اللغة الاسبانية .

وكان جورج اليازجي صاحب مكتبة اليازجي في سان باولو قد أصدر عام ١٩٣٢ كتاباً ابتكر فيه اسلوباً سهلاً لتعليم اللغة العربية بالحروف

اللاتينية فراج الكتاب وأعيد طبعه كل عام عشر مرات متوالية ، وفي عام ١٩٣٤ أصدر كتاب « القراءة الصوتية » ، وعام ١٩٤٠ كتاب « أقاصيص عربية » كلها باللغة البرتغالية لاستهلاك أبناء البرازيل .

وأحصى ما في مكتبته من مؤلفات بالبرتغالية لمهاجرين عرب فوجد انها ١٣٨ مؤلفاً باعت المطبعة منها ١٥٦ الف نسخة ، ولهذا الرقم دلالة خطيرة الشأن ، وهي ان مكتبة واحدة من مكتبات سان باولو نشرت الفكرة العربية على عدد من أبناء البرازيل لا يقل عن ثلاثمائة الف ، فماذا يكون الرقم لو أحصيت مبيعات جميع المكتبات في تلك البلدة العظيمة ؟ وهل أفصح من الارقام في تقدير التأثير العربي في تلك البيئة ؟

ذكرت القليل الذي أعرفه وفاتني الكثير الذي أجهله من مؤلفات صدرت لأدباء المهجر واسهمت في تحويل مجرى الفكر الاميركي إلى جهة الشرق العربي ، وطبعت أثر الأدب العربي في نفوس الملايين من القراء الأجانب . وكم من الجنود المجهولين من أبناء العرب شاركوا في هذا الفتح متطوعين دون أن ينشروا أدبهم في كتب ، مكتفين بإذاعة كلمة العرب في كل محفل أو مجلس يتكلمون فيه ، أو بتعليم اللغة العربية لمن شاء من الأجانب . مثال ذلك مدرسة وديع اليازجي في سان باولو التي علمت اللغة العربية خمسة عشر ألف طالب أكثرهم من مواليد العرب في البرازيل ومن ابناء الشعب البرازيلي .

بهذه المناسبة أذكر حادثة جرت للشاعر القروي عندما زار الأرجنتين ودعي إلى عشاء في منزل الأستاذ يوسف صارمي صاحب مجلة المواهب . فسمع مندهشاً بنات المضيف الصغيرات ، وليدات المهجر ، يتكلمن العربية الفصحى وينشدن قصائد القروي بلهجة مبينة . وبعد قليل فوجئ ببنات الجيران الارجنتينيات يقبلن إلى منزل الصارمي ويشتركن مع بناته بترنيم الأناشيد الوطنية التي نظمها القروي ، فطفرت دموع الشاعر

أمامهن وأعجب أيما إعجاب بهذا الوالد المثالي في الوفاء للغة العربية . لم يكتف بتعليمها لصغاره بل تطوع لتعليمها لأولاد الجوار الأجانب .

إن للتأثير العربي في البيئة الاميركية فوائد جليلة للمغتربين العرب ، أدبياً ومادياً . وإذا نظرنا اليه من الناحية الوطنية وجدنا الفائدة أجلّ . لأننا نحن العرب نحتاج إلى غرب يفهمنا ويقدرنا قدرنا . إلى غرب مسالم لا إلى غرب معادٍ . إلى اميركا تنصف لا إلى اميركا تتجنى . وقد قام أدب المهاجرين بمهمة التعريف عن حاجات أمتنا وأهدافها وآمالها بعد التعريف عن تاريخها وحضارتها وآدابها . فأدباء المهجر كانوا دعاة متبرعين لو شاءت الحكومات العربية — وقلما تشاء — أن توفد دعاة مأجورين لما توفقت إلى أصلح منهم .

هذه صورة مصغرة لأثر الأدب المهجري في اميركا رسمتها تبريراً لاعتقادي بأن أدباءنا أثّروا في البيئة الاميركية كثيراً بعد أن تأثروا بها قليلاً فخالفوا بذلك سنّة التعامل الفكري بين الأمم ، لأنهم قلّة في كثرة . وبدلاً من أن يأخذ الضعيف من القوي فإنهم أعطوا الأقوياء من ضعفهم أكثر مما أخذوا منهم . عادة العربي الكريم في العطاء .

الفصل السادس

سِرّ التفوّق في أدب المهاجرين

تساءل الدكتور محمد مندور في كتابه « الميزان الجديد » لماذا استطاع شعراء المهجر ما لم يستطعه غيرهم ؟ ألأنهم من جنس يشهد له التاريخ بالنزوع إلى المغامرة والتوثب ؟ أم أن غربتهم في اميركا وكفاحهم من أجل الحياة قد أرهف حسّهم وقوّى من نفوسهم ؟

لا شك ان عند العرب استعداداً نفسياً للمغامرة والتوثب . هم جوّابو البوادي وروّاد البحار منذ أقدم الأزمان . فالطموح وحب الهجرة تراث انتقل من السلف إلى سكان لبنان بوجه خاص ، فهاجر نصف أهله إلى خارجه . وإنك لتجد اللبناني في داره كالمارد المكبوت يتململ في قمقمه وينفلت منه حالما يتاح له الانفلات . هو من طلاب السعة والاثراء وليس لهجرته هدف غيرهما ، الطموح الكامن في طبيعته عامل من عوامل نجاحه المادي في المهجر . ولكن لا يمكن أن يكون عاملاً من

عوامل تفوقه الأدبي . فقوافل المهاجرين من البلاد الأخرى حلّت حيث حلّ وكانت أكثر عدداً وأكمل عدة من القافلة العربية ولكنها لم تنتج أدباً جديداً تتميز به ، كما انتج المهاجرون العرب .

أما ان الكفاح من أجل الحياة يرهف حسهم ويقوّي نفسهم ، فلا ريب في ذلك . لا شيء يخلق الشخصية كمجابهة المشاكل . وما أكثر ما يجابهه المغترب من مشاكل . ولكننا نرتاب في قدرتها على إرهاف الحسّ الأدبي . هناك نزالات عربية مغتربة نزلت أنحاء أخرى من العالم كافريقيا وكندا وأوستراليا وجمهوريات اميركا الوسطى ، وكلها تكافح كما تكافح الجوالي النازلة في شمال اميركا وجنوبها ، فلماذا لم ينبغ فيها كتّاب وشعراء كالذين نبغوا في نيويورك وسان باولو ؟

الأديب بالفطرة ليس بحاجة إلى عذاب الهجرة كي تتفتح موهبته ، بل إن حياة المهجر تبعده عن الجو الأدبي وتسلمه قلباً وقالباً إلى المحيط المادي القاسي حيث يعيش في قلق واضطراب . مهتاج الأعصاب ، همّه الارتزاق في المرحلة الأولى ، والإثراء في المراحل التالية . صحيح أن الانفعالات تنشط في الأديب حوافز الانتاج ، شريطة أن تكون انفعالات عاطفية ، لا إحساسات الجوع والتعب والحرمان والقلق والندم التي تصرفه عن كل تفكير وتدبير ماعدا التفكير بمحنته وتدبير الوسائل للنجاة منها . والقول : « ان الأدب لا ينضج إلاّ على نارالألم خرافة يجب محوها من الأذهان . يكفي الاديب أن ينفذ بوعيه وإحساسه إلى آلام الناس لكي يدركها ويحسن تصويرها . فليس على الرجل ان يحبل ويلد لكي يصف آلام المخاض في المرأة » . (من كلام حسين مروه) .

إذن فالسؤال لم يزل قائماً : لماذا استطاع شعراء المهجر ما لم يستطعه غيرهم ؟

قيل ان غنى البلاد التي نزلها المهاجرون كان عاملاً ذا أثر في خصب قرائحهم ، ونحن لا نرى صلة بين الغنى والأدب « فالبلاد التي أنجبت

أكبر الأدباء العالميين لم تكن أغنى بلاد العالم . وقد يستقيم العكس . إن أقل أجزاء سوريا والجزيرة العربية خصباً هي هضاب فلسطين وبوادي الحجاز وهي التي قدّمت للبشر حضارة روحية أقوى وأعمق من تلك التي أنشأها سكان الأجزاء الممرعة من سوريا » . وان معرة النعمان على وضاعتها بين البلدان انجبت نابغة الزمان .

وقالوا انها الحرية الواسعة التي تنعم بها اميركا فتحت أمام المهاجرين آفاق المعرفة والإنتاج الطليق . هذه نظرية صائبة من حيث المبدأ . أمّا في الواقع فأثر الحرية في حياة الشعوب الاميركية محدود حيناً ومعدوم أحياناً . لأن الحرية لم تشرق على كل سماء في العالم الجديد . إن بعض النظريات الصائبة لا تقبل التعميم . فاذا عُممّت امتزج فيها الخطأ بالصواب .

في ثماني عشرة جمهورية من جمهوريات اميركا يعيش المهاجرون في ظل الأتوقراطية . ولا يتنشقون نسيم الديموقراطية إلاّ في ثلاث : الولايات المتحدة الشمالية وكندا والاوروغواي . وأحياناً في كولومبيا والمكسيك . وحتى في هذه الجمهوريات الديموقراطية لا يتمتع المواطن بالحريات الأربع إذا قتم لون بشرته ... ولا يباح للغريب دخول البلاد إذا كان على دين معين . أما في سواها فالحكم عسكري سافر ، ووليد الثورات المسلحة ، أو حكم فرديّ مقنّع بالنظام الدستوري . وفي الحالتين ، لا ضمانة للحقوق والأرواح والأرزاق إلاّ بمحاباة رجال الحكومة القائمة . كم من محاولات جرت في بعض الجمهوريات الوسطى لابعاد المهاجرين العرب وللاستيلاء على أملاكهم ومتاجرهم ثم أسفرت عن تقييد حريتهم في المتاجرة والسكن والتنقل لقاء السماح لهم بالبقاء . وكم من حوادث قتل وسلب وخطف وهتك ، كان ولاة الأمر أبطالها والمهاجرون ضحاياها . وكم سفك دم بائع متجول في البراري ولم تهتم الحكومة بتعقّب القاتل . أفنقول إن هذا الجوّ هو اصلح من جو الوطن لنموّ الأدب العربي ؟

وعلى سبيل المثال أقرأ لكم صفحة من كتاب «مهمة في قارة» للأستاذ أكرم زعيتر ، روى فيها حادثة جرت لاسرة عربية كريمة أثناء وجوده في هندوراس . قال تحت عنوان مأساة :

« سمعت اليوم نبأ مأساة أثارت الألم الممض في نفسي ! : يعقوب زبلح رجل طيب من مهاجري بيت لحم ، استطاع باستقامته أن يكوّن لنفسه ثروة ومركزاً ، وحدث منذ تسعة أشهر أن غادرت ابنته وهي في الحادية عشرة من العمر البيت ولم تعد ... ويا لوعة أبيها وأمها !... وأسفر التحري الدقيق الذي قام به أبوها وأصدقاؤه عن قيام أدلة على ان وزير المالية الهوندوراسي قد خطفها ! وترجح لدى الناس انه قتلها بعد ذلك ، ولكن من يستطيع أن يلاحق معالي الوزير ؟ ويتقدم أبوها المفجوع الملتاع إلى رئيس الجمهورية يجأر ويشكو فيقول له الرئيس : « ان البراهين التي لديك لا تكفي ! وإذا كان لك ما تقوله فدونك القضاء » . أما الشخص الذي قال انه رآها يوم اختفائها في بستان الوزير فقد أطلقت عليه رصاصات نجا منها بأعجوبة ، فالتزم جانب الصمت . وما أهون القتل وما أرخص الأرواح ! وضاعف قوة اتهام الوزير ان له سوابق يتحدث عنها جميع الناس ، وترويها جميع الالسنة . ويعقوب زبلح ينفق ماله هنا وينثر ماله هناك ، وكل ما يطمح اليه في دنياه ان يعرف هل ابنته حية فيرجو أم هي ميتة فيقنط ؟ هل هي سجينة تعذب ؟ أم قتلت ؟ »

في جمهوريات امبركا الوسطى والجنوبية (ما عدا الاوروغواي) لا تُمارس الحريات وتُنفّذ القوانين بشكل يفضل مما كنّا عليه في عهد الحكم التركي . الحاكم الفرد هو مصدر السلطة ، يفرض هيبته بقوة شخصيته لا بقوة الدستور ، ويستغلها لمصلحته لا لمصلحة الجمهور ، وينحو نحوه سائر الموظفين في عهده . وسأروي لكم حكاية واحدة تعلمون منها ان الفساد في جهاز الحكم ليس مقصوراً على حكوماتنا

العربية كما نتوهم :

في عاصمة البرازيل يقيم تاجر لبناني كبير هو وجيه قومه وشيخ أدبائهم . واليكم ما رواه لي :

حملت ذات يوم من محل تجارتي عشرة آلاف ليرة وذهبت إلى المصرف لاودعها فيه . ولما بلغت زاوية الشارع ، وفيها بناية شركة الضمان ، تذكرت القسط المستحق عليّ لتجديد الضمان ، فصعدت إلى مكتب الشركة ودفعت أربعة آلاف ليرة من العشرة آلاف التي كانت في جيبي وتابعت طريقي إلى المصرف . وهناك أمام شباك الخزينة تفقدت المبلغ فلم أجده . فهرعت إلى دائرة الشرطة أقدم شكوى على مجهول انتشل من جيبي عشرة آلاف ليرة . قررت عشرة آلاف ليرة في ساعة ذهول واضطراب نسيت فيها اني تصرفت بأربعة آلاف قبل الوصول إلى المصرف .

ومرت شهور دون خبر من الشرطة عن السرقة والسارق . وفي صباح يوم شديد الحر كنت أقرأ جريدة على شاطئ البحر وإذا برجل يتفرس بي ويصيح غاضباً ، أنت كذاب منافق ، لا ذمة لك ولا دين . فوقفت مشدوهاً من هـذه المفاجأة وسألت الرجل من يكون ومن أين يعرفني .

— أنا الذي نشل من جيبك ستة آلاف ليرة وحضرتك قررت في دائرة الشرطة اني نشلت عشرة آلاف . فخربت بيتي ...

— كيف ؟ لم أفهم ؟ ستة آلاف ليرة تعمر البيت لا تخربه ..

— يا سيدي .. ما أعطوني غير ألف ليرة بعد ان (رقعوني بدن) وفصلوني من الشركة ...

— الشركة ؟؟...

— كأنك تجهل ان للشرطة الحق بنصف المسروقات ! استولوا على خمسة آلاف من الستة لأنك قررت ان السرقة كانت عشرة آلاف وأنت

تاجر كبير تكذب فيصدقوك ، وأنا أقول الحقيقة فلا يصدقوني لأني حرامي . الله يقطع رزقك مثل ما قطعت رزقي ...

إن سألتم عن العلاقة بين هذه الحكاية والأدب العربي في المهجر أقول ان البلد الذي لا يُحترم فيه القانون لا تعيش فيه الحريات ، واخصها حرية الأقلام . والا فكيف نفسّر تواتر حوادث الاعتداء على الصحافيين في بلد راق كسان باولو في البرازيل ؟ ان ادباءنا هناك ساروا على دين ملوكهم واحتكموا إلى المسدسات أكثر من مرة .

الصحافي نجيب قسطنطين حداد ، صاحب ثلاث جرائد ، ارتكب ثلاث جرائم قتل في سان باولو وهرب إلى كولومبيا . ثم عاد إلى سان باولو فقتله شقيق أحد المقتولين .

والياس مسره صاحب جريدة « سورية » نقم على سليم لبكي (شقيق نعوم لبكي) صاحب جريدة « المقرعة » التي كانت تناهض الاستعمار بشكل عنيف . وتآمر مع أصحابه على اغتيال صاحب الجريدة ومحرريها الاثنين (الياس فرحات وتوفيق ضعون) وقد نفذ الحكم بالأول ، المرحوم سليم لبكي ، وصرعه بالرصاص في قارعة الطريق .

الحرية الوحيدة التي يتمتع بها المهاجرون العرب في جميع أنحاء امبركا أن يسبّوا حكومات بلادهم وأن ينتقدوا رجال الدين ويحملوا على المستعمرين على شرط أن لا يتعرضوا بسوء للبلاد النازلين فيها ولا لأصدقائها (واليهود يُعدون في الأصدقاء) فالمهاجرون الهاربون من الظلم والعسف ، يفرحون أيما فرح بهذه الحرية ويستعملونها إلى أقصى حد انتقاماً من ظالميهم وتنفيساً لألمهم المكبوت ، ويعتبرونها نعمة كبرى أن تدور ألسنتهم بما يشتهون ولا من يحاسبهم أو يعاقبهم .

هذا القدر من الحرية لا يكفي غذاء للأدب مهما تضخم خياله في عيون البعيدين عن امبركا . إن المحيط الذي تعشش فيه غربان الصهيونية وتفرّخ ، ليس بالمأوى المثالي لنسور الشعر .

وجدير بالملاحظة ان مناخ الحرية في الأقطار الاميركية كان إلى عشرين عاماً مضت ، أي في أزهى عهود الأدب المهجري ، أسوأ مما هو عليه اليوم . إذاً فالأدب المهجري لم يمش في ركاب الحرية ، يتسع باتساعها ويضيق بضيقها ، وفي جعبتي شواهد كثيرة على ما أقول . يكفي أن أذكر منها حادثين وقعا أثناء إقامتي في جمهورية فنزويلا للتدليل على ما كانت عليه حرية التفكير والتعبير فيها .

كتبت مرة مقالاً (بالاسبانية) عن مأساة فلسطين رداً على مقـــال عنيف مهين للعرب نشره يهودي مراكشي في كبرى صحف العاصمة . فما رضيت تلك الصحيفة ولا غيرها من الصحف المحترمة أن تنشر مقالي فلجأت إلى جريدة مسائية ضئيلة الشأن وأغريتها بأجر فقبلته كإعلان ، وتقاضت أجر السطور كما تفعل في الإعلانات التجارية . ومع ذلك لم تنشر المقال بل جاءني رسول الجريدة بعد يومين حاملاً إلي المقال والمال والاعتذار . وفهمت من كلامه أن اليهود اتصلوا بالحاكم ، والحاكم بالجريدة .

كان ذلك الحاكم بأمره جنرالاً مزوّراً ، لم يشهد واقعةً في حياته ، بل انتقل من رعي الماشية إلى منصة الحكم بجاه المصالح البترولية اليانكية، وظل رئيساً للجمهورية إلى أن أدركته المنية بعد سبعة وعشرين عاماً مع أن الدستور يحدد مدة الرئاسة بثلاث سنوات . وفي ذلك العهد حضر إلى كراكاس نابغة المنابر المرحوم حبيب اسطفان لإلقاء محاضرات طلبتها منه الجالية العربية بالاتفاق مع الجالية والسلطات المحلية . ولكن في اليوم المحدد للمحاضرة الأولى صدر أمر الحاكم بمنع الدكتور اسطفان من الكلام ، وباخراجه من البلاد في اليوم التالي . وبالتحقيق عن الأسباب علمنا أن الملحق بالسفارة الفرنسية وكان يهودياً ألقى في أذن الحاكم أن هذه المحاضرات تثير في الشعب نزعة التحرر والانتقاض .

ولا بأس من ايراد نادرة من نوادر هـذا الحاكم ، إيضاحاً لمستوى

الثقافة في تلك الديار . شاء الجنرال — وكان أمياً — أن ينعم على أحد أتباعه المخلصين . فعيّنه سكرتيراً في محكمة الجزاء . واتضح لقاضي المحكمة أن سكرتيره الجديد لا يعرف القراءة والكتابة ، فأخذ يقوم عنه بكتابة المحاضر وتلاوة الأحكام إلى أن ارهقه العمل ، فراح يشكو أمره إلى الجنرال ويستعطفه راجياً أن يستبدل بهذا السكرتير رجلاً يقرأ ويكتب . فدهش الجنرال وسأل القاضي : « أمن الضروري أن يعرف سكرتير المحكمة القراءة ؟ » فأجابه بالايجاب . فعاد إلى السؤال : « هل أنت تقرأ وتكتب ؟ » فأجاب القاضي : « نعم . » فأشرقت أسارير الجنرال وقال : « حل المشكلة ميسور ، ستكون أنت السكرتير ويصبح السكرتير قاضياً للمحكمة ! »

ولنعد إلى موضوعنا .

قيل في جملة ما قيل إن تطعيم أدب الشرق بأدب الغرب ولّد هذا المخلوق العجيب الذي نسميه أدب المهجر .

من هو الأديب الذي تطعّم بأدب الغرب ؟ الشاعر القروي أم فرحات ؟ أم محبوب الشرتوني ؟ أم نصر سمعان ؟ أم يوسف الصارمي وهم لا يكادون يحسنون الكلام بلغة الشعب الذي يعايشونه ، فهل هبط عليهم وحي الأدب الغربي دون أن يطلعوا عليه ؟ أكان تطعم بأدب الغرب ايليا أبو ماضي يوم نشر ديوانه الثاني عام ستة عشر وتسعمئة وألف، أي حال وصوله إلى نيويورك وقبل انضمامه إلى الرابطة القلمية ؟ كان في سن العشرين حينما نظم قصائده المشهورة (فلسفة الحياة — الشاعر — لم أجد أحداً — في الليل — أمة تفنى) وهي روائع تدل على شاعرية فكرية اختمرت قبل أوانها وقبل اتصالها بالمؤثرات الخارجية .

لا ننكر أن جبران ونعيمه والريحاني وشفيق معلوف طالعوا آداب الغرب وهضموها ولكن المطالعة ميسورة على السواء لمن هاجر وطنه ولمن أقام فيه . فأدباء لبنان تأثروا بالأدب الفرنسي دون أن يقيموا في فرنسا .

وانك لتجد في أدب الآنسة ميّ من المسحة الغربية ما لا تجده في أدب الكتّاب المهاجرين .

ولا ننكر أن البيئة الاميركية في الشمال فرضت طابعها على عادات المهاجرين العرب وعلى مظاهرهم الخارجية ، ولم تستثن الأدباء طبعاً . ولكن هؤلاء انقادوا إلى التيار وتطوروا كأفراد اجتماعيين لا كأدباء منتجين . إن أدباء المهجر استمدوا إلهامهم بالدرجة الأولى من تأملاتهم في الحياة ، — ومن حسّهم وتفكيرهم — لا من حسّ غيرهم وتفكيره . وما تأثر بعضهم بالكتب إلاّ دليل قابليتهم للتأثر بما يلامس المطالعة من مظاهر الحياة وأحاسيس البشر . وكم من قارئ لا يستفيد مما يقرأ لضعف في قابليته . وكم من طالب خرج من الجامعة عالماً وظل زميله جاهلاً بعد أن تلقى الدروس ذاتها .

معظم الأدباء الذين عرفتهم في المهاجر يعيشون ملتصقين فكراً وعاطفة بأوطانهم الأصلية ، بعيدين بالروح عن البيئة الاميركية ، لا يهتمون بأدبها وصحافتها وأخبارها مثل اهتمامهم بأدب الوطن العربي وصحافته وأخباره . فتراهم لا يتكلمون اللغة الأجنبية إلاّ مكرهين بدافع المصلحة التجارية في الأخذ والعطاء والبيع والشراء ، ويقبلون أيما إقبال على مطالعة ما يرشح اليهم من الصحف العربية . الشعر عندهم فيضان ينظمونه غراراً على غفلة من متاعب الكدح وراء الرزق . والعجمة واقفة لهم بالمرصاد . ما إن تيسر لهم البيئة حافزاً واحداً للإنتاج الأدبي حتى ترهقهم بالمثبطات العديدة .

من هذه المثبطات قلّة الاجتماعات الأدبية والمساجلات الشعرية وندرة المناسبات التي يطلب فيها اليهم الكلام . ومنها اختلاف مبادئهم الوطنية والتباين في ثقافتهم وتربيتهم وأذواقهم ونظرياتهم « ذلك التباين العامل على تشتيتهم في المهاجر كما عمل على تشتيت المقيمين في الوطن » (اقتباس من كلام جورج حسون) . وفي ذلك يقول فرحات :

وكيف يعزّ الشعر في دار غربة كأن فصاح العرب فيها طماطـــم
وهل يستقيم النظم والنثر لامرئ يبيع ويشري مرغماً ويســاوم
ومن ذا الذي يمسي على اللفظ حائماً وفي صدره همّ على القلب جاثم
علينا حقوق للعيـال وما لنـــا على الناس حق والدواهي دواهم
فوالله لولا خطرة مـا لدفعهـا سبيل لألسنتنا الهجاء اللـوازم
ولولا هوى الأوطان وهو مقدس لما جمعتنـا باسمهن المواســم

ومن المثبطات مناوأة الجوالي العربية لهم واستهتارها بأدبهم لأنهـا جاهلة ، والمرء بطبيعته عدو لما جهله . شرح الدكتور محمد حسين هيكل هذه الظاهرة في كتابه ثورة الأدب بقوله : « في المهجر كما في الوطن آفة استحكمت في أخلاق العرب وهي الميل إلى هدم كل رجل ذي قوة وموهبة لأسباب لا صلة لها بقوته وموهبته . فإذا كبر الأديب في مجتمعه ثقل علينا ظله ، إذن يجب تحقيره أمام الجمهور ، ولو اعترفنا له فيما بيننا وبين أنفسنا بالتفوق والمقدرة . فإن أعجزنا تحقيره من طريق النقد النزيه احتلنا لذلك بالوشاية والكذب وغير ذلك من الوسائل . ومن الأدباء من يضعف أمام هذه الهجمات فيعدل عن الكتابة تأميناً لكرامته وللسلام في معيشته . ومنهم من لا يحفل بها ويشتد ثورة واندفاعاً فيعطي بعد المعركة أكثر مما أعطى قبلها . لكن لا سبيل إلى الشك أنه لو أوتي المناصرة بدلاً من المقاومة لكان نتاجه أكمل ونجاحه أتم . »

أصاب الدكنور هيكل كبد الحقيقة ، وكأنه تكلم بلسان الأدباء المغتربين .

يروي الشاعر القروي في مقدمة ديوانه ما يأتي : « قويت الحركة الوطنية في سان باولو على اثر انفضاح وعد بلفور وشبوب الثورات في العالم العربي . فانشطر الكتّاب إلى استقلاليين واحتلاليين ومرتزقة مذبذبين . فقامت الحفلات الوطنية الأدبية على قدم وساق تدعوني

للاشتراك بها قولاً وعملاً . كنت أنقطع عن التجوال شهراً كاملاً مضحياً باجرتي ومنفقاً من جيبي لأنظم القصيدة التي طُلبت مني . وبعد أن أهيىء القصيدة كنت أنظم التراتيل وألحنها وأمرّن الجوقة على إنشادها حتى إذا انتهت الحفلة بعد منتصف الليل ، وبعد ان أكون أقمت الحفل وأقعدته تحمساً وهتافاً ، أخرج إلى الريح والبرد والعرق يبلل ثوبي ولا أجد من يقلّني بعربة إلى بيتي ، ثم أصبح لأرى الجرائد الاحتلالية توسعني قذعاً وتلوم الذين دعوني إلى الكلام . وهؤلاء يتبرأون من المسؤولية ويتظاهرون باستنكار ما قلت . ثم لا يجدون بداً من دعوتي إلى الكلام مثنى وثلاث ورباع فألبّي ضارباً عرض الحائط باعتراض الاحتلاليين وتهديدهم . »

لا شك أن هذه الصورة الموجعة التي صوّرها القروي عن عقلية أبناء وطنه ، تبرر نقمته البارزة في قوله :

سل الساحبين ذيول النعم
بما سلخوا من جلود الغنم
ألم تبق فيكم بقيـــة دم
ألا تشعرون بجمر النـدم
ألا تبصرون شقاء الوطن ؟

ولا بد من أن يكون أبو ماضي قاسى من مواطنيه بعض ما قاساه القروي فقال لهم :

قومي وقد أطربتهم زمنـاً   ساقوا إليّ الحزن والكمدا
هم عاهدوني إن مددت يدي   ليمدّ كل فتى إليّ يـــدا
قالوا غداً تهمي سحائبنا   فرجعت أدراجي أقول غدا

لكنني لمـا مددت يدي وأدرت طرفي لم أجد أحدا
لا تسألوا عنهم وإن سألوا لا تذكروني عندهم أبـدا
لا يملأ السروال واحدهم ولهم وعود تمـلأ البلـدا
يا ليتني ضيعت معرفـتي من قبل أعرفُ منهمُ أحدا

وهذا جبران الذي وجد نفسه بين أبناء الجالية المغتربة « دولاباً يسير يمنة بين دواليب تسير يساراً » يقول لهم :

« أنا أكرهكم يا بني أمي لأنكم تكرهون المجـد والعظمة
أنا أحتقركم لأنكم تحتقرون نفوسكم . »

ويضيق فرحات بهم ذرعاً فيتوجه إلى ربه بكلمة عتاب :

« إلهي ، لماذا خلقت العقول بعصر تفكر فيه الجيوب ؟ »

وفي هذا المجال تُروى في سان باولو نكات أذكر منها ثلاثاً . الأولى ان غنياً بخيلاً كان يروغ عن دفع بدل الاشتراك في جريدة تخص توفيق ضعون . ولما كان نصف أميّ سأل صاحب الجريدة : لمـاذا لا تعلمني الصرف والنحو حتى أحسن القراءة ؟ فأجابه ضعون : قـد أستطيع ان اعلمك النحو ، أما ان اعلّمك الصرف ... فـذلك مستحيل .

ويروي الشاعر القروي ان مواطناً من مُدّعي الأدب اعترضه مرة في السوق ليقول له : صاحبك شفيق معلوف نشر عَبَقَر (لافظـاً الكلمة بثلاث فتحات على الحروف الاولى) فأجابه القروي : الحق معك . نشر كتابه عَ بقر !

والثالثة ألقاها وجيه قومه الاستاذ نعوم لبكي : لمّا كان ماراً بحي

التجار العرب فصاح به أحدهم : « شو يا استاذ ، انت بسوقنا اليوم ؟ »
فأجابه : « أنا بسوقكم كل يوم ... »

* * *

أصل من هذا البحث إلى النتيجة التالية : ان أدب المهاجرين ليس ثمرة انتقالهم إلى المحيط الاميركي لأنهم لم يجدوا فيه إلاّ القليل من الميسّرات والكثير من المعسّرات . ولا هو وليد أدب الغرب لأن أكثرهم لم يقرأه . بل أؤمن بأنهم لو تخلفوا في الوطن وعاشوا بين زملاء ينافسونهم في الإنشاء والنظم والخطابة ، والضاد تجري على ألسنتهم وترن في مسامعهم ليل نهار ، لأنتجوا أدباً لا يحمل الطابع المهجري ولكنه قد يفوق ما انتجوه في المهجر الاميركي روعة وجزالة . وحسبنا دليلاً على ذلك ما انتجه الريحاني ونعيمه بعد خروجهما من ديار الهجرة .

ولكن هذه النتيجة لا تعطينا الجواب عن سؤال الدكتور مندور « لم استطاع أدباء المهجر ما لم يستطعه غيرهم ؟ » .

وشاء الدكتور مندور أن يُجيب نفسه ، فقال : « السبب المهم هو أنهم قوم مثقفون قد أمعنوا النظر في الثقافات الغربية التي لا غنى عنها اليوم وعرفوا كيف يستفيدون منها بعد أن هضموها بلغاتها الأصلية . فهم ليسوا إذاً كأولئك الذين يسرفون في الغرور عن جهل وكسل ظانّين أن الأدب في متناول كل انسان ، وأن كل كلام منظوم شعر . الثقافة هي التي تشع في ألفاظ هؤلاء الشعراء . وإنك لتقرأ الجملة فتحسّ أن خلفها ثروة من التفكير والإحساس ؟ »

لو أن الدكتور يتقبل رأيي المتواضع لأرحته من عناء الافتراضات وإن كانت تشرف أدباء المهجر وقلتها له كلمة صريحة : انهم استطاعوا ما لم يستطع غيرهم بفضل موهبتهم الفطرية . لا أكثر ولا أقل . هذا ما يلوح لي ، وهذا عين مـا قاله لي الاستاذ نعيمه في حديث جرى

بيننا : « ان أدباء المهجر — بما فيهم أعضاء الرابطة القلمية — لم يكونوا من ذوي الثقافات العميقة . لم تهيئهم المدارس في وطنهم للمركز الممتاز الذي شغلوه في عالم الأدب . ولا البيئة الأجنبية أثرت فيهم ذلك التأثير الذي يتوهمه المقيمون . إن الفضل في تبريزهم هو الموهبة الطبيعية . والموهوب هو الذي يخلق بيئته ولا تخلقه البيئة » . يقول هذا القول الأديب العربي الذي يحسن عدة لغات أجنبية ويحمل شهادات جامعية . فإن كان يعترف بأن ثقافته غير عميقة فما بالك بثقافة الآخرين ؟ وكتب إليّ الشاعر شفيق معلوف : « ان ثقافتنا الادبية هي ثقافة مواطنننا الأصلية . والعبقريات التي تجلّت في المهجر كانت كامنة فينا ، لا في البيئات التي عشنا فيها . »

بين مئة كاتب وشاعر عرفتهم في المهاجر ، لا يتجاوز العشرين عدد الأدباء الذين درسوا لغة أجنبية دراسة مستوفية : جبران والريحاني ونعيمه ونسيب عريضة وحبيب كاتبه ومسعود سماحه وفيليب حتي في اميركا الشمالية . شفيق معلوف — توفيق قربان — موسى كريم — جورج حسون — في البرازيل . الأمير أمين ارسلان — يوسف الغريب — ملاتيوس خوري — سيف الدين الرحال — خليل نبوت في الأرجنتين . الدكتور جورج قدوم في الاكوادور — الدكتور وليم نعمه في المكسيك — الدكتور مانويل يونس في فنزويلا — جميل شوحي في شيلي . أما الباقون ففريق ألمّ إلماماً سطحياً باللغة المتداولة في الشارع ، وفريق أبى على لسانه أن ينطق إلا باللغة الفصحى .

ان معرفة اللغة الأجنبية هي ميزان الحرارة الذي يسجل درجة استعداد الأديب لاقتباس ثقافة الغرب إذ لا سبيل إلى اقتباسها إلاّ من طريق اللغة التي يتكلمها ويكتبها أهلها ، ومن الطبيعي أن يتبع هذا التفاوت في درجة الاستعداد تفاوت الثقافة المكتسبة ، فإن كانت هذه الثقافة مصدر النبوغ في أدباء المهجر ، وجب أن تكون درجات أدبهم العربي

موازية لدرجات ثقافتهم الغربية . وهذا ما لا يؤيده الواقع .

لو صحت نظرية الثقافة لخسر أبو ماضي منزلته في طليعة الشعراء وحل محله أي شاعر تخرج في كلية الحكمة في بيروت ، لأن أبو ماضي غادر مدرسة القرية قبل بلوغه الحادية عشرة من العمر ولم يدخل مدرسة بعد ذلك . ولو طبقناها على الشاعر فرحات لما فاز إلا بالمقعد الأخير من الصف ، لأنه شرف المهجر بحضوره قبل أن يحسن قراءة مزامير داود في مدرسة كفرشيما . ولو فاتحنا الياس قنصل بالموضوع ، وهو في متجره في بونس ايرس ، لزعزع الغضب أركان المكان وانهالت على رؤوسنا الأباريق والصحون والأكواب قبل أن نتم العبارة الأولى . ذلك أنه وصل إلى الارجنتين قبل أن يتعلم الصرف والنحو والعروض . ومثله فعل أخوه الشاعر زكي قنصل فيما بعد .

ان من ولدت نزعة الأدب في صدره يصبح عبداً لها سواء تثقف أو لم يتثقف . عندما تنتابه حمى الفكر لا تفارقه إلاّ متى انتج أدباً . والثقافة تؤمن حذق الصناعة ، ولكن الصناعة لا تولّد الشعر الرائع الذي يغمر أجهزة الشعور في الإنسان متى سمعه . إننا نطرب لأغنية راع جميل الصوت ولا نطرب لفنان قبيح الصوت مهما حذق أصول الغناء لأن غناءه من عمل الصناعة لا من عمل الموهبة التي خصه الله بها . يقول الشاعر المهجري شكر الله الجر : « ان للشاعر ذاتاً خفية وشخصية متمردة وهي الفيض الأقوى في شعره والعامل الأظهر في تفكيره والناحية الأبعد إشراقاً في أدبه . فإن استطاعت البيئة أن تكيف قليلاً من هذه الذاتية الحية في الشاعر وتصقل مظهرها فلا يعني أنها تستبدل جوهرها أو تقوى على محوها عندما يكون الشاعر قوي العاطفة أصيل الطابع » .

أبناء المغتربين من مواليد المهجر هم الذين ابتلعتهم البيئة وطبعتهم بطابع الثقافة الغربية وهم الذين يمرنون آباءهم على التحدث بلغة

البلاد ، حتى لا يصبحوا غرباء عنهم . لقد نبغ منهم أدباء وشعراء كبار شرّفوا العنصر العربي وانتجوا الأدب العالي بلغة الاميركان أو الاسبان ، ولكن لا تجد واحداً منهم يخلف أباه في الأدب العربي حتى ولا أولاد أبو ماضي وفرحات وشفيق معلوف وتوفيق قربان وجورج عساف ، وعبد المسيح حداد ومحبوب الشرتوني لأن آباءهم العبقريين لم يعلموهم اللغة العربية . قال فرحات :

وصلتنا بأبينا لغة لم تصلنا ببنينا الظرفاء
إن نقل قولاً فصيحاً بينهم رددوه بلسان الببغاء

* * *

للبيئة الاميركية فضل على أدبائنا المهاجرين ، هو غير الثقافة والحرية وما أشبه ذلك . هذا الفضل هو عزلهم عن دنيا الاقطاعية الفكرية وعن الأوساط الرجعية التي كانت تعتقد أن اللغة العربية « لا تتنصّر » . هذه الأوساط كانت تسيطر على مجاري الأدب في مصر وسوريا ، وتحيطها بسياج من حرمة القرآن الشريف حاسبة كل خروج عن التقليد خروجاً عن الدين . والفضل الثاني هو القدوة التي أعطتها البيئة الاميركية لاخواننا المغتربين في صراحة القول وفي المثابرة على العمل وفي الطموح إلى التفوق . هذه صفات لا ينكرها أحد على الشعب الاميركي ، ولو لم يقتبسها منه أدباؤنا كما اقتبسها رجال الأعمال في مصانعهم ومتاجرهم ، ويجدّوا في العمل الفكري ، وينصرفوا بصبر وعزيمة إلى الانتاج ، لما أصابوا هذا النجاح الذي أصابوه . ومتى اجتمع النشاط والثبات إلى الذكاء لا تستكثر نجاحاً على العاملين .

يجمل بنا ، قبل الانتقال إلى بحث آخر ، أن نلخص ما قدّمناه : وهو أن الموهبة الفطرية ، لا الثقافة ، هي مفتاح السر في تفوق أدب

المهجر . يضاف اليها الجد والاجتهاد والتأمل العميق . وهذا لا يعني أننا نبخس الثقافة قيمتها في تكوين الأدب بل نعتبرها من أهم مقوماته ، ونتمنى لو كل أدباء المهجر وجهوا عنايتهم إلى اقتباس ثقافة الغرب وتمكنوا من لغته واطلعوا على آدابه كما فعل الريحاني وجبران ونعيمه ومعلوف ، إذاً لكان أدبهم أعمق وأدسم وأبقى . ولكن التمني شيء والواقع شيء آخر . ورائدنا في هذه المحاضرات هو تصوير واقع الأدباء المهاجرين ، ودراسة آثارهم كما هي بين أيدينا ، لا كما يمكن أن تكون لو حصلوا على ثقافة أعلى . إننا نلوم كل أديب أقام في المهجر ولم ينسجم في محيطه ولم يتعلم لغته ولم يدرس أدبه ، لأنه بذلك أساء إلى نفسه وإلى قومه ، فلا موهبته تجلّت بكل إمكاناتها ، ولا أدبه تجاوز النطاق العربي إلى الجو العالمي . وكل موهوب يُحاسب على الطاقة التي هدرها من مواهبه أمام الخالق الوهاب وأمام الضمير الأنساني .

ولم أر في عيوب الناس شيئاً كنقص القادرين على التمام

إن الأدب زهرة ، عطرها الشعر . تنمو في شجرة المعرفة على أغصان العلم والفلسفة والتاريخ ، وكلما رسخت الجذوع وأينعت الغصون ، نضرت ألوان الزهرة وتضوّع اريجها . وما اجهل الزهرة التي تزدري ماء الحياة الدافق حولها ولا تشرب إلاّ الندى الهابط من الجو البعيد . إن غذاءها لا يدوم وعمرها لا يطول .

في هذا العصر ، عصر الاختصاص في العلم والعمل ، عصر الطيران بالفكر والجسد ، لا يستطيع الأديب العربي أن يجاري الأدباء العالميين إذا تجاهل التطورات الحديثة التي طرأت على مواضيع الأدب واتجاهاته ، فإذا حصر دائرة معارفه في علوم اللغة ، وموارد ثقافته في التاريخ العربي والمحيط العربي ، قصّر عن الأديب الأوروبي أو الاميركي

الذي يدرس ويدرس إلى أن يختزن عصارات أجيال من الأدب والعلم والفلسفة . وشتان بين من يعرض على الأنظار دمى بديعة الألوان والحركات والأصوات ومن يعرض على الأفكار عوالم طيارة في آفاق الكون .

في بعض الأدب المهجري قصور بديعة الهندسة باذخة القباب ، شيدها الفن العربي الأصيل ، ولو اسهمت يد الثقافة العالمية في بنائها لكانت اليوم في حجم الأهرام ، وفي خلودها .

يُحكى عن الخليفة عمر انه نظر إلى قوم من قريش صغار الاجسام . فسألهم : ما بالكم صغرتم ؟ أجابوا : قربٌ أمهاتنا من آبائنا . فقال : صدقتم . اغتربوا وتزوجوا من البعداء تُنجبوا .

الفصل السابع

مناحي الأدب المهجري

ضرب المهجريون في كل مناحي الأدب النثرية والشعرية مستلهمين نواحي الحياة المتنوعة وحاجات المجتمع المختلفة والطبيعة والاساطير وخبايا النفس الإنسانية . فكانت لهم كتب فلسفية ودواوين شعر ومقالات وروايات وقصص ومسرحيات وملاحم .

كان نشاط أدباء الشمال متجهاً إلى حقول لم يطرقها أدباء الجنوب . وعالج هؤلاء أبواباً لم يعالجها أدباء الشمال ، فالأبحاث النفسية والتعاليم الروحانية والقصص العبّارة والمطولات الشعرية كانت من نتاج أعضاء الرابطة القلمية . أما أعضاء العصبة الأندلسية فتفردوا في نظم الملاحم الاسطورية أو ما يشبه الملاحم والروايات التمثيلية .

قال المرحوم إسماعيل أحمد أدهم : « إن الرابطة القلمية أنشأت مدرسة قوية في الأدب العربي نجحت في تقديم أروع ما كتب من القصص والمسرحيات والأقاصيص » . وهذه شهادة غالية يبررها إنتاج

جبران ونعيمه في فن القصص الرائع . أما في المسرحية فلم نعثر إلا على مسرحية « الآباء والبنون » لنعيمه وقد حاول فيها حل مشكلة اللغة المسرحية بأن يجعل الشخصيات المتعلمة تتكلم الفصحى وغير المتعلمة تتكلم اللغة العامية . وقد مثلت في نيويورك . يقابلها في البرازيل مسرحية فوزي معلوف « ابن حامد » وعدد من الروايات التمثيلية ألفها واشترك في تمثيلها ناصر شاتيلا في سان باولو . وغير التمثيلية « ذنوب الآباء وهيرودس الكبير ويسوع المصلوب » لنظير زيتون ، و « من المهد إلى اللحد » لأنيس شكور و «قيصر وكليوباطرة » للدكتور خليل سعادة . وفي الارجنتين أقاصيص الياس قنصل وروايتان لخليل نبوت : « جهاد المستعبدين » و « وثبة العرب » .

أما القصص ذات القيمة العالمية ، فالأدب العربي مدين بها لقلم جبران (الأرواح المتمردة والأجنحة المتكسرة والعواصف وغيرها) ولقلم نعيمه في قصته العاقر ورواية مذكرات أرقش . والأدب القصصي في الجنوب لم يرتق إلى مستواها الفني وفاعليتها القوية ، رغم كل ما كتب فيه جورج حسون وانطون سليم سعد واسكندر كرباج وشكري الخوري والياس قنصل من الأقاصيص الموفقة . وعبدالمسيح حداد لم يكتب غير حكايات المهجر ، أما الريحاني فقد كتب معظم قصصه ورواياته بعد أن غادر المهجر .

وقد استهوى القصص شعراء الشمال فنظموا كثيراً من خواطرهم في عقد القصة أو الحوار ، وكان لأبو ماضي القدح المعلى في هذا الاسلوب كما تشهد بذلك قصائده : أمنية الآلهة — الشاعر في السماء — الدمعة الخرساء — الشاعر والأمة والأسطورة الأزلية ، وقصيدة « هي » . وجرى مجراه الشاعر القروي في « حضن الأم » وفرحات في قصيدة «الراهبة» وقصة « كل حر في دولة الظلم جان » و « احتضار أبي فراس » لعريضة و « الراهبة » لندره حداد . وكثيرون نظموا المطولات (كجبران في المواكب) ولكن لم يبلغوا مدى قصيدة الطلاسم لأبو ماضي (٢٨٤ بيتاً) .

أما الملاحم فهي من نصيب شعراء الجنوب . لدينا ملحمة « على بساط الريح » لفوزي المعلوف ، وملحمة « عبقر » لشفيق المعلوف .

ويأتي بعدها ما يشبه الملحمة كـ « أحلام الراعي » لفرحات و « سعاد » لزكي قنصل ، و « معلقة الأرز » لنعمه قازان ، و « على طريق إرم » لنسيب عريضة .

وفي أدب النقد زوّد نعيمه الخزانة العربية بتحفة نادرة هي كتابه « الغربال » يقابله كتاب « المنقار الأحمر » للشاعر شكرالله الجر ، في ريو دي جانيرو .

وهناك الشعر المنثور الذي ابتدعه الريحاني ومارسه جبران أول ما مارسه في كتاب «دمعة وابتسامة» وقلدهما في البرازيل الأديب يوسف أسعد غانم .

وكان للترجمة مكان في أدب المهجر الجنوبي دون الشمالي .

فقد عُني أدباء البرازيل والأرجنتين بالترجمة عن اللغات الأجنبية ، فنقلوا إلى العربية أشهر الآثار العالمية ، وأهم حوادث التاريخ ، وعانوا بنجاح ترجمة الشعر الغربي شعراً عربياً (شفيق معلوف) وهي من أعسر المهامّ . ومنهم من انصرف إلى الترجمة من العربية إلى لغة محيطه حتى لم يبق شعب من شعوب اميركا لم يقرأ كليلة ودمنة ، وألف ليلة وليلة ، وملحمة بساط الريح منقولة عن العربية ، ومدنية العرب منقولة عن الفرنسية ، والنبي ويسوع بن الانسان عن الانكليزية ، وشعر لوركا ، وداريو عن الاسبانية . وبهذه الترجمات اسهم أدباء المهجر في تعميم التبادل الثقافي بين أجزاء القارة الاميركية ، وبينها وبين الاقطار العربية .

يقول نيتشه عن الأدب الفرنسي : « إن أرقى عصور الادب في فرنسا هو الذي ظهرت فيه ترجمات ممتازة . إن لفرنسا عبقرية الأنثى . فهي تولّد الأفكار ولكنها لا تخلقها . الخلق للرومان واليونان » . والظاهر أن هذا الرأي لم يرق لشاعر الرمزية بول فاليري فأجاب قائلاً : « أنا أوثر الفحولة في الأدب . الخلق لا الترجمة » .

هذه هي نواحي نشاط الأدب المهجري ، عرضنا خطوطها البارزة وأرجأنا البحث في كل أثر منها إلى فرصة الكلام عن صاحب الأثر . على أن هذا العرض الموجز يعطي فكرة عن غزارة النتاج المهجري وعن

تنوعه . ومن متممات البحث أن نفاضل بين أنواعه ونشير إلى أحسنها وأبقاها ، أي إلى الناحية التي نبه فيها أدباء المهجر « فاستطاعوا ما لم يستطع غيرهم » .

هناك نظريتان متعارضتان في تقدير أدب المهجر . فالأوساط الأدبية في الوطن تقيس النتاج المهجري بقياس المجهود الفكري وتزن المحصول الشعري بميزان الفن ، فتعجب بكتب التحليل النفساني العميق كالنبي ويسوع ابن الانسان وزاد المعاد ومرداد . وبالملاحم الاسطورية كبساط الريح وعبقر .

أما الأوساط المهجرية فلم تتأثر بهذه المؤلفات كما تأثرت بالشعر الوطني وبالقصص ذات العبر الاجتماعية . لأن ذلك النوع من الشعر يبعث في نفوسهم روح البطولة ويرفع معنوياتهم ، ولأن تلك القصص تعالج نواحي الحياة الشرقية وترمي إلى إصلاح المجتمع وتحريره من ربقة الاقطاعيين ورجال الدين وإلى تنقيته من بذور الفساد المعششة في كيانه ، فضلاً عما في قصص نعيمه وجبران من انسجام وحرارة وطلاوة ، فلا مواقف خطابية تفسد جو القصة ولا استطرادات تقاطع متعة القارئ ، فلا عجب إذا آثروها على كل نوع من أنواع النتاج الأدبي .

وهناك لون آخر من الأدب لا يضاهيه في الواقع البليغ أدب ، نما في المهجر في حين الحاجة اليه وأورفت ظلاله على النفوس الحرى فارتاحت اليه وانتعشت به ، هو أدب المناسبات . هذا الأدب الذي يزدريه المقيمون فينعون على أبو ماضي ما نشره في ديوانه الأخير « الخمائل » من قصائد الترحيب والتكريم والرثاء .

الفصل الثامن

ادب المناسبات

إن الازدراء بشعر المناسبات أصبح من سمات العبقرية والتفوق عند كتّاب الطراز الأول في الزمن الأخير . يقف الواحد منهم موقف العابث الساخر ، ينظر من عالي مقامه إلى قصيدة قيلت ، في مناسبة ذكرى أو ترحيب أو تكريم أو وداع ، فيأنف من إطالة النظر فيها ويصدر حكمه الرهيب : شعر مناسبات !

إن كان الشعر رسالة الحياة فالحياة مجموعة مناسبات . والمناسبات هي الظروف المؤاتية لأداء رسالة الشعر . وإن شاعراً يقف موقف المادح فيخضع المناسبة للشعر ويتخلص من المديح إلى أجواء تتسع للفن والعظة والتوجيه لهو أعظم من شاعر يطير بخياله إلى الماورائيات ، بعيداً عن دنيا البشر ، مهما حلّق وأبدع .

كل شعر هو وليد مناسبة . ولكن ليست كل مناسبة تولد شعراً . فان انبثق شعر المناسبة عن عاطفة صادقة وفكر حرّ وخاطر عفوي

فياض ، صلح لكل زمان ومكان . أوَليس في القرآن الكريم آيات تنزلت على نبي العرب في مناسبات ؟ وهل في لغة الضاد ما هو أبلغ منها وأبقى ؟

إننا نسأل الذاكرة عمّا حفظتْ من شعر المتنبي والبحتري وأبي تمام والشريف الرضي بعد وفاة قائليه بألف عام فنجده مقتطفاً من قصائد قالوها في مناسبات عرضت لهم : تهنئة أو رثاء أو مديح أو هجو . ولكننا حفظنا الشعر البليغ ونسينا اسم الممدوح والمهجو والمهنأ والمرثي . وشأننا مع الشعراء المعاصرين مثل شأننا مع الشعراء القدامى . فعندما نقرأ رثاء فرحات للملك حسين لا نهتم بموضوع القصيدة قدر اهتمامنا بجزالة الشعر وبلاغته :

منقذ الشعب من دواعي عذابه	لا تكون الدموع كل ثوابه
جددوا للحسين ذكرى مذاكيه	وذكرى سيوفه وحرابه
يوم روّى رمل الحجاز بقانٍ	أنبت المجد ناصعاً في رحاله
أمة العرب أمّت القدس تبغي	نور وجه الحسين قبل غيابه
فالتقت عند نعشه وهي كانت	في الملمات تلتقي عند بابه
أهو الملك في السرير مسجى	أم هو السيف مغمد في قرابه ؟

* * *

إن المناسبة لا تعيب الشعر قدر ما يعيبه نقصان الحس والتجربة الفردية والعبرة الإنسانية في المناسبة . وليس على الشاعر أن يخنق عاطفته في المناسبة بل أن يمثل عاطفة المجتمع في عاطفته سواء شكر أو امتدح أو رثى أو هجا .

المناسبة ، عند شاعر كإيليا أبو ماضي ، لا تخلق الأفكار والخواطر بل تهيئ لها فرصة للظهور . وإنك لتقرأ قصائد المناسبات في ديوانه

فتشعر أنه غمر المناسبة وسما فوقها لأن روحه تحركت بإلهام صادر من النفس لا من خارجها . وأنت لا تهتم بالمحرك الذي هو المناسبة، إلاّ كما تهتم باليد الـتي أدارت زرّ الكهرباء حين امتلأت غرفتك بالنور .

قال أبو ماضي يوم زار لبنان بعد غيابه عنه نحواً من نصف جيل . غادره قبل أن يراهق وعاد اليه بعد أن اكتهل . فراح يناجيه بهذا اللحن المسكر :

وطن النجوم أنا هنا	حدّق أتذكر من أنا
أنا ذلك الولد الـذي	دنياه كانت ههنا
أنا من مياهك قطرة	فاضت جداول من سنا
أنا من ترابك ذرة	ماجت كواكب من منى
أنا من طيورك بلبل	غنّى بمجدك فاغتنى
لليّل فيك مصلياً	للصبح فيك مؤذّنا
للبحر ينشره بنوك	حضارة وتمدنا

وقائل ان شعراء المهجر تمادوا في استغلال المناسبات وحشروا فيها تجارب عاطفية ذاتية وحوادث فردية جرت في محيطهم العائلي ، فما شأن المجتمع كي يشركوه في وقعها عليهم ؟ وهو قول وجيه إن صح أن الشاعر لم يترجم عاطفة إنسانية في عاطفته الشخصية ولم يستقطر الحادث الفردي عبرة عامة المرمى ، وإن صح — قبل كل شيء — أنه لم يخرج عن العادي المطروق في أشكال التعبير .

يقول نعيمه ان العواطف والأفكار قد تكون مستيقظة في الواحد منا غافية في الآخر . فمن استيقظت عواطفه وأفكاره وتمكن من أن يلفظها بعبارة جميلة التركيب موسيقية الرنة كان شاعراً « فالشعر يمد أصابع

وحيه الخفية إلى قلوبكم وأفكاركم فيرفع جانباً من الأغشية التي تغلفها وبحوّل أبصاركم إلى ما انطوى تحتها . ولأول وهلة تبصرون عواطف وأفكاراً هي في الحقيقة أفكاركم وعواطفكم عرضها الشاعر على أنظاركم وتركِكم تستجلون ألوانها وتتفحصون معانيها . »

هذه هي حقيقة الأسباب التي جعلت شعراء المهجر يتشبثون بالقصائد التي ألقوها في الحفلات أو نظموها في تجاربهم الخاصة مستجيبين لدوافع نفسية قاهرة تأبى أن تظل حبيسة صامتة . فهم في شعر المناسبات — حتى المناسبات العائلية — يضيفون إلى الأدب من إحساسهم وإدراكهم وجمال فنّهم ما يزيد ثروة الأدب وما يفتح عيون الناس على دقائق قضية الحياة .

من ذا الذي يقرأ رثاء فرحات لطفلته ولا يختلج ملتاعاً للوعته :

يهنيكِ نومكِ يا سعاد فإنه	نوم الرضيع على ذراع المرضع
يهنيكِ يا ولدي السكون محركاً	بجلال هيبته سواكن أدمعي
كم قبلة تهفو إلى شفتيّ من	قلبي الحزين الواله المتفجع
حتى إذا وجدت سريرك خالياً	رجعت فصارت جمرة في أضلعي

ومن لا يرق قلبه لرقة شعر زكي قنصل وقد فجع بسعاده كما فجع فرحات :

يا رب لا تحبس فؤادي ساعة عن ذكرها
أنا قد عبدتك بسمة وضاءة في ثغرها
وشممت أنفاس الجنان شذية في شعرها

وشفيق معلوف ، أية هزة تعرونا عندما نتمثله واقفاً تجاه نصب أقيم

في زحله عام ١٩٣٧ لأخيه المرحوم فوزي وقد جاء من البرازيل ليشهد الاحتفال بازاحة الستار عنه :

فوزي ، ومالي في الخطوب يدان   ما هكذا الاخوان يلتقيان !
قدمت صدري للعناق فلم يقع   إلا على حجر من الصوان

لقد ُوفّق شفيق في رثاء أخيه إلى مطلع من أجمل المطالع التي عرفها الشعر حين قال :

أقبلت أبحث عنه في الترب   تاج تدحرج عن جبين أبي

وها شاعرنا القروي يعود أخته المريضة يوم عيد الفصح ويقول :

أخيّة يا ليت هذا العذاب   على مهجتي كان لا مهجتك
وليت الكرى في دموعي ذاب   لأسكبهن على مقلتك
ولو استطيع حملت الجميع   هدية فصح إلى مضجعك
وخبأت يا أخت شمس الربيع   بجيبي لتشرق في مخدعك

* * *

إلهيَ دعها تطر للربى   وتجنِ الزهور كأترابها
وإلا فمر بلبلاً مطرباً   من الروض يشدو على بابها
وقل للنسائم أن تجلبا   اليها الشذا ملء جلبابها
وإن شاء عفوك أن يرحما   صباها ويدرأ عنها الخطر
فمنّ بابلالها قبلما   تجفّ الحقول ويذوي الزهر

وقد مررت بتجربة قاسية مر بها الألوف من الآباء والأمهات عندما يسلمون فلذات أكبادهم لمباضع الجراحين ، والشاعر يعبر عن إحساسهم جميعاً ساعة ارتاع لمشهد ابنته على محفة المستشفى :

رفقاً بها يا مبضع الجراح شرّحت قلب الوالد الملتاح
إن زدت إيلاماً فضحت تجلُّدي وجمعت بين صياحها وصياحي
والله لو أطلقت روحي لارتمت تحت النصال تصدها بجراحي
هذي القطاة ، قصاصة من ريشها تكفي إذا انتثرت لقص جناحي
ماذا جنت وهي الفطيمة في الربى حتى تذوق خثارة الاقداح
بالأمسِ مدّت عنقها من وكنها واليوم تشهد مدية الذبّاح
ويحي دفعت إلى المشارط فلذة كنت الضنين بها على الأرياح
صُرعت من الآلام في غيبوبة سكرت بها وأنا الصريع الصاحي
قالوا غلوت بحبّها فأجبتهم ويل الشجيّ من الخلي اللاحي
إن الذي أشفى على خوض الدجى مثلي ، ليقدر قيمة المصباح
آمنت في علم الطبيب وإن في جرْحِ الجسوم سلامة الأرواح
ربّاه سدّد كفّه وسلاحه إني طرحت على يديه سلاحي

في هذا الشعر وجد الآباء أثر آلامهم في ألم أبٍ واحد وتعبيراً عن إحساسات قلوبهم في إحساس قلب واحد .

منذ خمسة أعوام وقف إيليا ابو ماضي في حفلة تأبين زميله وصديقه الشاعر ندره الحداد فلم يقل المألوف في الرثاء : النجوم تتهاوى . والأغصان تتعرى . والأرض تزلزل . بل صبغ مرثاته بألوان الواقع المفجع . كان الفقيد في حفلة عرس ينشد فيها التهاني لنسيبه العريس عندما أدركته المنية . فقال أبو ماضي :

لا تسل أين الهوى والكوثر سكت الشادي وبُحَّ الوتر

فجأة . وانقلب العرس إلى ... مأتم. ماذا جرى؟ ما الخبر ؟
كلنا مستفسر صاحبه ... كلنا يؤذيه من يستفسر
همس الموت بنا همسته ... إن همس الموت ريح صرصر
شاعر أعجب معنى صاغه ... للبرايا موتُه المبتكر
إنه كان ملاكاً بشراً ... فمضى عنا الملاك البشر

أترى يُثبت أبو ماضي هذه القصيدة في ديوانه المقبل أم يهملها خشية الناقدين ؟

عندنا تراث غال من شعر المناسبات تركه لنا الشعراء القدامى وزاده غنىً الشعراء المحدثون والمعاصرون ، فإن أهملناه قد لا يخسر الشعراء شيئاً ، ولكن الأدب العربي يخسر أشياء . وأية خسارة أفدح من أن نهمل ديوان المتنبي برمته ، ونصف الشوقيات ، وقسماً كبيراً من شعر القروي وأبو ماضي وفرحات ؟

علينا أن نبارك المناسبات التي تحرك الذكاء الراسب في ذهن الشاعر فتنطلق منه ومضة فكرية تستولد المناسبة العادية ابتكارات شعرية يفاجأ بها القارئ مفاجأة لذيذة .

لا طرافة في أن يقوم سري كريم في سان باولو على معالجة شاعر فقير الحال أصيب بمرض القلب ، ولكن الطريف هو أن يقول الشاعر لالياس عاصي :

الياس يا مصباح ليلي ... لا أجفّ الله زيتك
أنت ما داويت قلبي ... إنما رممت بيتك !

هذا الشاعر هو قيصر سليم الخوري الملقب بالشاعر المدني شقيق الشاعر القروي وأخوه في الشاعرية أيضاً ولكنه مقلّ جداً في النظم لأنه

معيل ومضطر إلى العمل التجاري الرتيب . كان يسكن مع زوجته وصغاره منزلاً تداعت أركانه وتفسخت جدرانه ولا يرضى عنه بديلاً لأن مالكه الشهم (يوسف اليازجي) كان يمهله في دفع الايجار أو يتجاوز عنه . هذه الظروف أوحت اليه أبدع الوصف في قصيدته « الطلل المأهول » :

ولي بيت تطوف به العوادي	وتنشر في جوانبه الدمارا
تصفّف حوله شجر كرسم	قديم جددوا منه الاطارا
أجيل الطرف فيه ولست أدري	أأحذر منه سقفاً أو جدارا
أداريه محاذرة فروحي	وروح بنيّ في كفّ المداري
هوى من سقفه نصف ، ونصف	تمسّك بالدعائم واستجارا
إذا ما الريح هبت من يمين	عليه زويت اولادي يسارا
يساند بعضه اكتاف بعض	فيضحك من تسانده السكارى
شقوق مَن تطلع مِن بعيد	يرى بيتاً وأبواباً كثارا
فمنها ما تعلّى أو تدنى	ومنها ما استطال وما استدارا
فما من موضع للسر فيه	كأن السر معروض جهارا
فجربت الستائر كل شكل	فكان الليل اعماها ستارا
نوافذ كالعيون بلا جفون	وقد تعبت من النظر ازورارا
أغافل إن نضوت به ثيابي	غريباً قد يمر بنا وجارا
أعيش وزوجتي فيه ، كأني	من العزّاب وهي من العذارى
يقولون ارتحل عنه ، ومن لي	بملاّك يقول دع الإجارا
ولا مال لدي ولا شباب	فما حالي إذا استأجرت دارا

وكان الشاعر فرحات يقاسي ما قاساه الشاعر المدني في أزمة السكن . إلى أن أخذ الله بيده واشترى بيتاً متواضعاً آوى فيه عياله ، ولكنه ضاق

بمداعبات الزملاء الحاسدين فقال لهم :

يهنئني صحبي ببيت شريتــه ولم يعلموا أني من الفقر راهنه
فيا أيها الصحب الألى لا يفوتهم جميل ولا تخفى عليهم دفائنـه
أقل بيوتي قيمــةً وأخسـها وأسخفها البيت الذي أنا ساكنـه

والمناسبة تقود الشاعر أحياناً إلى مواضيع لم يطرقها الشعر العربي من قبل ، قال الشاعر صيدح يوم خطب ابنته على صحافي معروف :

ربيتها بين أجفاني ، وبي جـزع من أن تعثّر بين الهدب والجفـن
حتى إذا أعبلتْ واشتد ساعدها حنّت إلى أفق تنأى بـه عني
مضى الزمان الذي أشبعتها لعباً فيه وجاء زمان اللعب في ذقني
كانت تروح وتغدو إن أذنت لها فأصبحت ترقص (السامبا) بلا إذني
يبني على الرمل مَن يبني على ولد قصور آماله . يا غبن من يبني !
الله في عون حسـناء يطارحهـا غرامه صحفيّ حاذق الفـن
باللفظ يسكرها باللحظ يسحرها وأي أنسية تقوى على الجن
خيرتها وهي تدري ذوق والدها فاختارت الصهر من لوني ومن وزني
أقول للقلب أنزله على سـعة فأنت يا قلب بيت لابنتي وابني

ومن هذا القبيل وصية شفيق معلوف لابنه :

لا ترج شعري . إن شعر أبيك ليس بمسعدك
إن لم تخلّد أنت نفسك ما أنا بمخلّـدك
مَن مخبري ؟ فلربما نلت الخلود على يدك

وقد عمل ابن شفيق بوصية أبيه فراح يقرض الشعر ، ولكن باللغة البرتغالية .

وهاكم مناسبة سخيفة لم يتورع الشاعر القروي من استيحائها شعراً طريفاً أثبته في ديوانه . موضوعها أنه حلق شاربيه العنترين اللذين نبتا في لبنان وأخصبا في البرازيل :

قالوا حلقت الشاربين	ويا ضياع الشاربين
فأجبتهم بل بئس ذان	ولا رأت عيناي ذين
الشاغلين المزعجين	الطالعين النازلين
ويلي إذا ما أرهفا	ذنبيهما كالعقربين
ان ينزلا لجما فمي	أو يطلعا التطما بعيني
وإذا هما بُسطَ الخوان	تراهما بسطا اليدين
فاذا أردت الأكل يقتسمان	بينهما وبيني
وإذا أردت الشرب يمتصان	كالاسفنجتين
فكأنني بهما وقد وقفا	بباب المنخرين
عبدان من أشقى العبيد	تقاضيا ملكا بدين

يتفرع من أدب المناسبات نوعان : الأول أدب الحفلات الذي شمل قسماً كبيراً من ثمرات القرائح في المهجر وسوف نتبسط في الكلام عنه . والثاني أدب المباسطات وهو ثانوي الأهمية سنشير اليه باقتضاب .

الفصل التاسع

أدبُ الحفلاتِ في المهجر

كتب المغتربون تاريخ هجرتهم بأقلام أدبائهم ونظموه ملحمة رائعة تتسلسل وقائعها في الحفلات الاجتماعية على أعواد المنابر . فما على المؤرخين إلاّ أن يسجلوا آثار تلك الحفلات المتتابعة ويعرضوه شريطاً سينمائياً تتمثل فيه حالة الجالية النفسية في كل مناسبة مع مراحل التطور في تفكيرها بين مناسبة وأخرى ، لأن أقوال الخطباء في كل حفلة تعكس شعور الجمهور والأدوار التي مر بها من عسر ويسر ، من طمأنينة وقلق ، من رجاء وقنوط ، من نشاط وخمول ، فما كان الخطباء يختارون إلاّ الموضوع الذي يهمّ الجوالي واللهجة التي ترضيها .

إن الذين يعترضون على اهتمام أدباء المهجر بالحفلات يجهلون وضع الجوالي المغتربة وحاجاتها ويتجاهلون أن أدب المهجر ما كان مثمراً فعالاً لو لم يلائم ذلك الوضع ويفِ بتلك الحاجات .

كانت جوالي المغتربين منقسمة على ذاتها في العقائد والنزعات ، حائرة بين المحافظة على الرواسب القديمة والاستجابة إلى دوافع الحياة التي بدأت تحس بدبيبها في النفوس حساً غائماً . لا ترى إلا الفراغ الأسود في واقع وطنها السياسي الذي انتقل من قبضة الاستبداد التركي إلى ربقة الاستعمار الغربي في شكل حماية وانتداب ، تحت راية الاستقلال . وكان أدباء الجالية يتململون في شبه اختناق تحت ضغط الحوادث في الأقطار العربية لا سيما بعد نكبة فلسطين . وفي حلوقهم غصة وفي صدورهم لهيب ، لا ينفّس عنهم إلا الانفجار .

فما كان أدب الخيال والفن وحده قادراً على تفريج الأزمة ، بل كان لا بدّ من أدب قوي واقعي جريء يتجاوب مع شعور المجتمع ويتفاعل مع ظروف الساعة .

أدب يثير ويحلّ المشاكل بصدق وشجاعة .

أدب البعث . هذه هي التسمية الصحيحة لأدب المناسبات في المهجر .

إن القوافل الأولى التي وصلت إلى المهجر لم يكن أفرادها على شيء من الثقافة أو التهذيب الاجتماعي أو الدراية بالشؤون التجارية ولم يكن هناك راية تحميهم أو مؤسسات تدرّبهم . والصحافة الموبوءة التي نشأت عقب وصولهم كانت تزيدهم تفككاً وضلالاً . فلما وصلت القوافل الأخرى ، وكان فيها بعض المفكّرين والمثقفين ، ارتاع هؤلاء من حياة الذل والمسكنة واللاوعي التي استسلم اليها سابقوهم ومن تراخي الروابط العنصرية بين أفراد الجالية تراخياً كاد يلاشي الفكرة الوطنية في أذهانهم . فعمد المفكرون الواعون إلى الأخذ بوسائل الايقاظ والانقاذ ، وكانت أولى الوسائل النهوض بالصحافة من درك التدجيل إلى منصّة التوجيه والارشاد . ثم أدركوا أن معظم المهاجرين أميون لا يقرأون الصحف ، فلا بد من الاتصال بهم مباشرة والتحدث اليهم بما يهمهم

أمره . فكانت الاجتماعات الأولية في المنازل ، ومنها انبثقت وتحققت فكرة تأليف جمعيات وتأسيس الأندية الأدبية الاجتماعية .

أدت الجمعيات والأندية مهمتها الإصلاحية بجمع شتات المهاجرين وحماية مصالحهم ، ثم توخت الحؤول دون ذوبانهم في البيئة الغربية فراحت تقيم الحفلات الشعبية في مناسبة كل حادث سياسي يقع في الوطن ، أو مناسبة كل حادث اجتماعي يقع في الجالية . وتدعو الأدباء إلى القاء الخطب والقصائد في موضوع الساعة .

وهكذا ولد في المهاجر أدب الحفلات .

وهكذا بعث الأدباء حياة اللغة العربية والعاطفة الوطنية في صميم الحياة المهجرية .

ليس شعر الحفلات في المهجر من النوع السطحي المبتذل كما يتوهم الأدباء المتخلفون . ولا يجوز الحكم عليه بالإعدام قبل التثبت من تهم السطحية والابتذال والزلفى والمصلحة الشخصية التي يلصقونها فيـه . يقولون إن هذا الشعر ، وليد المناسبة ، يجب أن يدفن معها . وإنّ على الشاعر أن يمزق قصيدته حال الفراغ من تلاوتها في الحفلة لأن مهمتها قد انتهت .

لقد قيّض الله للمهاجرين أن يكون بينهم أدباء من طراز عال يعرفون كيف يفرضون فنهم على المناسبة الـتي يتكلمون فيها . فلا يسفّون ولا يبتذلون بـل يطبعون أدب المناسبة بطابع عبقريتهم .

لا شك أن تلك الحفلات كانت البذار الأول لأدبهم الذي نما وازدهر ونضج فيما بعد . فما عُرف أدب الريحـاني قبل أن القى في حفلة في نيويورك خطاباً عن التساهل الديني عام ١٨٩٨ ، كان باكورة الأدب الحديث ، والصلة الأولى بين الأديب والجمهور المغترب . وهكذا فعل بعده جبران ونعيمه وأبو ماضي وعريضه وأيوب ، ويلاحظ أن في ذلك العهد ، عهد الحفلات التي كانوا يخطبون فيها ، كانت اللغة العربية في

انتعاش ، والفكرة الوطنية في غليان . فلما أقصى الموت جبران والريحاني وعريضه وأيوب عن منابر الجالية ، واسترد الوطن ميخائيل نعيمه إلى مسقط رأسه ، لم يبق عند المغتربين في الشمال ما يقاومون به طغيان البيئة الأميركية . فاختفت أنديتهم الاجتماعية ومؤسساتهم الأدبية وتضاءل الاهتمام باللغة وبالأدب وبالوطن العربي .

ويلاحظ كذلك أن اليقظة والحماسة والعناية بالأدب العربي استمرت أعواماً طوالاً في المهجر الجنوبي بعد فتورها في الشمال ، وما ذلك إلا لبقاء المؤسسات العربية ثابتة فيه ولاستمرار الحفلات الشعبية في أنديته . أما وقد أخذ الوهن يتطرق اليها في هذه السنين الاخيرة ، بدليل احتجاب مجلة العصبة الأندلسية وانكماش عمدتها في مشاغلهم المادية فيعلم الله متى يحين أجل النهضة الأدبية في البرازيل فتصير إلى ما صارت اليه في الولايات المتحدة الشمالية . تتوارى وجوه القدامى من فرسان المنابر ولا تعوض عنهم العناصر الناشئة في المهجر . ويعتزل الميدان أبطاله المجربون بعد ان فل عزمهم طول الجهاد ، فلا يخلفهم فوج جديد قادم من الوطن ، ولا تفكر حكومة من الحكومات العربية أن تستفيد من خبرتهم وتجاربهم أو تمن عليهم ببادرة تكريم أو تنشيط تستحث بها هممهم إلى متابعة الجهاد في سبيل اللغة والوطن . لقد زال بزوال مجلة العصبة الأندلسية آخر تاج أدبي كان يعصب بـه المغتربون تاج ثرواتهم المادية . فإذا زالت بعده الحفلات الشعبية التي يخطب فيها القروي وفرحات ومعلوف ونظير زيتون وفارس الدبغي ونصر سمعان وداود شكور في البرازيل ، والحفلات التي يخطب فيها ميشيل قزما والياس قنصل ويوسف صارمي وعبد اللطيف الخشن في الارجنتين ، فقل العفاء على أدب البعث الوطني في المهجر والهناء للشامتين به .

ومن فضل الحفلات على الأدباء المهجريين أنها حملتهم على شحذ قرائحهم وعلى إبراز ما خزنته صدورهم من موهبة شعرية وغيرة وطنية .

فما احتشد أبناء الجالية العربية في حفلة للتفاهم على شأن من الشؤون المحلية أو على خطوة يخطونها في سبيل الوطن الأم إلاّ أعد الأدباء لها الكلمة التي تناسب المقام ، كلمة التوجيه الصائب ، وكلمة الفن الجذاب . وكان من تعدد الخطباء في الحفلة الواحدة ما يحفزهم إلى التنافس في الابداع والتباري في التأثير والإقناع حتى أصبحت كل حفلة تقام سوقاً عكاظية لا ينتهي ذكرها بانتهائها بل يبقى مخلداً بمحصول الآثار الأدبية التي نتجت منها ، ولولاها لصدئت القرائح وقلّ الإنتاج وخسر المغتربون مجد الصيت البعيد والأحدوثة الطيبة ، وراحت ذكريات الوطن تتقلص عن مخيلتهم ولغة الضاد تتلاشى من شفاههم .

من هذه الحفلات انطلقت الصرخات الدامية باستنكار الحكم العثماني الغاشم . وتبلورت الحركات الفكرية التي مهدت للثورة على المستعمرين . منها ارتفعت الصلوات على شهداء الحرية في عهد جمال السفاح وضحايا العدوان الفرنسي على دمشق . من هذه الحفلات نشأ الوعي بمدى النكبة في فلسطين والاهتمام بالوحدة العربية ، والتنادي للاسهام مع المقيمين في معركة الثأر ومعركة الدفاع عن الاستقلال ، بالمال والرجال .

في هذه الحفلات تركزت مشاريع الجالية الخيرية والعمرانية وانطلقت الحملات لجمع الأموال اللازمة لها ودارت أنخاب النصر يوم تحقيقها . وفيها غمرت الفكرة القومية رواسب التعصب الذميم وساد شعار « الدين لله والوطن للجميع » فراح المسلمون يحتفلون بمولد المسيح والمسيحيون يكرمون ذكرى نبي العرب . وفيها تمجدت ذكرى المتنبي والملك حسين وفيصل الأول ويوسف العظمه والأمير شكيب ارسلان والامير امين ارسلان وشوقي وجبران والريحاني وموسى كاظم والبستاني وزيدان ونعمه يافث وفوزي معلوف وميشال نعمان معلوف ونسيب عريضه وعقل الجر ورشيد أيوب وحبيب اسطفان وغيرهم من مفاخر الوطنية والأدب في دنيا العرب . وفيها جمعت التبرعات لتأمين نفقات كراسي

تنشأ في الجامعات لتدريس الآداب العربية . ولإقامة تماثيل لإبراهيم اليازجي وامين الريحاني ويوسف العظمه وفوزي المعلوف ورشيد سليم الخوري (الذي لم يقبل) .

أخشى أن أتهم بالمبالغة فيما عزوته لحفلات الجوالي المغتربة من اثر ، ولا بد لي من دعم أقوالي بشواهد عما دار فيها من كؤوس البيان ، فأعرض عليكم فيما يلي سلسلة من الأحداث سجلها أدباؤنا في الحفلات كما تعرض الأفلام في دور السينما .

شواهد من أدب الحفلات

أول عهدنا بأدب الحفلات في المهجر يرجع إلى نصف جيل مضى ، إلى عهد الحكم التركي في الشرق العربي . ولم يكن الوعي في ذلك الحين متجسماً في أذهان المغتربين ولا شملهم منتظماً . وقليلاً ما كانوا يقيمون الحفلات ، مع ذلك لم يعدم أبو ماضي مناسبة يقول فيها عن ذلك الحكم :

قد جعلتم منكمُ عسكره   وحلفتم أن تطيعوا عسكرهْ
كيف لا يبغي ويطغى حاكم   يتقي أشجعكُم أن ينظره
ما استحال الهر ليثاً إنما   أُسد الآجام صارت هرره
وإذا الليث وهت أظفاره   أنشب السنّور فيه ظفره

وقال في مناسبة أخرى :

خفَّ التركيّ يحلف بالمثاني   وخفه كلّما صلى وصاما

ومن يستنزل الأتراك خيراً   كمن يستقبس الماءَ الضِّراما

ومن خطاب لأمين الريحاني :

« إن لم تدمر الحكومة التركية حصون الجهل ، دمّر الجهل حصون الحكومة . »

ونفرت هذه النبوة من فم جبران :

« خذوها يا مسلمون كلمة من مسيحي أسكن يسوع في شطر من حشاشته ومحمداً في الشطر الثاني . إن لم يقم فيكم من ينصر الإسلام على عدوه الداخلي فلا ينقضي هذا الجيل إلا والشرق في قبضة ذوي الوجوه البائخة والعيون الزرقاء . »

وفي عاصمة الأرجنتين أطلق « الصرخة الأولى » الشاعر الرائد جورج عساف :

جفَّ المداد فكم أنادي أمة	معصوبة العينين كالعميان
كتب القضاء على صفيحة قبرها	الميت لا يُرجى من الاكفان
من لي بها قوماً إذا استنفرتُهم	طاروا إلى الأهوال كالعقبان
يتزاحمون على المفاخر لا على	لقبٍ من الاتراك أو نيشان
هُبّوا فقد طالت ليالي بؤسكم	والشمس مشرقة على الأكوان
لولا تخاذلكم لما بتّم بلا	عزّ ولا ملك ولا سلطان
فانهار ملككم ، فلا في جلّقٍ	منكم خليفتكم ولا بغدان

* * *

وجاءت الحرب العالمية الأولى بويلاتها وراح جمال السفاح ينكّل

بزعماء سورية ولبنان ويجوّع الشعب . فحالما تناهت إلى المهجر أخبار هذه الفظائع هبت الجوالي إلى عقد الاجتماعات . وقام الأدباء يستدرّون الأكف لنجدة المنكوبين ، وفي طليعتهم ايليا ابو ماضي ، قال لمواطنيه في نيويورك :

الليالي غاديات رائحه	بالدواهي وأراكم تضحكون
ما اتّعظتم بالسنين البارحه	لا ولا أنتم غداً متّعظون
يا لهول الخطب ، يا للفادحه	أمة تفنى وأنتم تلعبون ؟
فادفنوا أضغانكم يا زعماء	يبعث الله من القبر الوئام
وابسطوا أيديكم يا أغنياء	أبغض السحْب إلى الصادي الجهام

ولأبو ماضي عشر قصائد في ديوانه الاول تردّد هذه الدعوة للإغاثة .

ومثله قال مسعود سماحه في واشنطون :

لا تتركوهم للعراء وللطّوى	هدفاً وللأسقام والأحزان
لو كان يُقربهم أنين مولّه	لقربتهم من صدري الملآن
لا تسكبوا دمعاً وجودوا إنما	كفُّ الجواد تسيل لا العينان

وأنشد نصر سمعان (هل سمعتم بالشاعر المجيد نصر سمعان ؟) في النادي الحمصي في سان باولو :

أرض البطولة والشمم	تستنهض اليوم الهمم
أفما تلبّيها وقد كادت	تلبيها الرمم ؟
لا تحجبوا عنها الندى	فالشحّ يعقبه الندم
قام الإباء بقسطه	يا قومُ ، فليقم الكرم

وبهذه المناسبة قال نسيب عريضه قصيدته الشهيرة « النهاية » ، وميخائيل نعيمه قصيدته الفريدة « أخي » ، خطب جبران فقال : « إن الدرهم الذي تضعه في اليد الفارغة الممدودة اليك هو هو الحلقة الذهبية التي تصل ما فيك من البشرية بما فوق البشرية » .

* * *

وأقيمت في سان باولو حفلة الذكرى للشهداء الذين علّقهم السفاح التركي على أعواد المشانق . وفيها لعلع صوت الشاعر القروي بقصيدة هذا مطلعها :

خير المطالع تسليم على الشهدا	أزكى السلام على أرواحهم أبدا
فلتنحن الهامُ إجلالاً وتكرمة	لكل حرّ عن الأوطان مات فدى
يا أنجم الوطن الزُّهر التي سطعت	في جو لبنان للشعب الضليل هدى
قد علّقتكم يد الجاني ملطخة	فقدّست بكم الأعواد والمسدا
حتى غدا كل حر لو نصبت له	حبل المنون على هدّابه سجدا
أكرم بحبل غدا للعرب رابطة	وعقدةٍ وحّدت للعرب معتقدا

وما انتهت الحرب حتى عبث الحلفاء المنتصرون بعهد العرب وأحلوا الانتداب محل الاستقلال الموعود ، فكانت واقعة ميسلون واستشهاد البطل يوسف العظمه . فقال ابو ماضي :

بأبي وأمي في العراءِ موسَّد	بعث الحياة مطامعاً ورغابا
لما ثوى في ميسلونَ ترنحت	هضباتها وتنفّستْ أطيابا
وأتى النجومَ حديثه فتهافتت	لتقوم حرّاساً له حجّابا
ما كان يوسف واحداً بل موكباً	للنور غلغل في الشموس وغابا

هذا الذي اشتاق الكرى تحت الثرى		كي لا يرى في جلّق الأغرابا

وتمكن الانتداب الفرنسي من السيطرة على سورية ولبنان . وانتهى إلى المغتربين أن شعب لبنان انسجم مع الوضع الاستعماري فعلت صيحات الاستنكار .

وقال القروي :

إلهي ، مُنينا بفقد الرجال		أما من فتاة لهذا الوطن ؟

أما فرحات فقد حمل حملة جائرة على وطنه :

لبنان يوشك أن يذوب أسى		ويكاد فيه الثلج يشتعل
وبنوه أمثال الجماد ، فلا		ألمٌ يحركهم ولا أمل
يقع الصليل على مسامعهم		وغطيطهم بالنجم متّصل
وتبحّ أصوات المدافع في		إيقاظهم فيصيبها الفشل
ولو الوغى ملأت أنوفهم		دخناً لما عطسوا ولا سعلوا
قُتلت مروءتهم وعزتهم		وإباؤهم فكأنهم قتلوا

وعاد إلى الموضوع في أسلوبه الساخر :

يلوموننا جهلاً بحب فرنسةٍ		ونحن وحق الحب بالعذر أخلق
أمنّا لصوص الشرق والغرب بعدها		فما تركت شيئاً بلبنان يُسرق

أما ميخائيل نعيمه فاستعمل حكمته وضرب لبني قومه هذا المثل :

« تَنادت الثيران يوماً للنظر في شأنها مع الإنسان وفي السبيل إلى التحرر من نيره . وكان بينها واحد يتوقد حماسة وشعراً ويردد قول شوقي :

وللحرية الحمراء بــاب   بكل يد مضرجة يدق

فاتخذوه قائداً لهم ودليلاً ومشوا وراءه صارخين إلى الحرية . حتى إذا بلغوا بيتاً مضرج الباب والجدران اقتحموه بعد أن تكسرت قرونهم وسالت دماؤهم . وإذا بهم في المسلخ . »

واندلعت ثورة الدروز في حوران ورويت الأساطير عن بطولة سلطان الأطرش في مهاجمة « تنك » الفرنسيين ، فقال القروي :

وثبت إلى سنام « التنك » وثباً   عجيباً علّم النسر الوقوعـا
وكهربت البطاح بحدّ عضْب   بهرتَ به العِدا فهووا ركوعا
كأن به إلى الافرنك جوعاً   وسيفك مثل ضيفك لن يجوعا
وفجّر للدماء بهم عيونــاً   تجاري من عيونهم الدموعـا
فخرّ الجند فوق «التنك» صرعى   وخرّ « التنك » تحتهم صريعا
فيا لك أطرشاً لما دُعينا   لثـأر كنتَ أسمعنا جميعا

وفي غضون المساومات على حقوق العرب في بلادهم ، قال جبران هذه الحكمة :

« إن روح الغرب صديق إذا تمكنا منه وعدو إذا تمكن منا ، صديق إذا فتحنا له صدورنا وعدو إذا وهبناه قلوبنا ، صديق إذا أخذنا منه ما يوافقنا وعدو إذا وضعنا أنفسنا في الحالة التي توافقه » .

ومن محاسن المصادفات ان شعب سورية ولبنان وضع نفسه هذه المرة

في الوضع الذي يوافقه ولا يوافق الدولة المنتدبة ، فبينما كانت المصالح الاستعمارية تتصارع على النفوذ في الشرق العربي ، هب الشعب يطالب بالتحرر من كل سلطة أجنبية ، ولم يعبأ بحراب السنغاليين وقذائف المدافع والطيارات التي راحت تقصف دمشق ، فتجددت في المهاجر حركة الاجتماعات وجمع التبرعات حتى في كراكاس عاصمة فنزويلا ، حيث عدد المغتربين العرب قليل ، أقيمت حفلة شعبية ، قال فيها الشاعر صيدح :

هتكوا الستر وهمّوا بالصفيّه
أكذا يُستام عرض الهاشميه
ليس هذي أمةً بل أمويه
ذات خدر عصمته المشرفيّه
خصها الله بروح علويه
إنها تأبى وتأبى البشريه
أن نراها للفرنسي مطيه

* * *

وطني المنكوب إن تحصِ الضحايا
أحصني ، إني جريح في حشايا
لست أرثيك بتعديد الشكايا
بل أهاديك سلاحاً وسرايا
خذ عن المدفع ، دفعاً للرزايا
لغة المستعمرين الاعجميه
إن حفظناها حفظنا الضاد حيّه

* * *

يا دمشق الشام يا مهوى الجمالِ
في سماكِ اليوم أرواح غوالِ
قد أعارتها جناحيها المعالي
فأتت زائرة هذي الجوالي
تبعث النخوة في صدر الرجال
وتناجي كل ذي نفس أبيّه
كن وفياً مثلما كنت وفيه

وفي حفلة أقيمت في سان باولو للمناسبة ذاتها ، قال فرحات مخاطباً فرنسا :

حاربي الحق واقتلي الآدابا إن في ذمة الحسام الحسابا
يا ابنة الغرب لن تريْ بعد هذا اليوم في المشرقين إلاّ ضبابا
يا دمشق الثكلى دعي الحزن للمستسلمين المقبّلين الترابا
قدّست أرضَكِ الدماءُ التي سالت عليها وأودعتها ملابا
فغدا العشب فيك اسمى من الأرز الذي شقّ في السماء السحابا ..

وكتب الله النصر لأصحاب الحق ، فجلا العدو عن أرض سورية ولبنان وأُعلن الاستقلال . فعيّدت المهاجر وكرست يوم الجلاء عيداً وطنياً تحتفي به كل عام ، ففي الارجنتين سمعنا صيدح يهلل :

فلقَ الصبحَ من سماء دجيّة « فالقُ الحَب والنوى » للبريه
وجلاها من الخباء عروساً صانها الله من شراك الوصيه
جلوة النصر ، دفقةالفجر ، رؤيا تتهادى على العيون النديّه
إنها الساعة التي ارتقبتها مقلة الشرق منذ عهد أميه

ساعة المجد ، يظمأ المجد حتى يستقيها من العروبة ريّــه
رحل الضيف مثقلاً بالمعاصي يركب العار في البحار مطيّه
ودعته السيوف . إلا بقايـا منعتها من الرحيل المنيّه
زغردي يا حرائر الشام هذا مهرجان لأختك الحريّــه

وفي البرازيل سمعنا فرحات يشمت بالهاربين :

أين من قالوا سنبقى عندكم أبد الدهر ،أغاروا في التراب ؟
أم ترى بخّرهم حرّ الوغى يوم ثار العُرب كالأسْد الغضاب
لا نرى في الشام مـا ينبؤنـا أنهم مروا بها غير الخراب
وبقـايا ميّعانٍ يـدّعي أنه الرقة في بعض الشباب ..

* * *

ولكن وعد بلفور قد افتُضح وارتسم في الأفق مصير فلسطين . فتعلقت آمال المغتربين بحرب الإنقاذ التي شهرتها الدول العربية على الغاصبين . ولم يبق شاعر في الشمال أو الجنوب إلاّ استوحى فلسطين شعراً يتلوه في حفلة من الحفلات التي كانت تتوالى كل شهر وفي كل بلد .

قال القروي مخاطباً بلفور :

الحقّ منك ومن وعودك أكبر فاحسب حساب الحق يا متجبر
تعد الوعود وتقتضي انجازها مهجَ العباد ، خسئت يا مستعمر
لو كنت من أهل المكارم لم تكن من جيب غيرك محسناً يا بلفـر

وثنّى على قوله الشاعر صيدح :

نحن قوم على الكريهة طِبْنا   ولمعنا ما شاءت الألمعيّه
ما ترانا كفحمة الحجر مسّت   شرر النار فاستحالت شظيه
كم حبسنا دموعنا وسفحنا   دمعة الكرم سخرةً بالمنيه
ما انتشينا بصبوة ومدام   وانتشينا بغضبة مضَريه
لو تراءت ثاراتنا في جحيم   لركبنا إلى الجحيم مطيه
كُتبت آية الجهاد علينا   وعلى الله والسيوف البقيه

وعمر الأمل في صدر فرحات فقال :

قل للمغير على منازلنا   كالسيل ينفذ من هنا وهنا
حمّلت نفسك فوق طاقتها   وركبت ويحك مركباً خشنا
إن لم يكن زمن يوافقنا   للثأر منك ، سنخلق الزمنا

ومثله قال أبو ماضي :

ديار السلام وأرض الهنا   يشقّ على الكل أن تحزنا
فخطبُ فلسطين خطب العلا   وما كان رزء العلا هينا
سهرنا له فكأن السيوف   تحز بأكبادنا ههنا
أأرض الخيال وآياته   وذات الجلال وذات السنا
تصير لغوغائهم مسرحاً   وتغدو لشذّاذهم مكمنا
فقل لليهود وأتباعهم   لقد خدعتكم بروقُ المنى

وقال قيصر سليم الخوري شقيق الشاعر القروي :

سقيناكَ يا غرب ماء الحياة   فكان وفاؤك نفْث الحمم

تعلمت رعي النجوم وفاتكَ أن تتعلم رعي الـذّمم
سننت النيوب كأن فلسطين مرعى تُسمّن فيها الغنم
وإن فلسطين للعُرب روحاً وجلداً ولحماً وعظماً ودم

وما أبدع ما قال نصر سمعان :

يا فلسطينُ قدّستك الضحايا وكساك الخلود أسنى بروده
أنتِ في معزف الحياة نشيد لا تملّ الحياة من ترديده
أنتَ من قمة العلى في مكانٍ عين صهيون أخت عين حسوده
يدعي الحق في ترابك شعبٌ تأنف الأرض من تراب جدوده
شعب يوضاسَ لم تزل في يديه بعد يوضاس حفنة من نقوده

وقال حسني غراب متحدياً (لا أدري إن كنتم سمعتم بشعر حسني غراب وهو الكلاسيكي الممتاز) :

صبراً فلسطين صبراً وارقبي فرجا لا بدّ من عجب يأتي به رجَبُ
والحرب آتية والسيف منتدب لحل ما عجزت عن حله الكتب
فلينفقوا في سبيل النصر ما كنزوا من السبائك حتى ينفد الذهب
وليعلموا أن ما شبّوه من ضرم هيهات يصلح إلا هم له حطب
فما فلسطين بالحوض المباح ولا سكانها غنم تُرعى وتحتلَب
دون العرين أباة كالليوث لهم بالسمر والبيض في جد الوغى لعب
لا يركبون لغير النصر إن ركبوا أو يغضبون لغير الحق إن غضبوا
قوم إذا سئلوا أعراضهم بخلوا بها وإن سئلوا أرواحهم وهبوا

وتطوع الشاعر القروي للطواف على المواطنين المتفرقين في المدن

والقرى لجمع التبرعات منهم وإغاثة فلسطين بها . وكان في جولته يبيع جوارب ائتمن عليها من أحد تجار سان باولو لكي ينفق على نفسه من أرباحها ، لا من مال التبرعات . وها هو يصف بنغم حزين ما لاقاه من تعنت المواطنين ومنّتهم وشحّهم :

أفضولٌ يا ترى أم غيرة أوقرت ظهري وهدّت منكبيا
انحلت علةُ غيري جسدي وأسالت كبدي من مقلتيا
يا بني أميَ هل كلفتكم حمل عبء لم يهشّم ساعديا ؟
طالما سابق عسري يسركم حين لا أملك إلاّ أصغريا
إن وهبتم فضل مال فأنا نازف ما في عروقي ويديا
ولكم باذل فلس يدّعي أنه لولاي لا يبذل شيا
أنا راض حاسب كل يد تنفع الأمة مسداة اليا
سايروني واخدموا أوطانكم واحسبوا المنة يا قومي عليا

وتأوّه الشاعر صيدح عندما حم القضاء واندحرت الجيوش العربية في فلسطين :

وطني ، طيفك ضيفي في الكرى كلّما أطبقت جفنيّ وفدْ
يتجنى ، فإذا ملت إلى ضمّه أعرض عني وابتعد
أترى طيف بلادي مثلها كلما رق له القلب استبد ؟
عبثاً يا طيف تبلو جلَدي ليس لي بعد فلسطين جلد !
وطني ، ماذا على النازح إن ذكر القدس فصلّى وسجد
لطم الأعداء خديك ولم يسمعوا منك سوى شكوى الوتد
لا تخفهم . ساعة الباطل لا تقهر الحق فللحق الأبد
ربَّ أرض دنّسوها ظمئت لدم يُصلح فيها ما فسد

قسماً بالمسجدين ارتفعا حيثما أسرى النبي المعتمد
بوليد الطُّهر في مذوده ، بدم المصلوب ، بالله الأحد
ردّهم ، لا ثبتت أقدامهم قبل أن يُقضى قضاء لا يُرد

ومع الأسف ان أقدام الغاصبين ثبتت . فقال الشاعر نفسه :

واهاً فلسطين ، مالي ينام غيري وأسهر
حبست في الصدر همي فإن نطقت تفجّر
أكلما قلت شعراً كنتِ الرويّ المكرر
على صليبك قلبي كالناصريّ تسمّر

وكان أن اعترفت دول الغرب بإسرائيل وقام الميثاق الثلاثي يبسط حمايته عليها بدعوى احترام الهدنة . فقال فرحات :

أيها الراغبون في الذود عنا ، دعوا المنى
كل هذا الهوى لما في ثرانا من الغنى
ليس تصديق مجرم ضارج الكف هينا
دافعوا عن بيوتكم واتركوا بيتنا لنا
فإذا انهار فوقنا فاضحكوا واشمتوا بنا
كل خطب يهون إن فرّق الدهر بيننا

وتفاقمت حالة اللاجئين المشردين فتفطرت لها قلوب الشعراء المهجرين فقال الشاعر صيدح :

بنو فلسطين قطعان مشردة عن الحياة.ملاك الموت راعيها

وكف صهيون بالأقداس عابثة كأنما الله أمر ليس يعنيها
خطيئة العرب لا الأردن يغسلها ولا صبًا بردى بالنشر يطويها
تحمرّ في النيل وجه الماء إن ذُكرت وينحني رأس صنين لراويها
أقدارنا صُنعْ أيدينا فما جرحت إلا بسهم وضعناه بأيديهـــا
منا الفداة ومَن في الظهر يطعنهم منّا الضحايا ومنّا من يضحيها
منا الخفير ومنا من يغافلــه يبيع أثواب موتانا ويشريها

وهلع القروي لنكبة فلسطين ولمصير اللاجئين هلعاً ألهاه عن فجيعته بوفاة أمه وهي معبودة حياته فشُغل برثاء المليون عن رثائها :

كفى الميت منا أن يُحس له فقدُ أبعد هلاك الجمع يُستفقد الفرد؟
أبعد فلسطين يناح على فتى وهل بقيتْ في مقلة دمعة بعد ؟
بكائي على المليون أنضب أدمعي فما أنا إلاّ النار والحجر الصلد
ألا دمعة من لاجئ أستمدهـا فأبكيه بالبحر الذي جزره مدّ ؟

وتفجر غضب فرحات فقال للاجئين :

أضحية الكذب المقنع والخيانة والرياء
أوت الذئاب إلى مضاجعكم وأنتم في العراء
أفتلبثون مشردين ؟ مصيركم بيد القضاء
وعيونكم حيرى تفتّش عن مفاتيح الرجاء
وقلوبكم وهي مسعرّة تفور بها الدمــاء
ومن البلاء
تصديقكم بعض الوعود وما الوعود سوى هراء

إن لم تعودوا للحمى الباكي وأنتم تهزجون
والحقد يزأر في مقدمة الكتائب ، والمنون
والليلة الليلاء مغمضة من الدخن العيون
فالعُرب والاسلام في الدنيا كزهر الزيزفون
والمسلمون أذلة تحت المقارع يرقصــون
ويهمهمون
إنّا بحمد الله رب العالمين لمسلمون

وفي الارجنتين ، على اثر مذبحة دير ياسين ، تنادى أبناء الجالية إلى الاجتماع ، وخطب فيهم المطران نيفن سابا والمرحوم حسني عبد الملك ، وانشد الياس قنصل قصيدة نارية جاء فيها :

طال اشفاقنا وأصبح عابا ... من ترى جرّأ اليهود الذئابا ؟
عَبَثٌ منك أن تُجير الأفاعي ... همّها أن تغرّز الأنيابــا
فاترك اللين فالسياسة بُطلٌ ... والذي في القراب ملّ القرابا
إن سفك الدماء جرمٌ ولكن ... ان ذبحتَ اليهود نلت الثوابا
ومن الأثم زجّهم في قبور ... ان اشلاءهم تشين الترابـا

وجاء في موشح أنشده صيدح :

تحت ستر الليل ، ستر المجرمين ... طرق الفجّار بيت المقــدس
يا فلسطين ، على من تعتبين ... ان تكن نامت عيون الحرس؟

* * *

دير ياسين ، على الدنيا العفـاء ... ان تكن دنيا الزنيم الأجنبي
ثأرك الصارخ في سمع السماء ... جمرةٌ تكوي قلوب العرب

قسماً ، ما هُدرت تلك الدماء وهي في ذمة عيسى والنبي
قد هززنا عرش ربّ العالمين بدعاء من قرار الانفس
ربِّ، هبْ أبطالنا النصر المبين وقِنا ثانية الأندلس

أما موسى الحداد (شاعر قد لا تكونون سمعتم باسمه) فلم يزل يداعب الرجاء ويقول :

يا ابنة المجد والعروبة هبّي واذكري خيبراً وأُسد الملاحم
واذكري القدس يوم صلاحُ الدين فيها فلّ الجيوش الخضارم
سرّحي الطرف وانظري في البوادي تجدي اللاجئين شبه السوائم
وبنو أمهم عن الثأر لاهون سدى باجتماعهم في العواصم
ليت حظ اتحادهم في العوادي مثل حظ اتحادهم في الولائم

وكان من نتائج نكبة فلسطين نقمة الشعوب العربية على حاكميها ، لا سيما في سوريا حيث قام الجيش بانقلاب وتبعه انقلابات أقلقت المغتربين فقال الشاعر صيدح :

نرى سوريا في شدوق العباب أضاعت سفينة ربانها
تعادى الرجال فيا ليتهم أقاموا النساء على شانها
عداء تفاقم في أرضها وصهيون أولى بعدوانها
فمن مبلغُ الدار والساكنيها بأنا حزانى لأحزانها
سهرنا عليها بأرواحنا وخفنا مغبّة حدثانها
ولو نستطيع أقمنا الصدور جداراً يحيط ببنيانها
وسقنا اليها مسيل الدموع نحاول إخماد بركانها
متى تستقر على مجدها تقرّ العيون بأجفانها

وما كاد الحكم يستقر في عهد المسيطر الأخير حتى أعلنت سوريا القطيعة على لبنان فعدنا إلى الميدان :

حللَ الحب ما التعصب حرّمْ فاتحدنا وما خُلقنا لنُقسم
واعتنقنا دين العروبة ديناً واطّرحنا لزوم ما ليس يلزم
شرَعٌ مجدنا سواء نسبنا أرز صنين أو نخيل المقطم
حدّثونا عن انفصالٍ فلذْنا باتصال من العواطف محكم
رب سور على الحدود منيع إن لمسناه بالشعور تهدّم
ما بناه علوج عهد انتداب كيف تبنيه دولة الخال والعم؟
شهد الله ما أردنا ولياً غير من حرّر البلاد ونظم
والزعيم الذي يقود السرايا يوم ثأر ، هو النبيّ المعظم

وعاد السلام بانتهاء الحرب العالمية الثانية ولم تعد الطمأنينة إلى قلوب شعراء المهجر . بل اشتدت مرارة عيشهم باشتداد الحلف بين إسرائيل والغرب والخلف بين الدول العربية . وقد راع الشاعر القروي ان يرى أبناء الجالية يحتفلون بعيد المولد النبوي ويتبادلون التهاني كما كانوا يفعلون قبل نكبة فلسطين ، فتفجر غضبه وصاح بهم في الحفلة :

يُهنئ بعضكم بعضاً واني أهنّي النفس أني لا أهني
أأنقض مبدئي وأخون عهدي مسايرة لكم ، ويقال إني ؟
أرى تفاح هذا العيد جمراً ولو قطفوه من جنات عدن
وألمس ناعم الأزهار شوكاً وانشق عطرها نتناً بنتْن
ويُطرف ناظري حسن الغواني ويجرح مسمعي صوت المغني
أأرضى والرسول قتيل غيظٍ وأفرح والمسيح شهيد حزن ؟
وعيدٌ هائل سمعته روحي ولولا لغطكم سمعته أذني

يفجّره النبيّ شواظ نار   على شطٍّ وبادية وحَزْن
« أمسخرة الشعوب لَعنْتَ شعباً   ذليلاً لستُ منك ولست مني
تُعيّد لي وأنت تُبيح ارضي   وعرضي لليهود؟ اليك عني »

وكان للثورة المصرية التي خلعت الطاغية صدى بعيد في المهاجر فأقيمت الاحتفالات في العواصم تمجيداً للأبطال المحررين ، وحياهم فرحات بقصيدة هذا مطلعها :

ألا حدثونا عن القاهره   وعن وثبة البطل الباهره
أمصر استفاقت نواطيرها   وفرّت ثعالبها الكاسره
أفاروق زال وكابوسه   وسائر آلاته العاصره
هنيئاً لمصر بهذا النضال   ومرحى لأسيافها الباتره

واشتعلت ثورة في الجزائر لم نسمع لها صدى في المهجر إلاّ في شعر أسد موسى (وهو اسم جديد على مسامعكم بلا شك) ، شاعر مقيم في داخلية البرازيل . راعه صراع الوطنيين الجزائريين مع جيوش الاستعمار التي تريد أن ترغمهم على الاعتراف بأن بلادهم العربية هي جزء من فرنسا . فنظم قصيدة طويلة هذا بعض منها :

مرحى ليوث المغرب الأقصى لقد   أديتمُ حق العروبة بالدم
خطّت صوارمكم على راياتها   آي البطولة كالطراز المُعْلَم
كم وثبة لكمُ بساح فَخارها   أدنت من الراحات هام الأنجم
واخيبةَ الطاغي يُفرنس أمة   تأبى لغير أصولها أن تنتمي
زعم الدعيّ بأنها رضيت لها   بدلاً من النسب الصريح بمبهم
حاشا الوفاء . فتلك دعوى كاذب   وغدٍ . فما العربي كالمستعجم

لم يبقَ للأمجاد في أعناقكـــم إلاّ بقية طعنة من لَـهْذم
تقضي على الأفعى فنأمن شرها وتقلد الأجيال منّة منعـــم
شُلّت مفاصلها وأزمن نزعها فارموا مقاتلها بسهم محكـــم
إن تفعلوا فُزتم بأجر مجـاهـد وبأجر مختصر عذاب المجـرم

ولتعجب لهذه اللهجة القحطانية في شاعر قابع في مجاهل البرازيـل لا يسمع إلا الرطانة والعجمات .

* * *

أكثرت يا سادتي من الاستشهاد بشعر الحفلات متعمداً الإكثار . لأني أردت أن أعرض عليكم الشريط السينمائي الذي وعدتكم به . وقد لاحظتم بلا شك أن لشعراء الجنوب النصيب الأوفر من الشواهد الـتي أدليت بها . لقد خفتَ صوت الشعر الوطني في الشمال منذ انحلال الرابطة القلمية ، ولم يبق من ينقل إلى المحافل صدى الأحداث الواقعة في الوطن إلا إيليا أبو ماضي في شعره . وأبو ماضي تنكب عن هذا اللون من الشعر في ديوانه « الجداول والخمائل » بعد أن أضفاه بسخاء على ديوانه الأسبق الذي صدر عام ١٩١٦ . فما سمعنا له في الثلاثين سنة الأخيرة غير ثلاثة ألحان وطنية ، إثنان منها عن فلسطين ، مع أن أهم الأحداث التي شغلت الأوطان وهزت قلوب المغتربين وقعت في تلك الفترة من الزمان ، ولم تنل من شعره الحظ الذي نالته حفلات أقامتها الجالية في ديترويت وبردجفيل وفلوريدا ومونتريال بمناسبة تدشين ناد أو مستشفى أو كنيسة . أيكون الذنب ذنب الجالية لا ذنبه ، لأنها احتفت ببناء النادي والمستشفى والكنيسة ولم تحتف بعيد الجلاء السوري أو عيد الاستقلال اللبناني أو عيد الثورة المصرية ؟

إذا حق لنا أن نعتب على أبو ماضي لإهماله هذه الناحية من الشعر المثمر حق لنا أن نعتب بالدرجة الأولى على بعض شعرائنا العبقريين المقيمين في الوطن ، المترفعين عن أدب المناسبات ، الذين يحبسون في في صدورهم صوت العاطفة الإنسانية ويتنصلون من كل تبعة تلقيها عليهم مواهبهم تجاه المجتمع ، محتمين براية الفنّ للفنّ . تجمد قرائحهم شهوراً وأعواماً حيال ينابيع الماء الزلال المترقرقة حولهم ولكنها تسيل وتتدفق متى تخيلوا منابع الذهب الأسود متفجرة في الصحارى .

ومن نكد الدنيا أن نرى شعراء آخرين مسخوا قيثارة الشاعر فجعلوها بوقاً من أبواق الدعاية الحزبية ، أو مفتاحاً لمغاليق الجوائز والاوسمة والوظائف . فلا تهزهم أحداث طرأت على وطنهم أو ظلامات وقعت على أهلهم . فإن سألتهم أجابوك أننا لا ننظم إلا في المواضيع الشعرية ، وهذه ليست منها . فلندعها لشعراء المهجر . كأن في النفط وفي النيشان وفي الوظيفة شعراً ليس في مخيمات اللاجئين ومضارب المجاهدين ومآوي المنكوبين بالحريق والفيضان والزلازل . وكم سمعناهم يضحكون من مثالية الشاعر المهجري الذي يضع كل مكنته رهن حاجات قومه وهو بحاجة إلى رزق يومه . وكم رحنا نستفسر العناية الإلهية لماذا خصت هؤلاء الأنانيين بموهبة الشاعرية :

ما قيمة الإنسان معتقداً إن لم يقل للناس ما اعتقدا ؟

يقول بولس سلامه شاعر الملاحم : « إن الأديب عضو حيّ في المجتمع فإذا انفصل عنه عاد شلواً منتناً ، كالسمكة التي تنفصل عن الماء فتهلك » .

العيوب في شعر الحفلات

من المسلم به أن الشاعر قلما بلغ الذروة من فنه في شعر الحفلات لأن هناك ملابسات الزمان والمكان تفرض عليه ما يحدّ من انطلاقه فيتعرض لسقطات لا يتعرض لها من ينظم الشعر بمطلق اختياره ويستوحي موضوعه من قرارة نفسه . وقد رأيتم في الشواهد التي أدليت بها بعضاً من تلك السقطات إلى جانب الوثبات الشعرية الموفقة .

قبل أن ننفض اليد من هذا الفصل يجمل بنا أن نشير إلى العيوب التي لازمت شعر الحفلات في المهجر ، وإلى أسبابها :

أولاً – يتوخى الشاعر التأثير والتوجيه على ضوء الحوادث التي يعلق عليها فيخرج أحياناً من سجيته لينسجم في جو الحفلة ويبلغ غايته من التأثير والتوجيه .

ثانياً – يلتزم الصدق في سرد الوقائع ووصف عواقبها فيجره الالتزام إلى ضعف في الأداء ويتدنى شعره إلى مقام المقال السياسي .

ثالثاً – لا يتوفر الشاعر على تهذيب الشعر المعد للمناسبة كما يفعل عندما ينظم الشعر من تلقاء نفسه ، وأحياناً لا يتسع له الوقت ، وأحياناً لا يكلف نفسه جهداً عقيماً إذ لا يجد في السامعين من يفهمه إذا أنشد الشعر الفني العالي ، فيهبط إلى مستوى السامعين . وفي المهاجر كثيراً ما يقف الشعراء هذا الموقف في أيّ بلد نزلوه ما خلا سان باولو ، أغنى بلاد المهجر بالأدباء . روى لي شاعر رحالة أنه أقام سنتين متواليتين في الارجنتين نظم في خلالهما مئة قصيدة فرضت عليه في مئة مناسبة ، أي بواقع قصيدة في الأسبوع . فكان يعطي كل قصيدة ساعتين من وقته قبل موعد الحفلة ، ويكتفي بما يُفتح عليه في تينك الساعتين . وأنه عندما كان يخطب في فنزويلا كان يستكثر الساعتين على القصيدة ، لعلمه

أن ليس بين حضّار الحفلة من يفهم العربية الفصحى إلاّ القليل النادر : أما في سان باولو فعلى الخطيب في كل حفلة أن يحسب حساباً للشعراء والكتّاب واللغويين الملتفين حول المنبر ، مرهفين السمع ، متحفزين للانتقاد والتجريح . كان الشاعر القروي يستمهل من يدعوه إلى الكلام شهراً كاملاً يعكف فيه على النظم والتنقيح والتشذيب ، ولا يترك القلم حتى ساعة إلقاء القصيدة في الحفلة ، ثم يعود إلى التغيير والتبديل في الكلمات حتى ساعة تسليمها إلى المطبعة . ونحن نلمس أثر هذه العناية الفائقة في كل قصيدة من قصائد ديوانه الضخم حتى في شعر المداعبات والإخوانيات . وبعكسه الشاعر فرحات ، عدو التصنع في كل مظاهر الحياة ، فهو ينظم ما يمليه عليه الخاطر الفوار فإن أرضاه ما نظم ، لم يحفل برضى النقاد أو غضبهم . ذلك مما أدى إلى اختلاف في مستوى نتاجه ، بين قصيدة وقصيدة وبين بيت وبيت ، وإنك لتجد في دواوينه مخزناً للسلع العادية بين متاحف الآثار الغالية الثمن النادرة الوجود .

هذه هي المزالق المنبثة في طريق الشعراء ، عندما ينظمون في المناسبات فإن تحاموها أو حلقوا فوقها بجناح العبقرية ، شكرهم الفنّ على سلامته وباركهم المجتمع على خدمته .

الفصل العاشر

شعر المباسطات

ليس شعر المباسطات مما يُستهان به بل بالعكس ، هو من أعذب الشعر وأصدقه وأنفعه . يكفي انه يحمل على المرح والضحك . « وكلما ضحك الانسان أضاف مدّةً إلى عمره » . ولهذا الشعر أهميته كأداةٍ للتعبير العفوي عن أحاسيس مفاجئة وانفعالات طارئة ، دون تحضيرٍ سابقٍ أو تكلّف مقصود . كما ان له أهميته كوسيلة دراسية لاكتشاف ملكات الشاعر في اتجاهاته الخلقية عندما يغضب ويتبجّح أو عندما يطرب ويترنح فتظهر شخصيتُه سافرة عارية .

أما بالنسبة للمهاجرين ففضله الاكبر هو الترفيه عن أعصابهم المرهقة بالعمل اليومي الشاق . فلا يُخيّم الليل حتى تراهم تحلّقوا في نادٍ أو نزُل لمنادمة الكؤوس ولمطارحة الاشعار . تلك الاجتماعات كانت سلواهم في وحشة الاغتراب ، وملهاهم عن مصاعب العيش ، تختلط فيها المواويل بالقصائد والذكريات بالنكات والفكاهات فيخرج المهاجر منها بنشاط تجدد وعزم تحدد لاستئناف الكفاح في اليوم التالي .

في نيويورك

نيويورك كانت محطة الفوج الأول من أدبائنا . لم ينشئوا فيها ندوة أدبية تجمع شملهم ، بل كانوا يختلفون إلى المطاعم العربية في بادئ الأمر وإلى ادارات الصحف بعد ذلك . وكان المنتدى الرئيسي مكتب جريدة « السائح » لصاحبه عبد المسيح حداد حيث تأسست « الرابطة القلمية » المشهورة ، وجمعت جبران ونعيمه وكاتسفليس إلى اربعة شعراء هم ايليا أبو ماضي ونسيب عريضه وندره حداد ورشيد ايوب . وفي ذات الوقت كان في نيويورك صالونات أدبية تتصدّرها سيدات من المجتمع الراقي (كنجلا صباغ وفهده جبلي وماري عزيز الخوري واميرة ابي اللمع) فتمثّل ارستقراطية الأدب في المهجر . وكان يؤمّها كل من زار نيويورك من رجالات العرب المشهورين . اليوم لم يبقَ اثر لتلك الندوات فجميع من ذكرتهم انتقلوا إلى رحمة ربهم باستثناء ميخائيل نعيمه المقيم الآن في بسكنتا . مدّ الله في عمره الغالي .

كان أزهر عهد للشعر الفكاهي عهد الرابطة القلمية التي كانت ترابط في مضافة جريدة « السائح » وتنتقل معها من واشنطون ستريت إلى كورت ستريت إلى فيفث أفنيو مشدودةً بأمراس من اريحية المضيف ومن عبقرية ضيوفه . كان رئيس الندمان رشيد ايوب الملقب بالدرويش ، ورئيس الطهاة نسيب عريضه ورئيس السقاة عبد المسيح حداد — الدعبول — أما أبو ماضي فلم يستحق لقباً لأنه لم يكن شرهاً مثلهم في الشراب . وكانت النكات الإباحية من اختصاص الدرويش ، يؤازره أحياناً الدعبول ، أما جبران وميشا (ميخائيل نعيمه) فما كانا يتخليان عن مظاهر الجدّ أو يتناسيان عفّة اللسان . وأحياناً كانت تطول السهرة وتفرغ الندوة من الزاد وينضب الشراب ، فينفضّ الاجتماع ، ويتآمر الدرويش والدعبول على صديق مضياف يداهمانه في منزله لاستكمال السكرة .

رشيد ايوب كان يدمن الويسكي أيام البحبوحة ثم زاد ادماناً مع الطفر لكي ينسى همومه . وهو القائل :

ربّاه ما هذا الطفَرْ — اسمحْ لعبدك ان كفر
للناس عيشٌ طيّبٌ — أمّا انا .. يا ما أمرّ
اسعى ولكن لا أرى — للحسن في حظي اثر
ان كان بالصبر الغنى — ايوب مثلي ما صبر

وكان يُبرّر هذا الادمان بقوله :

وقائلةٍ لما رأتنيَ مُكثراً — من الخمر إنّ الخمر تذهب باللبّ
فقلت دعيني في رشادي فإنني — أعوّض عمّا يشرب الحزن من قلبي

زاره مرةً أبو ماضي فلم يجده وطاف الغرف والحديقة فوجدها خالية فترك له هذه الابيات :

كيف تركت الدار يا صاحبي — مفتوحة الباب لمن يطرقُ
أليس في هذا الحمى سارق — أليس في بيتك ما يُسرق
أم علمَ القوم على جهلهم — انك ذاك الشاعر المفلق
جميلة دارك يا سيدي — ودربها والشجر المورق
لكنها عمياء صمّاء ، لا — عينٌ ولا سمعٌ ولا منطق
جئتُ اليها آملاً شيّقاً — وعدتُ منها وانا اشوق

ومرة كان ايليا معه في ضيافة شكري البخاش أيام كان يصدر جريدته «زحلة الفتاة» في نيويورك وهم يحتفلون بصدور ديوان «الايوبيات» .

وعندما لعبت الكؤوس بالرؤوس انطلقت الحناجر بالاشعار بين أدوار الغناء، والتفت أبو ماضي إلى رشيد وأنشده أبياتاً من حاضر الخاطر .هذه هي :

رأيتك تحت الليل كالليل ساكتا	وعند ضفاف البحر تهدر كالبحر
تئن من الدنيا التي طال جورها	وتشكو من الدهر الخؤون إلى الدهر
بكيتَ فأبكيت الجلامد في الثرى	ونُحت فحرّمت الرقاد على البدر
فأصبح في هذي السموات حائراً	كصاحب إيمان يميل إلى الكفر
أراه بعيني مصغياً كل ليلة	لأنك قد عودته رنّة الشعر
أرى فيك من شيخ المعرّة نفحة	وفي نفحات الشيخ شيء من السحر
وهبتك من شعري وعندك مثله	ولو كنتُ ذا تبر وهبتك من تبري
وان لم يكن هذا ولا ذاك شافعاً	فإنيَ قد القيت حملي على «شكري»

* * *

كان أول عمل صحافي اضطلع به أبو ماضي تحرير جريدة « زحلة الفتاة » لصاحبها شكري البخاش . وشكري من عشاق « الدمعة » الظرفاء، حوّل مكتب الجريدة إلى خمّارة للشعراء . ومرةً بعد أن تعتعهم السكر وأخذ كل نديم يتغزل بفتاة أحلامه ، أنشدهم أبو ماضي في دوره :

لي فتاةٌ ملأتْ صدري جوى	ذاب فيها القلب شوقاً واحترق
كلّ يومٍ ليَ منها موعدٌ	في صباحٍ في مساءٍ في غسق
لا تظنوني أثيماً في الهوى	(ففتاتي) من مداد وورق

كان أبو ماضي يكره التعصب الطائفي وكل من يمثّله . روى ان قسيساً طرق بابه مبكراً فنهض لاستقباله وهو يفرك عينيه ، وسأله ما حاجتك ؟

أجاب صباح الخير . جئتك طالباً مديحك لي بين الاعاجم والفُرس
فقلت وحق الشعر مدحُك واجب ومثليَ يقضيه على العين والراس
خبرتُ بني الدنيا وفتشتُ فيهم فلم تر عيني قطّ أثقل من قسّ ..

وفي احدى الجلسات لاحظ ابو ماضي امارات الحزن على وجه وليم كاتسفليس لأن كلبته (فيفي) ماتت . فراح يؤاسيه ويرثيها :

عضّها الدهر بعدما عضّت الناس وأدّتْ مهمة الحجّابِ
كم فقيرٍ أتى ليشحذ قوتاً حرمته (فيفي) ولوج البابِ
وغريمٍ قد جاء يطلب دَيناً تركته معفراً في التّراب
وشقيٍّ أتى ليسرق شيئاً غادرته ممزّق الاثواب
رحمة اللحم والعظام عليها وصلاة الصحون والاكواب
وحباها النعيم تختال فيه حرةً في العواء والتلعاب
تأكل البقسماط يُغمس في الدّرّ وتُعطى ما تشتهي من كباب

واتفق ان فيليب كاتسفليس ، أخا وليم المنكوب بكلبته ، كان منكوباً بصدود صديقة له اسمها فيفي أيضاً ، فراح يرثي لحاله ولحال أخيه :

قعدَ الحزن به لمّا قعدْ غارب اليأس وما لليأس حدّ
كلما عوّتْ كلابُ الحيّ في موهن الليل تلوّى واكتمد
وإذا شاهد جرواً غاص في ذكر (فيفي) وعلى العين زبد
سهر الليل يناجي بدره علّه يسلو به عمّن فقد
يا أخي ان كنت تبكي كلبةً أخلصتْ وداً لأهلٍ وولد
فأنا أبكي فتاةً حيّةً قلبها ميْتٌ . وهل ميتٌ يُرد؟

ومن المضحكات المبكيات مـا كانت تتعرض له جريدة « السائح » من الازمات المـالية بسبب العجز الدائم في صندوقها . وكان روّادها يتداولون في المشكلة ويقترحون الحلول لخلق موارد جديدة . وأخيراً انصاعوا لرأي نعيمه (حكيم الشلّة) بالسفر إلى مدينة بعيدة آخـذة بالعمران اسمها (ألتونا) لبيع اسهم عقارية فيها وكسب (السمسرة) . فسافر عبد المسيح مع نعيمه تاركاً اخاه الشاعر على ادارة الجريدة ، وطال غيابه دون أن يرسل إلى ندره مالاً . فاشتدت الضائقة وأصبح مكتب الجريدة بلا تليفون ولا كهرباء ولا غاز . فلما قصده ابو ماضي وايوب وعريضه كعادتهم وجلسوا في ظلام الغرفة قرّروا ان يرسلوا إلى نعيمه وعبد المسيح صرخة استغاثة في قصيدة يشتركون في نظمها . فكتبوا على ضوء الشمعة معلقةً هذا مطلعها :

قفْ بالمطيّ على ربى (ألتونا)   وقل السلام على الألى هجرونا
الغـاز مقطوعٌ ونور الكهربا   يا ويلهم من ربّهم . قطعونا !
ندره يطالب ، إنما لا سـامعٌ   لا قاشعٌ .. قد مات مشتركونا ؟

ونعيمه يروي في كتابه (جبران خليل جبران) كيف كانت « الشلّة » تقضي أياماً في المزرعة وكيف كانوا يتنادرون بالشعر ويتبارون بالغناء . ومرةً بينما كانوا سائرين على الطريق اشتركوا في نظم قصيدة بدأهـا نعيمه واختتمها جبران واردفها كل منهم بشطر حتى تمّت . وهذا انموذج منها :

اسمعيني سكينة الليل لحنـاً   من نشيد السكينة الابديه
وافتحي يا نجومُ عيني لعلي   ان ارى بينك الطريق الخفيه

واجعلي يا رياح منك بساطاً واحمليني إلى الرياض العليه
ودعيني هنـاك اسرح حرّاً إنما العبـد يشتهي الحريـه

في سان باولو

كانت مجالس المنادمة والمباسطة في سان باولو عامرة في مختلف العهود ، تضمّ لا أقل من خمسين أديباً بين محترفين وهواة . وفي مطلع هذا القرن ألّفوا حلقة أدبية باسم « رواق المعري » أسّسها وترأسها نعوم لبكي (والد الشاعر اللبناني المرحوم صلاح لبكي) وانضم اليها عدد كبير من الباعة المتجولين المتعطشين لسماع الاحاديث والابحاث بلغتهم العربية . وكان الشاغل الاكبر لجماعة الرواق انشاد القصائـد الشوقية والمطرانية التي كانت ترشح اليهم من مصر والتعليق عليها . وعندما انفرطت حلقة الرواق بعد الحرب العالمية الاولى لم تنفرط المجالس الأدبية بل تحوّلت إلى منازل العائلات ، كمنزل الشاعر شفيق المعلوف ، أو منزل توفيق قربان ، أو دار الياس عاصي ، أو مكتب توفيـق ضعون ، أو دار مريانا فاخوري ، أو منزل يوسف اليازجي ، أو مسكن الدكتور شكري زيدان ، أو بالاخص مكتب مجلة « الشرق » ملتقى الأدباء والشعراء المقيمين والعابرين . وهذه المجالس الاجتماعيـة العائلية ان لم توثر في مجرى الأدب فلا نكران لتأثيرها في تهيئة الجوّ الملائم له ، جو الألفة والتعاطف والتجاوب الروحي من خلال الذكريات والمذاكرات .

لم يُدوّن إلاّ القليل النادر من نتاج تلك الندوات ، لأن أكـثر المطارحات كانت مرتجلة ، روعتها في ساعتها ومناسبتها ، لا في روايتها

بعد سنين . وآفتها الاباحية والعربدة في الكلام متى طالت العِشْرة وارتفعت الكلفة .

فرحات كان فارس الميدان المجلّي في المداعبات . إن داعب ثريّ الحرب قال له :

فجوادٌ من غير سرج لخيرٌ   من حمار عليه سرجٌ مذهب

وإن خاطب اللئيم صفعه بهذا القول :

ماشيتُه يوماً فدستُ خيـاله   عرَضاً فأثّر لؤمه بحذائي

ولما شاعت دعوة التطوع في الجيش الانكليزي أثناء الحرب قال :

يحلم السكسون في استعدادهم   للوغى أن يأخذوا منا جنودا
طمئنوهم ، اننا من امــةٍ   تحفظ الودّ ولا تنسى العهودا
كيف ننساهم وننسى انهم   أخذوا النفط وأعطونا اليهودا

وهو لا يتورع من مداعبة ربّه ان جرح كبرياءه بالمنّ عليه :

مَنّ الغنيّ عليّ فانتفضتْ لـه   شعَراتُ ناصيتي كريش القنفذ
لو منّ ربك بالنفوس على الورى   لبصقتُ أنفاسي وقلت له خُذِ

أما شاعرنا القروي رشيد سليم الخوري فكان يقوم في المجالس مقام جوقة طرب بشعره وحديثه وعوده وصوته الرخيم . اسمعه يوقع هذه الاغنية على العود :

يا عود لولا التسلي ما لامستك يدايا
ولا لصقتَ بصدري ولا سمعت غنايا
حتى يمرّ زمان تروج فيه الدنايا
الحرّ فيه فقيرٌ والمومسات غنايا

ولكنه سريع الغضب شديد الحساسية . زار صديقاً له يدعى وديع عبد المسيح ، فاستقبله هذا بفتور واستمرّ يصرّف أموره التجارية دون أن يقبل عليه . فانسحب القروي تاركاً له هذين البيتين :

ايا عبد المسيح جميل ظني بودك صار أقبح من قبيحِ
وضيعاً صرتَ عندي لا (وديعاً) وعبد القرد لا (عبد المسيحِ)

ومرة أحرجه المتفلسفون بالاعتراض على شعره الوطني العنيف ، فقال لهم :

أنصافَ أمّيين ، يا أعبداً في غير ذلٍ ما لكم ذكرُ
مهما كثرتم ما لكم قيمة مليون صفرٍ قدرها صفرُ

وانتصر له أخوه الشاعر المدني بقوله :

رشيدٌ انت بلعامٌ جديدٌ لقد انطقتَ طائفةَ الحمير

وجرى حديث عن الشاعر الثري نعمة قازان صاحب مصنع الاحذية وعن هدية أهداها إلى صديقه توفيق ضعون وقال فيها :

لقد أهديت توفيقاً حــذاءً فقال الحاسدون وما عليه ؟
أما قال الفتى العربيّ يوماً شبيه الشيء منجذبٌ اليه ؟

ويُروى ان ضعون ردّ التحية لقازان بهذين البيتين :

لو كان يُهدى إلى الانسان قيمتــه لكنتُ أستأهل الدنيا ومـا فيهـا
لكنْ تقبّلتُ هذا النعل معتقـداً أنّ الهدايا على مقدار مهديهــا

وعلى ذكر توفيق ضعون لا بدّ من ذكر قهوته الفاخرة التي كـان يقدّمها إلى زوّار مكتبه العامر ، مطبوخةً ومحمولةً بيده الكريمة ، قلتُ له فيها :

خذ من يراعك هدنةً يا صاح واجلس لصحبك جلسة الجحجاح
يا حارق البنّ الفتيق تشفّيــاً سلمتْ يداك ، حرقت قلب اللاحي
فضحَتْ قتارته الوليمة فامتلا ناديك بالغـوّاد والروّاح
والقهوة العذراء أنت أبحتهـا وِرداً يحوم عليه كلّ إباحي
لولا الحياء لما تعصّب وجههـا بضبابةٍ من زفرة الاقــداح
كم ملتُ بالفنجان ألمظ ثغره قبل ارتشاف رضابـه الفـوّاح
لا أنثني حتى أرى في قعــره خيطَ الصباح على الدجى الضحضاح
وخثارةً لولا الرقيب غزوتُهـا وتخذت من طرف اللسان سلاحي

في بونس ايرس

في الارجنتين لم تظهر المجالس الأدبية إلا بظهور الرابطة الأدبية التي

نشأت عام ١٩٤٩ واتخذت منزل صيدح مقراً لها ثم احتجبت بعد عامين . لكنها في حياتها القصيرة أنتجتْ من المطارحات الشعرية قدر ما انتجته مجالس البرازيل في عشرين عاماً . وكان اختصاصها شعر الرقاعة، وهو الذي عملَ على تقصير أجلها . كان «الرابطيون» ينسجون على منوال العصبة الأندلسية في اجتماعاتهم الاولى ثم غلبتهم «النكتة» فراحوا يتغزلون يوماً بصلعة مضيفهم ويهجون يوماً رسمه الجديد ، ويفرضون على أنفسهم – من باب الحذلقة – أعسر حروف القافية القليلة الاستعمال .

يوم تأسست الرابطة الأدبية في جوّ مشبع بالتفاؤل والحماسة كان على كل عضو أن يسجّل شعراً في كتاب الوقائع ، فكتب صاحب الدار :

أأشتاق الحمى والساكنيه ... وفي داري أرى أغلى بنيه ؟
بروحي زورة الادباء أسلو ... بها بلدي ومَن خلّفت فيه

فلما جاء دور عبد اللطيف الخشن صاحب جريدة العلم العربي كتب :

تيقّظْ يا أخي بعد الهجوع ... تهيأ زاد روحك بعد جوع
لقد صمنا شهوراً بل سنيناً ... وأفطرنا على الرأس الصليع
سأدلي بين أيديكم بدلوي ... وتقليدي لصيدحنا شفيعي

هذه الاشارة إلى الرأس الصليع نبّهت الاذهان إلى موضوع جديد وأصبحت صلعة صيدح مصدر الالهام في أكثر من جلسة . وكالعادة كان الياس قنصل مطلق الشرارة الأولى :

عيّروه بقبحها وهي في شرعي ... مثال الجمال والتبريز

لونها كالشفاه مرّ عليها قلمٌ للطلاء مــن باريز
شعرةٌ فذةٌ تَساقطُ منها لتساوي شهادة التجهيز

وجاء زكي قنصل يزايد اخاه بقوله :

لا تبالغ بهجوها لا تبــالـغ جلّ من صاغها يتيمة صائغ
ينبت العشبُ في الوهاد وتبدو فلك الشامخات جرداً فوارغ
أيها الضاحكون من جدب رأسٍ الصحارى تمخّضت بالنوابغ
هذه الصلعة التي أضحكتكم سال منها البيان ريّان سائغ
هي كالحق لم يُقنّع بستـرٍ هي كالفجر سافر الوجه بازغ
عشيتْ دونها العيون فلا ترنو اليها إلاّ وطرفك زائـغ
هي عندي جريدةٌ لم تمالىء مستبدّاً في أمره أو تراوغ
راقبتها من الحكومة عينٌ فبدا حقلها الرئيسيّ فارغ

وكان لا بدّ من الردّ ومن الدفاع نفياً لتهمة الخوف والجبن ، لذلك رددت بقصيدة ، هذا بعض أبياتها :

خادعوها بأعذب الالفـاظ وتنادوا لرجمها باللحاظ
صلعةَ الخير ، لا أصابتك عينٌ من عيون الحسّاد ذات الشواظ
ليت لم تسفري ولم تُخرجيهـم من تقاليد حشمة في عكاظ
الوقارَ الوقارَ يا عصبة الافذاذ ما انت عصبة الافظاظ !
انّ لي صلعةً أجلّ من الشيب وأحرى بمدحـة القُـرّاظ
يشتهي المشطُ أن يمرّ عليهــا بخطوط دقيقة أو غــلاظ
وهي تأبى إلاّ الشعاع نزيلا ورسولاً منهـا إلى الالحاظ
عزّ بين الرؤوس رأسٌ تخلّى عن تهاويل تاجه البهّــاظ

أحلسٌ أملسٌ كخدّ الصبايا زالقٌ آبقٌ على العَظّاظ
يا عذولي أنام ملءْ جفوني عنك فاعذلْ سواي في الأيقاظ
ما أنا الاصلع الوحيد ليهجو صلعتي كلّ أشعرٍ مغتاظ

وفي احدى الجلسات التالية كان ضيف الشرف سيادة المطران نيفن سابا . فلفت نظر الاعضاء إلى رسم جديد ظهر في صحف الصباح لصاحب الصلعة المباركة . فما عتم ان قرّظه الياس قنصل بقوله :

صيدحٌ في صورة راغبةٍ لو لم تكنهُ
قيل صفْها قلت يكفي انها أقبح منهُ

فبادر المطران الشاعر إلى نجدة صيدح ، وشطّر بيتي قنصل تشطيراً بارعاً :

« صيدحٌ في صورة را » ئعة يا رب صُنه
حسدتها أعينٌ را « غبةٌ لو لم تكنه »
« قيل صفها قلت يكفي » انها للاصل كُنه
كذب القائل فيها « انها أقبح منه »

فوجد صيدح ان المستعدى كان أعدى عليه من الهاجي ، لأن هذا يقول ان الصورة أقبح من الأصل ، أمّا المطران فيؤكد انها والاصل سواء في القبح . فآثرت الدفاع عن نفسي بنفسي :

عيّروا رسمي وقالوا فيه قولاً لم يشِنه
ان يكن أقبح مني فأنا أجمل منه

لم أضع في الظل حسنَ الأصل . لا . لم أأتمنه
روعة الشاعر سرٌّ قلت للرسام صُنه
واستعنْ بالفنّ في تجميل غيري وأعِنه
ربّ رسم « قنصليّ » جاحظيّ إن تزنه
لا تدعْ في رسمه ما يشبه المنقول عنه

وكرّت شهورٌ بعد ذلك في سلام نسبي إلى أن ذاع خبر زواج زكي قنصل سراً ، في حفلة عائلية لم يدعُ اليها أحداً من رفاقه في الرابطة فحنقنا عليه وللمرة الأولى اتخذت موقف الهجوم وكتبتُ اليه :

قالوا تزوج قنصلٌ فأجبتُ عزّوا القنصله
وقعتْ وما فتحتْ جيوب الرابطيّ المقفله
أحسبتَ يا زاكي الزواج قضيةً مستعجله
لا شأن فيها للكؤوس وللقوافي المرسله
ما ضرّ لو كان الرفاق شهود تلك المرحله ؟
لأتاك كلٌّ حاملا ما تشتهي أن يحمله
حلوى من الشعر المهلهل بالخيال متبّله
وخُريزةٌ زرقاء تخزي العين بعد البسمله
يهديكها عفواً ولا عوضٌ يُرجّى منك له
أما أخوك العبقريّ فبلبلٌ في البلبله
لأكاد أسمعه يقول وقوله كالقنبله
نحن القناصل ليس نفهم غير شعر (البهدله)

وجاء جواب العريس فاحماً قاصماً :

جاوزتَ حدّ الغربله أدعابةٌ أم بهدله ؟

يا شاعر الفصحى أعيذك أن تثير البلبله
ما كان أغنى الروض عن آثار هذي القنبله
سلمتْ يداك ، وان خلقتَ لمن يُحبّك مشكله
أنا لم أخن عهد الرفاق وحقّ عين القنصله
هم في أهازيجي الصلاة وفي صلاتي البسمله
ولكنت أنساهم إذا نسيَ المسمّي الحمدله
يا عادلاً في الناس كن لأخيك أكثر معدله
أيقظتَ فيه الصقر فاحذر أن تُقارع أجدله
ان جئت في ثوب الفرزدق ضمّ ثوبي أخطله

ومرة ثانية اقترفت خطيئة الهجوم فقلت عن رجل من رجال الدين الدجالين :

تلبّس بالديانة حين صارت حبُالة كل من خلع العذارا
يطير صوابُه جزعاً عليها ولولا الثقل في دمه لطارا

فتذكرت ان للشاعر فرحات سابقة في اقتراف مثل هذه الخطيئة يوم قال لخوري من أصحابه عثر فكسر رجله :

أكسرتَها وهي التي حملتك من عهد الفطام ؟
وتحمّلت منذ احتلامك منك شيطنة الغلام
ومشت وأنت فتى بطيشك في سراديب الغرام ؟
ثقلتْ عليها جبّةٌ لو جلّلت جملاً لنام
إن التظاهر بالتّقى كافٍ لتحطيم العظام

الفصل الحادي عشر

مآخذ النقّاد على الأدب المهجري

١ـ كتاب لبنان الشاعر

لا يسيء إلى الأدباء المهاجرين تعارض الآراء في وزن أدبهم وقيمته بل يرون في المعارضة دليل الاهتمام المشكور . ولولا أن في عرض الآراء المتضاربة وتمحيصها دراسة مفيدة لأدب المهجر في مختلف معانيه ونواحيه لما أدمجنا هذا البحث في صلب المحاضرات ، ولا أسهبنا في إيراد المآخذ والردود . ان اكتشاف مواضع الضعف والقوة في الأدب المهجري غرض من أغراضَ هذه المحاضرات ، ولا يُسهّل الاكتشاف مثل إلقاء النور على الموضوع من ناحيتي الهجوم والدفاع ، وفي النهاية لا نصر للمهاجم ولا للمدافع بل الأدب وحده متى وجد حقيقته واطمأن إلى أهله .

بهذه الروح نقدم على نقاش ، مناظرنا فيه كتابٌ صدر منذ عام

ونيّف بعنوان : « لبنان الشاعر » لا صاحب الكتاب ، لأن صاحبه مضى إلى رحمة ربه ، مشيعاً بحسرة الأدب ودمعة الشعر ، ونزل داراً في عليّين ، لا يناظر فيها إلا أمثاله الخالدين . أما وقد حضرت ذكراه إلى هذا المنبر الذي سمعه محاضراً منذ عامين فلنحيّ جميعاً روح ذلك الأديب الألمعي الفذ المرحوم صلاح لبكي طيب الله ثراه .

دخل صلاح لبكي في ذمة التاريخ وبقيت آثاره الأدبية حية تواجه التاريخ بشموخ واعتزاز ، وتصافح أيدي القراء والنقّاد كل يوم بمودة وانشراح . وها نحن بين صفحات كتابه الأخير « لبنان الشاعر » نأخذ عنه دروس الفنّ والجمال ، ونخشع أمام أدبه باعجاب وإجلال .

في كتابه زهور فوّاحة من الثناء نثرها على الأدب المهجري من يده الكريمة وخلقه السمح . قال عنه إنه « شعر يتعدى حدود الوجدانية الذاتية ليتصل بالشعور البشري العام . يميّزه كونه مستمداً من صميم الحياة . تؤخذ بروعته وتفتن بسحره ولا تعرف للافتتان والروعة والسحر سبباً غير ما وقع في نفسك من أثر تلك الروعة وذاك السحر . إنه خفقة قلب وخلجة نفس وخطفة خيال . أخذنا عنه الاتجاه العلمي ومبدأ المساواة بين الرجل والمرأة وأهمية العمل الجماعي الواسع ». ولكنه لم يفرغ من الثناء حتى نعى على شعر المهجر العيوب التالية :

١ — جمال المرأة ظل غائباً عن شعر المهجر (باستثناء جبران) .

٢ — عني باللفظة التي تتجسد صورة ملموسة وأهمل طاقتها الايحائية التي قام عليها مجد المدرسة الرمزية فيما بعد .

٣ — الشاعر المهجري يهمس ويفسّر ويوضح . ولكنه لا يومئ ولا يوحي .

٤ — يضحّي المبنى للاستبقاء على سلامة المعنى وينحط أحياناً إلى مستوى النثر الرديء .

٥ — ظل الشعر المهجري عبد الصورة الجامدة والاستعارات والكنايات البدائية .

٦ — آنس شعراء المهجر ضعفهم في اللغة ويأسهم من إصلاحها فلم يجدوا بداً من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً .

هذه الحملة على شعر المهجر تتجه إلى الشكل من خمس جهات وإلى المضمون من جهة واحدة ، هي أن جمال المرأة ظل غائباً عن شعر المهجر . وجوابنا على هذا المأخذ الاخير أن الكاتب رحمه الله كان مرهقاً بالأعمال والمهمات الملقاة على عاتقه ، في المحاماة والسياسة والتأليف والمحاضرات ورئاسة جمعية «أهل القلم» والواجبات الاجتماعية. فلم يتسع وقته إلاّ قليلاً لمطالعة دواوين الشعر المهجري ، فبنى حكمه على القليل الذي اطلع عليه ، وإلا لكان ألمّ وأعجب أيما إعجاب بالدور الذي مثله جمال المرأة في أدب الريحاني وأبو ماضي وشفيق معلوف وفرحات والشاعر القروي ، ولا نذكر جبران لأنه قد استثناه من هذه التهمة . هاكم قول فرحات :

وجمال النساء ربٌّ له المجد ... وفي كل هيكلٍ معبود
لو خلَت جنة الالّه من الحور ... لما مات في الجهاد شهيد ..

ولنسمع إلى شفيق معلوف :

بالّتي تقطف النجوم يداها ... ثم تلقي بهنّ تحت وسادي
بفتاة كأن أجنحة الشحرور ... كحّلن عينها بسواد
نقّلي يا يد النسيم على أهدابها السود ريشة العوّاد
إن أهدابها بقية أوتاريَ ... شُدّت إلى بقايا فؤادي

وللشاعر القروي :

هل تذكرين لقاءنا في روضة ... سحرية والطير يهتف باسمك
والشمس تُلقي في المروج ظلالنا ... عمداً لتحتفظ المروج برسمك
لمياء مـا دام الكلام يمر في ... شفتيك من يخشى مرارة شتمك ؟

ولأبو ماضي :

أي شيء في العيد أهدي اليك ... يا ملاكي وكل شيء لديك
أسواراً أم دملجاً من نضار ... لا أُحب القيود في معصميك
أم خموراً وليس في الأرض خمر ... كالتي تسكبين من ناظريك
أم وروداً والورد أجمل ما فيه ... حياء يفيض من وجنتيك
أم عقيقـاً كمهجتي يتلظى ... والعقيق الثمـين في شفتيك
ليس عندي شيءٌ أعز من الروح ... وروحي مرهونة في يـديك

وله أيضاً :

لو انني يا هند بدر السما ... هبطْت من أفقي إلى مخدعك
وصرت عقداً لك أو خاتمـاً ... في جيدك الناصع أو اصبعك
أو بلبل البستان ما لذّ لي ... الانشاد إن لم يكُ في مسمعك
ولو اكون الأرَج الزاكـي ... لمـا هجرت الروض ، لولاك
ومـا حواني غـير مغنـاك ... ولم أفح حتى تكوني معي

*

فيك وفي الوردة سرّ الصبـا ... وفي الصبا سرّ الهوى والجمال
فان تريني واجفاً باهتـاً ... حيالها أخشى عليها الزوال

فانني شاهدت طيف الردى ينسلّ كالسارق بين الظلال
ولاح لي في الورق النامي منطرحاً في الأرض قدّامي
رموز آلامٍ واحلام احلام من ؟
احلام مضناك ؟

ولرشيد أيوب :

جلست بقرب شبّاكي أردّد طيب ذكراك
وأطوي بيدَ أحلام كَتَبتْ فيها مطايـاك
أتاركتي أخا سـهر متى عهدي بلقياك ؟
متى عنّت على بـالي أويْقـاتي ، وإيـاك
ورحت أعاتب الدنيا جلست أمام شباكي

ولفرحات الذي شاب وما تاب عن مغازلة بنات البرازيل :

أرى قلبي يظل على صباه ولو أربت على الستين سني
يكلّفني الشقي هوى الصبايا فأهواهنّ ممتثلاً .. كـأني
ويولعني بأصغرهنّ سـناً واصغرهنّ أبعدهنّ عـني
بكيت فقال أصحابي أتبكي فقلت مضى الشباب ، فهل أُغني ؟
ولو راح الهوى لأراح نفسي من الصدّ المبرّح والتجـنيِ
ولكن الهوى باقٍ وقلبي بمعترك اللحاظ بلا مِجن
بأي وسيلة أرضي الغواني وشعري عندهنّ عزيف جنّ

وكان صيدح في موقف فرحات من السن ومن الغواني حين قال :

جئت أسترضي فما نلت رضاك جُنّ قلبي فغدا يهوى جفـاك

وتراك العين في جبّتها كلما غمّضتها كي لا تراك
المنى الخرساء ذابت في فمي حالمات أنها ترضع فاك
بيدي جرّدت أحلام الهوى من حلاها قبلما همّت يداك
ونذرت الزهد ، لا أفشي به نكبة الشيب ولا أسلو هواك
ما رأت حوّاء مثلي عاشقاً حبه (واحسرتا) حب ملاك...

نقف عند هذا الحد ، لأن الشواهد لدينا لا يحصى عددها ، وحقل الغزل في الدواوين هو عادة أخصب الحقول . فما أغرب قول الناقد إن دواوين المهجر خلت منه . أم هو يريد أن تكون عبادتهم لجمال المرأة مجرد وهم وتصنع وخيال ؟ هم آثروا الصدق في التعبير عن عاطفتهم وتكلموا عن المرأة في الحب الذي عاشوه وزاولوه . ليس غزلهم خطرات حالم وغمغمات نشوان وأنات متمارض لا يصدّق شكواه أحد بل هو صدى انفعالات حقيقية ، حارة ، أثرها أفعل في القلوب من الغزل السرابيّ المجرد . هاكم قطعة من الشعر المنثور كتبها الريحاني رثاء لصديقة له ماتت غرقاً في نهر الأمازون :

أيتها الساكنة قعر النهر الفضي
أيتها الراقدة تحت الأمواج الغريبة
أنتِ أميرة اللؤلؤ ، واللؤلؤ يلاقيك مرحبّا
أنتِ ملكة المرجان والمرجان يمجّدك منشدا
أنتِ لا تزالين عندي أعجوبة الزمان
كلما رأيت لؤلؤة أسألها عن سحرك
وكلما رأيت مرجانة صبوت إلى ثغرك

أما حملة الناقد على مباني الشعر المهجري فمريعة حقاً . اللفظ أخرس .

والعبارة مبتذلة . والمبنى منحط . والصورة جامدة . واللغة ضعيفة . فماذا بقي فيه من معالم الحسن وآثار الفن ؟

تفسير هذه الحملة الشعواء نجده في الاختلاف الجذري بين الناقد وشعراء المهجر على مفهوم الشعر .

فالناقد يحدد الشعر بهذه العبارة : حكاية عقل يغفو وحاضر يموت على نغم يرف . حكاية اتساع في الصور والاخيلة والأحلام . هذا هو الشعر .

والمهجريون يرون أن الشعر هو تعبير موسيقيّ بارع عن خلجات الحس وومضات الفكر وأصداء الحياة في المجتمع . يجمع إلى رسالة الترفيه رسالة التوجيه . فلا يستغني عن العاطفة لأنه يغني للقلب لا للأذن فحسب . ولا عن الفكرة لأن الكلام لا يحيا بالنغم وحده . ولا عن الانفعال ، لأن النفس التي لا تهتزّ لا تستطيع أن تهزّ نفساً . ولا عن القوة لأن مجاله بعيد المدى . ولا عن الوضوح لأن هدفه شيوع البلاغ . فما أبعد هذا المفهوم عن « غفوة العقل ورفة النغم وخطرة الاحلام » .

يقول المازني : : الشعر وحده هو الذي يسجل آيات الجمال وهو وحده يأخذ بمظاهر الابداع من مجالاتها المحدودة إلى رحاب الخلود . والشيوع هو شرط الخلود . وقديماً قال الأصمعي : أشعر بيت هو الذي لا يحجبه عن القلب شيء .

إذا الشعر لم يهززك عند سماعه   فليس جديراً أن يقال له شعر

(الزهاوي)

الشعر في كتاب « لبنان الشاعر » موجة موسيقية وطيف خيال . لا أكثر ولا أقل . ونحن نؤمن بأن الموجة الموسيقية وطيف الخيال هما من الشعر ، ولكن ليسا كل الشعر . للفكر وللعاطفة ولواقع الحياة حصة

الأسد فيه . والشعر العالمي لم تقتصر موضوعاته على دنيا الخيال والأحلام بل عالج القضايا النفسية ومظاهر المجتمع ودنيا السياسة . ان الشاعر الناضج يشعر بمسؤوليته أمام الحياة ، أما الشاعر الطفل فتكفيه دغدغة الأنغام وهدهدة الأحلام .

ويصر « لبنان الشاعر » على أن أبيات الشعر التي لا تمت إلى الخيال ولا قيمة لها إلا بجمال الفكر الذي تعبّر عنه ليست شعراً . كقول المتنبي :

على قدر أهل العزم تأتي العزائم   وتأتي على قدر الكرام المكارم
وتعظم في عين الصغير صغارها   وتصغر في عين العظيم العظائم

« وإن هناك منظومات جميلة ولكنها عارية من الشعر لأن جمالها مستمد من جمال فكرتها أو من جمال تركيبها أو من جمال موسيقاها . فأصحابها ليسوا شعراء » .

إذاً فلنمح أسماء المتنبي والمعري والبحتري وشوقي واضرابهم من لائحة الشعراء . لقد جمعوا في شعرهم جمال الفكرة إلى جمال الصياغة إلى جمال النغم ولكنهم لم ينظموا شعراً .

هذا الرأي الغريب الذي يُعفي على أمجاد الشعر في دنيا العرب قديمها وحديثها ، يتوسع كتاب « لبنان الشاعر » في ايضاحه حين يقول : « الحالة الشاعرية هي الحالة التي تتعطّل معها القوى المدركة الواعية ، الحاسبة ، الراقمة ، المهندسة ، المتاجرة ، العاملة ، السائسة ، المتفلسفة ، المتمنطقة ، المبرهنة ، المستقرية ، المستنتجة ، الملاحظة ، المختبرة » وبداهة بعد هذا البيان ، أصبح شعراء المهجر غير شعراء لأنهم لم يتخلوا عن قواهم المدركة فعملوا وحسبوا وتمنطقوا وبرهنوا واستقرَوا ولاحظوا واستنتجوا واختبروا قبل أن ينظموا الشعر . فحقّ عليهم الحكم بالإعدام .

« لبنان الشاعر » صنع قالباً للشعر ، يختبر به شعر الآخرين ، كل ما ينسجم في قالبه جيد . وكل ما ينبو عنه رديء . فكيف يرضى عن شعر المهجر الذي حطّم القوالب وتنكر للمذاهب ؟ والغريب أن مؤلف الكتاب لا يتقيد بالقالب الذي صنعه ودعا اليه . فشعره الرائع تنزه عن الغموض الرمزي وعن الهوس السريالي ، واتصف بالديباجة المشرقة ، والموسيقى العذبة ، والاتزان العقلي .

هو لم يكتب اسماً على ظاهر القالب الذي صنعه . ولكن معدن القالب وشكله وسماته تدل على اسمه وكنيته : الشعر الرمزي . أو بالأحرى الشعر الرمزي اللبناني . لأن الرمز في لبنان غيره في أنحاء الغرب والشرق، ينزلق إلى المذهب السريالي حين يعتمد أول ما يعتمد الأخيلة الغربية ، وأنف العقل راغم .

لا يأنف الشعر المهجري من الرمز بل يقبل عليه بشاهية متى كان لذيذ الطعم سهل الهضم كرموز جبران ، ولكنه يأبى التقيد به مذهباً لا محيد عنه . ومثله الشعر العالمي ، يلج جميع الأبواب التي تؤدي إلى غايته ، ولولا عفوية الالهام وحرية الأسلوب ما تمهد أمامه طريق الخلود . إن الجمال في الشعر كالجمال في سائر الفنون والمخلوقات ، نشعر به ولا ندرك سرّ شعورنا . والذي يحدد جمال الشعر بحدود كالذي يقيس جمال المرأة بمقاييس الحجم والوزن واللون . والمذهب الرمزي يفقد كل جمال متى فرضه الشاعر على الناس بعد ما فرضه على نفسه وراح يتصنّع ويتعمّل ليظلّ أميناً له . يقول برتراند رسل : « إن جوهر الإدراك العلمي إنما هو رفض اعتبار رغباتنا وأذواقنا ومصالحنا مفتاحاً لفهم العالم » . ويقول الزيات : « إن بعض الشعر الرمزي – ونحن نعلم إلى أي شعر يشير – مخلوق أعجم لا تتبناه اللغة العربية ، بنت الشمس المشرقة والأفق الصحو والصحراء العارية والبداوة الصريحة . هو شعر قد يخلق جواً شعرياً وينفث أنساماً عذبة ولكن لا أمل في أن ينطلق من نطاق الذات ويعبّر عن تجارب

خارجية أو يحدّث عن أحوال المجتمع » .

ومتى علمنا ان من خصائص الشعر المهجري أن ينطلق من نطاق الذاتية الفردية إلى ساحة الموضوعية في ميدان الحياة وأن يعبر عن تجارب خارجية ويحدّث عن أحوال المجتمع ، علمنا لماذا أعرض شعراء المهجر عن الشعر الرمزي المعاصر .

هم أول من خرج من الطريقة الاتباعية إلى الابتداعية ، ولو وجدوا في الشعر الرمزي وسيلة ابتداعية تقوم برسالتهم لما أحجموا عنه ، ولكنهم وجدوا (كما يقول الاستاذ عبد اللطيف السحرتي في كتابه الشعر المعاصر) « أن الحساسية مفقودة بين شاعر الرمز وبين القارئ العربي وهذا سر فشله ، كما أن سرّ نجاح الشعر المهجري بين قراء العربية في مختلف الأقطار هو هذه الحساسية المشتّركة » .

الشعر الرمزي الصحيح هو شعر التسامي والتفوق . يستنطق اللغة بما يعجز عنه لسانها المألوف . ولكن التسامي والتفوق ليسا في متناول كل من قال شعراً .

إن بيكاسو ، أشهر رسامي العصر ، لم يبتكر أسلوبه التكعيبي إلاّ بعد أن أبلى السنين في معالجة الرسم الكلاسيكي ، وعندما برع فيه جاوزه إلى ما فوق . أما شعراؤنا الناشئون فيطفرون من الشعر المدرسي إلى الرمزي ، دون الوقوف عند الأساليب الكلاسيكية المدروسة ، كمن يقفز من الوادي إلى قمة الجبل قفزة الطير دون أن يتزوّد بجناح يطير به . ثم انّ الرمز هو غير اللغز . فاللغز لا يُفهم ولا يوحي . أما الرمز الموفّق فإنك تفهم من إيماءته أضعاف ما تفهم من كلمته . وهنا يكمن سر عبقرية (بول فاليري) عميد الشعر الرمزي في فرنسا . إذ ان في شعره إيحاء يطل من وراء الغيم الشفاف ، وإغراء ينبعث من خلال الظل الهفهاف . بينما يتعمّل شعراؤنا الرمزيون إقصاءنا عن دائرة الفهم بتراكيبهم المعقّدة الغامضة ، وترى الواحد منهم يجهد عقله كمن يحاول تسبيع

الدائرة أو اختراع جملة من الكلمات المتقاطعة ، ثم يفاجئنا بشعر مهما عصرته ، لا يرشح بقطرة عاطفة أو بذرة معنى ولا يفوح منه إلاّ عرق الشاعر متصبباً على جبهته ودخان السجاير منتشراً في غرفته .

قلت في وصف هذا الشعر الرمزي :

يحمل المجهر من يقرأه ليرى جرثوم معنى في صديد
إن سألت الشعب عن محصوله كنت كالطالب حقاً من يهودي

وبالواقع سل من شئت من أفراد الشعب أن يروي لك بيتاً واحداً من الشعر الرمزي المستعرب فيعجز عن ذلك . ولكن الملايين من الناطقين بالضاد يرددون ما قاله المتنبي منذ ألف عام ويستظهرون البيتين اللذين ازدراهما صاحب كتاب « لبنان الشاعر » وجردهما من صفة الشعر : (على قدر أهل العزم الخ ...)

الغموض في الشعر هو حيلة الفاشلين الذين يحاولون ستر هزيمتهم براية المذهب الرمزي أو السريالي . يقول الشاعر أمين نخله : « أدنى الفنّ ما كانت فيه الجملة تفتش عن معناها . ومتى هزلت المعاني توكأت على غموض الألفاظ » . ويقول بول برونتون : « الكلمة التي لا يفهمها الناس فهماً تاماً إنما هي كلمة ميتة . وما دامت لغة التخاطب أو الكتابة غير مفهومة على الوجه الأكمل فهي دون فائدة للروح » .

ولما لم يجد « لبنان الشاعر » أثراً لعيب الغموض في شعر المهجر خلع عليه عيب الوضوح المتجسد الملموس الذي لا يومئ ولا يوحي ، وزاد فقال إنه عبد الصورة الجامدة والاستعارات والكنايات البدائية . قال هذا ولم يأت بشاهد ثبوت واحد يؤيده . لأن هذا الشاهد لا وجود له في شعر المهجريين . أما شهود النفي فما أكثرهم . هم يؤلفون كل نتاج

الأدب المهجري ، من ألفه إلى يائه ، شعراً ونثراً . وكان أيسر عليه لو نعت هذا الأدب بالتطرف في التحرر والتجدد كما فعل غيره من النقّاد . ولكنه شاء أن ينفرد برأي جديد فطاش سهمه . لقد أصبح معروفاً ومتداولاً أن كيان الأدب المهجري قام على عناصر التجديد والانطلاق والإبداع وعلى نبذ « الاستعارات والكنايات البدائية » ، وان ألفاظه وتراكيبه « لا مثيل لها في الأدب الحديث من حيث القدرة على إثارة الإحساس » . فلا يفيدنا شيئاً ترديد الأدلة ، حيث لا حاجة إلى دليل . ما عليّ إلاّ أن أفتح ديوان الخمائل كيفما اتفق وأنقل الأبيات التي تقع عليها عيني . أمامي أبيات يصف فيها أبو ماضي السعادة :

وأرى السعادة لاوصول لعرشها ... إلاّ بأجنحة من الوسواس
فكأنما هي صورة زيتية ... للشطّ فيه مراكب ومراسي
تبدو لعينيك السفائن عوّماً ... وتكاد تسمع رعشة الأمراس
لكن إذا دانيتها ولمستها ... لم تلق غير الصبغ والقرطاس

أين الاستعارات البدائية والصور الجامدة ؟

إننا قلما نجد في الشعر العربي ما يباري هذا التصوير الدقيق الرائع إلا فيما ندر . وإعجابنا به لا يقل عن إعجابنا بابن الرومي حين يصف قالي الزلابية :

يُلقي العجين لجيناً من أنامله ... فيستحيل شبابيكاً من الذهب

وعن إعجابنا بشوقي حين يصف مقبرة توت عنخ آمون :

صوَرٌ تريك تحركاً ... والأصل في الصور السكون

خدع العيونَ ولم يزل حتى تحدى اللامسين

وهو معنى أخذه شوقي عن البحتري في السينية المشهورة التي تصف رسماً لجنود أنو شروان :

تصف العين أنهم جدُّ أحياءٍ لهم بينهم إشارة خُرس
يغتلي فيهم ارتيابيَ حتى تتقرّاهمُ يداي بلمس

من أقوال سيد قطب : « إن للألفاظ أرواحاً . ووظيفة التعبير الجيد أن يطلق هذه الأرواح في جوّها الملائم لطبيعتها فتستطيع الإيحاء الكامل ». وكل من يقرأ شعر المهجر يتأثر بذاك الإيحاء الكامل الهابط من أرواح الألفاظ المتآلفة والتعابير المتناغمة . خذ مثلاً من شعر أبو ماضي :

تعالي نتعاطاها كلون التبر أو أسطع
ونسقي النرجس الواشي بقايا الراح في الكاس
فلا يعرف من نحن ولا يبصر ما نصنع
ولا ينقل عند الفجر نجوانا إلى الناس

هذه الموجات الموسيقية والصور الفنية الحية ، وهذا النرجس المخمور ببقايا الراح في الكاس ، لا يعي ما يرى ولا يشي بما يسمع ، لا نجد فيها أثراً للاستعارات الجامدة والكنايات البدائية ، بل بالعكس نحسّ بروح العصر تترجرج ، بل تتقدم العصر بعصر . لأن الديوان الذي ظهرت فيه صدر منذ أربعين عاماً أي يوم كان الجمود صفة ملازمة لكثير من النتاج الشعري في الأقطار العربية . يقول سومرست موم : « يعتقد البعض أن غموض العبارة دليل على اتساع الفكرة التي لا يمكن

أن توضع في مجال التعبير لأنها أوسع بكثير من الكلمات المحدودة . والحقيقة أنها ليست العبارة التي تعجز عن تجسيد الفكرة بل هي العقلية التي لم تعرف كيف تفسر الانفعالات بكلمات مجنحة حيّة » .

هناك تهمة واحدة شفعها « لبنان الشاعر » بالبيّنة . فلكي يثبت أن شعر المهجر ينحط أحياناً إلى مستوى النثر الرديء ، استشهد بهذه الأبيات لميخائيل نعيمه :

غداً أرد هبات الناس للناس — وعن غناهم سأستغني بإفلاسي
وأسترد ديوناً لي بذمتهم — فقد رهنت لهم قلبي وإحساسي

في صدر البيت الأول خلق نعيمه الجو الشعري ، جو الكآبة التي تغشّى قلبه وأشرك السامع فيه ، ثم في عجز البيت صور حالته النفسية ، حالة القنوط والاستسلام للبؤس ، تصويراً يوحي طرفاً من جهاده العقيم في طلب الرزق قبل أن « يستغني عن الغنى ويقنع بالافلاس » . لقد وضع الشاعر في الكلمات أقصى ما تتحمله من المعاني وأعذب ما يمكن من الإيقاع . ثم عطف في البيت الثاني على المأساة الروحية فألمح إلى قسوة الحياة في البيئة المادية التي تسترهن مواهب الشاعر كما تسترهن السلع : لقد رهنت لهم قلبي وإحساسي .

على الناقد أن يعيش مع الشاعر التجربة النفسية التي يمر بها ويحاول التعبير عنها لكي يقدّر مدى توفيقه في التعبير ، لا أن ينظر إلى أثر تلك التجربة نظرة فنية مجردة ويتجاهل الظروف الباعثة اليها ، المحدقة بها . كان نعيمه أيام إقامته في نيويورك مستشار الرابطة القلمية ومنارة الجوالي العربية ، يسهر الليالي في تأليف القصص والمقالات ويخطب في المحافل ناشراً دعوة الإصلاح الأدبي والاجتماعي ، بينما كان نهاره مرهوناً للعمل الرتيب المتواضع في متجر « ينحر فيه ساعات بكارى من الحياة

لعدد محدود من مومسات الريالات » (التعبير له) ، ومع ذلك ما كان يلاقي من أبناء قومه إلاّ الريبة والاعراض . فراح يفصح عن ذات نفسه وينفس كرب صدره في الأبيات التي سمعناها وقال عنها « لبنان الشاعر » إنها من النثر الرديء ، لأنه لم يجد فيها الخيالَ المحلّق والألفاظ الشعرية المبهمة التي يحشرها شعراء اليوم في كل مقام . بل وجد وصفاً واقعياً صادقاً في تعابير بارعة ملوّنة باللون المحلي . لقد خاطب الشاعر التجار باللغة التي يمارسونها وحدّثهم عن الغنى والافلاس والرهون والأسواق والديون والكسب والبعل الذهبي ، ولو كلمهم بلغة الرؤى والطيوف والغيوم والنجوم والأثير والعبير لما أحدث في نفوسهم أثراً . قال بعد ذلك :

ورحت أتجر في أسواق كسبهم فما كسبت سوى همّ ووسواس
وكم فتحت لهم قلبي فما لبثوا أن نصّبوا بعلهم في قدس أقداسي

قيل لاعرابي : « ما بال المراثي أجود أشعاركم ؟ » فأجاب : « لأننا نقول وأكبادنا تحترق » .

هذه الحرقة كوت قلب نعيمه وغير نعيمه من الأدباء المهاجرين . وقد عبّر عنها جبران بقوله :

« ما أظلم من يعطيك من جيبه ليأخذ من قلبك » .

المثل الثاني الذي ضربه « لبنان الشاعر » للنثر الرديء في شعر المهجر هو قول فرحات :

يقولون عمّن أخذتَ القريض وممن تعلمت نظم الدررْ
وأين درست العروض وكيف تلقيت هذا البيان الأغر
وما كنت يوماً بطالب علم فإنا عرفناك منذ الصغر

حكاية حال سردها فرحات في واجهة ديوانه « الربيع » ببراءة الطفل الذي يبرر سلوكه أمام والديه ، وبصراحة الجندي الشجاع الذي يروي لسائليه كيف ربح المعركة .

عرفت الجالية العربية في البرازيل الفتى فرحات زجالاً لا يحسن قراءة الفصحى فإذا به بعد سنوات يقرض الشعر كأحسن من قرضه من الشعراء خريجي المعاهد العلمية الكبرى . فتألب الفضوليون عليه يرهقونه بالأسئلة عن سرّ هذه المعجزة ، وتعلقت علامات الاستفهام على كل قصيدة نشرها . هذا الفتى الأمي ، من أين أتاه العلم باللغة والعروض ؟ هل نزل عليه وحي ؟ لذلك ، عندما همّ بطبع دواوينه ، افتتح الجزء الأول منها بالبيان الذي يتوق الناس إلى قراءته قبل كل قصيدة . فأوضح لهم فيه أين وكيف حصّل العلوم :

فقلت : أخذتُ القريض صبياً	عن الطير وهي تغني السحَرْ
وعن خطرات النسيم العليل	يمرّ فيشفي عليـل البشر
وعن نظرات الحسان اللواتي	يكدن يغلغلنها في الحجـر
وعن عبرات الحزانى الضعاف	ففي عبرات الحزانى عِـبر
وذا الكون جامعة الجامعات	وذا الـدهر أستاذنا المعتـبر
وفي كل ما يبصر المبصرون	دروس تُنار بهن الفكَـر

أي اعتراض وجيه يقوم في وجه هذا الشعر المشرق المتدفّق عن طلاقة ينبوع صافٍ سخي ؟ أكونه خلا من تهاويم الخيال ؟ استمد الشاعر شعره من واقع حياته ونغّمه تنغيماً لا غبار عليه ، ولم يحتج إلى تجميله بزخارف الخيال لأنه وجد في يديه من مادة الصدق وألوان الواقع ما يكفي للبناء الزاهي الجميل .

وهنا نعود إلى الاستنجاد برأي الدكتور مندور ، وكأن ما في قلبنا

جرى على لسانه :

« الأدب أدق وأرهف وأعمق وأغنى من أن نخطط له طرقه . فمحاولة أخذه بالمعادلات جناية عليه . قد يروقنا لصياغته أو لسذاجته على خلوّه من عناصر أخرى كالعاطفة والخيال . فينحصر جماله في خلق الصورة أو التأليف بين العناصر الموسيقية في اللغة » .

وشعر فرحات الذي أوردناه هو من هذا النوع الفطري الجذاب في صياغته وموسيقاه وصوره ، ولا حرج عليه ان لم يتسع موضوعه للخيال البعيد . ولكن ليس كل كلام لا خيال فيه هو من النثر الرديء ... بول فاليري الشاعر الرمزي الأكبر شبّه النثر بالمشي والشعر بالرقص ولم يقل إن الشعر كله طيران . فالشاعر كالراقص يجب أن تمسّ رجلاه الأرض من حين إلى حين .

* * *

ونصل إلى الطعنة الأخيرة التي وجهها « لبنان الشاعر » إلى أدب المهاجرين : إنهم اتخذوا ضعف اللغة مذهباً لأنهم يئسوا من إصلاح لغتهم الضعيفة . ولكن أين مواطن الضعف؟ لم يدلّنا عليها . يكفي أن يتكلّف الناقد نظرة اشمئزاز إلى ذلك الضعف ، نظرة عابرة لا تلزمه بشيء ، ليوهم الناس أنه من جهابذة البيان المتمكنين من علوم اللغة وآدابها ، الغيورين على سلامتها من كل لحن ورطانة ... [1]

كلام كهذا ، ملقى على عواهنه ، أحرج مرة الأديب المهجري الرصين نظير زيتون فكتب هذه العبارة (التي لا نتبناها) : « أدبنا شق الصخور . ثم نما وسمق ونضجت ثماره في حرارة الشمس وزئير العاصفة وتناغم النسيم وتساوق فصول الحياة . أمّا أدبهم ... فهو كتلك النباتات الصالونية التي لا تعيش إلاّ في الظل فإذا أشرقت عليها الشمس لفحتها . إنه كالعليل

١ راجع في الفصل الرابع رسالة الأدب المهجري إلى اللغة العربية .

الذي يتنشق الاكسجين الصناعي بأنبوبة ليعيش . »

كلام كهذا الكلام حمل جبران على أن يصيح : « لكم لغتكم ولي لغتي . لكم جثث محنطة باردة جامدة تحسبونها الكل في الكل . ولي أجساد لا قيمة لها بذاتها بل قيمتها بالروح التي تحل فيها . لكم منها القواميس والمعاجم والمطوّلات . ولي منها ما غربلته الأذن وحفظته الذاكرة من كلام مألوف تتداوله ألسنة الناس في أفراحهم وأحزانهم . لكم منها البيان المرصوص ولي منها أسراب من الشحارير والبلابل تتطاير وتتنقل مزقزقة بين حقول الخيال ورياضه .

لكم أن تلتقطوا ما يتناثر خرقاً من أثواب لغتكم . ولي أن أمزّق بيدي كل عتيق بال وأطرح على جانبي الطريق كل ما يعيق سيري إلى قمة الجبل . أقول إن الحياة لا ترجع إلى الوراء . وإن أخشاب النعش لا تزهر ولا تثمر » .

كلام كهذا الكلام حمل نعيمه على القول : « يطالع ضفادع الأدب ما نكتب وننظم فيقولون نعمّا الأفكار ونعمّا العواطف ونعمّا الأسلوب ولكن اللغة ... كأننا في ما نكتب وننظم نلقي عليهم دروساً في اللغة وكأن لا همّ لنا إلاّ أن نتحاشى الخطف والاشباع ... الإنسان أوجد اللغة ولم توجدِ اللغة الإنسانَ فهي تحيا به لا هو يحيا بها . وهي تتغيّر بتغيّر أطواره وهو لا يتغيّر بتغيّر أطوارها . هي آلة في يده وليس هو آلة في يدها . له أن يديرها بعاطفته وفكره فيستعمل اشتقاقاً ما سبق لغيره استعماله ، وان يصوغ كلمة لم ينقلها القاموس عن لسان أبناء البادية ، وأن يصوّر مجازاً لم يتصوره كاتب أو شاعر قبله . ولو قامت عليه قيامة ضفادع الأدب . »

ولكن نعيمه استدرك في موضع آخر : « ان عنصر الجمال هو أول عناصر الشعر . والجمال لا يشرق إلا معتمداً على ركنيه : المعنوي والشكلي . فإذا تداعى احدهما انهار البناء الجميل كله . ولولا ان

المجيدين من شعراء المهجر قد تفادوا الركاكة والعبث بحرم اللغة والأوزان والقوافي ، لما جاز لنا التحدث عن شعرهم ولا جاز لنا التوقف عند نزعاتهم الفكرية » .

ما رأي النقاد في هذا الجواب المفحم ؟ ان كان شعر المهجر ركيكاً ضعيفاً فلماذا تؤلفون الكتب وتلقون المحاضرات والاطروحات تعليقاً عليه ؟ أمَا كان اهماله أوجب وأرفق بكم وبنا ؟

وقال الدكتور محمد مندور : « أخذنا على شعراء المهجر ما نسميه ضعف اللغة العربية في اسلوبهم ، وهذه تهمة يجب أن نقلع عنها لأنني كلما أمعنت النظر في ألفاظهم وتراكيبهم لم أجد لها مثيلاً في شعرنا الحديث من حيث الدقّة والقدرة على إثارة الإحساس . إن أخطأوا في الصرف والنحو فهذه أشياء نادرة ، لها نظائرها عند أكبر الكتّاب . إنما الذي يعيب الاسلوب هو عدم التحديد والعجز عن الايحاء . وتلك عيوب لا وجود لها في شعرهم » .

« أما استخدامهم للالفاظ المألوفة فلا أرى فيه موضع ضعف بل قوة ، لأن الألفاظ المألوفة (ولا أقول المبتذلة) هي التي تستطيع في الغالب أن تستنفد إحساس الشاعر . كما أنها أقدر من الألفاظ المهجورة على دفع مشاعرنا إلى التداعي . وقد كثر استعمالنا لها في الحياة فتحددت معانيها وتلوّنت في نفوسنا ، فحملت شحنة عاطفية . وهذه صفات من أولى خصائص الأسلوب الشعري ، بل أسلوب الأدب بوجه عام » .

بهذا المنطق العلمي المبين يُدافع الدكتور مندور عن الشعر المهجري دفاع المؤمن بقضيته ، المتطوع لإحلال العدالة محل التهم والريب . وقد ينفد صبره (كما قد يكون نفد صبركم) من عناد قوم لا سبيل لإقناعهم بمنطق أو بحجة فيتساءل بحرارة وتحدّ : « إن كان أدب المهجر ضعيفاً منهوكاً أين نجد قوة النفس ؟ أين نجد القدرة على الانفعال ؟ أين نجد توثب القلب ووميض العقول ؟ أين نجد نبض الحياة ؟ » .

لا تتعب يا سيدي الدكتور ولا تجادل المتعنتين ، بل قل لهم ما قال جبران : « ماذا أقول في المقعدين الذين يكرهون الراقصين ؟ في الثور الذي يحبّ نيره ويتهم الوعل والظبي والايل بالتمرد ؟ في الأفعى العتيقة الأيام التي لا تستطيع أن تخلع جلدها فتعيّر جميع الحيوانات بالعري وقلة الحياء ؟ » .

ولا تعتب يا سيدي على « لبنان الشاعر » ، إنه شاعر حقاً ولكنه ناقد باطلاً . فليته ترك الحقل الشائك للمجرّبين في نزع الاشواك وبقي في الروضة الفيحاء التي وهبها الله لأمثاله الشحارير ، بين العطور والانداء والأنسام .

كل إنسان ميسّر لما خلق له . وعلى الموهوب أن يحصر عمله في حدود الفنّ الذي يحذقه والوجه الواحد من وجوه الإبداع الذي يحسنه . فان جاوزه إلى غيره عجزت موهبته عن العطاء .

٢ـ رأي الدكتور طه حسين

ومما يستوقف النظر ويسترعي الانتباه أن عبارة لبنان الشاعر « آنس شعراء المهجر ضعفهم في اللغة ويأسهم من إصلاحها فلم يجدوا بداً من أن يتخذوا هذا الضعف مذهباً » وردت بحرفها في كلام الدكتور طه حسين عن ايليا أبو ماضي . فكأن « لبنان الشاعر » انتحل الرأي وانتحل أيضاً الكلمات المعبّرة عنه ، ثم تفضّل فعمّمه على جميع شعراء المهجر لأنه — في اعتقاده — في مأمن من الشطط . توكـأ على ساعدٍ متين ، على رأي لا يخطئ أبداً في لغة ايليا أبو ماضي ، ومتى صدّق هـذا الرأي في أشهر شعراء المهجر ، صدق فيمن دونه شهرة ومنزلة في الشعر .

وها هو الكلام المنسوب إلى الدكتور طه حسين :

« لستُ أزعم أن لغـة الشاعر رديئة أو منكرة . ولكنها تقارب الرداءة أحياناً حتى توشك أن توغل فيها إيغالاً . وليكن مصدر ذلك ما يكون ، ولكنه شيء واقع لا نستطيع إلاّ أن نلاحظـه ونسجّله آسفين . ذلك أن الشاعر مجيد حقاً . خصب الذهن نافذ البصيرة ذكي القلب متقن الفهم لما يريد أن يقول ، موفّق إلى إجادة التصوير لما يجب أن يصوره . فكان خليقاً أن تؤاتيه مع هذه الخلال نغمة صافية عذبة

تعينه على إظهار ما في شعره من قوة وروعة وجمال ليس إلى الشك فيها سبيل . ولعل الشاعر نفسه آنس هذا الضعف في لغته ، ولعله حاول أن يصححه فلم يستطع ، ولعله لمّا استيأس من هذا الإصلاح لم يجد بدّاً من أن يتخذ هذا الضعف مذهباً . »

ويزيد إلى ذلك قوله :

« إنه مصحّح لمعانيه محقّق لها لا يكاد يفسدها أو يخطئ فيها . يتناول المعاني والأغراض التي سبقه اليها المتشائمون والمسرفون من القدماء والمحدثين فينفخ فيها من روحه القوي ويكاد يفرض شخصيته فرضاً . »

أما هذه الحملة — المتأرجحة بين المدح والقدح وبين الافتراض والتمني — لا نقول ما قاله الأستاذ حبيب الزحلاوي في كتابه « أدباء معاصرون » حين علق على رأي الدكتور الناقد بما يلي :

« ان أبو ماضي كما يعرفه الأدباء واحد من ثلاثة شعراء هذا العصر يطوّع عناصر الحياة لفنّه الجميل فيجعله خالداً ببساطته وصدقه وموسيقاه وهو المبرّز الوحيد من نوعه ، والموفور الكرامة ، لا يدلف إلى النقاد متزلفاً ولا يستجدي المديح والتقريظ من أحد . عمدته في حياته قوّته وفنّه وكرامته . فلو انه فرّط بقسط زهيد من هذه الكرامة وقدّم ديوانه (هدية للدكتور الجليل الاستاذ طه حسين عميد كلية الآداب في الجامعة المصرية والعبقري العظيم) لصحّ ان ينظر اليه كشاعر وان يدعو الذين يعنون بالشعر العربي الحديث أن يدرسوا شاعريته ، كما دعاهم إلى درس شاعرية فوزي المعلوف درساً دقيقاً مفصلاً ليروا كيف نشأت وكيف تطورت وكيف انتهت بصاحبها إلى هذا الحظ العظيم من الإجادة والاتقان . »

نحن لا نقول هذا القول ولا نقف موقف المحامي الموكل بالدفاع عن ايليا ابو ماضي ، فالمتهم في غنى عن خدماتنا ، ولو تصدّينا للدفاع

لخانتنا الجرأة في حضرة عميد الأدب وإمـام اللغة . فلا نناقش ولا نعارض في قضية لغوية عدّتنا فيها جد هزيلة ، بل نبوح بهمسات لجلاجة تخرج من أعماقنا لتضع أمام الدكتور ، بكل احترام ، علامات الاستفهام .

لا نفهم كيف يكون الشاعر مجيداً وموفّقـاً في تصوير مـا يجب أن يصوّره بلغة ضعيفة ؟ هل من رسّام يجيـد التصوير بألـوان رديئة ؟..

كيف تجلّت للنـاقد القوة والروعة والجمال في شعر أبو ماضي تجلياً لا سبيل إلى الشك فيه ، حين لا لغة تعينها على الظهور ؟

كيف يستهوينا ويسكرنا شعر خلا من النغمة الصافية العذبة ، وشاعر اتخذ الضعف مذهباً ؟

إن شعر أبو ماضي كما هو يا سيدي هو الشعر الذي نتذوقه ونحبه . ولا جدال في الذوق وفي الحب . فنحن العامة نؤمن بحواسنا الروحيـة أكثر مما نؤمن بقواعد النحو والصرف ، ومتى أشجانا وأطربنا شعرٌ حكمنا بأنه مستجاد وذهلنا عن كل شيء إلا عن الشجو والطرب .

نحن العامة لا نحفظ أبلغ الأشعار لغة ، بل أبلغها فكرة وحكمـة وعاطفة . فنحن نردد ونحب هذا البيت :

وإنما الأمم الأخلاق ما بقيـت فإن هم ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ولا نصغي إلى من يقول لنا إنه يشكو ضعفاً في قوله عن الأمم هم وذهبوا .

ونردد ونحب هذا البيت :

وما حب الديار شغفن قلبي ولكن حبّ من سكن الديارا

ولا نسأل ناظمه لماذا ألصق شغفن بالديار وهي من حق الحب الذي تركه دون خبر .

ونحن نفاخر بهذا البيت :

نبني كما كانت أوائلنــا تبني ونفعل مثلما فعــلوا

ولا نحاسب الشاعر على تأنيث كلمة أوائلنا مرتين قبل تذكيرها مرةً في فعلوا .

ونردد ونحب هذا البيت :

إن العيون التي في طرفها حَوَر قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

ولا نحاسب الشاعر على كلمة طرفها بدلاً من طرفهنّ ما دام الضمير راجعاً إلى عيون يقتلن ويحيين .

ونحن العامة لنــا منطق ساذج . نعلم أن الشعر لا ينهض إلاّ على قائمتين : المعنى الموفق واللفظ الموفق . فان مشى بقائمة واحدة أعياه المسير وغشي عليه قبل بلوغ الشقة . أما ذلك الشعر الذي يجوب الآفاق ويقطع البحار ، من قارة إلى قارة ، ويصلنا منتصب القامة ، شديد الساعد ، قوي النبرة ، طويل النفس ، تنبض بهجة الحياة وبسمة التفاؤل من أساريره ، ذلك الشعر ليس بأعرج ولا بكسيح ، بل يمشي على قائمتيه : الابتداع في الفكر والافتنان في التعبير . ولولا ذلك لما استوقفنا وأثّر فينا .

يقول كروتشيه : « على الناقد أن يقف أمام مبدعات الفنّ موقف المتعبّد لا موقف القــاضي ولا موقف الناصح » . ويقول الدكتور

مندور : « لا نستطيع أن نتطلّع إلى تعريف أو تقدير أثر أدبي أو قوته ما لم نعرّض أنفسنا أولاً لتأثيره ، تعريضاً مباشراً ، تعريضاً ساذجاً » .

إذن فنحن على صواب في تقديرنا شعر أبو ماضي بمعيار الإحساس بمضمونه . وكم اتفق لنا أن تأثرنا بكلام خطيب يخطئ في قواعد اللغة وطرق اللفظ أكثر مما تأثرنا بخطيب فصيح اللسان سليم البيان ، وكم رحنا نتمنى لو كان الخطيب الأول أفصح لساناً ولغة ، ولكن لم ننس ساعةً أنه أعطانا جوهر البيان ولم يحرمنا إلاّ من القشور . إن الشعر هو غير العلم . ومن أراد أن يتذوّقه بحاسّة علمية كان كمن يمضغ الوردة بدلاً من أن يتنشقها .

إن ابو ماضي لم يسقط قيمة المبنى من حسابه في ما نظمه من الشعر . والدليل هو قوله في مقدمة كتبها لديوان نعمه الحاج ، حيث قال :

« لا يصير الشاعر شاعراً حقيقياً حتى يستنبط ويبتكر . أمّا متى يصير فأمرٌ موقوف على قوة شاعريته ومقدار عبقريته . لكل شاعر آيته كما لكل نبيّ معجزته . وليس الابتكار ان يعدل الشاعر عن الرويّ الواحد والعروض الواحد في القصيدة إلى أكثر من رويّ وأكثر من عروض كما يفهم بعض المعاصرين خطأً . إن هذه الطريقة قديمة ، طرقَها شعراء الأندلس وتوسّعوا فيها ، ولكنها لم تصنع من غير الشاعر شاعراً . هذا مما يثبت ان السرّ في المعاني لا في المباني . فاذا كان المعنى جميلاً مبتكراً ظهر جماله وبانت جدّته للعيون . على ان المعنى الجميل يستلزم المبنى الجميل . فما افتتن الناس بالزهرة إلاّ لأنها تجمع إلى الأريج الزكي التكوينَ الجميل . »

قال نعيمه : « أنا أبحث في كل شعر عن نسمة الحياة ، فإن

عثرت عليها أيقنت أنه شعر . ومتى أيقنت أخذت أميّزه باتساع مداه ، بعمقه ، بعلوه ، بانفراج أرجائه . وبعد كل ذلك أفحص عن سرواله الخارجي . دقّة التّركيب . حلاوة الرنة . طلاوة الألوان . وآخر ما أعيره انتباهاً هو الأوزان والقوانين العروضية والقواعد اللغوية » .

وقال العقاد : « إن شرط الأديب أن يكون صاحب موهبة في نفسه وعقله لا في لسانه فحسب . هو الذي تسأل نفسك بعد قراءته ماذا قال ، لا أن يكون سؤالك كله كيف قال ؟ »

حتّى صلاح لبكي الذي شدد النكير على شعراء المهجر ، قال عنهم في « لبنان الشاعر » : « انهم ثاروا على سلاسل التقاليد التّي كانت تهيض الأجنحة وتعقم الفكر واتبعوا في شعرهم حادي الشعور وحده . وكفى الشاعر الحقيقي فضلاً أن يعرف نفسه ويتغنى بحياته مهما ذهب اليه أسلوبه ومهما ارتدت لغته من أثواب . »

وكتب نزار قباني : « علينا أن نقرأ القصيدة كما ننظر إلى القمر بطفولة وعفوية واستغراق . فالقمر ، هذا الينبوع المفضض الذي يذرّ على الأكوان جدائل الياسمين ، يحدث لك ، ولي ولكل إنسان حالة حبيبة ملائمة . إنك تفتح قلبك له وتغمس أهدابك في سائله الزنبقي دون أن تعرف عن هذا الجميل أكثر من أنه قمر . ولو اتفق أن أوضح لك فلكي سر القمر ، جواءه وجباله الجرداء ، وقممه المرعبة ، وأدار لك الحديث عن معادنه ودرجة حرارته ورطوبته ، إذن لأشفقت على قلبك وأسدلت ستارتك » .

هذا ما يقوله شعراء العرب . وقد دفعنا قصر الباع إلى الاستعانة بما يقولون . على أنهم دون شعراء الغرب تأليهاً للشعر . يقول شيكسبير : « تذهب العواصف بأقوى التّماثيل ، ولكن أذهان الناس تحتفظ ببيت من الشعر مكتوب على قاعدته » . وأندره جيد ينسب

إلى الشاعر العصمة والقدرة على اجتراح العجائب : « نحن الشعراء نرى العالم كما يجب أن يكون . حتى الأشياء الدميمة تجهد لأن تكون ما لا تستطيعه — رائعة الجمال » . وبول فاليري يتظاهر بكره الجماهير المعجبة به ، فيقول ... ويا لتواضعه : « إنها تيار جارف يُغرق المواهب ويغمر معبدنا الداخلي ويجعل الفرد منا شيئاً من العالم بدلاً من أن يكون العالم شيئاً منا » ... نقرأ هذا فنبادر إلى الاستغفار من إيليا أبو ماضي الذي ظننا فيه العنجهية عندما قال :

إن الكواكب في منازلها   لو شئت لاستنزلتها كَلِما

(٣) أحكام الاستاذ عزيز اباظة

بعد أن شاع رأي الدكتور طه حسين ، قرأنا الكثير مما كتبه الأدباء المقيمون عن أدب المهجر ، تعظيماً لشأنه وإشادة بمحاسنه ، ومما كتبه نقاد محترمون تناولوه بالغمز والتجريح وجردوه من كل قيمة فنية أو إنسانية . وهناك شعراء لامعون لم يتحمسوا له لأن أرواحهم لم تنسجم مع روحه وأسلوبهم يغاير أسلوبه .

لقد هاجمه الشاعر الكبير زعيم الشعر التمثيلي الاستاذ عزيز أباظه بلباقة شعرية ، فلف يده بقفاز حريري قبل أن يصفعه ... وبعد أن قال عن « بلابل المهجر التي حلقت في أجواء لم يخفق فيها جناح عربي ، إن شعرهم امتاز بالتأمل في الحياة وفي الطبيعة بإرسال الفكر وراء كل خفقة من خفقات الكون أو خالجة من خوالج النفس ، ألصق بهم تهماً عديدة أثارت قلم الاستاذ الكبير عباس محمود العقاد إلى الرد على بعضها في مقال نقلته صحف لبنان .

هدفت حملة الأستاذ الجليل على الأدب المهجري إلى شكلـــه وإلى مضمونه فقال عن الشكل :

« إن أسلوبهم لا شية فيه للبلاغة وحسن السبك . صناعته البيانية تزورّ عن الذوق العربي السليم . لم يفتحوا آفاقاً جديدة في الفن عجز عن

الصعود اليها إخوانهم في لبنان . فالأدب المهجري لم يتبلور بعد ولم يتخذ له صورة واضحة المعالم بحيث يفرد له أثر بعيد المدى في تطور الأدب العربي المعاصر »[1] .

وعلى هذا رد الأستاذ العقاد بقوله : « إن الأدب المهجري عمره أربعون سنة على الأكثر ، وعلينا أن نضعه أمام أربعين سنة تقابلها في موازين الآداب العربية فلا يخرج من المقابلة خاسراً . لأن عدد المجيدين من شعرائه وكتّابه لا يقل عن عدد نظرائهم في بيئة تضارعها ، مع الفارق بين أناس تؤاتيهم الأسباب في مواطن اللغة ، وأناس يحملون مشعل اللغة إلى سماء لا يضاء فيها بغير ما يضعونه من عصارة القريحة وعتاد الرزق وفروض الحياة »[2] .

« وقد قرأت لشعراء المهجر شعراً يوضع في جانب الطراز المختار من شعر اللغة كلها ، ولا سيما القصائد الغنائية ، قصائد الغزل والحنين والأمثال السائرة . إننا لا نبرئ شعر المهجر من العيوب فما كان لأدب إنساني قط أن يبرأ من عيوب تلازم حسناته في كل لغة من اللغات . وإن ضعف الأسلوب فيه لا يزيد كثيراً على الملحوظ من قبيله في قصائد الشعراء المقيمين غير المهاجرين . إن الرجحان في جانب الحسنات » .

كان هذا الجواب المنطقي المتزن يغنينا عن الاسترسال في الدفاع ، لولا أن بعض السهام التي أطلقها الشاعر النقاد لم يردها الأستاذ العقاد إلى كنانتها .

ليت الأستاذ أباظه أدمن الاطلاع على الشعر المهجري [3] ، إذاً

١ يراجع الفصل الثالث : « خصائص الأدب المهجري » .

٢ جريدة أخبار اليوم .

٣ يسعدنا أن يتحقق ما تمنيناه على شاعرنا في الطبعة السابقة ، وان يصبح اليوم أكثر دراية بالشعر المهجري بعد ان اطلع على دواوين معلوف وفرحات ورشيد ايوب وغيرها ، فعدل=

لعلم أن أسلوبه لا يفتقر « إلى البلاغة وحسن السبك » لأن شعر القروي وفرحات ونصر سمعان وحسني غراب يكفي لدحض التهمة ويرضي أشد المحافظين تعنتاً . أما شعر زملائهم كمعلوف وأبو ماضي وعريضه ونعيمه فقد طبع البلاغة وحسن السبك بطابع التجديد ولم يزورّ عن الذوق العربي ، بل حداه إلى مسايرته في الإبداع . فأرهف الذوق العربي حسه واستجاب للحداء الساحر حتى أصبح يمجّ « بلاغة » التقليد و « حسن » السبك القديم .

قال القروي في قصيدة فتح أورشليم عندما دخلها الجنرال اللنبي وجثا أمام قبر المسيح هذا البيت الرائع :

لله أورشليم ، عند جلالها ما أشبه المنصور بالمكسور

ثم أضاف :

من منبىء السوريّ وهو مشوّه وجه الأباء لكثرة التعفير
ان الألى سجد الملوك لبأسهم سجدوا بسوريا أمام قبور
عجباً لسوريّ يحقّر نفسه والخلق يسجد للتراب السوري

وقال في الذكرى الألفية للمتنبي شعراً ، نخال روح المتنبي حلّت فيه :

نبيّ ولو ضجّت شيوخ ورهبان وهل بعد إعجاز ابن كندة برهان؟

= رأيه السابق بشعر المهجر واعلن هذا التعديل على رؤوس الاشهاد أمام لوحة التلفيزيون في حوار دار بينه وبين الاستاذ وديع فلسطين في شهر تموز سنة ١٩٦٢ . وقد تسجل ذلك الحوار في القاهرة لكي يعرض في الخليج العربي .

وكلّ كلام يرفع النفس مُنزَل ... وكل مقال يفسد العقل بهتان
ولا فرق في الآيات إلا بأنها ... لذي العقل آدابٌ وذي الجهل أديان
بشاعرها فلتفتخر كل أمة ... يهددها بالموت والعار طغيان
إذا طُويت أعلامها فهو بيرق ... وإن همدت أنفاسها فهو بركان

ثم يخاطب أبا الطيب :

صحا الدهر فاستسقاك كأساً جديدة ... مضى الف عام قبلها وهو سكران
عيالٌ على ذكراك ذكرى ملوكهم ... وأسماؤهم فيها على اسمك ضيفان
خلدت فخلّدت الزمان وهكذا ... تموت وتحيا بالنوابغ أزمان

هل من يقول إن هذا الشعر ازورّ عن الذوق العربي السليم أم أعوزته البلاغة وحسن السبك ؟

أما فرحات فالرومانطيقية في شعره طلية فتانة ونزعتها انسانية . رأى الراهبة الحسناء تصلي أمام تمثال العذراء فقال :

أطلّت من الدير عند الضحى ... وفي ناظريها بريق الأسى
فتاة كأن الإلـه براها ... ليجعلها فتنة للنهى
ولكنها في صباح الحياة ... علا وجنتيها شحوب المسا
رماها الزمان بهجر حبيب ... فداوت ضلال الهوى بالهدى
تصلّي فتحسبها دمية ... من العاج ساجدة للدمى
وتلثم تلك الدمى بخشوع ... فيوشكن يلثمنها من جوى

وترى الراهبةُ زهرةً نبتتْ في أعلى الجدار ، لا تطالها يد ولا يتمتع بأريجها عابر سبيل ، كأنها راهبة مثلها فتقول لها :

وانت تعيشين في عزلـة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلقَ الله هذا الجمال ومَن يتنشق هذا الشذى ؟

*

وفي الليل سارتْ إلى خدرها وفي قلبها مثل نار الغضـا
ولمّا نضَتْ ثوبها كي تنـام تبيّن من حسنها مـا اختفى
فمدّت إلى صدرها كفّهـا وقد فتّح الورد تحت النـدى
وقال لهـا قـائل صـامت كأن الذي قيل رجع الصدى
« وانتِ تعيشين في عزلـة فلا في السماء ولا في الثرى
لمن خلقَ الله هذا الجمال ومَن يتنشق هذا الشذى ؟ »

إنني أعتذر إلى السامعين عن ترديد شعر معروف . ولكني في هذا المقام وفيما يماثله مضطر للاستشهاد بنتاج شعراء المهجر ، لأن الحجة المستنزلة من أقوالهم هي أقدر الحجج على الإقناع . وسألجأ اليها كلما رغبت في الاحتكام إلى رأي السامعين .

ونصل إلى قوله : « إنهم لم يفتحوا آفاقاً جديدة في الفن عجز عن الصعود اليها إخوانهم في لبنان . وليس لأدبهم أثر بعيد المدى في الأدب العربي المعاصر » . فأقول إنهم فتحوا آفاقاً جديدة بلا شك في الأساليب وفي الأغراض . هم أول من استعمل أسلوباً تصويرياً يمور بالألوان الحية ويعجّ بالأنغام الشجية ويتوهج صدقاً وايماناً ويتنكب عن كل مألوف من الاستعارات والكنايات ليبدع سياقاً جديداً ، هو ذلك السياق الذي غدا معروفاً بالأسلوب الجبراني . وهم ارتفعوا بأغراض الشعر من المديح والرثاء والنسيب والوصف السطحي ، إلى التعبير عما وراء المرئيات من المعاني وإلى التوغل في مجاهل النفس الإنسانية والطواف في أجواء الكون على متن الخيال .

يؤيدنا في هذا القول كبار النقاد ، أصحاب المقامات العليا في الأدب ، في مصر وفي سورية وفي لبنان وفي العراق . حتى في الجزائر .

قال الدكتور محمد حسين هيكل : « ان أدباء المهجر طرقوا أبواباً لم يتعرض لها العرب من قبل إلا عرَضاً . لم يقف بهم التجديد عند الأسلوب فحسب بل تناول طريقة البحث وألوان الحس ودرجات الشعور ووسائل التأثير » .

وكتب الاستاذ محمد لطفي جمعه في مجلة الكتاب :

« اننا نحكم على الأدب العربي الصميم الذي كتبه بلغة الضاد جبران ونعيمه والريحاني وابو ماضي وغيرهم من أدباء المهجر والذي أودعوه خلاصة ذكرياتهم وحياتهم وحنينهم وأواصر المحبة التي تربطهم بأرضهم وقومهم ، وقد نظموا شعراً وكتبوا نثراً وأوجدوا فناً جديداً في مصر والشام . فعاد ذلك على القطرين بالتقدم في الفصاحة وسعة الخيال وحرية الفكر وقوة الارادة . وهذه أمسّ الصفات بالعنصر الانساني . »

وتفضل علينا الامير مصطفى الشهابي رئيس المجمع العلمي السوري بهذه الشهادة الغالية :

« انما أدباء المهجر ليسوا دون غيرهم حرصاً على سلامة اللغة وتشبثاً بقواعدها وبالصحيح من كلِمها . وان في أقلام بعضهم بياناً يحاكي البيان في أقلام كتّابنا البارزين . وحسبهم فخراً انهم خدموا العروبة والعربية في تلك البلاد البعيدة وادخلوا في لساننا معاني واساليب جديدة مع الاحتفاظ بموسيقى الاوزان والقوافي » .

وكتب الاستاذ خليل هنداوي : « للأدب في المهجر مدرسة ناضرة مستقلة بخصائصها عميقة بآثارها . وكما ندرس اليوم الشعر الأندلسي في أدبنا سوف ندرس غداً الشعر المهجري . إنه أحفل كل شعر بالالوان واللواعج والذكريات والنزعات الانسانية » .

ولما سألوه أيّ أديب عربي كان صاحب الأثر الأقوى في اتجاهك أجاب :

« الامام علي في الأدب القديم ، وأدباء المهجر في الأدب الحديث » .

وكتب الأستاذ رضوان ابراهيم في مجلة الأديب : « انطلق الشعر المهجري يجلجل في العالم العربي حاملاً كل مقومات التجديد في جرأة وصراحة وتحدّ متأثراً بالثقافة الاميركية ومحتفظاً بالروحانية الشرقية إزاء مادية الغرب . ثورة طاغية امتدت إلى ما وراء البحار وحوّلت مجرى التجديد في بلادنا » .

وقال الدكتور المرحوم أبو شادي : « بلغ الأدب العربي المهجري مكانة يعتدّ ويقتدى بها . وسيبقى مناراً حراً وهاجاً لأجيال واجيال لأن تقاليده عميقة كالجذور المتمكنة للأدواح والغابات السامقة الغناء . ومدرسته الأدبية بشطريها الشمالي والجنوبي تعدّ في الطليعة حقاً » .

وكتب الدكتور محمد مندور : « يجب أن نطرب للجمال . يجب أن نؤمن بالصدق . وشعراء المهجر يعرفون الصدق والجمال » .

وكتب الشاعر حارث طه الراوي : « أنا أجزم بقرائن قاطعة لا تقبل العكس بأن أدب المهجر قد أحدث انقلاباً شاملاً في الأدب العربي ، وهو الذي جعل بين الأدب والحياة صلة هي أشبه ما تكون بصلة الأمّ مع الرضيع » .

ونشر الأديب الجزائري أحمد مصطفى عماد الدين مقالاً في مجلة « باريس » ، جاء فيه : « قرأ الأدباء الجزائريون آثار أدباء المهجر فأعجبوا بها وأدركوا منذ ذلك الحين ان الأدب الحقيقي هو ما يعرب عن الشعور ويصف الحياة ومشاكلها . فنشأ الأدب الجزائري على غرار الأدب المهجري بأغراضه الانسانية الواسعة ومقاصده الاجتماعية الشاملة » .

أما القول بأن شعراء المهجر لم يبرّزوا على اخوانهم في لبنان فالتبريز

شيء لم يدّعوه هم ، بل نسبه اليهم أدباء مفكرون من غير المهاجرين . لم يصدر عن اللبنانيين المغتربين ما ينم على الاعتقاد بتفوّقهم على إخوانهم المقيمين . ولكن ما ذنبهم ان كان الدكتور مندور يؤمن بهذا التفوق ويتساءل في كتابه « الميزان الجديد » لماذا استطاعوا ما لم يستطع غيرهم ؟ ما ذنبهم إن كان شاعر الأرز شبلي ملاط المحسوب من دعائم الشعر في لبنان يرد على سؤال وجهه اليه صاحب مجلة الورود بقوله : « الجوّ عابق بشذا الشعر المهجري وأخشى عند المقارنة أن ترجح كفّة من في بلاد الاغتراب على كفة من في الديار » .

إن احكام الأستاذ عزيز أباظه لا تعارض رأينا نحن المهاجرين قدر ما تعارض آراء اخوانه في مصر : عباس العقاد . الدكتور مندور . أبو شادي . محمد حسين هيكل . اسماعيل أدهم . مصطفى السحرتي . محمد لطفي جمعه .حسن كامل الصيرفي . عبد الغني حسن . كمال نشأت . عبد المنعم خفاجي . صالح جودت . ابراهيم شعراوي . رضوان ابراهيم. حسن جلال العروسي وغيرهم . فليصفّ الحساب معهم أولاً .. يسهل عليه بعد ذلك الاتفاق معنا . أو فليقارن رأيه برأي الاستاذ وديع فلسطين الذي أذاعه في الصحف وزكاه بأعلى شهادة لإمام النقاد وسيد الدارسين للشعر المعاصر الاستاذ الخالد الذكر والاثر عباس محمود العقاد .

وقد كتبه لجريدة « وطني » بمناسبة صدور ديوان « حكاية مغترب » قال :

« حكاية مغترب : ديوان شعر مهجري للشاعر الاستاذ جورج صيدح وهو يعد أفخر ردّ مفحم على الحملة الجائرة العاثرة التي شنّها لفيف من النقاد على أدب المهجر . فإذا قال قائل ان شعر المهجر اعجمي المنتمى ، أخرسه جورج صيدح بديوانه الجديد الذي أهداه إلى كل عربي اللسان والوجدان . وإذا زعم زاعم ان شعر المهجر يزورّ عن الذوق العربي ، فان « حكاية مغترب » تقطع بزور هذه المقالة العوراء . وإذا

رمى شعر المهجر رامٍ بالركاكة واللحن ، فان في هذا الديوان المترف ادحاضاً لهذه الفرية النكراء . وصيدح هو القائل :

لو تعرف الفصحى مدى خدماتنا ضفرَت لنا من شعرها اكليلا

وهو كذلك القائل على لسان العروبة :

أنا فيها النبي والمتنبّي ما المعري ابو العلاء سوى ابني
بجناحيّ طار صقر قريش وبكفيّ صفّقتْ كف معن

فهذا الديوان البحتريُّ الديباجة ، المتنبيُّ المعاني ، المعريّ الطلعة هو ثمرة يانعة من ثمار وطن الفصحى ، رميت بذرتها في الوطن فأينعت في المهجر وطاب مذاقها . هو ديوان عريق الأصول العربية ، جديد القوالب الشعرية ، زاخر المعاني ، له في النفس وفي الاذن رنين دونه رنين الذهب الابريز .

ولقد حدّثنا أستاذنا العقاد غير مرة عن شعراء المهجر فقال ان جورج صيدح من اشعرهم وانصعهم ديباجة واعظمهم وقوفاً على أسرار الضاد وأكثرهم تجديداً وأعلمهم بفن الشعر .

وقال ان شعره مفخرة للضاد في جميع أدوارها بما اشتمل عليه من آي التجديد والتجويد والسحر البلاغي والطرب الغنائي . وهذه شهادة حق يسوقها استاذنا العقاد في غير منّ أو مجاملة ، فقد تجاوز أدب المهجر عامة وشعر صيدح خاصة طور المجاملة والتشجيع بعد ما بلغ مبلغ الفحولة وارتقى القمم العوالي ، وهذا الديوان غُنم جديد للضاد في أوطان المهاجر وامصار العروبة جميعاً » .

أذكر في هذه المناسبة اني أرسلت من دار الهجرة إلى مجلة الأديب

آخر عام ١٩٤٧ قصيدة موضوعها « الكوكتيل على الشاطئ » وتوجتها بهذه العبارة : « إلى مجلة الأديب . أنموذج من شعر المهجر أتوسل به استطلاع رأي المقيمين بأدب المغتربين . فكم تاجر مغامر منزوٍ في مجاهل اميركا إذا خلا بنفسه غمغم بالشعر وحبس الصدى في صدره خشية الناقدين » .

وبعد ما نشرت المجلة القصيدة مع كلمة التقديم نشرت في عددها التالي [١] تعليقاً للشيخ سعيد تقي الدين جاء فيه :

« لو أني صاحب تلك القصيدة لما أعطيتها للمجلة إلاّ بعد أن يقبّل ألبير أديب يدي ، بطنها وقفاها . ويزرّر سترته ويهمس بخشوع (كثّر الله خير جنابك يا سيدنا) . وليعلم الشاعر أن « الكوكتيل على الشاطئ » تجلس الآن في مكان الخلود تحت زجاجة طاولتي . وأن « نقطة » رشحت من ذلك الكوكتيل وغاصت في رمال ذلك الشاطئ لهي أثمن من كل الأبحاث اللغوية التي تنكر عليه حق إغناء اللغة الفصحى بكلمات تحتاجها مثل مزّة وكوكتيل . وأخيراً هل للشاعر أن يعزّ لنا قصيدة ثانية وهل له أن يفهم أنه شاعر عظيم » .

تأملوا ما أكثر هذا الثناء على قصيدة قدّمها المهاجر للنشر بتواضع واستحياء . وهذه هي :

خطر الساقي فقلنا هاتها ... نحن نرضاها على علاتها
ربّ كاس زاد في لذّاتها ... أثرُ الأفواه في حافاتها . هاتها
طف ولا تمسح عن الكاس الشراب ... طبعته شفة الخود الكعاب
إن مزجناه سكرنا بالرضاب ... قبل أن نسكر من مزاتها . هاتها
هاتها ذوب لجين وذهب ... سلّطوا الثلج عليه فالتهب
خضخضوه فتلوّى وانسكب ... كسموط دردرتْ حباتها . هاتها

١ مجلة الأديب ، عدد شباط سنة ١٩٤٨ .

جمعوا الأضداد من شتّى الخمور وأداروا الحرب في طاسٍ تدور
فإذا الأرواحُ في النقع تفور فورة القهوة في مغلاتها . هاتها
هاتها تعكس أشباح الغروب في خليط من عصارات ترَوب
كلما غصّ بها حلق الطروب طلب التكرار من غصّاتها . هاتها
مالنا يحلو لدينا مُرّها ؟ تلك دنيانا ، وهذا سرها
خبرة اللذات طعماً شرّها ويل من ينفر من ويلاتها . هاتها
لا تقل ولّى زمان الطيّبات دونك البحر وهاك الغانيات
لم يزل في الرأس كوكتيل الحياة طافح الكاس ، بتذكاراتها . هاتها
هاتها وارفع بها عبْءَ السنين عن كهول مرحوا كاليافعين
إنما الساعة عند العارفين ساعة الكوكتيل في ميقاتها . هاتها

* * *

ليست القصيدة معجزة بل طريفة في الأسلوب وفي الموضوع ، فهي تصلح شاهداً على منهج الشعر المهجري وعلى تواضع أدباء المهجر ، لا شاهداً على استطاعتهم ما لا يستطيعه غيرهم من الشعراء . أما إن شئت الاستشهاد بمعجزة شعرهم ، فهو كثير ، تطفح به دواوينهم ، وما جئت إلى هنا لأتلو قصائد الدواوين . إنما يجدر بي أن أختار شاعراً واحداً منهم واقتصر على الاستشهاد بمقاطع قصيرة من شعره ليرى السامعون هل استطاع هذا الشاعر ما لم يستطعه غيره ، أخذاً برأي الدكتور مندور ؟ الشاعر المختار هو شفيق معلوف وموضوعه الشاعر :

لو كان ما في السماء يُلتهم لما ارتوى منه قلبه النهِم
يودّ والنيِّرات فائضة لو أن جفنيه تحتهنّ فم
ويشتهي والرجوم هاوية لو كان منها لروحه لقم
لا يأتلي يرمق السماء ، فهل ضاع له في طِباقها حلُم ؟
أمْ شام فوق النجوم آلهة فمضّه أن يعيش تحتهم ؟

تا الله كم شاعر أخي حُرق | يغصّ بالدمع وهو يبتسم
شمّ على الزهرة الأسى ووعى | ماقالت الكاس وهي تنحطم

ألا نجد في هذا الشعر ابتكارات في الصور والمعاني لم يُسبق اليها ؟ ما أبعده عن الصورة التي رسمها له الأستاذ أباظه بقوله : « إن شعرهم يكاد يكون إلى الترجمة المصفاة عن الشعر الاميركي أقرب منه إلى التوليد » . وما أبعده عن قوله الثاني : « إنهم غلب عليهم تصوير الأفكار الشائعة في مشاعر العامة » ...

وصف شفيق المعلوف كلب الصيد فقال :

تشمم كلب الصيد طيراً فأبرزت | نواجذه نصلاً وأظفاره مُدى
وساف خبايا العشب شمّاً ، بمخطم | تنسم خلف العشب ريحاً بها اهتدى
كأن له عيناً على أنفه ترى | خلال مهب الريح صيداً تلبّدا
نضى ذنباً صلب القناة مصوّباً | وشال برجل عاقفاً بعدها يدا
وحملق ، لم يطرف بعينيه طارفٌ | يلوك شجى في حلقه متردداً
ومال بإحدى مقلتيه يهيب بي | كعبد يُمنّي بالغنيمة سيّدا

إن هذا الوصف لم يترك حركة من حركات كلب الصيد في ظرف معين إلا سجلها بشعر رخيم رصين ، وفي دقة قد تعسر على كتّاب النثر . فلا هو مترجم عن الشعر الاميركي ولا هو شائع على ألسنة العامة . وهاكم وصفه للفلاح :

عرق الجبين همى على عينيه فانطبقت جفونه
هلا نظرت جبينه كم فيه لؤلؤة تزينه
ضنّت عليه بالدموع عيونه ، فبكى جبينه

إن مشهد العرق على جبين الفلاح هو عادي ، أما الشيء غير العادي فهو ما نثره الشاعر على جبين الفلاح من قطرات الخيال الخلاق .

ولشفيق معلوف خيال إذا لمس الصخرة استنبتها زهراً وان شاء ردّ الأزهار إلى أصلها الترابي :

حلمت بزهرتها القديمة صخرة ... حنت إلى عهد التراب الفائت
فتفتقت آمالها عن زهرة ... بيضاء لم تك غير حلم نابت
ينشقّ عنها الصخر وهي كأنها ... حي تململ في ذراع مائت

أمثال هذه الروائع متوفرة في دواوين الشعراء الآخرين . فمن شاء الاستزادة فعليه مراجعة الدواوين . فإن لم يجد لها «صورة واضحة المعالم وأثراً بعيد المدى في تطور الأدب المعاصر» كما قال حضرة الناقد ، فسرّ ذلك هو شيوع أساليبها وتعابيرها في أدب المقلدين فلا تبرز ميزتها اليوم كما برزت في عهد الأدب المهجري الأول .

انتهينا من الاعتراضات على أسلوب الشعر المهجري . وننتقل الآن إلى الاعتراضات على مضمونه . قال الشاعر العزيز :

١ – الحب عندهم يكاد يكون ثانوي القيمة في عناصر الحياة ، لا معنى عميقاً في أغوار الإنسانية .

٢ – الشك طابع شعرهم . يشكّون في كل شيء ولا يهتدون إلى شيء .

٣ – لا يأبهون بتعاليم الدين اقتداء بشعراء الغرب الذين لا ينظرون إلى الأديان نظرة ملؤها القداسة والاحترام .

٤ – الطبيعة في شعرهم ليست حارّة متدفّقة . أزهارها صناعية بلا شذا .

ونحن نقول :

الحب هو المادة الأولى في الأدب المهجري . حب لجميع مجالي الجمال ، لا لجمال المرأة فحسب . حب عميق في خلايا أرواحهم يتغذى بالقيم المعنوية لا بوليمة الشهوات . حب إنساني لا يقتصر على حب الأم والأب والولد والصديق والدار والأهل والوطن بل يبدأ بهذه وينتهي بحب الكون بأجمعه والبشرية بأسرها . وغزلهم يتغلغل إلى مطاوي النفس بعد أن يمر بظواهر الأشياء ، ويصدف عن جسم الحبيبة ليصور ما بخاطرها من ميول وما لنظرتها من معان .

عند إيليا أبو ماضي الحب هو صفة ملازمة لحياة الشاعر :

هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يعرفه يعيش لذاته

وهو علة الوجود وجوهر الدين :

إن نفساً لم يشرق الحب فيها   هي نفس لم تدرِ ما معناها
أنا بالحب قد وصلت إلى نفسي   وبالحب قد عرفت الله

وهو السبيل الوحيد لسعادة الحياة :

أحببْ فيغدو الكوخ برجاً نيرا   وابغض فيمسي الكون سجناً مظلما
ما الكاس لولا الخمر غير زجاجة   والمرء لولا الحب إلاّ أعظُما
كَرِه الدجى فاسودّ ، إلا شهبه   بقيت لتضحك منه كيف تجهّما
لا تطلبنّ محبة من جاهل   المرء ليس يحب حتّى يفهما

والحب عند الشاعر القروي سمو إلى ذروة المثالية :

أبغضت أعدائي فلـــم   أُتعِب ببغضي غير قلبي
وحببتهـــم ، فأرحتـــه   وربحتهم وسررت ربي
حبي ، لنفسي عائـــد   لا فضل لي أبداً بحبـــي

وإلى أمه يردّ هذه الفضيلة السماوية :

عدوي ، لا تظن الشهد شهدي   ولا المنّ الذي استحليت منّي
فلي أم حنـــون أرشفتني   سلاف الحب من صدر أحن
على بسماتهـــا فتّحت عيني   ومن لثماتها روّيت ســـنّي
حباني حبها فوق احتياجي   ففاض على الورى ما فاض مني

والحب عند فرحات هو آناً فداء للحبيبة المريضة :

خذوا نصف روحي واجعلوه بجسمها   على ان تعيش العمر جسماً بروحين
وأجروا مسيلاً من دمي في عروقها   وإن تطلبوا نور الحياة فمن عيني

وآناً هو تشوق إلى الخطيبة الباقية في الوطن تنتظر أوبته :

خصلة الشعر التي أعطيتنيهـــا   عندما البين دعـــاني بالنفير
لم أزل أتلو سطور الحب فيهـــا   وسأتلوها إلى اليوم الأخـــير
ان أعد بعد التنائي تبصريها   مثلما سُلّمتُهـــا يوم المســـير
فهي كالطفلة في حضن أبيها   لا ترى إلا حناناً وشعور

والحب عند فوزي معلوف رحمة وإحسان :

كن نصيراً للبـــائسين وكفكـــف   دمعهم تكسب الجزاء لذاتك

لست تُبكى إن متّ إلا بمقدا ر دموع كفكفتها في حياتك

فأين هي أغوار الإنسانية التي لم يصل اليها حب الأدباء المهجريين ؟

ونأتي إلى طابع الشك في أدب المهاجرين وذلك التساؤل الميتافيزيقي المستمر عن حقائق الوجود وعمّا وراء الطبيعة ، فنورد ما قاله المحامي البارع الأستاذ العقاد في هذا الصدد : « إن هذا التساؤل طبيعيّ في أناس في مثل نشأتهم وثقافتهم وأطوارهم وتقلبات حياتهم وقد انتهوا جميعاً من تساؤلهم إلى سماحة الدين ونبذ العصبية الذميمة . والميتافيزيقيا ليست باب الحكمة الوحيد الذي طرقه الشعراء المهجريون ، فإنهم نظموا حكمة الحياة فاجتمعت لهم من هذه الحكمة ذخيرة لا نظير لها في بيئة أخرى من بيئات الشعر العربي الحديث . والرسالة التي توازن خير الرسالات في أشعارهم أن أدبهم ايمان بالحضارة والصبر على المكاره والاقدام بالعزيمة الصادقة على الكوارث والأخطار » .

هؤلاء الذين نظموا حكمة الحياة من طريق التأمل والتساؤل والشك ، لا يعيبهم أنهم لم يهتدوا إلى شيء . لأن فلاسفة العالم – والمعري منهم – تأملوا وتساءلوا وشكوا قبلهم ولم يهتدوا إلى شيء . والأدب هو غير العلم . يدور على وصف الحياة لا على فضّ مشكلاتها . وهو أحياناً فوق الحقيقة العلمية لأنه يبرزها في حلة أجمل من حلة العلم المجرد . يكفيه أن يزين الحياة بتصوير الفتنة في مشاهدها ، وبدونه الحياة تبقى عاطلة .

أما الاستهتار بتعاليم الدين فلا نرى له أثراً في أدبهم – بل بالعكس ، نرى فضائل الايمان والتقوى والبرّ متجلية في أعمالهم وأقوالهم . وكل ما في الأمر أنهم متدينون لا طائفيون . لم يشعروا بحاجة إلى وسيط بينهم وبين ربهم ما دام ضميرهم يدلهم عليه وإيمانهم يفتح أمامهم أبواب السماء . وفي هذا يقول العقاد : « إن جوّ المهجر كله كان ولم يزل إلى

التشدد في المحافظة أقرب منه إلى التمرد والإنكار . وما ثار الأدباء المهجريون على العقيدة في جوهرها بل على السلطة التقليدية التي أعطت رؤساء الطوائف سلطات سياسية حكومية إلى جانب السلطات الدينية الكهنوتية » . ثم يقول في موضع آخر : « إن الأدب المهجري مفخرة للعربية جديرة بالاعجاب والاجلال . وإن روح الأدب المهجري كله من شماله إلى جنوبه ، هو روح الفنية القدسية . فما خلا قط من نظرة إلى الجمال وما خلا قط من نظرة إلى القداسة . »

الريحاني وجبران ونعيمه هم المتمردون على الدين في شرع القساوسة لأنهم لا يمارسون الطقوس ولا يؤمنون بها . فلنجُل جولة في أدبهم لنرى ماذا يشعّ منه : الايمان أم الإلحاد :

هذه هي الصلاة التي كان يتلوها الريحاني عند كل غروب شمس :

ياذا الجلال الأزلي	ألحفني بشيء من جلالك
ياذا النور الدائم	امددني بقبَس من نورك
ياذا القوة غير المتناهية	إبعث منها قواي
إني أفتح لك عقلي وقلبي	فلا تحرمني فيض مكارمك
ولا تبعدني عن ينابيعك	أنت إلهي ولا إلَه لي سواك

ولنعيمه صلاة مثلها :

كحِّل اللهم عيني بشعاع من ضياك — كي تراك
وافتح اللهم أذني كي تعي دوماً نداك — من علاك
وليكنْ بي يا الهي من لساني شاهدان — عادلان
واجعل اللهم قلبي واحة تسقي القريب — والغريب

ولنسيب عريضه أيضاً صلاة :

يا من سناه اختفى وراء حد البشر
نسيتك يوم الصفا لا تنسني في الكدر
يا غافراً راحماً آثام أمس وغد
معاذك أن تنقما حلمك ملء الأبد

أما جبران فهذه نظرته إلى الدين : « الدين هو ما أنار القلب . ومتى كان ضمير جاري كنور الشمس حياً نقياً وقلبه كوردة تتفتح في الفجر لتستقبل ندى السماء ، فلا فرق عندي إن ذكّر بين الدراويش أو سجد مع اليسوعيين أو اغتسل في نهر الكنج مع البوذيين » .

ولا نورد شواهد من أدب بقية المهجريين لأن الشبهات لم تعلق بذيولهم ولا لهم فلسفة دينية خاصة تضع إيمانهم موضع الشك . دينهم في القلب وفي المعاملة ، لا في الطقوس والفرائض الكنسية . ولا هي الرغبة أو الرهبة التي تحملهم على عبادة الله ، يقول نعيمه : «ما آمن مَن طمع بالجنة وخاف النار» ، أي عين ما قاله ابن الرومي في سالف الزمن :

أأحب قوماً لم يحبّوا ربهم إلاّ لفردوس لديه ونار ؟

يوقن الأستاذ أباظه أن أدباء المهجر انتفعوا بالأدب الأميركي ، واقتدوا بشعراء الغرب في قضية الدين . ولكن فاته العلم أن الشعب الاميركي — ولا نستثني أدباءه — هو أكثر الشعوب تمسكاً بشعائر الدين . والاقتداء به يعني التدين لا الاستهتار بالدين . عندما قام الشاعر القروي برحلة إلى شمال امبركا في العام الماضي (١٩٥٦) وطاف شهوراً في داخلية البلاد ، كتب إلي يصف انطباعاته بهذا النص : « هنا يرين الهوس الديني على العقول

حتّى ليتجاوز الخرافات الشرقية ويطفىء ما فيها من العلم والمنطق . فهنا تسمع بأم ترفض العلاج الطبي الناجع لولدها اتكالاً على الايمان وحده ، يموت الولد فلا تذرف عليه دمعة لأن تلك هي إرادة الله . التوراة في كل بيت عند كل سرير . ولا تكاد تخلو منها غرفة فندق . وقد هالني ما رأيت من سلطانها على العقول التي أوشكت أن تفقد به مرونتها وتعدم تفكيرها ، والتوراة أقوى وأفتك سلاح يتذرع به اليهود للفوز بمآربهم . وأول مآربهم فلسطين » .

شعب كهذا لا يمكن أن يكون قدوة سيئة لأدبائنا في تقديس الدين .

بقي علينا أن نبحث في التهمة الأخيرة : « الطبيعة في شعر المهجر ليست حارة متدفقة . أزهارها صناعية بلا شذا » .

غرف الأدباء المهجريون من حب الطبيعة حتّى الامتلاء فأصبحوا بحاجة إلى التدفق القاهر كلما كتبوا أو نظموا . فالطبيعة هي معشوقة أبو ماضي وملهمته ونجيّته ولها أكبر نصيب من أناشيد الحب في دواوينه :

وربَّ روح كروحي في بنفسجة ... وسنى أطلت على روحي تناجيها
ورب قطرة ماء لا غَنَاء بها ... شاهدتُ مصرع دنيا في تلاشيها

وقد بلغ الحب عند الشاعر درجة الغيرة الموجعة . فهو يتوجع لقطرات الماء محبوسة في ابريق ويرثي لحال الوردة التي انتزعتها أنانية الإنسان من الغصن لتسجنها في الإناء :

وشاء فأمست في الإناء سجينة ... لتشبع منها أعين وقلوب
فليست تحيّي الشمس عند طلوعها ... وليست تحيي الشمس حين تغيب
تحنّ إلى مرأى الغدير وصوته ... وتحرم منه ، والغدير قريب
تمشّى الضنى فيها وايار في الحمى ... وجفّت وسربال الربيع قشيب

أما الشاعر القروي القائل :

الفجر أختي والصباح أخي   والشمس أمي والنهار أبـي

فقد جرى حب الطبيعة مجرى الدم في عروقه وخلق فيه شعوراً نحوها لازمه طوال حياته كما يقول في مقدمة ديوانه :

« يتجسم شعوري بصلة القربى بيني وبين هذه الأكوان فأنعطف على الشجرة أعانقها وعلى الصخرة أضمها وعلى الزهرة أناغيها وعلى الموجة أتقلب عليها . وأمد ذراعي إلى السماء أحييها . وأبعث إلى الشمس بقبلاتي على أطراف بناني » . لنسمعه « امام الحبقة الناضرة » يرثي شبابه الذابل :

قد كنتُ مثلك أيها الحبق   لي منظر حلو ولي عبقُ
تهفو إليّ عيون من نظروا   وتهيم بي أرواح من نشقوا
قد كان لي ورق ولي زهَر   واليوم لا زهر ولا ورق
ملّ الأحبة رؤيتي ونبَت   عني العيون ومالت العنق

ولنسمعه وهو يتساءل :

أي وادٍ ولم اسامرْ حصاه   وهضاب ولم أباكر ذراها
وغصونٍ ولم أغرّد عليها   وورودٍ ولم أمصّ جناها

لا شك أن جوّ المدينة الصاخبة وفساد الهواء المشبع بالدخان وحقارة المسكن الضيق ، هي عوامل ثقيلة الوطأة على أبناء الجبل الأشم الأخضر الذين اعتادوا العيش الطليق الواسع في الرحاب والهضاب ، وهي التي تجعلهم

في المهجر يلجأون إلى أحضان الطبيعة ، يناجونها بالذكريات ويتغنون بالأمنيات ، ترفيهاً عن كربتهم وترويحاً لأعصابهم . وفي هذا الانتقال من الواقع إلى الخيال لا يهربون من الوجود بل يزحزحون غشاء الزيف عن وجهه ويندمجون في الحياة الطبيعية ساعات هي ساعات الاستجمام والاستلهام . « تتحدث اليهم الطبيعة بالصور فتجيبها أرواحهم بالاغاني » حسب تعبير طاغور .

لقد أجمع النقاد – ما خلا الاستاذ أباظه – على ان شعراء المهجر تفوقوا في شعر الحنين . ولو حللنا أسباب الحنين الذي تدفق من قلبهم على شعرهم لوجدنا ان افتقادهم جمالات الطبيعة التي خلّفوها وراءهم ، في لبنانهم ، هو العامل الأول ، ولشعرنا شعوراً أكيداً بأن قصائد الحنين التي نظموها والتي تهز الوجدان برهافتها ما كانت « ازهاراً صناعية بلا شذا » كما يقول حضرة الناقد .

إن حبهم للطبيعة التي ألِفوا مشاهدها في بلادهم هو الذي جعلهم يشكون أول ما يشكون الحرمان من مباهجها وينقمون على الحضارة المادية الطاغية على دنياهم الجديدة . ونقمتهم هذه تشتد كلما ازدادت تلك الحضارة ضخامةً وعتواً . فكأن الهجرة زادتهم التصاقاً بالطبيعة وكأن شعر الحنين اداة انتقام من البلد الذي أقصاهم عنها .

إن « الطبيعة الحارة المتدفقة » هي التي جعلت جبران يحنّ إلى صومعة بشراي وجعلت رشيد أيوب يناجي ثلوج صنين وجعلت نسيب عريضه يغازل « ام الحجار السود » وجعلت شفيق معلوف يتغنى بجارة الوادي ونهرها وكرومها وصيدح يتغنى بنهر بردى ومدرسة عنطورا :

طال بيَ الشوق ولجّ الظما   إلى ليالٍ في أعالي الكروم
يُغري بها البدرُ صبايا الحمى   كأنما البدر خلال الغيوم

جمّع أنوار جميع النجوم وصبّها من كوةٍ في السما

* * *

لجّ بيَ الشوقُ لظلٍّ وعودْ فهل يلاقي العود أصداءه
لو أننا عدنا نبلّ الكبود ؟ والنهر هل نعرف أفياءه ؟
وماؤه هل لم يزل ماءه ؟ ام انه وقد مضى لا يعود ؟

(شفيق معلوف)

حلمتُ اني قريبٌ منك يا بردى أبلّ قلبي كما بلّ الهشيمَ ندى
ونصب عيني من البلدان أبدعها سبحان مَن حطّ في جناته بلدا [1]
دمشق اعرفها بالقبة ارتفعت بالمرجة انبسطت بالشاطئ ابتردا
بالطيب يعبق في الوادي وأطيبُه في تربة الأرض غذّاها دم الشهدا

* * *

ولئن نسيت فلست أنسى صخرة كانت مكاني المصطفى تحت السما
في جوفها حوض صغير جامع قَطْر الغمام على حوافيه ارتمى
أهوي عليه بمدمعي وكأنني أهوي على كأس المدامة بالدما
يا طير عنطورا احترس من مائه دمع الهوى مرّ فلا يروي الظما

(صيدح)

---

١ الباء في بلد مفتوحة لا مضمومة ...

الفصل الثاني عشر

أدباؤنا في الولايات المتحدة الأميركية

لا نستكثر على الجوالي العربية النازلة في الولايات المتحدة الشمالية وكندا والمكسيك البالغ عددها خمسمئة ألف مهاجر (على وجه التقدير لا الاحصاء) أن ينبغ فيها خمسة شعراء وعشرة كتّاب وعشرون صحافياً بل نعتبر هذا العدد قليلاً بالمقابلة مع عدد أدباء الجنوب الاميركي أو مع عدد الادباء في منطقة من لبنان يسكنها خمسمئة ألف لبناني .

كانوا أربعة في آخر القرن الماضي [1] : الريحاني وجبران وندره حداد وعبد المسيح حداد فأصبحوا ثمانية في العقد الثاني من هذا القرن ، إذ جاءهم على التوالي نسيب عريضه ورشيد أيوب وميخائيل نعيمه وإيليا أبو ماضي ، فتألفت منهم حلقة محترمة قادرة على إنتاج أدب يضرم النفوس ويبهر العيون .

---

١ في دراستنا لأدباء المهجر فرداً فرداً لا نكرر الملاحظات والشواهد التي وردت عنهم في الابحاث السابقة وان كانت تعتبر تكملة للبحث في أدب كل منهم .

في تلك الفترة كانت الأقلام خاملة والصحافة هزيلة والجوالي مفتقرة إلى صوت يحدوها ونور يهديها ، فما ظهر أدبهم حتى لمع واشتهر ونفذ من مغرب الأرض إلى مشرقها . كل منهم استجاب لنزعته الطبيعية ولتأثير الحياة المهجرية فيه ، وطاوعه الفكر لهذه الاستجابة وطاوعه القلم للتعبير عنها تعبيراً قوياً جميلاً . وكل منهم شعر بالحاجة إلى تكوين جبهة واحدة في الاجتهاد مع زملائه ، فألفوا « الرابطة القلمية » عام ١٩٢٠ [1] .

كان جبران رأس الرابطة وقطب دائرتها ، انضم اليها وليم كاتسفليس ووديع باحوط والياس عطا الله ولم ينضم اليها الريحاني لكونه رأساً مستقلاً بنفسه صعب الشكيمة والقيادة . وقد حالت أسفاره المتواصلة إلى أوروبا والشرق دون إحكام الصلات بينه وبين أعضائها . كما لم ينضم اليها أديب كبير هو حبيب كاتبه ، وشاعر كبير هو مسعود سماحه ، وصحافي كبير هو نعوم مكرزل .

كانت مهمة الرابطة شاقة : تجديد الصلة بين الأدب والحياة — إقامة مقاييس جديدة محل المقاييس القديمة في الأدب — توسيع آفاق الانتاج الأدبي في المقال والقصة والملحمة والنقد .

كتب نعيمه مقدمة لدستور الرابطة جاء فيها : « ليس كل ما سُطر بمداد على قرطاس أدباً ، ولا كل من حرر مقالاً أو نظم قصيدة موزونة بالأديب . فالأدب الذي نعتبره هو الأدب الذي يستمد غذاءه من تربة الحياة ونورها وهوائها . والأديب الذي نكرمه هو الذي خُص برقة الحس ودقة الفكر وبُعد النظر في تموجات الحياة وتقلباتها . وبمقدرة

١ ذكر عبد المسيح حداد في حديث نقلته صحف دمشق عام ١٩٦٢ ان المحاولة الأولى لتأليف الرابطة القلمية كانت أثناء الحرب العالمية الأولى وكانت تضم امين الريحاني ونجيب دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » ، ولكنها حلت نفسها بعد اجتماعات قليلة للتخلص من زمالة نجيب دياب .

البيان عما تحدثه الحياة في نفسه من التأثير » .

وجاء في دستورها أن غاية الرابطة هو بث روح نشيطة في جسم الأديب العربي وانتشاله من وهدة الخمول والتقاليد . ورسم جبران شعاراً لها نقشت فيه هذه الآية : « لله كنوز تحت العرش مفاتيحها ألسنة الشعراء » .

كثر إنتاج أعضاء الرابطة في السنين الأولى لتأسيسها . وكانوا ينشرون ثمرات أقلامهم في مجلة « الفنون » لنسيب عريضه ثم في جريدة « السائح » لعبد المسيح حداد ، وينشرون مختاراتها في مجموعة تصدر باسم الرابطة في نهاية كل عام . ولكنها لم تصدر إلاّ مرة واحدة إذْ أصابها ما أصاب مجلة الفنون ، داء الإفلاس القتّال . فعمدوا إلى تأليف الكتب وطبعها . ولكن جبران لم يصدر بعد تأليف الرابطة إلاّ كتاباً واحداً بالعربية هو العواصف وأصدر ثمانية كتب بالانكليزية .

كان أدب جبران عربياً قومياً فأصبح إنسانياً عالمياً . وبدأ أدب نعيمه انتقادياً ثورياً فأصبح رسالة روحانية .

كانت الرابطة ثورة فكرية وبيانية . خضع لتأثيرها أولاً أعضاء الرابطة أنفسهم فتآلفت نزعاتهم ومراميهم ونشطت قواهم ومواهبهم على اختلاف درجاتهم . وإننا نجد فرقاً كبيراً بين ما كتبوه قبل تأليف الرابطة وما كتبوه بعده . ثم شمل تأثيرها المهاجر الاميركية الأخرى وانتقل بعد ذلك إلى دنيا العرب قاطبة . لم يكن لها فلسفة خاصة ، بل منهاج خاص واتجاه موحد . مذهبها أقرب إلى الرومانسية شكلاً . ولكن التصوف وعمق التجربة وطول التأمل رفع أدبها إلى مستوى عال يطل منه على مستويات العلم والفلسفة العالمية .

جبران كان مصدر التأثير الرئيسي ويتلوه نعيمه ، وقد اسعفهما في التأثير تقارب الأعضاء في الميول الأدبية والذوق الفني وتشابه ظروف الحياة . فما تواترت اجتماعات الرابطة وتوالت المناقشات في جلساتها حتى

أصبح الاعضاء وكأنهم شخصية أدبية واحدة تؤدي رسالة واحـدة في تعابير متشابهة . كتب نعيمه عن سرّ هذا التشابه فقال : « لا يعلم سرّ هذا الائتلاف إلاّ الذي جمع عمّال الرابطة القلمية في فسحة محدودة من ديار الغربة وفي لمحة معلومة من زمان هجرتهم ووضع في صدر كل منهم جذوة تختلف عن اختها حرارة وبهاء ولكنها واياها من موقد واحد » .

لا شك أن التشابه في التعابير كان انعكاساً للتشابه في الإحساس والتفكير . وإنك لتجد في كتابيَ « النبي » و « رمل وزبد » لجبران من الأفكار الفلسفية ما تجد مثله في كتاب « مرداد » و « كرم على درب » لنعيمه . للاثنين فلسفة واحدة في وحدة الوجود والاخاء الانساني وعقيدة التناسخ . أما بقية أعضاء الرابطة فلم يماشوهما جنباً لجنب في جميع الأشواط . ويكفي أنهم اتفقوا جميعاً على مفهوم الأدب ووسائل التجديد وماهية الرسالة الموكولة اليهم .

ايليا ابو ماضي — رغم اتفاقه مع زملائه على ضرورة التجديد في الأساليب اللفظية والمعنوية — لم ينسجم مع جبران ونعيمه في خواطرهما الصوفية العميقة . فما كان يؤمن بتناسخ الارواح ، تلك العقيدة الثابتة عند جبران القائل : « وقريباً تروني لأن امرأة أخرى ستلدني » ، وعند نعيمه القائل « : إن لم يكفكم عمر واحد — ولن يكفيكم عمر واحد — فأمامكم أعمار بعدها أعمار » . وكأنهما اقتبسا الفكرة من قول القرآن الكريم : « وكنتمْ أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » .

أما أبو ماضي فيقول في ديوانه الأول ما يناقض هذه العقيدة على خط مستقيم :

غلِط القائل إنا خالدون ... كلنا بعد الردى هيّ بن بيّ
ليست الروح سوى هذا الجسد ... معَه جاءت ومعْه ترجع

لم تكن موجودة قبل وُجِدِ   ولهذا حين يمضي تتبــع
فمن الزور الموشّى والفند   قولنا الأرواح ليست تُصرع
تلبث الأفياء ما دامت غصون   فإذا مـا ذهبت لم يبق فيّ

ليقل أبو ماضي ما يشاء في عقيدة التقمص. أما أن يقول انّ الروح هي بمثابة الظل للجسد ، لها قيمة الظل وله قيمة الأصل ، فقول لا يخلو من شطط .

ولا ندري تحت أيّ تأثير بدّل أبو ماضي رأيه في تناسخ الأرواح برأي جديد جاء في ديوانه الجداول بعد عشر سنوات في قصيدة الدمعة الخرساء :

إنا سنبقى بعد أن يمضي الورى   ويزول هذا العالم المنظـور
فإذا طوتنا الأرض عن أزهارها   وخلا الدجى منا وفيه بدور
فسترجعين خميلة معطـارة   أنا في ذراها بلبل مسـحور
أو ترجعين فراشة خطـارة   أنا في جناحيها الضحى الموشور

ثم ما لبث أن عاوده الشك في صواب فكرته فقال :

حامت على روحي الشكوك كأنهـا   وكأنهن فريسـة وصقور
يا ليل أين النور ؟ إني تائـه   مرْ ينبثق . أم ليس عندك نور ؟

* * *

في أدب الرابطين على العموم معانٍ حنونة لم تلد المحبة الإنسانية أرق منها . كقول ندره حداد :

أنا أنسى جرح قلبي   كلما شاهدت جرحك
وإذا أخطأتَ نحوي   فأنا الطالب صفحك

وهو معنى ورد في شعر القروي :

كم صاحبٍ حرصاً على ودّه   طلبت أن يغفر لي ذنبه

وكنا نظنه من ابتكارات الشاعرين أو من وحي جبران وإذا بنا نجده في شعر أندلسي قديم :

إذا مرِضنا أتيناكم نعودكمُ   وتخطئون فنأتيكم ونعتذر

* * *

عمرت الرابطة القلمية عشر سنوات إذا أحصينا سنوات الانتاج. وقد امتهن الصحافة ثلاثة من أعضائها : عبد المسيح حداد صاحب جريدة « السائح » منذ عام ١٩١٢ ، ونسيب عريضه صاحب مجلة « الفنون » منذ عام ١٩١٣ ، وايليا ابو ماضي صاحب « السمير » منذ عام ١٩٢٩ . وعندما اخترمت المنية عميدها جبران عام ١٩٣١ ومشى القضاء بين أعضائها بيده العسراء فأخذ نسيب عريضه ورشيد ايوب وندره حداد إلى رحمة الله وأعاد نعيمه إلى مسقط رأسه في لبنان ، انفرط عقد الرابطة ودخلت عالم الذكرى والتاريخ تاركة وراءها تراثاً غنياً بالآثار . ويكفي أن يكون آثارها ديوان الجداول لأبو ماضي والغربال لنعيمه والعواصف لجبران وأوراق الخريف لندره حداد وأغاني الدرويش

لرشيد أيوب وحكايات المهجر لعبد المسيح حداد ليبقى ذكرها خالداً .

وكان في الوسط الأدبي الشمالي أدباء مرموقون خارج الرابطة ، لو كانوا أصحاب رسالة وطموح لجددوا حياة الرابطة . سنعرّف ببعضهم في الصفحات التالية . أما الذين لم نعرف سيرتهم بينما أسماؤهم تتردّد في الصحف وفي الاوساط الأدبية ، فنكتفي بالاشارة اليهم هنا . هم: الدكتور سليمان داود . الياس صباغ . امين زيدان . الدكتور نجيب بربور . فريد غصن . فيكتوريا طنوس . سليم الكسباني . اسعد ملكي . عباس ابو شقرا . سعيد جبرين . سليم الرحال . ديب نعوم ليون . نجلا المعلوف . اسكندر اليازجي . المطران انطونيوس بشير . الارشمندريت ابو حطب والاديب منصور اسطفان . ومعهم من أرباب الصحف نعوم مكرزل صاحب جريدة « الهدى » (١٨٩٨) ونجيب دياب صاحب جريدة « مرآة الغرب » (١٨٩٩) وسليمان بدور صاحب جريدة « البيان » (١٩١١) ويعقوب روفائيل صاحب جريدة « الاخلاق » ونجيب بدران صاحب جريدة « النسر » (١٩١٤) وفوزي بريدي صاحب جريدة « الاصلاح » ويوسف الخوري صاحب جريدة « الشعب » وأمين الغريب صاحب جريدة « المهاجر » وسعيد فياض صاحب جريدة « نهضة العرب » في ديترويت التي يحررها فيليب عقل .

نلاحظ اليوم أن ستة من الصحافيين الثمانية الذين ذكرناهم أدركتهم الوفاة فاحتجبت خمس جرائد هي : « الاخلاق » و « النسر » و « الشعب » و « السمير » و « مرآة الغرب » ، وانتقلت ثلاث جرائد أخرى إلى أيدٍ جديدة : « الهدى » ، أكبر وأقدم جرائد المهجر الحية ، آلت إلى سلوم مكرزل ثم إلى ابنته ، و « البيان » يملكها راجي ضاهر بعد وفاة صاحبها ، و « الاصلاح » آلت إلى القس شويزر .

في حافظتنا من الذكريات الموجعة ذكرى حفلة أدبية أقمناها لتوديع

أصدقائنا عشية سفرنا من نيويورك عام ١٩٣٩ وسمعنا فيها ستة خطباء : الدكتور فؤاد شطاره . يعقوب روفائيل . ندره حداد . رشيد أيوب . حبيب كاتبه . جميل بطرس حلوه .

وجميعهم انتقلوا إلى رحمة ربهم . ولم يحل محلهم من يعزي اللغة العربية والأدب المهجري بفقدهم .

امين الريحاني

١٨٧٦ — ١٩٤٠

« انا سوري أولاً ولبناني ثانياً وماروني بعد ذلك .
انا سوري انشد الوحدة السورية القومية الجغرافية السياسية .
انا سوري . مسقط رأسي لبنان . أحترم مصدر لغتي العرب ، واستوكل في ديني الله وحده .
انا سوري لبناني افتخر ببطولة المردة كما أفتخر بصدر الاسلام وبأمجاد بني امية .
انا سوري يودّ أن يرى في سوريا حكومة دستورية لامركزية عمادها الوحدة الجغرافية وأساسها العدل والمساواة في الحقوق والواجبات .
انا سوري لبناني أعتقد بفصل الدين عن السياسة لأني مدرك ان حجر العثرة في سبيل الوحدة القومية هو التحزّب الديني .
انا سوري لبناني ماروني . أنظر إلى الماضي مودعاً واتطلع إلى المستقبل مسلّماً مستبشراً »

هذا هو تعريف امين الريحاني بنفسه وهذا دستور ايمانه كما كتبه في كتاب « القوميات » . فيلسوف الفريكة الرائد الأول للأدب المهجري ،

وصاحب المدرسة الاستقلالية الأولى في الأدب العربي . نشر كتابه الأول « تاريخ الثورة الفرنسية » والثاني « المحالفة الثلاثية » والثالث « المكاري والكاهن » قبلما نشر جبران بواكير أدبه بأعوام ، ثم كتب قصة زنبقة الغور وخارج الحريم وقسماً من الريحانيات ، ولكن انتاجه المهجري وقف عند هذا الحد . كل ما كتبه بعد ذلك كان إما باللغة الانكليزية أو باللغة العربية خارج المهجر . وقد بلغ عدد كتبه الانكليزية أحد عشر كتاباً أولها لزوميات المعري . وعدد الكتب التي أصدرها أثناء إقامته في الوطن أربعة وعشرون كتاباً . هذه الكتب ، من العسير بل المستحيل تعيين المكان الذي كُتبت فيه بسبب رحلاته التي لم تدعه يستقرّ في بلد ما زمناً كافياً لتأليف أسفار ضخمة كالريحانيات والقوميات وملوك العرب وتاريخ نجد الحديث . والمعقول انه كتبها في فترات متفرقة بين نيويورك والفريكة وفي الطريق أيام السفر ، وان للمهجر يداً في تصميمها وتأليفها . ولا نستثني من هذا الافتراض إلاّ ما كتبه في أواخر حياته حين طالت اقامته في الفريكة فأصدر كتاب قلب لبنان وانتم الشعراء والنكبات وقلب العراق . أما بقية مؤلفاته (هتاف الاودية — بذور للزارعين — فيصل الاول — أدب وفنّ — وجوه شرقية غربية — التطرف والاصلاح) فلا نستطيع الجزم في أيّ بلد كتبها ، عدا المحاضرات والمقالات التي تملأ المجلدات . فإذا قابلنا هذا النتاج الضخم بالكتب التي سميناها ، وجدنا أن نصيب المهجر من أدبه كان ضئيلاً ، لا يجوّز لنا اعتباره أديباً مهجرياً . أما إذا نظرنا إلى نوع نتاجه المهجري لا إلى كميته ، وعدنا إلى أصول هذه الدوحة الباسقة التي مدّت ظلالها على الغرب والشرق ، وجدنا أن بذارها وتربتها وغذاءها كانت من المهجر — ومن نيويورك على وجه التخصيص . فلا يسعنا إغفال هذا الاسم الكبير حين ننسب الأدب المهجري إلى اربابه .

هو امين بن فارس البجاني المعروف باسم الريحاني . وُلد في قرية

الفريكة (لبنان) عام ١٨٧٦ وتعلم تحت سنديانة قديمة في ساحة الكنيسة في الفريكة على خوري القرية ثم على نعوم مكرزل . وغادر لبنان في الثانية عشرة من عمره إلى نيويورك حيث اشتغل في مخزن أبيه [١] وعمه ودرس اللغة الانكليزية في مدرسة الراهبات مدة عام واحد . كان يقيم في قبو مظلم تحت مستوى شارع واشنطون . تغمره المياه في الشتاء فيقضي أمين ساعات يغرف الماء بالدلو حتى تخور قواه ويأوي إلى فراشه وهو يرتجف برداً أو نقمة على أولئك المضطجعين على مهاد الريش الدافئة . إلى أن برم بهذه الحياة المغمورة التي لا تنسجم مع مزاجه وطموحه ، فتمرد على والده وهجر منزله وألقى بنفسه إلى المجهول . فنجده في عامه السابع عشر مشتركاً في فرقة تمثيل يجوب معها أنحاء الولايات المتحدة ثم نجده بعد عام وقد أقلع عن حياة العبث والمجون وعاد إلى مخزن أبيه ، يشتغل نهاراً ويطالع ليلاً ويشتري الكتب بالقليل الذي يكسبه . فتعمق في الاطلاع على أدب الغرب . ثم درس الحقوق في مدرسة ليلية . ولما أضناه العمل والسهر أرسله والده إلى لبنان عام ١٨٩٧ لكي يستشفي فمكث سنة في بيروت انصرف فيها إلى تحصيل اللغة العربية ، إذ كانت لغته جد ضعيفة .

هذا الانتقال إلى الوطن العربي بعد إقامة عشر سنوات في نيويورك ترك في نفسه تأثيرات متباينة ، تفاعلت في ذاتيته وكان لها انعكاسات خطيرة في تكوين شخصيته واعداد إنتاجه الأدبي . لقد أيقن ان الإنحطاط الاجتماعي السائد في لبنان عائد إلى الجهل وإلى التعصب الطائفي فآلى على نفسه محاربة الآفتين . وأتيحت له فرصة الخطابة في نيويورك عام ١٨٩٨ فألقى قنبلته الأولى على رجال الدين ولم يحفل بسهام النقمة والاستنكار التي ترامت عليه بل صمد لها وحدد موقفه من الحياة ورسم خطة العمل منذ تلك الساعة . وفي الأعوام الخمسة التالية تابع حملته

١ عاد والده إلى لبنان عام ١٩٠٣ وتوفي بعد وصوله بشهور .

على التعصب الطائفي في الكتب الثلاثة التي أصدرها . وتوالت أسفاره واتسعت مجالات نشاطه فقام باثنتين وعشرين رحلة بحرية ، وما تبدل منهاجه ولا فترت همته . لم تنسجم روحه مع مدنية البخار والكهرباء بل ظلت عالقة بسماء الفريكة وبمعبده في الوادي . يناجيهما بقوله : « داويني ربة الوادي داويني — ربة الغاب اذكريني — ربة الإنشاء انصريني » . ويسخط على نيويورك ويقول لها : « أحشاؤك من الحديد وفيها عقمه . صدرك من الخشب وفيه سوسه . فمك من النحاس وعليك صدأه . جبينك من الرخام وفيك جموده . تشربين ذوب الابريز وتأكلين معجون اللجين . وتنتعلين أجنحة العلم . أما قلبك فقار يشتعل » .

شاء أن يكون همزة الوصل بين الشرق والغرب . ينقل إلى الغربيين روحانية الشرق وإلى الشرقيين تقدمية الغرب . وكان أديباً عملياً واقعياً يعتقد أن أول واجبات المصلح هو أن يُجسم بنفسه مبادئ دعوته الإصلاحية ويحياها ، فراح يطابق بين قوله وعمله (اقتباس من كتاب جميل جبر — أمين الريحاني الرجل الأديب) .

وبالتحقيق نجد في أدب الريحاني واقعية فريدة تبرز في كل دعوة يبشّر بها وكل وسيلة يختارها لاصلاح المجتمع العربي وتحقيق أمانيه . خُذْ مثلاً دعوته في محافل نيويورك عام ١٩١٦ إلى اسعاف ضحايا الجوع من أهل لبنان المنكوبين في الحرب العالمية الاولى . أطلق صرخته في خطاب عنوانه « صوت واحسان » ، واقترح على السامعين أن يصوموا يوماً واحداً ويتبرعوا بنفقة الطعام إلى الجياع في لبنان . أما هو فقد عمد إلى الصيام يومين كاملين عانى فيهما آلام الجوع وشعر بانهيار قواه فعاد إلى المنبر متحاملاً ليصف هول تلك الآلام ويُصرّ على واجب الصوم والتبرع . « اني بدأت بنفسي وعملت برأيي . لقد صمتُ يومين عن الاكل والشرب والتدخين ودفعت قيمة ذلك إلى لجنة الاغاثة .

فعسى يجدي عملي ان ذهب قولي أدراج الرياح » .

روى في كتابه « القوميات » انه شاهد مرة في محطة القطار في باريس حشوداً من الجنود عائدين من ساحة القتال أو متوجهين اليها أثناء الحرب العالمية الأولى ، فأعجب بروحهم وعزّ عليه أن يراهم محشورين كالاغنام في مركبات الدرجة الثالثة بينما المنعمون يتوجهون إلى الدرجة الاولى والثانية . فـآلى على نفسه أن يركب معهم في الدرجة الثالثة .

هذه الواقعة في السلوك والتفكير أبعدت الريحاني عن اسلوب جبران ونعيمه ، إذ كان لا يبشر بلسانه ما لا يفرضه على نفسه عملياً . وحرمته كذلك رضى الشعراء عنه لأنه كان يحاسبهم حساباً عسيراً على هـدر مواهبهم في ما لا ينفع أمتهم . فهو يكتب إلى شكر الله الجر تعليقاً على ديوان أهداه اليه : « أنتم في المهجر تطلقون مدافعكم في الهواء . عودوا إلى الوطن ان كنتم حقاً تحبون الوطن وجاهدوا مع المجاهدين وجوعوا مع الجائعين وادخلوا السجون مع المتمرّدين . هنا يا أخي ساحة العمل لا في نيويورك ولا سان باولو ولا بونس ايرس » .

إلى هنا تنتهي المرحلة الأولى – المرحلة المهجرية – من سيرة أمين الريحاني لتبدأ مراحل حياته الكبرى . تآليف ورحلات جعلت من الكاتب المهجري الناشيء زعيم الفكر الموجه وقائد حركة الإصلاح ورسول الأدب الحديث ، في العـالم العربي ، كما جعلته في أعلى منزلة من الاعتبار في الأوساط الامبركية ، لا يطاوله فيها من أدباء العرب غير جبران [١] .

لم يبدع الإنشاء في كتبه المهجرية قدر ما أبدعه في الكتب التي تلتها وعلى الاخص في الريحانيات وملوك العرب والشعر المنثور . ولكن فضله الذي لا ينسى فيها أنه أول من هزّ العصا في وجه الجامدين المتزمتين في الأدب العربي ، فعبّد الطريق لمن جاء بعده . وهو أول من أيقظ الوعي في جوالي المغتربين وفتح عيونهم على آفات المجتمع وسبل الاصلاح .

---

١ وردت الشواهد في الفصل الخامس « التأثر والتأثير » .

إن فاته التوفيق في الانشاء أحياناً لم يفته التوفيق في التأثير أبداً . وكان للريحاني ميزة على معاصريه من أدباء المهجر في الخطابة ، فهو بتلك اللبدة السوداء الغزيرة على رأسه ، وتلك النبرات الصوتية الأخاذة ، كان يعتلي المنبر أمام الجوالي المغتربة . فيسترعي انتباهها ثم يفتنها ويغريها ، أو يثير الفتنة والشغب كما اتفق له حينما ألقى خطبة التساهل الديني ، متمادياً في الصراحة والجرأة . وكانت صراحته الخشنة سبباً لاختلافه مع جبران والابتعاد عنه . كان ينعي على جبران ونعيمه هدر طاقتهما الأدبية الكبيرة في فلسفات روحانية بينما الأوضاع العربية في حاجة ملحة إلى الاصلاح العملي الناجز . وهو مثلهما يدعو إلى التعايش السلمي بين الأمم ، ولكن سبيله إلى ذلك هو بث الوعي والحث على التأهب والاستزادة من القوى ، لا تخدير النفوس بالأحلام والأوهام . كانت فكرة الوحدة تهيمن على كل أفكاره ومساعيه وآثاره الأدبية . وحدة الأمة العربية ، أو على الأقل توحيد المناهج السياسية والتربوية . توحيد اتجاهات الشعوب العربية . توحيد مساعي الحكام والمحكومين في حركة التحرر . توحيد الشرائع .

قرأنا له فصلاً عن « الحرية » كتبه بينما كان عائداً من نيويورك إلى لبنان ، بعنوان « رفيقتي » وهو مرآة لنفسية كاتبه :

« رفيقتي في السفر ، هي المبتدا في حياتي والخبر .

عرفتها في بلاد الغربة صغيراً وعشقتها شاباً وعبدتها كهلاً . فأمست من حياتي في منزلة ذات الحب والحكمة والحنان .

كانت أول مَن أشعل في طريقي مصباح الفكر

وأول من هداني إلى مروج الخيال

وأول من استغواني . فتغلغلنا في أدغال الشك وخرجنا منها إلى بساتين اليقين .

هي عشيقتي المقصودة ، والهتي المعبودة ، ورفيقتي النصوحة الودودة.

قبِلنا قسمتنا كما نقبل الشمس وكما نقبل السموم . دون أن نمجد الاولى كل يوم ودون أن نشكو الثانية كلمـا قامت تصيح وتنوح .
أقمنا معاً في بلاد الغربة زمناً خبرنا فيه حلو الحب ومرّ الجهاد — .
ثم رحلتُ والشرق محجتي ، وبلاد العرب قِبلتي .
سافرتُ من نيويورك وحدي . وعندما مرّت الباخرة بتمثال الحرية أحسست بيد تستوقفني ، بصوت يعيد إليّ الذكرى ويلحفني بالعـار والخجل .
هو صوتها ، هو وجهها ، وقد ازداد نوراً وجمالاً .
هي رفيقتي في السفر ، والمبتدا في حياتي والخبر .
هي الحرية جاءت تزور البلاد العربية وتزرع فيها البذور الطيبة الصفية .
هي الحرية التي أستمد منها الحياة . وهي الحياة أقفها على خدمة هذه الأمة التي لا يجمعها اليوم إلاّ أمل وخيال .
هي الحرية رفيقتي .
ابتسمت في الحجاز ابتسامة المريض
وبكت في تهامة بكاء اليائس
وضحكت ثم تأوهت في اليمن
وجلست تستريح في العراق » .
وعندما برزت مشكلة فلسطين بذل جهوداً صادقة للدفاع عن حقوق العرب في محاضرات ومباريات بينه وبين أقطاب اليهود في نيويورك . وهو الذي اقترح على الحكومة الاميركية إنشاء وطن قومي لليهود في ولاية تكساس الواسعة الأطراف إن كان لا بدّ من وطن قومي لهم . فهو من هذه الناحية يلتقي بالشاعر القروي ، مع الفارق أنه صبور جلد ، لا يبكي ولا يتباكى في أدبه . ولا يسب الحياة رغم الألم الذي لازمه في يده المشلولة .

جرت في سان فرنسيسكو مناظرة حول قضية فلسطين ، موضوعها « لمن هي فلسطين ؟ » ، تناظر فيها الحاخام إبتشتين وهو من علماء التاريخ ، وحاكم فلسطين السابق الجنرال ستورس ، وأمين الريحاني . واتفق الانكليزي مع اليهودي على أن يفتتح الريحاني الكلام لعلهما يجدان في كلامه مآخذ للرد عليها بينما لا تعطى له فرصة للرد . وأحس الريحاني بالمؤامرة ، فما كان منه إلاّ أن فاجأهما بقوله :

« أعطيت حق الكلام أولاً على اعتبار أن الحق الأول في فلسطين هو لأمتي العربية . وعليه فأنا أشكر لزميليّ إبتشتين وستورس هذا الاعتراف الصريح منهما . » فضجّت القاعة بالتصفيق وكانت الغلبة لفيلسوف الفريكة .

من أقواله المأثورة : أريد أن أرى في بلاد العرب ثمار الأنبياء وثمار العلماء على شجرة واحدة » .

« أحبّ في صديقي الاباءة أكثر من المروءة . أحبّ فيه الانفة وان كان فيها عنيفاً ولا أحب الصغارة وان كان فيها لطيفاً . »

وفي موضع آخر : « إن جنوناً في سبيل الحق والحرية لخير من الرصانة مع العبودية » .

وفي كلامه عن نفسه : « اريد أن أرتفع دون أن أدوس من هم دوني أو أحسد من هم فوقي » .

« أحب أن تشع حياتي ولا أحبها أن تفرقع . أحب أن تكون كأحد الكواكب السماوية لا كسهم من الأسهم النارية » .

هذا الكلام يصوّر أخلاق الريحاني على حقيقتها دون مبالغة . وبفضل تلك الاخلاق شعّت حياته بلا دخان من الشبهات وبلا ظلال من الأنانية . وقد عُرفت سيرته ففرضتْ احترامه على الانصار والاخصام وحملت شهرته إلى أبعد الأقطار . فتوثقت صلاته مع العلماء المستشرقين . ولما تعرّف بـه المستشرق الروسي كراتشوفسكي عام ١٩١٠ في بيروت أيقن

« انه قائد المستقبل لمدرسة المهجر في الأدب الحديث » ونشر سيرته وشعره المرسل في كتاب قيّم أثنى عليه جوركي في مجلة الشرق الروسية. ولمّا أقلع عن الأسفار ولزم بيت العائلة في الفريكة أصبح منزله محجةً لقادة الفكر وأعلام الأدب في الشرق والغرب ، وارتبط اسم وادي الفريكة باسم امين الريحاني إلى الأبد .

أما حياته العاطفية فالمعلومات عنها قليلة غامضة . نعلم انه تزوج من اميركية لم تنسجم مع اسلوبه في الحياة فطلّقها ولم يتزوج بعد ذلك . ونعلم أنه أحب فتاة غيرها تبادل معها رسائل الغرام باللغة الانكليزية وقد وقع شقيقه البرت ريحاني على هذه الرسائل ولكنه لم ينشرها كما نشر الرسائل العربية . ولعلها موجهة إلى تلك الصديقة التي ماتت غرقاً في نهر الأمازون وبكاها في قصيدة من شعره المنثور نشرناها في فصل سابق . ولكننا نجد في كتاب « رسائل امين الريحاني » صفحة ١٦١ رسالة واحدة بالعربية متوّجة بعبارة « يا قلبي » بدلاً من اسم المخاطَب كأنه شاء أن يبقى أمر هذا الغرام سراً مكتوماً . واننا نستبعد ان تكون الآنسة ميّ هي المقصودة بهذه الرسالة ، لأن ميّ كانت مشغولة عنه بحب جبران ولأن الرسائل التي تبادلتها معه بعد وفاة جبران تنمّ عن مودة خالصة وحنان أخوي وتجاوب روحي ، لا أكثر من ذلك . وفي محنتها عام ١٩٣٨ كان لها الريحاني الاخ الوفي والمشير الصادق . يقول لها في رسالة « اني أتحمل الأذى والألم ان كان فيهما خير لك » . ثم ينقلها من المستشفى إلى منزل في الفريكة بجوار منزله حتى يقوم هو وكل أفراد أسرته على خدمتها والعناية بها طوال الصيف ١٩٣٩ .

ولا نطيل البحث في أدب الريحاني كيلا نخرج من نطاق أدبه المهجري إلى أدبه العام . ولو أسعفنا الدليل على أن بعض الكتب الـتي طبعها في بيروت حملها مخطوطة من المهجر ، لتعرضنا لها لا سيا وان فيها ما يغري بالبحث والاستشهاد ، ولكننا لا نجد بأساً بالاستشهاد هنا بما قاله عن

الشعراء المتباكين :

« في هذه البلاد الشرقية كثير من القلوب اللينة المترهلة الذائبة . قلوب تذوب كلما ناح الحمام . تميع كلما افتر الورد في الأكمام : تسيل هياماً كلما تلألأت شمس الأحلام . قلوب مائعة على الدوام . قلوب تذوب كلما هبّت ريح الصَّبا . عند كل ساقية . تذوب لرنة عود ولأنّة يا ليل . تذوب في ظلال الصفصاف وتذوب أمام الفونوغراف . ونحن في زمن الحديد والكهرباء .

وهذه هي وصاياه للشعراء :

١ — أنا القاموس إلهك . لا إلـه لك غيري .
٢ — أكرم سيبويه ونفطويه والكسائي واخوانهم أجمعين .
٣ — لا تحلف باسم ليلى بالباطل .
٤ — لا تشته قصيدة أخيك أو نياشينه .
٥ — وفّر من غرش يومك لتطبع ديوانك وتنشره وتجيز المقرظين[١].

أمين الريحاني ، هذه الشعلة الوطنية المتفجرة التي أنارت للعرب طريق الحرية والاستقلال والسيادة التامة ، انطفأت بحادث تافه هو سقطة عن الدرّاجة في طريق صخري عام ١٩٤٠ . ولكن شعاعها الوهّاج باقٍ أبداً . « قال كلمته ومشى » ، ولكن الكلمة التي رنّت في آذان الاقطار العربية والاميركية اربعين عاماً سيتردد صداها أجيالاً في العالم كله . كان مكتوباً على خاتمه هذه الكلمات « القوة في الحق والحق لا يموت » ، لذلك لن تموت كلمـات الريحاني لأن فيها قوة الحق .

١ يراجع نماذج من نثر الريحاني في الفصل الرابع « رسالة الأدب المهجري » والفصل الحادي عشر « مآخذ النقاد على الأدب المهجري » .

جبران خليل جبران

١٨٨٣ – ١٩٣١

كان مولده في قرية لبنانية شامخة تتفيأ أرز الرب وتغسل قدميها في نبع قاديشا الفوار . عائلته فقيرة وبيئته متأخرة « يُحرم فيها على الرجل الماروني أن يشتري الزيت من بائع أرثوذكسي » . وكان أبوه خليل جبران يعيش من وظيفة عدّ الماعز في القرية التي كانت تشغله بعض الوقت وتدعه عاطلاً عن العمل أكثر الأوقات . هاجر مع أمه وأخيه الأكبر بطرس وأختيه ماريانا وسلطانه عام ١٨٩٥ إلى بوسطن في الولايات المتحدة الشمالية « لكي يقبر الفقر » ونزل حي الصينيين ، أسخى أحياء المدينة بالأقذار وفضلات المطابخ وأفواج الذباب . كان في سن الثانية عشرة ، ولما يكمل دروسه الابتدائية ، فأرسله أخوه بطرس ، رب العائلة الصغير ، إلى المدرسة ليتعلم اللغة الانكليزية ثم أعاده بعد ذلك إلى لبنان ليدرس العربية ، فدرسها في مدرسة الحكمة مدة أربع سنوات ، ثم عاد إلى بوسطن في عام ١٩٠٢ ليرى أن داء السل قد فشا في بيت العائلة وحصد أخته الصغيرة سلطانة في غيبته . وبعد عام واحد انتزع من ذراعيه أمه ثم أخاه بطرس ، مربيه الحنون وعائله

الوحيد ولم يبق إلى جـانبه سوى أخته ماريانا ، تشتغل بالإبرة لكي توفر له القوت الضروري ، وأحياناً تسهر الليل في الخياطة على نور الغاز ، لكي تشتري له قبعة جديدة بدلاً من قبعته المزفتة . وكم قال لهـا جبران : ان إبرتك تسمل عيني وخيطك يشدّ على عنقي ، فتجيبه : هل نستعطي قوتنا وكساءنا من الناس ؟ (المرجع : كتاب نعيمه عن جبران خليل جبران) .

وكان قـد بلغ العشرين من العمر وآن له أن يسعى إلى تحصيل رزقه فشرع في الإنشاء والرسم ، وكانت جريدة «المهاجر» لامين غريب ومجلة «الفنون» لنسيب عريضه تنشران مقالاته عام ١٩٠٤ . وفي عام ١٩٠٥ أصدر كتاب الموسيقى ، باكورة إنتاجه الأدبي ، واتبعه بعرائس المروج والأرواح المتمردة . ولكن الكتب الثلاثة لم تدر عليه شيئاً رغم ما فيها من روعة الفن وطلاوة الجديد وحرارة العاطفة . أقوى القصص في عرائس المروج هي قصة مرتا البانية ، ثورة على النذالة الخلقية التي لا تعاقبها الشرائع حينما يفترس ذوو المـال والسلطان أعراض البريئات ويتركونهن فرائس للحياة . وأقواها في الأرواح المتمردة قصة خليل الكافر التي تدعو إلى انتزاع الحرية من أيدي الظالمين ، إلى جانب قصص غرام ومآسٍ اجتماعية ، أسلوبها أقرب إلى الشعر منه إلى القصص . أما كتابه الموسيقى فهو فيض خلجات قلبه المولع بالأنغام ، المؤمن بتأثيرها . فالموسيقى كانت رائده في كل ما نظم ونثر ، وقد أسعفته في بعـض المحاولات الشعرية :

شاخت الروح بجسمي وغدت	لا ترى غير خيالات السنين
فإذا الأجيال في صدري مشت	فبعكاز اصطباري تستعـين
والتوتْ مني الأماني وانحنت	قبل أن أبلغ حد الأربعـين
تلك حالي فإذا قالت رحيل	ما عسى حل به، قولوا الجنون

وإذا قالت أيشفى ويـــزول   ما به ؟ قولوا ستشفيه المنون

لم يُقبل قرّاء العربية على كتبه ، ولا على شعره المنثور الذي نشره بعدها في كتاب دمعة وابتسامة . فعمد إلى الرسم ظناً منه انه أغزر مورداً في المحيط الأجنبي ، وراح يرهق قواه استعجالاً لذلك المورد حتى توفرت لديه مجموعة من الرسوم ، حملها إلى المعارض فلم تلق رواجاً . وظلت مشكلته المالية حيث هي . ولكن معرض رسومه في عام ١٩٠٤ أتاح له التعرف إلى ماري هاسكل – المرأة التي غيّرت مجرى حياته بعطفها عليه وعنايتها بمستقبله – كما أتاح له تركيز تفكيره في عقيدة ثابتة استوحاها من احتراق رسومه في المعرض ، فأصبح جبرياً ومؤمناً بتناسخ الأرواح ، يرد إلى « المكتوب » كل حوادث حياته : ولادته ، هجرته ، موت أهله ، احتراق رسومه . وهو يشير في « المواكب » إلى هذه العقيدة :

وللتقــادير سُبُلٌ لا تغيّرهـا   والناس في عجزهم عن قصدهم قصروا

ان صداقة ماري هاسكل لجبران كانت أنقى وأوفى الصداقات ، رافقته مدى العمر ، فما انقطع عنه الراتب الذي خصته به (٧٥ دولاراً شهرياً) إلى يوم وفاته . وهي التي سهرت على ثقافته وهذبت لغته الانكليزية ، فما كان يقدّم كتاباً للنشر بالانكليزية إلا بعد مراجعتها وموافقتها . وفي عام ١٩٠٨ سافر إلى باريس على نفقتها للتخصص في فنّ الرسم وتلمذ لأشهر رسام معاصر « رودان » ، ثم عاد إلى بوسطن عام ١٩١٠ بفن مرهف مصقول شق أمامه طريق الشهرة .

هذه الأخبار المستقاة من تراجم حياة جبران ، ينفيها صديقه ورفيقه

في باريس الفنان المعروف يوسف الحويك ، ويقول في تصريحاته للسيدة ادفيك شيبوب في مجلة « صوت المرأة » البيروتية ان تلمذة جبران على النحات « رودان » باطل من الأباطيل ، وانه لم يكن راضياً عن معيشته في بوسطن عقب عودته من باريس ، مؤيداً ذلك برسالة في يده من جبران تاريخها ١٩ يناير سنة ١٩١١ يقول فيها : « ان اشغالي سائرة نحو قمة الجبل وأفكاري هادئة وجسدي يتمتع بكل ما في الصحة من لذة الوجدان . ولكني لست مغبوطاً . ونفسي جائعة ظامئة إلى مأكل ومشرب لا أدري أينهما . النفس زهرة علوية لا تعيش في الظل . »

في عام ١٩١٢ حمله طموحه على الانتقال إلى نيويورك والاستقرار فيها . وهناك تبلورت موهبته الفنية كرسام ، وتركز أدبه على منصة النبوغ ، وانسجم جبران الأديب مع جبران الفنان . والحقيقة — في رأي يوسف الحويك — ان الأديب في جبران طغى على الفنان ، فبقي الفنّ في يديه حائراً . كان في نيويورك حينما اندلعت الحرب العالمية الاولية وحدّدت مصير الشعوب العربية بالفناء . ففي تلك الفترة توثقت صلاته بالجوالي العربية وراح يشاركها الشعور القومي ويخطب في حفلاتها ويوجّه خطاها كما كان يفعل الريحاني . كان يشق عليه ان يراها منشقّة على نفسها يتناحر أفرادها باسم الدين والتقاليد والعصبيات . ومما نشره عام ١٩١٣ في مجلة « الفنون » قوله :

« أنا لبناني ولي فخر بذلك . ولست بعثماني ولي فخر بذلك أيضاً .

أنا مسيحي ولي فخر بذلك . ولكني أهوى النبي العربي وأكبر اسمه وأحب مجد الاسلام وأخشى زواله .

أنا شرقي ولي فخرٌ بذلك . ومهما أقصتني الأيام عن بلادي أظلّ شرقي الاخلاق سوري الاميال لبناني العواطف . »

وكان كتابه التالي « الأجنحة المتكسرة » ناجزاً منذ أعوام وقد كتب

فصوله الأخيرة في باريس . وجبران هو في الحقيقة بطل قصته ، والوقائع التي يرويها هي حكاية حماله : سلمى كرامه (اسمها الحقيقي حلا الظاهر) فتاة أحلامه ، أحبته وعاهدته على الزواج ، ولكن المطران أرغمها على الزواج من ابن أخيه ، ففعلت مكرهة وماتت كمداً [1] . تلك مأساة حبه الأول كتبها جبران بنار وجده وفورة حقده وأطلقها صرخة مدوية في أسماع رجال الدين . ثم ردّدها في قصص أخرى كوردة الهاني ويوحنا المجنون ومضجع العروس ، وبقي صداها يرين على قلبه وعلى انتاجه إلى آخر حياته . وليس من يكتب بالحبر كمن يكتب بدم القلب . في هذه القصة اضطر جبران إلى النزول من سماء الخيال إلى واقع الحياة ، فاستمد الوصف من عواطفه الجريحة وقال : « قد أوجدت الكآبة بين روحي وروح سلمى صلة المشابهة ، فكان كلانا يرى في وجه الثاني ما يشعر به قلبه ويسمع بصوته صدى مخبآت صدره ، فكأن الآلهة قد جعلت كل واحد منا نصف الآخر ، يلتصق به بالطهر فيصير إنساناً كاملاً . وينفصل عنه فيشعر بنقص موجع في روحه . »

وفي عام ١٩١٨ أصدر كتابه الشعري الوحيد « المواكب » وعرض فيه أبدع رسومه الرمزية إلى جانب أبياته الحكمية ، ومن حسنات شعره قوله في الحياة :

الأرض خمّارة والدهر صاحبها   وليس يرضى بها إلا الألى سكروا

وقوله في الحق :

وفي الزرازير جبن وهي طائرة   وفي البزاة شموخ وهي تحتضر

١ ماتت في القصة . أما في الواقع فقد مات جبران قبلها ولما نقلت رفاته إلى مقره الاخير في مار سركيس كانت حلا بين الجاثيات حول نعشه .

وقوله في الدين :

والدين في الناس حقل ليس يزرعه   إلاّ الألى لهم في زرعه وطر

وقوله في الحرية :

والحر في الأرض يبني من منازعه   سجناً له وهو لا يدري فيؤتسر

وقوله في الحب :

والحب إن قادت الأجسام موكبه   إلى فراش من اللذّات ينتحر

وقوله في السعادة :

وما السعادة في الدنيا سوى شبح   يُرجى فإن صار جسماً ملّه البشر

أما رسوم الكتاب فهي تمثل الذروة من فن جبران وتضع شعره في أجمل اطار أتيح صنعه لشاعر فنان . فبينما هي توضح وتكمل الصور الفكرية التي رسمها في شعره ، تضفي على أفكاره قوة وسمواً وروعة غامضة الأشكال ، عميقة الايحاء لا يدرك مراميها ويحلّ رموزها إلاّ الراسخون في الفن . وجبران مصوّر رمزي الطابع ، سواء كتب بالقلم أو رسم بالريشة . ولكننا – كعامة الناس – نفهم من عباراته الرمزية الشفافة ، أكثر مما نفهم من رسومه عندما يصوّر مشاعر الانسانية وأفكارها وأوضاعها بالظلال والخيالات بدلاً من الكلم والعبارات .

هذه النزعة إلى الاستغراق هي مذهب روحي عند جبران ، يدافع

عنه ويناقش فيه صديقه وزميله يوسف الحويك قائلاً له : « الفن الذي تلتقطه العين بسهولة وتألف خطوطه وألوانه ومعانيه غالباً ما يكون مبتذلاً بارداً يجلب النعاس إلى الجفون ، حتى ان الناظر اليه يكاد يتثاءب بخلاف الفن الذي يعصى على العين فهمه فانه يهيج المخيلة . وفي التهييج والفهم بعد التعب نشوة عظمى . وفي محاولة التعمق في التفكير ابداع . وفي الابداع لذة تفوق كل اللذات [١] » .

ثم كانت الحرب العالمية الأولى بفواجعها وضحاياها ، وكانت المجاعة في لبنان تفتك بأهله . فأصدر عام ١٩٢٠ كتابه « العواصف » تحت تأثير تلك الحوادث ، وكان آخر كتاب ألفه بالعربية :

« مات أهلي وأنا في قيد الحياة أندبهم في وحدتي وانفرادي .

لو كنت جائعاً بين أهلي الجائعين ، مضطهداً بين قومي المضطهدين لكانت الأيام أخف وطأة على صدري ، والليالي أقل سواداً أمام عيني . ولكنني هنا وراء البحار السبعة أعيش في ظل الطمأنينة وخمول السلامة . أنا ههنا بعيد عن النكبة والمنكوبين ولا أستطيع أن أفتخر بشيء حتى ولا بدموعي .

لو كنت سنبلة من القمح نابتة في تربة بلادي لكان الطفل الجائع يلتقطني ويكف بحياتي يد الموت عن نفسه .

لو كنت ثمرة يانعة في بساتين بلادي لكانت المرأة الجائعة تتناولني وتقتضمني طعاماً .

لو كنت طائراً في فضاء بلادي لكان الرجل الجائع يصطادني ويبعد بجسدي ظل الموت عن جسده .

لم يمت أهلي متمردين ولا هلكوا محاربين ولا زعزع الزلزال بلادهم فانقرضوا مستسلمين .

---

١ حديث يوسف الحويك ، مجلة « صوت المرأة » بقلم ادفيك شيبوب .

مات أهلي على الصليب ، وأكفهم ممدودة نحو الشرق والغرب وعيونهم محدقة إلى سواد الفضاء .

ماتوا صامتين لأن آذان البشرية قد أُغلقت دون صراخهم :

ماتوا لأنهم لم يحبوا أعداءهم كالجبناء ولم يكرهوا محبيهم كالجاحدين » ،

* * *

« أسكت يا قلبي فالفضاء لا يسمعك ،

أسكت يا قلبي فالأثير المثقل بالنواح والعويل لن يحمل أغانيك وأناشيدك ،

أسكت فأشباح الليل لا تحفل بهمس أسرارك ومواكب الظلام لا تقف أمام أحلامك .

أسكت فالفضاء قد أتخمته رائحة الأشلاء فلن ينشرب أنفاسك .

أسكت يا قلبي حتى الصباح ، فمن يترقب الصباح متجلداً يعانقه الصباح مشتاقاً » .

* * *

هذا هو الأسلوب الذي اختاره جبران للايضاح عما يعانيه من كآبة ومرارة ووحشة في حياة الغربة وعما يساوره من الأفكار والأحلام في تأملاته . كان يسمو عن العادي المألوف في التعبير عن الأشياء العادية المألوفة كأنه يكتب بقلم مسحور بالأخيلة أو بريشة مغموسة بألوان قوس قزح . في كل عبارة من عباراته صورة فنّية تتفتح فيها الحياة وتتحرك في جسم المعنى ، ونبرة موسيقية تثير رعشة حول الكلمات . كان ذا عين ثالثة — كما يقول — ترى في الطبيعة ما لا تراه العيون ، وأذن باطنية تسمع من همس الليالي ما لا تعيه الآذان . قال عنه نعيمه :

« جبران أرسل آلامه وأفراحه موسيقى تترقرق في مقاطع الكلم وألواناً تذوب وتتجمد أفكاراً وأشواقاً حية ، وخطوطاً كأنها سلالم تنحدر بك إلى أقصى دركات الألم البشري وتصعد بك إلى عرش الإلـه الساكن في قلب كل إنسان . جبران عطية السماء الـتي أبصرت ما في حياتنا الروحية من قحط فأرسلت لنا هذه السحابة المباركة لتمطرنا بعض بركاتها » .

لقد حاكى أدب جبران أدب الغرب في خلق الصور ولكنه لم يقلده ولم يفقد لونه الجبراني الخاص .

كان اجرأ من انتقض على الأساليب القديمة وفتح للكلمة آفاقاً جديدة في عهد شُلّ فيه الفكر وجمد اللفظ وتقلص الهدف . فلا عجب ان لاقى أدبه اضطهاداً من المتزمتين في بادئ الأمر . وجبران كان قليل الصبر على الانتقاد ، بله الاضطهاد . اسمعه في سورة الغضب :

« يا بني أمي

ناديتكم في سكينة الليل لأريكم جمال البدر وهيبة الكواكب فهببتم من مضاجعكم مذعورين وقبضتم على سيوفكم ورماحكم قائلين : أين العدو لنصرعه .

وعند الصباح وقد جاء العدو بخيله وبرجله ناديتكم فلم تهبّوا من رقادكم بل ظللتم تغالبون مواكب الأحلام .

إنما الحياة عزم يرافق الشبيبة ، وجدّ يلاحق الكهولة ، وحكمة تتبع الشيوخ . أما أنتم يا بني أمي فقد ولدتم شيوخاً عاجزين ثم صغرت رؤوسكم وتقلصت جلودكم فصرتم أطفالاً تتقلبون على الأوحال وتترامون على الحجارة » .

وها هو يقول لحبيبته ميشيلن : « أنا أكره الناس وسبل الناس وأكره من يحبهم ويسير في سبيلهم . هم كالدجاج لهم أجنحة ولا يطيرون . ومخالب ولا يفتشون بها إلا على الديدان . هم لا يبيضون إلا في أكناف

تقاليدهم المظلمة وأنظمتهم النتنة . أعطيني ولو فرخ نسر واحد وخذي كل دجاج الأرض » .

ولكن هذه اللهجة العنيفة والنقمة الصارخة على الناس وسبل الناس اختفتا من أدبه حينما راجت مؤلفاته واتسعت شهرته وانطلقت الألسنة بالتمجيد بعد التنديد . تقرأ ما كتبه بعد أعوام فلا تصدق أن الكاتب هو جبران الأمس :

« المتاعب التي تجدها بين الناس هي أجلّ وأجمل من الراحة التي تستسلم اليها بعيداً عنهم . والرأفة التي تلامس بها قلب القريب هي اسمى من الفضيلة المختبئة في زوايا الصوامع . وكلمة التعزية التي تقولها على مسامع الضعيف والمجرم والساقطة هي أشرف من الصلاة التي ترددها شفاهنا في الهيكل » .

ذلك أنه منذ عام ١٩٢٠ ، وبعد أن تأسست الرابطة القلمية وأصبح عميدها ومحورها ، انصرف إلى التأليف باللغة الانكليزية بنجاح فريد . فأصدر ثمانية كتب في ثمانية أعوام ابتداء من « المجنون والسابق » درّت عليه أرباحاً طائلة ونزعت من قلمه طعم المرارة ومن قلبه حرارة الشكوى . كان يكتب في الحب الضيق الخاص فأصبح يكتب في الحب العام المطلق . كان أدبه قومياً فأصبح إنسانياً . ثم دخل في طور الفلسفة . فكانت فلسفته مبنية على الحب ، على نقيض فلسفة نيتشه المبنية على العنف . لذلك لا نصدق القائلين بأنه تأثر بأفكار نيتشه في مؤلفاته . والذروة في هذه المؤلفات هو كتاب النبي الذي ترجم إلى جميع اللغات الحية في المعمورة وطبع منه بالانكليزية وحدها ما يناهز مليوني نسخة . فما كانت كتبه السبعة التي سبقته إلى الصدور إلاّ درجات ارتقاها جبران إلى الأفق السامي المتألق بالحب والحق والجمال في كتاب النبي . وضع في هذا الكتاب عصارة فكره الصافي وأشعة خياله الوهاج . فسّر للناس كيف يولدون ويأكلون ويشربون

ويحبّون ويتزوجون ويفرحون ويحزنون ويموتون ، في أمثال ومجازات ومواعظ جوّد عباراتها وصقلهـا صقلاً بارعاً لا يفشي الجهد والتعمل في إنشائها . وقد عاش هـذا الكتاب بفضل روحه القوية لا بفضل ثوبه المزركش ، وسوف يعيش أبـداً بجوهره وإن باخت يوماً ما ألوان أسلوبه (الكلام لنعيمه في كتابه عن جبران) وكتب عنه الأديب الاميركي الشهير «برز باين» : لو كنتُ من المؤمنين برجوع المسيح إلى الأرض لأيقنت أنه عاد في شخص جبران خليل جبران .

ليس من شأننا دراسة الكتب الانكليزية في محـاضرات عن الأدب العربي ، ولكن علينا أن نشير إلى تأثير كتب جبران في البيئة الغربية وفي معاصريه من أدباء العـرب وفي بني قومه المهـاجرين وغـير المهاجرين . فالمهاجرون عندما رأوا الأميركيين يغدقون عليه الألقـاب ويتهافتون على مطالعة كتبه ، عرفوا قدر جبران وأصبح في نظرهم نابغتهم وفيلسوفهم وحدقة عيونهم يتباهون بأنهم من بلده ويترجمون كتبه إلى العربية . ولكنهم كعادتهم انتظروا يوم وفاته لتكريمه وتقديسه بينما الاميركيون عظموه في حيـاته ومنحوه مـا يستحق من قلوبهـم وجيوبهم . كتبت عنه جريدة النيويورك هرلد : «أنه نابغة ستين مليوناً من الشرقيين المتكلمين العربية» ويصح أن نضيف إلى هذا القول إنه أعجوبة الملايين الستين ، وهل أعجب من أن يموت أديب عربي في منفاه ، عن تركة محترمة في المصارف والمكتبات ، وأن يوصي للقرية اللبنانية التي ضنت عليه بالكفاف من الرزق بريع كتبه ومجموعة صوره ، وأن يخلف للبلاد التي جارت على قلبه في صباه ، كنوزاً لا تثمن من الشهرة والمجد ؟

أثره في الأدب العربي بليغ خالد . أوجد في اللغة مدرسة بيانية جديدة تخاطب جميع الحواس وتخلق الجو الساحر . ونشر من الأفكار ما يغذي العقول ويرهف الأذهان ، فأصبح قدوة للأدباء الشباب في

الأقطار العربية . كان مصباحاً فكرياً - حسب تعبير خليل مطران - لو رزق من الصحة في قلبه كما رزقها في عقله لكشف من الغيب للعالمين ما يهدي البصائر الزائغة ويقر الأماني الحائرة .

لم يوح اليه المهجر بصورة واحدة من صوره ولا بموضوع واحد من مواضيع مقالاته وقصصه . كتبها كلها بروح شرقية كأنه أصمّ أذنيه عن ضجيج الدواليب وصفير البواخر حوله . ومن العجيب أن لا تلمح في مؤلفاته الانكليزية إلاّ طيوف المنطقة اللبنانية التي ولد فيها . طيوف الليل والفجر والوادي والنهر والضباب والبحر . وتسمع ناي الراعي وأناشيد الفلاحين في الكرم والبيدر والمعصرة .

كان شديد الحب والاجلال للامام علي . يكاد يضعه في مرتبة واحدة مع النبي (القول لنعيمه) ، وفيه يقول :

« مات علي بن أبي طالب شهيد عظمته . مات والابتسامة على شفتيه . مات شأن جميع الأنبياء الباصرين الذين يأتون إلى بلد ليس ببلدهم وإلى قوم ليسوا بقومهم في زمن ليس بزمنهم . ولكن لربك شأناً في ذلك وهو أعلم » .

« ثلاثة من عظماء الانسانية ملأوا قلب جبران فاتجه اليهم بما يشبه الصلوات الحارة تتصاعد من معبد الحياة إلى ان اكتملت فيهم معانيها وسمت روحها : المسيح ومحمد وعلي . انه بحث عن الوجوه الإنسانية الصافية في خلال صفحات التاريخ راغباً في تجسيد مثاليته الاجتماعية والانسانية في أشخاص من لحم ودم ، فما وجد غيرهم »[1] .

كتب عنه الريحاني ما يأتي : « في مدينة من العالم الجديد قلبها من حديد ، بين عجيج يروع وضجيج يصمّ ، حيث تُذبح الأصوات الوديعة وتختنق الأشواق العالية ، في قلب التيار القهار المبدع جبابرة العمل ، في ظلال ناطحات السحاب ، في المدينة التي تحصي وتزن وتقيس

---

١ جورج جرداق في كتاب « الامام علي صوت العدالة الانسانية » .

كل شيء ، أقـام من لا يحسن العد ، ولا يحترم المقاييس والأوزان . وأبدع إنشاء وفكراً . فسمعت كلمته أمم تضن بسمعها على الشرق ، وردد حكمته الجالسون على عروش الحكمة بعد أن أمسى جبران ذا عرش بينهم » .

وهنا مجال الاستشهاد ببعض أقواله الحكيمة :

أقرب الناس إلى قلبي : ملك لا مملكة له وفقير لا يعرف كيف يستعطي .

أشتاق إلى الأبدية لأنني سأجتمع فيها بقصائدي غير المنظومة وصوري غير المرسومة .

عندما تبلغ قلب الحياة تجد أنك لست أرفع من المجرمين ، ولا أدنى من الأنبياء .

الناس رجلان : رجل مستيقظ في الظلام ورجل نائم في النور .

قولك إنك لا تفهمني مديح لا أستحقه أنا ، وإهانة لا تستحقها أنت.

كم مرة عزوت لنفسي جرائم لم أرتكبها قط كي لا أظهر أرفع ممن يجالسني من المجرمين .

فضل بعض الأثرياء في أنهم يعلموننا احتقار الثروة .

العلم والدين متفقان . أما العلم والمذهب فلن يتفقا .

القوي ينمو بالعزلة أما الضعيف فيموت .

كلنا عملي فيما يختص بالذات ، وكلنا خيالي فيما يتعلق بالآخرين .

ما تكلمت إلاّ أخطأت لأن فكرتي من عالم التجريد وبياني من عالم الاقتباس .

أطرح جواهري أمام الخنازير لعلها تبتلعها وتموت من التخمة أو عسر الهضم .

قيمة الإنسان في ما يخلقه ولو كان قليلاً ، وليس في ما يجمعه ولو كان كثيراً .

الأمة الضعيفة تستضعف الأقوياء من أبنائها وتستقوي الضعفاء من أبناء الأمة القوية .

لم أجد في الحياة سوى قضيتين أوليتين هما الجمال والحق . أما الجمال ففي قلوب المحبين ، وأما الحق ففي سواعد العمال .

كتبت على بابي : دع تقاليدك خارجاً وادخل . فلم يزرني أحد من الناس .

أبعدوني عمن يقول : أنا كالشمعة أذيب نفسي ليستضيء النـاس بنوري . وقربوني ممن يشعر بأنه يستضيء أبداً بنور الناس .

لو جلست على السحابة لما رأيت الحد الفاصل بين بلاد وبلاد ، ولا الحجر الفاصل بين حقل وآخر . ولكن يا للأسف . إنك لا تستطيع أن تجلس على السحابة .

تستطيع أن تسحق الزهرة تحت قدميك . ولكن أنى لك أن تزيل عطرها ؟

لم يبلغ جبران هذا المستوى العالي من الحكمة إلاّ بعد تأمّـلات وتجارب استغرقت خمسة عشر عاماً كان في خلالها يعالج القصة ويتدرج نمواً في حقل البيان ونضجاً في حقل الفكر . هاجم الشر في كل مـا كتب وحاول أن يقضي عليه فلم يفلح رغم استعانته بأقلام زملائه في الرابطة القلمية . فصدمت هذه الخيبة آماله وتركته حائراً في مفازات الخير والشر يبحث عن هدف وراء الضباب ولا يهتدي . إنه لم يستأصل عوامل الشر من نفوس البشر ، حتى ولا من نفسه . فالذي قال في مواكبه عن الحب :

والحب إن قادت الأجسام موكبه إلى فراش من اللذات ينتحر

قد نحر حبه على فراش اللذات مرتين على الأقل — في رواية نعيمه —

إذ ثبت ان حبه لماري هاسكل ظل أفلاطونياً كحبه للآنسة ميّ . انه لم يستطع أن ينقي نفسه من كل شائبة ويرفعها إلى مستوى الجمال الذي لمحه بخياله وبشّر به في كتبه وبثه في رسومه . فعاش في صراع دائم مع نفسه . كان خياله أنشط من إرادته . ونعيمه يشبهه بالطيارة الـتي يطلقها الأولاد في الهواء مشدودة إلى خيط في أيديهم ، فلا تتذوق حرية الفضاء حتى يجذبها الخيط إلى عبودية الأرض . ونحن نجد في متحفـه رسوم النساء الاربع اللواتي دخلن حياته وملأن قلبه . رسم « حلا الظاهر » – حبه الأول – ورسم ميشلين عشيقته الاولى ، ورسم ماري هسكل ولية نعمته ، ورسم الآنسة ميّ التي بادلها الحب السماوي بالمراسلات إلى آخر نسمة من حياته وكانت الوحيدة التي فهمت لغة روحه .

وقد عاشرته المدموازيل روزيه في باريس بصفة « موديل » لرسومه وشهدت له بالعفاف حين قالت لرفيقه الحويك إنه أمير لطيف ومهذب . لم تبدر منه أية حركة أو كلمة غير لائقة نحوها ، رغم انوثتها الطاغية وشعرها الذهبي الوهاج . ونجد في رسائل الآنسة ميّ اليه دلائل على براءة حبه وشرف عاطفته : « في أعماق نفسي يتصاعد الشكر اليك بخوراً ، لأنك أوحيت إليّ ما عجز عنه الآخرون . اتعلم ذلك ، أنت الذي لا تعلم . أنت الذي لا أريد أن تعلم ؟.. » وفي جوابه لها يقول – وهي آخر رسالة كتبها قبل وفاته – « كلمةٌ لا تزال في قلبي ، شعلة لا بدّ من اخراجها » .

تجلى هذا الصراع في كتابه المجنون حيث نعى على المدينة الفـاضلة استمرارها في طريق الفساد ولكنه بعد أعوام صدر عنه في كتابه « السابق » ما ينم على الهدوء النفساني والاستسلام لإرادة الحياة :

« عندما طرحني الله في بحيرة الحياة العجيبة أحدثت على سطحها دوائر لا تحصى . إلاّ أنني من بعد أن بلغت القاع أصبحت هادئاً » .

هذا الهدوء بعد مراحل الكفاح وبلوغ النجاح يلوح لنا أنه كان نتيجة

عاملين هما الضنى في الجسد والغنى في المادة .

وما أبعد السعادة عن حالتي الضنى والغنى . كان في قلبه فراغ لم يملأه بخور المعجبين ووحشة لم تؤنسها طيوف الشهرة ..

« أنا غريب في هذا العالم . وفي الغربة وحشة موجعة تجعلني أفكر أبداً بوطن سحري لا أعرفه وتملأ أحلامي أشباح أرض قصية ما رأتها عيني » .

وها قد بلغ جبران الوطن السحري الذي لم يعرفه ، قبل أن يبلغ المقرّ الذي عرفه ، نعني تلك الصومعة في بشراي على كتف وادي قاديشا التي تمنى لو يقضي بقية أيامه فيها فما أمهله القضاء وعاد اليها جثة هامدة . فأصبحت اليوم مزاراً للحجاج بينما روحه تطل من كتبه على جميع نواحي الكون. مات معتقداً انه لم يقل كلمته بعد. ولم يمض عام واحد على وفاته حتى أصبح اسطورة من الأساطير تنسب اليه المثالية الروحية الكاملة ، حتى النبوة . فان جاز الارتياب بهذه المثالية لا يتطرق أي شك إلى كونه انساناً عظيماً .

لم يكن حتماً على صاحب كتاب « النبيّ » أن يكون نبياً . ولكن البسطاء ارتاحوا للاسطورة وتمسكوا بها . وساعد على ترويجها فيما بعد الكتاب الذي أصدرته الكاتبة الأميركية باربرا يونغ بعنوان « رجل من لبنان » وفيه قدّست جبران تقديساً يقرب من التأليه . وقد نقله إلى العربية الأديب الفلسطيني سعيد البابا نزيل سان باولو . ونحن لا ندري إن كانت المؤلفة استمدت معلوماتها من الخيال أم من الاختبار ، بعد ان قرّبها اليه في السنوات الأخيرة من حياته ؟ إنما نلاحظ انها نزّهته عن كل ضعف بشري وأضافت إلى نواحي عبقريته ناحية لم يشر اليها راوٍ من الرواة قبلها وهي الناحية العملية الايجابية في رسالة جبران تقول : « انه كان يحلم لوطنه بمستقبل مجيد . وفي السكون يضع له التصاميم لمشاريع التحريج والزراعة ويرسم الخطط لحلّ مشكلاته الاقتصادية والاجتماعية » .

وهي تعتقد بأن جبران ما خطت يده العبارات الساحرة إلاّ ليزيّن بها أفكاراً هي عنده أثمن من الصيغة البيانية . وقد أرادها دساتير لحياة الفرد والجماعة من بني قومه .

ليس في هذا الزعم ما يدعو إلى الاستغراب . وأية غرابة في أن يشعر الأديب المهاجر بالمأساة الاقتصادية التي يعانيها وطنه والتي كان هو نفسه من ضحاياها ؟ أينسى جبران ان الفاقة ارغمت عائلته على الهجرة من لبنان وان الهجرة أودت بحياة أمه وأخيه واخته في بوسطن ؟ أيرضى ، وهو الإنسان الواعي ، أن تستمر حالة الشقاء هذه وتتكاثر ضحاياها عاماً بعد عام ؟

تعذبت نفس جبران من أجل قومه وتلهفت إلى اصلاح حالهم . هذا لا شك فيه . وقد انعكس العذاب واللهفة في أدبه فتجلت فيه نزعته الواقعية الاشتراكية تحت ستار شفاف من تزاويق الفن وتهاويل الخيال : « ويل للأمة التي تلبس مـا لا تنتج وتأكل ما لا تزرع وتشرب ممـا لا تعصر » .

وها هو يتحدث عن العامل بلسان العاطفة حديثاً تدل بساطته على صدقه :

« أحب من الناس العامل .

أحب الرجل الذي يتناول الأخشاب الجافة المهملة فيصنع منها مهداً للأطفال أو قيثارة حبلى بالانغام . والرجل الذي يقيم من الصخور التماثيل والقصور والهياكل .

أحب الحدّاد الذي ما أنزل مطرقته على سندانه إلاّ أنزل معها قطرة من دمه . وأحب الخياط الذي يخيط الأثواب بأسلاك مشبكة من نور عينيه . وأحب النجار الذي لا يدق المسمار إلا دفن معه شيئاً من عزيمته ،

أحب من الناس العامل لأنه يطعمنا ويحرم نفسه . أحبه لأنه يغزل ويحوك لنلبس الأثواب الجديدة وأولاده في ملابسهم القديمة . أحبه لأنه

يبني المنازل العالية ويسكن الأكواخ الحقيرة . أحب ابتسامته الحلوة وأحب نظرة الاستقلال والحرية في عينيه » .

* * *

زارت لبنان في العام الفائت ابنة ملك سكيم من أقصى جبال التيبت للتعرف إلى وطن جبران . وفي حديث لها مع مجلة « الصياد » قالت : ان شعب التيبت لا يقرأ إلاّ الكتب الدينية ودواوين الشعر وقصص جبران خليل جبران . ويقول الهنود أنفسهم انهم يقرأون جبران كما يقرأون طاغور . وها قد مضى على وفاته ثلث قرن ولم تزل مؤلفاته على رواجها المعهود ، تدرّ على بلديّة قريته (بشري) أكثر من عشرة آلاف دولار سنوياً. وما زالت ترجمات مؤلفاته إلى مختلف اللغات تزداد . وكان آخرها ترجمة الوزير المصري ثروت عكاشه لثلاثة من كتبه : النبيّ وحديقة النبي ويسوع بن الانسان . أما أخته ماريانا التي ربّته وعلّمته فقد جاوزت الثمانين وهي لم تزل على قيد الحياة في بوسطن ، تعيش على ما خصّها به أخوها الحبيب في وصيته .

ميخائيل نعيمة

(١٨٨٩)

أديب الكلام الجامع . أنطق العقل بالأناشيد والشعر بالفلسفة . سماه مارون عبود الأديب المسكوني ، إجلالاً له عن لقب الأستاذ ولقب الفيلسوف .

أوجز سيرة حياته في حديث شافهنا به فقال : أنا الولد الثالث بين خمسة أخوة وأخت واحدة من عائلة بسيطة كادحة . غادرت بسكنتا – قرية مرتفعة في لحف جبل صنين – عام ١٩٠٢ ولي من العمر ثلاثة عشر عاماً والتحقت بمدرسة المعلمين الروسية في الناصرة (فلسطين) . وبعد أربع سنوات اختارتني إدارة المدرسة لتحصيل العلم على نفقتها في روسيا ، فسافرت إلى بولتافا ودرست في كليتها خمس سنوات ، ثم توجهت إلى الولايات المتحدة الشمالية عام ١٩١١ بعد أن قضيت الصيف في لبنان ، ونزلت ولاية واشنطون حيث يقيم أخواي في مدينة صغيرة اسمها والاوالا ، ودرست الحقوق والآداب في جامعتها إلى عام ١٩١٦ وجعلت أنشر في مجلة « الفنون » مقالات نقدية وقصصاً . فراسلني صاحب المجلة نسيب عريضه ودعاني باصرار للقدوم إلى نيويورك .

وهناك تعرفت إلى الأدباء الذين تكوّنت منهم «الرابطة القلمية» . وفي عام ١٩١٨ انخرطت في الجندية تحت اللواء الاميركي وذهبت إلى ساحة الحرب في فرنسا . وبعد انتهاء الحرب مكثت شهوراً في جامعة «رين» في فرنسا ثم تركت الجندية عام ١٩١٩ وعدت إلى نيويورك وأقمت فيها ثلاثة عشر عاماً ، اسهمت في خلالها في نشاط الرابطة الأدبي بينما كنت اشتغل موظفاً في متجر براتب متواضع . وبعد أن توفي جبران عولت على مغادرة المهجر فحملت كتبي المخطوطة وعدت إلى لبنان عام ١٩٣٢ .

* * *

لكي نحدد حصة المهجر من أدب نعيمه نرجع إلى مادة الكتب التي طبعها في مصر وبيروت وإلى تواريخ صدورها فنؤكد انه بعد أن أصدر في نيويورك مسرحية «الآباء والبنون» ١٩١٨ وكتاب الغربال ١٩٢٢ حمل إلى الوطن مخطوطات عديدة بينها : همس الجفون — وكان ما كان — والمراحل — ومذكرات الأرقش . أما الكتب الأخرى (زاد المعاد — البيادر — لقاء — الأوثان — جبران خليل جبران — في مهب الريح — صوت العالم — النور والديجور — مرداد — دروب — اكابر) فلا يدّعيها المهجر .

* * *

بدأ إنتاج نعيمه الأدبي في عهد خمول الأقلام وفي محيط ألِف قراءة الصحف الهزيلة وسماع الخطب البهلوانية بينما كانت النفحة الريحانية تتردد في الجوّ وأدب جبران في دور التفتّح . فجاء نعيمه في أنسب وقت ليلعب الدور الرئيسي في تركيز الأدب الجديد على دعائم متينة ولتعريف جوهره ومناهجه بصورة واضحة . كان له دور المستشار والناقد في الرابطة

القلمية ، وقد أهّلته دراسته الجامعية وموهبته الأدبية للقيام بهذا الدور . كتب عنه زميله وليم كاتسفليس : « ان الفضل في تنظيم الرابطة يعود إلى (ميشا نعيمه) فهو رجل إداري مدقق ومنظم من طراز عال يستحق ان يكون قائداً عسكرياً » .

طابع أدبه الاقتصاد في اللفظ والسخاء في المعنى ، على مرونة في الأداء تتسع للقديم وللحديث من محاسن الأدب . فكأنه سكب روح التجديد في الهيكل القديم ، مع الحرص على سلامة الروح من الشذوذ وعلى سلامة الجسم من الهنات اللغوية . ويتميز أدبه بطابع آخر هو التعمّق والشمول في كل بحث طرقه ، لأن وسائله الفكرية والعلمية تتيح له الوصول إلى أبعد مما وصل اليه سابقوه في الأبحاث المطروقة . فهو لا يكتب ويخطب إلاّ متى كان عنده فكرة جديدة شخصية ، حرية بأن تكتب وتذاع . ويُلاحظ ان ليس للأدب الأميركي أثر يلامس نفسه كما لامسها الأدب الروسي بالرغم من أنه تخرج من جامعة واشنطون الاميركية .

شاء أن يصحح مقاييس الأدب ومقاييس الحياة . فما شرع في التأليف حتّى أعلن الثورة الأدبية في كتابه الفريد « الغربال » ومهد للثورة الاجتماعية في قصته المشهورة « العاقر » . ولو اكتفى بهذين الأثرين وبكتابه عن جبران لما نقصت شهرته في المهاجر والعالم العربي عما هي عليه اليوم . إن أدبه ولد كبيراً ومشى إلى الخلود في طريق القصة والنقد ، لا في طريق الفلسفة الذي اتبعه فيما بعد .

مضى ثلاثون عاماً على صدور كتابه « الغربال » وستجري مياه كثيرة في الغدران قبل أن يظهر في الأدب العربي كتاب يماثله في النقد الأدبي. إنه وضع الأشياء في موضعها ووزن القيم بميزانها الصحيح . فلا إجحاف بقدر الصناعة اللفظية باعتبارها وسيلة الأديب ، شرط أن لا تحجب الغاية من الأدب وهي التعبير عن المعاني والعواطف والأفكار . وسيبقى هذا

الكتاب مرجعاً لكل من يشتغل بالنقد ومدرسة لتعلم الإنشاء الملائم لروح العصر . وقد رأينا في مدرسة نعيمه – كما هو مألوف في كل مدرسة – عصا التأديب ترتفع في وجه الكسالى النقّاقين الذين يسميهم ضفادع الأدب .

ومضى ما يزيد على عشرين عاماً على صدور الطبعة الأولى من كتابه « جبران خليل جبران » دون أن نقع على رائعة تضاهيه في الفن الروائي . جعل نعيمه من سيرة جبران رواية فنية أبدع فيها التصميم والسرد والحوار وحلل اتجاهات صاحب السيرة أدبياً وفنياً وفلسفياً أدق تحليل . وألمّ بكل حادث طرأ على حياته من وع . وع ، إلى غر . غر –، مفاجئاً المحيط الاجتماعي بصراحة لم يألفها في تراجم عظماء الأمة العربية . فهبّت عواصف الانتقاد بتهمة سوء النية وحب الظهور ومغالطة التاريخ ، دون أن يؤثر ذلك في انتشار الكتاب وفي شغف القراء به ، فأعيد طبعه بالعربية للمرة الثانية بعد نشره بالانكليزية . هو كتاب يخلد مجد جبران الإنسان – الإنسان الكبير الذي تتجلى عظمته في طهارة الروح لا في طهارة الجسد . ولا شأن لنعيمه مع المغالين الذين يرون في نابغتهم إلهاً صغيراً ، لا إنساناً كبيراً ، وينزهونه عن الضعف البشري . نقول هذا ولا ننكر على المنصفين اصالة الرأي في تمنيهم لو حذف من الكتاب صفحات قليلة حتى لا يفتح أبواباً تمرّ منها الرياح الغبراء إلى ذكرى الراحل العظيم . ولكننا نقول للمعارضين الحسني النية ان محبتهم لجبران لا يمكن أن تعادل محبة نعيمه له وهو عشيره وسميره وصفيّه وشقيق روحه . « جبران عطية السماء التي أبصرت ما في حياتنا الروحية من قحط فأرسلت لنا هذه السحابة المباركة لتمطرنا بعض بركاتها . اللهم اجعلنا مستحقين لهذه العطية كما نستحق سواها » . إن الذي نطق بهذا التسبيح لجبران وصلى صلاة الشكر على روحه هو نعيمه لا غيره . فأين الحسد والغدر والنميمة التي ينسبونها اليه ؟ من منا كان يعرف شخصية جبران ونفسيته ودقائق

فلسفته مثلما عرفناها بعد مطالعة كتاب نعيمه عنه ؟ إذا أورد في الكتاب ما لم يرد في روايات بقية الرفاق فلأن التقارب الروحي والتفاهم الفلسفي كانا أشد بين جبران ونعيمه ، كما كان الاعجاب متبادلاً صريحاً . وأما أن يتحول الإعجاب إلى تقديس وتأليه فهذا ما أراد نعيمه تحذيرنا منه ، معتقداً ان وضع الأشياء في مواضعها لا يضير جبران بل يشرّفه .

عالج نعيمه الأدب المسرحي في رواية « الآباء والبنون » فابتدع حلاً لمشكلة اللغة المسرحية بجعل الحوار باللغة الفصحى للأشخاص المتعلمين ، وبالعامية لغير المتعلمين . فكان تمثيل هذه الرواية طليعة الفن المسرحي العربي في المهاجر .

وفي باكورة قصصه « العاقر » وصف مأساة الزوجة التي ضحّت بالشرف لكي تصبح والدة وانتحرت قبل الولادة . قصة فجعت القلوب بحوادثها وخلبت الألباب بأسلوبها . وكان نجاحها مشجعاً لنعيمه على السير قدماً في هذه الناحية من الأدب الاجتماعي المثمر . فتوالى إنتاجه القصصي يهاجم به مختلف العادات والتقاليد القديمة المنكرة ، كالايمان بالشعوذات والطلاسم والذخائر العجائبية ، وكراهية الشرق للمواليد الاناث ، ورياء المتزعمين المتشدقين بالوطنية ، وسخافة المولعين بالألقاب ، وأنانية مثيري الحروب . كل هذه الأمراض الاجتماعية شخصها نعيمه في قصصه بأسلوب ساخر مؤثر . ثم كتب مذكرات أرقش وهي بالحقيقة مذكرات نعيمة ، رسم فيها الخطوط العريضة لفلسفته في الحياة .

وبعد ما تأسست الرابطة القلمية وزاد التصاقه بجبران كتب رواية « لقاء » يثبت فيها عقيدة تناسخ الأرواح التي رسخت في ذهنه وأثرت في إنتاجه منذ ذلك الحين . وهي عقيدة لا ندري إن كان استوحاها من جبران أو أوحاها اليه ، وكل ما ندري أنه عالجها في روايته بالروح التي عولجت بها في كتابي جبران « رماد الأجيال » و « النار الخالدة » .

كما اننا لا ندري مدى تأثير جبران في أسلوبه البياني ، ولكن نلاحظ ان الأسلوب الجبراني طغى على انتاجه منذ ذلك الحين : « أفيقي ياحبيبتي . هو ذا الليل يتعرى على التلال . وفي ثنايا جيوبه المحوكة من الأحلام ثنية يهيج فيها ذلك الحلم النوراني الذي جعلنا أسنّ من كل أمس .. وافتى من كل غد » ..

أما من ناحية الشعر فأولى قصائد نعيمه هي « النهر المتجمد » التي نظمها بالروسية أثناء إقامته في بولتافا ثم ترجمها إلى العربية في نيويورك . وهي رائعة حقاً . نبارك من أجلها صقيع روسيا الذي أوحاها . أبياتها تصل العجز بالصدر فيتماسك النغم :

يا نهر هل نضبت مياهك فانقطعت عن الخرير ؟
أم هل هرمت وخار عزمك فانقطعت عن المسير؟

ولكن النغم يتدفق كموسيقى وتريّة عندما يسيل النهر في فصل الربيع ، إلى أن قارن الشاعر بين النهر وبين قلبه الذي ينتظر الربيع عبثاً :

يا نهر ذا قلبي أراه كما أراك مكبـلا
والفرق أنك سوف تنشط من عقالك ، وهو لا

لم يحتج نعيمه إلى نتاج شعري غزير ليثبت موهبته وعبقريته كشاعر . ففي القليل الذي نظمه بلغ منزلة يحسده عليها كثيرون . ويظهر من تواريخ قصائده أنه مارس النظم باللغة العربية طيلة عشر سنوات ، (من ١٩١٧ إلى ١٩٢٦) وبالانكليزية مدة خمس سنوات (من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٠) ، ثم طلق الشعر عندما اتسعت آفاق مداركه ومراميه إلى

حدود ، رأى أن طاقته الشعرية لا تستوعبها كاملة . لقد كبرت معانيه على الالفاظ ، وهو صاحب رسالة في الأدب ، يأبى أن تبقى معانٍ منها حبيسة في صدره . فلم يكتب إلاّ نثراً منذ غادر المهجر .

أصدر ديوان همس الجفون . وقد أحسن اختيار كلمة الهمس لشعره – في رأي الدكتور مندور – لأن شعره يقع في النفس موقع الأسرار التي يتهامس بها الناس . يؤنس النفس ويشعرها بالواجب الانساني همساً دون خطابة ولا تشدق . وكلمة الهمس في رأي الدكتور أيضاً هي إحساس أكثر مما هي معنى . إحساس بالأدب المصوغ من الحياة كقطعة منها .

تفنن نعيمه بأوزان الشعر وآثر البحور المجزوءة والقوافي المتنوعة إرهافاً للوقع الموسيقي :

هللي هللي يا رياح ، وانسجي حول نومي وشاح
من خرير الغدير واهتزاز الأثير
واختلاج العبير في دموع الصباح

ما أبرع الفنان الذي يفارق بين الأنغام بالرنة في كل مقطع لكي يجمعها بعد ذلك في سمفونية عامة للقصيدة :

إذا سماؤك يوماً تحجبت بالغيوم
اغمض جفونك تبصر خلف الغيوم نجوم
والأرض حولك إمّا توشحت بالثلوج
اغمض جفونك تبصر تحت الثلوج مروج

هذه حقائق علمية تخرج من قالب الشعر بكساء زاهي الألوان . اسمعه

يخاطب نفسه :

هل من الأمواج جئتِ
هل من البرق انفصلتِ
أم مع الرعد انحدرت
هل من الفجر انبثقت
أم من الشمس هبطت
هل من الألحان أنت ؟
أنت فيض من إلّه !

حدثيني عن الحياة لكي أعطي عني أمام نفسي حسابا
فعسى الخالق الذي طي صدري لا يزيد النيران فيها التهابا

هنا نعيمه يفلسف الشعر — حسب تعبير الدكتور طه حسين عن المعري — وعلامات الاستفهام التي تتواتر في شعره هي نتيجة الحيرة التي استحوذت على عقول جميع زملائه في الرابطة القلمية .

ولنعيمه شذور وأمثال جمعها في كتاب « كرم على درب » الصادر عن بيروت ، هي نتيجة تأملاته في سنين متفرقة لا نخطئ بالظن أن حصة المهجر كانت كبيرة . نذكر منها قوله :

أنفقت عمرك في خدمة بيت الرب . فمتى تخدم رب البيت ؟

بعض الناس كالسلّم . يصعد عليه الصاعدون وينزل النازلون . أما هم فلا يصعدون ولا ينزلون .

صلاة القوي في قلبه . وصلاة الضعيف في فم الكاهن .

كلنا في الطاحون بلابل .

ملوك العبيد ملوك عبيد .

للأسد هيبة في موته ليست للكلب في حياته .

متى أصبح رطل الفجل بدينار وقنطار السياسة ببعرة فقل قد اصطلح الزمان .

أما سائر مؤلفاته ، وهي في نظره أهم ما أنتج قلمه ، فلا نتعرض لها لأنها وليدة صومعة الشخروب في لبنان . هي سلسلة من التعاليم الروحانية والتحاليل الفلسفية الرامية إلى إصلاح المجتمع البشري بقوة الروح ، وتربية النفوس على فضائل المحبة والتضامن والايثار والتضحية والترفع عن دنايا الحياة شأن الأنبياء المرسلين . لقد وضع دستوراً للحياة المثلى في كتابه « زاد المعاد » ولخص تعاليمه السامية في كتاب « مرداد » وما زال يبشر بعقيدته وطريقته في كل كتاب وكل مقال : « ألا وسعوا أبواب أرواحكم كيلا يظل أحد خارجها . لا تبغضوا أحداً من الناس وإن كان لا بدّ لكم من البغض فأبغضوا كل ما في الناس من ضعف وإثم . لا تبغضوا الشرير وأبغضوا الشرّ لأنكم إن أبغضتم الشرير أصبحتم أشراراً مثله . أما إذا أبغضتم الشرّ فقد تقتلونه وتهتدون إلى الخير . لا تكرهوا الظالم واكرهوا الظلم . لأنكم إن كرهتم الظالم كنتم ظالمين مثله وإن أحببتموه عرفتم العدل ورددتم الظالم اليه . لا تهربوا من الجاهل واهربوا من الجهل . لأنكم عندما تهربون من الجاهل لا تهربون إلا من أنفسكم . أما هربكم من الجهل فهو اقتراب من المعرفة . إني رأيت الناس كالأزهار الشائكة . إن أنت جئتها مغتصباً أدمتك ، وإن جئتها كالنحلة حاملاً اليها سلام الله ومحبة رفيقاتها واخواتها ، فتحت لك قلوبها وأعطتك كل ما فيها من حلاوة فاحملوا معي سلام الله للناس ومحبة الناس للناس . »

هذه الابحاث هي أحب المواضيع لقلب نعيمه ولكنها ليست أحبها لقلوب القراء . إننا في حال من ظروف الحياة تجعلنا نستهدي نور

الوقائع ، لا بهاء الشرائع الخيالية . لقد استفاق الضمير العلمي على حقائق حسابية توجب على الناس مقاومة الشر بالشر ومقابلة القوة بالقوة دفاعاً عن أنفسهم وحفظاً لكيانهم . ولولا تجاهل هذه الحقائق الحسابية لما انزلقت الأمة العربية إلى الموقف الحرج الذي تقفه اليوم بين الأمم .

إن شريعة المحبة الانسانية لا تؤتي أكلها إلاّ إذا أخذت بها جميع الشعوب بمقدار واحد وفي آن واحد ، حتّى لا يبقى بين الشعوب ضعيف مستعبد وقوي مسيطر . أما الشعب الذي ينفرد بتطبيق مبادئها على نفسه فيحب الظالم ويضم الشرير إلى صدره ، فإنه يتعرض لأفدح الأخطار في عصر القنبلة الذرية والمطامع الصهيونية والدعوة الشيوعية . يقول الشاعر القروي في مقدمة ديوانه :

« لو كنت شاعراً فرنسياً أو انكليزياً أو امبركياً لحبست النفس على التبشير بالسلام . أما وأنا سوري من لبنان فلا غرض لي في الحياة أشرف من دعوة شعبي إلى بغض الشعوب ولا مثل عندي أعلى من استنهاض أمتي لمحاربة الأمم . انه لبغض أسمى من الحب وحربٌ أقدس من السلم » .

وأغلب الظن ان الشاعر الذي يثور في قصيدة « أخي » على الخزي والعار اللذين لبسناهما نحن العرب حتّى « خمّت » الدنيا بنا وبموتانا ، لو عمل بوجدانه لا بفلسفته لدعا إلى أخذ الثأر لا إلى حفر خنادق نواري فيها الأحياء منّا مع الأموات .

وإلى أن تُكرس وتُنفّذ وتُعمم شريعة المحبة لا بدّ لها من رُسلٍ يُبشرون بها — ونعيمه واحد منهم — وما على الرسول إلاّ البلاغ ، فهو يقول ان الاصلاح الحقيقي يقوم على بناء الانسان من الداخل حيث تنبع مشكلاته : الكره والجشع والنفاق والرياء وحب الاثرة والسلطان . ومن يداوي الآفات المادية دون الروحية كمن يداوي السرطان في الكبد بمساحيق

يطلي بها وجه المريض لكي يبدو زاهياً نضراً .

أما نظرته الفلسفية إلى الحياة فتقوم على تحليل أسبابها وتحديد الهدف منها : « يدلني عقلي على وجود نظام في الكون . ووجوده يدلني على وجود المنظم وعلى وجود الغاية من التنظيم . وعليّ أن أستقصي هذا النظام في الكون وفي داخلي بالوسائل التي وضعها المنظم تحت تصرفي : العقل . الخيال . البصيرة . الوجدان . الإرادة . ومتى أحسن البشر استعمال هذه الوسائل أمنوا شر الأمراض والأوجاع التي هي دروس يلقيها المنظم على من يخالف نظامه . »

هذه الفلسفة إن لم تخلد نعيمه ، يخلده أدبه كناقد وقاص وشاعر .

لقد أسرفنا في الاستشهاد بأقواله في هذه المحاضرات ، ولكن ماذا نفعل عندما نجد في أدبه شاهداً على كل رأي نتقدم به ، فما خطرت لنا فكرة صائبة إلاّ سبقنا اليها وما توفقنا إلى تعبير عن فكرتنا إلاّ وقعنا على أقوى منه في تعابير نعيمه ، فرأينا من مصلحة السامعين أن يسمعوه .

إن قلم نعيمه لمن أقوى الأقلام العربية ورسالته من أسمى الرسالات الإنسانية . وله فن برسم الخطوط وتصوير المعاني بلا مغالاة ولا ابهام . لكل كلمة من كلماته موضع لا تجوز كلمة غيرها فيه . اسمعه يعاتب لبنان غداة عودته اليه :

« عفوك يا لبنان . لأنت أروع حلم حلمته الأرض وأبدع قصيدة نظمتها السماء . ما برّد شوقي اللافح إلى الجمال والطمأنينة والسلام بقعة من بقاع الأرض إلى حد ما فعلته أنت . فما أحراك بسكان كلهم جمال وكلهم طمأنينة وكلهم سلام . عفوك يا شماريخ لبنان . ما أحراك بقلوب تصمد لعاديات الزمان صمودك للعواصف والصواعق ، وبأجساد صلابتها صلابة جلاميدك ، وبأبصار لاتقرّحها الرياح والشموس . عفوك يا أخاديد لبنان . يا مقالع المفاتن والأسرار وأوكار الأغساق والأسحار . يا مخادع

النسمات الناعمات ومسارح الرياح العاصفات . يا مقابر الضوضاء ويا منابر السكينة . لكأنك في المريخ ونحن في زحل . أنت معابر يعبرها البحر إلى القمم ، وتعبرها القمم إلى البحر . ونحن قوم لا نفتش عن معابر من أغوار الإنسان إلى أعاليه ومن أعاليه إلى أغواره . بل نفتش عن رقاب نطأها بنعالنا وعن نعال تطأ رقابنا . عفوك يا نواقيس لبنان ويا مآذن لبنان . لأنت جديرة بآذان غير آذاننا » .

في هذه السنين الأخيرة أتحف نعيمه الأدب العربي بترجمة حياته في كتاب « سبعون » ، في ثلاثة أجزاء ، وبكتابين آخرين : الأول عن رحلته إلى روسيا بدعوة من حكومتها ، والثاني « اللقاء الاخير » وهو رواية حلّل فيها انفعالات الانسان الواصل من دار الحياة إلى الموعد المحتم مع الموت . وترجم للعربية كتاب جبران « النبي » ترجمة ممتازة . وقد نال من جمعية أصدقاء الكتاب الجائزة التقديرية الكبرى (خمسة آلاف ليرة لبنانية) . وما زال « ناسك الشخروب » في أعالي صنين متفرغاً للانتاج في عزلته المطمئنة ، يناجي الجمال في وجه الطبيعة السافرة ويستهدي بنور الله إلى دروب الحقيقة الأزلية .

ايليا ابو ماضي

١٨٩٠ – ١٩٥٧

ايليا بن ضاهر ابو ماضي ، شاعر المهجر الأول ، وُلد في قريـة المحيدثة من لبنان وترك المدرسة في سن الحادية عشرة متوجهـاً إلى الاسكندرية ، ساعياً إلى تحصيل الرزق . فاشتغل في بيع السجائر والدخان منذ عام ١٩٠٢ واستغل أوقات فراغه في المطالعة والدرس ونظم الشعر . فتأثّر أول ما تأثر ببيان القرآن الكريم وبأفكار المعري وبشعر ابي نواس . وفي عام ١٩١١ أصدر ديوانه الأول باسم « ديوان إيليا ضاهر أبو ماضي » وأهداه إلى الأمة المصرية بهذه الكلمة : « ايتها الأمة الودودة . هذا ديواني الذي نظمته تحت سمائك وبين مغانيك أرفعه اليك لا طلباً للمثوبة ولا ابتغاء للشكر ولكن إظهاراً لما تكنه جوانحي من العطف عليك والتعلق بك » .

هذه العاطفة الصادقة نحو مصر لم تفتر في صدر أبو ماضي على مر السنين بل أشار اليها أكثر من مرة في شعره المنظوم في نيويورك :

جاد الكنانة عني وابل غدق	وإن يك النيل يغنيها عن الديم
الشرق تاج ومصر منه درّته	والشرق جيش ومصر حامل العلم

هيهات تطرف فيها عين زائرها ... بغير ذي أدب أو غير ذي شمم
أحنى على الحرّ من أم على ولد ... فالحر في مصر كالورقاء في الحرم

نزح إلى أميركا الشمالية عام ١٩١١ وأقام في سنسناتي أوهايو أربع سنوات ، بعيداً عن دنيا الأدب ، منصرفاً إلى العمل التجاري مع أخيه الأديب مراد أبو ماضي . وكان لهذه السنوات الأربع تأثير على شاعريته . لقد تطورت بسرعة عجيبة حتى غاب عن قصائده المنظومة في خلالها ذلك الشاعر المقلد الذي يقول في ديوانه الأول :

بيض ترائبها سود ذوائبهـا ... زج حواجبها كحل مآقيهـا
قامت تصافحني والردف يمنعها ... والوجد يدفعها والقد يثنيها

أو يبكي على الاطلال :

لمن الديار تنوح فيها الشمـأل ... ما مات أهلوها ولم يسترحلوا

كان شأنه في مصر شأن غيره من الشعراء ، يستلهم شعر العصر العباسي ويحاول أن يقلد البارودي وصبري وشوقي وحافظ في أساليبهم. ولكنه حالما نزح عن المحيط المصري تقمص شعره روحاً جديدة واستقل بطابع شخصي فنظم الروائع مثل قصيدة ابنة الفجر وفلسفة الحياة وفي الليل والخلود ، وأصبح الركن الأول في بناء الشعر المهجري الحديث . ولإدراك مدى ذلك التطور حسبنا أن نقرأ في قصيدته الشاعر وصفه للشلال :

فيه من السيف الصقيل بريقـه ... وله ضجيج الجحفل الجـرار

أبداً يرش صخوره بدموعه أتراه يغسلها مـن الأوزار

وفي قصيدة غزل :

أحب معـانقة النرجس لعينيك يا ابنة كولومبس
وددت الإفاضة قبل اللقاء فلما لقيتك لم أنبس
وبت وإياك في معزل كأني وإياك في مجلس

* * *

لو أستطيع عصرت روحي خمـرة في كـاسـها
حتى إذا وقف النـوى بيـني وبـين كناسـها
أو أنكـرت وتجـاهلت أمـري لـدى جلاّسـها
أطلّت مـن أجفانهـا وجريت مـع أنفاسـها

ولم ينكر أبو ماضي حدوث هذا التطور في شعره بل قال :

أيها السـائل عني من أنـا أنا كالشرق إلى الشمس انتسابي
لست أشكو إن شكا غيري النوى غربة الاجسام ليست باغتراب
أنا كالكرمة لو لم تغترب ما حواها الناس خمراً في الخوابي
أنا كالسوسن لو لم ينتقل لم يتوّج زهره رأس كعاب

ونرى أن التطور لم يقتصر على نزع الرداء القديم عن صناعته بـل شمل نزعته وتفكيره . فذلك المتشائم في ديوانه الأول ، القائل :

قالوا ترقّى سليل الطين قلت لهم الآن تمّ شـقاء العالم الآنـا
إن الحديد إذا ما لانَ صار مُدى فكن على حذر منه إذا لانـا

أصبح في ديوانه الثاني رائد المتفائلين :

أيهذا الشاكي وما بك داء كيف تغدو إذا غدوت عليلا
هو عبء على الحياة ثقيل من يظن الحياة عبئاً ثقيلا
والذي نفسه بغير جمال لا يرى في الوجود شيئاً جميلا
كن هزاراً في عشّه يتغنّى لا غراباً في الليل يبكي الطلولا
كن غديراً يسير في الأرض رقراقاً ويسقي من جانبيه الحقولا
لا وعاء يقيّد الماء حتى تستحيل المياه فيه وحولا
ايهذا الشاكي وما بك داء كن جميلاً تر الوجود جميلا

* * *

كم تشتكي وتقول انك معدم والارض ملكك والسما والانجم
ولك الحقول وزهرها وأريجها ونسيمها والبلبل المترنّم

ويلاحظ أن الاغتراب في مرحلته الأولى أرهف عاطفته الوطنية فجاء ديوانه مشتملاً على خمس عشرة قصيدة في المواضيع الوطنية نظمها خلال ثلاث سنوات ولم ينظم ما يماثلها عدداً في الأربعين سنة التالية . كما يلاحظ أن الحيرة في أسرار الوجود بدأت تخامر ذهنه منذ ذلك العهد في سنسناتي أوهايو ، قبل أن يعرف نيويورك ويتصل بجبران وبأعضاء الرابطة القلمية :

أفكر كيف جئت وكيف أمضي على رغمي فأعيا بالجواب
أتيت ولم أكن أدري مجيئي وأذهب غير دار بالأياب
إذا كان المصير إلى التلاشي فلمْ جئنا وكنا في حجاب ؟
وإن كان المصير إلى خلود فما معنى المنية والتباب
أمور لا يحيط بهن فكر ولو أمسى يحيط بكل باب

يدلنا هذا الشعر على أن « الطلاسم » التي نشرت بعد عشر سنوات لم تكن نتيجة الايحاء الخارجي بل وليدة تأملاته الشخصية .

في عام ١٩١٦ انتقل أبو ماضي إلى نيويورك وتعرّف بجبران ، وبعد ثلاثة أعوام أصدر الجزء الثاني من ديوانه مع مقدمة لجبران جاء فيها :
« في ديوان ابو ماضي سلالم بين المنظور وغير المنظور ، وحبال تربط مظاهر الحياة بخفاياها ، وكؤوس تملأه بتلك الخمرة التي إن لم ترشفها تظل ظمآن حتى تمل ّ الآلهة البشر فتغمرهم ثانية بالطوفان » .

ويقيناً لم ينل هـذه الشهادة العـالية شاعر « لا يحسن علم الألفاظ والأوزان » كما قال عنه الدكتور طه حسين ، أو شاعر « مقلد تعلم الشعر الصحيح من ميخائيل نعيمه » كما ورد في كتاب انطباعات مغترب لعبد المسيح الحداد ، بل شاعر نضجت ثقافته الفكرية واللغوية معاً قبل أن يعرف جبران ونعيمه ، وتمكّنتْ يراعته من تطويـع العبارات واختيار الألفاظ لرسم الصور الشعرية ، فأصبحت قصائده كنوزاً أدبية تتلقفها الأيدي وتتغنى بها الألسنة ويستظهرها الطلاب على مقاعد المدرسة .

أبو ماضي أحدث تجديداً في الكلمة الشعرية ، جعلها تتسع لمضامين الحياة الاجتماعية والفكرية وللمشاكل النفسية دون أن تخرج من إطار البساطة والوضوح . وإنه لمن المدهشات أن يكون أعمق الشعراء فكراً هو أسلسهم بياناً ، حتى لتغريك بساطة شعره بمحاكاته ثم تنبيك التجربة بأن محاكاته ضرب من المستحيل . إن تصدى لوصف مشهد استوعب خياله جميع مرائيه وملابساته ولم ينس ما في زواياه من طيوف وظلال . وإن خطرت له فكرة القى النور الكشاف على عقدتها وذيولها فبرزت تفاصيلها في بيان مشرق عذب الألحان شائق الألوان ، كأن الممتنع على غيره سهل لديه . قال المعري :

والغيث أهنـأه الذي يهمي وليس له رعود

بعد ما توثقت الصلات بين أبو ماضي وجبران ونعيمه ونسيب عريضه ورشيد أيوب واندره حداد في السنين التالية ، اشترك شاعرنا معهم في تأسيس « الرابطة القلمية » ، وعمل مثلهم على تعزيزها وتحقيق غاياتها ، وتأثّر كزملائه مبدئياً بالنفحة الجبرانية وبالنزعة النعيمية ، ولكنه لم يستسلم لتيار الصوفية ولا قطع الصلة بواقع المجتمع مهما حلّق بالخيال . كما أنه لم يغرق في العوالم الميتافيزيقية ولم يؤمن بعقيدة تناسخ الأرواح كما أشرنا إلى ذلك سابقاً . لقد نسج على منوال نفسه لا على منوال أحد . حملته روحه المجنحة إلى آفاق جديدة بعيدة وأوحت اليه تأملاته خواطر عميقة ، بعضها متفق مع خواطر جبران ونعيمه وبعضها مختلف عنها . أما في النظريات الفنية ووسائل التجديد والأهداف الإنسانية ، فانسجامه مع إخوانه في الرابطة كان كاملاً .

بعد عشر سنوات من إقامته في نيويورك أصدر ديوان الجداول (١٩٢٧) وفيه تجلى منتهى نضجه الشعري . ندر أن يجتمع في ديوان واحد ما اجتمع في الجداول من القصائد الرائعة ، الغنية بالشعور الإنساني ، الموّارة بجمال الصور وعذوبة الأنغام فضلاً عن جلال المواضيع وطرافة التخيّلات . العنقاء — بردي يا سحب — تعالي — الطين — المساء — العميان — الزمان — كم تشتكي . قصيدة واحدة من هذه القصائد تكفي لتخليد شاعر ، فما بالك بقصيدة الطلاسم ، التي أدهشت المفكرين وأعجزت المقلدين ؟ لا يسأل سائل اليوم من هو « شاعر المعاني المبتكرة والذهنيات البعيدة الغور » في هذا العصر . إن كل مقطع من مقاطع « الطلاسم » يدل عليه .

وكرّت الأعوام حتى قاربت العشرين ، والجداول تجري ، وأبوماضي لا يرفدها بمعين جديد ، حتى ظن الناس أنه نام على أمجاده . إلى أن أصدر ديوان « الخمائل » عام ١٩٤٦ فدعم تليد الشهرة بالطريف . وكان لأزهار الخمائل روعة تضاهي روعة الأنغام في الجداول ، ولكنها

لا تزايدها . إنها امتداد لجداول الفكر والعاطفة في خمائل جدّد ربيع الشعر وشيها وضوّع طيوبها . أمنية الآلهة — الدمعة الخرساء — الفراشة المحتضرة — ابتسم — كن بلسماً — الشاعر في السماء . وأخيراً الأسطورة الأزلية — بنت الطلاسم الصغرى . جميع هذه القصائد قد لا نسمع فيها خرير الجداول الشادية ولكننا نشعر أن مطالع النور ومساقط الندى ومطلات الجمال صارت أقرب إلى أبصارنا من قبل .

في الفصول التي سبقت شواهد عديدة من هذه القصائد سأدعمها بشواهد جديدة في ما يلي ، ولكن مهما أكثرت من الاستشهاد لن أنصف الشاعر ، لأن شاعرية أبو ماضي لا تتمثل في أبيات معدودات من القصيدة بل في مجمل القصيدة ، في الفكرة الشاملة الخلاقة التي هندست البناء العجيب وسكنت جميع أروقته وغرفه الصغيرة والكبيرة وشاعت في الجو الذي يكتنفه . لذلك سأقتصر على الشعر الذي يمثل نظراته الخاصة إلى الحياة أو الشعر الذي يفتح أمامنا باب المناقشة والاعتراض .

من هو الشاعر في نظره ؟

هو من نراه سائراً فوق الثرى — وكأن فوق فؤاده خطواته
إن ناح فالأرواح في عبراته — وإذا شدا فالحب في نغماته
هو من يعيش لغيره ويظنه — من ليس يعرفه يعيش لذاته
وتراه يبسم هازئاً — في غمرة الخطب الكريه
وإذا تحرّق حاسدوه — بكى ورقّ لحاسديه
كالورد ينفح بالشذا — حتى أنوف السارقيه

وما هو الشعر ؟

يا رفيقي أنا لولا أنت — ما وقّعت لحنا

كنتَ في سرّي لمـــا   كنتُ وحدي أتغــنى
هذه أصداء روحـــي   فلتكن روحك أذنــا
ربما كنت غنيـــاً   غير أني بك أغـنى
يا رفيقي أنت إنراءـ   ـيت فجري صار أسنى
وإذا طفت بكرمـــي   زدتــه خصبــاً وأمنا
قد سكبتُ الخمر كي   تشرب فاشربْ مطمئنا
كلما أفرغتُ كأسي   زدتَ في كأسيَ دنّــا

أما نظرته إلى الحياة فنظرة المتفائل المؤمن بجمال الحياة ، يريد أن يشرك البشر في بركات هذه النظرية :

قال الليالي جرعتني علقماً   قلت ابتسم ولئن جرعت العلقما
فلعلّ غيرك ان رآك مرنّماً   طرح الكآبة جانبــاً وترنما

* * *

إذا أنا لم أجد حقلاً مَريعاً   خلقت الحقل من روحي وذهني
فكادت تملأ الأزهار كفــي   ويعلق بالشذا الفوّاح رُدني

* * *

لتكن حياتك كلهـــا   أملاً جميلاً طيبـــا
ولتملأ الأحلام نفسك   في الكهولـة والصبا

الشاعر يناقض نفسه أحياناً . فبعد أن كان مطمئناً إلى قدرة الخيال على خلق أسباب النعيم ، أصبح لا يعترف بأية لذة لا تلامس حواس العين والذوق والأذن لمساً واقعياً .

كل نجم لا اهتداء بـه لا أبالي لاح أو غربـا
كل نهر لا ارتواء بـه لا أبالي سال أو نضبـا
إسقني الصهباء إن حضرت ثم صف لي الكاس والحببا
ليس يرويني مقالك لي إنها العقيان منسكبا

فكأنه غير الشاعر الذي قال :

الحس مجلبة الكآبـة والأسـى قم ننطلق من عالم الإحساس
وأرى السعادة لا وصول لعرشها إلاّ بأجنحـة من الوسواس

ولكنها دقائق قليلة جثم فيها النسر على منبسط السهل ولم يلبث أن عاد إلى التحليق مصفقاً بجناح الخيال :

نحن من قوم إذا حزنوا وجدوا في حزنهم طربـا

وليته وقف عند هـذا الحد ولم ينحدر ثانية من الذروة ، حين أضاف :

وإذا مـا غـاية صعبـت هوّنوا بالتّرك ما صعبـا

إننا نعيذ الشاعر من مغبة هذا القول وهو صاحب رسالة سامية يجب أن لا يتخلى عنها سواء هانت أو صعبت . ونعجب كيف يفاخر بترك الغايات الصعبة المنال والاكتفاء بما تيسّر وهان من الأغراض . إنـه يقتل الطموح في الفرد ويقتله في الجماعة ويهدم كل صرح تبنيه البشرية بالجهود والتضحيات والصبر على مكافحة الصعاب . كان أهون عـلى

أديسون وانشتين وماركوني ترك المصاعب بعد فشل التجارب ، وكان أهون على المهندسين اجتناب المتاعب في فتح قناة السويس وبناما . وكان أهون على المبشرين البقاء في المدن العامرة بدلاً من اقتحام المخاطرة في مجاهل الهند والصين . ولو فعلوا لما تقدمت البشرية في ميادين العلم والثقافة والعمران ولا نعمت باكتشافات في الطب الحديث وفي أسرار الطبيعة ونواميس الأفلاك .

وقد أغنانا أبو ماضي عن البحث في بواعث هجرته بما صرّح به في قصائد شتّى :

وطن يضيق الحر ذرعاً عنده	وتراه بالأحرار ذرعاً أضيقا
ما إن رأيت به أديباً موسرا	فيما رأيت ولا جهولاً مملقا
مشت الجهالة فيه تسحب ذيلها	تيهاً وراح العلم يمشي مطرقا
شعب كما شاء التخاذل والهوى	متفرق ويكاد أن يتمزقا
لا يرتضي دين الالـه موفّقاً	بين القلوب ويرتضيه مفرّقا

وصف جميل يصوّر الحقائق القائمة في «وطن النجوم» ولكنه يندّ عن الحقيقة في البيت الثاني الذي يقول فيه أنه لم يرَ في وطنه «جهولاً مملقاً» فإن لم يكن في لبنان وسوريا جهول مملق ، من أين جاءت قوافل المهاجرين الأميين الذين ملأوا الأصقاع الأميركية : أما هم لبنانيون وسوريون ؟ أليسوا جهلاء ؟ أليسوا معدمين ؟

ينقاد الشاعر أحياناً إلى المبالغة وتمويه الحقائق حرصاً على صيغة جميلة توفق إلى سبكها أو مسايرة لشعور السامعين في حفلة دعي اليها . وهذا في حدسنا ما اتفق وقوعه لشاعرنا في بعض المناسبات . ومن هذا القبيل رأيه في المرأة :

جشّموها كل أمر معضل وهي لم تخلق لغـير المنزل

وهو رأي رجعي يُستغرب صدوره من شاعر يعيش في المحيط الاميركي حيث تطرق المرأة بنجـاح جميع ميادين النشاط الاجتماعي ، خارج المنزل . وهو في غير هـذا المقام ، قد غازل المرأة وناجاها واعتبرها مهبط إلهامه وخدينة روحه في رحلاتـه العلوية . فهو القائل :

عيناك والسحر الذي فيهمـا صيرتاني شاعراً ساحرا

والقائل :

لو أنني يا هند بدر السما هبطت من أفقي إلى مخدعك

أما رأيه في الدين فطريف :

كم روعوا بجهنمٍ أرواحنا فتألمتْ من قبل أن تتـألمـا
ليست جهنم غير فكرة تاجر الله لم يخلق لنا غير السما

ومثله رأيه في النفس :

أنا لست بالحسناء أول مولع هي مطمع الدنيا كما هي مطمعي

لقد قال في النفس غير ما قاله الرئيس ابن سينا وأمير الشعراء : بحث عنها في اليقظة وفي المنام ، في الرياض والفيافي ، في القصور

والصوامع ، في الغيوم والبروق ، حتى يئس وبكى من يأسه فإذا بها في دمعته :

وعلمت حيث العلم لا يجدي الفتى ، أن الّتي ضيّعتها كانت معي

مذهبه الاشتراكية السمحة . يناهض التفرقة بين الطبقات ويدعو إلى المساواة بين الغني والفقير من عباد الله :

لهفي ولو أجدى التعيس تلهّفي لسفكت دمعي عنده ودمائي

* * *

وديني الذي اختار الغدير لنفسه ويا حُسن مااختار الغدير وما احلى
تجيءُ اليه الطير عطشى فترتوي وان وردته الإبل لا يزجر الإبلا
ويغتسل الذئب الاثيم بمائه فلا اثم ذا يُمحى ، ولاطهر ذا يبلى

* * *

علمتني الحياة في القفر اني أينما كنت ساكن في التراب
خلت أني في القفر أصبحت وحدي فاذا الناس كلهم في ثيابي

* * *

نسيَ الطين ساعة أنه طين حقير فصال تيهاً وعربدْ
وكسا الخز جسمه فتباهى وحوى المالَ كيسه فتمرد
يا أخيٍ ، لا تمل بوجهك عني ما أنا فحمة ولا أنت فرقد
أأمانيَّ كلها من تراب وأمانيك كلها من عسجد
أنت مثلي من الثرى واليه فلماذا ياصاحبي التيهُ والصدّ

تعاليم أبو ماضي :

المحبة الإنسانية ، روح الرابطة القلمية ، هي أيضاً روح تعاليمه . علمنا كيف نعيش مع الأشياء التي نعلمها ومع الأشياء التي نجهلها . علمنا التفكير في مصدر الحياة ونهايتها . وفي أسرار الموت وما وراءها كما علمنا القناعة بأن لا ندري حيث لا سبيل إلى الدراية :

يا من يحنّ إلى غدٍ في يومه   قد بعتَ ما تدري بما لا تعلم

علمنا أن نفتح قلوبنا إلى الحياة ونأخذ منها أجمل ما فيها ونمر مرور الكرام على شرورها وآلامها وأحاجيها :

أيها الشاكي الليالي   إنما الغبطة فكره
أيها العابس لن تُعطى   على التقطيب أُجره
لا تكن مرّاً ولا تجعل   حياة الناس مره

علمنا أن نغضي عن الأدران والأشواك وننطلق إلى رياض الزهور مع فراشات الربيع وإلى فضاء الحرية مع طيور السماء :

يريد الحب أن نضحكَ   فلنضحك مع الفجر
وأن نركض فلنركض   مع الجدول والنهر
وأن نهتف فلنهتف   مع البلبل والقمري
فمن يعلم بعد اليوم   ما يحدث أو يجري ؟

علمنا نبذ الأنانية ومشاركة الكائنات في العطاء حتى لا يُستغنى عنا ويصيبنا ما أصاب التينة الحمقاء :

من ليس يسخو بما تسخو الحياة به　　　فإنــه أحمقٌ بالحرص ينتحر

علّمنا أن نقدّس الحرية ونمجد الوتر الذي يخلّد الشاعر بعد ما يتلاشى ذكر السلطان الجائر :

كن نبياً يستنزل الإلهاما　　　كن مليكاً يصدر الأحكاما
كن غنياً كن قائداً كن اماماً　　　لست مني أو تعشق الحرية

وعلمنا الاندماج في الطبيعة حيث الشعور يندى والرجاء يخضوضر ، حيث طهارة الجو تنتقل إلى الأرواح وبشاشة الأرض تقشع الكآبة عن الصدور :

تعالي إن رب الحب يدعونا إلى الغابِ
لكي يمزجنا بالماء والخمرة والكاس
ويغدو النور جلبابك في الغاب وجلبابي
فكم نصغي إلى الناس ونعصي خالق الناس .
تعالي قبلما تسكت في الروض الشحارير
ويذوي الحوْر والصفصاف والنرجس والآس
تعالي قبلما تطمر أحلامي الأعاصير
فنستيقظ لا فجرٌ ولا خمر ولا كاس !

لا نظن أن شاعراً أحب الطبيعة أكثر مما أحبها أبو ماضي . لقد انعكس جمالها في جمال نفسه ، وصفاء سمائها في صفاء ألحانه ، وانعكست عذوبة مائها في عذوبة ألفاظه ، ودقّة نواميسها في دقة ملاحظاته . وكأن الطبيعة شعرت بصدق حبه لها فباحت له بأسرار

سحرها وأباحت له صوغها في أبيات شعره . اسمعه يُخاطب الفراشة بشعر حنون يتّماوج حولها حتّى لتكاد تسمع حفيف الأجنحة المرتجفة :

فيم ارتجاجكِ هل في الكون زلزلة أم أنتِ هاربة من وجه فتّاك
وكم تدورين حول البيت هائمة بنتَ الربى ليس مأوى الناس مأواك
رأيت أحلام أهل الحب كلهم لما مثلتِ أمامي عند شبّاكي
أليس فيكِ من العشاق حيرتهم فكيف لا يفهم العشاق شكواكِ ؟

ولا نظن أن شاعراً برع وأبدع في الحوار الشعري مثلما برع وأبدع أبو ماضي . تقرأ الحوار في موضوع السعادة أو في قصيدة الشاعر في السماء أو في الأسطورة الأزلية فيخيل اليك أنك تشهد رواية على مسرح وتسمع أقوال الممثلين .

حوار حول السعادة :

قلت السعادة في المنى فرددتَني وزعمتَ ان المرء آفتُه الغنى
ورأيتُ في ظِل الغنى تمثالها ورأيتَ أنت البؤس في ظل الغنى
مالي أقول بأنها قد تُقتنى وتقول أنت بأنها لا تقتنى
وأقول اني مؤمن بوجودها فتقول ما أحراك أن لا تؤمنا
واقول سرّ سوف يُعلن في غد فتقول لا سرّ هناك ولا هنا
يا صاحبي هذا حوار باطلٌ لا أنت أدركت الصواب ولا أنا

وله فنّ فريد في تنسيق الموشحات ، يختلف في كل قصيدة عن أختها . فهو في « أمة تفنى وأنتم تلعبون » غيره في قصيدة « مصرع القمر » وغيره في قصيدة « هي » وغيره في « البلبل السجين » وفي

« الليل » وفي « الخلود » . لقد فاق الأندلسيين بتنويع الأنغام كما فاقهم بإخضاع الموشحات للموضوعات الوطنية والأبحاث الفكرية . ولا نورد الشواهد هرباً من التطويل . ولكننا نجزم بأن الأحداث الهامة التي طرأت على الوطن طلعت من موشحات أبو ماضي مضمّخة بالعبير منغمة بالأهازيج تثير حنين المغتربين إلى أهلهم وديارهم ، وتهيب بالمتناسين أن يذكروها « كما تذكر الطير أوكارها » .

ونعود إلى سيرة الشاعر في حياته الخصوصية :

في الاسكندرية حيث كان يتاجر سعياً وراء الأوَد اليومي ما كـاد يبزغ نجمه حتى انقاد إلى طبيعته الثائرة ونشر قصيدة طعنٍ بالعهد القائم فلاحقته السلطات وألجأته إلى النزوح عن مصر وفي ذلك يقول :

نأى عن أرض مصرَ حذار ضيمٍ   ففرّ من العذاب إلى العذاب

وفي المهجر لم يعتمد الشعر باباً للارتزاق ، ولو اعتمده لخاب سعيه حتماً . كان التحرير في الصحف مورده الوحيد طيلة عشر سنوات . فعقب وصوله إلى نيويورك عمل محرراً في « المجلة العربية » وفي جريدة « زحلة الفتاة » ، ثم من عام ١٩١٨ إلى ١٩٢٨ في « مرآة الغرب » لصاحبها نجيب دياب الذي أصبح حماه فيما بعد . وقد نظم قصيدة تاريخها عام ١٩١٩ حيا فيها الجريدة في عامها التاسع عشر فقال أحسن ما يقال في صحيفة يومية صباحية :

سلام عليهـــا طفلة وفتيـــة   كزهر الربى البسام باكره القَطر
كعابٌ تلاقى الحسن والفضل عندها   كما يلتقي في الصفحة السطر والسطر
هي الشمس تبدو كل يوم جديـدة   يروح بها ليل ويأتي بها فجر

وفي عام ١٩٢٩ ترك العمل المأجور وأنشأ لحسابه مجلة « السمير » نصف الشهرية واتخذ مكتباً له في شارع واشنطون ، حي السوريين ، وهناك أتاح لي الحظ السعيد التعرف به . وكانت واسطة التعارف بيننا قصيدة نظمتها في باريس موضوعها العاصفة في غابة بولونيا وحملتها اليه لنشرها في « السمير » . فنشرها وعلق عليها بقوله : « أتمنى لو أوحت آلهة الشعر إلى هذا البلبل الصيدح مثل هذه الحكاية كلما دخل غابة أو هطلت سحابة » . وإن أنس لا أنس أول وهلة من اجتماعنا وقد تمثلت أمامي كل جمالات « الجداول » مجتمعة في ذاك الجسم الضامر يطل إشعاعها من بريق عينيه خلف النظارة السوداء . فما حدثته ساعة حتى أيقنت أنه الشاعر الحق بكل أطواره . في أفكاره وألفاظه وإشاراته وملاحظاته . وانه محدِّث من الطراز الرفيع لا من المحدّثين الذين يحوّلون دقيقة تفكير إلى ساعة كلام (على حد قول الياس قنصل) . في حديثه معاني الشعر — لا أساليبه — لأن لهجته خطابية حماسية ترتفع فيها نبرات الصوت كلما طال الحديث حتى لينسى السامع أن المتكلم هو ذلك الشاعر الرقيق الهامس الذي « يجد في حزنه طرباً » ويربأ بالأغصان من أن تعبث بها يده :

وفوقنا الأغصان معقودة ذوائب طال تدلّيها
إذا هززناها على غرّة ألقت من الذعر لآليها

على أني ما غشيت مجلسه مرة إلا تهيبت وأفحمت ، وذكرت قوله :

وددت الإفاضة قبل اللقاء فلما لقيتك لم أنبس

واتصلت بيننا أسباب المودة . أسباب كانت نتيجتها عندي الابقاء على

أنفاس الأدب المحشرجة في صدري . كان إيليا منارتي في ظلمة الحياة التجارية ، وداره محجتي كلما زرت نيويورك . زرته للمرة الثانية عام ١٩٣٩ وكان منذ ثلاث سنوات قد حوّل مجلة « السمير » إلى جريدة يومية كتب عليها هذا الشعار :

أنا لا أهدي اليكم ورقا غيركم يرضى بحبر وورق
إنما أهدي إلى أرواحكم فكَراً تبقى متى الطرس احترق

فسرني أن أراه مطمئناً إلى مجرى حياته الاقتصادية . مرتاحاً لرواج جريدته التي اشتهرت بكلماته الافتتاحية « يوميات » وهي تُعد من روائع الأدب المنثور المكتوب بأسلوب فني وباحساس شعري يرفعانها عن مستوى المقالات الصحافية . وفي تلك الرحلة نلت من عطفه ومن تكريم أدباء نيويورك فوق ما أستحق . ولا أنسى ما حييت المنة التي طوق أبو ماضي عنقي بها في حفلة التكريم إذ قال في آخر قصيدته :

يا شاعراً غنى فرد لي الصبا فاذا مواكبه تسير أمامي
إنّا التقينا في الشباب وفي الهوى في حومتين :الشعر والالهام
وسنلتقي وإن افترقنا في غد في حب لبنان وحب الشام
وستلتقي روحي وروحك بعد ما تفنى الهياكل في الإلـه السامي
أهلاً بذي الأدب الصراح المصطفى بالفاتح الروحيّ بالمقدام
بالشاعر الغريد في ألحانه عبق الربيع ونضرة الأكمام
هو إن ذكرت الشعر من أمرائه وإذا ذكرت المجد فهو عصامي

وعندما عرجت عليه عام ١٩٤٧ في طريقي إلى الأرجنتين ألح عليّ بالبقاء في نيويورك فأبيت وشرحت له عذري في هذه الأبيات :

في ذمة نيويورك أيام مضت موصولة الأكواب بالألباب
ذكرى مجالسها تريق مدامعي ذكرى مآدبها تريق لعـابي
ماذا عليّ إذا أجزت أحبتي بتحيـة ، وديارَهم بعتـابِ
الروح إن كان السحاب مقرها لا تطمئن لناطحات سحاب ..
لا خير في شعب تصهين قلبه فغدا يرابي في الورى ويحابي
سلب العروبة قدسها وأباحه للفاجرين كناهب وهـّاب
إن شام في السنجاب ذيلاً مذهباً أفتى بنحر الليث للسنجاب
أوَ بين ظهريه تطيب إقامتي والروح روحي والتّراب ترابي ؟

وكان ان قام أبو ماضي برحلة إلى الشرق العربي عام ١٩٤٨ بينما كنت أفكر في العودة إلى الوطن ، فكتبت اليه أسأله ما هي انطباعاته من تلك الرحلة . فأجابني بما يثبط الهمة . وكتب عن الشعراء هذه الفقرة :

« قَلّ المجيدون وكثر المتشاعرون . سنة الطبيعة أن يتوالد البعوض بالملايين وأن لا تلد الصقور إلاّ عدداً نزراً . لم أجتمع بشاعرية ضاحكة في هذه الرحلة . بل وجدت الشعراء مصابين بأمراض النساء النفسانية . فهم كالنساء يغرّهم الثناء وكالنساء يميلون إلى البكاء . أما قرائحهم فجافة كالأرض الموات . تحتاج إلى سماد كثير وتعب أكثر قبل أن تخضر وتنبت شيئاً . إما انهم يتسلقون على رفات حضارة انطوت وإما انهم يتسلقون على أدب غريب سيصير رفاتاً . وإنك لو جمعت كل شعرائنا المحدثين لم يكوّنوا شاعراً عالمياً واحداً » .

في ذلك العام دعته الحكومة اللبنانية لزيارة رسمية بمناسبة انعقاد مجلس الاونسكو في بيروت فجاءها ممثلاً للصحافة العربية في اميركا الشمالية ولبّى بعد ذلك دعوة الحكومة السورية حيث اقيم له مهرجان

حكومي وشعبي منقطع النظير ونال أوسمة كثيرة من البلدين . وما زال لبنان يتغنى بقوله :

وطن النجوم أنا هنـــا حدّق أتعرف من انا ؟

كما تتغنى الشام بقوله :

حيّ الشآم مهنداً وكتـابـا والغوطة الخضراء والمحرابا

وبعد مضيّ تسع سنوات على هذه الرحلة المجيدة أدرك الموت شاعر الحياة وخطف روحه الكبيرة من جسمه الضامر في الثالث والعشرين من تشرين الثاني عام ١٩٥٧ ، فراحت موجات الأثير في أنحاء العالم تنعي إلى الأمة العربية نابغتها وتدق مسماراً جديداً في نعش الأدب المهجري . فلا عجب أن كان احساس المهاجرين بالفاجعة اليماً عميقاً شاملاً ، فأقاموا المناحـات على الشاعر المفقود في نيويورك وسان باولو وبونس ايرس .

أما في لبنان فلم يتحرك المسؤولون لتكريم ذكرى الشاعر اللبناني بينما كان المسؤولون في دمشق على استعداد لاقامة حفلة الذكرى في الثامن والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٥٨ . فتنادى فريق من الأدباء في بيروت إلى اجتماع في منزل صيدح وقرّروا ان تقام حفلة الذكرى قبل الحفلة السورية . وفوّضوا أمرها إلى لجنة اختاروا أعضاءها وأوصوهم باشراك الحكومة اللبنانية في المسعى وفي النفقات. ولكن اللجنة تجاوزت صلاحيتها ونحّت الرجال الرسميين عن الحفلة لكي تسند رئاستها إلى ميخائيل نعيمه بوصفه رفيقاً للفقيد في المهجر وزميلاً له في الرابطة القلمية . وأقامت الحفلة بوسائلها الخاصة في منتدى الجامعة الاميركية الكبير في الثـالث

والعشرين من كانون الثاني عام ١٩٥٨ . وخطب فيها أديب من سوريا وادبية من العراق إلى جانب اربعة خطباء من لبنان . ورغماً عن الحشد الكبير الذي لبّى الدعوة وملأ المنتدى لم نعتبر الحفلة ناجحة لسبب واحد، وهو ان الاستاذ نعيمه الذي كان آخر المتكلمين فاجأ السامعين بمزاح وتنكيت أضحكا الجمهور وأخذ يسخر من شعر أبو ماضي في دواوينه الاولى - أي قبل انضمامه إلى الرابطة القلمية - ويُعدّد ما فيها من شعر التقليد والمغالاة . فأساء إلى ذكرى الراحل وأساء إلى وقار الحفل وأفسد عمل رفاقه في لجنة التكريم .

ليس لنا ان نعارض رأي الاستاذ نعيمه في شخصية أبو ماضي أو في شعر أبو ماضي بل نحترم حقه وحريته في الانفراد برأيه الخاص . ولا نأخذ عليه الاّ قبوله زعامة التكريم لشخص لا يعتبره أهلاً للتكريم واختياره مناسبة الموت والتأبين ليقول لنا ذلك .

كان عليه - وهو سيد المنطقيين - ان يترك هذا الدور إلى خطيب مؤمن بعبقرية الشاعر المكرّم . وما أكثر المؤمنين بتلك العبقرية ، سامحه الله ، أما الناس فقد سامحوه .

بعد خمسة أيام أقيمت الحفلة السورية في النادي العربي في دمشق بحضور رئيس الجمهورية شكري القوتلي والوزراء واركان الدولة وسيدات المجتمع ورجال الدين والعلم والأدب واستغرقت ثلاث ساعات بينما كانت محطة الاذاعة تسجل الاقوال وشركة السينما تصوّر المشاهد . وقد دعي اليها من لبنان الدكتور سليم حيدر وجورج صيدح فألقى كل منهما قصيدة في تأبين الشاعر الخالد ونالا من فخامة الرئيس السوري إنعاماً (اسمياً) بوسام رفيع لكل منهما . وبالاجمال كانت الحكومة السورية أوفى الحكومات لذكرى ابو ماضي كما كانت أحفى الحكومات باستقباله منذ عشر سنوات .

وبوفاة ابو ماضي ازداد الاهتمام بشعره بشكل عجيب ، فنفدتْ

دواوينه من المكتبات في جميع الاقطار العربية ، وأصدرت بعض المجلات أعداداً خاصة بذكراه . وتوالت المحاضرات والاطروحات الجامعية عن أدبه . وكان في عزم الفقيد اصدار مجموعة جديدة من شعره بعنوان « تبر وتراب » ، فاهتم شقيقه الأديب مراد ابو ماضي بجمع أوراقه وبارسالها إليّ رجاء أن أنشر منها ما يصلح للنشر ، فقمت بالمهمة ودفعت بالمخطوطات المختارة إلى « دار العلم للملايين » التي أخرجت الديوان « تبر وتراب » وأعادت طبعه ثلاث مرات .

أما شقيقه مراد الذي كان رفيقه في ادارة جريدة « السمير » وكفيله في أيام البؤس فقد لحق به إلى الملأ الاعلى عام ١٩٦٢ وكان مقيماً في ميامي مع زوجته اللبنانية الأصل ولم يتبنيا . وكانت تركته مؤلفاً واحداً باللغة العربية « السنابل » وعقارات في فلوريدا آلت إلى أرملته .

وكلمة الختام في هذا الفصل أسوقها إلى فئة من القراء ترى في أبو ماضي شاعرها الحبيب الأثير وتشاطرني عواطف الحسرة والأسى على فقده وتتطلع إلى المزيد من الاخبار عنه وعن حال أسرته . فأقول :

١ — في شهر أيار عام ١٩٥٦ قرأ شاعرنا في الصحف المصرية أقوال الناقمين على الأدب المهجري والحاملين على شعر ابو ماضي بنوع خاص ، فتألم وكتب في رسالة إليّ : « ان اخواننا في مصر الناقمين علينا بلا وزر قد بهرهم أن تبني فئة قليلة من الأدباء العرب في العالم الجديد دولةً رفيعةً للضاد لم يقم مثلها في التاريخ . ولعل أكثر ما أزعجهم وأقلقهم تهافت الشباب على الطعام الروحي الجديد الهابط عليهم من سماء المهجر ، فراحوا يستحدثون له العيوب تنفيراً للأرواح العطشى عن هذا المنهل العذب . ولكن محبة الكنانة الـتي تملأ جوانحنا — أنا وأنت — تغفر لهم كل هفوة من هـذا القبيل . فليتصاعد الغبار من كل مكان وليتكاثف ، لا بدّ له من أن يرجع إلى الارض غباراً » .

٢ — قرأ بعد ذلك في مجلة لبنانية تعريضاً بسلوكه اليومي المتناقض للمبادئ المثالية التي يبشّر بها في شعره لأنه في زعم المجلة « حريص على المال ومتهافت على المادة » . فكتب إليّ رداً على ذلك : « الاعتقاد السائد في أذهان الناس هو ان الشاعر والمال ضدان لا يصطحبان . وان على الشاعر ان لا يطمع بما يطمع به الناس من الحطام لأن مجده يقوم على الخروج من هذه الحومة والانصراف إلى حومة الروح . ولكننا في زمان عنيف ، يضطر فيه حتى الشاعر أن يخوض معركة الحياة كما يخوضها غيره ، وان يسير برايته بين الرايات كأنها واحدة منها ، وان كان رأيه في الحياة غير رأي الاكثرين وهدفه أبعد من أهدافهم . إن الشاعر لا يطمع بالمكاسب والمغانم بل يخشى ان يصير هو من الاسلاب والغنائم .. هو يطلب المال لا ليتخذ منه رباً بل لكيلا يصبح عبداً لمن اتخذوه رباً » ...

٣ — في ربيع عام ١٩٥٧ حجب ايليا جريدته وكتب إليّ قائلاً : « انني ناقهٌ من مرض خطير كاد يودي بحياتي ومهدّد بالانتكاس ان عدت إلى العمل . لذلك عزمتُ على أن ارتاح من الصحافة وأن ترتاح الصحافة مني . فحجبت « السمير » وعرضت مطابع الجريدة ومعداتها للبيع . ولكني رغماً عن التشويق بالاعلانات وبتنزيل الاسعار لم أظفر براغب حتى الآن . فجئت أرجوك أن تساعدني بالسعي لدى دور النشر في بيروت لعلك واجدٌ من تُغريه هذه الصفقة الرخيصة فيُقدم على شرائها وينفكّ اسري فأنطلق إلى جوارك » . فكان اهتمامي عظيماً بطلب الشاعر المريض ورحت ادبّر مشروعاً يرضيه ولكنه لم يصبر بل اعلمني في رسالة تالية — وهي آخر رسالة كتبها — انه على نار من الهواجس . وقد باع مطابع السمير وموجودات الادارة من شركة اميركية . المطابع بسعر كسارة الحديد ، والحروف بسعر الرصاص الخام .

٤ — ارملة الشاعر سيدة لبنانية فاضلة تأمركت مع الأيام وقطعت العلاقات مع الآداب العربية والروحانيات الشرقية ، رغم انها ابنة نجيب دياب الصحافي المعروف . وقد حرصتْ على أن تكون تربية أولادها وثقافتهم اميركية بحتة . فأبعدتهم عن اللغة العربية ومكّنتهم من العلوم العالية باللغة الانكليزية مع التخصص بفرع الهندسة الألكترونية . ريشارد ابنها البكر وأخوه ادجار يشغلان مناصب مرموقة ويعيشان في بحبوحة كلّ مع زوجته الاميركية . أما الولد الثالث فقد خُلق مريضاً بعاهة دائمة عاجزاً عن القيام بأي عمل ، ولكنه يعيش مع والدته في مأمن من العوز بفضل التركة التي خلّفها الوالد الحنون البعيد النظر :

هو من يعيش لغيره ويظنه   من ليس يعرفه يعيش لذاته

نسيب عريضة

١٨٨٧ — ١٩٤٦

هو نسيب بن اسعد عريضه وصهر ندره وعبد المسيح حداد .

شاعر الحيرة ، أعمق شعراء العاصي . رفيق مدرسي لميخائيل نعيمه وعبد المسيح حداد . غادر حمص إلى الناصرة ليتعلم في مدرسة المعلمين الروسية . وفي نهاية الدروس لم يقدم على السفر إلى روسيا كما فعل نعيمه ، بل ولى وجهه شطر اميركا وحل في نيويورك عام ١٩٠٥ « بجناح ملاك وقلب قديس تحت مطارق الدولار الفاجر » ، وأخذ يحرر في الصحف (الهدى ، والسائح ، ومرآة الغرب) استجابة لنزعته الأدبية واستدراراً للرزق . وبعد سبعة أعوام انشأ مطبعة الاتلانتيك ، ومنها صدرت مجلة « الفنون » عام ١٩١٢ ، أولى مجلات المهجر الراقية ، التي رفعت راية النهضة الأدبية ونشرت بواكير أدب جبران ونعيمه . والظاهر أنها كانت أرقى من مستوى محيطها العربي . فلم يقبل عليها القراء إقبالاً يؤمن لها البقاء . فكانت تحتجب ثم تعود إلى الظهور تبعاً لتردد المشتركين بين المماطلة والمناصرة . ولما ضاقت بالاديب الحال عمل محرراً في مكتب المعلومات الاميركي على كره منه . تلك الصدمات

المتوالية أثرت في نفسية الشاعر الرقيق فانطبع مزاجه بطابع التشاؤم وطفح أدبه بالشكوى من تعس الحياة . وكيف لا يقنط الأديب المغترب الذي أعد من مواهبه ودراساته عدة النجاح فلم يلق إلاّ الاخفاق . مضافاً إلى وحشة الاغتراب ؟ كان حنينه إلى حمص يزداد كلما ازدادت حياته مرارة :

أعرفتها تلك الربوع النائيه ما بين لبنان وبين الباديه
الذكريات ، وقد بدين علانيه نادين عنك بحسرة المطرود
يا حمص يا بلدي وأرض جدودي
يا جارة العاصي اليك قد انتهى أملي وأنت المبتغى والمشتهى
قلبي يرى فيك المحاسن كلها وعلى هواك أدين بالتوحيد
يا حمص يا أم الحجار السود

كان خيال بلدته يرافقه في غدواته وروحاته فيرى في المشاهد العادية ما لا يراه غيره :

واستوقفتني على حانوت بقال عيني ، وقوف مشوق عند أطلال
لسلةٍ لمحتها العين في الحال فيها فواكه لم تخطر على بالي
ثمار كرم وتين فوق رمان
وقفت ، رغماً ، وحولي الناس ماوقفت أراقب السلّ والاثمار قد بسمت
كأنها إذ رأتني مدهشاً عرفت أني غريب ، فحيتني وما نطقت
فطار قلبي حنيناً نحو أوطاني

وراحت الأعوام تمطر شاعرنا بالنوائب . ففجع بأخيه سابا ثم بأخته ليديا ، وأصبح كالغريق في لجة الأحزان ، يستغيث بربه تارة وبقلبه

طوراً ، ويتعلق بالفلسفة كوسيلة للنجاة ، فتخونه . أعيته الحيلة في تفسير التفاوت في حظوظ البشر والخلل الدائم في نظام الحياة ، وعجز عن فهم حكمة الخالق في تعذيب خلائقه ، فاستحوذت عليه الحيرة وأصبح شاعرها الأول ، وأطلق اسمها على ديوانه الوحيد « الأرواح الحائرة » .

كان رحمه الله ، ركناً متيناً من أركان « الرابطة القلمية » وموضع ثقتها ، عرف بالإخلاص والغيرة عليها . وأحبه الجميع لدماثة اخلاقه ونبالة روحه وعفّة قلمه ولسانه . قليل الكلام كثير العمل والإنتاج . امتلأ قلبه الكبير بالحدب الإنساني حتى لا موضع فيه للبغض والحسد والكبرياء . هو الذي وجّه اهتمام جبران إلى دراسة اللغة العربية وآدابها وتاريخها ، وقد لقبوه بسيبويه العصر لأنه كان أوسع الأدباء الرابطيين اطلاعاً على هذه المواد وأكثرهم تمكناً من الأدب العربي القديم . تشهد بذلك مؤلفاته : احتضار أبي فراس ، وديك الجن الحمصي ، وحديث الصمصامة . وكان على اطلاع بأدب الغرب عن طريق الأدب الروسي ، تشهد بذلك روايته « أسرار البلاط الروسي » .

بدأ يطارد القوافي في سن الخامسة عشرة . وينظم في الغزل ووصف الطبيعة ومناجاة الخالق . كتب عنه نعيمه ما يأتي : « هذا شاعر ذو شخصية لا تندغم في شخصية أحد من الشعراء . في شعره مدى بعيد ولشاعريته وجه يميّزها عن كل الوجوه ، ولألحانه رنة تعرف بها بين سائر الألحان . كان في صباه فتى محدود الأفق ولكنه لم يعتم أن ارتفع إلى النجوم وانبسط على مدى الأفق وغاص إلى أعمق اللجج » .

لكنه مهما ارتفع أو اتضع لا تغفل عينه عن تعاسة البشر ، الموضوع الدائم لشعره :

عن فقيرٍ حاسدٍ طيرَ السما   عن طريدٍ ما له العمرَ مقرّ
عن عذارى بذلتْ اعراضهـا   في سبيلِ العيش، يا بئس التجـَر
باطلاً ترجون لحناً مفرحـاً   قطعتْ اطرب أوتاري العبَر
فدعوا قلبي مع البـاكين في   مأتم العيش على حال البشر

ثم نسمعه يخاطب نفسه :

سيّان ان تصغي للنصح أو تغضـي   يا نفس، فالآتي مثل الذي يمضـي
العيش إذ يشفي، كالعيش إذ يضني   إن الذي يُحيي بعض الذي يفنـي
الطهر لا يدني، والعهر لا يقصي   فالكاس إن تطفح كالكاس في النقص
الجوهر السامي يبقى بلا رجس   كم مومس تمضي عذراء للرمس..
فافعل كما تهوى يا قلب، لا تحـذر   إن كنت من تبرٍ ما ضرّك المصهر

عاش هذا الشاعر في حالة حرب دائمة بين كيانه الظـاهر وكيانه الخفي، لا تخمد نارها من جانب طريقه حتى تشتعل من جانب آخر. وهو يحترق ويصيـح :

لماذا وقفتِ بخوف وحيرة   أيا نفس عند الطريق العسيرة؟
ألا امشي. فانَ الحياة قصـيرة   ألا امشي .

كل شعراء الرابطة كانوا حائرين. ولكن عريضه جسّد الحيرة في شعره وغذاها من نفسه حتى صارت تتحرك وتمشي وتتكلم ولكنها لا تبوح بأسرارها :

يا نفس مالكِ والأنين   تتـألمين وتؤلمـين

عذّبتِ قلبي بالحنين وكتمته ما تقصدين
أحمامةً بين الرياح قد ساقها القدر المتاح
فابتلّ بالمطر الجناح يا نفس مالك ترجفين ؟

وهكذا يمضي الشاعر من سؤال إلى سؤال :

لماذا تهب الرياح على شواهق ليست بها حافله
وتحرم من بردها مهمهاً به أوشكت تهلك القافله ؟
لماذا السفينة تطلب ريحاً ومن تحتها أبحر هائله
وفي القفر عطشى يريدون ماء وريح السموم بهم نازله
لماذا نحب ؟ لماذا نحس، لماذا نعيش بلا طائله ؟

تللي هي الحيرة الكبرى « حيرة كونية تشمل الزمان والمكان وتملأ السموات والأرض بشكوى نفس آلمها أن تجهل ماهيتها ومصيرها وأن تعجز عن الانطلاق إلى نور المعرفة الكاشف الأسرار » (من مقدمة الأرواح الحائرة لحبيب كاتبه) ، عاشها نسيب عريضه إلى آخر نسمة من حياته ، وعاناها أبو ماضي ردحاً من الزمن فما فك طلاسمها ولكنه نجا بنفسه منها بكلمة « لا أدري » . أما حيرة رشيد أيوب وندره حداد فهي الحيرة الصغرى . نشأت من خيبة آمال الشعراء في مهجر غريب اللغة والتقاليد والعادات وفي بيئة عربية لاهية بالتجارة عن التمتع بأي غذاء روحي . فهم يتذمرون ويشكون جور الحياة . هذه الحيرة الصغرى عالجها نسيب عريضه بالاستهتار :

رفعت كاسي حين لج الهوى واستعصت الاشجان في راسي
وصحت مغروراً بطيش الصبا أين الندامى ، أين جلاسي ؟

فلم يجبني أحـد منهـمُ سوى الصَّبا مرّت بأنفاسي
فقمت والكاس علت في يدي رفعتها أعلى من الراس
شربت وحدي نخب نفسي ولم يقلقني هاتف وسواس
وكان سمّاري نجوم الدجى وكانت الأحلام جلاسي
رأيتها تهتز سكراً معي منشدةً نغمة إيناس
اشرب وحيداً أيُّهذا الفتى ولا تصم عن لذة الكاس

وعالجها أيضاً بالتسامح النبيل :

أعطني في الرخاء خِلاً يقضّي زمن اللهو والمسرات عندي
وإذا ما مضى الرخاء فدعني لقراع الخطوب في العيش وحدي

جميل هذا الترفع . وخليق بالشاعر أن يكون رجل الدنيا وواحدها ولا يعول في الدنيا على رجل . ولكن متى عضّه الفقر وأنشب نيوبه في أطفاله وعياله ، هل يهدهدهم بالخيال ويغذيهم بالفلسفة ؟ ها هو يفقد جلَدَه ويعود إلى التساؤل :

لماذا التناسل والنسل يدري بأن الحياة له قاتله
أكيما نزيد المقابر رمساً ونصغي إلى رنة الثاكله ؟
لماذا يفوت الأديب الغنى وتحظى به فئة جاهله ؟

ويتوجه الشاعر إلى ربه ، لا بالتجديف ، بل بالاقتراح المبطّن بالعتاب كأن للشاعر اليائس دالة على خالقه :

لو كنت رباً في السماء عظيما بجميع أمر الكائنات عليما

لهبطت من عرشي إلى أرض الشقا		نحو ابن آدم ، من خلقت قديما
ولبثت أغسل بالدموع كلومه		وأزيده بتذلّلي تعظيما
مستغفراً عن عيشة قُسمت له		منذ الخليقة لا تزال جحيما

ومن منظومات الشاعر مطولة عنوانها « إرَم ذات العماد » تحاور فيها القلب والعقل في صراع عنيف للاستئثار بمركز القيادة في معركة الحياة . وتُكتب الغلبة للقلب فيسير في طليعة القافلة . ثم تثور العاصفة فتفتك بالقلب والعقل معاً . في هذه الملحمة الصوفية يستعرض الشاعر مراحل الحياة ويستوحي القلب أقوالاً تعكس روحانية الشرق العربي حين تخبّ القافلة على ترجيع الحداء . ثم يستنزل العقل أفكاراً عميقة في تعابير حافظ فيها على جو البوادي ، مما يدل على حنينه الدائم إلى صحارى بلاده ، بالرغم من وجوده في ظل ناطحات السحاب . وفي النهاية لا يقترب من نور المعرفة ولا يعود إلى الايمان الخالص ولكنه يصر على التحديق إلى النور البعيد :

إيه ضوئي البعيد		لُحْ ولح ما تريد
ليس طرفي يحيد		عنك حتى يعود
لتراب ودود .

وشاء القدر العنيد أن يحرمه اللذة الروحية الأخيرة التي كان يصبو اليها . لقد أدركته المنيّة قبل صدور ديوانه « الأرواح الحائرة » بأيام معدودة . فبكاه الأدب وتفجع عليه الشعراء في حفلة الذكرى التي أحياها له نسيباه ندره وعبد المسيح حداد في اليوم الأربعين لوفاته . وفي جريدة « السائح » دعوة تردد منذ عام لتخليد ذكراه بمختلف الوسائل . أما هو فيوصي بتمثال يوضع على ضريحه ويقول :

اقيموا على قبري إذا متّ دميـــة بها رمزُ عيشي بعد موتيَ يُعرض
يدان بلا جسمٍ من الصخر عادتا إلى حيث كان الجسم يهوى ويبغض
فيمناهما مبسوطة تشحذ الجـدا لتُشبع جوع النفس والنفس ترفض
ويسراهما فيها فؤادٌ مضرجٌ تقدّمه للناس والناس تُعـرض

* * *

وكان أن دخل في طور الهدوء النفساني في فترات قبـل وفاته فمال ببصره عن ثانويات الحياة إلى أولياتها وراح يؤنب نفسه بهذا القول :

لو حدق المرء بالبرايـا لشام ما لا ترى العيـــون
ما حولنـــا عالم خفي تدركه الروح في السكون
كم مبصر لايرى ،وأعمى يرى ويدري الذي يكون
يا ويح من لا يرون شيئـاً إلاّ إذا فتّحوا العيون

ندره حداد

١٨٨١ — ١٩٥٠

ابن حمص البار وشاعر العاصي الحق . هاجر إلى نيويورك عام ١٨٩٧ وكان الريحاني وجبران قد سبقاه اليها . هو وأخوه عبد المسيح من مؤسسي الرابطة القلمية والعاملين في حقلها ، ولهما أثر مرموق في أدب المهجر . غذاه ندره بشعره الرقيق الحكيم بينما كان يتعاطى الصرافة موظفاً في بنك لبنان الوطني .

يؤثر عن الشاعر ندره ، رحمه الله ، أنه كان نسيج وحده في عفة القلب واليد واللسان وقدوة تحتذى في نظافة الوجدان . شعره مرآة نفسه عذوبة وبساطة ونعومة وصفاء . وقد جرى بعضه مجرى الامثال في الدعوة الى الإيثار والصفح عن الإساءة وفي رقة الحنين إلى الوطن . وسمه بطابع المحافظين لغة وبطابع المجددين تلاعباً بالأوزان ، وأولع بالبحور القصيرة المجزأة ، كقوله له في الحنين :

ما قيل لي مرحبا في كل أسفاري
إلاّ وقلبي صبا للأهل والدار

راجعت بعد الشباب في التيه ألواحي
فلم أجد في الحساب باباً لأرباحي

* * *

وقوله : أيها الآتي من الأوطان والأوطان حلوه
لم أجد عنها وإن طال زمان البعد سلوه
وطن أصبح مذ فارقته في القلب جذوه

* * *

وقوله : أنا راض بالعصا يا أيها الحامل رمحك
وسأرضى خبزك الأسود في الحب وملحك
وأرى ليلك ليلي وأرى صبحيَ صبحك
وإذا أخطأت نحوي فأنا الطالب صفحك !

وهو يميل إلى الايجاز في القول . فما عثرنا له في ديوانه « أوراق الخريف » إلاّ على مطولة واحدة هي قصيدة الراهبة الّتي تزيد على مائة بيت عالج فيها القصة بنجاح . وهو كسائر إخوانه الرابطيين لم يبرأ من الحيرة النفسانية ولكن الشكوك لم تزعزع إيمانه وتعذب قلبه كما فعلت بهم . قال عن النفس :

هيَ سرّ غامض أو مبتدا جهل الإنسان منه خبره
ظنها بعضهمُ معرفة أخطأوا . لم تكُ إلاّ نكِره
ليس يدري غيرُ من أبدعها ما مصير النفس بعد المقبره
قوة تحمل ذا الكون كما يحمل اللاعب في الكفّ الكره

ضل من ينشدها في جـامع ضل من ينشدها في أديـره
إن نفساً حاربت أهواءهـا هي نفس خُلقت منتصره

وهو متعبد صوفي النزعة ، بعيد عن التعصب المذهبي :

ودّ غيري الصلاة في الجامع أو في كنيسة أو كنيس
واقفاً كالببغاء يتلو صلاة هي في السبت مثلها في الخميس
راكعـاً ناهضاً وراء إمـام ساجداً صامتاً أمـام قسوس
ووددت الصلاة في الروض بعيـ ـداً عن كل هذي الطقـوس
حيث لا أسمع المرائي يصلي عاليـاً يستغيث بالقـديس
حيث لا واعظ يصيح وفيـه من شرور ما ليس في إبليس

كان يبشر برسالة الحب الإنساني ويطبق قواعدها على حياته :
واننا لنجد في قصيدته « أنا إن مت » مرآة أخلاقـه السـامية ونزعته الحرة :

أنا إن مت بأرض ماتت الاحرار فيها
وقضى في الذود عنها كل شهم من بنيها
ورأيتم كل غِرٍّ بعدهم صار فقيها ..
وقليلَ الفهم والادراك يغتاب النبيهـا
وذوي الأموال والأملاك يختالون تيها
وفقير الحال منبوذاً ولو كان نزيهـا
ورئيس الدين طماعاً وأمّياً سـفيها
أخذ الأموال عفواً ضاحكاً من باذليها

إفرحوا إن متُّ إنّ العيش قد صار كريها

* * *

وإذا متّ بأرض تخرج القوم الاسودا
تدفع الأبناء في المجد إلى الحرب جنودا
وإذا ما مات منهم بطل كان شهيدا
تبذل المال فيغدو للظى الحرب وقودا
تجعل الإنسان حراً طارحاً عنه القيودا
تكرم العالِم حياً ثم تبكيه فقيدا
تبغض الظالم في الحكم ولو كان عميدا
تكرم الضيف وترعى لمواليها العهودا
فاندبوني ! أنا من يهوى على الأرض الخلودا

ومن حسنات شعره قوله في وصف ليلة ساهرة :

ونجومها في الأفق ترقبنا ــــ سهرانة ، تبدو كحرّاس
يا ليتها تبقى ، ويتركنا ــــ وجه الصباح وأوجهالناس

واعتلّت صحته وصحة جيبه في السنين الأخيرة من حياته ولكنها لم تؤثر على بشاشته ولا على إبائه . فما نبس بشكوى أمام أحد من زواره (وكنت في عدادهم) غير أن القلق كان يرتسم على ملامحه ويهمس في حديثه . فإن خلا بنفسه باح للشعر بشجونه :

لا تقل إن رأيتــه ــــ تائـه الفكر والمقلْ
أيهـا الشاعر استفـق ــــ قبل أن يهجم الاجـل

لا تقل هكـذا لـهُ   انـه يكره العــذل
هو راضٍ بحـالـه   ظلم الدهرُ أم عـدل
هو في الصبر والرضى   والوفا مضرب المثـل
لا يبـالي بنعمـــة   بيع في سوقها الخجـل
هو في الحب دمعة   ليتها دمعـة الجــذل
أعطـه صحـة وخـذ   كل غال من الأمـل
فإذا مـا رأيتـــه   شارد الفكر لم يـزل
لا تلم مثله فــتى   نيل منه ولم ينَـل

وكانت وفاته فجأة في حفلة عرس بعد أن أنشد فيها شعر التهاني ، وفي هذا قال أبو ماضي :

شاعر أبدع معنى صاغـه   للبرايا موته المبتكــر
إنه كان ملاكاً بشراً   فمضى عنـا الملاك البشر

عبد المسيح حداد

١٨٩٠ – ١٩٦٣

شقيق الشاعر ندره حداد وصنوه في المجد الأدبي. ما ذكر المجاهدون الروّاد في حقل الصحافة والأدب في المهجر الاميركي إلاّ ذكر في طليعتهم اسم صاحب جريدة «السائح». وما دار حديث عن الرابطة القلمية إلاّ تخلله ثناء على عبد المسيح حداد، الذي احتضن الرابطة وربّاها ومزج روحه بروح عميدها.

وصل إلى نيويورك عام ١٩٠٧ أي بعد شقيقه ندره بعشر سنوات، وأخذ يتردّد على المدارس الليلية ليتعلم اللغة الانكليزية، وحاول الارتزاق من التجارة فلم ينجح. ثم أسس جريدة «السائح» عام ١٩١٢ وجعل من مكتبها ندوة لأهل الفكر والقلم. منه انطلقت حركة النهضة الأدبية، وفيه تأسست الرابطة القلمية، وعليه اعتمدت في نشر آثارها. ويكفي أن تتصفّح العدد السنوي الممتاز «للسائح» وتقرأ أسماء المشتركين في تحريره (جبران ونعيمه وأبو ماضي وعريضه ورشيد أيوب وفيليب حتي ووليم كاتسفليس وندره حداد وأمين مشرق والمطران انطونيوس بشير وحبيب كاتبه وأمثالهم) لتعلم إلى أي

مستوى رفيع نهضت الصحافة العربية في نيويورك بفضل جهود صاحب « السائح » .

كتاب « حكايات المهجر » هو أشهر آثار عبد المسيح حداد . ولكن هناك خمسة واربعين مجلداً من جريدة « السائح » تمثل هرماً أدبياً بناه عبد المسيح بجده وفنّه ووطنيته ومحبته لكل ما هو عربي . نجد فيها مقالات وأحاديث تعتبر أفضل دعاوة للأدب المهجري وأصدق تاريخ لمراحل النهضة الأدبية . فكل أديب (ولا نستثني جبران) مدين ببعض شهرته لصاحب « السائح » .

سألت صديقه وعشيره الأستاذ نظير زيتون أن يحدثني عنه فأجابني بهذه العبارات :

« يندر أن تلقى بين الأدباء نظير عبد المسيح وفاءً وتسامياً وتحرراً . هو صوفي النزعة ، إنساني الشرعة ، يبذل في سبيل الآخرين ما لا يبذل بعضه في سبيل نفسه . هذا الشهيد الحيّ قُضي عليه أن يحمل رسالة الأدب الحيّ – إلى جانب رسالة الصحافة الشريفة ورسالة أمته – بعد ما رأى رفاقه الميامين يتساقطون نجماً إثر نجم . فما جدّف ولا تذمر . بل تابع سيره بشوشَ الوجه رضيّ النفس . ومن المصادفات الغريبة ان يسمي بكره (جرير) إعجاباً بجرير الشاعر ويتضح ان ابا جرير الشاعر كان يدعى أيضاً عبد المسيح » .

وجرير هذا من نوابغ الانجال ، ولكنه اميركي قلباً وقالباً لم تلصق العروبة إلاّ باسمه . هو يدير مصنعاً كبيراً للآلات الحاسبة والكاتبة ويُدهش الصناعيين بابتكاراته . دنياه حدودها نيويورك . أمّا أرض آبائه فتمرّ على خاطره مرور الخيالات .

زار عبد المسيح جمهوريات اميركا الجنوبية عام ١٩٤٩ زيارة دراسية (غير صحفية) ولمس في حفلات الترحيب مبلغ التقدير الذي تكنّه الجوالي العربية لأدبه وفضله . وقد سمع – في جملة ما سمع من قصائد –

كلمتي في حفلة توديعه في بونس ايرس :

تشيّعه عيني وكفي على قلبي — احاذر ان يستلّه الوجد من جنبي
تململ ما بين الجوانح حائراً — أيهدي سلاماً والجوانح في حرب ؟
يحاول دفع البين بالحب والرقى — فيدعو على الداعين للبين .. بالحب
لي َ الله . كم ركب يسير ولم أزل — أعلل نفسي بالمسير مع الركب
وانثر أزهاري على الدرب ، ربما — يروق لأحبابي الوقوف على الدرب
لعلي إذا استروحتهم ساعة النوى — أعيش على الريّا إلى ساعة القرب
عشقناك يا عبد المسيح وطالما — عشقنا صفات النابهين من العرب
وآلمنا ان لا يطول لقاؤنا — كما طالت الاعوام في الهجر والكرب
فما زارنا نجم كنجمك (سائحٌ) — يجوب سماء النازحين (ولا يجبي)

وتوالت الاعوام ، عجافاً كلها ، على جريدة « السائح » ، ورأى صاحبها ان الزمن يعمل ضده ، فلا تمرّ سنة عسيرة حتى تجيء سنة أعسر على الصحافة العربية في المهجر . فاستعمل حكمته وباع الجريدة وموجوداتها عام ١٩٥٧ إلى الاستاذ راجي ضاهر صاحب جريدة «البيان» وهنأ نفسه بأنه قضى على الساحرة قبل أن تقضي عليه . وفي عام ١٩٦٠ لبّى دعوة الحكومة السورية لزيارة الوطن ضيفاً عليها . فيمّم دمشق وتجول في الأقاليم السورية كلها واتجه إلى لبنان وإلى مصر دارساً ملاحظاً مكرّماً في كل مكان . وعاد إلى نيويورك باختبارات ثمينة وبفكرة مستنيرة عما يجري في بلادنا وعما نتوقع لغدنا . فكتب انطباعاته في كتاب صدر عام ١٩٦٢ بعنوان « انطباعات مغترب » من مديرية التأليف في وزارة الثقافة والارشاد القومي في دمشق . وأنبأني في رسالة تاريخها ٥ تموز عام ١٩٦٢ انه يهيئ كتاباً ثانياً عن انطباعاته في مصر ، وانه مهتم بتأليف جزء ثان « لحكايات المهجر » وبجمع كتابات اعلام

الرابطة القلمية لنشرها في بيروت . ولكنّ غدّارة اسمها الموت قطعت عليه الطريق وهدمت المشاريع قبل أن يتمّ البناء . لقد وقع له ما وقع لشقيقه ندره قبل ثلاثة عشر عاماً ، فزهقت روحه في شهقة واحدة في مجلس وهو يجاذب ندمانه اطراف الحديث . رحمة الله على ابي جرير ، دعبول الرابطة القلمية ، وحبيب الكل .

رشيد ايوب

١٨٧١ — ١٩٤١

الشاعر الدرويش . وليد بسكنتا — قرية ميخائيل نعيمه — هاجر إلى أميركا الشمالية بعد رحلات قام بها إلى باريس ومانشستر ، كانت التجارة رائده فيها . ووصل إلى نيويورك بوصول نسيب عريضه اليها عام ١٩٠٥ فتعززت بالقادمين دولة الأدب . سمي الشاعر الشاكي لكثرة ما شكا الزمان وبكى حظه المتأرجح بين العسر واليسر وردد زفرات الحنين إلى الوطن . على أنه كان بهجة المجالس وواسطة العقد بين الندامى ، لم أعرف بين الأدباء أفكه منه حديثاً ولا ألطف ظلاً ولا أكثر حيوية .

صدّق القول القائل :

أربعة إن جُمعت تجلو عن القلب الحزن
المـاء والخضرة والخمرة والشكل الحسن

فأولع بها جميعاً !

وكان يدمن الويسكي منذ أقام في مانشستر . ثم زاد إدماناً بعد ما

نكب في مادياته في نيويورك :

وقـــائلة لمــا رأتنيَ مكـثراً ... من الخمر إن الخمر يذهب باللبّ
فقلت دعيني في رشادي فإنني ... أعوّض عما يشرب الحزن من قلبـي

أما سبب الحزن فقد يكون كساد بضاعته الشعرية :

وضربتُ أنغامي على وتـــر ... جعلَ السماء قريبةً مني
ودخلتُ عبقر وهيَ لي وطنٌ ... منه حملتُ بدائع الفنِّ
وأتيت بالاشـعار صافيـةً ... كالكوثر السلسال في عـدنِ
وظننتُ اني عدتُ منتصراً ... فاذا بنفسي خيّبت ظـــنّي
فالناس في الدنيا بجهلهـمِ ... لا يشترون بضـاعة الجـنِ

والواقع ان الناس لم يشتروا شعره بمال ولكنهم قدروه وأطروه إطراءً لا يُغني من جوع :

كم قائلٍ ليَ قَد أوتيتَ مَوهبةً ... فقلت يا صاحبي خذها بدولار

إختار لنفسه لقب الدرويش إعلاناً عن زهده في الغنى وفي السعي وكرس هذا اللقب بتسمية ديوانه الثاني « أغاني الدرويش » (عام ١٩٢٨) وقبله أصدر « الأيوبيات » (عام ١٩١٧) وصدر ديوانه الأخير « هي الدنيا » (عام ١٩٣٩) . وتوفي بعد ذلك بعامين في تمام السبعين من العمر منتصراً على الدّنيا ، على حد قوله :

ولما رأيت المال يستعبد الورى ... وآمال نفس الحر تقضي بأن يحيـا

عكفت على الإقلال علماً بأنه يلذ لنفسي الانتصار على الدنيا

كان مقلاً في النظم ، متشدداً في نقد شعره وتهذيبه ، حريصاً قبل كل شيء على عذوبة الايقاع . تمر الشهور دون أن يتم قصيدة بدأها ، ولا ينشدها وينشرها إلاّ بعد التثبت من بلوغ غايته من الجودة . ومع أن قصائده كانت قصيرة ، فبعضها نصف حولية . الرنة الموسيقية والطلاوة والرقة والبساطة هي مميزات شعره ، وبها كان يطرب الاسماع ويحنن القلوب . وقد جرى شعره على كل لسان في المهجر لعذوبته وسهولة حفظه . ثم لانسجامه في الحنين مع عاطفة المغتربين . لقد بكى فاستبكى . دون أن ينظم المعلقات كامرئ القيس . وأخلص لفنه فلم يتجاوز في أغراض الشعر إلى ما ليس من طبعه واحساسه . لذلك قيل عن قيثارته انها ذات وتر واحد .

كان يصف في شعره ملامح نفسه – أي ملامح الدرويش :

وقفنا عند مرآه حيارى ، ما عرفناه
عجيب في معانيه غريب في مزاياه
له سربال جوّاب غبار الدهر غشّاه
ووجه لوحته الشمس غارت فيه عيناه
سألنا الناس من هذا فقالوا – يعلم الله

هذا من حيث المظهر الخارجي – أما من حيث نفسية الدرويش فقد قال :

أهوى الليالي كيفما جاءت ، على علاّتها
لا أعتب الدنيا إذا ما غيّرت عاداتها

أنا أعشق النفس التي　　تلتـذّ في حسراتهـا
والنفس تأبى إن سمت　　مـا زاد عن حاجاتهـا

غنّى ربيع بلاده وخريفها . صيفها وشتاءها . ثلوجها ورعيانها ، فلاحها وناطورها ، غناء قصير النفس رخيم الصدى . كالجدول الرقراق لا يحتاج إلى فسحة واسعة من الأرض يجري عليها ، بل يختار مجراه بين ضفتين متقاربتين :

بلى ، بعد هذا البعـاد　　ألا سجلي يا سـما
أنا في أقاصي البـلاد　　وروحي بوادي الحمى

* * *

يا ثلج قد هيجت اشجاني　　ذكّرتني أهلـي بلبنـان
بالله قـلْ عني لأخواني　　ما زال يرعى حرمة العهـد

* * *

وحولي صفوف من الذكريات　　كسرب الحمام خلطن الصياح
فحينـاً تهيم مثل النسيم　　وحيناً تهب كهُوج الرياح

* * *

هات الكمنجة هاتهـا　　الله في نغماتهـا !
وأعـد علـى سـمعي　　حديث الحب في رناتها
يا صاحبي ، صوت الخلود　　يرنّ في جنبـاتهـا

وهو في غزله واقعي ، ولكنه يستحضر الجو الملائم ويطيبه بألفاظ كأنها نقاط العطر :

هوّن الله فعدنا والتقينا وتذكّرنا الليالي فبكينا
وهنتْ مثلي ، ولكن لم يزل في حواشي العمر ما يحلو لدينا..

وصف مثير لتجربة شخصية ، وبساطة أخاذة لا تتأتى إلا لشاعر مطبوع .

هذا اللقاء الذي هوّنه الله بعد فراق السنين وبعد أن اكتهل العاشقان لا يمكن أن يحدث فيه غير استذكار الليالي الماضية ، ليالي الهوى والشباب رحمها الله . ولكن الشاعر الخبيث يستدرك بعد الفحص والتمحيص فيقول إنه اكتشف في حواشي الكهولة آثاراً للحلاوة لا بأس بها ... والله أعلم .

وفي ساعة من ساعات التجلي ، بين الراح والريحان ، جرّب السباحة في البحر البسيط الوسيع فقال :

جلست في الروض وحدي عند ساقية يردد الماء فيها صوت ألحاني
والريح تخفق من حولي مهينمة كما يهيم قلبي الخافق العاني
فقلت لمّا رأيت الروض مملكتي وأنني بين أنصاري وأعواني
يا ليت لائمتي في الحب حاضرة كيما تراني في عزي وسلطاني

وأخيراً ، بوصفه رابطياً ، زميلاً لجبران ونعيمه وأبوماضي وعريضه لم ينج من الحيرة النفسية :

لك يا نفس حياة بعدما ألقي العصا
فالأماني جائعات عللِيها بالحصى — كي تنام
هي تذكارات شاعر عاش في الدنيا شريد
ومضى في الأمر حائر يقصد الضوء البعيد — في الظلام !

مسعود سماحة

١٨٨٢ — ١٩٤٦

شاعر لبناني فحل ، ولد في دير القمر وهاجر إلى الولايات المتحدة ثلاث مرات في أوائل هذا القرن إلى أن استقر في واشنطون عام ١٩١٥ وانخرط في الجيش الاميركي حتى بلغ رتبة كولونيل . ثم عاد إلى التجارة ولما لم يجن منها ما يرضيه إنصرف إلى القلم وحرر الصحف وكان يحرر جريدة « البيان » حينما أدركته الوفاة . نظم الشعر المتين على منوال الأقدمين ولم يندفع مع تيار التجديد الدافق من الرابطة القلمية في نيويورك بل ظل غريباً عنها وعن أساليبها ، وظلت ديباجته جاهلية خالصة . قال قبل أن أقدم على الهجرة :

سأترك أرض الجدود ففيها   حياة الجبان وموت البري
تقيّـد أقلام أحرارها   وتطلق أيدي ذوي المنسر

ولم يتبدل رأيه بعد عشر سنوات فقال بعد أن زار لبنان :

مشت القرون وكل شعب قد مشى   معها وقومك واقفون ونوّم

لم ترتفع كف لصفعة غـاشم　　فيهم ، ولم ينطق بتهديد فـم

ومن قوله في صباه :

سلام يـا معـــذبتي　　على أيامنـــا الأولى
وأوقات لنا درجت　　كما درجت ، على مهل
معـذبتي ، لقـد أمسيت بعدك مضرب المثـل
يدبّ السقم في جسمي　　دبيب النوم في المقـل
هي الأيـام سـائرة　　بنا في السهل والجبل
فلا عسل بلا صاب　　ولا صاب بلا عســل
معـذبتي ، معـذبـتّي　　يطيب الموت بعدك لي

شعر خلا من الابتكار ، يردّد المعاني المتداولة ، ولكنه يزخر بالايقاع . وسلاسته تشفع له . أصدر ديوانه الضخم من مطبعـة « السمير » جامعـاً فيه روائع الشعر القومي الرصين إلى ماقاله في مناسبات الترحيب والتوديع والرثاء والتكريم والمداعبات ، ونظم شعراً جيداً باللغة الانكليزية . كان ، رحمه الله ، عاثر الجد ، قليل الصبر ، كثير التنقل . مارس التجول (بالكشة) في أول أمره ووصف حاله معها شعراً في فصل سابق (بواعث الهجرة) ، ثم عالج أبواباً أخرى في التجارة دونمـا ثبات على العمل ، فكان التردد سبباً من أسباب فشله :

قدر الله أن أكون شـقياً　　في حياتي من جملة الأشقياء
كلما شاب مفرقي شبّ حزني　　في فؤادي وشب فيه عنـائي

على ان العسر المادي لم يؤثر في معنويات الشاعر الأبي ولا حدّ من اجترام المواطنين الأجانب لشخصيته الكريمة . لقد عاش ومات رجلاً كبيراً بين الرجال ، مصداقاً لقوله :

إذا هزّتك آفات الليالي
وأمسى عبءُ همك كالجبال
وصرت بلا صديقٍ أو موال
ولم تيأس — فأنت من الرجال !

نعمة الله الحاج

١٨٨٩

شاعر لبناني (من قرية غرزوز) هاجر إلى اميركا الشمالية عام ١٩٠٤ قبل أن يكمل الدراسة في مدرسة القرية فأكملها في ما بعد على الاستاذ خليل سكاكيني . وحلّ في ولاية كارولينا كبائع جوّال ، ثم انشأ حانوتاً في بلدة غرينفيل تعاطى فيه تجارة السمانة ، ولم ينقطع عن الأدب بل عكف على الدرس والاقتباس وشرع بالانتاج منذ عام ١٩٢١ حين أصدر ديوانه الأول مع مقدمة بقلم ايليا ابو ماضي . وبعد أعوام طويلة أصدر ديوانه الثاني « المشرق » وذكر فيه أنه تعاون مع الدكتور أحمد زكي أبو شادي في تأسيس « رابطة مينرفا » وفي مهماتها . أمّا ديوانه الثالث « مرآة الخيال » فأصدره في لبنان أثناء زيارته لوطنه عام ١٩٥٩ .

نقرأ في المقدمة التي كتبها إيليا أبو ماضي : « هذا ديوان تسرح النفس فيه بين معان كالكواكب المشرقة وألفاظ كدموع الفجر المترقرقة .. جمع بين ضروب المعاني البديعة والأوزان الموسيقية الراقصة . فكان الشاعر في تقليده مبتكراً وفي ابتكاره مبدعاً » . ثم نقرأ قصائد الديوان فنجد أنها لا تختلف في أغراضها عما كان ينظمه شعراء الرابطة القلمية ،

وان اختلفت في مدى التجديد صياغةً وفكرة ، فالشاعر اتباعيّ الأسلوب. فيما عدا بعض القصائد الغنائية حيث يتفنن بتقطيع الأوزان ، مكتفياً بالموجات الموسيقية التي تزخر في شعره وتفتن الاسماع .

أتيح لي حظ التعرف إلى الشاعر نعمه في حلقة من الشعراء جمعهم أبو ماضي في منزله . فعرفت شخصية جذابة وشاعرية أصيلة ، ولمست جمال النفس منعكساً على الوجه الصبيح الأنيس . وأكثر ما أثار اعجابي سرعة خاطره وسخاء قريحته . لا يكاد المضيف يقترح موضوعاً للنظم حتى يبادر نعمه إلى الانشاد ، سابقاً الجميع ، ويسمعك شعراً جيداً لا حشو فيه ولا تصنع .. ومن سمع شعره المرتجل فكأنه قرأ صحيفة نفسه . ذلك ان صدق عاطفته وحرارة انفعاله ينسكبان في شعره ويمثلان شخصيته على حقيقتها . وكم مرة فاضت قريحته بالشعر وهو ماشٍ في السوق أو مصغٍ إلى (زبون) فكتب على كمّ قميصه الأبيات المنزلة . تلك عادة أشار اليها في مطارحة شعرية بينه وبين صديقه الشاعر الناثر أمين زيدان فما تعدّى الحقيقة :

زيدان يا خدن الصبا الرّيان يا شيخ الشباب
أنت الامين على العهود كما دُعيت بلا ارتياب
أذكرت ليلى عندما للأكل قمنا والشراب
ترنو كجوذرة وتبسم عن ثناياها العِذاب
وجرى التعارف والتآلف ثمّ — والشعر استجاب
فجعلت من كمّ القميص له سطوراً في كتاب ..

ولعله وصف نفسه حين قال :

فتى رقّ من فرط الشعور شعوره فزادت بلاياه وقلّ سروره

كثير الاماني، لا يزال مفكراً تدور به آماله وتُديره
على محور لا يستقر قراره كما انها لا تستقيم أموره
يُرى باسماً والدمع خلف جفونه فيُشكل فيه حزنه وسروره
وتجتمع الاضداد فيه فيلتقي بأشعاره حلم النهى وغروره

او لعلّ التجارة كانت منبع الشكوى ، تلك التجارة التي تبعده عن الاوساط الأدبية في نيويورك وتحبسه في الحانوت الصغير :

أعرضتْ عني « بنيّات » القريض حين أغرتني عجوز المهجر

* * *

لو كان أمري في يدي لـوددتُ لو لم أولـدِ
لم ألقَ غير النحس في أمسي فماذا في غدي ؟
لم يبقَ غـير ثمـالةٍ في الكـاس للقلب الصدي
فولادتي بدء الممـاتً ويـوم موتي مولـدي

* * *

اسائل لكن لا أرى سائلاً عني فياقلب صبراً ان تكن خائب الظنِ
ويا قلب كم أمنيّةٍ مذ بلغتها ضحكتُ على نفسي كما ضحكتْ مني

الشاعر التاجر لا يرضى عن مجرى حياته في المهجر القاسي ولكنه يظلّ متشبّثاً بعرائس الشعر يغازلها (مع الاحتجاج) على انفراد في ساعات التـأمل والاستغراق وينال حظوةً عندها بشفاعة آلامه . وكم كشفتْ عن أسرار محاسنها ومفاتنها لسجين المتاجر وحامل المساطر :

إلامَ تعاني الهم والطرفُ ساهد وتنشد أعواناً وليتك واجدُ

وتضرب في طول البلاد وعرضها — كأنك قد سُدّت عليك الموارد
لعمرك كم هبّتْ عليك زعازعٌ — تهدّ وكم شدّت عليك شدائد
فكنت كأمواج تهاجم جلمداً — تشظّت عليه وانثنت وهو صامد
إذا لم يكن لي من يميني مساعد — فلا كان في جسمي يمينٌ وساعد
وما المال همّي في الحياة وانما — أطارد خيلَ المجد في ما أطارد
فحسبي من العيش الكفاف وان يزدْ — فللغير منه حصةٌ وفوائد

* * *

تذوقت ألوان الحياة فلم أجد — لذاذتها في النفس أبقى من البؤس
صمدت وجيش النائبات مهاجم — ومن قلمي رمحي ومن جلَدي ترسي
ولما رأيت الشمس ترسل نورها — جزافاً بلا منٍّ رفعت لها رأسي
وارسلت أفكاري تشعشع في دجى — همومي وان كانت تذوب بها نفسي
وما الحيّ في جسم يسير على الثرى — بل الحيّ في فكر يطير على الطرسِ

* * *

وننتقل من الشعر الذاتي إلى الوصفي فلا نجد الشاعر أقل توفيقاً . وشاهدنا قصيدته « الجبال في الخريف » :

وقفت على ذرى جبل — سما صعداً إلى السحُبِ
أكاد إذا مددت يدي — تلامس مطلع الشهب
جبابرة قد انتصبت — ممرّدة على الحقب
بقامات مخضّبة — وهامات من اللهب
وأردية محبّرة — كطنفسة على قبب
فوارع تكتسي شجراً — كساء الأرض بالعشب
أغارَ على نضارتها — خريفٌ عاث بالقشب

يُعرّيهـا ويعْصِبها بتيجان من الـذهب

وله جولات في الآفاق الروحانية ، منها مناجاته « لروح شاعر » :

حلّقي في الفضاء فوق الغيوم وامرحي بين نيرات النجوم
قدتخلصتِ من همومك في الأرض وخلفتنا أسارى الهموم
يا ابنة النور والسديم هنيئاً لك ، أصبحت في حماك القديم
فادغمي كل ذرة منك في الذرات منه وغلغلي في السديم
واطلعي في الشموس نوراً وفي الامواج شدواً ، ورقة في النسيم
وورودا في الروض ينشق منها من يحبّ الطيوب طيب النعيم

ومن طريف الابتكارات قوله في قصيدة « لذة السماع » :

كنت قبلاً أقول كي يسمع الغير فأصبحت مصغياً أتسمّعْ
حبذا لذة السماع ففيها تنتشي الروح والجوارح أجمع
نشوةً تجمع النقيضين شجواً يرقص القلب بينما العين تدمع
فأنا رابحٌ ، وليس الذي يطرح من ماله كمن راح يجمع
وإذا راقني الكلام تهللت وان لم — كأنني لم أسمع ..
لا أباهي ولا أشنّع ان غيريَ باهى بما يقول وشنّع
من تأنّى نال الذي يتمنى ولكم بات نادماً من تسرّع
وأرى الناس ذا يضرّ بما يروي وهذا بقوله جاء ينفع
بعضهم بالكلام يبدع والبعض إذا ظل صامتاً كان أبدع !

وكان من الطبيعي ان يتأثر هذا الشاعر الحساس بمصائب قومه إبّان الحرب العالمية الأولى وأن يرسل الشعر شواظاً وحمماً في حالة النقمة ،

«وبرداً وسلاماً في ساعات الحنين :

وتحولت إلى ذاك الوطن بالخيال
جائلاً ما بين هاتيك الدِّمن والجبال
قلت من للعزم والألفة من ؟ يا رجال
ليت شعري .. لا أرى إلا عظاماً فوقها اللحم – تسمّى بشرا

* * *

ألا حبذا يوم الجهاد فانه ليطربني فيه الرصاص مدمدما
فلا قول إلا للحسام مجرداً ولا حق إلا للّسان مقوما
أأبناءَ سوريّا وهذا أوانكم لكي تظهروا للناس في مظهر سما
أخاطبكم في ذا المصاب وانني لأكبر فيكم ان اخاطب نوّما

قيل لنا ان الشاعر نعمه عاد إلى الوطن في زيارة ثانية هذا العام على نيّة الاستقرار فيه . فسلام عليه أينما كان ، في غرينفيل أو في غرزوز .

الدكتور احمد زكي ابو شادي

١٨٩٢ — ١٩٥٥

لم أتعرض لسيرة الدكتور أبو شادي في المحاضرات التي ألقيتها في القاهرة عام ١٩٥٦ عن الأدب المهجري لأني تهيّبتُ مقامه وشهرته كأديب مصري صميم له تاريخه الطويل في ميادين الجهاد المختلفة قبل قدومه إلى اميركا ، فاكتفيت في محاضرتي الاولى بالاشارة التالية :

« جاء الدكتور ابو شادي إلى المهجر بأدب ناضج ترعرع في الكنانة وأنتج فيها أروع الآثار قبل النزوح عنها . فالمهجر الاميركي لا يدّعيه ».

وكان أنّ السامعين ارتاحوا إلى هذا القول . أما ضميري فلم يرتح ، إذ كان عليّ أن اشجعَ واصرح بأن ابو شادي على جلال قدره وحفول سيرته يُعتبر أديباً مهجرياً في المرحلة الأخيرة من حياته . وبات هذا الاعتبار لا ينتحل للأدب المهجري مجداً ليس له ، بل يُسجّل حدَثاً وقع وكسباً أتاحته الأقدار لمجد الأدب المهجري .

حلّ ابو شادي في نيويورك عام ١٩٤٦ وانتقل إلى رحمة ربه في واشنطون عام ١٩٥٥ ، أي انه أمضى تسع سنوات بين الجوالي العربية في اميركا الشمالية يعمل ويستقرئ ويعاشر ويصادق ويكتب وينشد .

وهو الرجل الديناميكي الذي يملأ أي مكان حيوية وحرارةً بمجرد وجوده فيه ساعات فما بالك بإقامة سنوات ؟ لا عجب ان اندغم سريعاً في البيئة المهجرية بل كان العجب لو لم يندغم . ولا عجب إن تجاوب مع أدباء المهجر الذين رحّبوا به والتفّوا حوله وخطبوا في حفلة تكريمه في فندق « والدورف استوريا » كما أثنى هو عليهم وسمّاهم واحداً واحداً في مقالاته الصحفية وكتب الدراسات عن أدب كل منهم ، وجمع شملهم في « رابطة مينرفا » التي أنشأها ووضع على رأسها الشاعر نعمه الحاج لتحل محل « الرابطة القلمية » .

يقول الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي في كتابه (فصول من الثقافة المعاصرة ، ص ٢٣٣) ان الدكتور ابو شادي ارسل اليه « قصة الأدب المهجري » وهي مخطوطة كتبها في واشنطون قبل أن ينتقل إلى رحمة ربه ، وجاء فيها قوله : « ان الأدب المهجري أدب انساني له شخصيته وأنصاره وفيه ألوان من الواقعية الحية المتحررة . ويتّسم على العموم بالتحرّر في الصيغة والتنوع في الموضوع والانطلاق الفكري والتجاوب مع الحياة والحضارة . وهو أدب ثقافي ناضج تقدّمي كامل التفاعل مع الحضارة الحديثة . وهو كذلك متأثر بالحياة وبجميع مقوماتها ، ومتفاعل معها غاية التفاعل بصورة ايجابية ، ويمتاز بالتركيز الشديد . ومن شعراء البلاد العربية طائفة كبيرة تأثرت بالشعر المهجري . ومن هؤلاء الشابي وفدوى طوقان ونازك الملائكة . والشعراء الشباب اليوم في مصر والعالم العربي يقرأون الشعر المهجري بشغف ولذة لا يعادلها شيء ، ويتأثّرونه في انتاجهم الشعري تأثراً كبيراً » .

يُستدل من هذا الإعجاب ان ابو شادي قد تأثر بأدب المهاجرين كما أثّر فيه ، وفي هذا التبادل قد يكون أعطى أكثر مما أخذ جرياً على عادته في المعاملات . وأعتقد ان اندماجه في البيئة المهجرية كان تاماً بعد عام واحد من اقامته في نيويورك لأن ثقافته الانكليزية مضافةً إلى حدة

ذكائه ولين عريكته وشفافية نفسه ورقة مزاجه تجعله أكثر قابلية للامتزاج بالمحيط . عُرف بطبعه الألوف العطوف ، وبحبه لمجالسة الأدباء . وقد تعوّد أن يطوّق نفسه بحلقات منهم للتنادم والتعاون والتفاهم على شؤون الأدب . واتفق انه جاءهم في حين حاجتهم اليه وحاجته اليهم ، فكيف لا تتوافق المساعي وتتآلف القلوب « ارواحاً مجندةً لخدمة الأدب » .

عاش ابو شادي في جوّ المهاجرين العرب خاضعاً للمؤثرات التي تسيطر على حياتهم ، منسجماً مع عاداتهم وأساليب تفكيرهم وتعبيرهم وتشابهت ظروفه وظروفهم وتوحدت أهدافه وأهدافهم ، فلماذا لا يتقمص أدبُه الروح المهجريّة ؟

ما أكثر وجوه الشبه بين حال ابو شادي وأحوال الأدباء المهاجرين الذين عاشرهم وصادقهم في نيويورك :

١ — بواعث الهجرة كانت واحدة ، العوز والاضطهاد والعبودية التي نفّرت اللبناني أو السوري من داره وقومه ودفعت به إلى حيث يجد الرزق والامان والحرية هي ذات العوامل التي حملت ابو شادي على الهجرة من مصر فقال :

« حُوربت في رزقي فانقطعت مواردي ، وبُليت بعرقلة الرجعيين ومطاردة النيابة والبوليس !! فشعرت بأني غريب في وطني وعزمت على الانتقال إلى جوّ فكري حرّ » . وقال عن مجلة « ابولو » التي أنشأها وختم حياتها في المجلد الثالث : « ان الدسائس والخسائر التي لحقت بي خلقت الاستحالة المادية . فأنا أختم جميع الجهود العامة إلى لاعودة » (من كتاب جماعة ابولو لعبد العزيز الدسوقي) . « وقد صوّر في شعره المهجري وجوه النفعيين الذين عاشوا على أدبه وجاهه وماله ثم تنكروا له » (من كتاب فصول في الثقافة لمحمد عبدالمنعم خفاجي) .

٢ — المبادئ والأساليب والغايات في الحركة الأدبية المهجرية كما

حددها دستور (الرابطة القلمية) هي نفس المبادئ والاساليب والغايات التي أوحاها ابو شادي (لجماعة ابولو) قبلاً والتي مارسها وبشّر بها في مصر . هي التجديد في القالب مع التحرر من القيود والرجعية . هي الابداع في المضمون والسمو بالشعر العربي وبنفوس الشعراء إلى المستوى العالمي . هي مجاراة التيارات الأدبية المعاصرة في التطور دون التنكر للتراث .

٣ — مشقات الاغتراب وعذابات الوحشة التي ألمّت بأبو شادي قاساها المهاجرون العرب قبله ، فتساوت حظوظهم وتشابهت انفعالاتهم وتلك الزفرات التي كانوا يطلقونها في شعرهم كلما فتّحت الذكرى جراحهم وعاودهم الشوق والحنين إلى أوطانهم . لذلك نرى الشعر الذي نظمه أبو شادي في نيويورك وواشنطون مصبوغاً بدم قلبه ، أي باللون الذي صبغ جميع الشعر المهجري مذ كانت الهجرة .

٤ — طول المعاشرة وكثرة الاتصالات في المحافل وادارات الصحف بين أدباء غرباء مولهين بحب الضاد (وكل غريب للغريب نسيب) ويضاف إلى ذلك تبادل الخدمات بين مؤلف ومحاضر وصحافي وناشر . كتب عبد المسيح حداد « ان ابو شادي هو الاخ الحبيب الذي أعاد الحياة إلى أدب العرب في هذا المغترب » . فعرفنا شيئاً مما استفاده أدب المهجر من ابو شادي ولم نعرف ماذا أفاد ابو شادي من أدب المهجر . فهناك أشياء لم يرفع عنها الحجاب ولم يتعرض لها النقاد في دراساتهم لأدب أبو شادي . ولكننا نلمحها من خلال الدواوين الخمسة التي نظمها ابو شادي في المهجر الاميركي .

لا شك بأن النشاط العجيب المعروف عن ابو شادي كان قدوةً صالحة لأدباء المهجر وحافزاً لنشاطهم ، وبفضله انتعشت الصحافة وكثر الانتاج وأفاقت الجوالي الغافية على حركة أدبية قوية لم تشهد مثلها منذ أفول

« الرابطة القلمية » لخمسة عشر عاماً خلَتْ . لقد استسلم ابو شادي للتيار المهجري مطمئناً إلى ان دور القيادة سيؤول اليه بالمثابرة على الجهاد كما آلت اليه زعامة الحركة الأدبية في مصر . فمضى يؤلف الكتب وينظم الشعر ويثير القضايا الأدبية والقومية في الصحف والمجالس ، وفي اذاعات محطة (صوت اميركا) ، وفي أروقة هيئة الأمم المتحدة ، وفي منبر معهد آسيا . وكان يجد في هذا الدأب المضني سلوى عن جهامة المنفى وهناءةً للضمير المعذّب . قد عاد إلى « الجهود العامة » التي قال في مصر انه « ختمها إلى لا عودة » ، لأن الخدمة العامة أصلٌ في طبيعته . وجد في المحيط المهجري فراغاً فسدّه ، وعرف حاجات فقضاها وآنس مجالاً رحباً لنجوى الروح وجوّاً حراً لانطلاق الفكر فاندفع إلى الاجواء الشعرية والاهداف الانسانية التي كانت أجواءه وأهدافه منذ نشأته . يُعلّم بالقلم هنا ويرنّم بالشعر هناك ، تعزيزاً لراية الأدب وخدمة لاخوانه العرب .

تُرى إلى أيّ مدى تطوّر أدب ابو شادي في السنين التسع التي قضاها في المهجر الاميركي . لم نجد مرجعاً واحداً نستقي منه جواباً على هذا السؤال فلجأنا إلى دراية صديقنا الاستاذ وديع فلسطين واعتمدنا على رأيه القائل :

« ان الفترة التي قضاها ابو شادي في اميركا زادت هيامه بمعاني الحرية والديموقراطية وازداد احساسه عمقاً بكرامة الفكر وصرامة الأخلاق فتكاملت له نظرة شاملة إلى الأدب العربي في جميع أمصاره وأحسّ احساساً جديداً بارتقائه منبراً عالياً يتحدث منه شعراً ونثراً إلى العالمين العربي والاسلامي فيؤثر فيهما ويعوّل على آرائه كخبير ثقة لا مطعن فيه . فأكسبته هجرته شخصية أدبية شبه عالمية كان يفتقر اليها قبل الهجرة ثم كثر في شعره الحنين والأسى على حاله ، وما كان هذا ممكناً لو ظل من المقيمين » .

نحن نؤمن بصحة هذا الرأي . فهو يطابق ما كنا نعتقد . ولكن القراء غير ملزَمين بـه إلاّ بعد الاستقراء والتمحيص . ونحن ندعوهم إلى جولةٍ نقوم بهـا معهم في الدواوين التي نظمها ابو شادي في المهجر ، وإلى وقفات نقفها معهم أمام قصائد الحنين وقصائد الشكوى وقصائـد الحكمة والتوجيه وقصائد السبحات النفسية الروحانية حتى يرسخ ايماننا بأن أبو شادي شاعر مهجري لا غش فيه ، لا يبعد في نفثاته وخلجاته عن وجدانيات ابو ماضي وتأملات نعيمه وحيرة نسيب عريضه وانسانية ندرة حداد وشكوى رشيد ايوب وحماسة الشاعر القروي . لنبدأ بديوانـه «من السماء» الذي صدر في نيويورك عام ١٩٥٠ ولنستشهد بشعره على حقيقة أمره . إن في شعره جواباً على كل سؤال :

سألوني لمَ ارتحلت كـأني   لم أُجبهم بسيرتي نصف قـرن
شادياً بالطليق من شعريَ البـاكي ، أغني لمجدهم ما اغني
وحياتي لعزّهم في كفاحٍ   ككفاح الشعاع في وسط دجن
وتبلّغت بالعذاب وبالبؤس ، فماذا جنيتُ غير التجنّي ؟
وكـأني وحدي المسيء باحساني لعصري ، أو انه لم يسعني

* * *

أسفاً أعود إلى السماء كما أتيتُ بنبـع فنّـي
لم ألقَ في دنيا الانام سوى المهازل والتجنّي
دنيا تدور على الدمـاء   وبالدماء هوى تُغنّي
وتدور طاحنةً عقول النـابهين وأيّ طحن
فـإلى السماء أعـود   لم يُغنِ التأني والتمني

ومن نكد الدنيا الذي ما بعده نكد أن يستحوذ اليـأس على المهاجر

العربي حتى يرى في البلد الاجنبي عاصماً له من شر الغادرين الذين اضطهدوه وشرّدوه عن وطنه . فهذا القادم من مصر ، بلده المعبود ، عندما يستقبل العام الجديد في نيويورك يُحيي البلد الغريب بهذا القول :

أماناً أيها الوطن السعيد ... لقد دُفن الردى ومضى الوعيد
فأمسي مأتمٌ لفراق اهلي ... ويومي الآن في نجواك عيد
عرفتك ملجأ الاحرار دوماً ... إذا ما حُوربَ الحرّ الشريد

ويسألونه عمّا يتوقع من هجرته فيقول :

لا تسلني يا صاح عن آمالي ... أين تنمو وهل لها ميقات
قد طواها قبل النموّ بقلبي ... جدولٌ ناضبٌ وارض موات

ويُطل الربيع بمباهجه فيغلبه الحنين إلى وادي النيل :

بكى الربيع طروباً في مباهجه ... وقد بكيت أنا حبي وأوطاني
أنا الغريب وروحي شاركت بدني ... هذا العذاب بأشواقي واحزاني
فيمَ العزاء ولا قلب ألوذ به ... ولا حنان يناجيني كتحناني
لي في ثرى مصر دمعٌ نائحٌ ودم ... أذيب من مهجتي اللهفى بنيراني
تركته مثل غرس الحب ماذبلت ... ازهاره أو أغاثت روح لهفان
أشمّها في اغترابي حين تلذعني ... ذكرى الشباب وذكرى عمريَ الفاني

ويخص بالحنين (الاسكندرية الحبيبة) :

أرأيتِ كيف تلهفي وسهادي ... صانا مكانك في صميم فؤادي ؟

هتف الربيع فما وعيت نداءه | وهتفتِ أنت فكنت في انشادي
غنّيت باسماك في مسامع مهجري | فبكى ، وكنت إخال في الزهاد
وترقرقت امي الطبيعة أنعما | شتّى ، وكم نِعمٍ لها وأيادي
في وحدتي ما كنت أعشق وحدتي | لولا عزاء حنانها لحدادي

وماذا بعد ديوان (من السماء) ؟

هناك اربعة دواوين أخرى (النيروز الحر ، الانسان الجديد ، من أناشيد الحياة ، ايزيس) نظمها بين ١٩٥٠ ـ ١٩٥٥ ونسخها بخطه واضعاً التاريخ على كل قصيدة ، لم تزل مخطوطة لم تخرج إلى الناس رغم الوعود المقطوعة بنشرها من جانب وزارة الثقافة في مصر . فعلامَ التسويف وعلامَ التردد ؟ انها آخر ما انتج ابو شادي في غربته وأروع ما نظم في العروبة والوطنية والانسانية وفي احداث مصر والجزائر وفلسطين ، وفي كتمانها جناية على الشعر العربي وعلى النهضة الفكرية في مصر . أيجوز أن يُغبن هذا الرجل الكريم العظيم بعد مماته كما كان مغبوناً في حياته ؟ إني اخاله يغتفر كل الاساءات إلاّ تلك التي تنال من روحه وتخفي آثاره في ادراج المكاتب ، فلا تتم رسالته إلى بني وطنه ولا يعيش ذكره كما يجب أن يعيش بين الخالدين في أمة الضاد . ان مؤلفاته المهجرية قد دخلت التاريخ مثل مؤلفاته المصرية وأصبحت جزءاً من التراث العربي العام . ونحن اليوم في عهد يتولّى فيه الحاكمون مهمة التثقيف والتعليم وحفظ التراث وتشجيع الانتاج على أوسع مستوى ، فمعاذ الله أن يهملوا تركة ابو شادي وهي من صميم مهماتهم ، وكما لا تستطيع مصر أن تسلخ من تاريخها مجلة ابولو ، وجماعة ابولو لن تستطيع أن تسلخ منه اعمال ابو شادي في المهجر وهي نبضات من قلب الكنانة وخلجات من روحها زادها الاغتراب ارهافاً وإرناناً . ومن حقها

ان ترى النور على ضفاف النيل وان تفتح العيون والقلوب على ذكرى صاحبها المسجّى بعيداً في غربة الأرض ، وحيداً في ظلمة القبر ، وهو الذي ضحّى بكل امكاناته في سبيل مصر . ان أقل الايمان هو ان نترضّى روحه الكريمة باصدار مخطوطاته مطبوعة كما هيأها وكما أرادها ، بلاغاً لبني وطنه وذكراً دائماً لهجرته .

لنأخذ من دواوينه (ايزيس) ولندع القارئ الذي يستعذب الصوت المهجري إلى سماع أصفى نبراته في المقطوعات التالية :

عن واشنطون — ١٤ ابريل (نيسان) ١٩٥٤ ، ذكرى ثماني سنوات مرت على هجرته

« منبري »

منبري عـالمي وليس بـأرضٍ — يستحلّ الطاغوت فيها الدمارْ
ايه نفسي ، اليوم ذكرى نزوحي — عن رباها ، وعن بوارٍ وعار
خنقتني أو حاولت ، ثم بـاهتْ — بأذاتي تلك النفوس الصغار
قيّدوني وحاصروني وآذوني — فأقسمت ان افكّ الحصـار
مثل صقرٍ مكبّل هشّم القيـد — ودوّى بصيحـةٍ ثم طـار !
انني شاعر (الكنانة) في البعد — وفي القرب ، كيفَ كان الجـوار
اينما كنت صيحتي صيحة (النيل) — وزأري زئيره المستـتار
لم أزل بالوفـاء والعمل الحـيّ — كأني في مصر أحمى الذمار

* * *

عن واشنطون — ٢٠ يوليو (تموز) ١٩٥٤ ، عيد الثورة المصرية :

« يوم المعاد »

تموز ، يا شهر اعيـادٍ محجّلـةٍ — وكل عيدٍ له عيدٌ بوجداني

مَن لي بزورة اوطانٍ فتنتُ بهـا   وان اكن في ربوع مثل اوطاني
لأشهد الفرحة العظمى وانشرها   عطراً بشعري أو نوراً بألحـاني
وارسم اليوم معنى مجدها الثاني   في فخم ألوانه لا فخم ألواني
أبناء مصر التي تسمو مناقبهـا   فوق الفراعين في تقدير ازمـان
رسالتي قبلُ كانت في إثارتكـم   كما يثار شواظٌ طيّ بركان

* * *

عن واشنطون — ٢٧ يوليو (تموز) ١٩٥٤ ، عيد الجلاء :

الجلاء الجلاء ! ردّدتِ الاصداء بشرى ويا لهـا اليوم بشـرى
لم يقلها فردٌ ، ولا الجيش والشعب ، ولكن كل الذي عدّ (مصرا)
من ثراها ومن سماها ومن كل الذي أنبتته فنّاً وفكـرا
في نشـيد مثل المزامير حلو   رنّح الانبياءَ من قبل دهرا
سمعته الآثار فاهتجن فيهـا   عزّةً ، والنخيل فاهتز فخرا
وتهادى النيل الذي كان من قبل أسيراً فأصبـح اليوم حرّا

* * *

عن واشنطون — ١٥ مارس (آذار) ١٩٥٥ — « اتّقِ شر من أحسنت اليه » :

« حمدتُ ربي »

حمدتُ ربي على ذمّي ، فأكثره   ممن وهبتُ له حبّي وإيثـاري
فراح يخترع الاوهـام يلفحني   بها ويحسب أني بتّ في النـار
ابا العقوق رويداً ، لم تنل وطراً   سوى اتّسامك بالتهريج والعار
ما شكّ يوماً بايماني ولا عملي   حرّ نبيلٌ ، فعيشي عيش احرار

ولا وصفت بغير العقل أبذلـــه وعظاً وفلسفةً في جمّ اشعاري
أنا المعلم أجيـالاً مفاخرَهـــا والرائد الحرّ في سعيي وآثاري
تحيا العروبة في قولي وفي عملي وفي مثاليتي العليا لأبـرار

* * *

هذه الشواهد من شعر ابو شادي في المهجر تكفي لرسم ملامح نفسه وظروف حياته فلا نزيد عليها الاّ مَثلاً واحداً من شعره الوجداني الذي يصوّر مثاليته ، محتضناً الانسانية جمعاء :

من ضياء الالـه قد ُخلقتْ نفسي ومن ظلمة الورى جاء يأسي
وارى الله في الحياة ، فدعـني عابداً غـافراً لابنـاء جنسي

لقد استوقفني الشاعر بهذه النفحة السماوية وبهرني بجمال نفسه وسمو مبادئه . فأخذت أنقّب في دواوينه التي صدرت في مصر قبل هجرته وأخصها ديوان (الشفق الباكي) عام ١٩٢٧ لاستكشف عن نواح أخرى من عبقريته واقدم للقارئ بعض الحسنات من شعره السابق للهجرة . اسمعه يحدد رسالة الشاعر :

ما نظمتُ القريض طوعاً لشـيطانٍ ولا للعلى ولا للمهـــاره
بل ولوعاً بـه . فللشعر احلاميً وللشعر ما أجلّ اعتبـاره
يحمل الحكمة السريـة للدنيـا شفاءً ونعمـــة سيّاره
طائفـاً بالحياة يسألها الوحي فتـُفضي بـه وتـُلقى ستاره

وتأمل في شعره العقلاني ، ما اطلى البيان وما أحرّ العاطفة :

أقصى الظنون وجودٌ أصله العـدم ومن عجيب وجودي ليس ينعـدم

في ذمة الصامت الماضي البعيد وما ... تُخفي العصور هدى هيهات يُغتنم
مرّت ملايينُها لمحاً كتابية ... وخلّفتْ حيرةً كبرى لمن فهموا
ما الخلق ؟ ما هذه الدنيا ومَنشؤها ؟ ما الفكر ما الجوهر الباقي وما العدم ؟
مسائلٌ هيَ للأحقاب باقيةٌ ... كما سيبقى الردى والشكّ والألم

* * *

شربت فلسفتي من نبع آلامي ... وقبلها عبّ منه قلبيَ الدامي
وما برحتُ أغنّي زاخراً أبداً ... كأن آلام قلبي لسن آلامي
كأن دمعي أناشيدٌ قد احتُبستْ ... حتى تُراق على قدسيّ أنغام
حسبي على الرغم من همٍّ ومن نصبٍ ... أني الطليق ، ولم ارضخ لإرغام

* * *

نشأتُ على الحب منذ الصبا ... ودمتُ وان شيّب المفرقا
وأُوذيت من أجله في الحياة ... وما زلت أرعى له موثقا
وقد عشت عبداً حزين الفؤاد ... أما آن للعبد أن يُعتقا ؟

هذا الحزين الذي « يشرب الفلسفة من نبع الآلام » ويصمد لغدرات الايام خانه الجلَد لمّا فُجع بزوجته وحبيبة عمره فرثاها منفطر الفؤاد :

ماذا تفيدكِ لوعتي وبكائي ... هذا فناؤكِ منذرٌ بفنائي
لهفي عليكِ وقد أتيتُ مودِّعاً ... فبكيت فوق جبينكِ الوضاء
زاد المماتُ جمالَه وتناثرت ... مني الدموع عليه كالأنداء

نرى في ما سبق من الشواهد ان ابو شادي قد سجّل في شعره أهم أحداث حياته . ولكنها لم ترد في تسلسل وانتظام لتعطي القارئ البعيد

عن مصر والقارئ المقيم في المهاجر فكرةً شاملة واضحة عن سيرة الشاعر . لذلك نعمد إلى تلخيصها مستقاةً من دراسات قرأناها للاساتذة محمد عبد المنعم خفاجي وفوزي سليمان ورضوان ابراهيم ووديع فلسطين وعبد العزيز الدسوقي :

هو ابن محمد ابو شادي نقيب المحامين في مصر ، ينتمي إلى أسرة وجيهة كل أفرادها مثقفون وشعراء . تعلم في القاهرة العلوم الابتدائية والثانوية . ومال إلى الأدب فراح يكتب في مجلتي « الظاهر والامام » منذ عام ١٩٠٥ . وفي عام ١٩٠٨ نشر أول كتاب ألفه « قطرة من يراع » وبعد عامين نشر ديوانه الأول « انداء الفجر » .

في عام ١٩١٢ تبدأ المرحلة الثانية من سيرته . ففيها سافر إلى انكلترا ودرس الطب وحاز شهادة الشرف عام ١٩١٧ وبقي هناك إلى عام ١٩٢٢ للتخصص في البكتريولوجيا ودراسة النحل . وعاد إلى مصر بثقافة تطعّمت بالثقافة الانكليزية بعد أن أسس في لندن جمعية الآداب العربية بالاشتراك مع المستشرق مرجليوث .

في المرحلة الثالثة مارس مهنته كموظف حكومي يُشرف على المختبرات في القاهرة والاسكندرية وبور سعيد والسويس وينشئ المعامل البكتريولوجية ويؤسس جمعية الصناعات الزراعية والاتحاد المصري لتربية الدواجن ورابطة ملكة النحل وجماعة الأدب الجديد وجماعة نشر الثقافة ويتوّج أعماله بانشاء « جماعة ابولو » ومجلتها عام ١٩٣٢ . وفي هذه المرحلة التي استمرت إلى عام ١٩٤٦ كانت سنوات الخصب العظيم في الانتاج الشعري . فقد أصدر اربعة عشر ديواناً في ما بين عام ١٩٢٤ وعام ١٩٤٢ ، وهي بالترتيب التاريخي « مصريات . زينب . انين ورنين . الشفق الباكي . وحي العام . اشعة وظلال . الشعلة . اغاني . اطياف الربيع . الينبوع . الكائن الثاني . فوق العباب . شعر الريف . عودة الراعي » .

المرحلة الرابعة والاخيرة من سيرته تبدأ سنة ١٩٤٦ حين توفيت زوجته الانكليزية وفُصل من وظيفته وحورب في رزقه وفي مشاريعه الأدبية ، فهاجر إلى اميركا الشمالية وحلّ في نيويورك كما ذكرنا آنفاً ، وعمل مستشاراً لبعض الوفود العربية في منظمة الأمم المتحدة ، واستاذاً في معهد آسيا وعضواً في لجنة حقوق الانسان الدولية ومذيعاً في محطة «صوت اميركا» وأنشأ «رابطة مينرفا» على غرار «رابطة ابولو» . وفي نيويورك انتج المؤلفات التي اشرنا اليها في مناسبة سبقت . وفي عام ١٩٥٢ انتقلت إذاعة «صوت اميركا» إلى واشنطون فانتقل معها إلى العاصمة وفيها تزوج من اميركية ومات في العام نفسه .

اجل ان ابو شادي شاعر مطبوع واسع الأفق متفتح النفس شديد الحيوية خصب الانتاج عذب البيان ، لكنه لا يثبت على مستوى فني واحد بل يرتفع وينخفض تبعاً للالهام والتوفيق في ساعات النظم، ولا يعير اهتماماً لهنات تعلق بشعره فتشوّه الحسنات . يقول الدكتور مندور «انه قليل الصبر والتريث والأناة والمعاناة ، ولذلك أصاب شعره كثير من الخلخلة والاضطراب» . وأنا أظن ان ولعه بالتجديد والتبسيط حمله على التفريط بمحاسن الديباجة العربية . وفي شرعه «ان الشاعر رسول قومه ولهذا يتحتم عليه أن يكون بيانه من بيانهم . ومهما تأنق في تعبيره يجب أن لا يرتفع صوته فوق مستوى آذانهم ومداركهم ، وإلاّ كان غريباً عنهم»[1] وأبلغ من ذلك انه عالج الشعر المرسل والشعر المنثور «ديوان الشفق الباكي» ، ونظم الشعر الحر «ديوان وحي العام» والقصص والمسرحيات آملاً ان يقتدي به أصحابه شعراء جماعة ابولو ، ولكنهم لم يفعلوا ولم يكتب لمحاولاته النجاح .

هذا واني مع المعجبين بشاعرية ابو شادي ولكني أجده أكثر من شعره وأكبر ، ولا أراه في حجمه العملاقي إلاّ في انسانيته وتضحياته

كتاب جماعة ابولو لعبد العزيز الدسوقي .

ومجهوداته في سبيل العلم والأدب والوعي القومي والاصلاح الاجتماعي - وقد أراه في حجمه الطبيعي الرائع في دراساته النثرية التي تستحق من العناية والاهتمام والتذييع ما لم تنله. أين الكتب التي ألّفها في المهجر «عظمة الاسلام. الاسلامي الحيّ. من نافذة التاريخ. شعراء العرب المعاصرون. قضايا الشعر المعاصر. قصة الأدب المهجري. على مائدة مينرفا»؟ اننا نجهل قيمة الرجل الحقيقية ما دمنا جاهلين هذه المؤلفات. ومن الخطأ تقييمه بشعره وحده، لأنه لم ينصرف بكليته إلى الشعر وهو الطبيب البكتريولوجي النحّال، والعالِم الرياضي، والناقد الفني، والمجاهد الوطني، والصحافي العريق، فضلاً عن انه رائد من روّاد النهضة الأدبية وجامع شتات الشبان الموهوبين في «جماعة ابولو» وباذل الجهود والاموال لتغذية مجلة ابولو ولنشر دواوين شعرائها، ومؤسس الجمعيات المختلفة في لندن والقاهرة والاسكندرية ونيويورك، وحامل لواء التجديد في الاوطان العربية والاقطار الاميركية منذ ما رفعه أصحاب الديوان وركّزه على ضفاف النيل استاذه خليل مطران — كما ركّزه أدباء المهجر على ضفاف الهدسن.

رجلٌ كهذا لا يُحاسب على عبارة ركيكة أو قافية قلقة أو صورة غامضة في البعض من شعره الغزير. فلننظر إلى الجوهر دون العرض، ولنخشع أمام موسوعة من العلوم والآداب، ومجموعة من المواهب والطاقات، وشخصية خصّها الله بمكارم الاخلاق وطبائع الابطال، اسمها احمد زكي ابو شادي.

صفية ابو شادي

الآنسة صفية ابنة الدكتور احمد زكي ابو شادي هي سرّ أبيهـا في العلم والأدب ووريثته في الخلق الكريم . ولدت في القاهرة ودرست في معاهدها المختلفة ونالت جوائز التفوق . ثم التحقت بكلية الآداب في الاسكندرية ومكثت إلى عـام ١٩٤٦ . ففي هذا العام المشؤوم فجعت بوالدتها وتألبت الكوارث على والدها فهاجر مع أولاده إلى اميركا الشمالية فحال ذلك دون اتمام دراستها الجامعية في الاسكندرية ، ولكنها اكملتها في جامعة (جورجتاون) في واشنطون ونالت شهادة البكالوريوس مع التخصص في الأدب وعلم النفس .

واستمر نشاطها في مدرسة الحياة حاملة أثقل الاعباء منذ أن انتقل والدها إلى رحمة ربه عام ١٩٥٥ في واشنطون وتركها في دار الغربة وحيدةً وقيّمةً على أخويها هدى ورمزي . فواجهت مصاعب العيش عالية الجبين عزيزة الجانب ، سلاحها العمل الشريف وذخيرتها الثقافة الواسعة والهمة الناهضة .

عملتْ في جريدة « الهدى » النيويوركية ، وفي السفارة السعودية في واشنطون وفي محطة الاذاعة الاميركية ، ووضعتْ كفاءاتها العلميـة وصلاتها الاجتماعية في خدمة وفود الدول العربية لدى منظمة الأمم المتحدة

وخدمة رجالات السلك الدبلوماسي العربي ، فصارت بشخصيتها القوية موضع الاحترام العام ، وبمعارفها الموسوعية مرجعاً للاستشارات في مسائل الشرق والغرب .

ذلك ان انهماكها بالعمل اليومي لم يحوّل فكرها عن مسقط رأسها ومرابع حداثتها في مصر ، ولم يحدّ من حرارة عاطفتها القومية . إن الأدب الغربي لم يحوّلها عن هوايتها الاثيرة في الآداب العربية ولا سيما الشعر . فهي تطالع بانتظام صحف البلاد العربية والكثير من مطبوعاتها وتداعب الضاد بقلم لا أرهف منه ولا ألطف . فترسل خواطرها شعراً منثوراً بأسلوبها الخاص ، كأنها في البحث عن سعادة الحياة ترسل أنواراً كشّافة على اغوار الليل البهيم .

لقد قرأنا لها مجموعة « الاغنية الخالدة » التي أصدرتها عام ١٩٥٤ فلمسنا فيها ريشة الرسام البارعة وخيال الشاعر البعيد ولهفة الظامئ إلى موارد الجمال والحب . هي أغنية تنشدها بجراءة الرجال وبراءة الأطفال فلا تتحرّج من شكوى الغرام الذي غزا قلبها أو من نجوى الحبيب في الليالي المقمرة ، وهي ما زالت تلك الشرقية بحشمتها وإن كانت غربية باقامتها :

« أنتَ النور الذي يملأ كوني ضياءً
أنت الايمان الذي يهتدي قلبي بهداه
أنت الحنان الذي تغمر به الأمّ وحيدها الرضيع
وأنت المحبة التي تتماسك ذات هذا الكون
فلا يعروها انحلال » .

* * *

« أهفو اليك والليل ساج
أرنو اليك والنجم شاحب

ابتهل اليك وفؤادي واجف
ان تُحلَّ حبي في شغاف قلبك » .

* * *

سألوني لم حبستُ نفسي في برج لا باب له
ولمَ أدرت وجهي صوب النجوم
أقطف نجماً من كبد السماء
وألمس جبين القمر الوضاء
هناك ، حيث لا يدركني صوت البشر .
سألوني وحرت جواباً فأبيت الاصغاء » .

* * *

لحظةً هاربةً كان لقاؤنا
وقفة على عتبة الحياة . واستراحة لطيفة .
أفقنا ذات يوم ، فإذا بنا التقينا
ولم تعد الفيافي والبحار تعني شيئاً لدينا .
رشفنا من كاس السعادة قطرات معدودات
وذقنا طعم الهوى كسرات وفتات
وطرقنا باب الأبدية فأبت أن تفتح
وعلى شاطئ الحياة وقفنا في حيرة وذهول » .

هذه نماذج وقعنا عليها اتفاقاً لا اختياراً من الكتاب . وقرأنا معها رأي مصطفى السحرتي في الشاعرة حيث يقول : « ان صفية استطاعت أن تقدّم الدليل المبصر على قدرة الشعر المنثور على استيعاب المعاني الدقيقة والاعراب عن مشاعر القلب العميقة في نسيج لفظي طبيعي

وتصوير بديع رفّاف » . وفي الكتاب تقديم من السحرتي وحسن كامل الصيرفي وتذييل من محمد عبد المنعم خفاجي ومن وديع فلسطين .

وفي سنة ١٩٦١ زارت الآنسة صفية الوادي الذي حُرمت من مائه وسمائه خمسة عشر عاماً فوجدت ما أثلج صدرها من حفاوة الأدباء بها وسمعت باذنيها آيات الثناء على أبيها الخالد الذكر . ولعلها اهتمت بطبع المخطوطات المهجرية التي خلّفها الوالد في واشنطون ولم تزل في حوزتها تتطلع إلى المطبعة .

مرحى لفتاة النيل التي لمعت على ضفاف الهدسن والبوتوماك والمسيسيبي ، وحرست راية العروبة التي رفعها هناك ابو شادي الكبير .

اسعد رستم

الشاعر الشعبي الذائع الصيت ، ولد في بعلبك (لبنان) وتعلم في مدارس زحله وسوق الغرب وصيداء . هو أقدم الشعراء الأحياء في المهجرة لأنه وصل إلى نيويورك عام ١٨٩٢ وأخذ يغذي الصحف ويبهج المحافل بقصائده الفكاهية ، يمثل فيها احساسات المهاجرين العرب ويصور حالاتهم بأسلوبه الساخر الفريد . شعره سجل لأحداث حياته وحياة البيئة التي عاش فيها سواء أقام في الشرق أو في الغرب . وفي ديوانه كثير من الاخوانيات ، خلت من الفن ولكنها لم تخل من نكتة تشفع لها عند الجماهير . وكم عالج المواضيع الشائكة المعقدة فبسّطها وطوع لها الأوزان والقوافي بقدرة عجيبة لا تتوفر إلاّ لشاعر مطبوع . أول ديوان صدر له « الرستميات » كان عام ١٩٠٥ والثاني عام ١٩١٩ .

تفتح الصفحة الأولى من ديوانه فتقرأ المكتوب من عنوانه . وضع تحت رسمه هذين البيتين :

ما الفضل للشمس في رسمي على ورقٍ
وإنما الفضل فيه بيننا انقسما

فالشمس إذ (طبعت رسمي) هنا فانا
دفعت (بالطبع رسماً) للذي رسما ..

وقال بمناسبة الاوسمة التي تهديها الحكومة اللبنانية بسخاء إلى المغتربين :

إهداء أوسمةٍ من معدن التنكِ   إلى مهاجرنا طوقٌ من الحنك

وكتب تحت رسم محام معروف :

أخذ المحـامي رسـمه وبجيبه   يده ، وذلك ليس من مبداه
ولكان ذاك الرسم أصدق منظـراً   لو صوّروا يده بجيب سواه

وإذا تعرض له ثقيل ، أدّبه بلا رحمة :

سألت الالـه تعالى أربـي   أراك حزين الفؤاد — لماذا ؟
أجاب مشيراً إلى ابن فلانٍ :   لأني خلقت على الأرض هذا ..

واتفق ان أفلست ست جرائد نيويوركية في اسبوع واحد فعلّق على الحادث بقوله :

وجرائد ستٍ لقـد فطست   ما رشّحت يوماً ولا عطست
ما ضرّهـا هضم الطعام ولا   نامت على تعب ولا نعست
أصحابها الأدباء قد درسوا   فإذن لماذا بغتةً دُرست ؟
أهدت إلى قرائها تحفـاً   والعلم في أذهانهم غرست
في مجلس المستهزئين — كما   قالت لنا التوراة — ما جلست

لكنما القــرّاء مــا دفعــوا بدلاً لها . ولذلك انتحســت

وقد عني رستم بالاصلاح الاجتماعي فنظم المطولات في نقد العادات والحكومات ، متغنّياً بالقوالب والقوافي والاساليب الفكاهية كالموشح المشهور عن بلدية بيروت نكتفي بالاشارة اليها . وفي هذا القدر دلالة كافية على عبقريته وعلى اثره البارز في المحيط المهجري منذ اثنين وسبعين عاماً إلى اليوم . مدّ الله في عمره . هذا وقد أصبح الشاعر من ذوي الثراء الباهر ، فلما زار لبنان منذ أعوام لقضاء الصيف لم يمكث في بيروت سوى أسبوع واحد لأن برقيةً جاءته من وكيل اشغاله في نيويورك تستدعي رجوعه فقطعت عليه رحلته ، ولم يحضر الحفلات التي كانت تتهيأ لتكريمه .

وليم كاتسفليس

١٨٧٩ — ١٩٥٠

من أدباء الرعيل الاول البارزين ومن أعضاء الرابطة القلميـة المؤسسين .

وُلد في طرابلس من اسرةٍ عريقة نسباً وأدباً ، وتعلّم في مدرسة عينطورا وكلية الآباء اليسوعيين في بيروت ، ثم غادر طرابلس عام ١٩٠٢ متجهاً إلى نيويورك ، مزوداً بالعلم والثقافة وبعض الخبرة التجارية ، ولاقى نجاحاً مرموقاً في ميدان الاعمال بعد ما مرّ في أدوار مختلفة من العسر واليسر ، لم تغيّر شيئاً من سماحة خلقه ويده . وقـد اسندت اليه رئاسة بنك لبنان الوطني . يؤثر عنه انه كان مبرّزاً في الخطابة ، مبدعاً في الكتابة ، يجيد العربية والفرنسية والانكليزية ويشترك بماله وقلمه في كل حركة أدبية أو وطنية أو اجتماعية . قرأنا له مقالات رائعة في مجموعة الرابطة القلمية ، ومقدمة لديوان ندره حداد « أوراق الخريف » ، وكتاباً بالانكليزية « حضارة العرب » . أما آثاره العربية فلم تزل مخطوطة في عهدة ابنائه ، أهمها مقال « تأملات » ومقـال « من ميت حيّ إلى أحياء أموات » .

نقتبس من مقال نشره في مجلة الأديب عام ١٩٤٩ هذه النبذة :
« كانت مطامح الرابطة القلمية لا تعرف حداً . فكنا نأمل ان نجمع من المال ما يمكّننا من طبع المؤلفات القيمة على نفقة الرابطة لنشرها في المهاجر والأوطان . ولكن هذا الحلم لم يتحقق لأن المغتربين كانوا ولا يزالون يعيشون بنفسية القرية . أي أن نظرهم إلى واجباتهم الاجتماعية لا يتجاوز القرية أو البلدة التي هاجروا منها ، كترميم كنيسة أو إنشاء مدرسة أو مصح وما أشبه ذلك من المشروعات المحلية المحدودة المدى . أما الأفق البعيد ، الانسانية الشاملة ، فكانت ولا تزال غامضة عليهم » .

ونقرأ في مقال « من نافذة السماء » صفحة من الأدب الساخر :
« حلمتُ ذات ليلة ان الله توفاني واني صعدت إلى السماء . ليس لأني اورثوذكسي مستقيم الرأي ، ولا لأني بوذي أو اسرائيلي أو مسلم . بل لأني في طريق الحياة ، بين حزونها وسهولها ، في رياضها وقفارها ، حزنت مع المحزونين ، وبكيت مع الباكين ، واذن لي المولى بالاشراف على العوالم من نافذة السماء واصحبني بملك يرشدني ويعلمني وكان متأبطاً كتاباً ضخماً قال لي انه قاموس : فسألته ما الحاجة إلى قاموس في رحلتنا إلى نافذة السماء ، فأجابني : انكم ابناء العوالم تأتون من نواح مختلفة وتستعملون ألفاظاً لا يمكننا نحن الملائكة أن نفهمها من غير أن ننظر في القاموس ونتفسّر معناها في أفواهكم » .

احتفت الجالية العربية بعيده السبعيني عام ١٩٤٩ بمهرجان أدبي كبير وتوفاه الله في العام التالي .

امين الغريب

لبناني من الدامور . اشتهر أدبه في الوطن العربي وفي الاميركتين . قدم الولايات المتحدة عام ١٨٩٧ واسهم في تحرير جريدة « الهدى » في نيويورك ورئس تحرير جريدة « الصخرة » مدة ، ثم أنشأ لنفسه جريدة « المهاجر » عام ١٩٠٣ فراجت رواجاً عظيماً وكانت أول صحيفة نشرت بواكير نتاج جبران في فقرات متوالية تحت عنوان « دمعة وابتسامة » . وبعد ست سنوات عاد إلى لبنان ليقيم فيه . وأنشأ مجلة « الحارس » المعروفة التي صدرت في بيروت . ثم عاود الهجرة إلى الاقطار الاميركية فزار نيويورك عام ١٩٥٩ ولقي ترحيباً وتكريماً من الجوالي العربية ، وتابع السفر إلى البرازيل وحلّ في سان باولو حيث هو الآن من اركان الحركة الأدبية ، وكتابه « جواهر العصور » يُعدّ من خيرة الكتب .

الدكتور جورج (ابو علي) خير الله

١٨٧٩ – ١٩٥٩

في ذمة المهجر شخصية أدبية كبيرة لها مكانها العالي في تاريخ العرب وتاريخ الأدب . وفي ذمة مؤلف هذا الكتاب كلمة حق في صديق غال يود أن يقولها كاملة فلا يطاوعه اللسان ولا البيان فيلجأ إلى فضل الأديب النحرير وديع فلسطين وينقل عنه من الكلام ما يناسب المقام .

وُلد جورج خير الله في الاسكندرية عام ١٨٧٩ وتعلّم في مدارس القاهرة الفرنسية ثم انتقل إلى الجامعة الاميركية في بيروت اسوةً بأبيه الذي تخرج منها قبله . وبعد أن نال شهادة الطب عام ١٨٩٦ هاجر إلى اميركا الشمالية للتخصص في الجراحة وقضى عامين في تحصيل العلم وفي تحصيل الرزق قبل أن ينال الدبلوم في الجراحة . فخدم في المصانع والمطاعم ومكاتب الصحف قبل أن يُجاز له العمل في مستشفى أو في عيادة خاصة . فكانت سيرة هجرته وهو العالم الجامعي لا تختلف عن سيرة المهاجرين الأميّين من حملة « الكشة » أو تجار الخردة المتجولين .

وكان أن لفت نبوغُه أنظار مدير كلية الجراحين في نيويورك «الدكتور

سارلزماي » فاستدعاه للعمل معه وعهد اليه بالاشراف على أهم أقسام الكلية . ثم شارك خمسة من كبار الأطباء في انشاء مستشفى « مايو » العالمي الشهير . وسار في طريق المجد والشهرة حتى بلغ القمة في سنيّ الحرب العالمية الأولى ، إذ كانت الانظار مأخوذة بتطورات الوضع الدولي وكانت الأفكار متأثرة بالحركات الثورية والانطلاقات التحررية في الشرق العربي . فهجر الدكتور الطب وانصرف إلى معالجة القضايا العربية قاطعاً على نفسه العهد بأن يرصد حياته وامكاناته لانقاذ مصر من الاحتلال وتمكين سائر الاقطار العربية من الاستقلال . فابتدأت بذلك سيرة اسطورية كلها جهاد وتضحيات وامجاد .

لهذا الغرض أنشأ « الرابطة السورية القومية الجديدة » في نيويورك ، وأصدر مجلة « العالم العربي » بالانكليزية ، وكتاب « تأثير الاسلام في الطب » وكتاب « الاسلام والنبي العربي » وسيرة جبران خليل جبران والمواكب وكتاب « بعث جزيرة العرب » الذي ترجمه إلى العربية وديع فلسطين ولم تُطبع الترجمة إلى الآن . أضف إلى ذلك المحاضرات التي كان يجوب البلاد ليُلقيها مبشراً برسالة التحرير والانعتاق . وقد سمع اقطاب الامم وعلى رأسهم الرئيس ويلسن صوته في مؤتمر فرساي مطالباً بالغاء الحماية البريطانية في مصر وردّ حقوق العرب المغتصبة في كل مكان .

وكان على اثر اجتماعه بزعماء العرب في أوروبا وآسيا أن آمن بالدين الاسلامي واعتنقه . ولما وُلد ابنه البكر سمّاه « علي » وأصبح هو « ابو علي » والوالدة « ام علي » وهي اميركية ما زالت على قيد الحياة . وعليّ اليوم من كبار علماء الطبيعة والرياضيات ، يدرّس في كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية ، واخته جلّنار تدرّس الفن الاسلامي وتعيش مع زوجها الاميركي المستر بوش في الولايات المتحدة .

أما مجلة « العالم العربي » فكانت عنوان مجده ومعرض جهده . شرح

فيها قضايا العرب ومشاكل الاستعمار لقراء الانكليزية ونقل اليهم أروع آثار المفكرين العرب وأجمل قصائد شعرائهم موجهاً عناية خاصة لشعراء المهجر . فترجم قصائد ابو ماضي ونسيب عريضه ورشيد ايوب مع قصائد شوقي والبارودي ومطران . فكان للمجلة شأن عظيم في المجتمع الاميركي وشأنٌ مثله في أوساط المهاجرين العرب حيث الآباء يتلهفون إلى تعريف أبنائهم المولودين في اميركا بتاريخ بلادهم الاصلية وبالآداب العربية بلغة يفهمونها .

مات الدكتور ابو علي خير الله عن سيرة تُعدّ من اساطير الجدّ والجهاد والتضحية والتفوق . مات عن ثمانين عاماً ملأها بالبطولة في خدمة العلم والأدب والقضية العربية . مات بعيداً عن وطنه ، منسياً من أمته التي وهبها عصارة روحه وقوة شبابه وشيخوخته . أما الأجانب فلم ينسوه . ففي جنوب افريقيا ذكروه ،ومجلة « ذي مسلم دايجست » الصادرة في مدينة دربان اصدرت عدداً خاصاً لتخليد ذكراه .

من كلماته المأثورة قوله : « كلما ازددنا امعاناً في الغرب ازددنا ميلاً نحو الشرق » . وهو قول يبوح بشوقه إلى أرض الوطن وبحنينه إلى أهلها الذين يعتبرهم أهله رغم غربته الطويلة عنهم . ما أكبره في خدمتهم وما اصغرهم في نسيانه !

الدكتور فؤاد شطارة

رجل كبير بشخصيته : زعيم وطني وأديب موهوب وخطيب مفوه . نبغ في الطب الجراحي فعُدّ من الأطباء العالميين . وتطوع لخدمة وطنه المنكوب ، فقاد حركات الجهاد الوطني في المهجر إلى آخر أيام حياته .

وُلد في « رام الله » (فلسطين) وتخرج من الجامعة الاميركية في بيروت ومن جامعة كولومبيا في الولايات المتحدة . وكانت هجرته عام ١٩١٥ على أثر حملة قام بها في فلسطين ضد السلطات الغاشمة فلاحقته الحكومة التركية وألجأته إلى الفرار . وفي نيويورك تزوج من اميركية زواجاً نغّص حياته وكان السبب في مماته (على زعمهم) . وتبنى القضية العربية وترأس جمعيتها وأسس الجمعية الثقافية السورية ثم جمعية النهضة الفلسطينية فكانت المؤسسة الأولى التي عُنيت بالدفاع عن فلسطين بالمحاضرات والمناظرات وجمع التبرعات . كانت له الكلمة العليا في الأوساط العربية ، يوجّه الجوالي بالخطابة والتأليف ويدعمها بنفوذه الكبير لدى المراجع الاميركية . توفي منتحراً في عام ١٩٤٢ تاركاً وراءه الفراغ المريع في صفوف الأدباء المجاهدين . وأنا الذي سمعت كلمته وحظيت برعايته يوم ترأس حفلة تكريم أقامتها لي الجامعة العربية والصحافة في نيويورك عام ١٩٣٩ ، لا يسعني إن اكتم حسرتي عليه وتحيتي لروحه الكريمة .

جميل المعلوف

أديب من القدامى .

نزح من زحله (لبنان) إلى نيويورك تلبية لطلب عمه يوسف نعمان المعلوف شيخ الصحافيين المجاهدين لكي يشاركه في تحرير جريدة «الأيام» ، وهي أول جريدة سياسية مصورة صدرت في المهجر بثماني صفحات عام ١٨٩٧ وجعلت مساقها مناهضة الاستبداد في الشرق والثورة على نظام العهد الحميدي فواصلت حملاتها على الطاغية إلى أن سقط . وباحتجاب الجريدة بعد عشرة أعوام انتقل جميل إلى سان باولو (البرازيل) عام ١٩٠٨ ، ومنها سافر إلى باريس ورافق فيها جبران مدة عامين وبعدها إلى الاستانة . ثم عاد إلى لبنان وتعاون مع الزعماء الثائرين على الحكم التركي ، الذين علّقهم جمال السفاح على المشانق . وقد ألّف كتباً عديدة في السياسة والتاريخ لا نتعرض إلاّ للتي ألفها أثناء اقامته في البرازيل . فكتابه « تركيا الجديدة وحقوق الانسان » صدر في سان باولو فور وصوله اليها وكان له دويّ عظيم في عالم السياسة ومجالات الاصلاح الاجتماعي حتى قيل في بعض الصحف ان مصطفى كمال لم يطلع على الناس بانقلابه بأكثر مما طلع عليهم جميل معلوف في كتابه . وقد أثنى جبران على هذا الكتاب في رسالة جاء في آخرها هذه العبارة :

« من الخطأ ان يتخذ الكتّاب احتقار التقاليد الدينية سبيلاً لاسقاط الكهان القائمين بتلك التقاليد . لأن العاطفة الدينية هي شيء طبيعي في الانسان . أمّا الاستبداد بواسطة التعاليم الدينية فليس من الأمور الطبيعية في شيء » .

والظاهر ان المراسلة كانت متواصلة بين جبران في نيويورك وجميل في سان باولو . ولكي ندرك مقام جميل في نفس جبران والنفوذ العظيم الذي كان لأدبه نرجع إلى رسائل جبران وننقل منها فقرات كتبها اليه :

« عندما أقرأ رسائلك أشعر بوجود روح سحرية تدبّ في جوانب هذه الغرفة . روح جميلة وحزينة تفصل بتموجاتها ذاتي فأراك ذا اقنومين متباينَين لا اقنوم يرفّ فوق البشر والبشريات بأجنحة عظيمة تشابه أجنحة الساروفيم التي رآها يوحنا واقفة أمام العرش بجانب المنائر السبع . واقنوم مقيّد بسلاسل قوية بين الصخور الهائلة مثل بروميس الذي أنزل شعلة النار الاولى للبشر من السماء فغضبت عليه الآلهة وأوثقت جثمانه بصخرة على شاطئ البحر . اقنوم يُفرح قلبي ويغبط نفسي لأنه يتموج مع أشعة الشمس ونسمات الفجر . واقنوم يوجع عواطفي ويضغط على قلبي واضلاعي لأنه أسير صروف الليالي . لقد كنتَ ولا تزال قادراً على استحضار شعلات النار وتسليمها إلى البشر لكي تنيرهم . ولكن أية شريعة وضعتك في سان باولو وقيّدت جثمانك بين الذين ماتوا منذ ولادتهم ولم يُدفنوا بعد ؟ هل لآلهة اليونان قوة في هذه الأجيال ؟ »

(جبران)

حبيب ابراهيم كاتبة

١٩١٢ – ١٩٥١

من أبرز وجوه الأدب المهجري وأنشط العاملين في حقل القومية العربية . قام بادارة مكتب الجامعة العربية في نيويورك ومكتب الشؤون العربية الاميركية ، فكان لولب الحركات الوطنية وحلقة الاتصال بين مختلف الوفود العربية ، يؤمّن لها الترجمات ويكتب النشرات وينسّق الأعمال والاجتماعات . وله أثر كبير في الحركة الفكرية والنهضة الأدبية في المهجر . أدبه عصري الطابع ، غنيّ بمادته العلمية الفلسفية ، حفيّ بالكنوز القديمة ، يبرزها في حلة جديدة شائقة .

ولد السيد كاتبه في بلدة « يبرود » من أعمال سورية وأنهى دراسته في الجامعة الاميركية ببيروت عام ١٩١٢ وبارح البلاد السورية عام ١٩١٣ إلى الولايات المتحدة . وعند نشوب الحرب العالمية الاولى التحق بجامعة هارفورد وتخرج من مدرستها اللاهوتية عام ١٩١٨ متخصصاً بالتصوف الاسلامي وفلسفة الدين ، وعندما وضعت الحرب الكونية الأولى اوزارها دخل ميدان الصحافة والسياسة مدافعاً عن العرب وقضيتهم . وعام ١٩٢٤ التحق بجريدة « بروكلن ديلي ايكل » ككاتب اخصائي بشؤون الشرق

الأدنى ، وفي صيف عام ١٩٢٩ شخص إلى الشرق الأدنى بوصفه مراسلاً خاصة لجرائد « الايكل » و « بوسطن غلوب » و « ديترويت نيوز » وأمضى في مهمته الصحفية هذه عاماً ونصف العام طاف خلالها بلاد المجموعة العربية تقريباً وبعث من الاقطار التي زارها بأكثر من ٢٠٠ مقالة للصحف التي يراسلها . وعقب عودته ألّف كتاب « مناهضة العرب » وكتاب « المهاجرون العرب في اميركا الشمالية » ، كل ذلك باللغة الانكليزية . وكان كل ما يكتبه يُذاع على مدى واسع ويُحدث في الاوساط الاميركية التأثير المنشود لمصلحة العرب . مات مأسوفاً عليه وهو في ريعان نشاطه قبل أن يبلغ الاربعين .

انيس بقلة

١٨٩٠

من مواليد دمشق الشام ومن خريجي مدارسها . وصل إلى الولايات المتحدة الاميركية عام ١٩٠٩ مزوداً بمعارف مدرسية بالعربية والانكليزية وبطموح يشتد فيحمله إلى صفوف الكادحين في طلب المال ويضعف فيتغلّب عليه الميل الفطري للأدب وللتأليف .

كتب إليّ في إحدى رسائله انه عكف على تحرير المقالات للصحف غبّ وصوله إلى بوسطن ، وترجم لجريدة « غلوب » الامثال العربية ، ووضع ثلاث روايات « بلاوي الهوى ومصائب العشاق والخائنة » ، وبعد خمس سنين من هذا الجهاد وجد جيبه فارغة كما كانت في دمشق ، فكسر القلم وانصرف بكليته إلى العمل التجاري . قال :

« اشتغلت كمعتمد جوّالة لمعمل قمصان كبير فنجحت وارتقيت إلى رتبة رئيس المعتمدين . وبعد عشر سنوات أحصيت ثروتي فبلغت خمسين الف دولار فتركت الوظيفة وتزوجت اميركية من اسرة عالية الشأن ، وفتحت في مدينة نيو اورليانز محلاً لبيع الملابس الجاهزة بالجملة وجاهدت فيه ثلاثة وعشرين عاماً متواصلة حتى تجمعت في يدي ثروة طائلة . فبعت التجارة ونقلت اقامتي إلى ميامي ، فلوريدا ، أفخم اقليم في البلاد

عازماً على البقاء فيها طول حياتي . ولا أفكر بزيارة وطني ، وقد مضى خمسة وخمسين عاماً على خروجي من دمشق » .

بعد أن تقاعد عن العمل أصدر السيد بقله ثلاثة عشر كتاباً بالعربية ، ويهم الآن بطبع مؤلفه السابع عشر بعنوان « شيخ المعارف » .

اما بالانكليزية فقد أصدر كتابين فقط . والطريف في سيرة هذا الأديب الفياض انه لا يبيع مؤلفاته بل يهديها إلى معاهد العلم والأدب وإلى المكتبات وإلى أصدقائه وإلى كل من يطلبها منه . يكتب وينشر لغايتين : الاولى ان يُسلي نفسه والثانية ان ينفع الناس بعلمه وباختباراته في الحياة . فجميع مؤلفاته تدور في حلقة الحياة الواقعية وتبحث في المشكلات النفسية والاجتماعية وفي العادات والتقاليد ، تسدي النصائح وتُشير إلى الصالح والطالح ، كل ذلك باسلوب سهل خفيف يشبه اسلوب الحديث الدارج ، قريب من الافهام ، بعيد عن بلاغة البيان ، تختلط فيه الفصحى بالعامية الشامية ، والفكاهة بالجد . وقد عالج الشعر في كتاب واحد هو « رباعيات الحياة » قدّم له الاستاذ وجيه بيضون فقال معتذراً عن الشاعر انه لم يحلّق بعيداً بل آثر التيسير في التعبير لأن المطالعة اليوم أصبحت وقفاً على العامة لا على الخاصة . وقد أهدى الديوان إلى زوجته بقوله :

ولا يسعد الانسان إلاّ بزوجةٍ ولا صاحب عند الشدائد غيرها

وبالنتيجة ان انيس بقله هو من هواة الأدب وجامعي النشَب . عُرف بكرم النفس وكرم اليد وجارى الاثرياء الاميركيين في التنعم بكماليات العيش حتى لا تثقل الثروة على كاهله فيرهقه حملُها ، مع انه لو عاد إلى وطنه لوجد بانتظاره من يُريحه منها في وقت قصير ...

بترو طرابلسي

١٩٠٥ — ١٩٤٠

أديب عربي موسيقي ، ولد في نيويورك من أبوين حمصيين ، وارسل طفلاً إلى حمص فشبّ فيها ثم هاجر منها إلى نيويورك عام ١٩٢٦ وأقام فيها ينثر وينظم ويلحّن إلى أن أدركته الوفاة . من آثاره كتاب « اعلام الأدب والفن » .

قيصر وحيد

١٨٧٥ — ١٩٥٨

من شيوخ الأدب في المهجر . ولد في غرزوز (لبنان) وعلّم في مدرستها ، ثم انتقل إلى مدرسة « أنفه » حيث كان الشاعر القروي بين تلاميذه . وفي عام ١٩١٠ هاجر إلى الولايات المتحدة الاميركية وعمل في الصحافة عشر سنوات ثم طلّقها والتفت إلى التجارة متجولاً في داخلية البلاد إلى ان استقر في مدينة تولاري « كاليفورنيا » ومات فيها .

هو كاتب ذو اسلوب جميل مرح ، وشاعر فياض القريحة جاوز الثمانين ولم تنضب . تعوّد ان يطلق ما يحضره من الشعر على علاته ، ولو عني بالصقل والتهذيب لكان من فحول الشعراء الذين يفاخر المهجر بهم . كان آخر ما نظمه رثاء لايليا ابو ماضي .

راجي ظاهر

أديب من الشباب الحرّ الناهض . ولد في كفتون (الكورة) وقدم إلى الولايات المتحدة عام ١٩٣٢ . عرفناه في نيويورك في منزل ايليا ابو ماضي ، فعرفنا المروءة متجسدة والغيرة متوقدة والاندفاع لخدمة كل أديب عربي وكل قضية عربية . ومن يقرأ كتابه النفيس « المشاعل » يجد دستور ايمانه الوطني محدداً ومناهج العمل المثمر مرسومة أمام الافراد والاحزاب والجماعات والحكومات ، ولا نعلم إن كان له مؤلفات أخرى . فقد كتبنا اليه مرتين طلباً لمعلومات عن سيرته وعن آثاره الأدبية ولم نتلق جواباً . لذلك لا نكتب عنه إلا القليل الذي نعرفه .

كان يحرر في صحف مختلفة إلى أن عهد اليه بتحرير جريدة « البيان » عام ١٩٤٦ ، وكان صاحبها الاستاذ سليمان بدور قد توفي عام ١٩٤١ في نيويورك بعد ثلاثين عاماً من انشاء جريدته . وفي عام ١٩٥٠ أصبحت الجريدة ملكاً لراجي ظاهر يحررها ويديرها ويقوم بأعبائها وحده . وفي عام ١٩٦٠ جرى الاحتفال بيوبيل الجريدة الذهبي في فندق سان جورج في بروكلن ، فكان عيداً مشهوداً وحدثاً أدبياً مذكوراً . وقد صدر على اثره كتاب « يوبيل البيان الذهبي » محتوياً على أقوال الخطباء وأوصاف الحفلة .

والفضل الذي لا أنساه لهذا الأديب المجاهد هو اني في عام ١٩٤٧ عندما قدمت ديواني « النوافل » هدية إلى لجان الدفاع عن فلسطين كان عليّ أن أرسل إلى مكتب الشؤون العربية في نيويورك حصتها من الكتاب وهي خمسمائة نسخة ، فأرسلتها اليها وبقيت الكتب مهملة في مخزنها إلى

مطلع عام ١٩٤٨ حين تطوّع راجي ظاهر لبيعها من أبناء الجوالي العربية في نيويورك وفي الولايات الداخلية ، ولم يكلّ حتى باع آخر نسخة منها وأرسل القيمة المجموعة إلى الهيئة الفلسطينية العليا باسم الحاج امين الحسيني في القاهرة .

امام هذه البادرة ننسى اهماله لطلبنا مرتين ، فلا نغضب ولا نعتب بل نعتذر عنه بالاعباء الباهظة التي يحملها في جريدته وهو كهل نصف عليل بينما يعجز عن حملها عدة رجال أصحاء .

إن جريدة « البيان » قد راجت بفضل همته ونشاطه وارتاح اليها القراء بفضل قلمه الرشيق ، حتى انها ابتلعت في السنوات الاخيرة جريدة « السائح » وجريدة « مرآة الغرب » وحلّت محلهما . ولكن مشكلتها هي مشكلة الصحافة العربية في كافة المهاجر : تلكؤ المشتركين وتناقص عددهم . وقد وجه راجي نداء لمشتركيه على صفحات « البيان » بتاريخ ١٢ مايو (ايار) سنة ١٩٦٤ ننشره للتدليل على ان الحالة الراهنة في المهجر الشمالي تنذر الصحافة العربية بدنو الاجل وسوء المصير :

« ان الذين يهمهم ان تبقى « البيان » في خدمة قضاياهم عليهم ان ينصروها بغير المعسول من الكلام والتمنيات والادعية الطيبة .. انها على جمالها لا تقضي حاجة ولا تصون تراثاً وطنياً أدبياً .

فنرجو ممن استحقت ابدال اشتراكاتهم ان يدفعوا بها اليها ، وألا ينتظروا تذكيراً لأن الارسال بمذكرات إلى المشتركين يقتضي جهداً ومالاً نحن في حاجة إلى ما عندنا منهما للاستمرار في اصدار الجريدة . وما نحسبنا في حاجة إلى تذكير العقلاء بأن في السنوات السبع الأخيرة احتجبت ٣ صحف عربية كبيرة ترك احتجابها فراغاً في جوالينا يشعر به ويأسف له كل عاقل . فليحافظ عقلاء هذا المهجر على ما بقي في أيديهم. زيت السراج يشح حتى يكاد ينطفئ السراج فمن سوء الرأي ان يطفئوه بأيديهم ! انه على ضآلته خير من الظلام .. »

توفيق فخر

١٨٨٣

من الأدباء العلماء الشيوخ . وُلد في مدينة طرابلس وتعلم في المدرسة الوطنية ومدرسة الفرير . فأجاد العربية والفرنسية ومبادئ الروسية . ثم علّم ثلاث سنوات في مدرسة الجمعية الروسية الفلسطينية وهو في السادسة عشرة من العمر فلقبوه بالمعلم الصغير . وفي عام ١٩٠٢ سافر إلى جمهورية سانتو دومنغو في اميركا الوسطى باغراء من نسيبٍ له هاجر اليها وأثرى فيها ، فلم تطب له الاقامة واعتزم العودة إلى الوطن عن طريق نيويورك ، ولكن جاذبية الحضارة والعمران في المحطة العظمى ألهاه عن الهدف المقصود ، فبقي في الولايات المتحدة الشمالية منذ عام ١٩٠٥ إلى اليوم .

كان الاستخدام في المحلات التجارية المرحلة الأولى من حياته المهجرية وقد طالت وتطورت إلى ان وضعته في منصب مدير عام لشركة كبيرة وفي بحبوحة من المال ، مكّنته عام ١٩٤١ من فتح معمل للمطرزات بالاشتراك مع اخوته الذين استحضرهم من طرابلس . فدخلت حياته في مرحلة جديدة ، هي الاستقلال والاستقرار مع مجاراة هوى النفس بالعودة إلى ميدان الأدب .

كان الشعر أظهر ميوله الغريزية . وكانت باكورة نظمه في نيويورك تحية للأمة الاميركية :

لواؤك معقود به العزّ والنصرُ   وجيشك يخشى بطشه البيض والصفرُ

واندفع في ميدان المناسبات ينظم وينشر القصائد بالعشرات وقلما صدرت دورية في نيويورك ليس له فيها أثر ، إلى ان دعاه الشاعر الخالد ايليا ابو ماضي للتعاون معه في تحرير جريدة « السمير » فلبّى ورافق صاحبها إلى يوم وفاته . أي من عام ١٩٤٣ إلى عام ١٩٥٧ . وكان هو المنظم لحفلة اليوبيل لما بلغت « السمير » سنتها الخامسة والعشرين .

اسلوبه في الشعر اسلوب المحافظين الأُصلاء . نجده في كل اثر من آثاره ، ونستشهد بقوله من قصيدة « الحب الصادق » :

قالوا سكتَّ ولم تعدْ بمغرِّدِ   عجباً لمثلك شاعراً لم ينشدِ
أكبرتَ ؟ قلت نعم كبرت عن الصبا   لكنَّ نار محبتي لم تخمدِ
اني احب الروض كلّله الندى   والطير شادية تروح وتغتدي
واحبّ بين الناس كل مهذب   عفّ السجية والطوية واليدِ
وأحب كل فتى أديب ناهض   ذي همة علياء غير مقلّدِ
واحب مَن حبّ الورى في قلبه   ولفضل نعمة ربه لم يجحدِ
واحب من كل الانام تحبّه   رجل المروءة والنهى والسؤددِ

وله آثار نثرية لم تزل مخطوطة أهمها تراجم الأدباء المعاصرين في نيويورك وخارجها . وهو عمل ضخم يتناول سيرة ثمانين أديباً ويدرس الهجرة العربية في مقدمة تبلغ مئة صفحة ، دراسة واقعية تمليها عليه

خبرته الشخصية . وقد راجعنا لائحة الأدباء الذين ترجمهم فوجدنا انه أضاف إلى الأدباء الخمسين الذين ذكرناهم في هذا الكتاب ثلاثين اسماً جديداً ، منهم عشرة من رجال الدين المسيحي ، وعشرون لم يصل علمنا اليهم . ويطيب لنا ان نذكر اسماءهم للتاريخ نقلاً عنه : بدري فركوح — يوسف ابي اللمع — جمال الحلو — فيليب خولي — رشيد تقي الدين — يوسف لفلوفي — نجيب سلوم — يوسف الياس واكيم — نسيب كرم — وديع الخوري — فؤاد الخوري — انطون وتوفيق زريق — نجيب عبده — نجيب قسطنطين — حافظ عبد المالك — خليل الخياط — نجيب نعمان المعلوف — امين ظاهر خير الله — ميخائيل رستم . أما رجال الدين الذين فاتنا ان نترجمهم فهم الاساقفة والخوارنة : روفائيل هواديني — خيرالله اسطفان — فيكتور ابو عسلي — برنردوس غصن — باسيليوس خرباوي — حنانيا كساب — ايليا حاماتي — بنيامين حافظ وجرجس الخوري .

وأديبنا لامع أيضاً في حياته الاجتماعية ، مولع بالخدمة العامة . أسس وترأس جمعيات عديدة ونال من الحكومة اللبنانية دبلوم الشرف تقديراً لخدماته في الجناح اللبناني في معرض نيويورك العالمي سنة ١٩٣٩ . وكان للطائفة الارثوذكسية حصة الاسد من جهوده الخيرية في سبيل كنائسها ومدارسها ومجلسها الملي ومجمعها الطائفي . غير انه لم ينظر إلى الناحية الطائفية حينما تزوج عام ١٩٢٤ من فتاة اميركية جامعية انجيلية المذهب ، وله منها ولد واحد هو الآن دكتور في الفلسفة واستاذ في المعهد اللاهوتي في مدينة لانكستر . ذرية صالحة آلت إلى اميركا غنيمةً طبيعية كآلاف الذراريّ العربية في المهجر .

امين زيدان

لبناني مطبوع على الأدب . قدم الولايات المتحدة يافعاً وتعاطى الاستخدام في المحلات التجارية قانعاً من العيش بالكفاف فلما بلغ سنّ الستين اعتزل العمل وملأ ساعات فراغه بالانتاج الأدبي . وكانت جريدته الأثيرة « الأخلاق » لصاحبها يعقوب روفائيل ينشر فيها أكثر ما يكتب وينظم ، وأسهم مرة في تحرير « مرآة الغرب » . اسلوبه في الانشاء بليغ رصين على سلاسة تجعله يروق للخاصة والعامة . وشعره يبرز عادةً في المناسبات فيعجب ويطرب . وقد نشر رواية « ملكة سبأ » مترجمة عن اللغة الانكليزية التي يُحسنها كالعربية . وكنا سعدنا بمعرفته في نيويورك عام ١٩٣٩ فأعجبنا به خطيباً وأديباً وأحببناه صديقاً لبيباً ، وما زلنا نتتبع آثاره في جريدة « نهضة العرب » .

وديع باحوط

من أعضاء الرابطة القلمية المؤسسين . لم نعثر إلاّ على أثر أدبي واحد له هو مقال « البرغشة » في مجموعة الرابطة . توفي عام ١٩٥٢ .

الياس عطا الله

عضو آخر من أعضاء الرابطة القلمية ، شديد التذوق للأدب . لم نقرأ له أثراً مكتوباً في المهاجر ، والذي نعلمه عنه انه أصدر في نيويورك جريدة « بريد المهاجر » بأربع لغات لفائدة الجوالي المهاجرة من مختلف الجنسيات ، وانه عاد إلى لبنان عام ١٩٢٧ وأسس في بيروت أول مكتب للترجمة تخرج فيه مئات المترجمين الذين يمارسون هذه المهنة في الحي المقابل للسراي ، وتوفي عام ١٩٤٣ .

الدكتور رزق حداد

١٨٧٥ — ١٩٤٣

وليد مرجعيون (لبنان) ، خريج الجامعة الاميركية في بيروت ، صاحب ديوان « نفحات الرياض » الذي صدر عام ١٩٤٦ في خمسمائة صفحة من القطع الكبير . هاجر عام ١٩٠٠ واشتهر بشعره وبطبه وبمواقفه الخطابية . وبعد وفاته تخلد ذكره بقيام مؤسسة تحمل اسمه وترصد جوائز ومنحاً دراسية للطلاب الممتازين من أبناء الجالية العربية .

عبد الله بري

من الأدباء الروّاد الذين نزحوا من جبل عامل ليستقروا في العالم الجديد . أقام في ديترويت منذ عام ١٩٣٦ . وهو أديب بليغ العبارة عميق الفكرة ، أصدر ثمانية كتب ونشر عشرات المقالات بين علمية واجتماعية وتاريخية ، ولم تزل في جعبته قصص مخطوطة ظفرنا بمطالعتها واعجبنا ايما اعجاب بطلاوتها . وبالرغم من هذا الخصب فان كاتبها يشكو الجدب ويقول في رسالة من رسائله : « ليس للمغترب تاريخ هجرة فهو كالمسافر إلى الآخرة لا يعرف متى يصل ولا يعرف إلى أي نهاية ينتهي ، أو قل لا دنيا له ولا آخرة . والاشتغال في الأدب في مجتمع زاخر بالمادة كالمجتمع الاميركي أمر صعب جداً بسبب الاحاطة الميكانيكية التي لا تعرف ميلاً أو اتجاهاً للأدب الانساني بمعناه الكامل . ولذلك تجد أن الأدباء الذين يقطنون في اميركا اللاتينية انتجوا أكثر مما انتجنا نحن . لأن الاحاطة المذكورة كانت قليلة عندهم فكثر أدبهم وكثرت عندنا فقل أدبنا » . وهو يقرض الشعر على الاسلوب الغربي في النظم .

يوسف نعمان المعلوف

شيخ الصحافيين في المهجر الشمالي . أنشأ جريدة «الأيام» ، أول جريدة سياسية مصورة بثماني صفحات ، في نيويورك عام ١٨٩٧ . وقد اشتهرت بحملاتها العنيفة على العهد التركي الحميدي كما اشتهر صاحبها بمتانة الأخلاق وصلابة العزم في مناهضة الاستبداد والثورة على الظلم ، والترفع عن العنعنات الاقليمية والطائفية التي كانت شعارات الصحف المهجرية في ذلك العهد . وقرينته السيدة نجلا ابو اللمع من الأديبات النابهات لم تزل تواصل الصحف بمقالاتها .

ملحم الحاوي

نابغة الزجل اللبناني . نعتبره من أركان الأدب المهجري وإن لم ينظم الشعر الفصيح . في شعره العامي حساسية وبلاغة وحرارة تكهرب السامعين . وفيه من الفكاهات والمغازي ما يشرح صدورهم . فهو بلبل الحفلات والمنابر في عُرف الجماهير ، يطربون لنكاته ويتأثرون بأقواله كلما أنشد قصيدة حنين أو أطلق دعوة وطنية . وهو على ذلك رجل عقيدة قومية . والسماحة في نفسه تعادل السماحة في شاعريته . اللغة في

شعره هي لغة عامية مهجرية ، حللها عبد المسيح حداد فقال : « هي لغة تجمعت من عديد لهجات المغتربين العرب بل من عديد الاصطلاحات البلدية المنوعة ذات اللون القروي أو المدني . ذلك لأن اجتماع العرب في هذا المهجر من سوريين ولبنانيين ومصريين وفلسطينيين ويمنيين وعراقيين حملهم على صهر اللهجات المختلفة في لهجة واحدة مشتركة فيها الكثير من التعابير الاميركية والكلام الأجنبي » .

سليم العازار

۱۸۸٤ — ۱۹۲٥

من شعراء الزجل كملحم الحاوي ومن طرازه . ولكنه كان اسبق في الهجرة وفي الرحيل عن هذه الدنيا . وُلد في غرزوز عام ۱۸۸٤ ، وعاش أعواماً في نيويورك ثم أصيب بمرض السل فقصد إلى لبنان للاستشفاء ولكنه مات قبل الوصول اليه .

مهاجرون عابرون

نقولا الحداد

أديب وعالِم وشاعر وقاص وسياسي ومؤرخ وصحافي لبناني الأصل، قضى معظم حياته في مصر وعمل في صحافتها خمسين عاماً وألّف اربعين كتاباً ، وترجم نظرية النسبية ، فسمّوه آينشتين مصر . هاجر إلى الولايات المتحدة الاميركية في أوائل هذا القرن مع زوجته الأديبة اللامعة روز حداد ، شقيقة فرح انطون . وفي نيويورك أصدر جريدة يومية كانت تكاليفها باهظة وايراداتها شحيحة . فتخلى عنها وعاد إلى القاهرة حيث أصدر ، متعاوناً مع قرينته ، مجلة « السيدات والرجال » .

فرح انطون

ومثله الكاتب المفكر الروائي المشهور . لم يقو على اغراء الهجرة فتبع اخته وزوجها إلى نيويورك عام ١٩٠٧ ، وأصدر فيها مجلته المعروفة « الجامعة » فطارت شهرته بعد مقالتين نشرهما فيها ، الأولى تحية لتمثال الحرية ، والثانية مناجاة شلال نياغرا . وبعد خمس سنوات حجب المجلة وعاد إلى مصر .

يوسف الخال

أديب لبناني . كانت إقامته في نيويورك موقتة ولو انها طالت أعواماً أصدر خلالها مسرحيته الشعرية « هيروديا » ، وأسهم في تحرير جريدة « الهدى » .

محمد علي الحوماني

١٨٩٦ — ١٩٦٤

لبناني من اركان الأدب والشعر . وُلد في جنوب لبنان « قريـة حاروف » واشتغل في الصحافة وألّف الكتب والدواوين ، وبعد ان زار أوروبا ونشر ديوانه (في باريس) توجه إلى اميركا الشمالية وأقام في ديترويت حيث أصدر ديوانه « القنابل » وهو اثر مهجري يُعتبر صاحبه مهاجراً عابراً . وفي عام ١٩٢٩ زار اميركا الجنوبية وبقي سنةً يكتب في صحفها ويخطب في أنديتها ، ثم أعاد الزيارة عام ١٩٣٩ . وأدركته الوفاة في بيروت في نيسان من هذا العام .

شعراء في مصانع فورد

يفاجئكم هذا العنوان وتحسبونه حديث خرافة . أفي غابة المداخن بين أسراب السيارات وهدير الآلات يتاح للقوافي العربية أن تمدّ لسانها وترسل ألحانها عبر الجو الأغبر العاصف ؟ كنا نستكبر عبقرية الشعراء الذين تحدوا ناطحات السحاب في نيويورك الصاخبة والذين فتحوا أندلساً جديدة في أرض البرازيل لأنهم نشروا راية الفصحى على بلاد الاعاجم فذاع صيتهم في مشارق الأرض ومغاربها ، وفاتنا ان هناك كثيرين غيرهم يغمغمون بالشعر العربي بينما أيديهم تدير المحركات وتصهر الحديد . ولا ينشرونه على الناس بل يحبسونه في صدورهم ويتهامسون به في لياليهم كلما أرّقهم الشوق والحنين إلى الوطن البعيد . إن في بلدة ديترويت ، مشيغن ، في مصانع سيارات فورد ، عمالاً من أبناء العرب ما زالوا محتفظين بعروبتهم وبأدبهم رغم تقادم هجرتهم ، وما زالوا يرقون الشعر رغم خشونة معيشتهم وقساوة عملهم .

منهم الشيخ محمد علي بري الذي مضى على هجرته اربعون عاماً ونيف وهو يعمل منذ عشرين عاماً في مصانع فورد ويشكو أمره إلى الله فيقول :

معامل «فورد » قد طويت بها عمراً ... الا هل ارى بعد الزوال له نشرا

قطعت بها العشرين كرهاً كأنني ... أسيرٌ يمج الماء من فمه صبرا

وقاسيت أتعاباً بصدري مريرة وهيهات اشفي من مرارتها الصدرا
وما مر يوم في الزمان مساعف على السر إلا قد لقيت به العسرا
تخال شباب العرب قبل وصولها إلى النار تُشوى من مداخنها الصفرا
فهذا عليل يائس من شفائه وذاك يداوى من اذاها ولا يبرا
وقالوا اصطبر بعد العناء لمهجر لعلك تثري أو تنال به أجرا
صبرت على ضيمي ، وصبري وراءه معاول شقت في التراب لي القبرا

* * *

ومنهم الشيخ يوسف بري الذي لا تفارقه أشباح بلدته تبنين وأماكن أخرى في جبل عامل :

حياة أسير السجن في موطني مثلي
وشغل العبيد السود في مصنع شغلي
تمنّيت أن أحيا مع المعز راعياً
وأبقى قريباً من ربوعي ومن أهلي
أروح مع العمال في « فورد » عاملاً
فأصبح فرداً ضاع في عدد النمل
وهذي من المازوت والزيت بدلتي
وأكل صغار الفأر من جبنةٍ أكلي
أحنّ إلى « تبنين » شوقاً وانني
سأذكرها ما طال عن أرضها رحلي
وان كان جسمي في مصانع « ميشغن »
فقلبي بسهل الخان أو قلعة التل

ويكتب في رسالة إلى صديق له :

اليك الشعر أبعثه كتاباً ... فهات مع البريد لي الجوابا
وعن دترويت لا تسأل فأني ... على رغمي اطلت بها الغيابا
غريب الدار لا يرضى سواها ... ويهواها وان كانت خرابا
هنالك خيمة التينات عندي ... تعادل كل ناطحة سحابا
سألتك كيف أنت وكيف أهلي ... واطلال طويت بها الشبابا
وسهل الخان، كيف السهل أمسى ... وهل طابت أزاهره وطابا ؟
بروحي غادة كانت تغني ... على هضباته لحن «العتابا»
«وعين الورد» هل أغدو اليها ... واغسل في مساربها الثيابا
وفي «صدّيق» حيث البطم زاهٍ ... يعانق في تثنّيه القبابا

ويقيم في ديترويت الأديب حنا نصر والأستاذ فيليب عقل الذي يحرر جريدة «نهضة العرب» لصاحبها الوطني المجاهد سعيد داود فياض .

في الحفلات

لقد مهّدت لي حفلات الترحيب والتوديع في نيويورك سبيل التعرف إلى شخصيات محترمة غير الشخصيات المدروسة في هذا الكتاب . رأيت فيها وجوهاً انطبع رسمها في ذهني بخطوط نورانية ، لا ينقطع إشعاعها على مر السنين . فإنك لتستمع إلى راجي ضاهر فتلمس لهيب الوطنية المتأجج في نفسه . وتلتقي من رجال الدين بالأب منصور اسطفان فإذا أنت أمام أمير من أمراء المنابر وبحر من بحور العلوم . ويقف أمين زيدان للكلام فينثر أفصح الشعر وأبلغ النثر فيخيل اليك أنه محاضر في إحدى الجامعات العربية لا مهاجر يعيش في البيئة الاميركية . وتجلس في حلقة تجار فيفاجئك عبدالكريم حداد وتوفيق فخر بالخطب المرتجلة وموسى الخوري بقصيدة المناسبة . ويأتي دور الدكتور يواكيل فيسألك أي لغة تريد أن تسمع ؟ إذ أنه يجيد الخطابة في سبع لغات ويوجه كلامه إلى كل من الحاضرين باللغة التي يفهمها .

واعجب من ذلك شخصية الشاعر المحامي جميل بطرس حلوة ، طيّب الله ثراه ، هو من قدامى المهاجرين المندمجين في البيئة الاميركية . ترهقه مهنته فيرفه عن نفسه بنظم الشعر ويسخو على الجرائد اليومية بمقاطع من شعره ويتولى التنظيم والتعريف في حفلات الجالية . سمعته

ينشد في حفلة الترحيب بي قصيدة سمّاها ليلة القدر ليس في يدي من شعره ما أستشهد به سواها :

سبتني طلعة الفجـر وأنس الليل بالبـدر
وشوق الطود مندفعـاً لمس ّ الأنجم الزهـر
وجيش الريح ملتحماً بجيش اللج في البحر
وزهر الروض رصّعـه بلوءلوءه ندى الفجـر
وريشة شاعر رسمت معاني السحر بالسحر
مجالي الكون أجملهـا خيال الشاعر الفطري
وأطرب مـا يرنحـني بأنك شـاعر مـثر
حللت بأفْقنا قمـراً فحلّت ليلة القـدر

الفصل الثالث عشر

أدباؤنا في البرازيل

وُلد الأدب العربي في الجنوب كما وُلد في الشمال هزيلاً ضئيلاً لسوء غذائه المادي والمعنوي فاستفحلت فوضى الأقلام وتحولت الصحافة إلى مسرح تُمثّل عليه أدوار الممالأة والمدح ، أو أدوار التشنيع والقدح تبعاً لما تمليه المصالح الشخصية . ولكن قيّض للأدب في البرازيل أن يلحق بقوافل المهاجرين الأولى من أنصاف الأميين قافلة جديدة ارتفع مستواها العقلي والثقافي ، تتذوق الأدب وتغار عليه . في طليعة هـذه القافلة كان المعلم نعمه يافث عميد آل يافث الذي وصل إلى سان باولو عام ١٨٩٣ وفي جعبته رصيد محترم من العلوم اللغوية والرياضية مـع شهادة جامعية ، وما لبث أن استقر على حالة من النعمة لم يتح لمهاجر أعظم منها . فعكف على رعاية الأدباء ، وحمل أبناء الجالية على احترامهم اقتداء به . ووصل في العـام ذاته رزق الله حداد وتلاه ميشال معلوف وسعيد أبو جمره ونعوم لبكي ونجيب طراد ، فانتقل بهم الأدب إلى

مركز القيادة والوجاهة .

في تلك الأثناء تأسست في سان باولو أول ندوة أدبية إسمها « رواق المعرّي » ، ورد ذكرها في فصل « شعر المباسطات » ، وقد قامت مقام مدرسة مجانية يُعلّم فيها المثقفون غير المثقفين من أبناء العرب . كان نعوم لبكي مؤسسها ورئيسها الأول ، وبعده سعيد ابو جمره والدكتور فضلو حيدر . وقد دام نشاطها إلى عام الحرب العالمية الاولى حين عصفت في الصدور مطامع قومية واصطبغ الشعر بصبغة الثورة الحمراء ، فلم تعد مناقشات « الرواق » تنقع غليل الأدباء الذين تكاثروا .

كثيرون منهم كانوا من متخرجي الجامعة الأميركية في بيروت . فاجتمعوا وأسسوا عام ١٩٢٢ جمعية ضمّتهم وبذلت نشاطاً مرموقاً في تعليم الشبان المحرومين من الوسائل المادية وعملت على تذييع الآداب العربية في الأوساط البرازيلية بالترجمة والنشر . وقد استقدمت المؤرخ الشهير الدكتور فيليب حتي مرتين لسماع محاضراته وكرّمت الشاعر الاسباني الشهير فرنسيسكو فياسباسا وكثيرين من أدباء البرازيل والشرق . وكان المعلم نعمه يافث أول رئيس لها . أما اليوم فرئيسها روفائيل يافث ، وعدد أعضائها سبعون ، وهي جدّ نشيطة تصدر نشرات دورية وتحيي كل عام مهرجاناً شعرياً عكاظياً . وفي عام ١٩٢٧ أصدر موسى كريم مجلة « الشرق » وجعلها ميداناً لأقلام الكتّاب والشعراء فالتفّ حولها فريق منهم جعلوا من مكتبها منتدى لهم ، وبقي فريق على حاله من التنافر والتواني . وتوالت الأعوام والأدب في عملية التطور والتبلور ، والأدباء بين جمود ونشاط لا يحفزهم إلى الانتاج إلاّ دعوة نادٍ أو طلب من صحافي . إلى أن كانت سنة ١٩٣٢ وقد استشعروا في نفوسهم القوة الكافية للاستقلال بمجلة خاصة تكون لسان حالهم ووجدوا في المرحوم ميشال المعلوف رعاية واستعداداً للعمل والبذل

فأسسوا « العصبة الأندلسية » برئاسته . وأصدروا في العام التالي مجلة « العصبة الأندلسية » .

فسّر الاستاذ حبيب مسعود معنى تسمية العصبة بالأندلسية ، فقال : « إنه التيمن بالتراث الغالي الذي تركه العرب في الأندلس ، والإشارة إلى الابتعاد عن التطرف الذي اتسمت به « الرابطة القلمية » في الشمال مع أن الشبه بعيد جداً بين الأندلس القديمة والجديدة . فالعرب دخلوا الأندلس فاتحين ونشروا هيبتهم وحموا بسيوفهم مؤسساتهم ولغتهم فدرج الأدب والعلم في ظلال أعلامهم وزها الشعر في خمائل مجدهم . أما نحن فقد دخلنا أرض كولومبس مسترزقين طالبين عطفاً وسائلين عدلاً . فلا يبرر تسمية بيئتنا بالأندلسية إلاّ اعتبارنا أن نشر الأدب العربي في البلد الغريب وفي الأمين من قومنا هو فتح مبين . وان الانصراف إلى الأدب هو نوع من الاستشهاد » .

« فليس الفضل في أن تصون لغتك وأنت قابع في دارك بين عشيرتك كالفضل في أن تصونها وتحضنها وتشقى من أجلها في بلاد غريبة عنك لساناً وعادة وعرقاً . ومتى اندرس هذا الجيل تندرس معه الجالية المغتربة كهيئة اجتماعية ويصبح تفكيرها محصوراً في سلعة ويغدو شعورها منوطاً بآلة . فتدرك عندئذ مقدار النكبة يوم لا تسمع رنة لقافية عربية وتطلب الأدب العربي فلا تجد له معلماً » .

ضمّت العصبة في أول الأمر خيرة الكتّاب والشعراء أمثال : نظير زيتون – حبيب مسعود – اسكندر كرباج – يوسف البعيني – حسني غراب – يوسف أسعد غانم – عقل الجر – شكر الله الجر – الشاعر القروي – قيصر سليم الخوري – شفيق معلوف – جورج حسون – الياس فرحات – نصر سمعان – توفيق ضعون – ميكيل نمر – جرجس الخوري كرم – توفيق قربان – رياض معلوف – نعمه قازان – جبران سعاده – جورج اليان – أنيس يواكين الراسي – أنطون سليم سعد –

نجيب يعقوب – سلمى صائغ – جورج انطون كفوري . وبقي خارجها أدباء ذوو مكانة مرموقة كما انسحب منها الياس فرحات ونعمه قازان وتوفيق قربان لأسباب خاصة .

أمامنا لائحة طويلة بأسماء الأدباء الذين عاصروا العصبة الأندلسية ولم ينضموا إلى عضويتها مع ان بعضهم كان يغذي مجلة العصبة بانتاجه : الدكتور فضلو حيدر – سعيد اليازجي – ميشال مغربي – جوزيف ابراهيم الخوري . وبعضهم كان معروفاً بآثاره المنشورة في الصحف الأخرى : فارس الدبغي – فائز السمعاني – موسى كريم – ناصر شاتيلا – داود شكور – مدحت غراب – موسى الحداد – انجال عون شليطا – وهيب عوده – سعيد البابا – اسد موسى – توفيق بربر – سليم نادر – فيليب لطف الله – راجي باسيل – مريانا فاخوري – رشيد عطيه – سعيد أبو جمره – جورج مسره وامين الغريب ، وكثيرون غيرهم . سنثبت فيما يلي ما نعرفه عنهم وعن آثارهم ، معتذرين إلى الأدباء الذين لم تحضرنا أسماؤهم أو الذين لم يسعدنا الحظ بمعرفتهم وقد يكون أدبهم جديراً بالتنويه والدرس . سنتناول بالبحث الشعراء أولاً ، من كبيرهم إلى صغيرهم ، ثم الكتّاب الناثرين ، وننتهي باشارة إلى أدباء الرعيل الأول (المهاجرين) وإلى الأدباء المتقاعدين غير المنتجين . وقد ألجأنا إلى هذا التقسيم كثرة الأدباء الموضوعين رهن الدراسة . فهم يتجاوزون المئة عدداً . وهمنا تسهيل المراجعة على الباحثين .

وسيكون رأس اهتمامنا أعضاء العصبة الأندلسية ، نتتبع آثارهم ونكشف عن سيرتهم قدر المستطاع ، ولكن عضواً واحداً لم نقع على سيرته ولا على اثر يدلّنا على الحقيقة الأدبية التي رشّحته لعضوية العصبة هو نجيب يعقوب ، وعضو آخر كان انتسابه للعصبة فخرياً لا عملياً هو السيدة سلمى صايغ [1] . كانت زائرة عابرة في سان باولو معروفة

---

١ يؤثر عن حفاوة العصبة الأندلسية بالأديبة سلمى الصائغ ان أحد أعضائها (حسني غراب) حياها=

بأدبها الرفيع ومؤلفاتها القيّمة قبل المرور على البرازيل فلا نتحدث عنها في ما يلي لأنها ليست مهجرية .

دامت رئاسة ميشال معلوف إلى أن أدركته المنية بعد عشرة أعوام كان في خلالها مثال الترفع والاخلاص . وخلفه على الرئاسة الشاعر القروي ثم شفيق معلوف الذي دامت رئاسته إلى اليوم ، بينما كان نظير زيتون أمين العصبة .

لم تكن العصبة بمجموعها قوّة موحّدة لها ذات الانسجام وذات الايمان وذات النزعة التي كانت للرابطة القلمية في الشمال . فأعضاؤها لم يكونوا كلهم من ذوي الثقافة العالية ، بل كان بعضهم على حظ ضئيل من التحصيل المدرسي ، ولكن موهبتهم الطبيعية أهلتهم للبروز في حقل الأدب . بعضهم من تلامذة اليازجيين والبستانيين وأضرابهم ، نهجوا نهجهم في التأليف وحافظوا على الديباجة القديمة . وبعضهم حرروا أقلامهم من أغلال الماضي وانطلقوا على سجيتهم . أما من حيث العقيدة فهذا كان انعزالياً وذاك من دعاة الوحدة العربية . هذا يُحارب رجال الدين وذاك يتبرّك بأذيالهم . هذا يرى في الدولة المنتدبة « الأم الحنون » وذاك لا يطيق التلفظ باسمها . على أن كل هذه الفوارق لم تحدّ من انطلاقاتهم البيانية بدليل أنهم غذوا مجلة العصبة بانتاجهم الرائع طوال عشرين عاماً ، الأمر الذي لم تستطعه الرابطة القلمية في نيويورك .

حدّدوا مبادئ العصبة هكذا : تعزيز الأدب العربي — تآخي الأدباء — رفع مستوى العقلية العربية — مكافحة التعصب — نقض التقاليد التي تنافي روح العصر .

= بقصيدة عامرة جاء فيها :

ما أنت والله يا سلمى بزائرة	إن أنت إلا حبيب آب من سفر
قد كنت بالأمس ملء السمع غائبة	واليوم أصبحت ملء السمع والبصر
كفاك تيهاً وفخراً قول قائلنا	أنثى ولكنها خير من الذكر

« لم يحفظوا لها نهجاً معلوماً في الأدب لأن أركانها أجمعوا على النضال في سبيل الأدب من حيث هو فنّ وجمال دون ما نظر إلى إطار أو مصدر . فلا اعتراف من معين ينبوع منشود ولا تمسك بفرع من فروع الشعر محدد . ومن أميز ما اتسم به أدب العصبة وشعر شعرائها أنهم ترسموا أساليب الفصحى وتقيدوا بأحكامها ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً . كما أنهم جلّوا في مضمار التجديد صامدين بأدبهم دون فوضى التجديد » . هذا كلام رئيس العصبة الحالي ، شفيق معلوف ، وله في موضع آخر : « لولا أن الأدب مُتَفَشّ في أعرق الشعراء والكتّاب المغتربين لما طلعوا على الفنّ بأثر ولا سخواً على الفكر ببارقة حيث لا مجال إلا لجولان الأرقام في الرؤوس ودوران الرغيف أمام الأبصار وتدوية الحديد في المسامع » .

لا شك أن أدباء الجنوب – في البرازيل والأرجنتين – كانوا أكثر محافظة على الديباجة العربية البليغة وأكثر احتراماً لقواعد اللغة والعروض من زملائهم في الشمال ولكنهم سمعوا من يعيب عليهم هذه المحافظة وينعتهم بالجمود وحب التقليد . وعلى ذلك رد حبيب مسعود : « اتهموا إخوان العصبة الأندلسية بالمحافظة على الأساليب القديمة . أقول إذا كان المراد من الأساليب القديمة الصيغة اللفظية والتقيد بضوابط اللغة فليس في ذلك موضع للغمز واللمز . أما إذا كان التفكير الجديد يقتضي أسلوباً جديداً والأسلوب الجديد يقتضي خروجاً من اللغة وبلبلة في التركيب ورطانة في التعبير فلست مبرئاً إخواني من التهمة ، بل أعلن على رؤوس الأشهاد أنهم محافظون أكثر من تشرشل وأعوانه » .

وتصدى للدفاع الشاعر المدني بزهو وغضب لم نعهدهما في طبعه الهادئ الرصين :

إنّا لمن عصبة إن أشرعت قلما ... يشتف سر الدجى من شقه ألق

تعيش أقلامنا منـا فليس لنا بالمدح والهجو باب منه نرتـزق

مَن زارنا زار منا روضة أنفا وعاد ينضح من أثوابه العبق

إن الألى فاتهم فخر اللحاق بنـا قد فاتهم قبله في الحلبة الخلـق

لما سبقنا أعدنا الشوط فالتفتوا إلى الوراء فخالوا أنهم سبقوا..

لا شك أن قيام العصبة الأندلسية ومجلتها في سان باولو مفخرة من مفاخر العرب تخلد ذكرها آثار أدبية نشرت في عشرين مجلداً من مجلدات المجلة وفي عدد كبير من الكتب والدواوين ألّفها أعضاء العصبة كشفيق معلوف والقروي وشكر الله الجر وحبيب مسعود وتوفيق ضعون وجورج حسون ونظير زيتون . ونحن نعلم ان العصبة لم تتبنّ هذه المؤلفـات وتساعد مؤلفيها على طبعها بل طبعوها بوسائلهم الخاصة ، ونعلم أيضاً أن أدباء من غير العصبة كفرحات وموسى كريم ونعمه قازان ورشيد عطيه وسعيد اليازجي لم يقلّ إنتاجهم عن إنتاج أعضاء العصبة ، مما يدل على أن نهضة الأدب في البرازيل لم تكن رهينة بقيام هذه المؤسسة .

ورغم ذلك يجب أن لا نجحد فضل هذه العصبة التي جمعت شملاً ممزقاً وأوجدت حركة مباركة في المحيط المستنيم وبعثت حب الأدب العربي في الصدور وعززت شأن الأدباء . فمجرد وجودها كان حافزاً للاقلام مرهفـاً للقرائح ، فان كان الانتاج الخصب الذي عقب تأسيسها ، لم يجد مجالاً له في اجتماعاتها القليلة ، فانه وجد المجال في حفلات الجالية الكثيرة . لأن الحوادث السياسية في الوطن العربي كانت تلاقي وعياً مستيقظاً في أوساط الجالية وتحملها على دعوة الأدباء للكلام في حفلاتها . أما حفلات العصبة فاقتصرت على تمجيد الأموات دون الأحياء من رجالات العروبة ، فهي التي أقامت حفلات خطابية لذكرى المتنبي ، وعقل الجر وميشال معلوف وحسني غراب ، وحفلات كتابية لذكرى

يوسف البعيني واسكندر كرباج .

وفضلاً عن ذلك فقد كان أدباء العصبة من المساهمين في حفلات التأبين التي كانت تقيمها المعاهد العربية مشتركة ، وقد خطبوا في حفلات الذكرى للملك فيصل وفوزي المعلوف وأمين الريحاني وجبران خليل جبران ، كما خطبوا في الحفلات التي أقامها النادي الحمصي تأبيناً لفرح انطون وسليمان البستاني ومصطفى المنفلوطي . خمسة من الأسماء التي عددتها كان أصحابها من أركان العصبة العاملين ، فالخسارة التي أصابتها بفقدهم ، مضافة إلى رحيل نظير زيتون عن سان باولو وإلى اعتزال حبيب مسعود العمل في رئاسة التحرير بعد أن تولاها عشرين عاماً ، حدّت من نشاطها وأضعفت أثرها . وكان من بوادر الانحلال الطارئ عليها أن تحتجب مجلتها وأن يؤذن هذا الاحتجاب بمصير مماثل لما صارت اليه الأندلس بعد أدوار العز والمجد . تراخٍ فهزال فاضمحلال . ومُلك يُبكى عليه ولا يُستردّ .

إن أهم الأحداث الأدبية التي وقعت في الجنوب هي صدور ملحمة على بساط الريح وملحمة عبقر وديوان القروي ودواوين فرحات . ففيها بلغ الشعر الغاية القصوى من التأثير والاشتهار . أما في النثر فلم يبلغ أدباء الجنوب مدى أدباء الشمال ولا انتشرت آثارهم انتشار كتب جبران ونعيمه والريحاني . سألت الأستاذ نظير زيتون في سان باولو لماذا لم يدفع أمراء النثر عندكم بكتبهم إلى أسواق الأقطار العربية كما فعل كتاب الشمال ؟ فأجابني : إن كتّابنا كنظير زيتون وحبيب مسعود وجورج حسون وفارس الدبغي وتوفيق ضعون — لم يزالوا كتّاب مقالات — لم يرشحوا أنفسهم لحمل الرسالات . إنك تلقى فيما يكتبون ديباجة قوية وبياناً مشرقاً وأسلوباً جذاباً ولكن أين الفكرة المجنحة التي تطير بهم إلى عالم الرسالة ؟ فالرسالة تتطلب العبقرية كما تتطلب التحرر العميق الذي

يطهر النفس من الارث والكبت والخوف والمصلحة والبيئة وسائر القيود الأرضية .

ثم سألت عميد اللغة توفيق قربان : لماذا عني القراء والنقّاد بشعر أدبائكم دون نثرهم ؟.. فأجابني إن نثرنا بمنزلة الشاي البرازيلي (الماتي) أما الشعر فخمرة . وأنى للشاي سورة الخمر في اللسان ونشوتها في الرأس ؟

رشيد سليم الخوري

(الشاعر القروي)

(١٨٨٧)

الشاعر القروي ، هو أغنى شعراء المهجر عن التعريف ، لأن قصائده الوطنية متداولة في كل قطر عربي ترنح نفوس العرب ، باديهم وحاضرهم . ولأن سيرة حياته كتبت بقلمه ونشرت في ديوانه الضخم عام ١٩٥٣ فأصبحت في متناول الجماهير .

شاء الشاعر أن يدوّن ترجمة حياته بيده فيحول دون تشويه حوادثها ويشبع فضول المؤرخين . وإذا بالأديب الكبير نظير زيتون ، زميله ورفيقه في سان باولو ، يعترض على هذه البادرة بإخلاص وحماسة . قال : « ترجمة حياة القروي تحصره بالأينيّة والكيفية والكمية وتخطط له الحدود والأوصاف والمظاهر وسائر ما يشترك به أبناء الأرض . ونحن نأباها ترجمة محدودة وان كانت في خطوطها وألوانها الرئيسية صادقة شكلاً . إن عدسة التصوير أمينة كل الأمانة في رسم الهيكل المادي المتطور ولكنها أعجز عن أن تصوّر الروح وتحسر عن رؤاها وأطيافها وخلجاتها ، وأضعف من أن تصل إلى القلب وتكشف عن نبضاته ونغماته

وأبعد من أن تطل على الذهن وتستعرض دنياه المتألقة الباذخة ، وأوهى من أن تنفذ إلى الأعماق لترسم ذلك العالم الأكبر الذي يعيش فيه من هم فوق الإنسان . فنحن لا نرضاها صورة عادية سطحية ، والمصوّر هو الشاعر القروي » .

ولد شاعرنا عام ١٨٨٧ في قرية البربارة . تلك الضيعة الصغيرة الغافية على ذراع البحر المتوسط وهي اليوم قرية مهجورة ، كباقي الوشم في ظاهر اليد . وبيت القروي فيها أصبح أثراً بعد عين ، كأنه يناظر الآثار التاريخية المتداعية في بيبلوس ، على مقربة منه .

ويعود نظير زيتون إلى الاحتجاج على ذكر الزمان والمكان لولادة القروي فيقول : « إنه لم يولد في البربارة . بل ارتدى هناك قميصه الترابي فانتسب اليها . ولكنه ولد مع الأعاصير في الغابات ومع الزلازل في الجبال ومع الصواعق في البحار . ولد مع الندى في الفجر ومع الأزاهير في الربيع ومع البلابل في الجنان . ومع الجمال في نشوة نيسان . ولد مع الأسطورة في عبقر ومع الأنبياء في الوادي المقدس ومع الرؤى في ومضة الروح ومع السحر في أهداب العذارى . ولد مع الدمع الأخرس اللاهب في غصة اليتيم وزفرة المنكوب وعثرة الكريم وكربة المظلوم . ولد الشاعر القروي مع أمته في شروقها وغروبها ، ومدّها وجزرها ، وخمرها وخلها » .

هذه القطعة من البيان تقوم شاهداً على أدب كاتبها الرائع وعلى منزلة القروي من معاصريه وقد أثبتناها لهذا الاعتبار ، لا لأنها تعبّر عن رأينا في احتجاجه على ترجمة حياة القروي . إنها ترجمة الحياة المادية ، وللمادة أوصاف غير الأوصاف المعنوية التي سردها الأديب زيتون . وقد تكون المادة شيئاً حقيراً بالنسبة إلى الروح ، ولكنها الغلاف الذي لا يستغنى عنه. والكلام عن هذا الغلاف لا يعني جهلنا مقام مضمونه . إننا نعبد ألوهية الروح في السيد المسيح ولكن في الوقت ذاته نتقرّى أين وُلد

ومتى ؟ وكيف عاش الحياة المادية في القعود والقيام والمأكل والملبس ولسنا بكافرين .

تعلّم القروي في مدرسة القرية وفي الصفوف الاستعدادية للجامعة الأميركية ، ثم علّم في مدارس مختلفة بين بيروت وطرابلس وزحلة وسوق الغرب ، فانقضى بذلك ربع قرن من حياته ، نظم في خلاله قصائد ومقطوعات ظهرت فيما بعد في ديوان « الرشيديات » وكانت بمثابة تعريف عن شاعريته المطبوعة . لقد نشأ في جو عائلي مشبع بحب الأدب . والده كان ينظم وينثر . وأخوه قيصر شاعر ممتاز . واخته فيكتوريا ولدت لتكون شاعرة العرب لولا أن القدر صرفها إلى غير مصير فتزوجت وأقامت في تكساس .

تحالفت الظروف على إحراج الشاعر ودفعه إلى الهجرة . عيش ضاق . ودَين يثقل كاهل أبيه . وحاكم مستشرٍ . وحرية القول مكبلة بالاغلال . وعمه في البرازيل يستدعيه ويسلفه نفقات السفر . فأزمع على الرحيل مكرهاً لا بطلاً . وبدلاً من انفاق المال على نفسه ، أشرك فيه أخاه وعائلة أخيه وسافروا جميعاً على أضيق حال . ولكن عود القروي كان إلى جانبه فلا همّ ولا بلبال .

وصلت القافلة إلى داخلية البرازيل عام ١٩١٣ ولم تدفع عنها معونة العم عنت الحياة المهجرية ، فاندفع القروي إلى العمل سعياً وراء الرزق الحلال . فحمل « الكشة » وطاف بها الولايات الداخلية . وكان قد برع في صنع ربطات العنق كما اشتهر بعذوبة صوته وبراعته في الضرب على العود . وقد كتب عن هذه المرحلة من حياته ما يأتي : « حملت صندوق الزنك مملوءاً بمختلف السلع ومربوطاً بسيور جلدية إلى كتفي وضربت في مناكب ولاية ميناس متعرضاً لأقسى مشقات الحر والسيول الطامية . وفي الغابات المخيفة كنت أرفع بصري إلى السماء كلما أمطرت ، وأغني العتابا حتى يمتلىء فمي بالغيث المدرار . ثم اشتدت الأزمة التجارية

أثناء الحرب وكثر العمال العاطلون حتى ملأ المتشردون طرقات العاصمة ، فعمدت الحكومة إلى قيد أسمائهم وايوائهم في باحات المخافر . يؤمّونها كل مساء فرادى وثنى ويلقون بأجسادهم المنهوكة على حبال مشدودة بين حيطانها . فإذا أصبحوا حلّ الموكلون بهم أطراف الحبال فسقطوا على وجوههم ثم خرجوا يهيمون . وقد طال سعيي شهوراً في تلك الأثناء ولم أجد مرتزقاً حتى استحكمت حلقاتها وفرغ آخر فلس من همياني ، ولكن في تلك الليلة بالذات قيض الله لي أحد هواة العود فشرعت في تعليمه مستلفاً اجرتي . ثم تكاثر زملاؤه فاطمأننت إلى العيش .

« انتقلت بعد ذلك من الداخلية إلى سان باولو وأخذت أعلّم في المدارس وفي البيوت ، ثم تحوّلت إلى التجول في الولايات الداخلية كمعتمد لبعض المحلات التجارية . على اني كنت أنقطع عن التجوال شهراً كاملاً مضحياً بأجرتي ومنفقاً من جيبي لأنظم قصيدة طُلب مني القاؤها في حفلة وطنية . ويشهد الله أني ما دعيت للكلام في مناسبة إلاّ سخرتها للغرض الوطني الذي استبد بمشاعري . أو فاجأت الحفل بموضوع من عندي للغرض ذاته . وبعد سنتين أنشأت مصنعاً للإرب (ربطات العنق) ثم صفّيته بعد ثلاث سنوات بخسارة نصف رأس المال » .

هذه هي صورة الحياة المهجرية ، رسمها أصدق الرسامين ، ولم يصف إلاّ كفاح المهاجر في سبيل لقمة العيش . أما الذل الذي يمشي في ظل الفقر ، فقد قال عنه هذين البيتين :

كن بينهم رجل الزمان تظل (توركو) محتقر
حتى العبيد السود قد سخروا بنا مع من سخر

عاش القروي بالكفاف وغالب الحرمان بالقناعة . وآسى نفسه بمثالية الرسالة التي يؤديها بشعره إلى أبناء قومه .

بعدَتْ همتي فعفتُ كنوز الأرض لمّا عرفت قيمة كنزي
لا أبالي شبعت أم جعت والفن شرابي وعزة النفس خبزي

لقد نضجت موهبته وذاعت شهرته فما همه زريّ اللباس ، ما دام يبدو لعيون الناس من على المنبر أبهى من طيالس الملوك ؟

إن هدفه تحدّد . وطريقه تعبّد . طريق الاستشهاد في خدمة البلاد .

كان على اختلاف في العقيدة الوطنية وفي أدب السلوك مع الصحافي المستهتر نجيب قسطنطين حداد الذي راح يطعن بالشاعر القروي في مقالات عنيفة نشرها في جريدته « المؤدب » ، وقال في احداها : « من هو هذا القروي ؟ شاعر (جرن الكبة) ؟ » فردّ عليه الشاعر بمقال وقّعه باسم القروي . وتبنّى هذا اللقب الذي جاءه عفواً من صحافي غرّ نطق بكلمة حق أرادها للباطل .

كان على وشك السفر إلى البلاد العربية أملاً بالانضمام إلى جيش التحرير لمحاربة الأتراك عام ١٩١٧ ، لكن أصدقاءه أقاموا في وجهه العراقيل وأرغموه على البقاء ، وكان قد نشر الدعوة إلى التطوع معه :

لنا وطن هـلاّ سمعنا نحيبـه وهلاّ رأينا ضعفه وشحوبـه
أنأسو صحيحاً في غنى عن دوائنـا ونجفو عليلاً قد أضاع طبيبـه
لعينيك يا لبنان قوتي وقوّتـي وتعرفني غضّ الشباب رطيبه
حملت صليبي قاصداً أرض موعـدي
فمن شاء فليحمل ورائي صليبـه

عرفت الشاعر القروي منذ عام ١٩٤٠ في مجالس الأدب ، وفي داره وبين أهله . وكأني عرفت روح غاندي في جسم غير جسمه وزيّ غير زيه . ينظم الشعر بين صخب الصغار والكبار حوله ، و « أم رشيد » تنهرهم ليسكتوا . ثروته تتجمّع تحت سريره وهي العود والكتب ، بينما تنام رسائل الأصحاب والمعجبين تحت وسادته . وقد اعترف انه لولا نظرات أمه اليه وهو ينظم قصيدته الخالدة « حضن الأم » لما استشف سرّ الأمومة ومعاني العطف والحنان والرحمة الإنسانية . لقد صوّر في القصيدة شاعراً عربياً أدخله الله في نعيم السماء وما زال يبكي ويشكو الحرمان لبعده عن حنان الأم . فيتساءل الإلـه الكبير عن تلك الغبطة التي لم تخطر له على بال :

أينعم خاطئ في الأرض قبلـي ... بما أنا لست في الفردوس أنعم ؟
لاكتشفنّ هـذا السر يوماً ... ولو كُلّفت أن أشقى وأعدم
وكانت ليلة ، فـاذا صبـيّ ... صغير نائم في حضن مريم .

قلما عرفت العروبة مثله شاعراً أميناً على عزتها وكرامتها ، ثابتاً على مبادئها ، زاهداً في مالها وحطامها . عندما نشطت الدعوة في سان باولو إلى شراء منزل وإهدائه إلى الشاعر القروي ، وراح أدباء الارجنتين يتبرعون للغرض ذاته ، ثارت ثائرة القروي وكتب إليّ بالحاح طالباً مني العدول عن المشروع وردّ كل مال مجموع إلى صاحبه . وهذه فقرة من رسالته :

« أرجو أيها الأخ العزيز أن تسعفني في هذا الملتمس وتشاركني في عقيدة منزهة عن الأجر في هذه الدنيا الفانية . فمرادنا أكبر منهـا . والذي نطلب لأوطاننا يجل عن الجزاء مهما عظم . وحسبنا أن نرضي الله والضمير في جهادنا الأدبي . وهل نحن خير من الشهداء الذين لم

ينالوا من خدمة الوطن غير الذكر الجميل وقد بذلوا له أغلى مما بذلنا ؟

ثم ألا ترى أن المكافأة المادية تنزل الشاعر عن عرش إبائه وتحدّ من حرية قلمه وتخفت صوته وتفقده سحره وتأثيره ؟ فأنا أشعر أني أخسر بهذه الحملة أكثر مما أربح ولو شيدوا لي القصور . إن أمنيتي بعد هذه السنّ التي بلغتها هي قبر في وطني لا قصر في غربتي . فالكفاف يكفيني والغنى لا يغنيني » .

ما أوجع هذا الكلام ! قبر في وطني لا قصر في غربتي . ولكن أين هو الوطن الذي ينعم عليه بالقبر الذي يشتهيه ؟ وما قول الحكومة التي تتبجح بالعطف على المغتربين وتصم أذنها عن نداء يسحق القلب مثل هذا النداء ؟

اعتبر القروي مشروع الهدية إهانة له فاعتلّت صحته ونصحه الأطباء بتغيير المناخ . وإذا به يصل فجأة إلى ولاية مندوسا في الأرجنتين حيث البساتين والكروم ، ويدخل المستشفى تواً . فهرعنا إلى عيادته وإلى عرض خدماتنا عليه . ولكن هيهات أن يكلف القروي أحداً بحاجة يقضيها له أو خدمة يؤديها . فما عرفنا بالمأساة التي عاشها وقتئذ إلاّ بعد أن أصدر ديوانه وقرأنا اعترافاته في المقدمة . وبينها هذا الاعتراف : « تناوبتني العلل فأكرهتني في أواخر عام ١٩٥٠ على أن أبيع من ضنائني عودي وكتباً نفيسة جلّها هدايا من أخلص إخواني لأستعين بثمنها على رحلة رحلتها إلى الأرجنتين والحمى تشوي جسدي » .

ومن عاشر القروي وعرف حرصه على عوده وكتبه أدرك بلاغة التضحية التي قام بها والتي كان في غنى عنها لو قبل معونة يسديها اليه أيّ كان من أحبائه . ويعزّ علي أن أتمثل القروي محروماً من عوده التاريخي الذي طالما فرج كربة صدره وأنقذه من غائلة الجوع في مراحل عمره . أليس هو القائل :

أين يا هند أنت أين لتري . آه لو ترين

شبحاً باسط اليديـن يسكب الدمع جدولين – أحمرين
كل حظي من الوجـود قلـم ناحـل وعـود
منهما ، والورى هجـود أتسلى ببلبلين – شاديـين

تأملوا هذا الرجل الذي يرفض هدية تقدمها له الجالية العربية عن طيبة خاطر ، وفي الآن ذاته يبيع عوده الثمين ورفيقه الأمين ليستشفي بثمنه من علة أصابته . لم يبالغ الأستاذ أكرم زعيتر حين سمّاه « قديس الوطنية العربية » .

في العام الفائت أرسل اليه فضيلة الشيخ أحمد حسن الباقوري وزير الأوقاف المصرية حوالة بمئتي جنيه مقابل نسخة تسلمها من ديوانه . فأبت على الشاعر وطنيته وصوفيته إلاّ أن يردّ الحوالة ويطلب تحويل المال إلى صندوق التبرعات لتسليح الجيش المصري .

وقبل ذلك ، عام ١٩٤٧ ، طبع كراساً يحتوي على ثلاث قصائد « اللامّيات الثلاث » ورصد ريعه لنصرة فلسطين . وعندما انتهى من بيعه أرسل إلى أمين جامعة الدول العربية (عبد الرحمن عزام وقتئذ) تحويلاً بثلاثمائة جنيه انكليزي .

والذي يحز في قلب القروي ، تنكّر بعض العناصر الرجعية له وتواطؤ بعض الجهلة للإيقاع به وتنطع بعض المتشاعرين لتسفيه أقواله والحط من قيمة شعره . نصحوه بالانصراف عن الشعر الوطني إلى الشعر الإنساني ليصبر شاعراً عالمياً فأجابهم : « هبوا أن في وسعي أن أصبر شاعراً عالمياً فإني لست بآسف أني أحببت بلادي أكثر من نفسي وحاولت أن أفتدي مجدها بمجدي وخلودها بخلودي » ، واتهموه بالمروق من لبنانيته لمجرد ميله إلى العروبة ، مع انه لم يحارب لبنان بل حارب أعداءه المستعمرين ، وشاء أن يدفع عنه خطرهم بإحاطة استقلال لبنان بالحصن العربي الشامل .

فالعروبة عنده – كما ورد في مقدمة ديوانه – « هي أن يشعر اللبناني أن له زحلة في الطائف . ويشعر العراقي أن له فراتاً في النيل . هي دم زكي يجري في عروق الجسد الواحد . أعضاؤه الأقطار العربية . وكل ما يعوق دورة هذا الدم يعرض الجسد كله للأخطار » .

وأمامي رسالة وردتني منه . أقرأ فيها ما يلي :

« أحنّ إلى لبنان حنيناً يغلبني على أمري – أشتهي أن أمشي على ترابه حافياً وأن أتوسّد خشبه وحجارته . لقد سما حبي له عن تلك الأنانية الضيقة قبل أن رحلت عنه . كنت أنظر اليه نظرة الولد الطائش إلى والد خير شفيق أطالبه بكل شيء ولا أطالب نفسي بشيء نحوه . فصرت اليوم أشعر أن الأمر ينبغي أن يكون بالعكس . أفرض على نفسي الإحسان اليه ولا أفرض عليه إلاّ أن يحسن الى نفسه » .

وقبله قال فليكس فارس : « ان الله قد أوجد لبنان مستقبلاً لشمس الشرق . فان هو أشاح بوجهه عنها امتنع عليه أن يكون رأساً ، في الشرق ، ليصبح ذنباً للجهة التي يستقبلها » .

ولكن المارقين في دين الوطنية ، أنصار الحكم التركي وأتباع الانتداب الفرنسي ، أولئك الذين قال عنهم :

يكاد الفتى منهم يحارب نفسه فلو قابل المرآة هب إلى الحرب

هؤلاء ، آلوا على أنفسهم أن يسكتوه بأية وسيلة من وسائل الطعن والاضطهاد والتهديد . فما تراجع ولا رد الاساءة بمثلها ، بل كان يعاملهم معاملة الراعي الشفوق للخراف الضالة :

وهوّن عندي السبّ انّ لبعضهم زغاليل أطفالاً تعيش على سبّي ..

إلى أن أغراهم حلمه بالمزيد من الافتراء واشتروا أقلاماً تعمل على تهديمه كشاعر وكمجاهد قومي وكإنسان نظيف اليد . فكان لهذه الحملة المجرمة أثر بليغ في قلبه وفي شعره . فتارة يلين لهم ويقول :

لو كان يدري حسودي ما أكابده ... في الحق ما أكلتْه جمرة الحسد
إني صعدت إلى مجدي على جبل ... مما تهدّم من روحي ومن جسدي

وطوراً يتشدد في القول :

زعم الأغرار أني شـــاعر ... ضيق الآفاق محدود الحـدود
وستبلى وطنيـــاتي الـتي ... رفلت منها البوادي في بــرود
والتي يحسد هدابُ الضحى ... خيطها المنسول من حبل وريدي
ليت فيهم منصفــاً يخبرهم ... أنني شاعرهم رغم الجحود
قبل أن أجتاز عقداً ثانيـــاً ... زنت جيد الدهر بالعقد الفريد
أيّ فنّ من فنون الشعر لم ... أقرع الأفذاذ منه بشرود ؟
أنا للحب وللحرب معاً ... وقوافيّ لمن شاء شهودي

والقروي لم يغالِ بهذا القول . فلدينا ديوانه يشهد أن العبقرية لم تخنه في معالجة شتى المواضيع ، وان مقومات الإبداع توفرت لديه حتى في المناسبات العادية التي نظم فيها شعراً لا ينحط عن مرتبة شعره العالية . هاكم أمثالاً من شعره الذهبي يسمّيها في ديوانه « الموجات القصيرة » :

ان الاشحاء اشحى الناس قاطبة ... إذ طالما نقصوا الدنيا وما انتقصوا

لم يمنحوا الناس يوماً بعض ما جمعوا
إلاّ لكي يمنحوهم كل ما جمعوا

* * *

استق الحكمة لا يشغلك من أي ينبوع جرتْ يا مُستقي
فشعاع الشمس يمتصّ الندى من فم الزهر ووحل الطرقِ

* * *

يا من يلوم ابن التراب لشغله بالفلس عن شعرٍ وعن شُعّار
أرأيت في المرعى حماراً عاقلاً يلهو عن الاعشاب بالازهار

* * *

اغضبْ صديقك تستكشفْ سريرته
للسرّ نافذتان : السُّكْر والغضب
ما صرّح الحوضُ يوماً عن قرارته
من راسب الطين إلاّ وهو مضطرب

* * *

يا من قبضتَ عن الندى يمناكا من حبة القمح اتخذ مثل النـدى
هي حبة أعطتك عشر سنابـلٍ لتجود أنت بحبة لسـواكا
وكأنما الشقّ الذي في وسطهـا لك قائلٌ : نصف يخصّ أخاكـا

إقرأ وصف شعوره نحو الخصوم الذين يكرهونه على مصارعتهم :

أرمي بكعب السمهري صدوركم وسنانه بيدي يقطّـع أنملـي
أبكي وأضحك للعذاب كمرضع شدّ الوليد بشعرهـا المسترسل

إن تشبيه الشاعر المفترى عليه بالأم التي تحنو على رضيعها بينما هو يعبث بشعرها عبثاً موجعاً ، لهو من أرق وأنبل الصور الشعرية .
واسمعه ينتقد الموضة عند السيدات :

لحدّ الركبتين تشمّرينـــا   بربكِ أي نهر تعبرينـــا ؟
كأن الثوب ظلٌ في صباح   يزيد تقلصاً حيناً فحينــا
فيا ليت الحجاب هوى فأمسى   يردّ الساق عنّا لا الجبينــــا
فان الساق أجدر أن تُغطّى   وإن الوجه أولى أن يبينـــا

أو يفاخر بأنسبائه :

نسب على الدنيـا أتيـه بـه   عجباً على عجب على عجب
أوَ يستحي بأبيـه مَنْ دمـه   دم شاعر وخليفة ونبـي ؟

كان على القروي أن يكافح في ثلاث جبهات ويتلقى بصدره نـار الأباعد من دعاة الاستعمار ونار الأقارب من مأجوريهم العرب ونـار المعارك في سبيل الرزق الحلال . وقد استفاد الشعر من هذه الأزمات لأنها أوحت إلى الشاعر ابتكارات في تصوير حالته النفسية وحالة الجالية التي يعايشها . قال يخاطب البقر :

طوباك سارحة في القفر طوباك   إن كنت أحسد مخلوقاً فإيّاك
تشكين فصل الشتاء البارد القاسي   ماذا أقول أنا في عشرة الناس ؟
نامي على الثلج ، نامي ليس من بـاس   فالثلج غير فؤاد دون إحساس
وإن تكن هاطلات الغيث تغشاكِ   طوباك ، فالقطر غير الدمع ، طوباك

ويلتفت إلى زملائه القدامى في عهد « الكشه » وقد أصبحوا مـن أصحاب الملايين فيعظهم بقوله :

مررت بأترابيَ التاجريـــن   فلم ألق إلا العبوس الوقورا

فملت إلى الحقل حيث الصغار | تناغي الطيور وتجني الزهورا
فهل صار كل رفاقي كهولاً | وهل أنا وحدي ظللت صغيرا ؟
فأسمعني الطير عند الصباح | جواب الطبيعة لي تنشد
بنيّ . ولدتُك طفلاً جديداً | فقل للرفاق الألى تعهد :
لقد ملأ الأرض أولادكم | وأنتم إلى الآن لم تولدوا

أما رجال السياسة المتصدرون في المجلس النيابي المزوّر في بيروت وهم دمى في قبضة المفوض السامي الفرنسي ، فلم يرأف شاعرنا بهم :

وطنٌ تجبرت العبيد لذله | واذلّ منه رئيسه والمجلس
جاد المفوّض بالعَليق فحمحموا | وثنى عليهم بالشكيم فأسلسوا
لا تسلقوهم بالملام فانهم | جلسوا.وهل نُخبوا لكيلا يجلسوا
في كلّ كرسيّ تسنّد نائبٌ | متكتّفٌ أعمى أصمّ أخرس
فكأن ذاك البرلمان خريبة | منبوشةٌ ،وهم الرسوم الدرّس

كل هذه الروائع ، على أهميتها ، لا تمثل وجه القروي مثلما يمثله شعره الوطني في فصول الأعاصير والزمازم من ديوانه . في هذا الشعر تتجلى روح المجاهد القومي الجبار الذي كانت تنتظره العروبة ليبعث فيها روح النخوة ويدوّن بطولاتها ويخلّد ضحاياها ، بشعر تخاله تضرج بدماء الشهداء وتضمخ بعبير أرواحهم . مَن يتتبع قصائده الوطنية يقرأ تاريخ النكبات التي حاقت بالأمة العربية منذ الحرب العالمية الأولى إلى اليوم ، ويشهد سلسلة التجارب التي مرّ بها الشاعر القروي وهو الذي يعتبر جرح الأمة جرحه وبؤسها بؤسه . لقد دوت صرخاته في مسمع الأتراك على أثر المظالم والمناكر التي اقترفوها في لبنان أثناء الحرب . وفي مسمع الانكليز الذين تحولوا بعد الحرب من حلفاء إلى أعداء يتآمرون مع دول

الغرب على الشرق العربي . وفي مسمع فرنسا التي بترت اللواء من جسم سوريا وراحت تقصف دمشق بالمدافع وتهاجم جبل الدروز بالتنك . وفي مسمع امركا خالقة اسرائيل وذابحة فلسطين . وفي مسمع العرب أنفسهم كلما توانوا في الجهاد أو خضعوا للأجنبي أو تاجروا باسم الوطنية . لقد أشرع علم الثورة على الاستعمار منذ عشرين عاماً ولا يزال يثيرها حرباً شعواء في سبيل إنقاذ فلسطين .

إن نكبة فلسطين في نظره لا تماثلها نكبة لا في الأرض ولا في السماء . كل خطب مهما فدح يهون بالنسبة اليها . وكل إنسان عربياً كان أم غربياً لا يحزن ولا يغضب ولا يثور فقد تجرد من كل شعور وكل إنسانية وكل دين .

القروي يترصد الأحداث السياسية في وطنه ويخزن تأثيراتها في صدره إلى أن يدعى للكلام في حفلة فينفجر المرجل وتطير الشظايا إلى رؤوس الخانعين والخائفين . ولما كان شعره يتجاوب مع عواطف المخلصين من أبناء الجالية ، وكانت دعوته تذكي الحماسة في الصدور وتنتزع من السامعين تصفيق الاستحسان ، قام حسّاده يؤولون اندفاعه بشهوة الظهور وحب الشهرة من طريق الشعبية الرخيصة ، فلم تحتمل أعصابه هذه التهمة بل أطلق العنان لغضبه وراح يكيل للمفسدين بدل الصاع صاعين ، في كل مناسبة أتيح له فيها الكلام . وكنا نود لو أغضى كعادته عن التحدي ولم ينزل إلى مقارعة أخصام ليسوا من أكفائه . ولكنه يبرر حملته عليهم بمثل من سيرة المسيح . فالمسيح ندد بالأشرار في انجيله وسماهم أولاد الأفاعي كما سمى الفريسيين القبور المكلسة . والقرآن الكريم ذم أبا لهب وأوعده ناراً ذات لهب . وجاء في الحديث : « ان من لم يحمد عدلاً ويذم جوراً فقد جاهر الله بمحاربته » .

كان الطائفيون المتعصبون أقسى المتهجمين عليه . تذرعوا بأقواله عن النبي محمد وعن دين الاسلام للطعن في عقيدته الدينية وللتشهير به كعدو

للمسيحية ، كافر بانجيلها وتعاليمها . قال القروي وليته ما قال ولا فتح الباب لهذا الجدال :

إذا حاولت رفع الضيم فاضرب بسيف محمد واهجر يسوعا
فيا حملاً وديعاً لم يخلّف سوانا في الورى حملاً وديعا
غضبتَ لذات طوق حين بيعت ولم تغضب لشعبك حين بيعا
ألا أنزلت إنجيلاً جديداً يعلّمنا إباءً لا خنوعا
أجرنا من عذاب النير لا من عذاب النار إن تكُ مستطيعا

هذه نزوة من نزوات الغضب الشريف لأمة ديست كرامتها واغتُصبت حقوقها وتشرد أبناؤها وتهادرت دماؤها . وكم فقد الرجل الرصين الحكيم رصانته ورويّته في ساعات اليأس فتمادى في التعبير عن نقمته وحفيظته . أما جدّف أيوب على ربه وهو من الأتقياء الصالحين ؟ لم يبرأ الرسل والأنبياء في ساعة من ساعات التخلي ، من الضعف البشري .. ولكنه ضعف عارض يزول حالما ينفس المظلوم المكبوت عن ثورة نفسه ، ويبقى السمو السماوي الأصيل .

إن دعوى القروي على المسيح وتعاليمه فيها النية الحسنة والغرض النبيل ولكن ليس فيها شيء من الوجاهة ولا من المنطق . فالشعوب المظلومة في العصر الذي نعيشه هي تلك التي تضرب بسيف النبي محمد ، بينما الشعوب المتحكمة برقاب العباد هي تلك التي تعلمت الخنوع من الإنجيل ، والوداعة من السيد المسيح . والدين ليس مسؤولاً عن هذه الحالة بل المسؤولية كلها تقع على المتدينين الذين ناقضوا بسلوكهم تعاليم دينهم . فلا المسلمون انصرفوا بكليتهم للجهاد كما أمرهم القرآن ، ولا المسيحيون عملوا بشريعة الحب كما أوصاهم المسيح . وكان أجدر بالقروي أن يعالج القضية من الناحية النفسية القومية لا من الناحية الدينية ، لأن استبدال شريعة بشريعة

لم يحلها في الماضي ولن يحلها في المستقبل . ويا ليته تشبّه بأمير الشعراء شوقي في مناسبة الفظائع التي ارتكبها أهل البلقان في السكان المسلمين . فهو لم يلم المسيح بل لام أتباعه السفاحين :

يا حامل الآلام عن هذا الورى كثرت عليه باسمك الآلام

ويعود القروي إلى ذات الموضوع ولكن في شكل عتاب واسترحام ، فيقول للسيد المسيح :

أنت يا ابن الله سوريّ صميم أفناسٍ يا ترى أم تتناسى ؟
أنت إنسانٌ جعلناك إلهـاً أفلا تجعلنا في الناس ناسا ؟

هنا يذكّر الشاعر يسوع الإنسان بوشائج الرحم التي تربطه بوطنه السوري ويناشد يسوع الاله بأن يستعمل قدرته لإنقاذ شعبه من الهلاك حتى يظلوا ناساً بين الناس . والفكرة جريئة طريفة لا يشوبها إلا كلمة « جعلناك » التي جاوزت المعنى الذي يقصده الشاعر . كل هذا لا يجوّز للمتعصبين اتهام القروي بالكفر . ليتهم مثله في نقاوة الضمير ومتانة الايمان ومحبة البشر وإنكار الذات وممارسة التقوى . دينه جوهر لا قشور إيمان بالله لا يتزعزع . وفاء للوطن . وتقديس للقرابة والصداقة . وصدق في المعاملة . وشعره يطفح بهذه المبادئ :

اني على دين العروبة واقفٌ قلبي على سبحاتها ولساني
إنجيليَ الحبّ المقيم لأهلها والذود عن حرمانها فرقاني

* * *

علّقت فوق سريري رسم والدتي تعويذة ليَ من أشباح أتراح
فإن تبدّى على بلّوره غبش كما يُغشي دخان وجه مصباح
وكلت أطراف منديلي به فجـلا وشفّ عن باسم كالفجر وضاح
ورحت أغمض أجفاني وافتحها على رضى الأم، إمسائي وإصباحي

* * *

ربي ، لوجهك رسم كدت أنكره مما تلبد في قلبي من السحب
معلّق بين أضلاع مهدّمة مثل الثريا بسقف المنزل الخرب
أجلوه من خارج والشر يحجبه من داخل بضباب الشك والريب
فامسح ضميري بمنديل الصلاح لكي أرى وراء شغاف القلب رسم أبي !

هذا هو الدين أعمق الدين . أن يحب الإنسان ربه محبة الولد لأبيه وأن يعبده في وجه أمه وأن ينزله في حبة قلبه :

ولو يا رب في اليوم العظيم تلوتَ عليّ حكمك بالجحيم
فلي أمل بأن ستعود يوماً وتصفح في جهنم عن اثيم
وقلبك يستحي من قلب أمي

ويدين بالتوحيد والتوفيق بين عناصر الأمة العربية . قال في عيد الفطر :

بلادك قدّمها على كل ملّة ومن أجلها أفطر ومن أجلها صم
لقد صام هنديّ فروّع دولة فهل ضار علجاً صوم مليون مسلم
هبونيَ عيداً يجعل العرب أمة وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام على كفر يوحّد بيننا وأهلاً وسهلاً بعده بجهنم

من يسمع هذا الشعر المتأجج بنار الغيرة القومية المترفع عن النعرات المذهبية يدرك سرّ شيوعه وشهرته وتأثيره البعيد المدى . وقد يكون بدد مخاوف الدكتور محمد حسين هيكل الذي قال عام ١٩٣٠ : « يجب أن يتعاون المجدد والمقلد منا . وإلا بقي الفوز في جانب السوريين المتأمركين، وامحت الثقافة الإسلامية » . فهذه مسألة أقفل باب البحث فيها منذ ربع قرن ، أي منذ ما شاع وذاع الأدب المهجري . واتضح ان الثقافة الغربية لم تؤثر في «السوريين المتأمركين» قدر ما أثرت فيهم الثقافة الاسلامية التي تشربوها قبل هجرتهم ، فتجنّد شعراؤهم للدفاع عنها في بلاد مسيحية ، لا تحدوهم رغبة في ثواب أو رهبة من عقاب .

قلت حول هذا الموضوع :

دعوا سنّ الشرائع والفتاوى   وسنوها سيوفاً للجلاد
أقلُّ الدين فقهٌ واجتهاد   وأكثره استباق للجهاد

والجديد في حياة الشاعر القروي ان الحكومة السورية دعته لزيارة سوريا ضيفاً عليها فلبّى الدعوة عام ١٩٥٨ وختم بذلك حياته المهجرية قائلاً :

بنت العروبة ، هيئي كفني   أنا عائدٌ لأموت في وطني
أأجود من خلف البحار له   بالروح ثم أضنّ بالبدن ؟

وكان وصوله عن طريق اللاذقية وحلب وحمص مصحوباً بوفد الحكومة الرسمي وحلّ في دمشق بين مظاهر التكريم والتعظيم شهوراً عديدة . وكانت آخر حفلة تكريمية على مدرج الجامعة السورية وفيها أنشد :

حتّامَ تحسبها أضغاث أحلام   سبّح لربك وانحرْ . أنت في الشام

لم يأذن الله يا بوق العروبة ان تقضي الحياة غريباً بين أعجام
سيّان بعد التلاقي يا بلاديَ لو خلدتُ أو حكمَ الطاغي باعدامي
أما رجعتُ ؟ ألم أنشق هواك ؟ ألم ألثم تراكِ ؟ ألم أسمعكِ أنغامي
أحسّ بالراحة الكبرى كأنيَ قد طرحت في البحر عني كلّ آثامي

وفي عام ١٩٦٠ حضر إلى لبنان ووقف خاشعاً على اطلال منزله في قرية البربارة وبعد ان أمضى أسبوعاً في ضيافة غبطة البطريرك المعوشي في بكركي أقام شهراً في بيروت لاستقبال المسلّمين المعجبين ثم عاش ما بين أهله في البربارة . وزار القاهرة ولاقى التكريم المأمول بل أكثر من المأمول لأن حكومة مصر اشترت منه حقوق طبع ديوانه بمبلغ جسيم يُمكنه من بناء منزل له في قريته . فلما عاد إلى لبنان باشر البناء واستقدم عائلة شقيقه الأصغر من سان باولو وأحيا أمسيات شعرية عديدة في بيروت وأصدر طبعة جديدة من ديوان « اعاصير » وتلقى أوسمة من حكومات البلاد التي زارها فضلاً عن راتب معاشيّ تجريه عليه حكومة سوريا مدى الحياة .

وهو الآن في « الراحة الكبرى » التي نشدها يُكلّل جهاده الطويل بالعزلة الاختيارية ويتعرّف بعد المشيب حياة الاستقرار والطمأنينة التي لم يعرفها في شبابه .

قيصر سليم الخوري

(١٨٩١)

شقيق الشاعر القروي الملقب بالشاعر المدني . هو قيصر سليم الخوري وليد البربارة ، خريج مدرسة صيداء ، هاجر إلى البرازيل صحبة أخيه عام ١٩١٣ ، وهناك انصرف إلى تحصيل الرزق عاملاً متواضعاً في محل تجاري في سان باولو . موهبته الشعرية أصيلة ممتازة ولكن فروض العيش ومسؤولية العيال لم يدعاها تتفتح كما تفتحت شاعرية أخيه القروي . هو ينبوع صاف تجاه نهر أخيه المتدفق ، ولكن عذوبة مائه جعلت منه شاعراً كبيراً وفي ذلك يقول :

بلغتُ لا كتْب عندي استعين بها ما ليس يبلغه المقتاتُ بالكُتبِ

قد استشهدنا بشعره مراراً فيما سبق من الفصول ولا نضيف هنا إلاّ القليل من الشواهد .

قال يناجي صيداء :

بين الضلوع مقيم طاب منزلـه · أهملت قلبي وقلبي ليس يهمله
صيداء رفقاً بناء ما له سبب · غير التعلل لو يجدي تعلـــله
قد كان ينفض رمل الشط أخمصه · واليوم كم يتمنـاه مقبّـله
لو أن بحرك يا صيداء أغرقـه · لكان أرحم من دمع يبلـله
ورب جلمود صخر كان يحملني · أمسيت من لاعج التذكار أحمله

وقال يخاطب المهاجر :

تدفّـق الغـــنى · عليك كالميزاب
لو زائر دنـــا · وأبصر البواب
حيّــاه وانحـنى · يسأل باضطراب هل سيدي هنا ؟
بالله مـــا رأيت · في المهجر الخلاب
وما ترى جنيت · فيه سوى العذاب
ما أنت إلا ميت · يحمل في كتـــاب عنوانه ياليت !
فإن تسل يا صاح · هل يرجع الشباب
فدونك الإيضـاح · يغني عن الجواب
إن الصبا قد راح · وأقفل الأبواب وضيّع المفتاح.

ومن شعره المؤثر حديثه عن ليلة العيد في بيته :

رأى بُنيّ صغارَ الحي قـد غنموا · في ليلة العيد أشياء وما غنمـــا
فجاء يسأل مالاً لست مالكـه · ولو أتى طالباً روحي لمـا حُرمـا
وعدته وجفوني حشوها أرق · وعداً تعلّق في أجفانه حُلمـــا

لمّا رأت أمّه حالي وحالته   مالت لناحية تذري الدموع دمـا

وقال صادقاً في ظواهر اجتماعية تؤلم كل أديب :

حبّ الظواهر أعمى كلّ باصرة   فقيمة الناس رهن الثوب واللقب
إذا تساوى لباس اثنين ما قدروا   ان يفرقوا بين دجّال وبين نبـي

* * *

إذا رماك خساسُ الناس عن سفهٍ   فوَلِّ ظهرك ما قالوا ولا تُجبِ
فالليث يذخر للأشباه مخلبهُ   ويكتفي لذباب الغاب بالذنبِ

وقال متغزلاً بمصر :

أحببتُ مصر ولم أنقل بها قدمـاً   ولا لمستُ ثراها مرةً بيـدي
إذا أتاحت لي الأيام رؤيتهـا   رقصتُ رغم مشيبي رقصة الولد

فوزي معلوف

١٨٨٩ — ١٩٣٠

فرع باسق من الدوحة المعلوفية أينع قبل الأوان وصوّح في ريعان الربيع . قُدّر له أن يمر بالحياة راكباً « بساط الريح » مستعجلاً الوصول إلى الملأ الأعلى . ترعرع ويفع بين ضفاف البردوني وأكناف الغوطة ، في ظل والده العلامة عيسى اسكندر معلوف . ولكن الطموح غرّر به فهجر الوادي الحالم والجو الباسم إلى أرض المداخن والمناجم ، وراء البحار عام ١٩٢١ . ما ثناه عن عزمه رجاء الأهل ولا إنذار الوجدان :

قسماً بأهلي لم أفارق عن رضى ... أهلي وهم ذخري وركن عمادي
لكن أنفت من الحياة بموطني ... عبداً وكنت بـه من الأسـياد

نحن نتساءل : أحقاً كان فوزي يعيش في دمشق عيشة العبد ووالده قريب منه يبسط عليه رعايته ويظلله بجاهه ويفتح أمامه باب الوظائف في الدولة ؟ بينما أخوه شفيق (أخونا الروحي) يسألنا في رسالة « ما شأن العبودية السياسية برعاية الوالدين أبناءهم وببسطهم عليهم جاههم وفتح

أبواب الوظائف أمامهم ؟ هل ذلك يُنجي فوزي وأمثال فوزي من عبودية تركية تلتها عبودية الانتداب الفرنسي في بلادنا ؟ »

ونحن نجيب ان السائل على حق من ان بسطة العيش لا تنفي الشعور الاليم بالعبودية السياسية . ولكننا نؤكد انها تنفي الاضطرار إلى الاغتراب فلا يجوز لفوزي أن يقول لأهله عشية هجرته : أفارقكم رغماً عني لأن العيش في ظل الحكم التركي أو الانتداب الفرنسي هو العبودية . وأنا لست عبداً . وأنتم باقون هنا لأنكم عبيد . لقد كان النفور من العبودية السياسية شعوراً عاماً يحسّه شباب سوريا ولبنان كما يحسّه فوزي ، ولكنه لا يرغمهم على الهجرة .. وإلاّ لفرغت البلاد من شبّانها الناهضين ولما بقي واحد من أسرة معلوف في زحلة . إن الفقر المادي متى استعصى علاجه هو الباعث الأقوى على الهجرة . وقد قلنا ان فوزي كان بمأمن منه . والباعث الثاني هو الاضطهاد الشخصي متى طورد المرء بقوة الحكومة الغاشمة أو بنفوذ زعيم زنيم . وهذا لم يحصل لفوزي . يبقى الباعث الثالث وهو الطموح إلى حياة أفضل طموحاً أغرى الكثيرين بالمجازفة وخيّب آمال البعض منهم . أما طموح فوزي فما كان يعرّضه إلى خطر الخيبة لأنّ له في المهجر شقيقين سبقاه (هما ادمون واسكندر) وله رعاية مضمونة من خاله الصناعي الكبير (جورج معلوف) الذي كان يستقدم أبناء أخيه عيسى واحداً بعد واحد ، ويبني بهم دعائم الأدب المهجري من حيث لا يدري ، وله رعاية خاله الثاني الشاعر ميشال نعمان معلوف الذي كان بأدبه وخلقه عاملاً جذاباً كافياً لتبرير هجرة شاعر كفوزي وشاعر كشفيق . نقول هذا نحن الأباعد على ضوء المعلومات الشائعة التي نصدقها ونعتبرها حقائق . ولا نعجب أن اتضح ان الحقائق التي يعرفها الأقارب هي غير ما عرفناه .

تعلّم فوزي في الكلية الشرقية بزحلة ومدرسة الفرير في بيروت . وأول عمل كان إدارة مدرسة المعلمين وسكرتير كلية الطب في دمشق

عام ١٩١٩ ، وكان عاكفاً على الكتابة والنظم فلم يبلغ السابعة عشرة من عمره حتى أصدر مسرحية « ابن حامد وسقوط غرناطة » التي مثّلت فيما بعد على مسرح النادي الزحلي في سان باولو . كتبها نثراً وشعراً بعد أن ألمّ بكل ما كتبه الاسبان حول الدولة العربية في الأندلس ، وهي الدولة التي تتعلّق بها أبصار الأمة العربية اليوم وتتخبط في غصص ذكراها .

وفي عام ١٩٢١ وصل فوزي إلى سان باولو وأسّس فيها النادي الزحلي ، واشترك في إدارة مصنع حرير لخاله جورج معلوف ولاقى من إقبال الدنيا ما يُحسد عليه . لقد اجتمع لديه الثراء والشباب والموهبة والمكانة الاجتماعية . كما اجتمعت على حبّه قلوب الناس لما تحلى به من أخلاق عالية : دماثة في الخلق وعذوبة في القلب وبشاشة في المحيا وسماحة في الكف :

وإذا أراد الله خيراً لامرئ ألقى عليه محبة للناس

وكيف لا يحبّ الناس من يخاطب قلبه بهذا الكلام :

خلقةُ الحب أنت ، كل خفوقٍ فيك حبٌ ، وكل بغضك صفح

من أوائل منظوماته في صباه قصيدة « فؤادي » :

تحملت وقع النوى والصدود لو انّ فؤاديَ باقٍ معي
ولكنه نام في مقلتيك على مضجعٍ بُلّ بالأدمع
وقد كان قبلاً على شفتيك يتمتم تمتمة المولع
تشبث بالثغر فهو عليه كطفل تشبث بالمرضع

فماذا ترشّف من شفتيك فأصبح من سكره لا يعي ؟
أراه هنالك بين الجفون ، فلا تنكريه ولا تدّعـــي
فرعشته داعبت ناظـــريّ ونبضته غازلت مسمعي

في السنوات التسع الّتي قضاها فوزي في ميدان الأعمال لم ينقطع عن المطالعة والنظم بل كان إنتاجه مزيجاً زاخراً بالثقافتين العربية والغربية . ومن العجيب وقد أسلست له الحياة قيادها المادي والروحي أن تتحكم في نفسه كـآبة كثيفة تدنيه أحياناً من ظلام القنوط . بدأت أعراضها في شعر الحيرة الذي نظمه على غرار شعراء الشمال :

كيف جئنا الدنيا ومن أين جئنا وإلى أي عالم سوف نمضي
هل حيينا قبل الوجود وهل نُبعث بعد الردى ، وفي أي أرض ؟

وكان كلما تعمّق في تأملاته زاد توجعاً من عبودية الحياة واشتد طعم المرارة في شعره :

أنا عبد الحياة والموت أمشي مكرهاً من مهودها لقبوره
عبد ما ضمت الشرائع من جور نخط القوي كلّ سطوره
عبد مالي أحظى به بعد جهـــد فإذا بي أنوء من ثقل نيره
عبد اسمي ، ذوّبت روحي وجسمي
طمعـاً في خلوده ونشوره
عبد حبي ، انزلته في فؤادي فكوى أضلعي بنار سعيره

ما كان العيش في بحبوحة من حطام الدنيا ، ليشغله عما يعانيه من ظمأ الروح ، بل كان يرهف حاسة الظمأ فيه :

عشت بين المنى يراود نفسي   خلّبٌ من طيوفها وعقام
أقتفيها وفي يديّ فؤادي   ثم ألوي وفي يديّ حطام !

إلى أن دهمه الداء العياء ، وكأنه كان يتوقعه وينتظر قدومه بدليل ما كتب في مذكراته :

« أتمنى أن يطرحني الدهر عند موتي في حضن الخريف بين اصفرار الأوراق وذبول الأزهار وبكاء السماء . فقد أبسم حينذاك عند عتبة الموت غير آسف على فراق حياة قطعتها في خريف صامت ذاوٍ ، وتركتها في خريف صامت ذاوٍ » .

وما أصدق قوله في وصف نفسه :

وجبينٍ ألقتْ عليه شجون النفس ظلاً من العبوس ظليلا
هو لا يعرف التبسّمَ إلاّ   عندما يستعيد حلماً جميلا

في هذه المرحلة من الحياة لا لوم عليه ولا تثريب ان استسلم إلى التشاؤم وباح بالشكوى الزافرة كما فعل خليل مطران في حالة من المرض شبيهة بحالته . قال :

أنا الحزن مرسومٌ انا السقم ظاهر   انا الحبّ مصدود أنا الألم الراسي

ومن شعره الخالد القصيدة التي عارض بها قصيدة أمير الشعراء في رثاء اللورد كارنارفون مكتشف قبر « توت عنخ آمون » في وادي الملوك حين فتح الناووس فلذعته ذبابة أودت بحياته .

قال شوقي :

في الموت ما أعيا وفي أسبابه　　كل امرئ رهن بطيّ كتابه
أفضى إلى ختم الزمان ففضّه　　وحبا إلى التاريخ في محرابه
وطوى القرون القهقرى حتى أتى　　فرعون بين طعامه وشرابه
المندل الفيّاح عود سريره　　واللؤلؤ اللمّاح وشي ثيابه
وكأن راح القاطفين فرغن من　　أثماره صبحاً ومن أرطابه
بنيان عمرانٍ وصرح حضارة　　في القبر يلتقيان في أطنابه
فترى الزمان هناك قبل مشيبه　　مثل الزمان اليوم بعد شبابه
وتحسّ ثَمّ العلم عند عبابه　　تحت الثرى ، والفن عند عجابه

فعارضه فوزي بقوله :

لا القبر مسحور ولا في بابه　　رصدٌ يذود هناك عن أصحابه
لكن فيه حرمة مدفونة　　هي حرمة المدفون بين رحابه
في مخدع تقف النوائب عنده　　مغلولة ، وتغور تحت قبابه
في ذمة القبر الوفيّ مكفّن　　لا يُستباح قبيل يوم حسابه
فدعِ الدفين ينام ملء جفونه　　في نعشه ، وحذار من إغضابه
حرَمٌ عليك رفاتُهُ فاربأ به　　واربأ بنفسك عن مساس نقابه
إن المغير على القبور وأهلها　　يغدو الردى المحتوم بعض عقابه
ان ينج من صمصامهم وذبابه　　لا ينج من غضب الثرى وذبابه
هذا الدفين وان ثوى ذو صولة　　ما فُلّ سيفٌ زجّ ضمن قرابه

إلى ان يخاطب بني التاميز :

أقلقتمُ في البحر حوت عبابه　　وذعرتم في البرّ قسْوَر غابه

وثللتمُ في الأرض عرش ملوكها ونزعتم في الجوّ حكم عقابه
وسحقتم الشعب الضعيف بجوركم ووضعتم الأغلال فوق رقابه
فدعوا المكفّن آمناً تحت الثرى بعد الجهاد وبعد طول عذابه
أيهان فرعون الكبير بقبره وهو العزيز بملكه وجنابه
أفما رأيت أمامه وحياله حرَس البلاط مدججاً بحرابه
ورأيت (أنوبيس) في ناووسه متحفزاً ، (وأمون) في محرابه
هو صامت ، لكنه في صمته أقوى وأبلغ منه في إعرابه
أعيى الفناء فلم ينله ولم يزل متألق اللمعان نور إهابه
الروح حائمةٌ على تابوته والجسم رطب العود في جلبابه
مضت القرون عليه وهو كأنه بالأمس حطّ هناك يمن ركابه
فترى اللظى متنفساً بطعامه وترى الحباب مشعشعاً بشرابه
وكأنه في قصره لا قبره متربعٌ بالعزّ فوق وثابه
والعلم من اكفانه ، والموت من حرّاسه ، والدّهر من حجّابه

وكان أن هذه المعارضة أحدثت ضجة ليس في المهاجر وحسب بل في جميع الاقطار العربية حتّى قال عنها خليل مطران في مصر : « كأني بفوزي كان حاضراً في وادي الملوك وبشوقي كان غائباً » .

وضجّةٌ مثلها حدثت في البرازيل على أثر قصيدة أنشدها فوزي في النادي الفينيقي قال في مطلعها :

خلّ البداوة رمحها وحسامها والجاهلية نُوقها وخيامها
مضت العصور الخاليات فما لنا نحيا بها متلمّسين ظلامها
ماذا تفيد الشعر وقفة شاعر يبكي الطلول قعودها وقيامها
يرثي ولا طللٌ هناك وإنما هيَ عادة ضمن الحمولُ دوامها

وغاية فوزي هي الدعوة للتطور المناسب للعصر خروجاً على التقاليد القديمة والعادات التي لا تصلح لزماننا . ولكن بعض السامعين حملوا كلامه على غير محمله واتهموه بانكار كل فضل عربي قديم ، فانبرى له الشاعر فرحات بقصيدة شديدة اللهجة يؤنّبه على « انهزاميته » بينما فوزي يسخر ممّن صياحه الحماسي هو كل ما يضحي به في سبيل الوطن :

ودع السياسة حربها وسلامها ... واحفظ لنفسك في الحياة سلامها
شطّ المزار فما صياحك نافع ... شيئاً وقد ألوتْ بلادك هامها
أتكون فارسها وتُحجم دونها ... مستنجداً حورانها وشآمها
والبحر بينك في الجهاد وبينها ... وقّاك نيران الوغى وسهامها
لله من حرب تثير ضرامها ... لترى سواك وقيدها وطعامها

أما فرحات فيقول :

حيّ البداوة نوقها وخيامها ... والجاهلية رمحها وحسامها
حيّتك أشباح القديم وسلّمت ... فمن العدالة أن تردّ سلامها
قد تبلغ النفس الطموح أشدّها ... ويظل يُذكرها الولاء فطامها
لولا الجذور المطمئنة في الثرى ... ما كانت الاغصان ترفع هامها
أما السياسة فهي نفخة مارد ... تخشى ملائكة السماء ضرامها

فنرى ان جوهر الاختلاف هو ان فوزي كان يمقت السياسة ويبتعد عنها بينما كان فرحات يحبها ويغوص في لجّتها بحثاً عن وسيلة ينقذ بها بلاده من حيتان الاستعمار ولومات غرقاً أو افتراساً ، هذا يقول بالحياد الايجابي .. وهذا ينادي بالتطوع للقتال . ومصلحة الأمة العربية هي في هذا الموقف وذاك تبعاً لظروف الساعة ، فلا غالب ولا مغلوب في هذه.

المناظرة بل الرابح فيها هو قارئ هاتين القصيدتين الجميلتين .

كان هذا الشاعر النابغ يعيش بجسمه في دنيا الناس ونظره عالقٌ بما وراء الحياة ، وروحه تتحفز إلى الوثوب نحو عالم الرؤى والأحلام ، برحلته التاريخية « على بساط الريح » ، يشرّق ويغرّب في الأجواء ويصف بألوان ساحرة جمالات الشرق الروحانية ، تقابلها الظواهر المادية من مدنية الغرب . وقد لاقت ملحمته تجاوباً قوياً عند قراء العربية وأثارت اهتمام الأوساط الاسبانية فأصبحت موضوعاً للدراسات الأدبية والاطروحات في أكبر الجامعات .

يقول فرنسيسكو فيلاسباسا ، أمير شعراء الاسبان ، في مقدمة كتبها لهذه الملحمة :

« في وسط ما يصمّ الآذان من جعجعة الهذيان الأدبي وما حوى من مساخر كمساخر المرافع ومن توافه كتوافه الصور المشبحة ، يتصاعد من الشرق صوت رخيم هادئ ، يُسكت إلى لحظة تلك الحناجر الثرثارة المعربدة ، حاملاً إلينا بألحانه بلاغاً من عالم الشموس نفضت عليه الشمس شعاعها .

« إن موازنة الشاعر فوزي لم تختل بسبب هذا التصادم بين عالمين متعاكسين ، بل استطاع ان يُبدع أروع ما في الشرق من جمال وقوة وخيال . وفوزي كأنبياء التوراة علّق ربابته على صفصافة لتعزف على هوى الريح ناطقة بما في لغة الطبيعة من نبرات خفية تهمس بها الالوهة » .

اسمعه يصف الطائرة :

حمحمت تضرب الريح بنعليها فشقّت إلى السماء سبيلا
ترتدي من دخانها بردة الليل وتُلقي عن منكبيها الأصيلا

وعليهـــا من الشرار نجومٌ عقدت حول رأسها اكليلا

* * *

كل ما بي في الكون اعمى ومنقاد على رغمه لأعمى نظيره
غير روحي ، فالشعر فكّ جناحيها فطارت في الجو فوق نسوره
تنتحي عالم الخلود لتحيـــا حرةً بين روضه وغـديره

هذه الملحمة هي الأثر الخالد من أدب فوزي معلوف ، أضاف حلقة ذهبية إلى سلسلة المفاخر في الأدب العربي لأنها جمعت إلى سمو الخيال وسمو الهدف روعة الشعر العالي . وقد ترجمت إلى سبع من اللغات الحية : الاسبانية والانكليزية والفرنسية والروسية والرومانية والالمـانية والبرتغالية .

وكان قد شرع بنظم ملحمة جديدة بعنوان « شعلة العذاب » وقد نظم أناشيدها الأولى بتوفيق عظيم في التصميم والبيان ولكن الوفاة أدركته قبل تمام النشيد السابع الذي افتتحه بهذين البيتين :

مرحباً بالعذاب يلتهم العين التهامـاً وينهش القلب نهشـــا
مشبعاً نهمه إلى الدم حـــرّى ناقعاً غلةً إلى الدمع عطشى

وعلمنا ان له آثاراً أخرى لم تُطبع ولم نقع عليها . وهي ثـلاث مجموعات شعرية (أغاني الأندلس ـ شعره الوطني ـ شعره الفكاهي) وثلاثة كتب (صفحات الغرام ـ على ضفاف الكوثر ـ الحمامة في القفص) وكلها تعطي فكرة عما كان مقدّراً لفوزي من التسامي إلى قمة الشعر الحديث ، لو أمهلته المنية .

في حديقة عامة من مدينة زحله ينتصب تمثال نصفي من النحاس نحته مهاجرو العرب في البرازيل وأهدوه إلى عروس البقاع تخليداً لذكرى ابنها العبقري ، وتجسيداً لحسرة المهاجرين على النجم الذي هوى والبرعم الذي ذوى .

شفيق معلوف

(١٩٠٥)

شاعر عبقر — وليد زحله ، جارة الوادي الأغن الشادي . سليل الأسرة المعلوفية العريقة في العلم والأدب . ابن العلامة عيسى المعلوف وشقيق اسكندر وفوزي ورياض . تخرّج في الكلية الشرقية في زحله ثم انتقل إلى دمشق وحرّر في جريدة « ألف باء » مدة ثلاث سنوات ، لم ينقطع في خلالها عن نظم الشعر . وقبل أن يغادر دمشق متجهاً إلى المهجر عام ١٩٢٦ أصدر ديوانه الأول « الأحلام » . ومنه أطلت شاعريته ، إطلالة حيرى ، لا منطلقة إلى الآفاق البعيدة ، ولا راكنة إلى الحياة الوادعة في غوطة دمشق . وكان من حظ المجتمع العربي في البرازيل أن يختار مدينة سان باولو ميداناً لنشاطه الأدبي والاجتماعي . كما كان من حظ شفيق أن يجد فيها ميدان العمل التجاري مهيأ له ، على صعيد عال ، في المصانع التي أسسها خاله المرحوم جورج معلوف في أكثر الظروف ملاءمة لصناعة الحرير ، فازدهرت ودرّت الأرباح الطائلة على صاحبها وعلى أنسبائه .

ما عرف شاعرنا حياة المشقات في دار الاغتراب إلا بشعوره مع زملائه وبتضامنه روحياً معهم في عذاباتهم . فاختلفت سيرته المحفوفة بطوالع

السعد عن سيرتهم المحبوكة بالمآسي . على أن شكواه من وحشة الغربة لم تختلف عن شكواهم ، ولا حنينه إلى أرض الوطن عن حنينهم . ومن كان له من رقة العاطفة وسمو المبادئ ما لشفيق لا تستغرب منه هذه الظاهرة مهما أوغل في الماديات واستمتع بالطيبات في دنيا المهجر . أما ما يستغرب منه فهو مشاركته للشعراء المقهورين — كالقروي وفرحات وعريضة — في النقمة على البشر وفي التذمر من أحكام القضاء . كان لم يزل في دمشق الشام ، وفي عمر الورود ، عندما بدأ بالضرب على أوتار الكآبة والقنوط . جاء في ديوان الأحلام قوله :

إلهي ، سألتك تدمير هـذا	الوجود وتحطيمه بيـديك
ألست ترى في الحياة جموعاً	تقرّح أعمالهم ناظريـك
فأفنِ الوجود وخذهم اليك	وإلا فيا رب خذني اليـك

وما استقر في المهجر ، موفقاً في شبابه الريان ، موفقاً في أعماله التجارية ، موفقاً في زواجه السعيد من سيدة هي إحدى مفاخر العرب ، في الأدب والحسب ، حتى بدأ بالشكوى من قسوة الحياة وجفافها :

أبيت وللفولاذ حولي جبابر	حلاقيمها غصت بخيط معقـد
فأين مجال الوحي منها وشدقها	يلوك حديداً تحت ناب محدد ؟

سامحه الله ! لو لم يكن في المصنع الجبار مجال للوحي لما فتح عليه بهذا الوصف الواقعي البليغ . لم تقو الآلات الفولاذية بحلاقيمها وأنيابها على إخماد شاعريته المتوقدة ولا قطعت خيوط الإلهام في قريحته . لقد كانت مخيلته تتمخض بملحمة عبقر بينما كانت الآلة تضج حوله وتلوك الحديد . ولعلّ الجوّ القاتم الذي ساد الملحمة منبثق من جو المصنع الذي

ولدت فيه . ها هو يملي خواطره على جن عبقر ، فتسمعها تقول ما أراد الشاعر أن يقول :

ويحك يا إنســان ألقِ عصا سحرك
ذعرت فينا الجــان فعذن بالشيطان من شرك

* * *

يا أيها الهائنــون برؤيـــة الأسحار
والمالئون العيـون ببهجة الأنوار
ما كنتمُ تخبطون في لجة الآثام
لو أنكم تبصـرون مثلي في الظلام

* * *

ومن تكن حالته حــالتي لم يستعض بالسيء الأسوأ
ماالفرق في نومي وفي يقظتي وكل ما في يقظاتي رؤى ؟

* * *

وكم نرى في الأرض من أغبياء يجرون كالعميان خلف القَدر
وفوقهم يلمع سيف القضـاء وتحتهم تفتح فاها الحفـَر

* * *

عرفنا المرحوم فوزي كارهاً الحياة لما قاساه من وطـأة المرض الذي صرم حبال آماله ثم أودى بحياته ولما يزل في عنفوان الصبا . فكان ليأسه من الشفاء صدى في شعره الحزين . ولكننا لم نعرف سبباً لتشاؤم شفيق ، وهو الذي ولد وعلى أعطافه رداء النعمة ؟ أيكون اتخذ من الشكوى تعويذة للنعمة من عيون الحاسدين ؟ أم هي طبيعة في الشعراء المعاليف تساوى فيها

الإخوان الثلاثة ، فوزي وشفيق ورياض ؟ حتى هذا الأخير ، الذي ساح في البرازيل مستنزهاً وعاد إلى كوخه الأخضر في وادي زحله مستروحاً ، أنطق شعره بالألحان الباكية بين سكرات المتعة الجسدية . نستشهد بقوله — وقد جرد من نفسه شاعراً يخاطبه :

ولد الدمع في جفونك لمّا نظرت مقلتاك نور صباحك
رافق الهم عمرك العمر طفلا أنت تبكي ودهرك الدهر ضاحك

لا شك أن احتجاب وجه فوزي الذي بكاه كل من عرفه جرح قلوب أشقائه في الصميم وظلل بالكآبة جو العائلة ، وأن فوزي وشفيق اللذين عاشا سني الحرب العالمية الأولى في الوطن وشهدا المظالم والمجازر والمجاعة والخراب وهما في سن الحداثة بقيت في نفسيهما آثار تلك الويلات ، وانطبع في شعرهما بعد ذلك دخان الأيام السود . ولكن ذلك لا يعني أن الدمع وُلد معهم في جفونهم وأن الهمّ لازمهم منذ عهد الطفولة .

في الثلاثين السنة التي قضاها شفيق معلوف في سان باولو ، تبلورت النهضة الأدبية في جنوب امريكا وارتكزت منذ عام ١٩٣٢ على مؤسسة ثابتة هي العصبة الأندلسية التي يتولى شفيق رئاستها إلى اليوم ، وعلى أداة صالحة لنشر الأدب العربي هي مجلة العصبة التي رفدها شفيق بعلمه وأدبه وماله طيلة خمسة عشر عاماً . آخى الأدباء من مختلف الطبقات الاجتماعية فتعززت مكانتهم وانتعشت معنوياتهم . ورأوا فيه خير الخلف لخاله ميشال رئيس العصبة الأولى . كتب عنه الأديب توفيق ضعون ، وهو من معاصريه ، هذه العبارة : « لو كان الأغنياء كصاحب عبقر في سماحته وحبه للخير لحمِد المال وأصبح الأغنياء معبودي الفقراء وأصحاب الحاجات. وحبذا لو يكثر بيننا المقتدون به والناسخون على منواله . انّ نكتة هذا الزمان ليس عبقر الكتاب . بل مؤلف عبقر » .

أدب الشاعر شفيق ينمّ على ثقافة واسعة . وعليه تصدق نظرية الدكتور مندور القائل ان الثقافة تشع في ألفاظ شعراء المهجر وانّ خلف كل جملة ثروةً من التفكير والإحساس .

هو « دودة كتب » جَلِد على الدرس والتمحيص وعلى استقراء الأخبار في بطون الأسفار . وقف على آداب الأمم الراقية وألمّ بتواريخ الأمم المنقرضة وانكبّ باهتمام خاص على دراسة أطوار الحياة عند الشعوب فبعد أن نشر ديوانين من الشعر الوجداني الفني « لكل زهرة عبير » و « نداء المجاذيف » استهوته الأساطير القديمة لما فيها من المجالات لانسراح الخيال ولاقتباس الحكمة . وراح يروّض شيطان شعره على محاورة الجن بلغة الضاد . فكانت ملحمة عبقر .

يعلم الله ما تقاضته هذه الملحمة من جهود الشاعر ونرجح انه قصر عليها همه في السنين العشر الأولى التي قضاها في المهجر . فصدرت عام ١٩٣٦م بمقدمة وستة أناشيد ثم اتسعت المقدمة وزادت الأناشيد إلى اثني عشر في طبعة ثانية صدرت عام ١٩٤٩ فكانت فتحاً جديداً في الأدب العربي ، شغل الأوساط الأدبية في الوطن واعتبره المهاجرون من أهم الأحداث الأدبية التي جرت في محيطهم .

عمل جبار أجمع النقاد على الإعجاب به إلاّ واحداً منهم هو الأستاذ مارون عبود الذي لم يجد في الملحمة غير « الشعر العادي والقصة المملة » وقد تعجب من عناية شاعر العاطفة بالملموسات وقال إن الشرق متخم بالأساطير الخرافية حال كونه مفتقراً إلى حقائق تساعده على حفظ كيانه .

والحقيقة هي أن الشرق العربي في غنى عن بعث الأساطير في ثوب من الأوزان والقوافي يستنفد نسجه قوى الناسج ويصرفه عن حياكة ما هو أجمل وأزهى من أثواب الفن لخواطره وأحاسيسه . لقد فرض الشاعر على نفسه أشق المهمات في وصف الأنياب الكاشرة والمحاجر الغائرة

والفكوك المتطايرة . بعد أن أوفى على القصة بمقدمة نثرية ، جامعة رائعة ، في ١٣٥ صفحة ، أدت الغاية التي توخاها من احياء القصص القديم .

أما أن يكون شعر الملحمة عادياً ، فهذا بعيد عن الإنصاف . لأن الشعر العادي يعجز عن تصوير دنيا عبقر كما صورها شفيق بتوفيق ما بعده توفيق « دنيا هازئة ، مدمرة ، ساخرة بالإنسانية ، قاذفة بالحمم » (تعبير موسى كريم) . وليس عادياً الشعر الذي يصف الجنّي هكذا :

في فمه من سقر قطعـة ... منها يطير الشرر الثـائر
كـأنمـا محجره كوّة ... يطل منها الزمن الغـابر

ولا هذا الشعر الذي يلتقط همس الجماجم في القبور المقببة :

أحلامنا نحن فقل لـلألى ... شادوا لنا الأنصاب إكبارا
أحلامنا كنّ لطافـاً فلا ... تُصيروا الأحلام أحجارا

إن شكا شعر الملحمة من شيء ، فمن جهامة الموضوع ومن جفاف القصة ومن تمرد الوقائع على الطاقة الشعرية . فإن دانت لقدرة الشاعر — وهي قدرة عظيمة حقاً — دانت تحت عوامل الضغط والإكراه، ولاحت على جبينها تجاعيد وعلى ظهرها أخاديد . هذه الصعوبات لم تعترض المرحوم فوزي في ملحمة بساط الريح . فجاء شعره في ملحمته أسلس دفقاً وإن كان أقل عمقاً من شعر أخيه في عبقر .

فضل شفيق في عبقر أنه عجن المادة الشائكة بعصير الخيال فلانت واختمرت واكتست بألوان تلائم عنصرها . تقول أديبة البرازيل السيدة انجال عون شليطا : « إن شفيق معلوف هو كبرياء الشعر العربي في المهجر وفي كل قطر ترتفع فيه راية الأدب » . لم يقتصر على وصف

المشاهد – وهو الوصف الذي لا يُبارى – بل انتهج في الوصف الطريق المؤدي إلى باب العبر والحكم . وعلى كونه شاعر الفكرة ، لم تُشب تعابيره برودة المفكرين بل نفخ فيها حرارة الحياة ونفحة الفن . ذلك انه انقاد إلى خياله أكثر مما أصغى إلى إملاء الأساطير فوضع على ألسنة الجان عظات فلسفية تحيّر الانس . وقد أوضح أسلوبه في مقدمة الملحمة حيث قال : « إن الأساطير التي لا ترمز إلى فكرة ، خلقنا لها الفكرة التي نخالها صالحة . وما كان منها ذا رمز ، جلونا رموزه وتبسطنا في تصوير مراميه » .

في عبقر مواكب مهيبة ، أضفى عليها الفكر النفاذ والخيال المحلّق والصناعة البارعة روعة وجلالاً وفخامة تملأ العين . ولكنها تمشي بخطى عسكرية في ساحة تدريب مصطنعة . فما أبعدها عن وثبات الخيال العفوية وإشراقات الجمال البكر وهمسات الشعور المرهف التي تتردد في شعر شفيق العاطفي آخذة بمجامع النفوس !

حالما خرج شاعرنا من جحيم عبقر ، كما خرج قبله دانتي مطمئناً إلى خلود رسالته ، رجع إلى قوارير الطيب المخبوءة في خزانته واستلّ منها ما عطّر أجواء الأدب المهجري عام ١٩٥١ في ديوان « لكل زهرة عبير » وأعاد الكرّة في العام التالي فنسل من قيثارته وتراً ساحراً غنى لنا عليه « نداء المجاذيف » فحمدنا إلى الله عودة الشاعر إلى سجيته ، عودة الابن الشاطر إلى بيته .

لا تتجلى شاعرية شفيق ، كاملة الملامح ، إلاّ في الشعر العاطفي . لقد أبدع في النواحي الأخرى ، كالوصف والقصص والأمثال . وسبق لنا أن أتينا على شواهد من شعره في هذه الأبواب في معرض الكلام عن المعجز في الشعر المهجري ، ولمحنا في تلك الشواهد بوارق تفكيره ووميض ابتكاراته . أما في شعر العاطفة فاننا نلمس قلبه المتدفق رقة وحناناً وشعوراً سامياً ، ونحس في أعماقنا ما في أعماق قلبه . إنه في الشعر

الذاتي غير ذلك الرسام الماهر الذي يتأنق في اختيار الألفاظ وتنضيدها ليصور بها حركات كلب الصيد وخطوات ساعي البريد :

وطني موطن الغريب ولا أملك ... منه حتّى الحصى والترابا
ورده في فم الدخيل فما ... يممت ورداً إلا وجدت سرابا
ما لناب يغالب الجسم فخر ... بل لجسم يغالب الأنيابا

* * *

وطني ما رشفت وردك إلا ... عاد عنه فمي بحرقة صاد
في قلوب المغرّبين جراح ... حملوها على الجباه الجعاد
لا تلمْهم. فيوم هجرِك كانوا ... وعذارى العلى على ميعاد
يوم دقوا سواحل الشرق بالغرب ... ولم يهدهم سوى العزم هاد

* * *

واهاً له ، مهبط إلهامي ... هل يا ترى يوماً اليه أؤوب
أنبش في الضفة أحلامي

أم أن يا قلبيَ عند الغروب ... أقدام غيري فوق تلك الدروب
قد طمست آثار أقدامي ؟

* * *

وأنكُت الرماد في الموقد
لعلني ، إنْ قلّبته يدي
أرى بصيصاً لزمان مضى ..

* * *

وكثيراً ما نسي الشاعر نفسه واتجه بعاطفته نحو اخوانه المغتربين كلما

شاهد أفواجهم تتالى على المهاجر فتأخذه الشفقة حيناً ويملكه الزهو أحياناً:

در مع الدهر خلف شعب شرود ملكنا الضخم خلف كل الحدود
يوم سدّوا عليه للسجن بابا شقّ بالمنكبين باب الخلود

* * *

مجاذيف عبر اليمّ طاب لها صدى يرجّعه صفق على الموج هادئ
متى رحن يشققن العباب تصاعدت من القعر تجري خلفهن اللآلئ
يدفّعن فتياناً تذرّيهم النوى على كل أفق والرياح تناوئ
فوالله ما أدري ، أعند وداعهم تئنّ الصواري أم تئنّ المرافئ
أطلوا بوجه من كوى السفن واجم كأني بهم دمع بكته الشواطئ

هذا شعر يحرك القلب ويلهب الشعور . نبرات صادقة وخيالات رائعة . جميع شعراء المهجر رددوا شعر الحنين ولكن قلّ فيهم من جارى شفيق في ابتكار معان جديدة له وفي تطويع الألفاظ لما يريده من أشكال وألوان . أرأيت فتيان لبنان كيف يغادرون جبلهم الأشم حيث كانوا يستنبتون الصخور ويتحدّون العناصر لكي يقفوا منكسرين خلف نوافذ الباخرة ، وكأن وجوههم الواجمة دموع الأسى تذرفها شواطئ الوطن ساعة وداعهم .

ولم يعن شفيق كثيراً بالشعر السياسي كأنه خشي أن يصطدم بمعارضة[1]

---

١ سألت الأدباء أصحاب الصلة بهذا الكتاب ان ينبهوني إلى ما يجدون فيه من الهفوات سعياً وراء الكمال في الطبعات التالية فلباني بعض منهم وكان أولهم الصديق شفيق معلوف الذي ارسل إلي البيان التالي يصحح به معلوماتنا عن موقفه من الشعر السياسي المنوه عنه هنا . فقال :

« ان الآراء هي مرآة العقيدة . وعقيدتي هي ايماني بوطني العربي لبنان سيداً حراً مستقلا إلى أبعد حدود الاستقلال . وبالتعاون العربي إلى أبعد حدود التعاون . وهي عقيدة عرفها فيّ كل من كانت له صلة بي إن كان في لبنان والمهجر ، أو في معقل العروبة دمشق وقد حررت في =

لآرائه من جانب محيطه الخاص ، أو كأنه خشي أن يفقد شعره بعض القيمة باختلاف ظروف الزمان المقبل فآثر الشعر الذي يبقى لكل زمان ولكنه عني بالمواضيع الاجتماعية فنظم للفلاح ولساعي البريد وللراعي أناشيد الحب والوفاء . لقد وصف الراعي العاشق وهو ينفخ في الناي :

كأنما الجرح جرح مهجته   كان على نايه له ثقب
فالناي لا يأتلي على فمه   يعبّ من قلبه وينتحب

وعبر عن نزعته الإنسانية بقوله :

ما ضر أن يحظى أخوك بحقه   فترى فلاحك ناجزاً بفلاحه
أفلست من أم يضم شتيتهم   قدَر همو صورَ على ألواحه ؟
ضرب الشعوب قويها بضعيفها   كالطير تذبحه بريش جناحه

ولا أدل على اصالة موهبته الشعرية من استجابتها له في مناسبات مفاجئة لا يتسع الوقت فيها لإعمال الروية واستجادة النظم . قام مرة بسياحة وعرج على نيويورك في طريقه إلى لبنان فاستقبله أدباء نيويورك بمأدبة

=صحافتها ثلاث سنوات قبل هجرتي . وطالما صرخت بهـا في شعري وفي ما حبرته من مقالات . ورحت أصارح بهـا كل من اتصل بي من اخوان الأدب والسياسة . فهل من حرج علي أو تثريب في اعتناقي هـذه العقيدة الـتي هي شعار وطني وأبناء وطني ؟ وفضلا عن هـذا ، فأنا لم أعرف في محيطي الخـاص أحداً خشيت أن أصطدم « بمعارضة منه لآرائي » . فعقيدتهم جميعـاً كانت ولما تزل عين عقيدتي . ولئن عنيتم « بمحيطي الخاص » أسرتي ، وانه ولا شك ذلك ، فقد رأيتم مما سبق وبينته لكم أنهم كانوا أباً عن جد مناوئين للاستعباد التركي ، وكادوا يضحون بحياتهم في سبيل ذلك ، كما أنهم ناوأوا مثلمـا ناوأنا الانتداب الفرنسي دون هوادة . وظلوا يساندون معنا أحرار البلاد إلى أن نالت البلاد ما كانت تتوق اليه من استقلال . وهذا مثبت بأدلـة ووثائق بعضها نشر وبعضها وقف على كل من أراد التثبت » . (وقد أرسل الينا نسخاً من الوثائق المذكورة)

تكلّم فيها أبو ماضي وغيره من الشعراء . وإذا بشفيق ينشدهم قصيدة من أرق الشعر وأبلغه وصف فيها مواقف الوداع واللقاء في مراحل أسفاره وما شاهده في أثنائها من عجائب الطبيعة :

ذراع ملاقٍ خلف كل مودّعٍ تلوحان لي كلتاهما خلف أدمعي
مناديل مَنْ ودّعت يخفقن فوقهم فلا ترهقيهم يا سفينة . أقلعي

مشهد المناديل الخفاقة على رصيف المرفأ بينما الباخرة تبتعد عنه موغلة في عرض البحر ، هل من شاعر قبل شفيق فكّر في رسم لوحة له ، أو عبّر عن شعور المسافر في هذا الموقف المؤثر ؟ ويتحرى الشاعر بنظره تلك النقاط البيضاء المتواثبة فوق الرؤوس فيقول :

بعدن فغشّاهن دمعي كأنني أراهنّ من خلف الزجاج المصدع
وما كان يُبكيني اللقاء وإنما وراء الملاقي لاح ظل المودّع
أساي على قلب كثير حنينه على كل أطراف البلاد موزع

وهنا يتخلص إلى وصف شلال نياغرا فينقلك إلى جوه الساحر المهيب بأبيات لا تزيد على أربعة ولكنها تحيط بدقائق المشهد كلها ولا تغفل إطاره :

وتلك « نياغرا » تعالى دويّها وشلالها السكران بالمجد لا يعي
تفتت قرص الشمس فوق هضابها وسال بماء الصخرة المتنبّع
سيول تهادت جارفاً إثر جارف على أفق بالسافياء مبرقع
كأنّ إلهاً مرّ ينفض ثوبه على الصخر من قطن الغمام الممزع !

* * *

بهذا القدر من الشواهد نختم الكلام على شعر شفيق معلوف . وقد عرفنا منه شاعر العاطفة وشاعر الصناعة وشاعر الواقعية وشاعر الخيال . تضافرت في شعره هذه الأجنحة الأربعة لكي تحمله إلى أبعد الآفاق وتبني له برجاً خاصاً في سماء الأدب المهجري ، مستقلاً بخصائصه عن بروج الشعراء الآخرين .

أمّا الجديد في سيرته فهو انه أصدر عام ١٩٦٠ ديوانه المهجري الرابع « عيناك مهرجان » ، وفيه الطرائف من دقائق الفن في الغزل واللطائف من خصائص الحسن في المرأة ، بأسلوب تناهى في الابداع :

عيناكِ مهرجان — للنور والظل — اغنيتان اثنتان ...

وبعد عام واحد جمع دواوينه السابقة مضافاً اليها ديوان شعر معرّب كان معدّاً للطبع اسمه « على سندان الخليل » وأصدرها في سفرٍ واحدٍ فخم ضخم سمّاه « سنابل راعوث » . ونعمت السنابل وبورك الحصادُ الخيّر ! نمرّ ببيادره فلا نقع على سنبلة فارغة أو سنبلة هزيلة . ففي ٣٤٦ صفحة كبيرة من شعر شفيق لا نجد بيتاً واحداً يقال انه شعر عادي أو لا شية للفن فيه .

وما ساءني إلاّ خلوّ الديوان الجامع من قصيدة ألقاها في خريف ١٩٦٢ ، أي بعد صدور الديوان ، عنوانها « دمشق يا أخت المعالي » كانت مناسبتها حفلة تكريمية أقامتها له في دمشق وزارة الثقافة والارشاد السورية . لا أدري لماذا تركبني الخيلاء كلما راجعتها فأحس برأسي يشمخ كبراً وبقامتي تتطاول شبراً :

أراكِ رجعتَ تفتقد العرينــا فهاك الغوطتين وقاسيونــا
وأرضاً كلما انتفضت بشبرٍ تهدهد تحته بطلاً دفينــا
ونهراً كم على ظمأٍ نراه كأن على الشفاه لنا عيونا
وما بردى سوى دفقـاتِ عِرق تهلّ على ثرى المستشهدينــا
إذا شهر السيوفَ العربُ يوماً وملن على أكفّ الضاربينــا
يمرّ بهنّ سيفُكَ مستعـزّاً فينُخلين الطريق وينحنينا !!

رياض معلوف

(١٩١٢)

ثالث الشعراء المعاليف من أبناء العلاّمة عيسى اسكندر معلوف . وصل إلى سان باولو عام ١٩٤٠ وأقام فيها إلى عام ١٩٤٦ وانصرف إلى الانتاج الشعري بالعربية والفرنسية والانكليزية . فكانت باكورته ديوان « غيوم » بالفرنسية عام ١٩٤٣ الذي قرظه كبار النقّاد ، وأتبعه بديوان « خيالات » عام ١٩٤٥ وهو الأثر العربي الوحيد الذي انتجه في المهجر ، لأن ما نشره بعد ذلك كان بالفرنسية أو الانكليزية « حبّات رمال — الفراشات البيضاء — غيوم » وهي لا تعنينا إلاّ بدلالتها على سعة الآفاق التي جال فيها الشاعر رياض وسعة اطلاعه على آداب الغرب . ونستدل باهتمام شعراء البرازيل وأساتذة السوربون وأصحاب المجلات الأدبية في فرنسا والأرجنتين بهذه الآثار على انه كان موفقاً في الميادين الغربية ، إلى حد قد يتجاوز توفيقه في الميدان العربي . فالدكتور مينوتي دل بيكيا من أكبر شعراء البرازيل كتب مقدمة لديوان « غيوم » . والأستاذ صادلر من جامعة اوكسفورد ترجم « حبّات رمال والفراشات البيضاء » . والأستاذ يوسف الغريب أستاذ العربية في جامعة قرطبة (الأرجنتين) ترجم « غيوم » إلى الاسبانية . ونادي القلم الدولي في الريو دي جانيرو انتخبه

عضواً فيه . ولا شك في ان هذا التقدير الصادر من أعلى المراجع الأجنبية يعزّز شأن الأدب العربي في المهجر .

عاد شاعرنا إلى زحله وأقام في « الكوخ الأخضر » منذ عام ١٩٤٧ وما زال ينثر خواطره الشعرية ــ باللغة العربية وحدها ــ قطرات ندى على رياحين الوادي الخضيل ، مستلهماً مراتع الصبا ومسارح الجمال المنبسطة حوله .

شعره عاطفي غنائي خفيف الروح . يستعيض بالرقة ما يعوزه من الجزالة . وينعش الفكرة العادية المكررة بموسيقى شجية جديدة . يؤثر البسيط من المواضيع والتعابير على المعقّد المركب . ويعالج الغزل من ناحيته الواقعية مضفياً عليه مسحة فارضية ، ولا يتنكب عن النكتة متى عرضت له عفواً :

أحبك حبّ الطيور لأعشاشهن وحبّ الندى للزّهــر
وحبّ العيون لاغفاءة أتحلم بالموعد المنتظر
وازرار ثوبك منها يُطل ويشرق في كل زرّ قمر
ومهما أطلتُ شروح هيامي أحبك . هذا هو المختصر !

* * *

احبك ملء قلبي ملء عيني وأكثر يا مناي بمرتــين
ويقتلني قوامك وهو رمح طعنتِ به فؤادي مرتــين
سللتِ المقلتين وهجت حرباً على مستسلم رفع اليدين ..

* * *

رحمــاك يا ملهمــي ضيّق على مبسمي
بقبلــة تنجلــي عن رعشة البرعــم
لولاك لم يبتهـــج قلبــي ولم احلــم

تعال خذ قبلة وهات .. هذا فمي !

ومن حسناته في شعر الحنين :

ما أحسن الذكرْ في مقلة الغريب
فهو إذا ذكر موطنه الحبيب
يرتعش النظر وعينه تغيب
هل يا ترى نعود اليك يا لبنان ؟

* * *

كم سحتُ في المعمور ما غرني منظر
فبلدي المهجور وأرزي الأخضر
أحلى من القصور والذهب الأصفر
هل يا ترى نعود اليك يا لبنان ؟

ميشال نعمان معلوف

١٨٨٩ — ١٩٤٢

اريحيّ كبير وشاعر رقيق تعلّم في زحله وهاجر منها عام ١٩١٠ إلى امركا الشمالية ثم استوطن سان باولو وفيها جاهد وأثرى وبنى سحابيـة انيقة في سان باولو ورفع راية الشعر والأدب . في ظلّه نشأت « العصبة الأندلسية » وبفضله عاشت عشر سنوات إذ كان موسسها ورئيسها الأول عام ١٩٣٢ إلى أن أدركته المنية عام ١٩٤٢ أثناء رحلة صيفية إلى مسقط رأسه في لبنان أرادها زيارة عابرة فكانت رقدةً أبدية ، قامت لهـا المناحات في لبنان والبرازيل . فأحيت العصبة الأندلسية حفلة الذكرى لرئيسها وجمعت المراثي في كتاب من ١٤٠ صفحة أسمته « هيكل الذكرى » . وبالواقع لم تكن الاريحية والكرم الحاتمي والعطف عـلى الأدباء كل فضل ميشال معلوف ، بل فضله الأبقى هو شِعْره الناعم الأخاذ الذي كان في وقته عنواناً للنهضة الأدبية وللتطوّر العصري في الأساليب الشعرية . اسمع خواطره عن « الحريف في جنائن فرسايل » :

يا سحباً راكضة في الفضاء مُجدّةً في السير نحو المغيبْ

ناشدتكِ الله تُرى للفنــاء ذاهبةٌ أم للرجوع القريب

ما الطف الظل الذي تنشرين

أوّاه لو انه — باقٍ ولكنه — سارٍ مع السـائرين

في الغاب لا يُسمع غير الحفيف وغير شدو البلبل النـازح

تفرّق الشمل وعاد الخريـف ما أقرب اليوم إلى البـارح

يا ليتني أعلم أين النوى

وأين ريح الجنوب — تحمل عند الغروب — أوراق غصن ذوى

وبين هاتيك الربى قائمُ قصرٌ منيفٌ ملّ طول الكفاح

كأنه نسرٌ بهـا جـاثم جناحُه قد حطّمته الرياح

ومرّت الاعصر تجتـاحه

والدهر قد أوصدا — باباً علاه الصدا — مذ ضـاع مفتاحـه

وقال في قصيدة «الشواطئ البعيدة» :

تعالي نسير إلى الشاطئ — نودّع يانفس من أزمعوا — رحيلاً ولن يرجعوا

تعالي نلوّحْ للراحلين — بمنديلنـــا

سيأتي زمانٌ به نقلع — بزورقنا ماخرين العباب — ومُطّرحين التراب

إلى أربُعٍ جوّها آهلٌ — بأحلامنـا

فيا بسمات الرضى في الثغور — ويا سكرات الهوى في الجفون — تولّى زمان الفتون

وعاودت النفسَ أشواقُها — لعهد الحمى

لا تُعطي هذه المقاطع القليلة من قصيدتين تماسك أبياتهما بوحدة موضوعية فكرةً كاملة عن الشاعرية التي أملتهما . ولكن الايجاز محتم علينا في مجال الاستشهاد ولو ظلمنا الشعراء . إنما نُجيز لأنفسنا استثناءً واحداً وهو اثبات قصيدة رثاء كاملة قالها شفيق معلوف في ذكرى خاله ميشال لأن نفثات السحر وومضات الالهام التي فيها قلما انقادت لشاعر معاصر . قال شفيق بعنوان « قُمْ ذهّب الاحلام » :

إلى روح ميشال معلوف الذي قال :

سنغدو نسيماً ونصبح نور — ونمسي ظلالاً ونعبق طيب — وعند مجيء المغيب
نذهّب أحلام أحبابنا — وهم في الكرى

في الروض أغضتْ عبقة من شذا　　في النهر غارتْ دفقةٌ من مياه
وغاب في الاظلال ظلٌ إذا　　ضيّعه جفني ، فقلبي يراه

يراه في لمعة — من لمع الغروب
يراه في الدمعة — في غصة القلوب

يراه مطروحاً على زهرةٍ　　تأججت ألوانها بالطيوب

* * *

آخر ما أبدى غداة الوداعْ　　للعين أطبقنا عليه الجفون
فطيفه الدافقُ منه الشعاع　　ذخيرةٌ مخبوءةٌ في العيون

ما لاح فوق المياه　　منديله الناصعْ
إلاّ وناديناه　　لعله سامع

ولا رأينا سفُناً أقبلت　　إلاّ حسبنا انه راجع

* * *

يا من شكا لبنان من هجـره فيمّم الشطّ البعيد البعيـدُ •
ضمّك لبنان إلى صدره خشية ان تهجره من جديدُ

يا باعث الابتسام من بين أهدابك
قم ذهّب الاحلام أحلامَ احبابك

فانها توشّحَتْ بالأسى وانطرحت حزناً على بابـك.

الياس فرحات

(١٨٩٣)

كفرشيما ، القرية اللبنانية الصغيرة التي أنجبت اليازجيين وآل شميل وتقلا وكسباني ، تفاخر اليوم بأنها أنجبت فرحات وأضافت به حلقة جديدة إلى سلسلة مفاخرها .

كان ناصيف اليازجي يسأل كلّ من آنس فيه فطنة وذكاء ان كان من مواليد كفرشيما فإن كان الجواب نفياً قال اليازجي : قد يكون أبوه أو أحد أجداده وُلد فيها ، أو مرّ بها ، أو عاشر واحداً من أبنائها فاقتبس منه الذكاء .

هذه القرية جادت على فتاها الياس بفطرة عجيبة . جوهرها نبوغ ، ومظهرها عادي ، لم تميزه بشيء عن أبناء الضيعة حتى بلغ العاشرة من العمر وترك المدرسة إلى لا رجوع ، ليدخل مدرسة الحياة ويتعلم الحكمة من تجاربها القاسية . وبينما كان يتدرب على المهن اليدوية كالنجارة وتقشيش الكراسي وتنضيد الحروف ، كانت نفسه تتفتح وموهبته تنجلي ، فجرى شعر الزجل على لسانه وأصبح الفتى اليافع ينازل الزجّالين المشهورين في المجالس ويلفت الأنظار بسرعة خاطره وحدة ذهنه . أمّا أبواب الرزق فلم يجد مفتاحاً يعالجها به ، وقد قضى سبعة أعوام في البحث عنه .

في عام ١٩١٠ وصل إلى المهجر الأميركي وكل عدته خصلة الشعر التي زودته بها خطيبته في كفرشيما . ومكتبة مؤلفة من كتابين : جغرافية فانديك ومزامير داود النبي . ولكنه شديد العارضة ، عالي الهمة ، قوي الذاكرة ، جيد الحفظ . عكف على المطالعة والاقتباس حتى ملك البيان في برهة قصيرة من الزمن ، وأخذ يتمرن على نظم الشعر متدرجاً من العامي إلى الفصيح ومن التقليد إلى الابداع ، دون أن يتعلم الصرف والنحو والعروض ، ولكنه في بادئ الأمر كان يستعين بأرباب العلم ويعرض عليهم شعره متى اشتبه في صحة لفظة أو حركة اعراب فيرشدونه إلى الصحيح . أو كان يكتفي بترديد القصائد القديمة المشهورة ويتخذها قاعدة لما ينظم إلى أن أصبح النظم السليم ملكة فيه فاستغنى عن درس القواعد مطمئناً إلى فطرته الشعرية وأذنه الموسيقية . يروي انه وقع في خطأ نحويّ في أول بيت نظمه من الشعر الفصيح وهو قوله :

ضروبٌ من الأهوال علّمني دهري فجرّ عليّ الهمّ والذل والقهرِ

فأفهموه قواعد الاعراب من حيث الرفع والنصب والجر ، فكان ذلك الدرس الوحيد الذي تلقاه ، وبعده لم يلحن قط .

العناد هو أظهر صفات فرحات . فكما عاند اللغة والشعر حتى امتلك ناصيتهما ، عاند الحياة بالسعي وراء الرزق ، ولكن الرزق كان يهرب منه :

أغرّب خلف الرزق وهو مشرّقُ وأُقسمُ لو شرّقت راح يغرّبُ

وقد ألمعنا فيما سبق من الفصول إلى مراحل جهاده الفاشل في تربية الماشية والدواجن ، ثم في تنضيد الحروف في المطابع ، ثم بالتجول في

البلاد لعرض مساطر المحال التجارية أو لجباية اشتراكات الصحف في البلدان الداخلية . وبمناسبة عمله الأخير في الصحف روى زميله توفيق ضعون الحكاية الآتية في كتابه « ذكرى الهجرة » :

« لقد أصبح في منزلي الحقير غرفة معروفة باسم « غرفة فرحات » وأصبح أصدقائي أصدقاءه . ولكن كنا جميعاً فقراء . فعجزنا عن ان نقيه غائلة الفقر . فكان يجوع ويعرى ، وكأن النوائب كالأمراض لا تهاجم سوى العضو الضعيف . ففي عام ١٩١٨ حلّت به النكبة الكبرى باحتراق طرف ثوبه . فتشاورت مع شريكي جورج حسون في أمره وقرّرنا ان لا مخرج له من مأزقه إلاّ بالعمل . ولكنه لم يكن يصلح لأي عمل تجاري . فاخترنا له عملاً أدبياً فيكون ممثلاً لمجلتنا « الدليل » ومراسلاً لها في الداخلية . ولكن كيف يقوم بهذه المهمة السامية دون رداء لائق يلبسه ؟ لذلك كان أول ما فعلناه اننا استحصلنا على بدلة بألف وخمسمئة قرش يرتديها معجلاً وندفع نحن ثمنها مؤجلاً ، عشرة أقساط شهرية . وسافر فرحات على بركات الله مزوّداً بالتفويض القانوني وباللوائح والوصولات وبتنا نتوقّع أخباره السارة . ولكن كانت أولى رسائله الينا أبياتاً من الشعر ينعى الينا بها كُمّ ردائه الجديد الذي أحرقته شرارة من مدخنة القطار قبل وصوله إلى المحطة الأولى » .

وهذه هي أبيات الشعر :

كأن الهواء مع النار لمّــا	رآني لبستُ جديدي اتفق
فجاء بها من دخان القطــار	ونثّرهــا فوقه فاحترق
فقلت أعاتب ربي مشيرا	إلى الحرق وهو كباب النَفَق
إلهي تضنّ عليّ بثـوب	وتكسو الغصون ثياب الورق
ولو كنتُ غصناً لجدّدتـه	متى ما بشير الربيع انطلق
ولكن أرى دون تجديده	شتاء الأسى وسيول العرق

بعد تلك الرحلة ، غير الموفقة ، مرّ فرحات في أدوار مختلفة تشابهت نتائجها من حيث الإخفاق والبؤس كأنها كانت تدور على محور واحد : هو الفاقة .

هو الشاعر المهجري مئة في المئة . إن لم يكن أعرق زملائه في الشاعرية فهو أعرقهم في الروح المهجرية . ما تأدب ولا كتب حرفاً إلاّ تحت سماء البرازيل . أدبه عصري الطابع . تحررٌ في الفكر ، وتجديد في الاداء ، وصدق في العاطفة . إن نظم فتلبية لسليقة أصيلة في نفسه وعاطفة جياشة في صدره تدفعه إلى القول الحق الصراح . وان تألمت روحه لمأساة من مآسي الوطن تدفّق شعوره أمواجاً عارمة تجرف الظالمين والخانعين على السواء وتتكسر على صخور المستعمرين الأقوياء .

بعد ما مرّ على وصوله إلى البرازيل خمسة عشر عاماً عكف على نظم أفكاره في قالب الرباعيات . فصوّر في بعضها حياته وصفاته وثورته على القضاء ، ورسم في البعض الآخر آفات المجتمع العربي ووسائل إصلاحه ، بأسلوب ساخر صارم يميط اللثام عن طباع الشاعر . وفي عام ١٩٢٥ صدرت الرباعيات في شكل كتاب جيب صغير . فأحدث ذلك الكتيب الصغير بحجمه ، الكبير بقيمته انفجاراً كبيراً في المحيط المهجري واستقبلته الأقطار العربية بالتهليل والإكبار ، لأن في كل مقطوعة من مقطوعاته صورة لواقعها أو لمحة إلى عاهاتها ، أو حكمة تجري على الألسن مجرى أمثال المتنبي :

* مادمتَ محترماً حقي فأنت أخي ... آمنت بالله أم آمنت بالحجر
* دع آل عيسى يسجدون لربهم ... عيسى وآل محمد لمحمد
أنا لا أصدق ان لصاً مؤمناً ... أدنى لربك من شريف ملحد
* يا نافخ القمر الزاهي ليطفئه ... تفنى قواك ولا يدري بك القمر
* وإذا الكريم مدحته بقصيدة ... قرأ اللئيم الذم في أبياتها

* ومن سد مجرى النهر يوماً ولم يكن أعدّ له مجرى جديداً تندّما
* لو يعرف الكبش أن القائمين على تسمينه يضمرون الشر ما أكلا
* للترب ما يأخذ الإنسان من بلد قد مر فيه وللتاريخ ما يذر
* والخد يعلم ما في الدمع من حرق وليس تعلم ما فيه المناديل
إن البكاء على قدر الشعور فكم تبكي الرجال ولا تبكي التماثيل
* فإذا حكمت على امرئ لسواده فلقد حكمت على حسام مغمد
فلرب قلب كالحمامة أبيض للخير يخفق تحت جلد أسود
* وأشد أبناء الحياة شقاوة متوجع مع كل من يتوجع
* نشكو أذى الدهر شكوى لا أساس لها
فالدهر لم يرتكب إثماً ولم يجُر
لا يقفل البشر الأبواب إنْ رقدوا
خوفاً من الدهر ، بل خوفاً من البشر

هذه التشابيه التي يستمدها فرحات من الواقع الملموس تضفي على حجته قوة لا تدافع لأنها تربط الفكرة الظاهرة المادية المسلم بصحتها عن طريق الاختبار والتواتر فتنزع من ذهن السامع كل ريب في صحة الفكرة . وأحياناً يخلق فرحات الصورة العريضة الخطوط بتشبيه موجز ولكن صفات المشبه به تنتقل من تلقاء نفسها إلى الذهن فلا يحتاج الشاعر إلى تعديدها كقوله :

أرى في شعبنا بعضاً ذليلاً وأخشى أن يصير البعض كلا
فإن الخلّ ليس يصير خمراً ولكن قد تصير الخمر خلا

أو قوله :

والقلب يسكن ثم يخفق مسرعاً حتى كأن خفوقه تصفيق

وكأنه أمٌّ لفقد وحيدهــا ٭ يُغمى عليها تارة وتفيق

ويقول في موضع آخر :

كم في البرية من زوجين ما برزا ٭ إلاّ بسيارة تزهو بسـيار
فإن تضمهما جدران قصرهمــا ٭ قاما بتمثيل دور الهر والفـار

* * *

والصدر فارقه الرجاء فقد غدا ٭ وكأنه بيت بلا مصبــاح
يمشي الأسى في داخلي متغلغلا ٭ بين العروق كمبضع الجراح

في رباعيات فرحات من كل وادٍ عصا ، ومن كل فنٍّ خبر . تجد ألوان الفجر والشفق في باب الوصفً . وتستنشق عبير الزهر النديّ في باب الغزل . ولكنك تحس وخز الإبر في الكلام على الغني البخيل والمواطن الخائن والكاتب المتشاعر :

أكل امرئ عق البلاد وخانهــا ٭ يلوح وسام فوق برديه زاهر ؟
أليس لكم يا قوم بعد محمـد ٭ نبيّ لأصنام السياسة كاسر ؟

* * *

من كان يدّخر الأموال مختلساً ٭ تأتي بلاياه مما كان يدخـر
ترنو إلى ماله الورّاث قائلة ٭ لا يؤكل الجوز إلا حين ينكسر

* * *

يجرون ركضاً وراء السيئات فإن ٭ يُدعوا إلى عمل مستحسن عرجوا
مذ بشّرت بهم الدايات أهلَهم ٭ والفضل في أزمات ليس تنفرج

فرحات لا يقسو على أصدقائه بل يقول :

إذا أنت لم تحتج اليهم فكلهم صديق سخيّ الراحتين نبيـل
وكل قصير الباع في الفضل والندى له مِقول في الإدعاء طويـل

أما أعداؤه فيخاطبهم بلغة أخرى :

قد تسلحنا وكم من قلم قصّر الصارم عنه والقناة
فإذا كانت لكم أسلحة غير أقلام الجواسيس فهاتوا
ما الذي أغرى أفاعيكم بنا أتراها جهلت انّا حواة ؟
أم ترى تحسبنا نرهبها وهي مهما قيل فيها حشرات

ولهذا التحدي الصارخ في شعر فرحات سبب واضح في سيرة حياته . حرّر مدة من الزمن مع توفيق ضعون في جريدة استقلالية حرة مناهضة للاستعمار ، صاحبها سليم لبكي . وحدث أن نشرت الجريدة مقالاً عنيفاً غفلاً من الامضاء حسبه بعضهم ماساً بكرامته والقى مسؤوليته على صاحب الجريدة . فتربّص به الياس وصرعه بالرصاص ، وهدّد المحررين في الجريدة بمثل هذا المصير .

ومنذ ذلك الحين شهرت الحرب العوان بين فرحات ومناوئيه وازداد شعره حماسة وغلواً في الوطنية ، وتكاثر عدد أنصاره المعجبين بموهبته وجرأته .

في عام ١٩٣٢ صدر ديوانه الكبير « ديوان فرحات » متوجاً بمقدمة من قلم الأديب جورج حسون هي أفصح دليل على المتانة التي بلغها الشاعر وعلى أدب كاتبها الناثر . قال :

« كان فرحات في مطلع هجرته ذلك النجم الضئيل ذا الأوراق

المصوحة والساق الضعيفة والجذور الواهية في حديقة الأدب ، وها هو الآن في روضة الشعر العربي دوحة عالية لا تبلغ الطير ذراها ، ملتفة الأوراق ، محبوكة الأغصان ، وارفة الظل .

« فرحات . تلك القطرة من الندى التي ذرفتها منذ ستة عشر عاماً مقلة الفجر على ورقة الورد وغادرتها قلقة مترجرجة وجلة من أن تقبلها إحدى نسمات الصباح أو أن تبخرها أولى ابتسامات ذُكاء أصبحت ماسة قوية قاسية صلدة يتألق نورها لمّاعاً يأخذ بالأبصار ويخلب الألباب .

« فرحات الذي عرفته منذ ست عشرة سنة كالفرخ يتململ محاولاً الانفلات من البيضة التي لم تنفلق عنه بعد ، أصبح نسراً يحلق في جو الأدب ، تخطى الغيوم وما فوقها وما زال يرتفع ويتقدم .

« فرحات الذي طرحته النوى مطارح الشقاء وجيّش الدهر في وجهه كل مصائبه ونوائبه وأناخ عليه بكلكله دون أن يتمكن من حبس مجرى شاعريته الفياضة وإخماد جذوة وطنيته المستعرة وإرغام أنفه الأشم » .

لم يبالغ الأديب الكبير جورج حسون في إطراء شعر فرحات وفي التلميح إلى أخلاقه الأنوفة العيوفة . ان عثرات الحظ لم تحدّ من كبريائه. فهو لم يأكل خبزه إلاّ بعرق جبينه ولم يعفّر جبينه بتراب الزلفى والمداهنة. استغنى بالقناعة عن الأغنياء فساواهم حرية . واختُص دونهم بالعبقرية فتعالى عنهم واستطاع ما لا يستطيعون .

ليس الدجاج وإن طارت بمدركة　　　أنّى يقبّل نسرٌ وجنة الجلَد

لقد رأيناه عام ١٩٣٣ يبيع عدداً من حملانه — وهي كل رأس ماله — استعداداً للسفر إلى سان باولو ومنها إلى عاصمة الأرجنتين لكي يشترك في حفلة الذكرى للملك فيصل الأول ، تلك الحفلة الكبرى التي أقامتها

الجوالي العربية ودعت اليها القروي وفرحات . لا شك أن دعوة فرحات هي ترضية معنوية له ، مفادها أنه اشتهر كشاعر وطني مجيد ولكنه يقول :

تُرى هل أعيش بقول أجدتَ ويا لك من شاعر مفلق
خُلقت شقياً وعشت شقياً وأحسب أني أموت شقي

ثم رأيناه عام ١٩٤٧ يفوز بجائزة المجمع العلمي المصري وقدرها سبعون جنيهاً فيأبى استلامها رغم حاجته إلى المال ، ويحوّلها إلى صندوق إغاثة فلسطين ، كأن الفقر لم يؤثر على شيمته الأصيلة في الكرم . وفي ذلك يقول :

لا ذنب إلاّ على كفٍّ بُليت بها إن تأخذ النيل تعط النيل والهرما

ومن أقواله لمن ينصحه بمسايرة زمانه ومصانعة أبناء قومه توسلاً لمغانم الحياة :

إن تعدّوا ترفع الحر داء فمُنى الحر أن يموت بدائه

وديوان فرحات حكاية حب مختلفة الأشكال . وجمال المرأة هو أجمل أشكاله . مجّده في خصلة الشعر وفي صلاة الراهبة ، وفي كل وجه حسن ، انه يتغزل ولا يتبذل :

كل النبيين ما أتيح لهم إتيان أمر أتته عيناها
قرأت للحب فيهما سوراً فهمت لمّا فهمتها الله

* * *

رضاك عن الدنيا رضاي وإن تكن   تجرعني الأحزان في الحب ألوانا
أهنيك بالكأس التي تشربينها   أهنيك يا روحي ولو مت ظمآنا

* * *

أنتِ الحياة فأنتِ في رئتي الهوا   والنور في عيني وفي قلبي الدم
ولأنتِ آخر من أودّع عندما   أمضي وأول من عليه أسلّم

* * *

تحمر وجنتها من سمع نابية   كأن من يلفظ النابي يعرّيها
القلب يحسد عيني فهي تنظرها   والعين تحسد قلبي فهو يحويها

* * *

ولا أدل على احترامه للمرأة من قوله في قصيدة « هنّ » :

قل هنّ والتزم الأدب   وابعُدْ بهن عن الريب
هنّ الرجاء لكل من   بحر الحياة به اضطرب
هبة السماء لعالم   ضرب الشقاء به الطنب
وهِبات ربك لا تُجحد   وهنّ أحسن ما وهَب
لو لم يكنّ من الورى   لا الفن كان ولا الأدب

ذلك الاحترام لا يعني أنه لم يذق في حياته طعم اللمى والرضاب ، ولكنه يحترم الزوجية (وهو متزوج منذ عام ١٩٢١) فلا يشير إلى ذلك الطعم إلا بحسرة التائب بعد فوات الشباب :

لو يعود الشباب عاد شبابي   عند خمرية اللمى والرضاب
عند من لو مشتْ على جفن عيني   ما أحسّتْ بوطئها أهدابي

* * *

فَرّ عصفور شبابي من يدي   فعصافير الهوى تبكي عليّا
لم أمت بعد ، ولكن ليس من   أصبحت تنفر منه الغيد حيا

وكأنه خشي أن ترقى اليه الظنون الأثيمة فيعزى اليه زهد الثعلب في العنقود أو أنه يظهر على غير ما يضمر فقال :

كذبت ظنونكِ يا ابنة الأحرار   أنا لا أخضب شيبتي بالعار
أنا من رعى حق الغريب ومن وفى   عهد الصديق وصان عِرْض الجار
وأنا الذي تبع الهدى لا طامعاً   في جنّة ، أو خائفاً من نار
يومي كأمسي في وضوح سطوره   للقارئين وليلتي كنهاري

* * *

لا تظني بيَ الظنون إذا كنت   اسمّي ليلى ولبنى وهندا
أنا من يعرض الزجاج ويخفي   الماس . إن اللصوص كالرمل عدا
أنتِ قصدي دون الأنام ولكني   اسمّي سواكِ في الشعر عمدا
أنتِ قصدي . وكل أسماء حواء   ثيابٌ لاسم الحبيب المفدّى

وفي حياة فرحات مأساة فضحها شعره الباكي : فتاة أحلامه التي زوّدته بخصلة من شعرها يوم غادر القرية ، أبى الدهر أن يجمع بينهما فتزوجت من سواه كما تزوج من سواها . وفي ذلك يقول :

تمّ المبيع وسُجل الصكّ   هذا رباط ليس ينفك

* * *

وشاهدت زنبقة طاهره   تجور عليها يد الغارس
تمدّ أناملها الجائره   إلى عودها اللين الجالس

وترغمها قوة قاهره فترُبط بالعوسج اليابس

* * *

يسائلني الصحب عن رسمها وما رسمها صورة تُبتذل
وإن المصور مهما أجاد تظل الإجادة دون الأقل
فكم صوروا المقل الساحرات وما صوروا سحر تلك المقل
وكم صوروا قُبَل العاشقين فهل صوروا طعم تلك القبل ؟

وفي الطبيعة جمال فكيف لا يحبه ويغنيه :

أحبّ الربيع وأيامه وأهوى لياليه الضاحكات
وأعشق أجمل ما في الربيع ورود الربى وخدود البنات

فهو طوراً يرثي البلبل الصريع :

فيا حيرة الأغصان لم تدر عندما نعتك اليها الريح كيف تميل
لها رقصة الطير الذبيح وبينها لنقل تعازيها الفراش رسول
وللورق إجفال وللزهر رعشة وللنهر بين المعولين عويل

وتارة يصف النحلة النشيطة :

ذهبتْ تواً إلى الحقل الأنيق ليس تلوي ، همُّها جمع العسل
حين كان الزهر فيه يستفيق وعلى أجفانه يبدو الكسل
والندى يغسل أحداق الشقيق والهوا ينشف منها ما اغتسل
وشعاع الشمس في بدء الظهور يتدلى كحبال من لجين
منظر زين بتغريد الطيور فتصبى كل ذي أذن وعين

وفرحات مشهور بالحنان على أسرته . خلد هذه الناحية من نواحي حبه بقصائد مشهورة منها قوله في ميلاد ابنته :

أولى فراخ البلبل الغـــرد   هذا جناح أبيكِ فاعتمدي

هذي الرياض   منابت الزهر
تلك البحـار   مصادر الدر
ذاك الفضـاء   نجومه تجري

بالله يا بنتي
من أيها أنتِ ؟
في أيها كنتِ ؟

ما أنتِ من هذا التراب ولا   تلك الميـاه وذلك الجلد
بل أنتِ من روحي ومن كبدي

ما أجملها وثبة يثبها فتى كفرشيما من الزجل العادي إلى الشعر العالي. لقد أصبح يتفنن في التخيلات وفي تقطيع أبيات الشعر كأعظم المجددين المعاصرين ، حتى عفّت موشحاته على موشحات الأندلسيين . هاكم مثلاً آخر نأخذه من شعر الحنين :

نازح أقعده وجد مقيم   في الحشا بين خمود واتقاد
كلما افتر له البدر الوسيم   عضه الحزن بأنياب حداد
يذكر الربع القديم   فينادي ...
أين جنـات النعيم   من بلادي ؟

شعر غنائي قد تكون معانيه مطروقة ، ولكنها تلوح لنا جديدة لطرافة

القوالب التي وضعت فيها . وكم ردد فرحات معنى معروفاً فأثر فينا بالبساطة والسلاسة أكثر مما أثرت فينا المعاني المبتكرة عندما يتأنق ناظموها في البيان ويتصنعون في الألفاظ :

إني لألمح من خلال دموعي   صوراً طواها البين بين ضلوعي
صوراً يجسّمها الخيال مضاعفاً   عطشي لرؤية من أحب وجوعي
أربوع أحبابي ، لأنت وإن نأت   بي عنك مركبة الزمان ربوعي
أنا في الخريف وما ذكرتك مرة   إلاّ شعرت برجعة لربيعي

وإن كان في قلب فرحات منازل كثيرة ، فالمنزل الأول هو لوطنه . ولا شك أن النكبات التي نزلت بالأمة العربية شحذت قريحته وأضرمت حماسته وخلقت منه — باعترافه — شاعراً وطنياً ممتازاً ، يباري الشاعر القروي في وطنياته :

ومن الحوادث حافز طبعت   كلماته بالنار في كبدي
أفكان يمكنني السكوت ولي   وطن أعزّ عليّ من ولدي
وأنا ابنه . ألفيه منطرحاً   بين الذئاب مضعضع الجلد

الأدب الصحيح في عرفه هو ذاك الذي يرفع عن كاهل الأمة نير الذل ويدفعها نحو الحرية والمجد . يأبى على الشعراء أن يتغنوا بما يخدر أعصاب الشعب وهم الألسنة الناطقة الموكلة بايقاظ الوعي وبعث الهمم المستنيمة . عروبته إيمان بعبقرية العنصر العربي ، ووطنه كل أرض تقع في حدود اللغة العربية :

أنا وإن تكن الشآم ديارنا   فقلوبنا للعرب بالإجمال
نهوى العراق ورافديه وما على   أرض الجزيرة من حصى ورمال

وإذا ذكرت لنا الكنانة خلتنا   نُروى بسائغ نيلها السلسال
بنّا وما زلنا نشاطر أهلهـا   مُرّ الأسى وحلاوة الآمال

وشاعرنا يمجد دين الإسلام ويكن له كل محبة واحترام بمقدار ما يكره التعصب المذهبي وينفر من شعوذات رجال الدين :

سلامٌ على الإسلام أيامَ مجدُهُ   طويل عريض يغمر الأرض والسما
نما فَتَمَتْ في ظلّه خير أمة   أعدّت لنصر الحق سيفاً ومرقما
فواهاً على الإسلام، واهاً على الهدى   وواهاً على نبراسه كيف أظلما
فأضحتْ بلاد المسلمين وأهلها   وخيراتها للناس نهباً مقسما
ترى العربي المدعي الباس والحجى   يطأطئ حتى لليهودي مرغما

* * *

فلينظر الناس . هل من أمة فعلت   للمجد فعل رعاة الشاة والإبل
العابدين إلـه المجد من قـدم   والسابقين اليه أقدم الملـل
والناقشين على الأسياف آيته   والشارحين معانيها على القلل
العرب واقفة يا شمس فانطفئي   والعرب زاحفة يا أرض فاشتعلي

* * *

ما الشام ما لبنان ما حوران ما   عـمّان والقدس الشريف الخالد
هذي الدويلات المبعثرة القوى   عمُد يقوم بهن بيت واحـد
قسماً بأمة يعرب وبتربـة   فيها أبو الجمرات يعرب خالد
لولا مكائد بعضنا للبعض لم   تنجح لأعداء الجميع مكائـد
إن التعصب للمذاهب شرّ ما   أبقى لأمتنا الزمان البائـد

* * *

وقال في مولد الرسول العربي :

غمر الأرض بأنوار النبوه كوكب لم تدرك الشمس علوّه
لم يكد يلسع حتى أصبحت ترقب الدنيا ومن فيها دنوه
بينما الكون ظلام دامس فُتحت في مكة للنور كوّه
وطمى الإسلام بحراً زاخراً بأواذيّ المعالي والفتوه
من رأى الأعراب في وثبتهم عرف البحر ولم يجهل طموّه

هذه النزعة القومية في شعر فرحات أوغرت صدور الانعزاليين عليه فاتهموه بالمروق من لبنانيته لأنه يدعو إلى وحدة عربية يندمج فيها لبنان وسلقوه بألسنة حداد ، فكان يردّ على هجماتهم بأعنف منها ويبتكر في شعر الهجو معاني لم تخطر ببال ابن الرومي . وعبثاً حاول أصحابه كبح جماح غضبه وحمله على السكوت :

أنا من يرى أنّ الرياء معرة وأن خبيث القول في الصدق طيب
فأي هجاء في مقالي لعقربٍ له ولع في الشر انك عقرب
أذنب إذا سمّى الفتى الشيء باسمه؟ إذن ربك الموحي لآدم مذنب

هذا الاختلاف في العقائد بين العرب المغتربين كان انعكاساً للاختلاف الذي وقع في أرض الوطن وأدّى إلى إعلان القطعية الاقتصادية بين سورية ولبنان . فلما زار الرئيس شمعون البرازيل واستقبلته الجوالي المغتربة بحفلات رائعة اشترك فيها اللبنانيون والسوريون ، قال له فرحات :

شمعون نحن هنا من كل ناحيـــة فانظر وكن حكَماً . هل نحن شعبان؟
إنّا كأبناء زوجين التوى بهما التفكير فانفصلا . فالبيت بيتان

إن يرجعا نحن إخوان . وإن أبيَا | إلاّ الطلاق فلسنا غير إخوان
هذي دمشق وذي بيروت ، إنهما | في طلعة الوطن المعبودِ عينان
لسنا نفضل مهما نلق من عنت | عيناً على أختها . لسنا بعوران ...

وتحز هذه القطيعة في قلبه ، ويُلقي تبعتها – في أقصى وجدانه – على لبنان ، بلد العلم والاشعاع فيقول :

لبنان يا وطني فديتك موطناً | مضنى يصدّ عن الدواء الشافي
مني لك النصح البريء ومنك لي | قلب الشفاه وهزة الأكتاف
أتذل أقلام النوابغ في الحمى | وتعزّ فيه خناجر الأجلاف ؟
ونرى من العلم الغلاف فندّعي | أنا فضضنا عنه كل غلاف ؟
إني أرى يا مصدر الإشعاع في | دعواك ألواناً من الإسراف
وأرى التعصب خلف علمك بارزاً | كالصبح خلف البرقع الشفاف
لبنان كذبني تجد مني فتى | أدنى بني الدنيا إلى الإنصاف

فرحات عربيّ من لبنان . لا لبناني يعيش في جوار العرب كما يقول أصحاب النظرية الضيقة . يهتم بما يجري في الحجاز والكويت والمغرب هتمامه بماجريات سوريا ولبنان :

وطني حببتك سيداً ومسودا | وحببت أهلك عوسجاً وورودا!
أبغي لهم رتب العلا ولو انهم | تخذوا على جسدي الطريق صعودا!
ماذا تفيد العرب ثروة بعضهم | ما دام حائط مجدهم مهدودا ؟
ما أفقر المتمولين إذا همو | كسبوا بخسران البلاد نقودا!
لو كان لي نفط الكويت جعلته | يمشي على جثث اليهود جنودا!

في هذا البيت الأخير بلاغة تُعجز في إيجازها جهد المترسلين : النفط يمشي مشية الجنود على جثث اليهود . صورة صغيرة تلم بدنيا من المشاهد التي تتهاوى على الذهن : فهناك مشهد تحول فيه النفط إلى نقود ، ومشهد تحولت فيه النقود إلى أسلحة ومعدات ، ومشهد ينفر فيه العرب بسلاحهم الكامل إلى محاربة أعدائهم ، ومشهد رابع فيه أشلاء القتلى . وأخيراً مشهد النصر ، حين تدوس أقدام العرب اليهود . كل هذه بفضل ينابيع النفط .

ترى هل بلغ صوت فرحات أسماع ملوك النفط ؟ وهل طرح غيره من الشعراء المقيمين هذه الأمنية على أعتاب ممدوحيهم ؟

لم يفت فرحات أن في بلادنا مؤسسة اميركية يدعونها « النقطة الرابعة » ومهمتها تزويد الأمة العربية بما ينعش حياتها الاقتصادية تعويضاً لها عن فقد مكانتها المعنوية في نكبة فلسطين وعن عشرات الألوف من أبنائها المتشردين . وقد ظهر من بوادر عطفها وكرمها ما أنطق الأفعى بهذا الكلام :

حكمة الأفعى :

قالت الأفعى لأمريكا اسمعي	إن تقليدك لي عين الشطط
أين مني أنت يا من سمّها	بغية التمويه بالشهد اختلط
بيننا الفرق كبير فاعلمي	لا يحل البطل ما الحق ربط
أنا لا أنكر أني حيّـــة	رضيَ العالَم عني أم سخط
أنا لا يهتف بالسلم فمي	ويدي ترسم للحرب خطط
أنا لا أنصر لصاً . إن من	ينصر اللص من اللص أحط
أنا لا أحمي جناة خانــة	قذف الموج بهم من كل شط
أنا لا أستعبد المحتاج في	نقطة فيها من السم نقــط
خدعة سميتها رابعـــة	كل أرقامك من هذا النمط

أنت فيك السم لا حصر لـه وأنا السمّ بنابيّ فقط

عجيبة هي قدرة الشاعر على تطويع القوافي لمعانيه فقد اختار أعصاها فجاءته منقادة في حرف الطاء ، لا كلفة فيها ولا عياء ، ترسل إلى الشعر الحر نظرة استهزاء .

إن فرحات في شعره كما هو في عاداته ومظاهر حياته أبعد الناس عن التصنع والتعقيد ، فهو كأبو ماضي شاعر العاطفة العفوية لا شاعر اللحن المدروس ، يلتقي بالطلاوة والفكاهة ودقة الوصف بابن الرومي وبأبي نواس والبحتري :

الا إن خير الشعر ما ساغ لفظه وما كان مما يسبق اللفظَ معنـاه
إذا جاءني المعنى الغريب فمرحباً وإن لم يجئْ لا رد غربته الله !

نظم فرحات كثيراً بعد صدور ديوانه ولكنه لم ينشر من منظوماته غير كتاب « أحلام الراعي » في عام ١٩٥٣ ، والكتاب نقد اجتماعي لاذع يتسرب من حوار يدور بين الحملان وحارسها الكلب الأمين إلى مقام الحاكمين بأمرهم في أمور الدنيا والدين . فهو من حيث الخلق والتصميم عمل فريدٌ في أدبنا الحديث وفي رأي فرحات ان « احلام الراعي » و« الرباعيات » هما أفضل دواوينه .

أراد الشاعر أن يفش عواصف النقمة المخزونة في صدره ، مرة واحدة . فروى عن الكلاب انها كانت بشراً في الأصل ولكنها تابت عن الكذب والمكر والخداع فرفعها الله إلى مرتبة الكلاب ، والله يعاقبهـا بردها إلى فصيلة البشر إذا هي ارتدّت إلى عاداتهم :

إن مان منا واحداً أو خانـا أرجعـه خالقه إنســانـا

وما أصدق قوله عن نفسه :

حسبي وحسب العصامي ان يقال فتى
نشءُ السفوح تخطّاها إلى القنن
لا أضرب الطبل حول اسمي مداورةً
كي أوهم الناس اني شاعر الزمن
إذا تأمّلْتَ شِعْري رحتَ مكتشفاً
فيه ملامح من روحي ومن بدني
فيه وفيّ عيوبٌ لستُ أنكرها
ان القبيح مع الاخلاص كالحسن

كل من عاشر فرحات استطاب عشرته وكل من صادقة ووصل إلى أعماق نفسه عشق روحه السمحة ولم ينخدع بمظاهر جفوته . إنه لا يريد أن يكون ملاكاً بين الشياطين بل ان يكون جلاداً للدجالين والمرائين يؤدّبهم بطريقته الخاصة . ولذلك نلاحظ السخط الجارف المدمّر في حملاته عليهم كأن صدره بركان وقصائده حمم . وهو يخشى أن ينقطع سيل الحمم فلا يبقى ما يشير إلى زخم البركان . والحقيقة هي ان الذي يبقى هو واحة خضيلة تنشر الافياء والانداء والاغاريد . لقد مضت السنون العجاف ولوحت له حمامة الطمأنينة والسلام بجناحيها . فعساه لا ينفرّها عن بابه بصيحات الغضب والخصام بل عليه أن يتفاءل بابتسامة الحياة له بعد ما زودته بشيء من زينة الحياة الدنيا ، المال والبنين ، وعليه أن يقابل بالشكر نعمة الله عليه بالشاعرية المطبوعة التي أغنته عن العلم وميزته على من أبلى المعاجم درساً وأكل القواعد حفظاً . ومهما احتفظ على البشر يجب ألا ينسى أنهم قدّروا منزلته في الأدب وتداولوا شعره بإعجاب وطرب . ثم اهتموا أعظم اهتمام بطبع دواوينه ونشرها .

ففي عام ۱۹۲۱ تكفل إخوانه بطبع ديوانه الكبير . وموسى كريم صاحب مجلة « الشرق » طبع على نفقته « أحلام الراعي » عام ١٩٥٢ وأهداها إلى المشتركين في مجلته بدلاً من عددين . وتألفت منذ عامين في سان باولو لجنة من كرام المواطنين أخذت على عاتقها جمع آثاره وطبعها وبيعها ، فأصدرت ديوانه في أربعة أجزاء « الربيع والصيف والشتاء والخريف » . فهو اليوم غير مغبون ، ولا الفقر « توأمه » رغماً عن ان فائدته من نشر دواوينه لم تكن إلاّ معنوية ، وان أصدقاءه الناشرين لم يتعرضوا لأية خسارة مادية .

كنت على أهبة الطيران إلى القاهرة لالقاء هذه المحاضرات حينما وردتني رسالة من الأديب عيسى الناعوري يطلب فيها أن أكتب مقدمة لدراسة عن فرحات أزمع على نشرها فأجبته بهذه السطور :

« تسألني ماذا أعرف عن فرحات ! تعني بسؤالك فرحات الرجل لا فرحات الشاعر . لأن معرفتك بفرحات الشاعر كافية بدليل الدراسة التي كتبتها عنه . هو الشاعر النمرود بين شعراء المهجر . نحبه في أسخف شعر قاله وفي أخشن نكتة رواها . روحه الكبيرة تطغى على جسمه الضامر . ولسانه يطغى على الإثنين . حينما تعرفت اليه بهرني بوميض عينيه . وخُيل إليّ ان جسده شفاف لا يحجز شعاع نفسه وأني مجذوب اليه بعامل سحري لا قبل لي في دفعه . هذا عين الشعور الذي خامرني يوم التقيت بإيليا أبو ماضي للمرة الأولى مع الفارق أني في صحبة فرحات تبسطت وثرثرت ، وفي حضرة أبو ماضي تهيبت وفحمت . إن مزاجه يتمثل في شعره . إقرأ قوله :

لو منّ ربي بالنفوس على الورى   لبصقت حوبائي وقلت له خذ

تلمح حركة يديه تتحدى الفضاء وشيئاً من فمه يتطاير على الأرض ،

شيمة كل غضبان في كفرشيما . كأن حبال أعصابه المرهفة ، المتوترة ، المتحفزة أبداً للالتفاف حول الأعناق ، تتحكم في جسمه كما تتحكم في شعره فهي دوماً بين الجزر والمد . تارة ثورة وجنون وطوراً لين وسكون . موجة تداعب أذيال الحبيب :

حبيبي تعال ادن مني فكم حسدت النسيم الذي قبّلك

وموجة تصفع وجه المرائي :

ماشيته يوماً فدست خياله عرضاً فأثّر لؤمه بحذائي

وفرق آخر بينه وبين أبو ماضي . هو ان فرحات يلعن الظلام قبل أن يشعل الشمعة بينما أبو ماضي يشعل الشمعة ثم يبارك النور .

روى لي الشاعر القروي نادرة عن ذكاء فرحات وبديهته قال : « مررت في إحدى جولاتي التجارية على بلدة كوريتيبا وافتقدت في أحد فنادقها صديقي الشيخ حبيب مسعود فلم أجده وتركت له بضعة أبيات أداعبه بها وأعاتبه . فراح مسعود يروي الأبيات لكل من زاره . وبعد أسبوع مرّ فرحات بالبلدة فقصّ عليه الصحب قصّتي مع مسعود وذكروا له فحوى الأبيات مع قافيتها . فزوى فرحات بين عينيه لحظة ثم قال : يجب أن يكون شعر القروي هكذا :

فوجدت بابك مثل قلبك موصداً ورأيت بيتك مثل جيبك خالياً

فكان قول فرحات عين البيت الذي قلته بنصه وفصه .

•

في عام ١٩٥٩ استجاب فرحات لدعوة الحكومة السورية وهي نفس

الدعوة التي لبّاها الشاعر القروي قبله بعام . والفرق ان القروي جاء ليستقر في الوطن بينما فرحات يقوم بزيارة سياحية ضيفاً على الحكومة السورية لأن جذوره في البرازيل تأصلت وتعمّقت بعد أن تزوج وابتنى . زوجته جوليا جبران هي نسيبة النابغة جبران خليل جبران وأبناؤه : خالد وليلى وعصام (تبرزلوا) جميعهم ، ولولا صلابة والدهم (لبرزلوه) معهم . ففرحات يفارقهم ليعود اليهم وهم فلذات كبده لا حياة له بدونهم ، فلما نوى الرحيل استصحب زوجته وعزم على تمديد إقامته في الوطن شهوراً بعد انتهاء الضيافة الحكومية الرسمية ، فباع بيت العائلة في « بيّو اوريزنتي » ، لكي يؤمّن نفقات الرحلة الاضافية . ولا أدري كيف لم ترتجف يده ويغشى عليه وهو يوقّع سند البيع لمنزل هو حصيدة خمسين عاماً من العرق والسهر والذخيرة الوحيدة التي وفّرها لأولاده . اخاله كان سكرانَ من فرحته بالعودة إلى ملاعب صباه ، فضحّى بمنزله وبكل ما يملك من الحطام فدى منازل الحب ومسارح الأحلام .

طاف فرحات أنحاء سوريا ولبنان ومصر ، فكانت الضيافة مترفة والتكريم بالغاً في كل مكان ، كما كان إلهامه مساعفاً في كل موقف . فأسمعَ كفرشيما وبيروت ودمشق وحلب والقاهرة نغمات من شاعريته لم يزل صداها في الأسماع . ولا شك ان حفلة التكريم التي أقيمت له في قريته « كفرشيما » وجمعت نخبة من رجال الحكم والفكر والأدب كانت أحبّ الحفلات إلى نفسه . قال فيها :

وطني المفدّى طال عهد فراقنا ... ليت اللقاء يطول كالهجران
عاش المُهاجر في المَهاجر شاكياً ... بل حاسداً مَن مات في لبنان
لو عاد بالدنيا العريضة بعد ما ... فقد الفتوة عاد بالحرمان
أنا ما أتيتك واعظاً بل شاعراً ... متغزلاً بجمالك الفتان
عيناه تائهتان باحثتان في ... دنياك عن رفقائه الفتيان

وعن الصبايا الحالمات ولم يكن وضحَ الغرامُ لهنّ بالصبيان

وقفل راجعاً إلى البرازيل – وطنه الثاني – في ربيع ١٩٦٠ حاملاً وسامين على صدره ، وذكريات الرحلة في ذهنه ، وفراغاً كبيراً في جيبه ... وما كاد يستريح من السفر حتى عمد إلى تسجيل الذكريات والانطباعات في كتاب « رحلة إلى الشرق » أرسله إلى جريدة « الراصد » لطبعه فيها . ثم جمع شِعره المنظوم في السنوات الأخيرة في ديوانين ، الأول « طليعة الشتاء » ، والثاني « فواكه رجعية » أرسلهما أيضاً إلى دور النشر في بيروت . وإلى الآن لم ينته طبع الكتاب الأول ولا دخل المطبعة الديوانان الآخران . وهو يستعجل النشر حتى يدفع إلى المطبعة بكتابين آخرين أعدّهما . وهما « مذكرات فرحات » و « مغامرة صيد » ، فلا عجب ان ساوره القلق وتذمّر من سوء حظه وناشد أهل المروة أن يهتموا بأمره . كتب لي في رسالة تاريخها ٦ ايار الماضي : « اني اريد نشر هذه الكتب قبل أن يدهمني عزرائيل الذي لا أراه بعيداً عني ... ولا أفهم لماذا تقوم العراقيل في وجهي مع اني متنازل للناشرين عن كل كسب مادي .. » وإني أنقل إلى القراء ما كتب وأسألهم هل فهموا ما لم يفهمه فرحات من سبب لأهمال مؤلفاته ، وهي التي دعوه وكرّموه « ونيشنوه » من أجلها ؟

إني أذكر ما قاله بعد إقامته سنة في المهجر :

وليس فقري طفلاً عمره سنة لكنه توأمي لمّا نمَوتُ نما

ففي ذلك الزمان كان يظن نفسه (منحوساً) ولكن الأيام كذّبت ظنه وجعلته يلمس التوفيق في إلهامه وفي صحته وفي الزواج وفي البنين

وفي سياحته (الهمايونية) الأخيرة . فمهما لاقى من الصعوبات اليوم لا يخطر في باله ذلك البيت المشؤوم ، بل يغالب الأقدار بالسخرية . لقد عاد إلى منزله في (الأفق الجميل) عودة الشيخ إلى صباه . ولما فتح مخزن الكتب وجد ان الفئران والخنافس والعثّ قد أكلت ثلث المخزون . فاستغرق في الضحك بدلاً من أن يحزن . وكتب إلي يقول : « الحمد لله . وجدت من يستطعم شعري ويحب دواويني » . ثم نبش دفاتره العتيقة وراح ينظم حكايات الغرام قصائد رائعة تزخّ على مجلة « العربي » . حيناً يتغزل بفاتنة قلبه وحيناً يتدلل على المفتونة به . لقد شاب وما تاب ، شيخ الشباب !

شكر الله الجر

غادر قريته بحشوش (التي أنجبت داود بركات) عام ١٩١٩ لاحقاً بأخيه الأكبر عقل الجر إلى عاصمة البرازيل، وفي جعبته زاد وافر من العلوم العربية والآداب الغربية. وبعد أن شارك أخاه زمناً في الأعمال التجارية، عكف على استغلال أدبه، فأنشأ مجلتين على مستوى عال هما: الأندلس الجديدة، والزنابق، وأصدر كتاباً عن جبران خليل جبران سمّاه «نبي أورفليس»، وكتابه الرائع في النقد «المنقار الأحمر» وديوانين من الشعر العاطفي «الروافد» و «زنابق الفجر» وكان أول من فكر بإنشاء العصبة الأندلسية وأول من سعى لتأسيسها. وما جنى من جهوده الأدبية غير المتاعب والمشاكل ولا درّت عليه مجلته وكتبه ما يغريه بالاستمرار، فعاد إلى ميدان التجارة وأنشأ مصنعاً للقمصان يرتزقه ما يكفيه وما يصون به إباءه وكبرياءه.

هو يأبى الادلاء بسيرة حياته أو بأي حديثٍ عن نفسه. ولكن أخاه الأكبر المرحوم عقل تحدّث عنه إلى توفيق ضعون فقال: «ان أخي شكرالله كان يقرزم الشعر ويتغنى به وهو صبي حدث. ولعلي كنت الجاني عليه عفواً لأني كنت أمرّنه على قراءة الشعر واستظهاره والقائه ليعذب به لسانه. وما كنت أدري انني مُطلقه في جوّ سوف لا يلقى

فيه ديمة هتنة ولا يقع منه على أرض مُرتجة . وما حيلتي وقد كنت أنا الضحية البكر لهذا الفن حين لم تكن الدنيا قد تكشفت لي عن النافع والضار » .

هو في الأدب من دعاة التجديد الموضوعي مع التمسك بسلامة اللغة وفصاحة الأسلوب . يتميز شعره بموسيقى الألفاظ ونثره بحرارة التعابير تشع في مؤلفاته الفكرة والثقافة الواسعة والثقة بالنفس حتى لتشعر إذ تقرأه أنه يخاطبك من برج عالٍ وينظر إلى صغارتك نظرة إشفاق . لم يرض عن حظه وعن عشيرته — وحقه أن لا يرضى — ولكنه تجاوز حقّه حتى نصب نفسه حاكماً مطلق التصرف في موازينهم . قال في المنقار الأحمر :

« وإذا قلت لأحدهم ليس لدينا في العالم العربي شاعر كامل سخط عليك وراح يكردس من أسماء الأحياء والأموات أجيالاً . فان أحصيت ما تكدس من الشعر العربي منذ نشأة الشعر حتى الدقيقة التي نحن فيها فانك لا تجد سوى أفق محدود ضيق لا يزيد عن كونه صورة لحياتنا المحدودة ، الضيقة ، المبطنة بالضجر ، المكبلة بالتقاليد البالية . هات من تشاء من شعراء اليوم — وأنا منهم — لأقول لك إن كل ما نظموه لا يساوي الوقت المضاع في قراءته » .

أحسّ الكاتب صرامة حكمه فساوى نفسه بالمحكوم عليهم كي لا يظهر في مظهر الظالمين . وما درى أنه أضاف إلى فداحة الظلم خطيئة الكفر بنعمة الله عليه . فهو الشاعر الموهوب الذي نجلّه ونطرب لقراءة شعره . وما ضاع وقت نغنم منه الشجو والطرب . فان شاء أن لا ينصف نفسه أنصفناه نحن . وكما أننا لا نأخذ اعترافه على محمل الجد لا نقابل بالتصديق — قبل التحقيق — التهمة التي ألصقها بزملائه الشعراء . أليس بينهم أفذاذ أطراهم هو فيما بعد وتغنى بشعرهم ؟ أليس بينهم أخوه العبقري عقل ؟ أيريد منا أن نهمل شعر عقل البليغ هرباً من اضاعة الوقت في قراءته ؟

في حلق الشاعر غصة سببها الاغتراب وجور الحياة المهجرية على الأديب وضياع القيم في محيط جاهل مستهتر :

جلّ من قدّر السعادة للناس ومن قدر الشقاء علينـــا
قد قضينا الأعمار نبري من الأقلام أعناقها إلى أن بُرينـا
فإذا سِربنا المزقزق يفنى ريشةً ريشة ولوناً فلونـا

ولكن هذا السرب المزقزق الذي يحنو عليه ويتوجع للمصير الذي ينتظره ، لم يسلم من سهامه الحادة :

كثر الناظمون فينا ولكـــن قلّ من أولد المعاني جنينـا
إن من ينسل الخلود بيانـاً غير من ينسل الفناء بنينا

ها قد عاد إلى النقد الجارح . ولكنه استثنى نفسه هذه المرة وأشار من طرف خفي إلى من يكون ذلك الشاعر الذي « ينسل الخلود » من شعره ، وتجري في دمه عبقرية أجداده الفينيقيين . ومن يكون غير « أنا » :

أنا ابن الأبيض الرهراه والشطّ الجميل
أنا ابن الحرف والمجذاف والفكر الصقيل
أنا ابن السنديان الضخم والحور النحيل

للشاعر نظرية خاصة في القومية العربية تلوح من خلايا شعره ولاتستوقفنا قدر ما تستوقفنا عذوبة ذلك الشعر وقيمته الفنية . إننا نستسيغه أياً كان موضوعه ، وأحياناً نسكر بخمرته . قال يخاطب شلال تيجوكا :

فديتك قيثارة للطبيعـــة من مقلتيها نسلت الوتر
فعطّرْ بدمعك شعر الدجى وشنِّف بلحنك أذن القمـر

وعسّل بكأسك خمر الورود فترقص نشوانهً في السحر
وخل فؤادي يقضي ظما لدى برد سلسالك الدافق
فلست تروّي قلوب العطاش إلى نهلات الهوى الصادق
ولو سال من جفنك الكوثر

لقد شغف بالطبيعة فأبدع وصفها :

والنهر كالديباجة الخضراء جعّدها النسيم
ينساب مثل اللوعة الخرساء في صدر الكريم

* * *

ها أذان الشيخ في القبة يدوي في الفضاء
والدعا لله في الجامع والدير سواء
فصلاة الطير في الربوة والسفح غناء
وعبير الزهر بخور تعالى ،في الهواء
لا يضير الله أن نعبده حيث نشاء
هيكل الله جبال وبحار وسماء

* * *

نشر الصبح جناحه وطوى الليل وشاحه
فتعالي نهبط الشاطئ فالحب سباحه
واكشفي للشاعر الفنان عن سر الملاحه

وله جولات موفقة في القضايا الاجتماعية :

ضحك الصاحي من السكران لمّا عربدا
أترى الصاحي أم السكران قد ضلّ الهدى !

ضحك المال من الباخل لمّا بخلا
وشكا المال من الباذل لمّا بذلا
ليت شعري ، مَن مِن الإثنين كان الأعقلا ؟

وله غزل رائع مثير ، كقوله :

أسكرتِني فسكرتُ من خمرين ، لحظك والرضاب
وطبعتُها قبلاً على شفتيك تضطرب اضطرابي
قبَلٌ معربـدة على جسد تكهرب من دعـابي
جسدٌ له عبق الورود تفتحت لندى السحاب
جسد تشرّب مـن دم الشفق المضرج بالعناب
يهتز بين يديّ مرتعش التشهي والرغاب
كأس مهفهفة شربناها وغبنا في الشـراب
نمضي ونبقى اسطـراً تبكي وتضحك في كتـاب

* * *

على ان أروع ألحانه وأوقعها في القلوب هو ما غنّاه « لجبل الالهام »
لبنان ، من شعر الحب والحنين :

ان لبنان عندنا جبل الالهام والشعر حيث كنا وكـانا
حلمٌ سابح على شفق النفس وفجر يشع خلف دجانـا
نحن في البعد مقلة ترشف الغيم على افقه جوى وحنانا
وقليل ان نبـذل العمر يا ساقي ، على قطرة تبلّ ظمانا

في هذا الشعر لبست العاطفة الصادقة ما يلائمها من أثواب الجمال

وتهادت فتانة بين عرائس الخيال .

* * *

أقول ، ولا أظلم هذا الشاعر الممتاز ، إنه على علوّ كعبه في الشعر وعلى فنه الجميل في عرض الصور وتنسيق الأنغام واستنطاق العواطف ، ان اعجابي بنثره يفوق إعجابي بشعره . ففي نثره من فورة النفس ورجاحة الفكر وقوة العصب أكثر مما في شعره . أقرأ كتابه النفيس « المنقار الأحمر » فأهتز لبيانه الرائع الأخاذ ولا أشعر بالاسترخاء الذي تُشعرني بـه قصائده المطولة المنظومة في قالب الموشحات وفيها من رتوبة الصنعة ومن إتقان التزويق مـا يتعب القارئ . فالكمال الشكلي قد يُملّ أحياناً . إليكم انموذجـاً من نثره في مقـالة ليست بأحسن مقالاته :

« يتخذ الشاعر الغربي من نسمات الأرز ألسنة وأرواحاً تتكلم بألسنة الأجيال وأرواحها . ويستخرج لك من سراديب الشمس شموساً تكاد تدهش الإنسانية بتألق أنوارها . أما نحن — أبناء تلك المدنيات ، شعراء القرن العشرين ، قرن الثقافة والنور — فاننا نكتفي من الأرز بالتغزل بنسيمه وحفيف أوراقه ، ونقنع من هياكل بعلبك بضخامة أعمدتهـا وشموخها . ولا نتكلف الوثبة إلى سراديبها الحافلة بالأسرار ودهاليزها المكتظة بجماجم الأجيال . ولا نصغي إلى أصوات أرواحها الضاجّة في مسارب اللانهاية ... »

لقد تمكن شاعرنا من الآداب الفرنسية فتميز نتاجه عن نتاج زملائه في الجنوب . وشحت ثقته بهم حينما تحوّل مجراها نحو شعراء الغرب .

وفي عام ١٩٦٢ وضع شاعرنا حداً لغربته ، فودّع البرازيل وودعته الجوالي بحفلات تكريمية ، وعاد إلى لبنان حيث مهوى فؤاده ومرعى أمانيه والبقية الباقية من أهله ومحبيه . فحلّ بين مظاهر التعظيم وأنشد في

المحافل الاقليمية ما يرضي السامعين . وقد نمي الينا انه أصدر ديواناً جديداً من شعره عنوانه «أغاني الليل» لما قرأه الاستاذ الياس ربابي علق عليه تعليقاً بارعاً وردت فيه هذه الصورة القلمية للشاعر :

« لو تفرّس شكر الله الجرّ في المرآة التي جلاها (سان جون برس الحائز على جائزة نوبل في الشعر) بفنه العبقري الرائع لوجد فيها صورته كما هي في اصالة الحقيقة ووسامة المحيا ودقة الملامح ، لا يشوبها تمغّط يثير السخرية ولا تقلص يدعو إلى الاشفاق ولا فرطحة تهيج النفور ، ذلك لأن شكر الله بين أهل الشعر من أصحاب البيت ومن أعرق ذوي القربى . وإذا تصدّر المجلس ضاق كرسيه عنه ، ولأن شعره تصدق فيه أحكام صاحب الجائزة نوبل وآراؤه إلى حد بعيد » .

عقل الجر

١٨٨٥ — ١٩٤٥

هذا أديبٌ لا غشّ فيه . شعلة ذكاء في كتلة إباء . ان نثرَ نثر الزهر المنفلوطي . وإن نظمَ نظم الدر البحتري . خرج من قريته « بحشوش » إلى مدارس بيروت ، فتعلّم العربية في مدرسة الحكمة على الشيخ عبد الله البستاني والخوري يوسف الحداد ، والفرنسية في معهد اللاييك . وشرع في دراسة الطب ثم تحوّل عنها إلى الحقوق . وغلب عليه إغراء الصحافة فدخل ميدانها السياسي متمرداً على حكومة العهد في لبنان . وبعد أن حرّر في جريدة « الارز » مع صاحبَيْها الخازنين اشتدّ تضييق الحكومة عليه فقفز إلى القاهرة وحلّ على نسيبه الصحافي اليحشوشي داود بركات ، وأطلق العنان لقلمه على صفحات الأهرام مدة ثلاث سنوات ، إلى أن دهمته الحرب العالمية الأولى سنة ١٩١٤ فولّى وجهه شطر اميركا واستقرّ في عاصمة البرازيل مختاراً لسكناه أفخم وأجمل أحيائها « كوباكابانا » مسرح الجمالات التي وضعها الخالق في الأنحاء والأحياء .

لملم النسرُ جـانحيه وطـارا   لا يبـالي في سفرة الأخطار

ضاق لبنان وكنـــةً وسماءً عن مراميه فامتطى الاقــدارا

هذا كان لسان حاله من مطلع هجرته إلى ختامها . كان همه تأمين الحياة الكريمة في المهجر ورفع مستوى الجالية العربية فيه ، ولهذا الغرض تمكّن من اللغة البرتغالية وعقد صداقات مع الفئة الراقية من أبناء البرازيل وأخذ ينشر في الصحف المحلية المعلومات والابحاث عن تاريخ امتــه وآدابها وأمجادها . وما كاد يؤسس تجارة له حتى أسّس لقاءَها ندوة أدبية سمّاها « النادي الفينيقي » وجعلهـا ميداناً لفرسان الشعر وهـواة التجديد في الأدب . والاسم الفينيقي الذي خلعه عليها ما كاد يعني تنكره للعروبة بل كانت عبادته لوطنه اللبناني الصغير تحمله على إيثاره بالتمجيد على وطنه العربي الكبير . فأضعف الأبناء بنية هو أكثرهم حظـاً من عطف الوالدين . وها إني أؤيّد قولي بالنشيد الذي نظمـه للنـادي الفينيقي :

حسبكم نادي الأدب وعكاظ المهجـــر
محيياً مجد العرب من بطون الأعصر
ناشراً ما طُويـا

طرف لبنان الجميل عن هواكم لم ينم
وبعرفـــان الجميل زهر سوريا نسم
باسماً مزدهيا

أما عاطفته نحو لبنان فقد غمرت شعوره واستبدت بما نظمه من الشعر فيما بعدَ حتى أنسته أن الشاطئ ليس ببعيد عن الصحراء ، ولا بغريب عنها . فراح يتغنى بحضارة الأجداد الأبعدين الذين غرسوا الأرز ورادوا

البحار واخترعوا حروف الهجاء ، أما أمجاد الأجداد الأقربين الذين يتكلّم بلسانهم المبين ويجوّد شِعرهم الرصين فقد أسدل عليها الحجاب إلى حين :

لا بارك الله في يوم نُسام بـه ضيماً فيبرأ منا مجد ماضينا
ألم نكن وعيون الشرق شاخصةً شعباً على صغره فاق الملايينـا
ألم نكن وبحار الكون مسرحنا نلقي على أيّها شئنا مراسينا
ألم نكن لبني الدنيا أساتـذةً حتّى حروف الهجا من صنع أيدينا
ألم نكن وجيوش الفتح مطبقة من كل صوب نذود العرض والدينا
يحلو لك الأفق إن تزحف جحافلنا وتكسف الشمس إن تلمع مواضينا
إنّا ثبتنا ثبات الأرز في جبـلٍ قد جاور الله في أعلى عليّينـا
وارى الزمانُ شعوباً في غياهبه وقصّرت يده عن أن توارينـا

نلاحظ في هذا الشعر لهجة السيادة المطلقة والنزعة الاستقلالية العارمة خلافاً لمـا شاع عن ايثار الشاعر الحماية الفرنسية لوطنه على الاستقلال . فإن لم يخطئ من اتهموه في عروبته ، فقد أخطـأوا باتهـامه في لبنانيته .

امتاز شِعر عقل الجرّ بصفاء الديباجة ومتانة الأسلوب وسلامة اللغة من كل شائبة . فهو أشد المحافظين على القواعد ، المعجبين بأدب السلف إعجاباً يحمله على تقليده في الجيد الرصين المباني ، مع الانطلاق في المعاني إلى حيث شاءت فكرته المنيرة وعاطفته المشبوبة . أصاب حظـاً من التوفيق المادي وحظـاً من جمال الرجولة وأناقة المظهر فحامت عليه عيون الحسان . ولكنه لم يتزوج إلاّ من عروس الشعر ، وعاش لواجبات ثلاث : عائلته ووطنه وأدبه . ولكنها واجبات لا تحرم على الشاعر متعة المغامرات :

وشقراء كالصبح وثّابـة يغرّك منها ابتسام الطفالى
أخذت عليها عنان الطريق ورحت أسرّ اليها سؤالا
فراحت تقهقه في غنّـة كـأني أحاول منها المحالا
وقالتْ لتسمع أترابهـا كـأني أسوق اليها الضلالا
لكَ الله من شاعر واهم إلى أي أفقٍ ركبت الخيالا ؟

وها هو في نزهة على الشاطئ يصف المستحمات :

خرجن الصباح خفافاً عجـالا يلحْنَ لفرط الدلال ثمـالى
حسان أممنَ مياه الخضـمّ فراح الأجاج بهن زلالا
وقبّـل نور الصباح الثغور فزدن افترّاراً وزاد اشتعالا
درجنَ على الرمل درج القطا لواعب آناً وآناً كسـالى
يثبنَ لقذف الكرات فإمّا مللنَ الوثوب افترشن الرمالا
ولذنَ بظلّ المظال وراحت تداعب كلّ مهاةٍ غزالا

وأعجب من ذلك ان تقرأ له أرقّ الشعر العاطفي في قصيدة « ولدي » وقصيدة « أمي » وقصيدة « اليتيم في العيد » وقصيدة « عروستي الصغيرة » وهو العازب الذي خـَلـَتْ حياته من حُبِّ الزوجة والولد ، وكان يردّد قوله :

الحمد لله لا زوج ولا ولد ولا صديق عليه النفس تعتمد

ولكن خياله قويّ ، وعينه نفاذة في ملاحظة الأشياء . فان تمثّل شعور الأم نحو طفلها ، قال بلسانها :

أعطيتُه كالصبح غرتـه | مـَلـَكاً تقمص صورة الولـد
أزهو بطلعته وأحسبه | الكون جُمّع كله بيـدي
وأطلّ منه على غد لمعت | آماله في مفرق الأبـد
اشْتَمّ وجنته وأرشفه | كالشمس دمع الزهر في الرأد
وأبيحــه ثدياً يخمشـــه | فتطيب في تخميشه قَوَدي
يحتلّ عرشاً من دعائمــه | روحي ، وبسطة ملكه جسدي
تهاجني من فيه زقزقـة | تزري بصوت البلبل الغرد
يرنو إليّ . ويا لمقلتـــه | بصباحه كالنجم في الجلـد
ويهفّ نحوي منشباً يـده | في العين أو في النحر والعضد
فأزقّه قُبلي وأرهقـه | وأكاد ارجعه إلى كبدي ..
فكـأنني وأنا أدغدغـه | طفل . وطفلي دمية بيـدي

وما كان هذا الشاعر الوقور يهش يوماً لطفل أو يطبع قبلة على جبين طفلة وإنما هي رهافة الإحساس ودقة الملاحظة وسعة الخيال قامت مقام الحقيقة في إيحاء المشاهد والأحاسيس الملازمة لحياة الأم مع طفلهـا الرضيع .

وقصيدته في الأم هي من أمهات القصائد ، وفيها يقول :

ذكرتُ ولكن كحلم الكرى | أموراً تقضت زمان الصغـر
غداة أدبّ دبيب النمـال | وحولي تدب ظروف القدر
اتعتع لا مفصحـاً كلمة | فتحسب أمي كلامي درر
وابكي فيضجر بي والـدي | وليس يلم بأمي الضجـر
فتلهب خديَ من لثمهـا | وتمسح من أدمعي ما انحدر
ويوم مرضت فجنّتْ وراحت | ترود الكنائس قبل السـحر
تودّ لو ان الفدى ممكن | فتفدي حيـاتي بنور البصـر

أئنّ فتشعر في صدرها كأن أنيني وخز الإبَر
ودار الزمان بأحداثه ومرّ على عقدنا فانتثر
وجرّد أمي مني كما تجرد كف الخريف الشجر
ورحت أخوض غمار الحياة ودون الحياة زحام البشر
فأعثر بالمكر والاحتيال وأمني على عفتي بالضرر
فأيقظ في النفس هذا القنوط ادّكاري أمسي وعهداً عبر
إذا ما تمنى رجوع الشباب أناس تمنيت عَوْدَ الصغر

وقد عرف الشاعر عقل بطلاوة الحديث وسرعة الخاطر في النظم . فما ضمه مجلس إلاّ نظم فيه على الفور ما يناسب المقام أو ما يُقترح عليه . وقد جمع أخوه شكر الله المطارحات الشعرية التي اشترك فيها عقل في كتاب ظل مخطوطاً . ولعله طُبع الآن في بيروت بعد عودة أخيه شكر الله اليها . وكانت وفاته منذ حوالى عشرة أعوام (بينما كان يتحفز للعودة إلى لبنان) مصاباً ألمّ بأهل الأدب المهجري فعقدوا له المآتم وصعّدوا الزفرات . وفي ذكرى الأربعين لوفاته أحيت له « العصبة الأندلسية » في سان باولو حفلة تذكارية كبرى . تغمده الله برضوانه .

نصر سمعان

١٩٠٥

شاب موهوب ناهض ، وليد بلدة « القصير » من أعمال حمص . أغرته التجارة في البرازيل بوعود خلابة فاستسلم اليها وطلق المدرسة في حمص في سنّ باكرة بعد دراسة عام واحد . فكان علمه مطالعة وثقافته اكتساباً . وها هو في سان باولو منذ عام ١٩٢٠ يستعيذ بالله من خدعة الوعود ويتلهى بالكأس عن خيبة الآمال ، ويقرض الشعر كأبلغ شعراء العربية دون أن يتعلم العروض والبديع والبيان .

هو شاعر « النادي الحمصي » ، أكبر نادٍ عربي في المهاجر الأميركية ، وعضو في العصبة الأندلسية . لم يطّبع ديواناً ولكن المجلات الأدبية زودتنا بالكثير من القصائد التي ألقاها في المحافل لمناسبات شتّى (وقد سبق لنا ان استشهدنا باثنتين منها) وفي كل منها أثر بارز من شاعريته ولهيب متأجج من وطنيته . فلمّا وقعت الواقعة في فلسطين صرخ من أعماقه :

وثبت فلسطينٌ وحاشا أن تزلّ بها القدم
تحيي لنا الأمل الذبيح وتحتسي كأس الألم

وتخوض في سبل العلى بحرين من دمع ودم
عرفت بها الأمم الغريبة ما تعزّ به الأمم
الحقّ يشرق في الظبى والعزّ يخفق في العلم
والطهر كل الطهر في القبر المقدّس والحرم
لا تحجبوا عنها الندى فالشح يعقبه الندم
قام الإباء بقسطه يا قوم فليقم الكرم

* * *

ولكنه ما كاد يتم صرخته حتى تحوّل النصر إلى هزيمة ، والانتصار إلى إنكسار ، عند ذاك قعد نصر سمعان مقعد البطل وقد تثلم سيفه وتكنفته الاعداء ، قعد ليرسلها زفرة لاهبة ، تشوي الوجوه وتحرق الاكباد :

ماذا أقول وعرب اليوم قد هدموا مجداً تفنن في ابداعه السلفُ
لئن بكينا على آمالنا أسفاً ان الذين أضاعوا القدس ما أسفوا
هاجوا وماجوا وهزّوا الأرض واندفعوا
لكن إلى حيث لم يُعرف لهم هدفُ
وكيف أقنع نفسي وهي قائلة ما بالهم الفوا غير الذي ألفوا؟
أننكر الذلّ أم نخفي مظاهره بالوهم والهدنة السوداء نعترف؟
واحيرة المجد في قوم اعد لهم عرس الجهاد فما غنّوا ولاعزفوا
تحالفوا تحت اعلام الاخاء على صون الاباء وفي ميدانه اختلفوا
أضحت فلسطين في التاريخ لؤلؤة حسناء والعُرب بحر كله صدف

وقال يمتدح همّة الشباب التي شادت في سان باولو النادي الحمصي الباذخ :

سبحان من رفعت يداه دعائم السبع الطباق
خلق العلى وأعدّ من همم الشباب لها مراقي
بالله يا شعباً تشقّ له الضريح يدُ النفاق
ماذا يضيرك لو حلفت على التعصب بالطلاق

في شعره قوة الايمان بالعروبة وبراءة الحب الخالص للوطن البعيد ، ذلك الوطن الموبوء بآفات التعصب والتخاذل والشحّ ، المثخن بسهام المستعمرين . ما أتيحت له فرصة الكلام في حفلة إلاّ ضمّن كلامه ما يخالج صدره من أحاسيس ، هي في الواقع أحاسيس الجمهور المستمع وتخلص من المناسبة المفروضة عليه إلى معالجة قضايا الوطن المنكوب . خطب في حفلة الذكرى لمولد نبي العرب ، فأوحت اليه المناسبة هذه الآيات :

بزغتَ فحيت الجوزاء مهدك وأعلت فوق مجد الشمس مجدك
وكل فم له الفصحى لسان يردد بعد حمد الله حمدك
وكم خلَت الممالك من ذويها وأنت ملأت قلب الدهر وحدك
نبيّ قريش ،إن قريش ولّت وولّت أشرف النزعات بعدك
فلا عمرٌ تراه ولا عليّ يقود إلى مراقي العزّ جندك
وغاية ما ترى اشتات شعب تردى فوق برد الحيف بردك
أعيذك أن تكون رسول قوم أضاعوا ما وقفت عليه جهدك

وقال في حفلة الذكرى الألفية للمتنبي :

أسكب أبا الطيبات الراح صافية ونقّل الدهر من دنٍّ إلى دنّ
لقّنت ألحانك الدنيا وقلت لها : ما دمتِ باقية غنّي بها غني

ما ذرّ نجم تزين الشرقَ طلعتُـهُ إلاّ وفي فمه اسـطورة عـني.
فيم التغني بذكري في محافلكـم وأيّ يوم خلـت دنياكمُ مني ؟

خانه الحظ في المساعي التجارية . أمّا سعيه إلى قمة المجد الأدبي فمكلل بالغار . وهو شاعر المستقبل في دنيا المهاجرين ان عرف كيف يقشع ضباب القنوط عن بصيرته وباصرته :

أسعى وراء الرزق مجتهداً والدهر في الحرمان يجتهد
ما إن ذرفت الدمع في بلد إلاّ وحنّ لمدمعي بلـد

حسني غراب

١٨٩٩ – ١٩٥٠

غادر حمص حين غادرها رفيقه نصر سمعان عام ١٩٢٠ متجهاً الوجهة ذاتها ومارس التجارة في سان باولو مثله . لكنه وجد في القناعة كنزاً لا يفنى فاعتصم بها وصان كرامته وكيان عائلته . وما كان العمل في متجر صغير يتناسب مع طموح نفسه وجسامة آماله ، وهو القائل :

وإنّ نفسيَ تأبى أن تُمد يدٌ إلى انتشالي وفيها إصبعٌ لغني

لم ينصرف الشاعر حسني إلى الأدب والتحرير إلا في ساعات الفراغ القليلة أو في المناسبات التي لا يجد مناصاً من الكلام فيها . كان متمكناً من علوم اللغة العربية ، حافظاً شعر الأقدمين ، ناسجاً على منوال المجيدين منهم . قال عنه عمر أبو ريشة إنه أصفى شعراء المهجر ديباجة . ومن شاء تمحيص هذه الشهادة ما عليه إلاّ أن يقارن قصائده بالقصائد التي أنشدها زملاؤه في ذات الموضوع وذات الحفلة ، كقصيدته في

فلسطين (يراجع فصل أدب الحفلات) وقصيدته في المولد النبوي التي قال في مطلعها :

شعلة الحق لم تزل يا محمد　　منذ أضرمتَ نارها تتوقّد
غمر الأرض نورها فإذا رُمت　　دليلاً فعد إلى الأرض واشهد
جئت والناس في ضلال وغيّ　　ومن الهدي في يديك مهند
ودوت ضجة ، فدُلّ فخرّوا　　خشية الحق راكعين وسجّد
فإذا الأرض غير ما كنت تلقى　　وإذا الناس غير ما كنت تعهد

هو لا يتنازل عن فخامة الديباجة حتى في أرقّ شعره العاطفي :

أبعد حمص لنا دمع يراق على　　منازل أم بنا من حادث هلع
دار نحنّ اليها كلما ذكرت　　كأنما هي من أكبادنا قطع
وملعب للصبا نأسى لفرقته　　كأنه من سواد العين منتزع

ونعم المحافظة على القديم إن كانت تعني المحافظة على شروط الجمال التي نراها متوفرة في هذا الشعر :

وطن لو خُيّر الحسن لما　　اختار إلاّه من الدنيا مقرّ
يشتهي كل غريب قربه　　وقضاء الله يأبى والقدر
عفوك اللهم إن هِمنا به　　وعبدناه تراباً وحجر

ولا أدل على عاطفته الإنسانية الكريمة من هذا المقطع الجميل :

يقول ليَ البخيل وقد رآني　　أجود ببعض ما ملكت يدايا

ألم تحسب ليوم غدٍ حساباً ويوم غد محاط بالرزايا
فقلت صدقت واسترعيت سمعاً لو انك ناصح بشراً سوايا
أتنهاني عن المعروف خوفاً على مال تبدّده العطايا
وحولي من ضحايا البؤس ناس تذوب لفرط شقوتهم حشايا
أكنت تلجّ في عذلي ولومي لو انك بعض هاتيك الضحايا ؟

نزع إلى الشعر السياسي استجابة لعاطفته الوطنية الوقادة . وكانت له مواقف رائعة في حفلات النادي الحمصي ، نذكر منها موقفه في حفلة تأبين نسيب عريضه :

الحمد لله لا همٌّ ولا وصَب نام العليل وألقى حمله التعِبُ
إنّ الوجود الذي غادرته عدم والعامرات التي فارقتها خرب
والأرض ثغر مخيفٌ، وحشُه بشرٌ كم فيه مغتصبٌ يحميه مغتصب
أظفاره بِلُهى الأحرار عالقة ونابُه بدم الابرار مختضب

قُبض حسني إلى رحمة ربه وفجع به الأدب المهجري كما فجع بكثيرين قبله من بلابل الشعر في البرازيل . ولم يترك أثراً مطبوعاً ، إلا أن أخاه الأديب النابه مدحت غراب جدّ في جمع آثاره في ديوان وقبل أن ينتهي من عمله أدركته الوفاة فلحق بأخيه حسني مأسوفاً على شبابه .

ميشال مغربي

(١٩٠١)

نزح من حمص إلى شيلي عام ١٩٢٣ ثم إلى البرازيل عام ١٩٢٤ ، وهو الآن تاجر كبير في سان باولو ، يطارد الشعر والشعر يطارده ، فان التقيا على غفلة من الأشغال المادية جاء بشعر غنائي بديع . وان اهتم بمناسبة عرضت اجاد النظم ، ثم انصرف إلى مهامه وقتاً طويلاً ، لا ينتزعه الشعر منها الا بقوة قاهرة خارجة من أعماق نفسه . أصدر ديوان « العواطف » قبل هجرته ، وتناساه بعدها منصرفاً إلى ألوان جديدة من شعر الحياة في شتى مناحيها : سياسة – فلسفة – اجتماع – خيالات – نقد – وصف – مناجاة ، فضلاً عن اضطلاعه بالمهمة الوطنية كسائر معاصريه من شعراء المهجر . وما أجمل تحيته لبلدته حمص حينما زارها بعد غياب ثلث قرن :

حسراً أمرّ على ربوع طفولتي ومواكب الذكرى تمرّ حيالي

مترفّق الخطوات ، لا اطأ الثرى إلاّ وقلبي سابق لنعالي

ولقد اكبّ على الحجار مقبّلا وأعفر الأهداب بالصلصال

لا يعشق الأحرار غير بلادهم ولو انها طللٌ من الاطلال

وهو رسوليّ النزعة ، ذو رأي خاص في قضية الدين :

إن ديني أن أترك الـدين من اجل بلادي وأعبد الاحجارا
وصلاتي ان لا الـه سوى الأرض ولو كـان أهلها كفّارا

ومن حسناته قوله لايليا أبو ماضي معرضاً بقصيدة الطلاسم :

ايه يا طير ، ان سرّ البرايا بابه ظل محكم الاغـلاق
حسبنا في الوجود أنا وسعنا كل حسن الوجود.. بالأحداق
وامتطينا أحلامنا فجرت خلف الثريا ، جريَ الخيول العِتـاق
«لا نبالي» من أين جئنا ولا أين سنمضي ومـا عسانا نلاقي

ولكننا لا نجده مخلصاً في قوله « لا نبالي .. » وهو الذي بالى كثيراً في الاستكشاف عن منشأ الإنسان ومصيره ووقع في الحيرة التي وقع فيهـا شعراء الشمال :

ماذا وراء القبر يا خـالقي من بعد أن أخلع هذا الجسد؟
اعددتَ ناراً أم تُرى جنةً لشاعر على رضاك اعتمـد؟
يشفع في محو معاصيه
بعضُ خصال حلوة فيـه ترضيك مولايَ مبـاديه
معتقداً ما اعتقـد
فؤاده برغم آثامـه ممتلىءٌ حباً وايمانـا
كان كزرّ الورد في طهـره لو أنت لم تخلقه انسـانا ..
لكنه مسيّر بالقدر

فان يكن بالذنب يوماً عثر وأنت تدري كم بكى واعتذر
اليك ندمانا !

* * *

وشاعرنا شديد الاحساس بكآبة المساء ، يتطير من هجوم الليل، ويتعرض لانفعالات كالتي تعرّض لها خليل مطران وأبو ماضي « في المساء » :

نُشرت راية الأصيل لتطوي صفحة اليوم بعد صفحة أمسِ
هو ذا الليل هاجمٌ في سواد يغمر الأرض بالأسى والتأسي
ناشراً راية الكآبة حتّى لأخال الوجود مرآة نفسي
رب كاس شربتها وأنا وحدي مكبٌّ على همومي وكاسي
كلما أفرغت من الخمر أشفقتُ من الصحو أن يعاود راسي

الياس عبد الله طعمه

١٨٨٩ – ١٩٤١

علم من أعلام الشعر القدامى . نظـَمه رائعاً فخماً بديباجة الجاهليين حماسياً عصرياً بروح الثائرين . لبناني عربي كريم النجاد أبي النفس ، يتوقد غيرة على العروبة كأنه جن بحبها فأنشدها شعر الملوَّح بليلاه ، وبدأت شهرته بالأناشيد الوطنية التي كان ينظمها فتُلحَّن وترددها الجماهيرُ كقوله :

صليل الظبى وصرير القلم
لفكّ القيود وشق الظلم

هو ابن عبد الله الياس طعمه ومرشه خليل طوبيا . ولد في « قرنة الحمراء » عام ١٨٨٩ ودرس في كلية عينطورا من ١٨٩٩ إلى ١٩٠٣ ، وفي مدرسة الحكمة إلى ١٩٠٦ . وكان يبرز بشدة ذكائه كما كان يبرز بشدة مراسه وكبريائه . يقول عنه رفيقه مارون عبود انه كان صفاً مستقلاً في الصف ، ارستوقراطي الطلعة والملبس ، وكانت العروبة فيه طبعاً لا تطبّعاً .

وبعد انتهاء دروسه لزم بيته عامين ألّف فيهما ثلاث روايات ونظم نشيد الانشاد شعراً وترجم ست روايات عن الفرنسية . ومع ذلك سئم حياة العزلة والهدوء في قريته فولّى وجهه شطر البحار وعرّج على مصر وتغنّى « بظلال وادي النيل » وساح في الأندلس فأثرت السياحة في نفسه وفي شاعريته ولصق خياله « بوطن العروبة الاكبر حيث نزل أجدادنا وتكسرت سيوفهم وخلدت آثارهم » . وبعد أن زار ايطاليا وفرنسا والبرتغال التفت إلى المهاجر الاميركية قائلاً :

دعوني أسرْ في الأرض لا مُتلفـّتا ‏ ‏ ‏ ‏ يُخاف ولا مسترزقاً يتملقُ

وفي عام ١٩٠٨ حلّ في الارجنتين فضاقت على وسعها بطموحه إلى المجد العربي والمجد الأدبي . فرحل عنها إلى البرازيل وانشأ في العاصمة جريدة « الحمراء » عام ١٩١٣ وحجبها بعد أربع سنوات لينغمس في المغامرات الفاشلة ويتيه في الأحلام الخادعة . لم يطمئن له بال أو يستقر على حال حتى شهد وأشهد الناس على انه اهتدى إلى دين الاسلام وأصبح منذ عام ١٩١٦ ابا الفضل الوليد ، عبد الله بن طعمه . كان ذلك (الرواية لتوفيق ضعون في كتاب ذكرى الهجرة) « ساعة التجلّي » في حضرة نفر من الأصدقاء المعجبين وعلى نغمات الأناشيد ورنين الأوتار وحفيف الأغصان وخرير السواقي ، في قمة جبل كوركوقادو (أعلى جبال ريو دي جانيرو حيث يقف تمثال المسيح عملاقاً باسطاً ذراعيه لاقتبال القادمين) ، هناك طُهّر شاعرنا من العجمة ومن المارونية ونزل من تلك القمة عربياً لا غشّ فيه مختالاً ببرد قشيب من الاسم القحطاني الجديد .

تطوّر الرجل منذ ذلك اليوم وتجدد قلباً وقالباً . اسمعه يصلّي :

« يا مالك السماوات والأرض . وقابض الدول والسلاطين
خلّص الشرق من الغربيّين . ونجّنا من مكايد الأجنبيين
واجعلنا متديّنين غير متعصّبين . أحراراً مستقلّين
غير مسيطَر عليهم ولا متفرنجين » .

قبل ذلك العام كان قد أصدر ديوان « الغربيّات » وديوان « أغاريد في عواصف » ، وبعد إسلامه أصدر « الانفاس الملتهبة » عام ١٩١٧ وديوان « نفحات الصور » عام ١٩٢١ فضلاً عن اربعة كتب : أحاديث المجد والوجد – كتاب القضيتين – كتاب المالك – كتاب التسريح والتصريح . ثم عاد إلى وطنه حاجاً إلى الحجاز وضيفاً كريماً على الملك الحسين بن علي الذي منحه لقب شيخ فزاد هيامه بالعروبة واعتزازه بالاسلام . ومن العقبة قصد إلى الملك فيصل في بغداد فحلّ مكرماً ورحل موصولاً . وذهب إلى برلين عام ١٩٢٩ مندوباً عن لبنان في مؤتمر . وكان الحصاد الأدبي من هذه الرحلات طائفة من القصائد المطولات ، تُعتبر معلقات عصرية ، بليغٌ وقعها في النفوس العربية :

يا أيها المسجد العاني بقرطبة ... هلاّ تُذكّرك الاجراسُ تأذينا ؟
تلك المساجد صارت للعدى بيَعاً ... بعد الأئمة لا تهوى الرهابينا

* * *

هذي القصائد اركانٌ لمملكة ... قلبي خرابٌ لمرأى ربعها الخربِ
في كل قافيةٍ تنقضّ صاعقةٌ ... على الذين استحلوا حرمة العربِ

* * *

أنا فتىً عربيّ بين أضلعه ... تاريخ قوم هم الأنوار والسحب
قد رنّحته أحاديث الحمى طرباً ... كما تثنّى لهبّاتِ الصّبا القصب

نفسي تلظّت بحب العرب فاشتعلت		بها نفوس إلى العلياء تصطحب

* * *

وإذا الاعادي عيّروك بنسبة		عربية فيها صفاء الماءِ
قولي هيَ الفخر العظيم لأنها		شرفٌ ورثناه عن الآباءِ
أزرتْ بنا الدنيا وأبقتْ مجدنا		فشقاؤنا أبهى من النعماءِ

نهتم كثيراً بأمر هذا الشاعر ونسترسل بالحديث عنه لأنه من أمجاد المهجر الجنوبي، فقد نظم ثلاثة ارباع آثاره الأدبية في الاربعة عشر عاماً التي قضاها بين الارجنتين والبرازيل. وقاسى في الغربة ما قاساه أمثاله من الأدباء المهاجرين وحنّ إلى داره وأهله مثل حنينهم :

وطني لدى ذكراه أبكي يائساً		من عودةٍ ويدي على احشائي
العين تحمل شمسه وسماءَهُ		والصدر يحمل منه طيب هواء
لكن رغبت من الاقامة عزّةً		وأعزّ شيء ما تركت ورائي

* * *

لبنان، بالله يا لبنان كم ولد		في القرب مضطهد، في البعد متّهمِ
يصبو اليك ويشكو في النوى ألماً		ورزقُه عرضةٌ للظالم النهمِ
النفس حامت على لبنان واجدةً		وأيّ نفسٍ على لبنان لم تحمِ
والقلب هام بواديه وغابته		ان الفَراش بغير الزهر لم يهمِ
أرواحُ أجدادنا، ابناؤهم ضعفوا		فصيّري الدم ناراً في عروقهمِ
أرواح أجدادنا، هل أنت سامعةٌ		شكوى البنين على اطلال أرضهم
قد خُضبت بدماءٍ منك طاهرة		واليوم تُسقى البقايا من دموعهم

هذا الشاعر كتب ما يشبه الاعترافات عن المحن التي اعترضته في

الهجرة ولكنها اعترافات بعيدة عن التواضع وعن محاسبة النفس :

« لم يكن سفري عن حاجة بل عن هوى ولجاجة . فلما رسا في بونس ايرس المركب ، اضمحل الحلم المذهب . فما صحبني ثغر بسام، ولا مُدّت إليّ أيدي كرام . هناك قلوبٌ حجّرها الحرص ، ونـاس يتهارشون على القرص . فعشتُ عاثر الجد ، ضائع الكد ، أُصبحُ على أمل وأمسي على وجل . فسئمت الرزق القليل وعزمت على الرحيل إلى عاصمة البرازيل ، وهناك حاولت الإثراء بالمخاطرة ، فلم يسعفني الحظ بالمناصرة . فجازفت بمالي وصحتي ، وكانت محنتي ما حسبته منحتي . حتى ضيّعتُ كل ثمين لديّ ، وبتّ من الندامة أعضّ على يديّ » .

وعلى هذا النمط يصف بازدراء حال المهاجرين ويصف باستعلاء شعره الرصين ، الذي « نزعه من القلب تقدمة لابناء الشعب » و « مهد بـه للشعراء سبُلاً ، ونثر من الكواكب شعلاً » ... إلى آخر المسبحة .

اجل . لقد ضاع شعره صرخة في واد لأنه كان يُطيل حتى يُملّ . وضاع جهده في سبيل المادة لأنه شذّ عن محيطه في أفكاره ومعاملته فلم يجد فيه من يقدره حق قدره ويشاطره نزعاته وهمومه ويتعاون معه في طريق الحياة . اسمعه يفضح نفسه في المقطع الاول ، ويتحدى محيطه في المقطع الثاني :

ألا ربّ ليـل بالقمار قطعته	فأصبحت منه فاقداً متفقدا
بديباجة خضراء بعت سعادتي	ونمت على السوداء حيران موجدا
كتبت على قبر المقامر آيـتي	لقد عاش ملحوداً وقد مات ملحدا
دعوني أنم في القبر نومة ماجـد	فيسكت هذا القلب أو تسكت العدى

* * *

يا شامتين بنفس لم تنل أربـاً	حذار منها فهذي نومة الأســد
إني لأحملها في الصدر صاعقـة	حتى إذا انفجرت طارت من الجسد

ما حال نسر كسير الجانحين رأى كلّ العصافير ورّاداً ولم يرد ؟
لهفي على ولد يقضي الحياة بلا أمٍّ ولهفي على أمّ بلا ولـــد

* * *

هذا الشاعر الصلب مُفجّر الصواعق من صدره ، يرقّ كالنسيم ويذوب كالندى متى ذكر أمّه التي تترقب عودته إلى القرية الهادئـة الهانئة ، فيبعث الأسى في القلوب حين يقول :

وأقتل ما ألقى من البين أنّ لي هنالك أمّـاً ضائع دمعها الغالي
أمام نجوم الليل تقرع صدرها وللموج في الظلماء رنة اعوالِ
أتبكي لأجلي بنتُ أشرف قومهـا وتضحك مني في النوى بنت زبال ؟

في هذا البيت الأخير صورة المأساة التي عاناها في هجرته ، فهو الشاعر الكبير بأصله وبأصالته – ولا نقول نابغة الزمان ومعجزة الكون كما يقول عن نفسه – لا تعترف بقدره وشعره البيئة العربية الجاهلة ، والبيئة الغربية السافلة (كذا) . عبثاً حاول وضع الأشياء في مواضعها وحمّل نفسه ما لا تطيق . وحينما نهكه الجهد عاد إلى قرنة الحمرا ابنها الشيخ ابو الفضل الوليد عبد الله بن طعمه ومات في داره وبين أهله ، حيث جميع الخلائق حتى عصافير البستان تسبّح لمار مارون . فأسدل الحجاب على خليط من العبقرية والشذوذ على لفحة من أجيج الوطنية في نفحة من الشمائل اليعربية .

وقد سرّنا ان يشاركنا الاهتمام بهذا الشاعر صديقنا الألمعي الاستاذ عجاج نويهض فقد أخبرنا انه توجه إلى بيته في « قرنة الحمرا » وتأمل في رسمه (صنعه عمر الأنسي) بالعباءة العربية مكبراً ومتصدراً الغرفة

(وهو الذي صدّر دواوينه الأولى برسمه بالشعر المقبّب المعقوص والجدائل المستعارة كزيّ نبلاء فرنسا في القرن السابع عشر) وتحدث مع شقيقه وشقيقته عن المخطوطات التي تركها الفقيد فوجد أنها تبعثرت وضاعت ولم يبق منها إلا النزر ، مع نسخ من الكتب المطبوعة يوزعونها هدايا على الزائرين .

نعمة قازان

(١٩٠٨)

شاعر لبناني كبير من «جديتا» ، لا سبيل إلى إنكار شاعريته مهما تضاربت الآراء في صحة اتجاهاته وجودة فنّه . انه «خلاق عملاق» بشهادة كل من عرفه شخصياً وكل من تتبع آثاره الأدبية .

أتم دروسه في الكلية الوطنية في الشويفات ونال شهادتها عام ١٩٢٦ وسافر على الاثر إلى عاصمة البرازيل فوصلها عام ١٩٢٧ ناضج الثقافة . وطرق التجارة من أبوابها — التجول أولاً والمتجر بعده — وبلغ الهدف المنشود من النجاح والثراء لمّا أنشأ مصنعاً للأحذية دون أن يتخلى عن حرفة الأديب وفي ذلك يقول :

لو كان شعري كبعض الشعر أحذية ... لكنت أملأ هذا الكون أشعارا
لكنّ شعري مسامير مبشمة ... أودعتها في رؤوس الناس أسرارا

والواقع ان أشعار نعمه قازان هي إما مسامير يدقّها في جباه من يخالفونه في عقيدته ، أو أسرارٌ يهمس بها في آذان أنصاره . ولا نفهم من تلك العقيدة في قصائده المطولة إلا أنها روحانية مقتبسة من المسيحية

بتصرّف كثير ومعارضة للمفاهيم المتداولة في أمور الدين وقضايا النفس ، وأن لها أشياعاً وأتباعاً يحترم علمهم ورأيهم . لا أثر للتعصب أو الالحاد في فلسفته لأنها تقوم على الحب وتهتدي بنور المسيح المتوهج في قلبه :

ما بين قلبي ودين الله نافــذة قد سدّها الفكر بالتعليل والعللِ
والله من خلفها نور يقبّلني فلا أحس به . واضيعة القبل!
ما زلت أبحث في الصحراء عن جملي
حتى انتبهت لنفسي ، راكباً جملي ...

* * * *

ألا كل دين ما خلا الحب بدعة وكل اجتهاد ما عداه ظنون
إذا انفتحت في القلب نافذة السما تكون سماء المرء حيث يكـون

ان موضوعه الأثير هو ذاته وموته وحياته :

وأعجب كيف الموت يقوى على فتى
يواكبه قلب من النور ممتلـي
فلو زارني موتي على حين غفلة
لحار وربي كيف يقبض مقتلي

* * *

سكّينـــة الأيـام في صدري وهأنذا جريـــح
جرحـــاً عميقـــاً لا دماء تنزّ منه ولا يقيـــح
ومشى الزمان وما مشى إلاّ كما يمشي الكسيـــح
فدخلت وكر الفكــر كالأفعى أفحّ به فحيـــح
فكري ، وما أدراك مـا فكري ، عدوي المستبيـح

ومشي الزمان وقد تعبت وإذ قعدت لأستريح
قعد الزمان . وها أنا أمشي على جرحي صحيح
لم يشف جرحي غيرُ فهمي ذلك الفهم المسيح !

* * *

يتبادر إلى الذهن ان هذه الأقوال هي دعوة إلى الايمان استجابة لهاتف القلب ، وإلى طرح التعاليل والتحاليل العقلية التي تلقي على « النور » غيوم الشكوك فنتساءل لماذا أجهد الشاعر فكره وملأ شعره بهذه الاجتهادات العقلية التي يعترف بضررها ويدعو إلى نبذها ؟

لقد وجدناه يحاسب نفسه ويحاسب الناس على أفكارهم وأقوالهم وأعمالهم حساباً عسيراً في ديوان أصدره عام ١٩٣٨ وهو « معلقة الأرز » بأصولها وذيولها ... والتي نالت أعظم اهتمام من الأديب المصري محمود الشريف ، فعلّق عليها وشرحها وما زال يناضل عن حوزتها بحرارة وإيمان . وقد اشتهرت تلك المعلقة كما اشتهرت قصيدة « افلاس » التي يقول في مطلعها :

أنا تاجرٌ أنا بائعٌ أنا شاري مَنْ ذا يجاريني من التجارِ ؟
هذي مضامير الجهاد كثيرة من شاء فلينزل إلى مضماري
أرخصتُ اسعاري على رغم الغلا هيهات من يقوى على اسعاري
وقّعت ايماني على قيثارتي وعزفت افلاسي على اوتاري
ووقفتُ في سوق الحياة مُدللا مَنْ يشتري زهراً بلا اثمار ؟

إن شعر قازان ينم على شاعرية فياضة مطبوعة وعن تفكير عميق مستنير يطوّع القوافي بمقدرة عجيبة وكم تخطى الشعر إلى الفلسفة وبقي بيانه عذباً . ولكن الفكرة لا تظهر أحياناً في شكل ناصع واضح . فإن

عابوا عليه الانحدار إلى مستوى الكلام العادي والاستهتار بقواعد اللغة والعروض أجاب :

إذا قام شعر بألفاظه تكون القواميس خير الكتب

وكم رقّ شعره وراق متى خرج من الفلسفة الميتافيزيقية إلى جو الناس :

قالت وقلت كأننا في بابل حتى رنتْ ففهمت بالالحاظ
وتمرّدت روحي على جسدي كما يتمرد المعنى على الألفاظ

أمّا ان ترنّح واستطرب كما في قصيدته « رنة شعر » فحذارك من السكر :

وحيدَيْن كنّا ولا ثالث سوى الصمت والليل والرهبةِ
فقالت وفي قولها نيّةٌ وربّك أعلم بالنيّةِ :
إذا كنتَ يا شاعري شاعراً فصوّر لي الشعر في القبلةِ
فقلتُ : أصوّره فكرةً إذا رضي الشعر بالفكرةِ
وقد يُبعث الشعرُ في لفظة إذا نبض الحبّ في لفظةِ
ورحتُ أصوره قبلةً فقلتُ : شفاهٌ على جمرةِ
فحيناً تُضَمّ على فتحةٍ وتُفتَح حيناً على ضمّة ..
وبين الشفاه لهيب عجيب يضجّ ويخفت في بحّة
فراحت تضم وتفتح فاها دلالاً على غير ما نكهة
وعادت تلمّظ وهي تقول: عجبتُ لشعر بلا رنّة
فقلتُ وقد غاض فيّ الحياء وفاضت على شفتي مهجتي :

« فديتك ، ما هكذا يشعرون » ورحتُ ألقّن تلميذتي
ودوزنت شعري على ثغرها فراح يرنّ مع القبلةِ

وله كثير من أمثال هذه الحسنات ، لا تخلو منها معلقة الأرز نفسها ، هو حامل لواء المعارضة للشاعر القروي . لا يغفر له تسامحه الديني وإيثاره سيف محمد على إنجيل يسوع . وحامل مبخرة التقديس لجبران خليل جبران . فهو يقول عنه « جبران فجر . ونعيمه فجر في فجر . وأنا لست إلا شعاعاً من ذلك الفجر » .

وما أصدق قوله :

حرّ فلست أبالي بكل ما قد يكونْ
إن كان هذا جنوناً ربّاه زدني جنونْ!

روى انه لأول مرة رأى ابنته تتقدم بورقتها إلى صندوق الاقتراع فشعر بأنه لم يعد غريباً في البرازيل ، وأطلق العنان لتيّار شعره :

لا تسأليه إذا غصّتْ مآقيه لم يبقَ من يومه إلاّ لياليه
لا تسأليه ، خذيه من بوادره إن البوادر تحكي عن معانيه
لا تسأليه غريباً عاش في بلدٍ أعطاه من صلبه أغلى أمانيه
أعطاه سمراء مثل الصبح طلعتها أحلى بعينيه من أحلى غوانيه
أعطاه من عظمه ، أعطاه من دمه أعطاه من قلبه ، أعطاه من فيه
أعطاه من جنبه عمراً بكامله وكلّ ما ليس يُعطى فهو معطيه
حتى الطفولة ، حُلم الله في ولدٍ لو كان يعطى ، لما ضنّت أياديه
يا حبذا بلدٌ عاش الشباب بهِ بالروح لو كان يُفدى كان يفديه
وهو ابن لبنان عالٍ مثل ارزته وابن البرازيل رحبٌ مثل أهليه

وانّ من البيان لسحراً .

جوزيف ابراهيم الخوري

طبيب أسنان . ونكتة الشعر العربي في المهجر . وُلد في عاصمة البرازيل حوالي عام ١٩٢٠ . أبوه لبناني من قرية « الذوق » . أرسله إلى الوطن ليتعلم العربية والحقوق فعاد بعد ثلاث سنوات حاملاً إلى المهجر إحساس الشاعر العربي الأصيل وبيانه الجميل . واحترف طب الاسنان بدلاً من المحاماة . في شعره اندفاق الأمواج وافترار الشواطئ في خلجان (الريو دي جانيرو) حيث يقيم ويتأمل ويتغنى . يصف نفسه في وصف الشاعر الساهر على شاطئ (كوباكابانا) الساحر :

شهده الليل على شاطئ	مستسلم القلب لأشجانه
يمشي على الرمل وئيد الخطى	والشك يغلي خلف ايمانه
وللرؤى السود جثومٌ على	أفق أمانيه ووجدانه
كادت قناديل الدجى تنطفي	ويومئ الفجر بأجفانه
وشاعر الأمواج لما يزل	يقظان كالموج وألحانه
حانٍ على جراحه لم يبحْ	بسرّه لغير شطآنه

أصدر ديواناً سمّاه « الشواطئ » واشتهر باسم شاعر الشواطئ منذ

ذلك الحين . وكم من حكايات حب وخيالات جمال في قصائد الديوان ، تتشابه مع قصائد خليل مطران :

أقلب الكاس في كفيّ فارغـــة
جفّ الشراب وجفّت فيه افراحي
فلا نديم إليـه أشتكي ألمـي
ولا سمير يؤاسي – غير مصباحي
يرنو إليّ بضوء نصف منطفئٍ
كأنه الطرف، لا غافٍ ولا صاحِ ..

وفي قصيدة «أصداء» يرين التشاؤم على انفاس الشاعر فنحسب ان الضباب انتشر على الشواطئ أمام عينيه ، حين يقول :

غداً أودع أحلامي وأشواقي وأهجر العود والعوّاد والساقي
وألبس النور ثوباً لا يلطخـه وحلُ الحياة ، نقيّاً مثل اخلاقي
وتنجلي ليَ اسرارٌ نزلت على حبالهنّ إلى أعماق اعمـــاقي
لا تسأليني يا سمراء عن وجلي من الحياة ومني بعد إخفـاقي
أنا وأنت بأوتار الهوى نغمٌ إذا انتهى فصداه خـالدٌ باقِ
كم شاعر عاشق ولى ومـا برحت
ذكرى لياليه في أفواه عشاقِ
هذي قوافيّ ، فيها أنتِ باقيـة
طيباً يحدّث عن زهري وأوراقي
قد كنتِ بسمة إغراءٍ على شفتي
وكنتِ دمعة وجدٍ خلف آماقي

سعيد اليازجي

١٨٨٤ — ١٩٦٠

مهاجر لبناني قديم وشاعر موهوب من طبقة المتعلمين الراقين وأحد أعضاء « العصبة الأندلسية » . تخرّج من مدرسة « الثلاثة اقمار » في بيروت ، ونزح إلى البرازيل عام ١٩٠٢ واستقر في بلدة « الأفق الجميل » ، وكان حكيماً في أدبه وفي تجارته ، لبقاً في مظهره ومخبره . أصاب نعمة من ناحية ونقمةً من ناحية . ونظم الشعر بلغة يازجية وبنزعة إنسانية ترمي إلى نشر الفضيلة وتقويم الاعوجاج في الأخلاق والعادات فجاء شعره خطابياً وعظياً تكثر فيه الحسنات . وهذه أمثلة مأخوذة من ديوانه « مراحل الحياة » :

يصف عاثر الحظ فيقول :

تنأى السعادة عنه وهي واجفةٌ   كأن بينهما نيران عدوان
أنّى تخبأ عينُ النحس تبصره   كأنه يتلطّى خلف سكران
يذوب في كفه الدينار ملتهباً   كقطعة الثلج في حلقوم ظمآن

وفي الحنين إلى لبنان يقول :

كلما قادمٌ أطلّ علينـــا   من رباه نشتمّ عابق عطره
تربة الأرض خصبةٌ غير انّا   نصطفيه على صلابة صخره
رب قلب لم يدر للحبّ معنى   وفؤاد حوى الغرام بأسره

ومن الخواطر الحكمية قوله :

لو كانت الناس ترضى بالحياة كما
يرضى القَنوع بما دنياه تعطيه
وكان للنفس وجدانٌ يقول لها
من مات حراً لسان الدهر يُحييه
لمـا تمرّغ انسـانٌ بذلّتـــه
ولا تلوّنَ فردٌ في مبـــاديه

يوسف فاخوري

(١٩١٠)

وُلد في جوار مدينة الشمس (بعلبك) ، ونشأ على محبّة الشعر أسوة بخاله الشاعر حليم دموس . وكانت باكورة نظمه ثورة على أولي الأمر ، طُورد من أجلها فلجأ إلى البرازيل عام ١٩٢٩ . وها هو اليوم صاحب مصنع حرير كبير في سان باولو ، يعيش في قلب معركة دائمة في صدره بين الآلات والقوافي ، وعينه على لبنان ، تصطاد ما تقع عليه من رقيق الشعر الوجداني . وقد تأثر مرةً بمقطوعة رائعة للمرحوم صلاح لبكي فقال وأجاد القول ، ناسجاً على منواله :

هلّي فداك الروح هلّي ... يا نجمة الأمل المطلِ
كم في شعاعكِ من منى ... للعاشقين ودفء ظلِ
كم فيكِ من حلم يرفرف ... كالرجاء بعين طفلِ
كم فيك من نجوى لمعبود ... على شفتي مصلّي
هلّي فإنكِ بسمة المجهول ... في العمر المقلِّ
ألوي على الماضي الشريد ... وزخرف العيش المُولي
فأغضّ من طرفي على ... عمرٍ مضى فمضى بكلّي

وتأثر مرةً بنزار قباني :

قسماً بحبي لن أعود اليــه   لو ملّكوني الكون من طرفيه

ومرة بالبحتري :

ذهب الشتاء بمعولات رعــوده   وجحيم عاصفه وهول رعوده
وأتى الربيع بريّقات غصونــه   وبضاحكات زهوره ووروده

وأحسن ما يقوله هو من وحي نفسه :

ليلى سلي الليل كم غصت سكينتُه   بجهشة الوتر الباكي لأحزاني
فلا الكواكب عادت بعدُ تعرفني   ولا العنادل عادت بعد تهــواني
ولا الشجيرات ترضى ان تظللني   حتى الظلام صديقي كاد ينساني

« عابرة طريق »

أتيتِ إليّ ، فمن أيّ دنيــا   أتيت إليّ ، وأيّ جواءْ ؟
وأيّ الكواكب في ناظريكِ   تخبّــأ حتى غدوتِ ضيــاءْ ؟
تنيرين دربي ، ودربي   طويلٌ ، شديدالمآسي ، كثير العناء
حلمتُ خلال السنين الطوال   بحوريةٍ من بنات السماء
تكون نجيّة شعري الأبــحّ   وتُطلقني شعلةً في الفضاء
تُجمّع نور جميع النجوم   وتنشره هالةً من ســناء
تكون دليل الغريب الشريـد   متى دهمته جيوش الشقـاء
وكان صباح وكان مســاء   كرفّةِ طرفٍ عراه الحياء
وتلك التي بلورتها السـنون   وكانت لنفسي المنى والعزاء

وكانت لشعري المثال الرفيع وكانت لدائي العصيّ دواء
توارتْ وراء الضباب الكثيف تقهقه من غزل الشعراء

وله بعنوان «موت الورود» :

تلك التي علّلتني بمغريات الوعود
وصوّرت لي نعيما جحيم هذا الوجود
وابعدت عن فؤادي طيف الليالي السود
الحب في شفتيها كالخمر في العنقود
والنور في ناظريها عَودُ الرجا المفقود
كم مرة حلفت لي بربها المعبود
وأشهدت أصغريها وأكثرت من شهود
وأقسمت بلماها وفاءها للعهود
فافترّ زهر خريفي واخضرّ يابس عودي
نامت ليال وعادت بقاصفات الرعود
وقوّضت ما تبقى من حبنا المنكود
جفّ الندى في لماها واصفر ورد الخدود
فيا ميازيب سحّي على ضريح الورود ..

وهو صاحب هذا النشيد اللبناني الجميل :

يا مرحباً لبنان — يا جبلا انسان — محيّر الزمان — ومبدع الحرفِ
الحب في ذراك — والجود في ثراك — والطيب في هواك — منوّع العَرفِ
من مبتدا الدهور — على مدى العصور — رسوتِ يا صخور — شامخة الانفِ

ابراهيم البسيط

(١٨٩١)

شاعر موسيقي .

جاء من بيروت إلى البرازيل عام ١٩٢١ وتعاطى التجارة فكان من رجال الأعمال الناجحين . ولكن الأدب والفن أصيلان في طبعه ، يزحمان مشاغله المادية ويبرزان من وقت إلى آخر في قصيدة نظمها أو مقطوعة لحّنها ووقّعها على العود . ثم يعود إلى عادته في التكتّم والتأمل في الحياة . وله فيها نظرات عميقة وخيالات بعيدة :

وُجدتُ ولم أدر معنى وجودي	أسير الرغائب ، لم أعتَقِ
لهوت صبياً وتهت فتيـاً	وما زلت والشيب في مفـرقي
وما النفس إلاّ عروس تـردّت	بثوب مُعـار لهـا ضيق .
لقد ضقت يا نفس بالقيد ذرعاً	ألا فاخلعي الثوب أو مـزّقي
وطيري مغرّدة في الريـاض	وفوق أعالي السما حلّقي .
وكنت أظن بأنـيَ حـرّ	أدبّـر بالعقل والمنطقِ
فلمّا عرفت حقيقـة أمري	تمنّيت أنيَ لم أُخلـقِ

الشيخ فائز السمعاني

(١٨٨٨)

أديب من الروّاد ، واسع الشهرة في الأوطان والمهاجر . وُلد في « حصرون » وغادر بلده بعد الانتهاء من الدروس الثانوية ، وجاء إلى البرازيل عام ١٩٠٨ واختار مقراً له ولاشغاله عاصمة ولاية « باهيا » حيث هو اليوم وجيه قومه وشاعرهم وخطيب أنديتهم ، جمع في مكتبته أغلى الأسفار والدواوين العربية ، ونشر ديوانه بعنوان « شلال البيان » ومنه نختار ثلاثة شواهد . اسمعه يتغزل بفتاة برازيلية :

وعجماء اللسان تمور لطفاً ... محاسنها فتستهويك ظرفا
نظمت بوصفها غرّ القوافي ... فلم تفهم من المنظوم حرفا
فكنت كعابد غرِد يُصلي ... لتمثال من الذهب المصفّى
وإذ لم أنتفع شيئاً بشعري ... جعلت قصائدي لثماً ورشفا

الربيع والشيخوخة

تقول أتى فصل الربيع وكلّه ... مفاتن تدعو للهوى وتقود
فقلت لها ولّى ربيع شبيبتي ... وليلاته البيضاء ليس تعود
لقد بتّ في برد الشتاء وثلجه ... ولم يبقَ عندي للغرام وقود
وشيخوختي في كل يوم يمرّ بي ... تزيد فأبلى ، والزمان جديد
فيا ليت عمري مثل عامي ، فصوله ... تعود ، فاني لو تعود سعيد

الأمل والنسيان

أملٌ ونسيان أرى بهما ... أنس الحياة وغبطة الناس
فحجاب نسياني طوى شجني ... وشعاع آمالي محا ياسي
فأنا الطروب لأن لي أملاً ... وأنا السعيد لأنني ناسي

توفيق بربر

(١٩١٤)

لبناني من قرية «الحاكور»، قضاء عكار. كانت هجرته إلى البرازيل عام ١٩٣٠ ولكنه لم يستقر في سان باولو إلاّ عام ١٩٣٩. هو تاجر محسان وشاعر أصيل وراوية ممتاز يُشار اليه بالبنان في المهاجر. لا نعرف من سيرته وآثاره إلاّ ما تنشره المجلات الأدبية ومنها نقتبس ما قاله في وصف «الدمعة»:

مكفّنة الاحلام، دافنة المنى — مغرّقة الآمال، ناعية الصبر
تشعّ على شطّ الجفون كدرّةٍ — تجيء بها الأنواء من لجة البحر
تروح كما تأتي وتبقى ذيولها — على الوجنات الصفر والاعين الحمر
تهزّ شعوري دمعة سحّها الأسى — وسيّان عندي دمعة العبد والحر

وله في الحنين:

أين من عينيّ لبنان الذي — حسنه الفتّان أنساني السما
أشتهي جرّ الخطى في أرضه — ولكَمْ عانقت فيه الانجما
ليت عيني لم تفارق نورها — فالنوى كانت لعيني كالعمى

وتوفيق بربر هو صاحب الأبيات التي نُقشت على قاعدة تمثال ليوسف العظمة أهدته الجالية العربية في سان باولو إلى الدولة السورية:

وهذه هي الأبيات:

يا شهيداً مات عن أمّته — فوفاها حقّها بين الأممْ
لم يمتْ إلاّ ليُحييها وقد — خُضّب استقلالها الغالي بدمْ
أنتَ رسم المجد في رايتها — أنتَ في تاريخها رمز الألمْ
أنت رغم القبر حيّ خالد — في قلوبٍ ورثتْ عنك الشمم

وهيب اسكندر عوده

(١٩١٢ – ١٩٥٩)

من قرى لبنان الساحلية «أنفه» . جاء إلى البرازيل عام ١٩٤٩ بعد ان تعلّم وعلّم سنين طويلة في لبنان . ومنذ حلّ في سان باولو راح يزاول التجارة في إحدى ضواحيها ويرصّع المجلات بقصائده العامرة . فكان خصب الانتاج من الناحيتين . مَثَل صغير من شِعره يكفي لتذوق الرقة والسلاسة فيه . قال للمحسنات في سوق خيرية :

المحسنات فدَيتُهن اكرم بهنّ ، بخلقهنّ
أرأيتهنّ على دروب الخير في سرحاتهنّ
ويدرنَ كالفقراء يستعطين ، لا لجيوبهن
يمددنَ أيديهن ، أجنحة السنا ، سلمتْ لهنّ
أحضانهنّ مدارس وكنائس أحضانهنّ
يكفي إذا أحببتهن بأن أمّي اختهنّ

* * *

أسأل الليل شراباً أو كرى غير أن الليل لمّا يسمع
أيها الساقي ، وندمان الحمى بعدوا عني ، ألا فاشرب معي
واسقني ، فالفجر قد يسبقني ويراني غارقاً في أدمعي

لم تطل حياته في المهجر أكثر من عشر سنوات . فلما نعي إلى رفاقه في لبنان كرّموا ذكراه بمأتم في «أنفه» خطبَ فيه عدد من الأدباء والشعراء :

رغم طول البحار ألمح جيشاً من أغانيك مقبلاً من بعيدِ
عجز الموت أن يواري مع الجسم صداح الاشعار والتغريدِ

هذا من قصيدة قدموس في حفلة التأبين .

سعيد البابا

(١٩١٤)

فلسطيني من رام الله ، علّم في مدارسها وتوظف في حكومتها إلى عام ١٩٥٠ . ثم جاء إلى البرازيل ونشر في سان باولو آثاراً أدبية وقصائد مستجادة طيّرت اسمه رغم حداثة هجرته . وهو الذي نقل إلى العربية والبرتغالية كتاب بربارا يونغ عن جبران « هذا الرجل من لبنان » .

موسى الحداد

١٩٠٠

وليد حمص غادرها في سن العشرين ليمارس التجارة في سان باولو، وما زال يمارسها ويجاري طبعه الأصيل في نظم الشعر . وقد استشهدنا بشعره في فصل « أدب الحفلات » وما زالت المجلات الأدبية تتناقل قصائده . وأهمّها الملحمة الكبرى التي نظمها في نكبة فلسطين .

واليك شاهداً من شعره الحماسي :

سائلي السيف يوم جدّ الكفاحُ — كيف كانت تلك النفوس تُباح
سائلي حومة الجهاد فتنبي — عن فتى المجد كيف طاح وطاحوا
يوم سارت جنازة الحقّ فيها — والأسى فاض والعيون سجاح
ميسلونٌ ، عروسة المجد في أحضانها ترقد الوجوه الصِّباح

وقد قرأنا حكاية غريبة عن مولد هذا الشاعر العصامي رواها الاستاذ أدهم آل جندي في كتابه « أعلام الأدب والفن ، ص ١١٤ » ومفادها ان موسى يوم أبصر النور كان والده في محنة عسراء يائساً من الحياة . فعزم على أن يقذف بالطفل في نهر العاصي . وهمّ بذلك . ولكنّ العناية الالهية تدخّلت في اللحظة الأخيرة . فقد أبصره رجلٌ من المسلمين وأنقذه من الغرق وربّاه مدةً في منزله . ثم دبّت الغيرة الطائفية في الوالد فاسترد الطفل بعد شهور .

فيليب لطف الله

من بسكنتا . رجل من كبار الصناعيين في سان باولو ، المبرزين بالصفات والأعمال ، والمولعين بالآداب والعلوم . آثر بحبه الشعر العربي ، ونظم منه الكثير ونشره في المجلات ، وعزم الآن على أن يجمعه في ديوان « نسمات الجبل » . قلّما تعقد ندوة أدبية لا يكون له دورٌ فيها أو يبرز مشروع خيري لا تكون يده البيضاء فيه . وقد كان أسخى المتبرعين لمشروع المعهد العربي ولإنشاء كرسي لتعليم اللغة العربية في جـامعة سان باولو .

أسلوبه في الشعر هو اسلوب المحافظين ، لا المغضوب عليهم ولا الضالّين .. هؤلاء لا يستطيع أن يهضم « شعرهم الحر » فيقول :

غاوون ضلّوا السبيلْ	يطوون بحر الظُلَـمْ
ويبتغون الوصول	إلى أعـالي القمـم
إلى متى يخبطـون	كمن عراهم خبال
على طريق الجنون	إلى اقتناص المحـال
وبعد طول السـفر	هل يبلغون القمر ؟
أين الحجى والبصر ؟	يا ليتهم يعقلـون .
وهل يقوم البنـاءْ	إذا بنى الاغبياء

لقد مشوا للوراء والشِعر منهم براء
وضلّة العاقل أنكى من الجاهل
كم قارئ قائل عدنا إلى بابل
يا ليتهم يفقهون ما ينظمون
الشعر أسمى الفنون «يا ملهَمون»

واليك حكاية حاله :

بالله عفواً يا فؤادْ النفس تطمع في ازدياد
قد حمّلتْك رغابها فرزحتَ من طول الجهاد
وحملت جوف منعّم أضناك من شحمٍ وزاد
خير الطعام أقلّه وكثيره ضرر العباد
نمْ جائعاً فوق الوسادْ

سليم نخلة نادر

١٩٠٠

شاعر مطبوع . وُلد في « كبا » (البترون) ونزح عنها مرتين متجهاً إلى الولايات المتحدة الشمالية . وفي المرة الثالثة غادرها نهائياً عام ١٩٣١ واستقر في البرازيل ، مرتاحاً إلى الجو الأدبي والحركة الصناعيـة في سان باولو . ولكنه ظلّ وفياً للأدب الممتزج بدمه ، وما زال يرسل قصائد الحنين والشوق إلى لبنان فيلقى تجاوباً كبيراً عند القراء .

ومن عجيب أمر هذا الشاعر المطبوع ان لا الهجرة الطويلة ولا ممارسة الاعمال الصناعية عكّرتا صفاء ديباجته العربية حيث تتعانق الجزالة مع الرقة والحضارة مع البداوة :

أنا مَنْ أنا يا جيرة الوادي ... أنا عابرٌ أفنى السرى زادي
هدفي بعيدٌ عزّ مطلبـه ... لا العيس تدركه ولا الحادي
يا سائق الأظعان أين أنـا ... أأنا بأرض ثمود أم عادِ ؟
قل لي أما وصلتْ حمائلنا ... لأشدّ أطنابي وأوتادي ؟

ومن يمعن النظر في شعره يجد فيه مرآة نفسه :

لك الحمد يا شِعري فقد كنتَ منصفاً
بإبداء ما أخفيتُ من نزعـاتي
لدُنْ صغتُ للاسماع لحن صبابتي
وصوَّرت للأبصار كنه صفاتي
إذا صحّ انّ الحب أكرم عنصرٍ
فما لي أُخصّ الحب بالخلوات
أتخجل ازهار الرياض من الندى
وتخشى الربى من طيّب النسمات

اسد موسى

شاعر قحطاني الروح والأسلوب ، هو في العقد السادس من العمر هاجر من لبنان إلى البرازيل واستقر في داخلية البلاد (سانتا كاترينا) ليمارس التجارة ويغمغم بالشعر . وقد توثّقت صِلاته في السنوات الأخيرة بالأوساط الأدبية في سان باولو فانهالت عليها قصائده وقرأناها في الصحف بإعجاب ، كالقصيدة التي أشرنا اليها في فصل « أدب الحفلات » وهو يُدعى إلى المهرجان العكاظي الذي تنظمه كل عام في سان باولو جمعية المتخرجين من الكلية الاميركية في بيروت ، فيلقي فيه قصيدةً حولية ويطبع القصيدة في نشرةٍ للتوزيع على الاقطار . وكان آخر ما وقعنا عليه قصيدته « فجر المجد » وهي من الشعر السياسي :

عاج الاباء على الحميّه والحلم ضمّ الأريحيّـه
فإذا الشآم مـع الكنانـة تعكسـان سنا أميّـه

وقصيدة « الأدب المحتضر » :

قبّلَ الجوزاء منطاداً وحاما فوق قرص الشمس لا يخشى الضراما
قشعمٌ أطلقـه العرب على مرّد الاجواء يغزوها اقتحاما

وقصيدة وجدانية يناجي فيها « منار يارا » .

توفيق قربان

(١٨٩١)

كنز من العلوم اكتشفه المهجر البرازيلي في شخص توفيق قربان ابن الأستاذ المحقق داود قربان ، من مواليد الشوير — لبنان .

تخرج في الجامعة الامبركية في بيروت ونال بكالوريوس علوم عام ١٩١٠ ثم تعيّن مديراً وأستاذاً لمدرسة الشويفات الداخلية . وفي عام ١٩١٢ هاجر إلى البرازيل واستقر في سان باولو ، العاصمة الثانية للأدب المهجري وقتئذ . وشغل في جامعتها الكرسي العربي ثم تخلّى عنه بعد سنة وانخرط في ميدان التجارة يسابق الأكفاء بذكائه ونشاطه . وراح يتجول في داخلية البرازيل كممثل لبعض مصانع سان باولو . فأصاب رزقاً يكفي لحياة كريمة له ولمن يعوله من زوج وأولاد . ونحن لا ندري في أي وقت كان يجلس هذا البحاثة إلى مكتبته العامرة وفي أي ساعة من ساعات الليل كان يكتب فصوله اللغوية العويصة وهو يطوي [illegible] الأيام والشهور بعيداً عن مكتبه ومكتبته ، ناقلاً حقائب البضائع كل يوم من بلد إلى بلد . ولكننا ندري أنه في خلال رحلاته المتواصلة تعلّم ثماني لغات أجنبية وكتب في الصحف والمجلات عشرات الفصول وألّف ستة

[illegible] «منابت الصهيونية» الذي استمد موضوعه من وقائع التوراة [illegible] . وندري أيضاً أنه في فترات الاستراحة والاستجمام [illegible] ، ينقلب الكاتب إلى خطيب المحافل المختار ومحور المجالس الممتازة . لا يرفض دعوة لمحاضرة سواء جاءته من الأندية العربية أو [illegible] معاهد العلم الأجنبية . حاضر مرة أربع ساعات متوالية [illegible] في موضوع الكوميديا الإلهية لدانتي فذكر سبعة وأربعين [illegible] من القرآن وردت كلها في اهزولة دانتي . وقد أثبت [illegible] الشاعر الإيطالي يسرق الرواية من حديث المعراج النبوي ورسالة الغفران لأبي العلاء ومن تفاسير محيي الدين ابن عربي للآيات القرآنية [illegible] ذلك مع الأب آسين بلاسيوس .

[illegible] هذه اللغات فأجابني : ان الإنكليزية والبرتغالية للكلام والكتابة والخطابة . والفرنسية والاسبانية للدرس . والإيطالية [illegible] الألمانية للمصلحة التجارية . والتركية واليونانية والعبرية [illegible] العربية .

وفي الواقع ان تلك اللغات أسعفته على كشف ما أغلق على سواه من أسرار [illegible] عجزت عنها المجامع العلمية [illegible] انتقلت من [illegible] نشرها تباعاً في [illegible] مجلات الوطن والمهجر بتواقيع مستعارة خشية أن يعرف رؤساؤه أصحاب المصنع أن وكيلهم [illegible] منه [illegible]

[illegible]

« النكر » بمعنى الموت وهي لفظة أثبت أنهـا دخلت اليونانية من الشآمية ثم تحدرت إلى العربية مخرجة من الثنائي (ن ك) الذي معناه الأذية . ومنه تفرعت الأفعال الحاملة معنى الأذية كنكب ونكث ونكد ونكس ونكص ونكز ونكع ونكف ونكل ونكى وقس على ذلك .

وجمع في كتاب آخر مقالاته باللغة الانكليزية عن الأصول السامية في اللغة العربية واتصالها باللغة اليونانية . وفي كتاب آخر مقالات وتراجم عن السوريين واللبنانيين في البرازيل ودراسة في سيرة نعمة يافث وأدبه .

ومن أطرف محاضراته باللغة البرتغالية تلك التي طلب فيها إقامة نصب تذكاري لمكتشف القمح المجهول عوضاً عن نصب الجندي المجهول ، وحجته أن الزارع الأول المجهول هو الذي ابتدأ الحضارة ولولاه لما تحول فريق من الناس من عيشة التنقل للصيد إلى عيشة الاستقرار في المدن والقرى .

توفيق قربان هو صنو الشاعر القروي في عقيدته الوطنية ونشاطه الاجتماعي . كل قصيدة وطنية يلقيهـا القروي كان يقابلها خطاب من قربان .

ذكر لي في رسالة من رسائله ان شاعراً من لبنان أهدى اليه كما أهدى إلى القروي ديواناً من الشعر الرمزي فشكر الهدية كثيراً لا لقيمتها بذاتها بل لأنها أتاحت له فرصة التفوق على القروي بالذكاء . قال إني طالعت الديوان ففهمت منه نصف بيت ، أما القروي فلم يفهم منه شيئاً على الاطلاق ...

كان القروي يتجول مثله بمساطر ويلتقي بـه في مراحل الأسـفار فيتآنسان ويتداعبان . روى لي قربان ما يأتي : « كان القروي نازلاً في غرفة من الفندق محاذية لغرفتي . ونهضت من فراشي كعادتي الساعة الخامسة صباحاً وأخذت أقرأ المتنبي للمرة الثالثة . فأخذ انتباهي ما بين بيت وبيت في بعض القصائد من جسور المعاني الواصلة هضبة

بهضبة . فابتهجت وبقيت فترة سابحاً . ولكن المعجب لا يطيب له إلاّ إعلان إعجابه لأحد . ولا يوجد في الفندق عربي غير القروي . فقرعت باب غرفته قرعاً مزعجاً استثاره من فراشه ففتح الباب وعلى عينيه عمش أغمضهما . وحالما عرفني صاح بي هالعاً : ما بك يا توفيق ؟ فأجبته : هل تعلم ان عظمة الشاعر في ما لا يقوله أكبر من عظمته في ما يقوله:

فصفَق الباب في وجهي قائلاً : أنت إذن أعظم شاعر . وعاد إلى غطيطه .

نظير زيتون

(١٩٠٠)

أديب حمصي كبير يُعد من أمراء البيان المنثور ، لا في المهجر فقط بل في الأوطان العربية أيضاً . ونقادة بحاثة عميق الغور ، له جولات موفقة في دراساته ومباحثه الفكرية . هاجر إلى سان باولو عام ١٩١٤ وعالج فيها أبواب التجارة فأخفق واستجاب لنزعته الأدبية فأفلح بعد أن احتجب في الداخلية (مدينة بيلوتاس) مدة سنتين صرفهما في المطالعة والدرس . وهو إلى ذلك واحد من قادة الحركة الفكرية القومية في المهجر الجنوبي ، له في الرسالة الوطنية سهم صائب وفي النقد الأدبي صفحات لامعة وهفوات ... مستحبة ، يستسيغها المنقودون لما فيها من براعة الانشاء وترف البيان . دشن حياته الأدبية برواية « ذنوب الآباء » ثم طلع بمعربات وتآليف نفيسة مثل : « النبي الأبيض ومركيزه سانطوس » و « رسالة في استقلال البرازيل والأمبراطورية الأولى » و « أين الله » أو اعتراف ابن الشعب لغوركي وسقوط الامبراطورية الروسية ، وله مجموعة خطب سمّاها « الشعلة » هي دراسة للمنبر العربي في البرازيل ، وروسيا في موكب التاريخ ، في جزءين كبيرين ، هما فريدان في اللغة العربية .

تولى تحرير جريدة «فتى لبنان» اليومية لصاحبها الشيخ رشيد عطيه منذ عام ١٩٢٧ ، وكان خطيب النادي الحمصي في سان باولو مدى عشرين عاماً ، رافق نشاط هذا النادي الكبير في توجيه الجالية توجيهاً قومياً مثالياً منزهاً عن الاقليمية الضيقة التي تُطل برأسها من منابر هذا النادي في المهاجر الأخرى . وهو ركن من اركان العصبة الأندلسية منذ تأسيسها . يبرز اسمه في كل عدد من أعداد مجلتها . وقد زار الجوالي العربية في الارجنتين وشيلي وارتبط بصداقات متينة مع أدبائها .

أسلوبه في الإنشاء زاهر عاطر يتراوح بين الطارف والتليد ويقوم على أصول مكينة من علوم اللغة العربية وعلى فنون عريقة من التسجيع والتطريب . فالجُمل عنده أنغام ، والكلِم أوتار ، والديباجة أضواء وألوان كزينة الأعراس . يقول عنه الاستاذ محمد عبد المنعم خفاجي : « انه رئيس طريقة من طرق التعبير تولّيه امارة النثر في هذا العصر » . أما الاستاذ العريف وديع فلسطين فيكتب في مجلة الأديب «عدد نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٩٥٨» : « نظير زيتون فرع زاهر ناضر من الدوحة الأندلسية التي تضوّع الأدب العربي بعبير مآثرها في اميركا اللاتينية ، ولسانٌ ذرب فصيح هزّ المنابر بعبارته المجلوّة وبيانه الوضاح ورأيه الرشيد . وهو ريشةٌ جرت على الصفحة جريان النهر الفياض في الوادي الأخضر . فانتصرت لكل دعوة [illegible] الجمال وفحواها العدالة [illegible] العام [illegible] الأمة [illegible] اللغة [illegible] الأساليب [illegible] عدته من سديد المنطق وقوي الحجة [illegible] تأتي عفواً وطوعاً فإذا بها سوطٌ لا [illegible] . [illegible] من ارباب القلم [illegible] في المهجر [illegible] » .

عرضنا في فصل سبق (فصل الشاعر القروي) [illegible] ليؤيد [illegible] الاستاذ وديع فلسطين [illegible] نص [illegible] سان باولو

ونشره في مجلة العصبة الاندلسية :

« يوم الأموات »

« إنه يومكم أيها المنصرفون عن دنيا الخيال المذهّب والوهم المعسول إلى دنيا الحقيقة العارية الجرداء ، إلى دنيا الحقيقة البيضاء التي تخرّ لها صاغرة كل حقائق الأرض والإنسان .

إن يومكم أيها الموعوظون الذين أفاقوا من سكرة الحياة وحطموا أغلال الأرض لهو يومنا الصارخ المدوي في القلوب والضمائر .

جئناكم والغصة تملأ الصدور حجيجاً إلى مدافنكم وقد نثرنا عواطفنا آساً ونسرينا ، وأطلقنا ذكرياتنا دموعاً وصلوات ، وحنونا على ترابكم مطأطئين الرؤوس في مظهر من مظاهر العبادة . لماذا نعبدكم يا موتانا الأحياء؟

لكم التكريم والتقديس .

لكم الصلوات والقرابين والذبائح .

لكم الذكر ولنا القسم . بكم نحلف ونستحلف .

لكم الشفاعات والنذور والأوقاف والأضاحي .

لكم المساكن الفخمة والأنصاب الباذخة والتماثيل المطلية بالرياء والزهور الناطقة بزهونا وكبريائنا .

لكم تكبير الحسنات ونسيان السيئات .

إنكم مسيطرون على الأحياء الذين ينعمون بالشمس ويرصدون السيارات والكواكب والثوابت ويذللون العناصر الطبيعية ويستأجلون ساعة الموت ويكشفون عن نواميس الأرض والسماء .

ولكن لماذا نعبدكم يا موتانا الأحياء ؟

ألأنفسكم أم لأنفسنا ؟ أم لخوفنا من الموت الذي يترصدنا ؟

ألا انطقي أيتها القبور .

وكأني أسمعها تقول : لقد ابتلعت في أحشائي كبرياءكم وجبروتكم

والتهمت ملوككم وأمراءكم وحكامكم ومستعبديكم . وطالما سخرت بآلهتكم الأرضية وبصلواتكم وبمعرفتكم . فما علاني أحد سوى تلك الزنبقة الناصعة الشماء التي تمتص غذاءها من أحشائي . تلك الزنبقة المتأرجة الرافعة عينيها إلى السماء ، الرامزة إلى الخير الكلي . فهنيئاً لمن ازدرع على قبره مثل هذه الزنبقة الفواحة .

يا موتانا الأحياء الهاجعين في بطن الأرض .

يا عيوناً خلعت دنياها على عيوننا .

يا قلوباً تحطمت أطيافها على قلوبنا .

يا أحلاماً فطمت أحلامنا .

هذه حجّتنا إلى قبوركم . لقد جئناكم حاملين في قلوبنا وأذهاننا ربيع الذكريات وخريفها .

ولكنه يوم . ويدب الشتاء وينسدل ستار النسيان .. »

أمضى أديبنا خمسة وثلاثين عاماً في المهجر البرازيلي ثم غلبه الشوق إلى « أم الحجار السود » وخانه الجلد على فراق الاهل فجاء سوريا عام ١٩٤٩ وحلّ في حمص بين اسرته وعشيرته عازماً على البقاء شهوراً معهم وعلى العودة بعد ذلك إلى سان باولو ، ولكن الشهور تولّت والأعوام تتالت حتى بلغت الخمسة عشر عدّاً ، وهو باق بين حمص ودمشق وحلب وبيروت والقاهرة وبين الكتب والأوراق ، لا يفارق القلم أنامله ساعة حتى يعود اليها ساعات ، ولا همّ له إلاّ الكتابة والخطابة والافادة ، رافعاً راية الأدب المهجري ، شارعاً معينه لكل وارد . في كل ميدان قوميّ له جولة وفي كل معركة أدبية له موقف . إن استنجدوا بـه لبّى متبرعاً ، وإن لم يستنجدوا أتاهم متطوعاً . أذكر كيف اندفع إلى ساحة الجدال دون ان يدعوه أحد ليدافع عن حرمة الأدب المهجري يوم حاول امتهانها بعض الصحافيين في مصر على اثر مناظرة جرت بين الشاعر عزيز اباظه والمحاضر جورج صيدح . فكتب

نظير زيتون رداً مفحماً مستفيضاً شغل عشر صفحات من مجلة الأديب (حزيران ١٩٥٦) نفى به كل تهمة عن « المتأمركين المتبرنطين اللحانين » ووضع الاشياء في موضعها بالمنطق والبرهان ، واعطى لمصر ما لمصر وللمهجر ما للمهجر بأبلغ بيان :

« ذنب الأدب المهجري هو انه استخرج من اللغة العربية أدب العصر وأسلوب العصر وحضارة العصر . فلم تكن ثورته على اللغة وقواعدها بل كانت على الأدب الجامد المحنّط الذي يعكس على الحياة المتوثبة أشباح الماضي المتقهقر . وشعراء المهجر ، في انطلاقاتهم البعيدة وفي ثوراتهم الانسانية والقومية والاجتماعية المستمدة من صلب الحياة ، وفي تحسسهم المرهف للجمال في الصورة والنغم وصياغة البيان ونكهة اللفظ ، تغنّوا بالقومية العربية وبالثورة المصرية بنوع خاص أطيب التغني ، فتجسدت الكلمة في شعرهم نافضةً عنها الاكفان لتزأر حيناً وتغرد حيناً ، وتترجم عما يجيش في صدورهم من هدرة عربية وضرَم مترنح » .

اننا لا نعجب من الحرارة المنبعثة من كلام نظير ، فهي حرارة المتهم البريء والأبيّ المهان (في الطبعة السابقة من هذا الكتاب نص المقال بكامله) ، وهي غضبة الشهامة التي لا تطيق الاجحاف بالغريب فكيف تسكت عن الاساءة إلى أقرب الناس اليه ، اخوانه المهاجرين ؟ ما أكثر ما كتب وما خطب متحبباً اليهم أو مدافعاً عنهم أو مثنياً عليهم . نشر بمناسبة تكريم الشاعر فرحات في دمشق تحيةً له ملأت خمس عشرة صفحة من مجلة « الضاد » (حزيران ١٩٥٩) وثنّى عليها بتحية عند تكريمه في كفرشيما « الأديب » (تشرين الأول) اكتوبر (١٩٥٩) واعترض على أخطاء وردتْ في سيرة الشاعر الخالد فوزي معلوف « الأديب » (ايلول (سبتمبر) ١٩٦١) وكان الصوت الجهير في ذكرى نسيب عريضه في حمص . أثارها حرباً شعواء على الحكومة السورية في مقال نشرته مجلة « الضاد » (كانون الثاني (يناير) ١٩٦٣) لما قرأ كلمة للأديب

المهجري الياس قنصل يشير فيها إلى « لا مبالاة الحكومات العربية بالأدباء
المغتربين أو بالابقاء على هيئات [illegible] العربي في القارة الامريكية التي كانت
هذه الاشارة بمثابة قطرة وقعت على كأس [illegible] ففاضت [illegible]
نفسي [illegible] أعوام [illegible] الدولة السورية [illegible]
أبنائها [illegible] المهجريين سلوكاً فيه المحاباة [illegible] والاهمال [illegible]
والطيش أحياناً والأنانية [illegible]
[illegible]
وأمس [illegible] المدني [illegible] في [illegible]
[illegible] بالأمر [illegible] أرفق [illegible]
لا [illegible] ؟ [illegible]
ونواطير [illegible] المهجريين [illegible] المسئولين
في هيكل [illegible]
معاذ الله ان [illegible] الأدب [illegible]
عليه ويعضده [illegible]) [illegible]
لنوال يده . [illegible]
لا يستقدرون ، [illegible]
وفي المقال شواهد وأسماء [illegible] الأديب السوري [illegible]
وطنه ، وتكفّر الصحافي المهجري [illegible] الكاتب [illegible]
نفسه وهو أحق الجميع [illegible]
« أما عن نفسي فسل الأقدار ، [illegible]
وكيف تمتحن صلابة الأحرار [illegible]
تنكبنا عن سبيل الإباء ، ولا [illegible]
حرمة القلم بالرياء ، بل [illegible] » » . [illegible]
ان الغبن في المعاملة هو سبب [illegible]
فقد كان أداة للتكريم لا موضعاً [illegible] ([illegible]

قال عنه أحد الظرفاء :

« نظير حيّ لا يُرزق » لأن مهماته الكتابية التي لا آخر لها والتي تتأكل ضياء عينيه وعافية كهولته لم تدرّ عليه بسحتوت ، بل كانت أعماله مجرد خدمات لوجه الله والوطن والأدب والصداقات : « تقاريظ . مراثي . مقدمات كتب . ترحيب . تشييع . تهاني . تعظيم وتقدير » لم تدع له هذه المناسبات وقتاً كافياً لانجاز مؤلفات رصينة كالتي كان يصدرها في المهجر . فلم يصدر له في الوطن سوى كتابٌ « من وراء القبر » عام ١٩٥٨ وكرّاس عن الشهيدين الزهاوي وسلوم في عام ١٩٦١ وبعض نشرات تتضمن المطوّلات من الابحاث . أفما كان من حقه أن يعيش من أدبه في بلد يدّعي الأدب ؟ أتحرمه بلاده « الجزاء والشكور » معاً ؟ إن أقسى متعسة هي تلك التي تجعل العربي المهاجر متى عاد إلى وطنه ان يحسّ بندم على العودة وبحنين إلى الاغتراب مرة ثانية . وها هو نظير زيتون في رسالة مفتوحة وجّهها إلى شفيق معلوف في سان باولو — مجلة « المعرفة » عدد ايار (مايو) — يقول : « أتمنى العودة إلى البلد الازهر البكر ، حيث قضيت أزهى سنين العمر ألملم ذكرياتي الخضر وأحتسيها خمراً بعد خمر ، وانقع غليل الحنين بعد مُرّ الصبر ، وأنعم بالدفء بعد القرّ ، وأزرع القلب زهراً في زهر ، وأروي الروح بذوب الفجر . فبعضي يشتاق بعضي وقد طال الهجر . هناك أرعى وطني من بعيد بعين النسر ووثبة النمر وأدفع عنه حملات الشرّ بغضبة مُضريّ حرّ ، وبإيمان أصلب من الصخر » .

بعد هذه الفضيحة التي أعلنها زيتون وكتمها غيره كثيرون ، ما أضيع الدعوات الكلامية التي يطلقها المسؤولون في الاوطان العربية لحمل المهاجرين على العودة . « ويا خجلة الأدب والمروءة والتاريخ (كما قال الأستاذ عبد اللطيف اليونس في جريدة « الأيام » الدمشقية تعليقاً على تهيّؤ زيتون للسفر إلى البرازيل) ويا خجلة الآباء والابناء » .

حبيب مسعود

(١٨٩٩)

أديب لبناني من بشرّي ، ناثر من الطراز العالي الرصين . فنه في صوغ العبارات فن الجوهري الحاذق في تنضيد اللآلئ . وبراعته النادرة في الخط العربي تنبيك عن ولعه بالإتقان وصبره على العمل وحرصه على جمال ما يكتب وما يعمل . هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٣ واستقر في سان باولو وحرّر في جريدة « الجديد » ثم رئس تحرير جريدة «النهضة اللبنانية » عام ١٩١٨ .

وعلى اثر وفاة جبران خليل جبران أصدر أولى مؤلفاته « جبران حياً وميتاً » وقام برحلة إلى جمهوريات امبركا الجنوبية في سبيل ترويجه عام ١٩٣٢ . فلما عاد من رحلته كانت العصبة الأندلسية قد تأسست في سان باولو فتولى رئاسة تحرير مجلتها منذ نشأتها . فكان يصدّرها بمقالات افتتاحية رائعة لا يخجل ابراهيم اليازجي من نسبتها اليه . وقد سمعت بأذني أمس ، هنا في القاهرة ، من الدكتور منصور فهمي ثناء عاطراً على تلك المقالات وإعجاباً بأدب العصبة بوجه عام .

قام الشيخ حبيب بتنفيذ الخطة التي رسمها مؤسسو العصبة الأندلسية لها فعادت للأدب العربي هيبته وكرامته إذ كانت هيبته مفقودة وكرامته محدودة .

وفي عام ١٩٤٨ توجه إلى لبنان وحلّ ضيفاً على حكومته وممثلاً

لأدباء المهجر الجنوبي في مؤتمر الاونيسكو الثقافي . وبعد أن طاف في بيروت وأنحاء الجبل ودرس أحوالها أصدر كتابه النفيس « ما أجملك يا لبنان » عام ١٩٤٩ . فكان أجمل ما كتب انشاءً وتفكيراً ، وأنفع ما نشر على قومه من أدبه . لقد جاءهم زائراً بعد غيبة السنين الطوال فقال يخاطبهم :

« لبنانياً رحلت ولبنانياً عدت . وعربي اللسان ذهبت وعربي اللسان رجعت . مؤمناً بروحانية شرقي هاجرت ومؤمناً بها قفلت . حملت لبنان في قلبي والعربية على لساني وقلمي فأديت ، ما استطعت ، رسالتي للبنان وللفصحى » .

ثم شاءت فروض العيش أن تفرض على هذا العامل الأمين أسفاراً وأعمالاً تجارية تستدعي التفرغ لها ، فاستقال من مهمة تحرير مجلة العصبة الأندلسية وانصرف إلى تجارة الأقمشة الحريرية . ولم يمض عام حتى احتجبت المجلة . وما حاله إلا حال كل أديب عربي في المهجر ، كما وصفها هو نفسه حين قال : « الأديب المغترب هو الأديب الضائع الذي أفنى عمره من أجل قومه ولغته فما أصاب سوى افتئات المقيمين وإهمال المغتربين . أنشأ الصحف وأصدر الكتب واعتلى المنابر وعمر المحافل فعاش مهملاً ومات معدماً . حمل لواء العربية في ديار غربته وناضل في سبيل عصبيته فما ظفر بغير البلغة . واكب قوافل عشيرته النازحة فكان حاديها ورسولها ولسانها وبشيرها ومؤاسيها ، مستشهداً كل يوم في سبيل لغة لا تكفل له حتى الكفن » .

سأله سائل : ماذا تفضل يا أستاذ : الأدب أم التجارة ؟ فأجابه : أنت كمن يسألني ما تفضل : الرغيف أم الزهرة ؟ أنا أسعى أولاً إلى الرغيف وبعدئذ أبحث عن الزهرة .

وعلمنا قبل طبع هذا الكتاب انه عاد إلى لبنان مرة ثانية ونزل على الرحب والسعة والمحبة والتقدير .

توفيق ضعون

(١٨٨٣)

كاتب لبناني (من بيروت) عريق في صناعة القلم . سهل العبارة جذاب الأسلوب لاذع النقد . يُحاول أن يقوّم اعوجاج الخلق بحد لسانه وشباة قلمه ، فلا يتورع من نشر العيوب المستترة في الأفراد والجماعات والحكومات ، طلباً للاصلاح وغيرة على الأدب وعلى الفضيلة وعلى اللغة العربية وعلى المصلحة القومية . ومن كان هذا شأنه لا يتوقع غير النقمة والنفور من مواطنيه ، وغير الشحّ من موارد الرزق . أما توفيق ضعون فبالرغم من كثرة مناوئيه ظلّ أقرب الكتّاب إلى قلوب القراء ، يُقبِلون على كتبه ولو خالفت مشاربهم وآراءهم كأنهم مأخوذون بسحر ساحر ، أو كأن أدبه ملح الطعام ، لا يُستغنى عنه ، أو كأن الحقيقة الجارحة لا تجرح أحداً إن قالها توفيق ضعون . ذلك لأن صراحته وجرأته ظاهر فيهما الصدق والايمان والاخلاص . فهو يطبّق على نفسه مبدأ التحرر من التقاليد في أسلوب المعيشة قبل أن يُبشّر به سواه . والدليل على ذلك اعترافاته في كتاب « ذكرى الهجرة » التي لا يماثلها بالواقعية إلاّ « أيام » طه حسين . يقول عن زواجه : « أقدمت على الزواج في وقت بتّ أشعر فيه بالشبع التام من ملذات الحياة على أنواعها ... ولم

أخدع - الفتاة البسيطة الحال التي استحسنتها وأصبحتْ فيما بعد قرينتي لأني صارحتها بحقيقتي ، وبأني لا أستطيع أن أنفق أكثر من ثلاثين ليرة شهرياً فقبلتْ ذلك . وطلبتُ يدها تحت السماء ولا شاهد علينا سوى النجوم ... واشترطتُ أن يكون العقد مدنياً محضاً لا يحضره سوى شقيقة العروس والشهود . وأن نرتدي كلانا الثياب العادية . وهكذا جرى العقد وسرنا إلى منزلنا صحبة الشهود وأعددنا بأيدينا العشاء من شواء وبطاطا مقلية وسلطة » . (أضف إلى هذا الاعتراف حكاية « المدجحة » وتجارة البيض التي ذكرناها في فصل « المراحل في حياة المهاجرين ») .

بدأت هجرته بالرحيل من بيروت إلى السودان وبعد أن اشتغل أعواماً كموظف في حكومة السودان هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٤ مزوّداً بالاختبارات والعلوم . وحاول استغلال خبرته وعلمه في الشؤون التجارية فخاب أمله . وزرع مؤهلاته في حقل الصحافة فما أثمرت له غير المشاكل ووجع الرأس . لقد اقترن اسمه بصحف ومجلات عديدة احتجبت كلها وبمشاريع شركات مع أدباء آخرين أخفقت كلها (جريدة « المناظر » و « الجديد » و « الرأي العام » و « الكابوس » و « فتى لبنان » ومجلة « الدليل » وغيرها) ، وكان التعليم في مدرسة انكليزية أول رزق تكسّبه في المهجر . في تلك الأثناء كان يدرس ويحلّل أحوال الجوالي المغتربة كما اعتاد أن يدرس ويحلل نفسه ، وينشر مقالات انتقادية امتازت بالجرأة ودقّة الملاحظة وسلامة التفكير ، فلفتت إليه أنظار المحيط ، وما عتم أن أصبح قبلة ومحجاً للمنكوبين بداء الأدب . وشبيه الشيء منجذب اليه .

كتب توفيق ضعون اعترافاته وذكرياته في مؤلف ضخم أسماه « ذكرى الهجرة » صدر عام ١٩٣٢ . وهو للآن أغزر مرجع لمن يتوخى دراسة تاريخ الهجرة وحالة المهاجرين العرب في البرازيل . ومنه استقينا معلومات كثيرة لهذه المحاضرات ، مطمئنين إلى صدقها ، رغم الاحتجاجات

التي أثارتها على المؤلف وعلينا . وفي عام ١٩٥٤ أصدر كتاب « من وحي السبعين » على أثر رحلة قام بها إلى الأقطار العربية ، ضمّنه خلاصة ملاحظاته وانطباعاته عن كل بلد زاره . وقد درّ عليه هذان الكتابان قطراً من الرزق ووابلاً من الاحتجاجات والعداوات لأنه عرّى الكثيرين من أصدقائه بعد أن عرّى نفسه أمام التاريخ . وهو القائل :

وما استهدفت خصماً غير نفسي ولم أخضب بغير دمي سناني

توفيق ضعون ، بركة الجوالي المغتربة ومؤرخ الهجرة إلى البرازيل قد بلغ في العام المنصرم (١٩٦٣) سنّ الثمانين فراح يستوحيها شعراً جديداً كما استوحى السبعين . ولكن أين العزيمة وأين الجلَد وأين الوسائل المطبعية التي كانت متوفرة منذ عشر سنوات ؟ كتب إلي عن حاله ما ذكّرني بقول الشاعر القديم :

ان الثمانين ، وبُلّغتَها ، قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

ثم عدّد النكبات التي انهالت عليه من امراض وخسائر ، وقال انه يشعر بفخر وارتياح لمغالبتها وسيبقى في حلبة الجهاد رغماً عنها . أما مصاعب الطباعة التي اعجزت كثيرين من أصحاب الصحف وحجبت جرائدهم فقد عالجها توفيق بوسيلة لم يستطعها سواه ، وهي انه تعلّم تنضيد الحروف وتمرّس بهذا العمل حتى أتقنه وصار يُنضّد ما يؤلفه مباشرة بحروف المطبعة . وكانت آخر أزمة مرّ بها هي انه بعد أن باشر العمل في « مطبعة البندقي » بيعت هذه المطبعة بجميع عِددها وآلاتها ولم يكن طبع سوى ملزمتين من عشرين . فشكا همّه إلى موسى كريم صاحب مجلة « الشرق » ، ففرّج موسى ضيقه وأباح له استعمال حروف

مطابعه القديمة التي أهملها منذ سنوات وتراكم عليها الغبار ونسيج العنكبوت . فأخذ توفيق بتنظيفها وترتيبها حتى أصبحت صالحة للاستعمال واستأنف طباعة كتابه عليها . فكان في عمله هذا عبرة لأصحاب الصحف في ميدان تنازع البقاء . فالصحف تتكل على المنضّدين ، وهؤلاء رعيل قديم آخذ بالتلاشي وغير قابل للتجديد . لأن التنضيد مهنة قليلة الجداء لا تُغري الرعيل الجديد بتعلّمها ولا تُغري محترفاً مقيماً في الوطن على الهجرة . فلا ضمانة لبقاء الصحيفة إلاّ بقدرة صاحبها نفسه على تنضيد حروفها في المستقبل . ها إن موسى كريم الحريص على أناقة مجلته تعوزه يد المنضد فينقل عن الصحف والمجلات الأخرى صفحات مصورة تصويراً بحروفها المختلفة الأحجام والأشكال فيشوّه مظهر المجلة. وأعرف في ديترويت مشيغن جريدة تصدر بعنوان « النهضة العربية » لصاحبها سعيد داوود فياض ، قد احتجبت أياماً لما انسحب منها المنضّد . فتعلم صاحبها التنضيد واستأنف الصدور بانتظام .

وفّق الله صديقنا ضعون في عمله الجبار . إنه يستحق كل معاني اسمه ، حتى يرى بعينه كتابه العتيد خارجاً من المطبعة إلى أيدي القراء .

وهو يجيد النظم - شعراً وزجلاً - في المواضع التي تروقه وتستثيره وهي مواضع لم يجدها إلاّ في المآدب الفاخرة ومجالس الأدب العامرة . فكان يبرز في المطارحات الشعرية وينازل الزجالين فيغلبهم بسرعة الخاطر وإحكام النكات . على أن شعره لم يخل من حِكم وعظات كقوله :

إذا اكتمل المعنى فإنك مجرم ... إذا زدت حرفاً واحداً يُنقص المعنى

وإن كان تعبيراً يُعد مرادفاً ... وقعت من التكرار في دركٍ أدنى

فيا مسرفاً في اللفظ انك مبدل ... بما ليس يفنى من كلامك ما يفنى

وفي استقلال لبنان قال :

قالوا استقلّ فقلت شيءٌ حاصل ما كان تحليق النسور جديدا
لبنان في العهد القديم مسوّدٌ أيكون في العهد الجديد مَسودا ؟

إن أنس لا أنس اني كنت من روّاد مكتبه العامر في سان باولو ومن متذوّقي القهوة الطيبة التي كان يتأنق في تحضيرها ويجتذب بها جماعة الأدباء العاطلين عن العمل . داعبته مرة بقصيدة هذا مطلعها :

خذ من يراعك هدنةً يا صاحِ واجلس لصحبك جلسة الجحجاح
يا حارق البنّ الفتيق تشفّياً سلمتْ يداك ، حرقتَ قلب اللاحي
فضحتْ قُتارته الوليمةَ فامتلا ناديك بالغوّاد والروّاح
والقهوة العذراء ، أنت أبحتها وِرداً يحوم عليه كل إباحي ..
لولا الحياء لما تعصّب وجهها بضبابةٍ من زفرة الاقداح
كم ملتُ بالفنجان ألمظ ثغره قبل ارتشاف رضابه الفوّاح
لا أنثني حتى أرى في قعره خيط الصباح على الدجى الضحضاح
وخثارةً ، لولا الرقيب غزوتها وتخذتُ من طَرَف اللسان سلاحي

موسى كريم

(١٨٩٦)

ُولد في مدينة «سان سيمون» في البرازيل من أبوين سوريين وعاد معهما طفلاً إلى «يبرود» (سوريا).

وكان في الخامسة عشرة من سنه حينما غادر يبرود إلى البرازيل وعمل في حقل الصحافة مستجيباً لنزعة مطبوعة فيه. واتضح من نتيجة جهوده انه اختار العمل الذي ُخلق له فنجح حيث أخفق سواه. وهو اليوم صاحب أضخم وأروج مجلة اجتماعية أدبية في المهاجر الاميركية «مجلة الشرق». أسسها عام ١٩٢٧ بالعربية، ثم أضاف اليها قسماً باللغة البرتغالية عام ١٩٣٣. وعقب اندلاع الحرب العالمية الثانية فرضت الحكومة لغة البلاد وحدها على الصحافة فاقتصرت «مجلة الشرق» على البرتغالية. وحالما استردّت الصحافة حريتها بانتهاء الحرب عادت إلى الصدور باللغتين معاً. وما زالت إلى اليوم – على تقدمها في السن – تزدهي بأناقة الشباب وحيويته وتزداد قوة عاماً بعد عام. والفضل في هذا النجاح الفريد في تاريخ الصحافة المهجرية يرجع إلى مجموعة صفات تحلّى بها صاحب المجلة. فهو الوحيد الذي مارس الصحافة أديباً وفناناً

وتاجراً وصهر هذه النزعات الثلاث في بوتقة الرسالة الاجتماعية ذات الفوائد المتبادلة بين صاحب المجلة وقرائها . أدرك بثاقب نظره ما يروق للطبقة الارستقراطية وللطبقات التي تتشبه بها من الظهور في إطار الوجاهة والشهرة والترف . فوضع في مجلته وراء صفحات العلم والشعر صفحات الأخبار الاجتماعية ورسوم الحفلات الخصوصية لقاء أجور تغذي المجلة وصاحبها وتؤمّن لهما بسطة العيش . ولا ننس انه وضع في هذه المهمة كل نشاطه وكل همته التي لا تعرف الكلل والملل .

كثيراً ما لامه الحاسدون على هذا الاتجاه في مجلته بدلاً من الاعتراف بعبقريته . فلو غيّر اتجاهها كما يريدون له لنضبت مواردها واحتجبت كما احتجب كثير من المجلات قبلها ، ولخسر المغتربون تلك الاداة الفعّالة من أدوات الدعاوة للوطن العربي وللأدب العربي في الأوساط العربية والأجنبية . فهو يقوم بالدعاوة منذ ثلاثين عاماً ويعمّمها باللغتين دون أن يتقاضى اجراً من الحكومات العربية صاحبة المصلحة فيها .

إلى هذه الناحية توجهت جهود موسى كريم ، ليس في مجلته وحسب ، بل في كل كتاب ألّفه أو ترجمه ، وفي كل خطاب ألقاه في أحد المحافل البرازيلية . هو عضو في المجمع العلمي السان باولي ونائب رئيس نقابة الصحافة البرازيلية ، ولكلمته وزن في الأوساط الأجنبية ، وما هي إلاّ كلمة العروبة تتردّد في جميع كتبه ، عربية كانت أم برتغالية .

من مؤلفاته كتاب جبران خليل جبران — تأثيرات سياحية — البرازيل والشرق — خلفاء بغداد — حدث في دمشق — شعراء وخلفاء — وسوريا ولبنان وفلسطين . كلها شرقية الروح والموضوع .

ونقل إلى البرتغالية كتاب مصير الخلفاء الراشدين — المتنبي — المعري — أبو نواس — عمر بن أبي ربيعة — مقدمة ابن خلدون — رحلة ابن بطوطه — دراسة دانتي ورسالة الغفران — قصص سورية — مذكرات الأمير أمين

أرسلان — وملحمة عبقر لشفيق معلوف .

وبعد أن قام برحلات عديدة إلى الشرق وقام بدراسات في المدن والقفار ، نشر وثائق تاريخية فتحت العيون على حضارة الشرق ومدنيّة العرب .

لا شك ان في عرض تاريخنا وآدابنا أمام الأجانب تشجيعاً لابناء المهاجرين العرب ، من مواليد المهجر ، على المباهاة بعنصرهم وأنسابهم وعلى احترام آبائهم مهما اختلفوا عنهم علماً وثقافةً . وفي ذلك أيضاً تمكين للصلات التي تربط المهاجر بالوطن الأم ، وللصلات التي تربطه بأبناء الوطن المختار الذين ينظرون نظرة احترام إلى المهاجر العربي متى أدركوا انه يحمل راية الأدب ويبني صرح الفكر ويتذوق جمال الفن بينما هو يفتح المتجر وينشىء المصنع ويشيد القصر .

جورج حسون معلوف

(١٨٩٣)

أديب كبير (من بكفيا ــ لبنان) من أعلام الأدب العربي في المهاجر ومن أركان «العصبة الأندلسية». هو موسوعة تضم بين دفّتيها شتات العلوم من لغوية وأدبية وتاريخية وفقهية. تعلّم اللغات الأجنبية وتضلع في علميّ المنطق والشرع. هاجر إلى بونس ايرس عام ١٩١١ وشغل منصب سكرتير القنصلية العثمانية في عهد قنصلها المرحوم الأمير أمين أرسلان. وبعد عام واحد وصل إلى سان باولو واشتغل في التدريس وأخذ يتحف مجلة العصبة بمقالات رائعة تُعدّ من الطراز الأول في حسن البيان. ثم اشتغل عميلاً متجولاً لمصانع ومحال تجارية دون أن ينقطع عن الانتاج الأدبي. وكتابه «أقاصيص» الصادر عام ١٩٥٤ في سان باولو وجّه اليه أنظار العالم العربي وأخذت المجلات تتناقل فصوله، وتطري ما فيها من ابتكارات ذهنية وصور فنية. وكل من قرأها تمنى لو انصرف الكاتب إلى الأدب انصرافاً كلياً «لو كل ما يتمنى المرء يدركه».

والأديب حسون من الناحية القومية يمشي في صفوف الأحرار المناوئين للاستعمار. امتاز بمواقفه الخطابية وامتازت خطبه بأناقة البيان وحرارة

العاطفة الوطنية . وفيها تتمثل قوة شخصيته . وقد أحاطه أهل العلم بالتقدير والاحترام لصدق ولائه ونبالة خلقه ولطافة عشرته .

يقرض الشعر في فترات ويُهمله سنوات ثم يعود اليه فلا تخونه الشاعرية . حدث يوماً ان نسيبه الشاعر شفيق معلوف افتقده في مصيفه على الشاطئ مرتين فلم يجده . وفي المرة الثالثة ترك له الأبيات التالية :

كيف تجفو الروض ياحسونه   كل غصنٍ لك في الروض رقص
ما أتينا الشاطئ المسجور لو   لم نؤمل فيه تفريخ الغصص
أين ما عودتنا من سمرٍ   هو يا حسون في العمر فُرص
كلما فتشت عن حسون لم   أحظ من حسون إلاّ بالقفص

فبادر حسون إلى الجواب بهذه الأبيات :

ما نأى حسون عنكم راضياً   ربّ نأي ملأ النفس غصص
فاعذر الحسون واعذل قدَراً   عوّد الحسون تضييع الفرص
حصتي منكم وما أصغرها   جار من وزّع في الدنيا الحصص
ليس للحسّون عنكم عوضٌ   وهو من حبكم ضمن القفص

أما بيانه المنثور ، الساحر المسحور ، فشاهدنا عليه المقدمة الرائعة التي كتبها لديوان فرحات ونشرناها في غير هذا المكان . ولا بأس من إيراد شاهد ثان نسترقه من خطاب ألقاه في عيد استقلال لبنان في سان باولو عام ١٩٥٩ فكان انشودة الشعوب للحرية :

« أيتها الحرية . يا أجلّ نعم الله على خلقه .

« أيها النور السماوي المحيي الذي طالما حجبه ، ولما يزل يحجبه الانسان عن أخيه الانسان ظلماً وعدوانا .

« أحييك باسم أحد بنيك ، باسم أصغرهم وأجملهم وأحدثهم سناً .

باسم لبنان الحبيب الذي نحتفي الليلة بذكرى مولده وطناً حراً مستقلاً سويا . احييك باسم جنوده الذين افتتحوا العالم من أدناه إلى منتهـــاه ولا سلاح في أيديهم إلا أغصان الزيتون والأرز .

« باسم تلك الحفنة من البزور التي ذرها القدر منذ ثمانين عاماً في جهات الكون الأربع كما تذري الرياح الهوج رمال الصحراء فأصبحت أدواحاً غضة ممتدة العروق ملتفة الأغصان وارفة الظلال شامخة لا تبلغ الطـير ذراها . باسم تلك القبضة من بني الانسان التي أصبحت أمة منتشرة في كل صقع وصوب وسارية تحت كل كوكب منها علماؤها وشعراؤهـا ومنشؤوها ومنها أطباؤها وصيادلتها ومهندسوها ، ومنها قضاتها ومشترعوها ومحاموها ، ومنها صيارفها وتجارها وصناعيوها وزراعيوها ولها أنديتها العلمية والأدبية والرياضية . ولها ملاجئها ومصاحّها وصحافتها .

« هذه الأمة الصغيرة التي بأدبها واخلاصها ومحافظتها على الأنظمة وحبها للبلاد التي نزلت بها ، برهنت للملأ أجمع ان عظمة الشعوب لا تقاس بعدد بنيها ، بل بمعنوياتها ، وان الفتوحات الحقيقية لا تثبت بالسيف والمدفع ، بل بالأدب والثقافة والعلم والعمل والحب والايمان .

« أيتها الحرية الحبيبة ، كم تذكرناك وكم بكيناك في غربتنا ! كم تفقدناك أيام كنا نرى الشعوب الحرة تبتهج بأعيادها الوطنية وتهلل لسيادتها القومية ونحن لا نرى أمامنا إلا الظلمة وفي أيدينا المشاعل موقدة وهاجة ! ولا نحس إلا باليأس ونحن مغمورون بأسباب الأمل ، أيام كنا نرى الذل في عزنا ، والهوان في مجدنا ، والفقر في غنانا والتعس في سعادتنا ! أجل ! التعس !

« فليس بالتاعس من أصابته المجاعة ففقد نصف بيته . لاولا شعب اجتاحه العدو بخيله ورجله فأحرق ضياعه ، وقتل رجاله ويتم أطفاله ثم غادره وشأنه . بل التاعس الحقيقي هو شعب يعيش عزيزاً في الغربة ، ويسومه الاغيار خسفاً وذلاً وهواناً في وطنه وعقر داره !! » .

فارس الدبغي

(١٨٩٢)

لولب الحركة الأدبية والاجتماعية في سان باولو منذ نصف قرن . جاءها من بلده «حاصبيا» عام ١٩٠٩ . وحالما استقر فيها تجلّت موهبته في الكتابة والخطابة وبرز اثره في نشاط المشاريع الأدبية والاجتماعية التي أقدمت عليها الجالية السورية بناءً على دعوته ومؤازرته . أسس منتدى «حرمون» ، أول الأندية الأدبية في سان باولو ، وترأس مركز الإغاثة السوري إبّان الحرب العالمية الأولى ، وأدار جمعية الشبان المسيحية وزوّدها بمكتبة عامرة . وكان أول الدعاة لانشاء النادي الرياضي السوري الذي أصبح من مفاخر المؤسسات العربية في المهاجر ، بعد أن رئسه زهاء عشرين عاماً . وهو الآن أمين السر في لجنة نصرة فلسطين .

ومن الناحية الأدبية ، لفارسنا جولات موفقة في ميدان الانشاء الفني وحلبة الدعوة الوطنية وحقل الاصلاح السياسي والاجتماعي . أعدّته تربيته ودراساته ليكون خطيباً شعبياً مثيراً وكاتباً غزير المادة طويل الباع ، وزعيماً قومياً موجهاً . نشرت صحف سان باولو بواكير قلمه فور وصوله . ثم انشأ لنفسه جريدة «الأمازون» عام ١٩١١ وحجبها بعد عام واحد . ومن ذلك الحين والقضية العربية — وعلى الاخص فلسطين — شغله الشاغل ، يعالجها في الصحف والمجالس وعلى المنابر . وما زال يكتب المقالات الافتتاحية في جريدة «برازيل لبنان» ، فتنتشر في مختلف البلدان .

وحدث عام ١٩٦١ ان الأدباء في الأقطار العربية تنادوا إلى تكريم الشاعر بشاره الخوري (الاخطل الصغير) في مهرجان أقيم في بيروت ولم يطلبوا من أدباء المهجر مشاركتهم في التكريم وهم على ما هم عليه من الاعجاب بعبقرية الاخطل . فاجتمعوا في سان باولو وقرروا إقامة مهرجان ثانٍ للشاعر في بيروت وأوفدوا فارس الدبغي رسولاً عنهم وممثلاً لهم وحمّلوه قصائدهم مع صفيحة ذهبية نقشت عليها تحية شعرية نظمها شفيق معلوف . فقام فارسهم بالمهمة خير قيام .

داود شكور

١٨٩٣ — ١٩٦٣

وجه من وجوه الجالية الحمصية الكريمة في سان باولو ، تعلّم في الكلية الأرثوذكسية في حمص وهاجر إلى سان باولو عام ١٩٠٨ وسرعان ما عُرف بذكائه وبنشاطه الاجتماعي في النادي الحمصي الذي ترأسه مرتين ، وبنتاجه الأدبي في خطب ألقاها وترجمات نشرها منقولة عن البرتغالية . فهو كاتب رصين البيان وخطيب فصيح اللسان . يُدعى إلى الكلام في المناسبات المهمة ، فيملأ المقام بشخصيته وينال الاعجاب العام ببلاغته . وقد سمعنا في أوساط الجالية الحمصية أصداء خطبٍ ألقاها منذ عشرين عاماً وما زال الحديث عنها يتردّد والثناء عليها يتجدد . وقد تبعثرت آثاره الأدبية فلم يُطبع منها إلا رواية « الأوانس والعوانس » التي مُثّلت على مسارح المدينة . وكان لوفاته رنة أسى عند جوالي المغتربين .

جورج لبان

(١٩٠٢)

وليد دمشق ، الشام . متمكّن من اللغات الأجنبية وحائز على شهادة الكيمياء في الصيدلة . نشاطه غريب وصبره عجيب على العمل والتحرير ، لا سيما في خدمة الوطن العربي . وصل إلى سان باولو عام ١٩٢٦ ، فملأ الصحف والمجلات بنتاج قلمه ، وانتسب للعصبة الأندلسية وإلى مجمع الكتَبَة البرازيلي ، وانخرط في الجمعيات الوطنية يعمل ليلاً نهاراً في الدفاع عن القضايا العربية وفي مقدمتها فلسطين . فكان بمفرده بمثابة مكتب دعاوة عربية يوزع الكراريس والنشرات على مختلف أنحاء المهاجر ، ويقابل بها حملات اليهود بأشدّ منها . ثم انصرف إلى درس الحيّات والمعادن ، وجاب مجاهل البرازيل مُوفداً من شركات التعدين لفحص المناجم وتقديم تقارير عنها . وقد بلغ عدد مؤلفاته خمسة عشر كتاباً ، بعضها لم يزل مخطوطاً . منها بالعربية : روسيا — فتح الشام — الحيّات في العالم — تاريخ سوريا قديماً وحديثاً — فنّ التصبير والتحنيط — كنتُ في دمشق — دراسات ومحاضرات — بروتوكول حكماء صهيون . ومنها بالبرتغالية : تاريخ الطب العربي — العرب قبل عصر التجدد — الصهيونية — خطر الصهيونية على العالم — مزاعم الصهيونية التاريخية — القضية الفلسطينية — العرب واليهود تجاه الرأي العام — وله قاموس برتغالي — عربي يتألف من خمسين ألف كلمة .

في عام ١٩٤٩ عُيّن أستاذاً لكرسي البرتغالية في الجامعة السورية في دمشق وهو الكرسي الذي تبرع بنفقاته الأديب السريّ يوسف يازجي . ومنذ عامين انتقل إلى عاصمة البرازيل والتحق بالسفارة السورية للاشراف على المكتب الثقافي الذي أنشأته الحكومة السورية في البرازيل . وعند بلوغه الستين من العمر تقاعد عن العمل وتفرّغ للمطالعة والتأليف فأضاف إلى انتاجه السابق عشرة مؤلفات بالعربية وعشر ترجمات عن البرتغالية طُبع نصفها ولم يزل النصف الآخر مخطوطاً . وقد أفادني انه حصل من المستشرق الروسي شوموفسكي على مخطوطة نادرة الوجود لابن ماجد الربان العربي الذي رافق فاسكو دي غاما في رحلته الاستكشافية إلى الهند والشواطئ الاميركية ، وقد ترجمها إلى العربية وأرسلها إلى وزارة الارشاد القومي في دمشق مع اثني عشر كتاباً علمياً فلم توافق الوزارة على نشر واحد منها إلى الآن .

وهو الآن في سنّ الكهولة مقيم في بلدة الأفق الجميل .

يوسف اسعد غانم

أديب لبناني من المجددين البارزين الراسخين في العروبة قلباً وأدباً . وُلد في قرية « سنور » (لبنان) وتمرس في فنون الأدب قبل هجرته إلى البرازيل . وبوصوله إلى سان باولو انخرط في العصبة الأندلسية ونشر في مجلتها فصولاً وقصائد رائعة ، وله زجل شائق نقرأه في ديوانه « البرج الأخضر » الذي صدر عام ١٩٥٣ فنعجب بحرارة العاطفة ودقة التصوير .

ونقرأ مقالاته النثرية فنلمس مسحة جبرانية حيناً وريحانية حيناً ، ولكن شخصيته الأدبية لا تحتجب ، فهو بأسلوبه النثري نسيج وحده ، كما انه موفق في محاولاته حينما يعنّ له نظم الشعر الفصيح .

نستشهد على أدبه بهذه القطعة الرائعة من الحنين المؤثر كأنه خفقات قلب لا كلمات كاتب :

« لقد سلخ القدر ستاً وعشرين سنة من عمري . ستاً وعشرين سنة طارت هباءً على الشواطئ الجميلة التي وقفتُ على رمالها وصخورها أرقبُ السفن العابرة إلى الشرق ، إلى موطن الله . وكلما مرّتْ سفينة كنت ألوح لها بيدي وأصرخ بملء فمي ، فكانت الريح تُقصيها عني وتُعيد صراخي إلى حلقي ، حتى تحوّل صدري إلى كهف تتجاوب فيه أصداء ندائي وصراخي . وكيفما أدرت عيني في سماء هذا المهجر الكريم المضياف تجلّتْ لي خيمة عربية نُصبتْ فوق ديار اعجمية سحنةً ولساناً .

لو تبخّر عمري كله قصيراً في أي صعيد عربيّ لحمدتُ الله على حياة قصيرة عريضة في دنيا يُقيم الله في قلوبِ أبنائها ويُقيم الشيطان في قلوب مُغتصبيها . فصواعق بلادي هي ورود ترشقني بها سماء بلادي .

لقد تعبتُ في الغرب حتى ملّني التعب . خذوا السيارة والطيارة واعطوني جملاً وحصاناً . خذوا الدنيا الغريبة أرضاً وبحراً وسماء واعطوني خيمة عربية أنصبها على إحدى روابي وطني لبنان ، على ضفاف بردى ، على شواطئ الرافدين ، في ارباض عـمّان ، في الصحراء السعودية ، في مجاهل اليمن ، في سفح الاهرام ، في واحات ليبيا .

اعطوني خيمةً عربية لأضعها في كفّة ، وأضع الدنيا في كفّة ، وأنا الرابح » .

اسكندر كرباج

(١٨٨٥ — ١٩٥٣)

من أعضاء العصبة الأندلسية . ترك بعلبك مسقط رأسه في سنّ الثانية عشرة ليلج ميدان التجارة في سان باولو قبل أن يكمل تحصيل العلوم . ولكن نزعته أبت عليه إلاّ مواصلة الدرس في المهجر فلم يلبث أن برع في البرتغالية وتمرن على الانشاء بالعربية فنقل اليها قصصاً من روائع الأدب العربي ، كانت بهجة القراء المشتركين في مجلة العصبة . كانت حياته المهجرية غذاءً لهذه المجلة وخدمة للأدب المهجري العام . أحبته وقرّبته الجوالي العربية والأوساط البرازيلية على السواء . فمات مأسوفاً عليه من الجميع .

يوسف البعيني

(١٩٠٨ — ١٩٤٩)

أديب لا يُجارى في طراز انشائه . نزح من جوار الأرز في شمال لبنان ليعطر سماء المهاجر بروحه الطيبة ويحلّي صدر الأدب المهجري بوسام من أدبه النفيس . هاجر من قريته « الهدينة » ووصل إلى سان باولو عام ١٩٢٣ وانخرط في العصبة الأندلسية وعمل في مجلّتها بكل قواه الروحية وكل طاقته الأدبية . فكانت مقالاته من أعلى طراز في التجديد والابداع . كان كامل الثقافة والتهذيب الخلقي ، مرهف الحس، دقيق الوصف ، لامع الانشاء . لو مدّ الله في حياته لكان من أعلام الأدب الخالدين .

انطون سليم سعد

١٨٩٢

كاتب روائي من أعضاء العصبة الأندلسية ، وهو تاجر من غواة الأدب العربي ، وُلد في البرازيل واجتهد في التحصيل حتى ألمّ بقواعد العربية وأرضى نزعته المطبوعة وشغفه بوطن أجداده . نشر في مجلة العصبة قصصاً جميلة ومقالات شائقة وله محاولات في الشعر لم تُنشر .

توفي في العقد الخامس من عمره .

انيس يواكيم الراسي

١٨٧٨ — ١٩٣٥

من أعضاء العصبة الأندلسية . بيروتي ، تعلّم في الجامعة الاميركية وعلّم فيها ثم أتى إلى البرازيل عام ١٩٠٥ واستلفت الانظار بحسن بيانه وطلاقة لسانه . فكان دوره بارزاً في الأوساط الأدبية في سان باولو ولا سيما في جمعية المتخرجين من الجامعة الاميركية في بيروت .

جورج انطون السكفوري

١٨٩٠ – ١٩٤٢

لبناني من الطبقة الراقية في العلوم والأخلاق أنفق شبابه في بيروت بين الدرس والتدريس وجاء إلى المهجر بأدب ناضج وخلق متين. فكانت سيرته مدى عشرين عاماً قدوة للأدباء، في سموّ المبادئ ونظافة اليد. ولكن مثاليته جنت عليه. فلما أنشأ مجلة «المنار» الاسبوعية خبا نورها بعد سنوات قليلة لانقطاع المدد عنها واضطر إلى العودة إلى الاتجار في الداخلية بعيداً عن المحيط الأدبي قانعاً بكفاف العيش. ولكنه بقي عضواً في العصبة الأندلسية. وعكف في السنوات الأخيرة من حياته على التماس الرزق من دروس خصوصية كان يعطيها لتلامذة المدارس العالية. ومات مقهوراً مأسوفاً عليه.

جورج الخوري بولس كرم

١٨٨٠ – ١٩٣٦

أديب بيروتي من خريجي مدرسة الحكمةومعلمي كلية الآباء اليسوعيين. كان له شأن مرموق في صحافة لبنان لا سيما بمقالاته النارية في جريدة «النصير». ولما ضيّقت السلطات عليه الخناق هاجر إلى البرازيل عام ١٩٠٥ وتعاطى التجارة والتعدين بنجاح كبير. ولم يهجر القلم على كثرة مشاغله بل استمر انتاجه الأدبي غزيراً وصوته مدوّياً على المنابر. ولذلك اختارته العصبة الأندلسية عضواً نافعاً من أعضائها.

جبران سعادة

١٨٩٨

لبناني من بلدة «اميون»، وصل يافعاً إلى البرازيل عام ١٩١٤، وكانت تجارته في الولايات الداخلية تبعده عن الحركة الأدبية في سان باولو ومع ذلك ضمّته العصبة الأندلسية إلى أسرتها إعجاباً بشعره الرقيق. وهاكم نموذجاً منه:

لا تعجبوا للروض غنّى طيرُهُ ... لزيارتي فالطير يعرف من أنا

يا طير هلّلْ ما تشاء مُرحّبا ... رضي الحبيب وفارق القلب الضنى

ولقد تعاتبنا وكان عتابنا ... الله لو شاهدتَهُ ما أحسنا

شرب النسيم دموعنا فتحولت ... ذراته عطراً تفاوح حولنا

يا روض سلني ما الهناء ومن تُرى ... مثلي جدير بالحديث عن الهنا

ميكال هيكل نمر

عضو آخر في العصبة الأندلسية. لبناني الأصل وليد البرازيل صحبه والده صغيراً إلى مسقط رأسه في زحلة فتعلّم فيها وحذق العربية والفرنسية وأكمل الدراسة الجامعية في باريس، متخصصاً في فقه اللغات. فلما عاد إلى سان باولو بثقافته الواسعة اتصل بكبار العلماء في جامعات البرازيل وأخذ يؤلف المجلدات ويلقي المحاضرات عن عبقرية اللغة العربية وجمالاتها، مما أثار في الطلبة البرازيليين الرغبة في درسها والمطالبة بكرسي في الجامعة لتدريسها. وكان بين أساتذة الجامعة في سان باولو أستاذ لبناني غيور ومسموع الكلمة هو جميل الصفدي، فبذل جهده لترويج الفكرة وما زال حتى حققها كما ذكرنا في فصل «المراحل في حياة المهاجرين» في صدر هذا الكتاب، هذا الفضل هو الذي خوّله الانخراط في العصبة الأندلسية، رغم ان مؤلفاته كانت باللغة البرتغالية.

محمود الشريف

كل ما نعرف عنه أنه أديب مصري اتخذ المهجر البرازيلي مقراً له ولعله المصري الوحيد في تلك الأصقاع . هو أديب متمرد على المجتمع . يعجب الناس بأسلوبه الثائر الآسر ويهتمون بمناظراته وحملاته التي تنشرها الصحف . يمشي تحت لواء نعمه قازان متحمساً لمذهبه الروحاني إلى حد أنه نشر عنه كتاباً بعنوان «ساعة مع قازان» قال فيه : « أنا الذي لم يتح لي قدر الصفر مما أغدقته الحياة على قازان من نعم الشباب والحسن والمال ، كنت أقيم الدنيا وأقعدها يوم كانت تغض الحياة عينيها متغافلة وتهبني فلساً أبيض . ولهذا قال لي أحد الظرفاء : الله عارفك وناتفك يا محمود » .

ونعرف عنه مما كتبه أنه قضى نصف عمره في البحث عن الماس في مجاهل البرازيل وكثيراً ما استخرجه من تحت طبقات كثيفة من الأحجار والرمال والتراب ، مشيراً بذلك إلى المكامن التي يتوقع أن يجد فيها الحقيقة إذا بذل الجهد في سبيل استخراجها .

إن آثار هذا الأديب تنمّ على شخصيته : حرارة في الدم وحدة في الطبع وجرأة في الأفكار وإنسانية سامية في الأهداف . هاكم مثلاً من أدبه :

« إن معجزة المعجزات هي أن تحب . وأن تدع نواة الحب في نفسك تنمو وتنمو وتنمو ، وأن تروّيها بدمك وتغذيها بلحمك حتى تتلاشى أنت وتبقى هي — أحب الشاعر الذي يتألق الشعر في صنعته لا الشاعر الذي تتألق الصنعة في شعره — إني أعرف صانع أحذية يبث الشعر في عمله . هذا الصانع المسيحي علمني أنا المسلم بن المسلم والمسلمة حفيد سعد بن عباده صاحب محمد رسول الله ما عناه الرسول في قوله الكريم :

« ان الله يحب من أتقن عمله » .

بدرت هذه الأقوال من قلمه دفاعاً عن قازان في مشادة قامت بينه وبين الأديبة الكبيرة السيدة انجال عون شليطا . وفي معرض الرد عليها بالغ في المجون وكتب هذه العبارة : « إنني حمار من أبدع ما ابتكره إلـه الحمير في قبرص وكل من يخطر في باله شك في كوني حماراً قبرصياً فهو أخي » .

سامحه الله وهداه .

ناصر شاتيلا

(١٨٦٦)

لبناني (من راشيا الوادي) وأديب روائي اشتهر بأسلوبه الفكاهي وبفنّه في الموسيقى والتمثيل المسرحي . بدأ حياته المهجرية في البرازيل عام ١٩٠٩ بالعزف على البيانو وتأليف الأغاني والأناشيد الوطنية وتسجيلها على اسطوانات . ثم عكف على الأدب . وبعد أن أسس في مـدينة « كاموس » مدرسة عاشت من عام ١٩٠٩ إلى عام ١٩١١ انتقل إلى ريو دي جانيرو وأنشأ فيها جريدة « الفجر » عام ١٩١٢ . وفي عام ١٩٣٥ أصدر مجلة « أبجد هوّز » في سان باولو فانتشرت انتشاراً لا مثيل له في المهاجر . وعندما احتجبت الصحافة العربية بأمر الحكومة أثنـاء الحرب الأخيرة عمد إلى المتاجرة بأقراص (الكبّة المقلية) يبيعهـا من المقاهي والحانات البرازيلية ، إلى أن طرأت على البلاد أزمة الفحم فعطّلت تجارته . ومنذ ذلك الحين انصرف إلى المسرح ، يـؤلّف الروايات الاجتماعية الانتقـادية ويشترك في تمثيلهـا ويعلّم الممثلين أدوارهم .

نجيب خنكش

لبناني عصامي من زحلة . هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٢ مكافحاً في سبيل الرزق ، وذاق من الضيق والحرمان ألواناً إلى أن تكلل جهاده بالنجاح واطمأن إلى استقلاله المادي . هو من هواة الموسيقى والتمثيل يغني بصوت رخيم ويمثّل ببراعة مدهشة . نبغ وأبدع في إخراج النكتة إخراجاً فنيّاً وفي استقطارها عظة اجتماعية يستفيدها بنو وطنه ، بعد ما تفيض بهجتها على المجالس . وهو إلى ذلك أديب موهوب بالفطرة . تفرد في لونه وطابعه وخلق نفسه بنفسه على جهله أبسط القواعد اللغوية . يكتب كما يتكلم برشاقة الفنان وحرارة المؤمن واخلاص اللبناني الصميم ، ويتولى الناشرون تصحيح لغته . أصدر في عام ١٩٣٤ جريدة « لبنان » ، ثم جمع نوادره في سلسلة من « الخنكشيات » ونشرها في ثلاثة أجزاء . وقد لاقت إقبالاً يحسده عليه أكابر الكتّاب الراسخين في العلم . بلغ من حبّه للبنان أنه ترك مصانعه في سان باولو وعاد اليه ليستقر فيه ويسهم في نهضته العمرانية . وهو الآن في « شتورا » يدير فندقاً فخماً ويقدّم برامج فنّية للتلفزيون وينشر في الصحف خواطره السياسية والاجتماعية .

جميل صفدي

(١٩٠٨ ـ ١٩٥٠)

هاجر من زحله عام ١٩٢٥ وتعاطى التجارة في سان باولو على كره منه واستمر على تحصيل العلوم العالية حتى أصبح من العلماء الثقات ومن الأدباء اللامعين في العربية والبرتغالية وأخذ يزود المكتبتين بآثار ثمينة في التاريخ والاقتصاد وآداب اللغة . شغل كرسي العربية في سان باولو وعلّم في كلية الفلسفة والآداب والعلوم وأسس حلقة الدروس العربية فيها . ومن أجلّ مؤلفاته : معجم اللغات الشرقية في سبعة مجلدات ودراسات حول تبسيط اللغة العربية وأحوال الجوالي المغتربة في البرازيل .

الدكتور فضلو حيدر

من مواليد « طليا » (بعلبك) خريج الجامعة الاميركية في بيروت فرع الطب لعام ١٩١٩ ، جاوز عمره الستين . هاجر إلى البرازيل ونشر في سان باولو دراسات طبية عام ١٩٢٣ دلت على نبوغه في علم الجراحة. وفي أعقاب الحرب العالمية الأخيرة انصرف إلى الصناعة وأسس مصنعاً للورق وانضم إلى صفوف الأثرياء . وبالرغم من تشعب مناحي نشاطه في عالمَيْ الطب والاقتصاد لم يفتر نشاطه في حقل الأدب . بل كان يواصل المجلات بابحاث علمية واجتماعية عميقة ويخطب في الأندية ويترأس الجمعيات ويولي مشاريع الجالية كل اهتمامه . وقد قدرت الجالية عبقريته وأريحيته فأقامت مهرجاناً كبيراً تكريماً له في عام ١٩٤٨ .

ماريانا دعبول فاخوري

أديبة من سيدات المجتمع المتحرر في سان باولو . أرغمتها الظروف على إدارة المتجر الذي تركه لها المرحوم زوجها ولكن لم تكسر قلمها وتخمد الشعلة الأدبية في روحها . أنشأت عام ١٩٥٥ مجلة انيقة غزيرة المواد باسم « المراحل » وضعت فيها شيئاً من روح مجلة العصبة الأندلسية وشيئاً من مظهر مجلة « الشرق » فلاقت رواجاً تستحقه كما لاقت صاحبتها تقديراً كبيراً من المجتمع . فهي تجمع إلى الاصالة في الأدب البطولة في العمل الصحافي المرهق .

سامي واكيم الراسي

أديب أصدر مجلة « الجالية » المصورة عام ١٩٢٢ ، وهي أول مجلة عنيت بتصوير الحوادث الاجتماعية قبل ظهور مجلة « الشرق » ومجلة « المراحل » ، وألّف كتاب « الواجبات » . وتوفي في العقد السابع من العمر .

راجي باسيل
١٩٠١

من قرية « غلبون » في كسروان . هاجر إلى البرازيل عام ١٩٢٠ وحرّر في الصحف العربية . ثم انصرف إلى الصحافة البرتغالية عام ١٩٢٦ ونال مكانة عالية فيها بفضل ثقافته الواسعة . وألّف كتباً مدرسية للتعليم نال عليها جائزة السلطات .

الشيخ وديع اليازجي
١٨٨٦ – ١٩٥٩

شقيق الشيخ سعيد اليازجي الشاعر . وُلد في قرية « بطشونة » قرب كفرشيما ونشأ شاعراً وأديباً . واتجه عام ١٩٠٩ إلى سان باولو وأسس فيها عام ١٩١٧ الكلية السورية البرازيلية التي علّمتْ ألوفاً من أبناء الجالية وأبناء البرازيل يقدر عددهم بخمسة عشر الفاً . وكانت الوحيدة في المدارس التي تعلّم المعاني والبيان والبديع والعروض . اضطر إلى إهمالها لما سافر إلى المكسيك وغاب عامين فلما عاد إلى سان باولو وحاول استئناف التعليم أدركته الوفاة .

داود جرجس الخوري

معلّم وأديب وشاعر . استلم إدارة الكلية الشرقية في سان باولو عام ١٩١٧ ثم انصرف إلى التجارة عام ١٩٢٥ وما زال يمارسها إلى أن رأينا اسمه في مجلة « المراحل » رئيساً لتحريرها وأخذنا نقرأ فيها مقالاته بعنوان « دراسات ونقد » .

نخلة عبد الله الخوري

شقيق الأخطل الصغير الشاعر المشهور . كان في بيروت موظفاً في دائرة الشرطة فلما وصل إلى البرازيل أقام في العاصمة وأصدر جريدة « الرعد » لتكون تابعة لجريدة شقيقه « البرق » . وفي عام ١٩٣٦ أصدر جريدة « بريد الشرق » وتوفي بعد أن جاوز السبعين .

رشيد شكور

عالِم وأديب من خريجي الجامعة الأميركية في بيروت . ألّف كتاب « الشرق والغرب » واشترك في كتلة الدفاع الوطني التي تأسست في سان باولو عام ١٩٣٠ .

مدحت غراب

أديب موهوب من شباب حمص اللامعين . له مكانته في عالم الأدب المهجري مع انه لم ينتج آثاراً كالتي انتجها أخوه الشاعر المرحوم حسني غراب . نقرأ مقالاته في الصحف والمقدمة الرائعة التي كتبها لديوان فرحات ، ونسمع خطبه في النادي الحمصي . فنأسف على موهبة لم يستغل صاحبها سوى وزنة زهيدة من وزناتها العديدة . توفي في مطلع الكهولة .

توفيق خوري صفدي

من زحله . خريج الجامعة الاميركية في بيروت . هاجر إلى البرازيل عام ١٩١٥ وزاول التجارة في الولايات الداخلية . ثم استقر في العاصمة وعمل على تأسيس النادي السوري اللبناني فيها . وقد اشتهرت مواقفه الخطابية وانتشرت ابحاثه الأدبية والتاريخية والسياسية في صحف المهاجر . توفي عام ١٩٥٣ فغاب فارس مجيد من فرسان الأدب المهجري .

راجي ابو جمرة

(١٩٠٧)

هاجر من « الكفير » (قضاء حاصبيا) إلى سان باولو عام ١٩٢٤ وأخذ ينشر في مجلة « الشرق » فصولاً قيمة وقصائد نحا فيهـا نحو المجددين .

الاب برزدوس القزي

شاعر من البواذخ رقةً ونهاوةً . لا نعرف عنه غير ما ينشره من الخرائد الفرائد في مجلة « المراحل » منذ خمس سنوات ويلوح لنا انه مقيم في سان باولو ، أو جاءها حديثاً بعد زيارتنا الاخيرة لها عام ١٩٥٣ ، فلم نسعد بمعرفته شخصياً ، فكفانا شعره تعريفاً به . شعر الكلمة الحلوة المترهّفة والروح الطيبة المتعطفة ، يتعرى فيه الوجدان ويُطلّ مترنحاً من أطراف اللسان ، فتفتح له وجدانك وجنانك وتوليه ثقتك وحنانك . متى تغزل بجمالات الروح وإشراقات الخير في دنيا البشر . فلا عجب ان أحبته وقدّرته جوالي المغتربين ولو احبه وقدّره الشاعر فرحات لصارت مكانته في أعلى العلّيين . وإن صح ما سمعناه فان عبقريته في اللغة البرتغالية هي مثلها في اللغة العربية ، وان له آثاراً مطبوعة بالبرتغالية منها ديوان « قمراء الصومعة » . ولا أحبّ لدينا من ان نلمّ بسيرتـه تفصيلاً ، ونقرأ آثاره مجموعة ، قال بعنوان « حسنة » :

وتبسّطتْ ليَ كفّهُ ترجو من الاحسان شيّ
فوقفت مخجولاً أقول ومقلتاه بمقلتيّ

أأخي ، وحقك ليس لي مال . فلا تعتب عليّ
فأجابني شكراً . لقد أعطيتَ ما لم يُعطِ حيّ
يكفي بأني قد دُعيت أنا الفقير بيا أُخَيّ !

ومن قصيدة قالها في المهرجان الذي كرّم فيه أدباء البرازيل الأخطل الصغير في بيروت :

قالوا أتمدح شاعراً كالأخطل ما انفكّ يلهو في المشيب الأكمل ؟
أتراك تجهل أن في أشعاره ما لا يُحلَّل في الكتاب المنزل ؟
فأجبتُهم ، يا قوم لا تتنقّصوا خفقات قلب الشاعر المتغزّل
ان الذي لبنان كان ولم يزل في أصغريه قصيدةً لم تكمل
أنّى تلفّت أنطقته روعةٌ من رائعات الوحي تهبط من علٍ
أفلا يكون عليّ في إطرائه فرضٌ إذا أهملته ، الويل لي !

انطون انيس شكور

(١٨٩٥)

أديب من حمص على قسط زهيد من العلم وقسط كبير من المواهب . فهو من الافراد القلائل الذين اعترف المحيط بفضلهم فقيل عنه : النابغة المجهول ، على قلة ما أنتجه من الآثار . كان في الرابعة عشرة من العمر لمّا غادر حمص متجهاً إلى الارجنتين ، وبعد أربعة أعوام قضاها في بونس ايرس حضر إلى ريو دي جانيرو عام ١٩١٣ مزوّداً ببعض المال وعكف على تحصيل العلم وتثقيف نفسه بالمطالعة . وفي عام ١٩١٩ أنشأ جريدة « الميماس » التي قضت على ما بقي في يده من المال . فهجر الصحافة . ثم ألّف مسرحية « من اللحد إلى المهد » التي كرّست مكانته في طليعة الكتّاب الروائيين ثم انصرف إلى تحصيل الرزق من حرفة غير حرفة الأدب .

ادباء آخرون

نعرف أدباء عزلوا أنفسهم عن ميدان الأدب فلا يطرقونه إلاّ غراراً تحت ضغط أحداث معينة أو استجابة لدعوة ملحة من ناد أو جمعية فيبدعون في القليل الذي ينتجونه . مثال ذلك الدكتور شكري زيدان والدكتور جان أشقر وميشال عضيمي ، وأمين الغريب (الذي انتقل بمجلته « الحارس » من نيويورك إلى سان باولو منذ عام ١٩٥١) وشاكر الدبس وداود الضاهر والشاعران فارس بطرس وجورج داود .

ولا نعرف شخصياً أدباء نقرأ نتاجهم الأدبي في الصحف والمجلات ونبقى جاهلين سيرَهم عاجزين عن تزويد القراء بمعلومات عنهم . فنكتفي بتسجيل أسمائهم : نقولا معلوف . حنا زخريا . نبيه سلامه . مالك الدوماني . ميشال شاوول الحايك . رشوان خطار . توفيق الريس . ميشال جبور الخوري . عبد الله عبد الشكور الكامل ، وشاكر الدبس .

ادباء الرعيل الاول

١٨٧٦ - ١٩٥٩

رزق الله حداد

شيخ الجالية العربية في عاصمة البرازيل يمثّل وجهها ويرفع رأسها منذ ستين عاماً ، نضم اسمه إلى قائمة الأدباء مع اننا لم نقرأ أدبه في كتاب أو ديوان . ولكننا قرأناه في المحافل التي تصدّرها ، وفي الجمعيات التي ترأسها ، وفي الدعوات التي أطلقها لنصرة الأوطان والدفاع عن القضايا العربية . جاء من لبنان (بيت مري) إلى ريو دي جانيرو عام ١٨٩٣ وأنشأ مع أشقائه الثلاثة محلاً تجارياً رسخ وازدهر . واتخذ من تعيينه قنصلاً عاماً للدولة العثمانية (١٩١٣ إلى ١٩٢٤) وسيلة لحماية مصالح رعاياها السوريين واللبنانيين ، وراح يكتب المقالات ويلقي الخطب ويجنّد أقلام أدباء البرازيل لدعم حقوق العرب في فلسطين ورد هجمات الصهيونية العالمية . ثم ترأس لجنة الشؤون العربية منذ عام ١٩٤٦ ، وما زال ينافح — وهو اللبناني الصميم — عن حوزة العروبة ، حباً بلبنان

منزهاً عن الاقليمية الضيّقة ، واضعاً (مع المعلم نعمة يافث) الحجر الأول في البناء الروحي للجوالي العربية المغتربة . هذه الجوالي كرّمت ذكراه بمأتم بعد وفاته كما كانت كرمته بحفلات في حياته .

الشيخ رشيد عطية

١٨٨١ – ١٩٥٦

شيخ الصحافة ومعلّم اللغة العربية في البرازيل . وُلد في « سوق الغرب » وتعلّم فيها وعمل مدرّساً ومحرراً في بيروت ومحرراً في جريدة « المقطم » المصرية . وفي عام ١٩١٣ نزح إلى عاصمة البرازيل وأنشأ فيها مجلة « الروايات العصرية » وجريدة « الأخبار الاجتماعية والأدبية » . ثم انتقل إلى سان باولو حيث أنشأ جريدة « فتى لبنان » (١٩١٤ إلى ١٩٤٠) التي احتجبت أثناء الحرب العالمية الثانية وعادت إلى الظهور عام ١٩٤٦ باسم « برازيل لبنان » مجددة شبابها باسناد رئاسة تحريرها إلى الأستاذ فارس الدبغي الذي يدبج افتتاحياتها إلى اليوم . وكان قبله الأستاذ نظير زيتون رفيقاً لصاحبها في التحرير منذ عشرين عاماً إلى أن غادر البرازيل .

لم ينقطع الشيخ رشيد عن التأليف بالرغم من مهامه الصحافية بل ترك آثاراً مطبوعة تخلّد ذكره : رواية تمثيلية شعرية « جزاء المكر » — أقرب الوسائل في انشاء الرسائل — مقدمة ابن خلدون — ديوان البحتري — ديوان عنترة . وسلسلة كتب في علوم اللغة هي : الاعراب عن قواعد الاعراب في ستة أجزاء ، كانت تدرّس في سوريا ولبنان . وأهم مؤلفاته هو « معجم عطيه في العامي والدخيل » صرف في تأليفه اثني عشر عاماً وصدّره برسمه مكتوباً تحته :

وما العمر إلاّ رحلة محدودة والمرء فيها قدره بفعاله
سقياً لمن يحيا ويُبقي بعده ذكراً له من علمه أو ماله

كان المرحوم أديباً راسخاً في العلم ، غيوراً على حرمة اللغة الفصحى أميناً على شرف الصحافة . لم تؤثر في أدبه الهجرة الطويلة ولا تطورات الزمن فظل أسلوبه القديم حيث هو من المحافظة والتقليد . وله في نظم الشعر لمعات ونفَس طويل فياض ، لمسناه في المطارحات الشعرية التي تبادلها مع صديقه النابغة فارس الخوري .

الدكتور خليل سعادة

۱۸٥۷ — ۱۹۳٤

إمام من أئمة الفكر والبيان ورائد من روّاد النهضة الأدبية والحركة القومية في المهاجر . حلّ بين جوالي المغتربين في البرازيل فكان طبيبها وخطيبها وفيلسوفها ومنارها . وُلد في « ضهور الشوير » وتخرّج طبيباً من الجامعة الأميركية في بيروت وتعاطى الطب والصحافة في لبنان ومصر. ولا نعلم بالتدقيق تاريخ هجرته ولكن آثاره تدلنا على إقامته في الأرجنتين حيث أصدر مجلة « المجلة » عام ۱۹۱٥ وعلى إقامته في سان باولو حيث أصدر جريدة « الجريدة » عام ۱۹۲۰ ، ثم حجبها وتولى رئاسة تحرير جريدة الرابطة الوطنية السورية منذ عام ۱۹۲۹ إلى يوم وفاته في سان باولو عام ۱۹۳٤ . ونعرف عنه انه والد الزعيم القومي السوري المرحوم انطون سعاده . وانه كان رفيع الخلق ، إنسانيّ العاطفة ، عربي النزعة ، سخي الروح واليد . وكانت حياته سلسلة جهاد لمحاربة الصهيونية والاستعمار ، وبفضله اجتمعت كلمة المهاجرين الأحرار ودوّى صوتهم في مسامع الدول الغربية وانطلقت جريدة الرابطة تخاطب بلسانهم الدول العربية ، وتقذف بالنار صنائع الاستعمار ، مما أثار عليه حقد السفارة الفرنسية وامتعاض بعض اللبنانيين المتعلقين بأذيالها .

من آثاره الباقية كتاب « فلسفة تأخر الشرق العربي » ومعجم انكليزي عربي وبضع روايات . وأسلوبه في الانشاء مشبع بالعلم والفن . يروي الأديب داود شكور ان طلاب الجامعة الاميركية في بيروت — وكان

منهم – كانوا يترقبون وصول «المجلة» بمزيد اللهفة ليقرأوا مقالات الدكتور خليل . وشهد الأستاذ اكرم زعيتر في كتابه «مهمة في قارة» انه عندما زار البرازيل عام ١٩٤٨ لمس في الجالية العربية إجماعاً على ان الدكتور خليل سعاده كان من أخلص وأعفّ مَن عرفتهم المهاجر مِن الأدباء ، ويعتبرونه العالِم الصوفي الأول في البرازيل . وهاكم نموذجاً صغيراً من نثره ، نأخذه من مقال رثى به الشيخ ابراهيم اليازجي :

« إنك صامت كالدهر . رهيبٌ كالقدر . غامض كالأبدية . وعلى وجهك مسدول لثامٌ سُطّر عليه ما سُطّر على لثام الالهة ايزيس (ليس لبشر ان يحسر لثام الأيام عن محياي) . انك مصيب في صمتك لأن الذين لم يقرأوا وجهك في الحياة لا يحقّ لهم أن يقرأوه في الموت . لن تعود إلى الشرق الذي يفترس نوابغه كما تفترس الغيلان أولادها . لن تعود إلى الشرق الذي يدفن رجاله في زوايا الاهمال كما يدفن الجاهل لآلئه في خفايا المكان » .

وقد أرّخ الشاعر القروي وفاته بهذه الأبيات الجميلة :

على جَدث البطولة قف حزيناً	وحيّ شهيدها والعين ثَرّهْ
فكم لبراعه زأرات ليثٍ	صداها رنّ في أذن المجرّهْ
نطاسيّ أديبٌ عاش حراً	ومات لكي تعيش الشام حرّهْ
يمين الحقّ في سفر المعالي	بدمع مؤرخيه (تخطّ ذكرهْ)

١٩٣٤

المعلم نعمة يافث

١٨٦٠ – ١٩٢٣

عميد الجالية اللبنانية في سان باولو . وليد « الشوير » . عالِم في اللغة والرياضيات ، خريج الجامعة الاميركية في بيروت . مؤلّف كتاب « المطول في الحساب » ، عضو المجمع العلمي الشرقي في بيروت . وصل إلى البرازيل عام ١٨٩٣ (في العام الذي وصل فيه رزق الله حداد) . وترأس الغرفة التجارية السورية والجمعية الوطنية السورية اللبنانية ولجنة الصليب الأحمر البرازيلي والحزب الجمهوري السانباولي وجمعية متخرجي الجامعة الاميركية في بيروت . ومات بعد أن ضرب الرقم القياسي في الثراء ، وفي السخاء على المشاريع الإنسانية والوطنية ، بماله بُنيت وعَمَرت « مكتبة يافث » في بيروت ، تخليداً لذكراه .

جاء في كتاب توفيق ضعون « ذكرى الهجرة » : « ان اسعد حظ يتاح للأدب في المهجر ان يكون في محيطه وعلى رأسه رجل مثل المعلم نعمه ، كبير في علمه وثرائه واريحيته . قال أحد تلاميذه : كان الواحد منا يشعر وهو شاخص إلى المعلم انه يتلقى وحياً من سماء العلم ويسمع صوت الحقيقة . لم يكن العلم عنده مهنة بل رسالة وكهنوتاً » .

وما أصدق قوله في خطاب ألقاه منذ خمسين عاماً على أبناء الجالية : « ان أكبر حاجاتنا في المهجر هي اللغة العربية لأننا أمة تجار يقتضي لنا في مهاجرنا رابطة تربط بعضنا ببعض ولا أرى أقوى من رابطة لغتنا العربية ، ولا طريقة تحفظ لغتنا من الضياع إلا المدرسة والبيت والصحافة » .

الدكتور حبيب اسطفان

١٨٨٨ — ١٩٤٥

من الشخصيات التاريخية في دنيا العرب ومن الروّاد الفدائيين في المهاجر الاميركية لم يُعن الدارسون بأمره ولم يذكره المؤرخون بكلمة خير ، إلا ما تتناقله العامة من خرافات تبالغ في تأليهه أو تبالغ في تحقيره . لذلك أسهبت في وضع هذا التاريخ له ولم أجدد سوى بعض النواحي من سيرته . وعلى غيري الباقي .

كل عربي تطأ قدمه ارض المهاجر الاميركية مدينٌ بشيءٍ ما لهذا النسر اللبناني الذي حلّق في فضاء العالم الجديد ورفع علَم النبوغ العربي عالياً خفّاقاً فوق هام الشعوب فاستثار الإعجاب والإكبار له ولوطنه ، واستردّ لاخوانه المهاجرين ما فقدوه من الاعتبار والكرامة في أوائل هجرتهم حين كانت الفاقة الفضّاحة والمهنة الزرية تضربان حولهم نطاقاً من المذلة والحجر الاجتماعي .

هذا الرحّالة العلاّمة [1] ، طوّف في القارّة الاميركية من شمالها إلى جنوبها طول ربع قرن ، واعتلى منابرها عشرين عاماً متوالية ، وخطب بلغات الشعوب المختلفة بعد أن درس تاريخها وأحوالها وحاجاتها وتشبّع

---

[1] تراجع الاشارة اليه في الفصل الخامس « التأثر والتأثير » .

من آدابها فكان المهاجر العربي الوحيد الذي تبنّى جميع الثقافات والجنسيات الاميركية ، واضطلع بمشكلات المهاجرين العرب في كل بلد من تلك البلاد ، وطالب بحقوقهم وأشاد بصفاتهم وحاول صادقاً جمع كلمتهم وتعزيز شأنهم ، غير طامع برفدهم ولا فارض معاشه عليهم . كان يعيش في بحبوحة من ريع المحاضرات التي تطلب منه ، ولم ينقطع هذا المورد عنه إلاّ في أواخر حياته . وها قد مضى على وفاته عشرون عاماً وذكره لم يزل حيّاً في كل مهجر ، يتردّد على ألسنة الاميركيين وفي معاهد العلم ومحافل الأدب .

* * *

وُلد اسطفان في قرية « بتاتر » (قضاء الشوف) ، وأبصر النور في بيتٍ مستور بالقناعة وتلقى دروسه الابتدائية من « خوري الضيعة » ودروسه الثانوية من الكلية المارونية في بيروت . وكان متفوقاً في صفوفه لامعاً في ذكائه ، تعتلج في قلبه مرارة الفقر والحرمان كلما قارن حاله بحال رفاقه ، وكلما تقدّم في مراحل العمر من لهو الحداثة إلى وعي المراهقة . فلما عرضوا عليه السفر إلى روما لتلقي العلوم العالية في (مدرسة البروباغندا) الاكليريكية لم يتردّد بالقبول لأنه وجد في مشروع السفر للخارج ما يرضي طموحه ويشبع نهمه . وفي روما عكف على دراسة الفلسفة واللاهوت إلى عام ١٩١٠ حين شاءت الأقدار أن تجعل منه اكليريكياً وهو لمّا يزل طريّ العود سهل القياد . فسيمَ كاهناً باسم الخوري « يوسف اسطفان » ، وعاد إلى لبنان بالزي الكهنوتي ليكون واعظاً في كاتدرائية مار جرجس المارونية في بيروت . وفي هذه المهمة برزت موهبته الخطابية واستلفتت فصاحته وبلاغته أنظار شعب لبنان بأجمعه لا أنظار طائفته فحسب . فصار يُدعى إلى المنابر خارج الكنيسة وتحتشد الجماهير لسماع كلمته .

وكانت الحرب العالمية الأولى التي أسفرت عن جلاء الترك عن ديارنا.

وجاءت الأحداث السياسية والحركات التحررية تهيب بالخوري يوسف ان يضع مواهبه في خدمة وطنه وان يدخل الميدان الذي خُلق لـه ، صوتاً صارخاً في سبيل الاستقلال التام ومجاهداً مع المجاهدين في الانتفاضات الثورية . فاندفع إلى المعترك وشاهدتْ بيروت هذا الخوري على منصة الخطابة في (ساحة البرج) يعانق خطيباً من شيوخ المسلمين ، وسمعته دمشق في (ساحة المرجة) يحرّض الشعب على استئصال كل أثر للاستعمار وعلى مبايعة الأمير فيصل الهاشمي ملكاً على سوريا ولبنان . فلما استوى فيصل على العرش اعجب بهذا النصير الثمين فقرّبه اليه وجعله مستشاراً له وبوقاً رناناً للدعوة القومية ، ثم خلع عليه رتبة عسكرية فخرية ، أغراه بارتداء زيّها — رمزُها العربي الشامل — بدلاً من الزي الاكليريكي ورمزه الطائفي الضيق . ولكن الثوب العلماني بعد الثوب الكهنوتي هو عنوان التمرّد والعصيان مع الاستخفاف بالنذور المقدسة . فلا عجب إن ثارت على (الخوري الذي شلَح) نقمة الاكليروس ودهشة النـاس . ولكنه مضى في سبيله قانعاً براحة ضميره ورضى مليكه . ودأب على خدمة الأمة العربية خدمة عملية تُمليها حاجات الساعة السياسية ولا تتعارض مع الرسالة الروحية من حيث الجوهر والأهداف . فمكث سنةً في دمشق الشام ، يلقي الأحاديث على روّاد السراي أو يحاضر في النادي العربي أو يخطب في الساحات العمومية حتى بلغ ذروة النفوذ الشعبي وانتشى بالمجد الأدبي .

كانت تلك السنة من شبابه ، من ١٩١٩ إلى منتصف ١٩٢٠ ، العرس الأول في حياته الشقية . وسرعان ما تنقضي الأعراس ! لقـد انهار العرش الفيصلي بعد وقعة ميسلون وتشتّت رجال الحاشية في كل واد . وكان نصيب اسطفان الهرب إلى حوران ، ومن حوران إلى مصر . وفي مصر كان مثال الشريد التعيس الذي خسر دينه ودنياه فلم يبق له صفة اكليريكية أو رتبة عسكرية ، أو ذخيرة مالية . فماذا عليه

لو اقتدى بأمثاله المساكين الذين تضيق بهم الأوطان فيلتمسون باب الفرج في الديار الاميركية ؟ أليس له في هافانا ــ عاصمة كوبا ــ أنسباء أعزاء أصحاب ثراء ووفاء ؟ ها هو يركب البحر متجهاً اليهم آخر عام ١٩٢٠ ويقضي ما يقرب السنتين في ضيافتهم .

تلك كانت فترة ثمينة في حياة هذا المهاجر الطموح ، فترة الاستجمام والتأمل والتحفز ومحاسبة النفس والاستزادة من المعارف . ففي نهايتها تحدّد طريق السندباد وتقرر مستقبل النسر القابع في كوبا مهيض الجناح لا يفترس إلاّ الكتب والأوراق . فلما استأنف الطيران أدركنا بالقرينة ان هناك اتجاهاً جديداً وهدفاً بعيداً لا ندري كيف تمخض بهما ؟ وكيف بلغ من اللغة الاسبانية هذا المبلغ من الاتقان في عام واحد ؟ وكيف نال درجة الدكتوراه في الفلسفة من جامعة مدريد وليس لدينا نبأٌ عن سفره اليها ؟ قال مرةً لسائليه عن مصدر ثقافته انه لولا المعلمون الاكليريكيون لما كان في دماغه رأس مال علمي على الاطلاق . ولكن ذلك الرأس مال لم يكن كافياً . فكان عليه أن يُحصّل بعد الثلاثين من عمره العلومَ التي كان يجب ان يحصّلها قبل العشرين . فقوله « بعد الثلاثين من العمر » يدلّ عن أن التحصيل الذي أشار اليه قد جرى أثناء عزلته في دار أنسبائه في هافانا .

كانت أولى جولاته الخطابية في كوبا نفسها . ففي عام ١٩٢٢ ألقى محاضرة في جامعة هافانا ومحاضرة في المسرح الوطني الكبير فسمع الأساتذة والطلاب في الأولى كما سمع جمهور الشعب في الثانية ما أدهشهم من سحر البيان وفصاحة اللسان . فكلفته الحكومة بأن يُعيد المحاضرتين في مختلف البلدان وان يلقيهما من محطة الاذاعة حتى تعمّ الفائدة الشعبَ برمته .

وخطا الخطوة الثانية نحو نيويورك . وأخذ ينشر في جريدة « الهدى » مقالات متسلسلة بعنوان « وجدان لا سياسة » . وخطب بالعربية في اجتماع

كبير فلم يجد لكلامه الصدى الرنّان الذي تعوّد أن يجده فعرف ان هذا المجال ليس له بل هو ميدان لفرسان « الرابطة القلمية » الذين كانوا في عنفوان نشاطهم في ذلك الحين . فغادر نيويورك بعد إقامة قصيرة واتجه إلى عاصمة المكسيك .

في المكسيك بدأت سلسلة رحلاته وانتصاراته ، وتماسكت الحلقات رحلة بعد رحلة ونصراً بعد نصر من عام ١٩٢٣ إلى عام ١٩٣٣ . لقد انهالت عليه الدعوات من مختلف الجمهوريات الاميركية لإلقاء محاضرات في أنديتها وجامعاتها ومسارحها . فلبّى الدعوات مبتدئاً بالارجنتين تلك الجمهورية التي آثرها بحبّه واعتنق جنسيتها تسهيلاً لمعاملات السفر في أقطار لا يوجد فيها قنصل عربي واحد للتأشير على جواز . فكانت بونس ايرس محطته المختارة بعد هافانا ، يعود اليها ويطيل الاقامة فيها بعد كل رحلة إلى شيلي أو الاورغواي أو البيرو أو الباراغواي أو بوليفيا . وتأكيداً لرغبته في الاستقرار في بونس ايرس أصدر عام ١٩٢٦ مجلة بعنوان « التمدن » بالاشتراك مع الاديب جبران مسوح . ولكنه بعد عام واحد استأنف الاسفار وحجب المجلة . كانت الدعوة هذه المرة من حكومة البرازيل التي شاءت أن يحلّ ضيفاً عليها ويلقي محاضرة على الطلاب وأخرى على السجناء . فتوجه إلى الريو دي جانيرو وطلب من المسؤولين مهلة شهر واحد لاتقان اللغة البرتغالية فكان له ما أراد . وألقى المحاضرة الأولى في السجن الكبير فكانت بدعة رائعة ضجّت لها الأوساط الأدبية وطبعتها الحكومة في نشرة خاصة وزعتها على الصحف والمدارس والمكتبات ودوائر الحكومة والسجون . ثم توجه إلى سان باولو واتصل بالمحيط العربي الراقي هناك فانعقدت مجالس الشعراء والأدباء حوله قبل أن تضمهم « العصبة الأندلسية » وخطب في المجامع بالبرتغالية والاسبانية فأثار العقول وبهر الأبصار حتى أن نابغة الكتّاب البرازيليين المعاصرين « هومبرتو دي كامبوس » رأى فيه « عمود النور الذي هدى

بني اسرائيل في برية التيه » . وكان أمير شعراء اسبانيا « نيا سبليا » زائراً في سان باولو فلما استمع إلى المحاضر أعجب بأساليبه البيانية في اللغة الاسبانية وقال انه عاجزٌ عن صوغ ما يضاهيها أو يُدانيها . ويرجع ذلك في رأينا إلى الروح الشرقية التي تُضفي على بيان اسطفان نكهةً خاصة يستطيبها الغربيّون ، ولا سيما الاسبان . وفي رأينا أيضاً ان صوت المحاضر وفنّه هما من عوامل نجاحه . فصوته دافئ جهوري يتلاعب بنبراته كالضارب على أوتار قيثارة . وفنه بارع في التمثيل والحركات الخطابية . فنّ ينتزع التصفيق من الأكفّ حين يشاء ويفرض السكون التام وحبس الانفاس حين يشاء .

بعد البرازيل زار في كولومبيا العاصمة والمدن الكبرى ، وطاف الجمهوريات الصغيرة في اميركا الوسطى عام ١٩٢٨ ، ثم اتجه إلى فنزويلا مُلبّياً دعوة جامعة كاراكاس لإلقاء محاضرتين فيها . ولكنه مُنع من الكلام بأمر الحاكم الغاشم وأخرج عنوةً من البلاد . فقفل راجعاً إلى هافانا وحلّ بين أهله عالي الرأس عامر الجيب ، مثقلاً بالأوسمة والهدايا الملوكية . وعاش شهوراً عيشة الترف ، مطمئناً إلى وفرة المال لأن الدعوات إلى القاء المحاضرات كانت تتوارد اليه وتبشره بمغانم الجولة التالية .

بدأت الجولة الثانية عام ١٩٣٠ وانتهت عام ١٩٣٤ بعد أن أمضى سنتين في البرازيل ما بين العاصمة وسان باولو وبعض المدن الداخلية . كان التوفيق رفيقه الدائم في هذه السنوات فلم يتزحزح عن قمة المجد إلاّ ابتداءً من الجولة الثالثة التي شرع بها بعد عام واحد دون أن يكون مدعواً من أحد ، بل كان يطرق البلدان على غير موعد ويفرض ضيافته على الجوالي العربية ويساوم على محاضراته المؤسسات الأجنبية ، فمال نجمه إلى الخسوف وضؤلتْ شوكته في العيون . فإن بحثنا عن سبب هذا الانقلاب وجدناه في تعاقب الزيارات للمكان الواحد وفي تكرار

المحاضرات بالنص ذاته . فالمحاضر لم يتطوّر مع تطوّرات المفـاهيم العصرية ولم يُعن باكتشافات العلم الحديثة ، مكتفياً بما حصّله طالباً في روما تسع سنوات ولاجئاً في هافانا سنتين . وكانت نتيجة النجاح الباهر الذي أصابه زيادة الاعتداد بالنفس وقلة الاحترام للغير ، فلم يبذل جهداً جديداً في التأليف بعد أن كتب محاضراته عام ١٩٢١ وما زال يلقيها في عام ١٩٣٦ . كان يفاخر بالمحاضرات التي تكرر القاؤها فيقول ان محاضرة « شعرية الالم La Poesia dol Dolor »القاها اربعين مرة ، ومحاضرة « أبو الهول والنيل » عشرين مرة . ومحاضرة « الفلسفة في الاتجاه الجديد » ثلاثين مرة وهلم جرّا . لم يحسب حساباً — وهو الذكي النابه — لملالة السامعين ولملامة النقّاد ، ولنفاد السحر من الكلمة المعادة مهما تفنّن في القائها . فلما وضحَ الخطر أمامه وشعر بسوء العاقبة كان مشلول الارادة عاجزاً عن ردة الفعل ، لأن داء المقامرة كان متمكناً منه مُزمناً فيه ، يقوده كل ليلة إلى الموائد الخضراء ، بعيداً عن الكتب والمكاتب،فيبدّد كل ما يجمع ويسعى بعد كل خسارة إلى جمع مال جديد للمقـامرة والتبديد . وكان من اثر السهر والكدر أن توتّرت أعصابه وتبدّلت أطواره في معاشرة الناس ، فران الفتور على صِلاته بالجوالي العربية وعقب الفتورَ النفور .

* * *

كان متعباً في مادياته ومعنوياته لما وصل إلى هافانا بعد الجولة الثالثة ، وكان يعرف في الحاضرة الشاعرة « ماري مورانديرا » وصالونها الأدبي الذي ينعقد كل اسبوع ويحضره شباب المجتمع الراقي ، فأخذ بالتردّد عليه . ولم تطل العشرة بينه وبين ربة البيت حتى خفق قلب العازب وقلب العازبة بالحبّ العاصف وأسفر التجاوب الروحي بين الشاعر والشاعرة عن عقد زواج أغر محجّل :

أفدي الغزالة صـادتْ برمية اللحظ ضيغمْ[1]
مَن هاج فتنة (كوبـا) هيهات بالقلب يسـلمْ
هـذا الزواج قصيدٌ بالشـاعرَين تنظّـمْ
الصدر وحيٌ تسـامى والعجز سحرٌ تبسّمْ

منذ ذلك اليوم ، يوم زواج الدكتور اسطفان بالشاعرة الكوبانية ، دخلتْ حياته في طور جديد ، مشحون بالعثرات والهموم . كان همّ الارتزاق سحابة قلق في جوّ شهر العسل وكان القيام بجولة رابعة موضوع البحث عند العروسين ، فاعتزما الاقدام عليها بمساق جديد لحفلات مشتركة بين الأدب والشعر والفنّ . فراح الدكتور يُمرّن الشاعرة على القاء قصائدها حتى تفتتح بها كل حفلة . وقيل انه هو ناظم القصائد التي كانت تلقيها ولم يقم على ذلك دليل . ومن المعقول أن يكون راجعها وهذّبها . ووضع للسفر خطة تبدأ بفنزويلا وكولومبيا وتمرّ بالبرازيل ثم تنتهي بالارجنتين وشيلي . ولكنه لمّا وصل إلى الريو دي جانيرو آخر عام ١٩٤٣ كانت صدمات الاخفاق في المحطات السابقة قد هدّت بنيته وشلّت عزيمته فلم يواصل السفر بل أقلع عن المغامرات واستسلم إلى سماحة بعض المواطنين الاسخياء ، فأنزلوه في أجمل ضاحية وأفخم نزل في البرازيل « بترو بولس » إلى أن توفاه الله في شهر آذار من عام ١٩٤٥ .

أصل هنا إلى مقام التفكير والتحليل في سلوك الدكتور اسطفان وسلوك مواطنيه المهاجرين معه تمهيداً للحكم عليه أو له متى تحدّدت مسؤولية كل فريق . فيحزّ في نفسي أن أقف موقف القاضي من متّهم هو الرجل الكبير الذي خصّني بمودته وآثرني بعطفه . وأريد أن ألقي تبعة الحكم على القارئ بعد ان أزوّده بمعلوماتي واختباراتي الشخصية . سأسرد

١ من قصيدة للمؤلف في تهنئة العروسين .

الوقائع التي عشتها مع الدكتور ففيها الدلالة على خفايا سريرته ومعالم سرته ، وفيها القرينة على السلوك الذي سلكه مع غيري في البلدان الأخرى ، وفيها أخيراً تفسيرٌ للنكبة التي اختُتمت حياته بها .

فنزويلا ١٩٢٨

على اثر وصولي إلى كاراكاس – عاصمة فنزويلا – عام ١٩٢٧ تأسست أول جمعية عربية في ذلك المهجر باسم « الجمعية اللبنانية السورية للأعمال الخيرية » ، وكنت ناموسها العامل وتلميذها المتمرّن على الكلام والكتابة باللغة الاسبانية . وذات يوم من عام ١٩٢٨ تسلّمتُ برقية موجهة إلى الجمعية بتوقيع « حبيب إستيفنو » تشعرنا بقدومه الينا وتدعونا إلى ملاقاته على رصيف ميناء « الغوايرا » مساء الغد . فأدهشنا الخبر وقضينا سهرتنا في التخمين وتبادل الآراء : ماذا يريد هذا الرجل العظيم الذي قرأنا بعض أخباره في الصحف الامبركية من مهجر مغمور ومن جالية صغيرة لم يطرقها إلى الآن مسؤول عربي على الاطلاق ، حتى ولا صحافي يبحث عن مشتركين ولا خوري يجمع التبرعات لكنيسته في القريـة اللبنانية . كانت فنزويلا في ذلك العهد تعيش على تربية البقر في ظلّ سيطرة أمّي يحكمها بالساطور Matchete وكنا نحـن العرب خمسماية مقيمين في العاصمة ، وألفاً وخمسماية متفرقين في مساحات شاسعة من البراري تزيد مائة مرة عن مساحة لبنان . ولم تعمر البلاد وتأهل بالسكان إلاّ بعد أن تدفّق النفط عليها وتدفّق معه المهاجرون العرب .

كنا عند حسن ظنّ القادم ، وزحفنا جماعةً إلى استقباله . فلما هبط من على سلّم الباخرة ولاحظ ارتباكنا طمأننا بقوله : « لم اكلفكم بالحضور إلاّ للتعارف ولاستطلاع أحوالكم . وسأمكث بينكم اسبوعين ضيفاً على جامعة كاراكاس التي دعتني لإلقاء محاضرتَين فيها وحجزت

لي جناحاً في الفندق الكبير . وسأحدّثكم ملياً في السهرة ، وانتظر حضوركم » .

في السهرة جلسنا اليه وسمعنا من حديثه الآسر ما أطلق دموع الفرح من آماقنا . ولمّا فتح أمامنا صندوقة الاوسمة والهدايا والتذكارات وكلها تتوهج بالذهب والالماس ، وعليها شعارات الدول وكلمات الاهداء منقوشة بالحجارة الكريمة ، حسبنا أنفسنا أمام كنز علي بابا ورثينا لفقرنا وصغارنا أمام غناه وعظمته .

في الغداة طلب مني ومن رئيس الجمعية أن نتصل بالسفارة الفرنسية ونُعيّن له موعداً لمقابلة السفير لأنه يحمل اليه رسالة من زميله السفير في بونس ايرس . ففعلنا ما أراد . وبعد ساعتين كنا معه على باب السفير الخطير ، وكان في حضرته مستشار السفارة اليهودي وجاسوسها البيروتي الدسّاس الذي باع نفسه ووطنه لها لقاءَ راتب ووسام منها . فلمّا خرجا ودقّت ساعة الموعد فُتح أمامنا الباب وتقدّمنا الدكتور اسطفان لمصافحة السفير . وإذا بهذا يصرخ : « يا قليل الأدب . تدخل عليّ والسيجارة في يدك ؟ » فبُهتنا نحن الثلاثة وهممتُ بالانسحاب من الغرفة ولكن الدكتور اسطفان تمسّك بي والتفت إلى السفير قائلاً : « إني دخلتُ السفارة بشعور الداخل إلى بيته ، وأنا لا أطرح السيجارة من يدي حينما أدخل بيتي » . فهدأت ثائرة السفير وقال لنا : « كرمى فصاحة الدكتور تفضلوا بالقعود » . فقعدنا لنسمع الاهانات يرشقها السفير بصوت عالٍ يسمعه مَن في الخارج . — « من يُؤكّد لي انك لستَ عميلاً للانكليز تقوم بالدعاية ضد فرنسا في الجمهوريات الامبركية؟ ومن يؤكّد لي انك لست شيوعياً تحوك المؤامرات هنا وهناك ؟ » . فكان جواب الدكتور أن دفعَ اليه برسالة من سفير فرنسا في الارجنتين إلى سفيرها في فنزويلا ، فيها الشهادة باخلاص حاملها وفيها التوصية بإحسان وفادته . أما سفير كاراكاس فبعد أن قرأ الرسالة ردّها إلى اسطفان

قائلاً انه لا يقيم وزناً لتوصية أو لشهادة إلاّ إذا صدرت من وزارة الخارجية في باريس ، وان في تلك الوزارة وثائق تناقض رسالة سفير الارجنتين . قال هذا وانتصب على قدميه إشعاراً بانتهاء المقابلة . فخرجنا مُعفّرين ان لم أقل مطرودين . فلما صرنا في الشارع وقفنا نمسح العرق البارد عن جباهنا ونتندّم على تعريض كرامتنا لهذا السفير الوحش . فسألتُ الدكتور ما شأنه مع فرنسا ؟ ولماذا لم يوقف السفير عند حده ؟ فأجاب ان الحكم في فنزويلا بوليسي فردي لا يُركن اليه ، وهو يخشى إن أغضب السفير أن يشي به لدى الحاكم — راعي البقر — ويمنعه من إلقاء المحاضرات . ورجانا ، بل استحلفنا ، أن نكتم ما حدث عن أبناء الجالية . فوعدناه بالكتمان ووفينا بالوعد . فإن أذعت الخبر الآن بهذا البيان فلأن الموت ومرور الزمن حلّلا اذاعته .

وفي مساء ذلك اليوم كانت حفلة التكريم لضيف الجالية الكبير في مقرّ الجمعية ، حضرها عدد قليل من أبناء الجالية وسمعنا فيها من حديث الدكتور ما أضحكنا وأبكانا وأطربنا وأشجانا . وقد أسمعناه تحيات الترحيب بالعربية والاسبانية . وجدير بالذكر ان تحيّتي كانت قصيدة هذا مطلعها :

تعرّفناكَ من عَرف الخزامى سلاماً يا ابن لبنانٍ سلاما

فلما وقف لردّ التحية افتتح كلامه بقوله :

تعرّفناك من عرف الخزامى سلاماً يا ابن سوريّا سلاما

فهلّلنا له معجبين بقوة ذاكرته ، وطلبنا منه أن يمنّ على الجالية بمحاضرة باللغة العربية فوعدنا خيراً . وانفضّ الاجتماع . فنمنا ليلتئذٍ

وما نامت عيون الاشرار . لقد فوجئنا في الصباح بأنفار من الشرطة على باب غرفة الدكتور اسطفان يحظرون عليه الخروج منها ، ولكنهم سمحوا لنا بالدخول عليه فعرفنا منه انه قد وقع ما كان يخشاه وفعلتْ وشاية السفير الفرنسي فعلها لدى رئيس الجمهورية فصدر الأمر بمنعه من الكلام وبإبعاده من البلاد في الباخرة التي تُقلع من ميناء «لاغوايرا» في مساء اليوم نفسه . وقد تبلغتْ صاحبة الدعوة جامعة كاراكاس هذا الأمر ورضختْ له دون اعتراض . أما سفارة الارجنتين المناط بها حماية الدكتور اسطفان الحامل جنسيتها فقد أجابت على استغاثاتنا بقولها لنا : « لا تحرّكوا ساكناً بل ارضوا بالأمر الواقع ، واحمدوا الله ان الجنسية الارجنتينية صانت حياة الدكتور وأتاحت له مغادرة البلاد دون أن يُصاب بأذى ، ولو كانت جنسيته سورية أو لبنانية لطرحوه في السجن وغابت أخباره عنكم إلى الأبد » .

في ذلك المساء المشؤوم احتشد على رصيف الميناء عدد من المودّعين أكثر مما كان عدد المرحّبين ، لأن خبر السوء طار إلى أقصى أحياء العاصمة وجرح قلوب المهاجرين العرب في الصميم فهرعوا وأحاطوا بالمسافر المغصوب ، وصدورهم تغلي من الغضب المكظوم ، فكان الدكتور يؤاسيهم على وقوعهم في هذا المهجر التعيس حيث لا تعيش الكرامات ولا الحريات ويوصيهم بالصبر الجميل حتّى يفرجها الله عليهم بثورة تطيح بالحكم الضاري فيعود (حبيبهم) اليهم ويخطب فيهم ، قريباً ان شاء الله .

وإن أنس لا أنس كيف كان وهو يصافحهم فرداً فرداً ويسألهم عن جنسيتهم ويرتاح لجواب كل منهم متى قال «فنزويلية» لأن في هذه الجنسية حماية لهم لا يجدون مثلها في سفارة فرنسا بل يجدون عكسها ، ولا مرجع لهم سواها ، لأن الدول العربية لا يمثّلها في فنزويلا إلا فرنسا ، فلما توجّه السؤال إليّ كنتُ الوحيد الذي قال له : اني محافظ

على الجنسية السورية العربية ما حييت ! فارتعد الدكتور وأجابني :
« سوف تأكل أصابعك ندماً يا دون كيشوت » ... فلم أصدّق نبوءته .
ولكنني اضطررت إلى تصديقها لمّا عاد « دون كيشوت » إلى سوريا
بعد خمسة وعشرين عاماً حاملاً جوازه السوري ولم يحصل من دائرة
النفوس في مسقط رأسه على « تذكرة هوية » ، بل اعتُبر « مكتوماً »
هارباً من وجه العدالة مدة اربعين سنة ، وفُرِض عليه (جزاء نقدي)
تأديباً له . فندم المسكين حين لا ينفع الندم . وتاب عن جنون التمنيات
والتضحيات بعد ان فاته قطار الحياة .

فنزويلا ١٩٤٢

رضي الله عن الفنزويلا بعد رحيل الدكتور اسطفان فانتشلها من
حضيض الفاقة إلى معارج النعمة بقوة النفط المتفجر من أراضيها وأنقذها
من نير العبودية بقبض روح « غومز » الحاكم السفاح . فانقلبت أوضاعها
من حال إلى حال بسرعة عجيبة . هربت أسرة « غومز » وحواشيها إلى
الخارج وصودرت أموالها وممتلكاتها . وبدرت مظاهر الحياة الدستورية
في فرض الانتخابات وعقد مجلس النواب ، وخضعت شركات النفط
لمطالب الحكومة فأغرقت البلاد بطوفان من الدولارات وقام العمران على
قدم وساق وتدفّق المال على الأسواق جاذباً بمغناطيسه آلاف المهاجرين
العرب حتى ارتفع عددهم من ألف وخمسماية إلى عشرين ألفاً في عشر
سنوات . وكان يندر فيهم من لم ينجح ويربح ، فان لم يصبح غنيّ
نفط فهو غنيّ حرب في تلك السنة التي عزم فيها الدكتور حبيب اسطفان
على زيارة فنزويلا للمرة الثانية ، سنة ١٩٤٢ ، إبّان الحرب العالمية
الثانية .

بعث الدكتور الينا برسالة من كوبا تبشر بعزمه على الحضور مع

زوجته لقضاء شهر كامل في كاراكاس ، وطلب منا تمهيد السبيل لمحاضراته وتنظيم برنامج مسبّق لأوقاته . فاهتممنا كل الاهتمام بما طلب مع الابتهاج بعودته الينا حتى نقوم بواجبنا نحوه بعد تلك المأساة التي قطعت زيارته الأولى لأربعة عشر عاماً مضتْ . وكنا على العموم في حالة يسر . وقد عظم شأن جمعيتنا وصار لنا ناد اجتماعي وجمعية نسائية ومجلة شهرية وصلات مع بقية المهاجر وصيتٌ في الاقطار العربية . فاجتمعنا وقرّرنا ان « نبيّض وجوهنا » مع الضيف ، وفتحنا باب التبرعات فاجتمع لدينا مبلغ محترم نهديه اليه ، ثم عيّنّا لجنة خاصة ترافقه وتنفّذ رغباته وتحرص على راحته مدّة إقامته .

وكان أول ما عملته هو حجز مسرح الاوبرا لمحاضرتَين يُلقيهما الدكتور فيه والاتفاق مع جامعة كاراكاس على محاضرتَين بعدهما ، وعلى محاضرة خامسة في « كلوب فنزويلا » . وأخلى أحد السراة قصره لسكن الضيف وقرينته شهراً ووضع سريّ آخر سيارته مع سائقها تحت امره ، ونظّمت اللجنة مهرجان الاستقبال على مستوى شعبي أشركت فيه طلاّب الجامعة وأساتذتها وسيدات المجتمع .

حلّ الضيفان بيننا على الرحب والسعة وأمتعانا في السهرات بقصائد غرامية من فم الشاعرة وبحكايات شرقية من فم المحاضر . وكنا اتفقنا على مآدب عائلية نجمعهما فيها بأبناء الجالية في جوّ حميم لتبادل الأحاديث والذكريات . فكنّا بعد كل وليمة نتحلّق حول الدكتور كما كان يتحلق أجدادنا حول « الحكواتي » في مقاهي دمشق ، ونستمع إلى أساطير عربية رائعة المغزى يرويها بمنطق خلاّب ، وتستغرق رواية كل اسطورة زهاء ساعة . فلما كانت الوليمة في منزلي انتقلنا من الحكايات إلى المطارحات الشعرية ووقعنا عند الدكتور على معين لا ينضب من المحفوظات بعد ان أثرتُه بقصيدتي وذكّرته بعذابات زيارتِه الأولى :

أطَلّ لم يتكلّمْ وبالتحية تمتمْ

كالطيف زار نياماً لمّا استفاقوا تكتّمْ
لم يروِ منهم غليلاً وعنده الماء زمزم
ولّى وخلّى رجاءً بأن يعود ، وأقسمْ
بالثأر ، بالنصر يأتي يوماً به الله أعلمْ
(حبيبنا) تلك ذكرى زيارةٍ لم تُتمّم
زمانَ كنّا قطيعاً نشقى براعٍ وننعم
وكانَ منّا وفينا أعداءُ كلِّ مُعظّم
لسانهم عربيٌّ وقلبهم قلب أعجم
تنكّروا لسحاب بجودهم فتجهم
يا ويح جانٍ غبيٍّ في داره النار أضرم

إلى أن قلت :

أهلاً بنجمٍ محاط بهالة النجم (مريمْ)
أهلاً به قرويّاً على العواصمِ خيّم
وراع كلّ عظيم من الفرنج بأعظم
يسير فتحاً لفتحٍ بقوة الروح والفم
والشرق نشوان تيهاً والغرب جذلان مغرم
هوَ اللواء تهادى على المهاجر مُعلم
في ظلّهِ تتلاقى أجزاء شعبٍ تقسم
شعبٌ حِماه بعدنٍ ورزقه في جهنم ...
كم حالمٍ بثراءً أثرى وما زال يحلم
لم يفهموه إلى أنْ أتى (حبيبٌ) وترجم

تلك كانت أحلى جلساتنا مع الضيفين العزيزين قبل أن ينهمكا في المحاضرات . فلما فرغا منها كان التفاهم والانسجام قد أفلتا من أيدينا بلا رجعة .

المحاضرات

كان الاصطدام الأول مع الدكتور يوم المحاضرة الأولى في مسرح الاوبرا ، فقد جعل لباس « السموكنج » إجبارياً . ووقف عند المدخل ليردّ عنه كل من جاء باللباس العادي ، فحرم عدداً من بني وطنه الذين شاركوا في الهدية المالية المقدمة اليه من ان يستمعوا إلى محاضرته فساءت العلاقات بينه وبينهم . وكان موضوع تلك المحاضرة « أمجاد العروبة » ، وهي دعاوة لأمة العرب بقسميها المقيم والمغترب ، تخلّلها نفحات من نبوغ الشرق العربي وشواهد على عبقرية علمائه وأدبائه . والمحاضرة الثانية « شعرية الألم » هي المحاضرة الوحيدة التي يجول فيها جولة شاعر حسّاس بعيد الخيال يرسم الصور الشعرية الخلاّبة ويتنغّم في الكلام بين لين وشدة وصعود وهبوط حتى تسمع تغريدة الشحرور وزأرة الأسد وهينمة النسيم .

أما ما ألقاه في ندوة الجامعة فمحاضرة عن تطور الآداب العالمية ، وأخرى عن اتجاهات الفلسفة المعاصرة ، وقد نالتا استحساناً محدوداً . لأن المحاضرة الأولى في زعمه لم تشبع جوع الطلاّب ، والثانية لم تُقنع الأساتذة ، ولأن البحث لم يتخطّ أطراف الموضوع إلى جوهره ولم يعط السامع ما وعده به العنوان . فلو سمّى المحاضر البحث الأول « خواطر في الأدب » والبحث الثاني « مشاهد من تطوّر الفكر » لتوافق محتوى كل محاضرة مع عنوانها . أما المحاضرة الاخيرة في « كلوب فنزويلا » فقد أثنوا على فصاحة الخطيب ولكنهم قالوا ان العظات التي سمعها روّاد هذا النادي المترَف لم يسمعوا مثلها إلاّ في الكنائس . وعندنا ان هـذه المحاضرات التي كُتبت عام ١٩٢١ لو ألقيت علينا في زيارته الأولى عام ١٩٢٨ لكان وقعها محمدةً ومحسدة . أما اليوم فهي لا تستثير الاعجاب في بيئة جامعية عالية الثقافة تتطلب من المحاضر القادم من الشرق البعيد

أكثر من الافكار العادية والتعاليم المدرسية . وقد يهتف الطلاّب للمحاضر ويصفقون له إعجاباً باسلوبه الخطابي كما يفعلون لمُمثّلٍ بارعٍ اعجبوا بتمثيله . ولكن هذا لا يكفي لدكتور في الفلسفة كحبيب اسطفان ، الذي تعوّد أن يُنادى بـ « يا معلّم » في كل مكان .

أبديت له هذه الملاحظة في ساعة منادمة في غرفته ولم أخش غضبه لأن الدالة التي لي عليه كانت كبيرة كثقته باخلاصي له . فأجابني وشرار الذكاء يتطاير من عينيه : « أتحسبني جاهلاً لا أدرك ان ما أدهش الناس منذ عشر سنوات لا يُدهشهم اليوم ؟ أنا أعرف نقطة الضعف في محاضراتي ولكن ماذا أعمل والحياة قصيرة ورغباتي كثيرة ؟ لقد تعبتُ كثيراً في الزرع وآن لي أن أحصد قبل أن أتعب في زرع جديد » . قال هذا ومضى إلى خزائن الامتعة يستخرج منها كيساً جلدياً ويضعه أمامي : « غيرك أعرض أمامه صندوقة النياشين أما أنت فأعرض عليك ثروتي الحقيقية وها هي » . فتحتُ الكيس فوجدت مجلداً ضخماً يحتوي على أكثر من الف ورقة من النوع الرقيق ، طَبَع عليها بالآلة الكاتبة نصوص محاضراته وهي بأربع لغات : الاسبانية والانكليزية والفرنسية والبرتغالية . وعلى الجلدة الداخلية خطّ باللغة العربية هذه العبارة : «العربي نخلة تتجوّل . والنخلة عربيّ يتأمل » .

قال لي : « أمامك نتاج عمري وخلاصة فلسفتي . هنا المتجر الذي ارتزق منه والهيكل الذي أصلّي فيه لأمتي . أنظر إلى الفهرس تجد عناوين سبعين محاضرة ، لم أستعمل منها سوى عشرين ، هي التي استظهرتُها ورددّتها منذ خمسة عشر عاماً إلى اليوم . وقد تكاسلت عن استظهار غيرها » .

بهتني اعتراف الدكتور بأنه يستظهر محاضراته حرفياً وهو الذي يتظاهر بالارتجال أثناء الكلام من المنبر فيصمت أحياناً بعض ثوان لإعمال

الفكرة ، أو ينظر من حين إلى حين إلى عقارب الساعة المختبئة تحت كمّه ، خوفاً من تجاوز الوقت المحدد للمحاضرة ، فقال لي : « كل هذا تمثيل مسرحي . إني أضع توقيت كل محاضرة (ستين دقيقة) وامتحنه قبل القائها ، وأتظاهر بالارتجال أمام السامعين لأنهم يتسامحون مع خطيب يرتجل ولكنهم يتشدّدون مع خطيب يقرأ ما يكتب . فأنا لم أقرأ خطاباً مكتوباً ولا ارتجلت خطاباً غير مكتوب قط . ومهما قيل في قوة ذاكرتي لن أحمّلها سبعين محاضرة دفعة واحدة . وعندي مخطوطات ، طبعتُ منها كتاب « الشعوب الاميركية » بالاسبانية وتركت البقية للنشر بعد وفاتي . »

الاختلافات

بعد انتهاء المحاضرات ذرّ قرن القطيعة بين الجالية العربية وضيفها . لأنه انصرف عنها إلى حلقات المغامرة كما انصرفتْ قرينته إلى الملاهي في علب الليل وأصبحت معيشتهما في القصر المُعار فوضى أرهقت الخَدم فانسحبوا من خدمة أسياد ينامون نهاراً ويسهرون ليلاً ، وشكوا أمرهم إلى أصحاب القصر . وهؤلاء أنذروا الضيفين باخلاء المكان بعد ان طالت اقامتهما فيه إلى أكثر من الشهر المتفق عليه . فاندلع ما بينهم الشجْر وانتقل الضيفان إلى منزل آخر ، ولكنهما تشاجرا مع صاحبه أيضاً بعد اسبوعين ، فانتقلا إلى فندق من أفخم فنادق العاصمة .

وكان للخلف سببٌ آخر ، وهو ان الدكتور كان يحمل في مخيلته تصميم مشروع كبير لمجلة مهجرية جامعة يتولّى هو اصدارها ورئاسة تحريرها بأربع لغات ، العربية والاسبانية والبرتغالية والانكليزية ، وتكون الصوت العام لمليوني مهاجر عربي في عشرين جمهورية اميركية ، والوجه المشرق من كيانهم وكيان أمتهم أمام الشعوب الأجنبية . كان

ينوي انشاءها في بونس ايرس ، وتجهيزها بمطبعة خاصة ومعدات من أحدث طراز ، بتكاليف لا تقل عن نصف مليون دولار ، وينوي تأسيس شركة مساهمة تُصدر بهذا المبلغ خمسة آلاف سهم ، كل سهم بمائة دولار ، وتفرض على كل جمهورية عدداً من الاسهم يتناسب مع أهمية الجالية . فكان يدعو ويسهب في الدعوة لهذا المشروع حيثما حلّ . وفي كاراكاس انبرى لسانه بلا جدوى في محاولة اقناع الأغنياء بأن يكتتبوا بكمية من الاسهم ، فنقم عليهم . وقد بذلتُ جهدي في تأييده فلم أحصل على نتيجة ، لأن شهرة الرجل كمقامر وكرحالة تعوّد الحياة البوهيمية لا تدع عندهم أملاً بنجاحه في عملٍ يستدعي الثبات والاستقرار . وبين الحاجة من جهة ورفضهم من جهة ثانية هبطت حرارة المودة المتبادلة إلى درجة الصفر ، وأهمله الأصحاب الذين عيّنتهم الجمعية ضبّاطاً مرافقين له . فلم نعلم نحن بيوم سفره من العاصمة إلى المدن الداخلية ولا هو شاء أن يودّع أحداً عملاً بواجب اللياقة . وكانت أشغالي وأسفاري قد أبعدتني عن العاصمة في تلك الأثناء . فلما عدت لم أجده ولكنني وجدت رسالة منه صدرت عن مدينة كريستوبال تاريخها ١٦ تشرين الثاني سنة ١٩٤٢ . وقد كتبها بعد أن طاف شهراً وألقى محاضرات في اربع مدن وصار على أهبة الرحيل إلى كولومبيا .

« صديقي الكريم يا حبيب الأدب والأدباء :

أنت في كل مواقفك شاعر الروح ، تسكب لمن حولك سُلافاً مما أفاض الله على صدرك . ما منعتك التجارة ان تكون رجلاً . قبل أن تكون تاجراً ، ولا حال المال بينك وبين روحك . فأنت لمن دنا منك نعمى وأنت لمن نال ولاءك نعيم .

أشكر لك كل ما وصل إليّ من لطفك وفضلك . وقد تكرمتَ فقبلت ما أشرتُ به عليك أخيراً ، وهي هبة سنية جديدة من روحك ،

لقد انتهى عملي في هذه البلاد . جئتها زائراً محبّـاً وأغادرها راحلاً وفياً . وأحسب اني ما قصّرت عملاً واجتهاداً . وإذا لم أجد من القوم ما كنت أرجو ، رغبةً مني في أن يكون عملي أجلّ نفعاً لهذا الشعب ، فما ونيتُ أنا ولا كان ذنب عليّ . اني أرضيت كل قومي في رحلتي إلاّ بعض سادتي في العاصمة الذين بالغوا في اكرامي فكنت شاكراً ثم غالوا في لومي وما كانوا منصفين . فما أنا نبيّ يجترح المعجزات ، وحسب القلب أن يكون وفياً ، وبينهم وبيني ذلك الوطن الذي أهوى وجهادي الطويل المؤلم ، والله أعلم بما تكنّ الأرواح .

اما « المجلة »[1] يا صديقي فقد قصدت أن تكون لهذه الجالية رايةً وعلماً خفاقـاً يشيد باسمها في سماء العالم الاميركي . وما قصدتُ انشاءها إلاّ حبّـاً وولاءً ، فكان لي من نفر قليل أنت في مقدمتهم تحبيـذ وتشجيع ، فشكراً ، وكان من بعض سادتي في العـاصمة نفور وشكوى كأنني أبتغي ابتزاز الأموال أو إيجـاد مثوى لرجل شريد ضاقت في وجهه الأكوان . على اني لا يصدّني عن هوى روحي قيلٌ ولا قـال وإذا كنت غداً في كولومبيا فما انصرفت بروحي عن فنزويلا ، ولن أحيد عن رغبتي في خـدمة قومي هنا ونشر المجلة الاّ ان أرى ذلك محالاً . ولن يكون محالاً ما دمت أنت والخلان الأوفياء معي .

اليك تحية من الروح إلى الروح ، ونغمة مستمدة من شعرك تُهدى إلى قلبك الصفيّ . حبيب اسطفان » .

أضع هذه الوثيقة أمام القارئ ليرى وجوه الخلاف الذي قام بـين كاتب الرسالة ومناوئيه ، ، ويحكم في القضية حسب اجتهاده .

---

١ المجلة التي أرادها الدكتور اسطفان وسعى إلى اصدارها منذ ثلاثين عاماً هي التي تريدهـا اليوم الجامعة اللبنانية للمهاجرين في الاقطار الاميركية وتضعها في جدول اعمـال مؤتمر المغتربين . فالبند الخامس من المنهاج الذي ترعاه الحكومة اللبنانية رعاية خاصة هذا نصه : « اصدار مجـلة باسم الجامعة اللبنانية في العالم بجميع اللغات التي يتكلمها المغتربون » .

في كولومبيا ١٩٤٢

كان الدكتور في بوغوتا لما وصلتُها سائحاً في ساعة متأخرة من الليل وكان الاتفاق على أن نجتمع في فندق «غرانادا» فسألت مكتب الاستقبال في الفندق المذكور عن غرفة الدكتور حبيب اسطفان ، وكان الجواب ان ليس في الفندق نزيل بهذا الاسم . فذكرت له أوصافه وانه زوج الشاعرة ماري موراندیرا ، فقال لعلك تريد «استيفنو الأرتستا» ؟ قلت ربما شرط أن يكون دكتوراً ومحاضراً لا «ارتيست» فحسب ، قال سأوصلك به هاتفياً وتتفاهمان رأساً . وكان هو نفسه المتكلم في الهاتف فرحّب بي بحرارة وقال ان في غرفته جماعة من علية القوم يلعبون «البوكر» واقترح عليّ الصعود إلى الغرفة للتعرف بهم والاشتراك باللعب فاعتذرت وأجّلتُ المقابلة إلى الغد .

جلسنا إلى مائدة الطعام ظهر اليوم التالي . الدكتور وزوجته وأنا . وكان أول همّي الاستفسار عن لقب «ارتيست» الذي ألصقوه به فجاء التفسير بلسان الزوجة الشاعرة كما يلي :

كسدتْ محاضرات الدكتور وانقطع موردها ، فابتكر وسيلة لترويجها بواسطة نادي الشعراء الذي تنتمي اليه السيدة ماري . وفي النادي شاعرات ومتفنّنات تطوّعن للمهمة ونظّمن مساقاً فنياً لحفلات اسبوعية يلقي فيها الدكتور محاضرته بعد أدوار الغناء والرقص وانشاد الشعر . ولهذا الغرض استأجر صالة سينما لسهرة الثلاثاء من كل أسبوع (لأن الثلاثاء يوم العطلة في تلك الصالة والاجرة رخيصة) وطبع ووزّع نشرات الاعلان عن الحفلة باسمه ورسمه كما تفعل الفِرق الفنية ، فظنّه من لا يعرفه فنّاناً «ارتيست» .

حزنت جداً لهذا الخبر لأني أيقنت ان نابغتنا ومفخرتنا دخل في دور الانحدار والانهيار بعد أدوار المجد والرفعة التي مرّ بها . ولكني كتمت

ألمي ورافقته إلى حفلة الثلاثاء لأرى ما يجري فيها . فوجدت على مدخل الصالة شيوخاً من ذوي اللحى والمهابة بانتظاره فسألته من هم ؟ فقال لي هم أساتذة في مدارس الدولة ، معاشاتهم قليلة ، ينتظرونني للدخول معي إلى الصالة مجاناً . فاستعذت بالله من هزء القدر بأفاضل البشر .

كان الفصل الأول من المساق دور رقص مجوني قام به صبي وصبيّة تلاه دور موسيقى وغناء أدّته فتاة من هاويات الفن . ثم أنشدت الشاعرة ماري ثلاث مقطوعات من شعرها . وبعد الاستراحة كان الفصل الثاني محاضرة الدكتور اسطفان « ابو الهول والفيل » ولكن عدد المستمعين كان قليلاً . فخرجت موجع القلب ، كأني شهدت احتضار صديق عزيز . ولم أصحبه إلى الحفلة التالية . ولكني عرفتُ منه انه ألغاها لما وصل إلى الصالة ووجد ان شباك التذاكر لم يبع سوى خمس بطاقات . فقطع الأمل من كل مورد في بوغوتا ما عدا مورد « البوكر » . قال لي أحد اللاعبين ان الدكتور ماهر جداً ، لا يخسر مرة حتى يربح عشر مرات ، وان الخسائر التي تلحق به أحياناً هي من لعب « الروليت » في الكازينو لا من لعب الورق في الفندق . أمّا السيدة مورانديرا فقد استطاعت أن تطبع مجموعة من قصائدها وان تستغلّها . ولما حضرتُ لزيارتها الشاعرة « ماريا دلمار » رئيسة نادي الشعراء دعتني وعرّفتني بها ، فإذا بها سورية الأصل واسمها « اولغا شمس » .

وشئت أن أتابع السياحة بالسيارة إلى الاكوادور وما بعدها ، فزوّدني الدكتور اسطفان بخمس رسائل تعريف وتوصية إلى أصحابه في كيتو وغواياكيل ، رسائل لا يُكتب أبرّ منها ولا أشرف . وأوصاني بالمبيت الليلة الأولى من رحلتي في مدينة « كالي » البلدة الجميلة التي تشبه دمشق من حيث الماء والخضرة والشكل الحسن ، فارتحت لاقتراحه ما دامت « كالي » في طريقي ولي فيها رفاق كانوا معي في مدرسة دمشق الابتدائية . وزاد ارتياحي حين قال لي انه يودّ أن يصحبني إلى « كالي »

على شرط أن نمكث فيها بضعة أيام . فتمّ الاتفاق على السفر معاً ، وعلى أن نترك السيدة موراندبرا في بوغوتا حيث تَبَنَّتْ ولداً كولومبيانيّاً في الثالثة عشرة من العمر وأصبحتْ لا تفارقه ولا تنتقل من بلد إلى بلد دونه . فبهظَتْ زوجها رغم ارادته بأعباء جديدة ، لا قِبَل له بها .

في السيارة

رحلتنا طويلة . بدأناها مع طلوع الفجر وما انتهينا إلاّ بعد الظهر . ثماني ساعات في السيارة وجهاً إلى وجه وجنباً إلى جنب . ومهما طال الحديث فالطريق أطول منه . تُرى كم هي المسافة بالكيلومتر ؟ قال رفيقي :

نحن أدرى وقد سألنا بنجدٍ — أطويلٌ طريقنا أم يطول ؟
وكثير من السؤال اشتياق — وكثير من ردّه تعليل

قلت ما أعظم المتنبي ، انه شكسبير العرب . قال : المعري أعظم منه . فسألته رأيه في شعراء المهجر . قال : سيدهم ايليا ابو ماضي ، والباقون يتبعونه من بعيد .. قلت ورفاقه في « الرابطة القلمية » ؟ أجاب : « مشعوذون . جبران ونعيمه لا يفهمان ما يكتبان فكيف يفهمهما الجمهور ؟ أما الريحاني فاني أحترم أدبه واخلاصه لأنه لم يدّع الفلسفة . وأما الفلسفة الجديرة بهذا الاسم فهي التي ازهرت في عصر اليونان ، وأثمرت في العصر الحاضر » ...

وتدفق الدكتور في الشرح كأنه على المنبر وأنا أصغي تأدباً ولا أعي ما أسمع ، حتى أشفقت على جهده المهدور وقاطعته بقولي : « أنا عدوّ الفلسفات يا دكتور ، لأني لا أفهمها ولا أريد أن أتعلمها ، يكفيني

هاتف وجداني يصعد من أعماقي ليدلني على الخير والشر وعلى الخطأ والصواب ، فلا أستشير غيره في مشاكل الحياة والموت حتى ولا الكتب المقدسة . فدعني في جهلي ، على الفطرة ، ولا تزرع الشكوك في نفسي. فأجاب : « إني آسف لموقفك موقف الكفران من نعمة أتاحها لك القدر لكي تُنير ذهنك وتهذّب فطرتك بالاستماع إليّ . ولن ألحّ عليك لأنه أمر يتعلق بك وحدك ، إنما اريد منك أن تصغي إليّ لأمر خطير يتعلق بي . وأعتقد ان الاقدار دبّرت لنا اليوم هذا الاجتماع ، وقد يكون الاجتماع الاخير ، لكي أكاشفك به » .

« إنني أحسّ بدنو أجلي إحساساً غامضاً يطيب لي ، لأنه ينفي عني هواجس المستقبل القاتم الذي ينتظرني ، ولأنه ينقذ روحي من سجن هذا الجسد الضيّق العفن الذي سيطر بشهواته على ارادتي وكان سبباً لتعاستي . فأنا لا أخشى الموت وكلّ ما أخشاه هو المرض . المرض الذي يُقعدني عن أداء رسالتي وعن تحصيل رزقي ويسلبني ما بقي لي من كرامة ومحبة عند زوجي وأهلي وأصحابي . اني صحيح الجسم ولم اشك من أية علّة طول عمري . ولكن ان فاجأني المرض فاني أريد أن أفقد حياتي يوم أفقد صحتي . أريده مرضاً صاعقاً قتّالاً ، فان لم يكن كذلك فسأجعله صاعقاً قتّالاً بيدي هذه . معي في جيبي عدة الخلاص ، ولا بدّ لي من الانتحار » .

حاولت الاعتراض فوضع اصبعه على فمي ومسح العرق عن جبينه ثم تابع الحديث :

« قد أدعو الطبيب لمعالجة مرضي في بادئ الأمر . فان شفاني تأجل رحيلي عن هذا العالم إلى فرصة أخرى ، أمّا إن استعصى الداء أو عاودني بعد شفائه ، فاعلم يا عزيزي حالما يطرق سمعك خبري اني انتحرت واني خدعتُ طبيبي وكل من حولي وشربت السمّ خفية عنهم . وأوصيك أينما كنت ان تفرح لخلاصي ، وان تجمع اخوانك واخواني حول كأس

تشربونه على سرّي ، اكراماً لروحي . هذه وصيتي ، لا تنسها إن كنت تحبني » .

ساد الوجوم وران علينا الصمت الرهيب بعد هذا البلاغ الكئيب ، إلى ان اجتازت السيارة قرية عامرة وشاهدنا في أسواقها وجوهاً ضاحكة ، فطردنا عن خيالنا أشباح الموت وعدنا إلى ساحة الحياة نتعمّل المرح والابتهاج ، ماسكين بأطراف الحديث :

— « هل تنوي القاء محاضرة في كالي يا دكتور » ؟

— « أتمنى القاء محاضرتين . هذا يتوقف على استعداد الجالية » .

— « كم مرة زرت كالي قبل اليوم ؟ »

— « ثلاث مرات . وهذه هي الزيارة الرابعة » .

— « وكيف كان سلوك الجالية معك » .

— « من أحسن ما يكون . إنما في الزيارة الأخيرة حصل بعض النفور بينها وبيني ولا أظن انها حاقدة عليّ إلى الآن . سأعرف ذلك بعد ساعات من حرارة استقبالها لي . لأني أبرقتُ اليها أمس إعلاماً بحضوري وانك معي » .

— « وما هو مركزها المالي والثقافي » ؟

— « في الجالية عائلات ثلاث تتحكم في حياة البلد الاقتصادية والاجتماعية (زكور ودكاش وفرج) . والثقافة هنا لا بأس بها ، إنما درجتها بالاسبانية أعلى من درجتها بالعربية » .

— « هل عرضت مشروع المجلة على أغنيائها ؟ اني أعجب كيف لم تسألني كل هذه الأيام ماذا فعلتُ مع « الأربعة الكبار » في كاراكاس بشأن المجلة ؟ »

— « لم أسألك لئلا تلمح في سؤالي تأنيباً لك على اهمالك القضية ، إذ لو كان عندك خبر جديد لذكرتَه لي ساعة وصولك إلى بوغوتا » .

— « ليس عندي خبر جديد ولكن عندي رأياً جديداً كوّنتُه بعد

مساعي ومخابرات طويلة مع الأربعة . الجماعة في كاراكاس حديثو النعمة، لم يتعودوا الإنفاق حتى على أنفسهم . فلكي ينفقوا على مشروعك الأدبي البعيد لن تقنعهم إلاّ باستثارة غيرتهم كأنْ تُريهم اكتتابات الأغنياء في المهاجر الأخرى ، وتدعوهم إلى الاقتداء بهم حتى يُثبتوا وجودهم واريحيتهم أمام الجميع . أنا أنصحك أن تبدأ بالبرازيل (نجيب يافث) وبالارجنتين (جورج خوري) وبشيلي (نقولا جارور) وبكولومبيا (ادمون زكور) حتى يكونوا السابقين وأصحابنا في كاراكاس اللاحقين » .

— « كلامك وجيه . ليتني أتابع السفر من هنا إلى بونس ايرس حيث أصحابي هناك يُعتمد عليهم ، فأضع الحجر الأول في أساس المشروع قبل الاتصال بالمَهاجر الأخرى . ليتك تعرف منزلتي السامية في الارجنتين » .

— « حدثني عنها يا أخي ، فحديثها يسرّني » .

— « اعطيك مثلاً واحداً . منذ عشر سنوات كنت مصطافاً في « مار دلبلاتا » حيث يصطاف علية القوم كما تعلم . ودعيت لالقاء محاضرة على سيدات المجتمع في « البالاس أوتيل » ، وبعد أن تكلمت نصف ساعة تقريباً قاطعتني إحدى السيدات بقولها : « يا معلم ، ان كلامك بمقام صلاة تتصاعد بخوراً في هيكل الربّ . ولا يجوز أن نسمعها إلاّ جاثيات » قالت هذا وجثَتْ على ركبتيها فاقتدى بها الجميع وبقين جاثيات إلى أن انتهت المحاضرة . أين أنا الآن من ذلك العزّ الفريد » ؟

في كالي

لما وصلنا إلى فندق « كالي » الكبير كانت غُرفُنا مهيأة لأن الدكتور حجزها برقياً ، له جناح مؤلف من غرفة نوم وغرفة استقبال وغرفة

الحمّام والمُنتفعات ولي غرفة نوم ملاصقة له . فاكتشفت بهذه القسمة سبباً جديداً لنفور الجالية منه . فهو يفرض معاشه على الكرام ثم يتحداهم بالبذخ ويعيش على مستوى أعلى من مستوى معيشتهم . وبعد ساعة اكتشفت سبباً آخر . إذ كنت في جماعة من المسلّمين أردّ على سؤال أحدهم ان كنت « مبسوطاً » في غرفتي في الفندق ؟ فأجبته انها تُطل على النهر وأنا أهوى النوم على خرير الماء . وكان الكلام بالاسبانية فأخطأت بقولي جَلَبَة الماء (ruido) بدلاً من همسات الماء (murmullo) فصاح الدكتور : « يا للفظاعة ! ويقولون انك شاعر ! يجب أن تعود إلى المدرسة » ... فلم يزعجني كلامه ولكنه دلني على صحة ما روي عنه من شراسة الطبع وفظاظة اللسان في معاملة عشرائه . حتى على مائدة القمار يأمر وينهى ويوبّخ رفاقه حتى أصبحوا يتجنّبون اللعب معه .

لم ينقطع سيل المُسَلّمين عن بهو الفندق حيث كنت أستقبلهم ولكن واحداً منهم لم يصعد إلى حيث كان الدكتور اسطفان ينتظر الزائرين ، أي في جناحه الخاص . فاستاء وحردَ وتناول طعام العشاء في غرفته حتى لا يُجالس ضيوفي على المائدة . وكانت سهرتنا لذيذة ، تمّ فيها التآلف والتحابب وما افترقنا إلاّ بعد الاتفاق على برنامج دعوات ونزهات ومآدب لاسبوع كامل .

كان من سوء حظي أن تفجأني وعكة شديدة في صباح اليوم التالي كادت تقضي عليّ . وما شاع خبرها حتى هرع إليّ الاصحاب واستحضروا الأطباء المشهورين وجرت الفحوص فكان التشخيص انعقاداً في المصران يقتضي له عملية جراحية مستعجلة . فاتصلوا بالجراحين وصدر الامر بالاستعداد للعملية فأرسل إليّ المستشفى عربة الاسعاف لتنقلني اليه ، وضجّت البلدة وخلَت المتاجر العربية من أصحابها . كانوا كلهم في بهو الفندق يتنسّمون الاخبار ، وكان في غرفتي طبيب يساعدني على

الحركة بينما يده تمسّد موضع الألم في البطن . وبغتةً انحلّت العقدة وزال الألم برمشة عين ، فارتميت على الطبيب اعانقه وأردت الخروج إلى الممر لالقاء السلام على جماعتي فمنعني الطبيب ونادى الجراح والاخصائي لكي يُعيد الفحص . فجاء وأعاده وقال ان الازمة انفرجت ولكن عليّ ان الزم السرير أربعاً وعشرين ساعة قبل استئناف نشاطي العادي . وبعد قليل رجعتْ عربة الاسعاف إلى المستشفى خالية من ضيفها .

عادني ذلك اليوم من أعرف ومن لا أعرف من أبناء وطني إلاّ رفيقي الدكتور حبيب اسطفان ... حتى إذا غادر غرفتي آخر فوج من الزوّار حوالي منتصف الليل ، فتح الدكتور الباب الفاصل بيننا ودخل عليّ لتعنيفي لا للسؤال عن حالي . قال : « هل جئنا إلى « كالي » لكي نقيم الجالية ونقعدها ؟ وهل نسيت كلامي أمس في السيارة ؟ مجنون كل من يمرض كما مرضت أنت بعد سن الخمسين ولا ينتحر ! » .

قلت اسمح لي يا أخي بمهلة من فضلك . إذ لم يزل بيني وبين الخمسين ثمانية شهور ، وبعدها يدبّرها ربك .

وعاد الصفاء إلى قلبينا فتباسطنا وتمازحنا . ثم شكا سوء معاملة الجالية له وقال اني حللت محله في قلوبهم وخصوصاً بعد حادثة المرض ، وانّ باستطاعتي الآن اقناعهم بشراء محاضرة منه ان تعذر شراء محاضرتين . فوعدته بالاهتمام بالأمر منذ صباح الغد . وسألته ان كان أضاف شيئاً جديداً إلى مجموعة المحاضرات ، فأجاب سلباً ولكنه مضى إلى حقيبة من حقائبه وجاءني بمخطوطة سمينة مكتوب على غلافها « حمدان — فارس الحصان الأبيض » وقال ان هذه رواية طويلة يؤلفها من أوصاف نفسه ومن حوادث حياته فتطول عاماً بعد عام إلى أن تنتهي بانتهاء عمره .. وحمدان — هو اسطفان نفسه — يطوف البلاد حاملاً ثلاث روايات . واحدة للخير وواحدة للحق وواحدة للجمال — ليركزها في الذرى فوق الرؤوس والعروش ، ويفسّر رموزها بمختلف اللغات حتى إذا فرغت

جعبته من الاقوال الحكمية دفع بحصانه إلى شاطئ البحر وغلغل في جوف الموجة العارمة ليكون لسانه طعاماً للسمكة الجائعة . .

سهرنا إلى الصباح على صوت اسطفان وهو يقرأ رواية « حمدان » .
طيّب الله أنفاسه ما أنفسها . كثير من المعلومات التي ذكرتها عنه في هذا الفصل أخذتها من فمه في تلك الليلة التاريخية .

انه العشير الحلو المرير النافع الضار ، رجل المتناقضات .

أصبحتُ معافى نشيطاً وقمت إلى مهماتي . وكان أولها الطواف على الأطباء والجراحين والمستشفى لوفاء ديون البارحة . فكان جواب كلٍ منهم ان الحساب دُفع (من محل زكور ودكاش) . سبحانك الله . هل خلقتَ أكرم من بني قومي المقيمين في « كالي » ؟ منذ يومين لم يكونوا يعرفونني ، واليوم يعاملونني كأني ربيت معهم في بيتهم . فبأي لسان أو بأية وسيلة أشكرهم ؟ إنّ ذهابي اليهم طالباً ان يشتروا محاضرة اسطفان ، ليست أحسن وسيلة للاعراب عن شكري ...

مع ذلك ذهبت ورجوت وأصررت ونجح مسعاي . لم يشاؤوا الارتباط بمحاضرة مع الدكتور بل عرضوا أن يشتروا تذاكر الدخول إذا أراد القاء محاضرة . فخابرت الدكتور ونلت موافقته . وبعد الظهر خرجت إلى السوق بثلاثماية تذكرة دخول وزعتها على الاصحاب الكرام وعدت إلى الدكتور بثلاثماية دولار . وتأهبنا لسماع المحاضرة في المساء .

في المساء حصلتْ الفاجعة . أصحابنا الذين اشتروا التذاكر أضربوا عن الحضور . ولم يكن في الصالة الفسيحة أمام المحاضر إلاّ عشرون شخصاً ملأوا صفاً واحداً من المقاعد . انه مشهد مخجل . ولم نجد ستراً للفضيحة إلاّ في فتح أبواب المسرح على مصراعيه ودعوة الجيران والسوّاقين وكل من مرّ في الشارع إلى الدخول لسماع المحاضرة مجاناً .
فحصلنا على خمسين مستمع آخر بهذه الوسيلة . وألقى دكتورنا محاضرته

مكسور الخاطر . اللهم لطفك بعزيز قومٍ ذلّ !

مركزي في « كالي » ، بعد الذي جرى ، أصبح حرجاً لا يُطاق .
فأعددت خطة الهرب وجعلت مقدمتها مأدبة عشاء في الفندق دعوتُ اليها كل من أكرمني وعطف عليّ من بني قومي ، ومعهم رفيقي الدكتور اسطفان ، تمهيداً للمصالحة بين الفريقين من جهة ، وإعراباً عن اعترافي بفضل المدعوّين عليّ من جهة ثانية ، فسُرّي عن الدكتور تلك الليلة وأبهج الحاضرين بمنطقه العذب وذكائه المتوقّد . وافترقنا بعد المأدبة قائلين إلى الغد (هاستا مانيانا) ، ولكن قبل أن يبزغ الغد كانت السيارة تحملني وتعدو بي باتجاه فنزويلا ، لا كولومبيا ولا الاكوادور . وقد تركتُ للدكتور كلمة استودعه بها الله واسأله أن يودّع عني الاحباب الذين حوله . وكان ذلك آخر عهدي بالدكتور حبيب اسطفان ، آذار عام ١٩٤٢ .

الانتحار

بعد الفشل الذريع الذي مُني به في كولومبيا ، كفّ الدكتور اسطفان عن المحاضرة ، فكان حكيماً ، ولو كفّ عن المقامرة لكان أحكم .

سُدّت في وجهه السُبل ، ما عدا سبيلين : الأول مشروع المجلة . ومعه الاستقرار في عالم الأحياء . والثاني مشروع الانتحار ومعه الإفلات من حياة المهانة والعذاب .

كان أمله الأخير مناصرة أصحابه في الأرجنتين كنقطة انطلاق لمشروع المجلة . فخاب هذا الأمل واستحكمت حلقات الضيق ، لا يفرجها عن السريّ الأبيّ إلاّ الراحة الكبرى .

في يوم من أيام آذار عام ١٩٤٥ — أي بعد سنتين تماماً من افتراقنا — في مدينة كالي — وردتني وأنا في كاراكاس برقية من مدينة بتروبولس

(القريبة من ريو دي جانيرو) تنعي إليّ الصديق الكبير . وبعد أسبوع وصلتني صحف البرازيل وقرأت فيها ملابسات وفاته فلم أصدّقها . قالوا انه تسمّم من أكل طعام بحريّ معلّب ومستورد من امبركا الشمالية ، وان المعالجة السريعة الفعّالة أنقذته من تأثير السمّ ولكنها لم تشف قلبه المعطوب . فهمد الخافق ورقد الجبّار .

إني ما زلت أعتقد — بناءً على ظروفه التي شهدتها وعلى كلماته التي سمعتها — انه مات بجرعة من السمّ كان يدّخرها ، متعمداً الانتحار .

كاهن العروبة ومسيح المهاجرين اختار صليبه وجلجلته ، وعلّق نفسه على خشبة الخلاص ، قبل أن تدوسه أقدام الفرّيسيّين ، ليكن ذكره مؤبداً !

الاخبار الاخيرة

تتبعت آثار الفقيد العظيم في السنتين الأخيرتين من حياته وأجهدت نفسي في كشف الغامض من سيرته الختامية فلم أظفر بنتيجة تُرضي التاريخ ، لأن عشراءه الذين حاولت الاستعانة بمعلوماتهم أبوا التعاون معي . كلهم من أصحاب « الألسنة الدافئة » يؤثرون الصمت على تجريح سمعة الميت . هذا يقول « دعنا من سيرته » وهذا يُحيلني على أرملته ، ماري موراندبرا . واللبيب من الاشارة يفهم .

ماري موراندبرا طارت إلى الارجنتين عقب وفاة زوجها حاملةً ثياب الحداد إلى مرابع اللهو . وحصرتْ همها بنشر كتاب عن سيرته تستغلّ بـه حزن الجوالي العربية عليه قبل أن « تبرد الحديدة » ... لا اهتمتْ بتنفيذ وصيته من حيث نقل رفاته إلى « بتاتر » مسقط رأسه ، ولا سعتْ لتشييد ضريح له في مقبرة بترّوبولس . في بونس ايرس استعانت بأديب ارجنتيني كبير كان من خلصاء زوجها على اصدار

كتاب «حبيب اسطفان في حياتي» باللغة الاسبانية طبعته بكميات كبيرة ووزعته على مختلف المهاجر الاميركية . وكان نصيبي منه خمسمائة نسخة للتوزيع في فنزويلا ، ثم استعانت بأديب عربي «ملاتيوس خوري» على ترجمة الكتاب وإصدار طبعة عربية منه في بونس ايرس ، فكان انتشارها أقل من انتشار الطبعة الاسبانية ، مما يدل على ان الأجانب كانوا أحفظ لعهد اسطفان ، النابغة العربي ، من العرب أنفسهم .

ليس في الكتاب أخبار لم تعرف أو أسرار لم تكشف قبله . فالمؤلّفة لم تنقل إلاّ الاصداء التي تردّدت في الصحف من تعليق النقاد على محاضرات أسطفان أيام مجده . أما كيف تداعى ذلك المجد ولماذا أدّى إلى اليأس ، فلم تشرح لنا أسباب ذلك . وكم من سؤال يجول في خاطرنا ولا نجد جواباً له في كتابها .

أولاً — لماذا اختار زوجها البرازيل مطرحاً لعزلته دون الارجنتين التي اعتبرها وطنه الثاني واعتبرته من أبنائها ؟ وفي البرازيل لماذا اختار الضاحية الحالية من أبناء العرب ؟ أما كانت سان باولو مجمع الأدباء العرب أولى به ؟

ثانياً — لماذا لم يلجأ في محنته إلى كوبا كما كان يلجأ سابقاً ؟ وما الذي أبعده عن منزل العائلة في هافانا فلم يعدْ اليه منذ تاريخ زواجه ؟ هل كان الزواج سبباً للقطيعة بينه وبين أهله ؟

ثالثاً — ماذا جرى للولد الذي تبنته في بوغوتا رغم ارادة زوجها ؟ هل أهملته أم استصحبته إلى البرازيل وقهَرتْ زوجها به إلى آخر ساعة من حياته ؟

رابعاً — ماذا فعلتْ بمخطوطات الفقيد ؟ لا نطالبها بمجموعة المحاضرات التي رأيتُها بعيني (في كاراكاس وكالي) ، لربما أوصى الفقيد باخفائها أو باتلافها ، ولكننا نطالبها برواية «حمدان» التي قرأها

عليّ في « كالي » ، والتي كان يودعها أسراره وأخباره وأشواقه بعد كل رحلة وكل حدثٍ هام . كان نشرها أجدى لنا من كتابها التجاري .

لما نقلتُ إقامتي من كاراكاس إلى بونس ايرس آخر عام ١٩٤٧ تحرّيت عن الحقائق التي كانت تشغلني . ولمّا ذهبتُ إلى سان باولو عام ١٩٥٠ وجدت أجوبةً على بعض علامات الاستفهام التي ذكرتها .

في الارجنتين كما في البرازيل حزّ قلبي انتقاض الوجهاء والأدباء عليه في الحواضر الكبيرة . أما في القرى والمدن الصغيرة حيث لا مظاهر غنى فاحش ولا بوادر ثقافة عالية ، فقد سرّني أن أجد شعبيته سليمةً ثابتة على قدمها . يتندّر البسطاء بفتوحاته الأدبية ويحوكون الاساطير حول ذاكرته الخارقة . فحكاية السيدات اللواتي سمعن محاضرته في « ماردلبلاتا » جاثيات تدور على الألسن . ولكن التحقيق مع عريفة تلك الحفلة كذّبها . فقد أكّدتْ هذه السيدة انها هي التي قدّمت المحاضر بكلمة إطراء وقالت « ان كلامه صلاة توحي بالسجود » ولكنها لم تركع ولم تطلب الركوع من أحد .

ومثلها الاسطورة التي تردّدت مراراً في مجالس البرازيل ونقلتها صحف لبنان عن صحف سان باولو . مفادها ان الشاعر القروي أنشد قصيدة طويلة في حفلة تكريم اسطفان . فلما انتهى وقف المكرّم وأعادها بيتاً بيتاً (من دون ما يأخذ نفَسْ ولا يبلع ريقو) . وانه في حفلة مثلها أقيمت له في كاراكاس أعاد قصيدة صيدح بكاملها (راجعلويّاها حرف بحرف) ، فأدهش السامعين . والحقيقة التي لا مراء فيها هي هذه :

في كاراكاس علمنا مما سبق ذكره انه افتتح خطابه ببيت واحد من قصيدة صيدح ولم يتعدّاه ، هو مطلع القصيدة :

سلاماً يا ابن لبنان سلاما   تعرّفناك من عرف الخزامى

وفي سان باولو علمنا انه حفظ من قصيدة الشاعر القروي بيتين ولا أكثر من بيتين أنشدهما بعده ، وهما في قصيدة عيد الفطر المشهورة التي ألقاها القروي عام ١٩٣٣ في نادي الجمعية الخيرية الاسلامية :

صياماً إلى أن يفطر السيف بالدمِ وصمتاً إلى أن ينطق الحق يا فمي
لقد صام هنديّ فجوّع دولـةً فهل ضار علجاً صوم مُليون مسلم ؟

وقد أنشد القروي هذه القصيدة مراراً عديدة في المجالس فما كان يعسر حفظ بيتين منها على أيّ جليس .

وفي هذه المبالغات الذنب ليس ذنب العوام كما هو ذنب اسطفان نفسه الذي كان يُغذيها ، وهو من أمجاده الحقيقية في غنى عن انتحال مجد خيالي .

وما معنى زيارته لقبر المعلم نعمة يافث بعد موته بعشر سنوات في سان باولو وبكائه بكاءً شاهقاً مراً على مشهد من أسرة الدفين ؟ تُرى هل كان يفكر آنئذٍ بمشروع « المجلة » ؟

إنه لم يغادر سان باولو إلاّ بعد أن « حصد الزرع والهشيم ولم يبق فيها غلة له » . هذا ما رواه لي أحد مرافقيه في جولته الأخيرة رداً على سؤالي : لماذا هجر اسطفان سان باولو وقصد إلى ضواحي العاصمة . في تلك الجولة احتضنته « العصبة الأندلسية » ووضعت أعضاءها وامكاناتها تحت تصرّفه . لم تثنها شكاوى واتهامات وردتْ عليها من مؤسسات في الارجنتين وتجاهلها رئيس العصبة وقتئذ ، المرحوم ميشال معلوف ، موعزاً بالمضي في اكرام الضيف والاهتمام بأموره المادية . فبعد موسم المحاضرات بدأ موسم (اللمّات) . وطافت لجنة مؤلفة من أعضـاء العصبة على المتاجر والمصانع والمنازل والقصور تجمع التبرعات للدكتور

اسطفان بموجب لوائح أشرف على إعدادها وتسعيرها (من خمسين إلى خمسة آلاف قرش) .

هذه روايات أخذتُها من أفواه المهاجرين العرب . أما ما سمعته من أفواه الأجانب فكلمة ثناء ، وبعضه إجلال ، وبعضه تقديس لشخص اسطفان مع الوفاء الدائم لذكراه .

ومن أمثلة هذا الوفاء أذكر « جمعية أصدقاء اسطفان » التي تأسست في كاراكاس عقب وفاته . كل عضو منها يحمل في عروة سترته زرّاً منقوشاً عليه رسم حبيب اسطفان ، ويشترك في حفلة الذكرى التي تحييها الجمعية كل عام .

وفي الارجنتين انشأوا « معهد الدكتور اسطفان الفلسفي » و « مكتبة الدكتور اسطفان العامة » و « جائزة حبيب اسطفان » للاطروحات الفلسفية في جامعة بونس ايرس . وقس على ذلك سائر الجمهوريات الاميركية .

أما الجوالي العربية فتتفرج على هذه البوادر المشرّفة لها ولا تحرك ساكناً كأن الأمر لا يعنيها ، أو كأنها تقتدي بحكومات الوطن . إن الدولة اللبنانية التي لا تقيم وزناً لأبنائها المهاجرين مهما خدموا أمتهم تحرص على تخليد أسماء مستعمريها في شوارع بيروت : « ويغان . غورو . كليمنصو . اللنبي . بيكو » .

إني لم أذكر أخطاء الدكتور اسطفان وسيئاته لأغضّ من كرامته أو أحطّ من شأنه . فالضعف البشري لا يُعيبه ولا يعني سوى تجريده من صفات الآلهة واعتباره إنساناً سويّاً . ورجل مثل حبيب اسطفان كان وجوده في المهاجر نقطة تحوّل في نفسية المهاجرين وتحوّل في نظرة الأجانب اليهم ، لا يُحاسب على مثل هذه الهنات . ولستُ أدينه لكونه مقامراً فالذي بيته من زجاج لا يرمي جاره بحجر ... ولا أدينه

لأنه خلع الثوب الاكليركي ، لأن الرسالة التي أدّاها لأمته العربية في المهاجر الاميركية ما كان في وسعه أن يؤديها لو لم يتعلمن ويتحرر من قيود الكهنوت . ان سيدنا المسيح لو لم يخلع الوهيّته ويتجسّد لما تمّت رسالة الفداء التي قرّبت الأرض من السماء .

سلامٌ ورحمة على روح البطل الاولمبي الذي حمل المشعل الهادي من الشرق إلى الغرب وطاف به على مهاجر قومه في العالم الجديد أربع دورات تاريخية . لم نعرف قبلما فقدناه كم كنا نحب نوره وناره ، حتى دخانه الذي طرفَ عيوننا .

سعيد ابو جمرة

١٨٧١ — ١٩٥٥

عالِم لبناني وأديب جامعي حامل شهادة الطب . وُلد في « الكفير » وتعلّم في الجامعة الاميركية في بيروت وعلّم فيها ثلاث سنوات وحرر في جرائد بيروت ونشر في مصر مؤلفات طبية أعيد طبعها مراراً عديدة ثم سافر إلى الولايات المتحدة الشمالية للتخصص ، ومنها اتجه إلى البرازيل فوصلها عام ١٩٠٠ وأسهم في تحقيق اليقظة الأدبية الأولى في المهجر الجنوبي . وعام ١٩٠٣ أسس جريدة « الأفكار » التي وقعت عند القراء موقع الرضى فكفلوا لها العمر الطويل واحتفلوا بيوبيلها الفضي اعترافاً بفضل صاحبها عليهم ، فلقد كان لهم المعلّم العالم والموجّه الحكيم والقدوة في مكارم الأخلاق .

نعوم لبكي

لبناني من « بعبدات » . والد الشاعر المرحوم صلاح لبكي ومن الروّاد السابقين في المهجر . هاجر إلى البرازيل في أواخر القرن الماضي وأسس في ريو دي جانيرو « مدرسة الفلاح » وفي سان باولو « رواق المعري » عام ١٩٠٠ . وزاول الصحافة فأصدر (مع أسعد خالد) جريدة « الرقيب » عام ١٨٩٦ وجريدة « المناظر » عام ١٨٩٩ (مع فارس نجم) . كان أديباً متحرراً ناهضاً ومجاهداً لا يجارى في سبيل قومه . لا يني عن ارشادهم وتثقيفهم وايقاظ الوعي الوطني فيهم . ولمّا عاد إلى لبنان ترأس المجلس النيابي فيه . وتوفي بعد أن جاوز السبعين .

سلوى اطلس سلامة

(١٨٨٣ – ١٩٤٩)

أديبة من حمص . لها في النهضة النسائية يدٌ تذكر بالشكر . أنشأت في سان باولو مجلة « الكرمة » عام ١٩١٤ وهي المجلة النسائية الوحيدة في المهجر . وقد عاشت ما يزيد على ثلاثين عاماً . وفي عام ١٩٣٩ احتفلت الجالية العربية في سان باولو بيوبيل المجلة الفضي وقدمت لصاحبتها الهدايا الثمينة ، وفي جملتها منزل تقطنه مع أنجالها الألباء .

قيصر معلوف

شاعر مشهور من زحله ، خال شفيق معلوف الأكبر ، نزيل بيروت حالياً . جاء في شبابه إلى سان باولو حيث أنشأ مع أخيه جميل جريدة « البرازيل » عام ١٩٠٣ ، وأصدر ديوان « تذكار المهاجر » وهو أول ديوان شعر طبع في المهاجر الاميركية وأول شرارة من شعلة الأدب في المهجر الجنوبي . عاد إلى لبنان قبل شبوب الحرب العالمية الاولى .

شاهين معلوف

شقيق قيصر معلوف وميشال معلوف مؤسس « العصبة الأندلسية » ، وصل إلى البرازيل قبل الحرب العالمية الأولى وعاد إلى لبنان عام ١٩٢٩ تاركاً في سان باولو آثاراً متفرقة من أدبه نظماً ونثراً . وكانت وفاته عام ١٩٥٤ .

شكري الخوري

لبناني من « بكفيا » ، أغنته موهبته عن العلم فانتقل من تحت السنديانة إلى ادارة الصحف في سان باولو حيث أصدر جريدة « ابو الهول » عام ١٩٠٦ . وقبلها اشترك مع خليل شاول في اصدار جريدة « الصبح » في الارجنتين عام ١٨٩٨ ، ومجلة « الاصمعي » في سان باولو (مع خليل ملوك) عام ١٨٩٩ ، وألّف روايات لبنانية الطابع بأسلوب بسيط يُرضي جميع الطبقات الشعبية ، وله قصة « فينيانوس » بالعامية . وكان مولهاً بحب لبنان ، ولأجل لبنان تدلّه بحب فرنسا باعتبارها « الأم الحنون » وعادى كلّ من لا يودّها ومن لا يتبرك بأطراف رايتها . وقد عرف بحذقه المهني وبذكائه الطبيعي أن يستميل اليه المغتربين أفواجاً آمنوا بمنهجه السياسي وأناساً قدّروا جهاده وغيرته وصراحته ، فقامت لجنة تدعو إلى تكريمه أدبياً وإلى مساعدته مالياً . وفي احتفال جرى عام ١٩١٣ قدّموا له مبلغاً من المال اشترى به داراً في سان باولو . وفي حفلة التكريم أنشده وديع يوسف الشرتوني قصيدة جاء فيها قوله :

هذا هو الرجل الـــذي   قال الوشاةُ به اصلبوه
وقد استقلّ بمبـــدأ   أنا لست ممّن وافقوه
هو خصم بعض مُكرّميه   وقـد أتوا ليكرّموه ..

توفي في العقد السابع من العمر وأقيمت حفلة لتكريم ذكراه كان عريفها خصمه توفيق ضعون .

سليم عقل

من الشباب المثقف . مجاز في الحقوق ومتمكن من لغات أجنبية عديدة . حلّ سان باولو واشتغل ترجماناً محلّفاً في القنصلية الفرنسية ، ولعب في منصبه هذا دوراً غير مشرّف من وجهة النظر العربية[1] أما من ناحية الأدب فهو محسوب من الشعراء المجيدين وإن لم يكن من طبقة شقيقه العبقري وديع عقل . وقد أنشأ عام ١٩١٨ جريدة « السياسة » ثم حجبها لمّا غادر البرازيل عائداً إلى لبنان .

نجيب طراد

أديب سريّ من متزعمي الحركة الوطنية ومن الخطباء المعدودين في دنيا العرب . وُلد عام ١٨٧٨ في مدينة بيروت وتلقى علومه في مدرسة الثلاثة أقمار (وكان من أساتذته المعلم نعمه يافث) وأنهاها في كلية الآباء اليسوعيين في صف نقولا فياض وبترو طراد . ثم ذهب لدراسة المحاماة في باريس ، وهناك اجتمع بالمهاجر الثري عزيز نادر الذي فتح له صدره وأقنعه بالسفر معه إلى البرازيل . حتى إذا وصل نجيب إلى سان باولو مكّنه من انشاء جريدة محترمة باسم « الجديد » تصدر اسبوعياً

---

١ أخذوا عليه تزوير رسالة نسبها إلى منافسه في الدعاوة لفرنسا الصحافي شكري الخوري لينال من كرامة بعض الاشخاص ، وضبطوا تقريراً صبيانياً قدمه إلى القنصلية الفرنسية في سان باولو ، يحذرها فيه من أعداء فرنسا (مسمياً نجيب سالم وأسعد عبد الله وجورج معلوف) وينصح القنصل بأن لا يجلس على مائدة مع احد من آل معلوف لأنهم يطالبون باستقلال لبنان التام الناجز . وهذا الزعم لم يكن كاذباً بل مبالغاً به بالنسبة للطبيب الذكر جورج بك معلوف الذي رفض الوسام التي شاءت الحكومة الفرنسية أن تنعم عليه به أثناء الحرب العالمية الثانية .

بثماني صفحات كبيرة . وفيها تجلّت مواهب صاحبها أدباً وخلقاً . فأخذ نجمه في السطوع وأصبح اسمه على كل لسان وفي كل قلب . ولا عجب فقد كان في ثوبه شخصية زعيم يستهوي الانظار ويقود الأفكار . وفي عام ١٩١٦ تنازل عن الجريدة لنسيبه توفيق ضعون ، هرباً من مهنة تأخذ الكثير وتعطي القليل أو أقل من القليل . فلا هو ولا شريكه فارس سمعان ولا نسيبه توفيق ضعون بعدهما استطاعوا المثابرة على اصدارها . ومنذ عام ١٩٣٠ اخصبت جهوده على القضية اللبنانية فانتقل إلى باريس ليطالب بالاستقلال الناجز مع أعضاء « المؤتمر السوري اللبناني » . وبعد ذلك توجه إلى لبنان ووافته منيته فيه ، فكان الحزن عليه شديداً شاملاً لبنان والبرازيل . وخصّصتْ العصبة الأندلسية عدداً من مجلتها لذكراه جمعت فيه أقوال أعضائها وأقوال غيرهم في تأبينه .

داود قسطنطين الخوري

وليد حمص سنة ١٩٠٦ ، وهو مثقف ومدرّس ومجاهد قومي عني بالتمثيل فكان أستاذاً لابي الخليل القباني المشهور . ثم هاجر عام ١٩٢٦ إلى البرازيل وأقام في سان باولو وترأس فيها النادي الحمصي الكبير . ومع انهماكه في التجارة طاوع نزعته الفنية بتمثيل الروايات وقرض الشعر المليح . لقّبوه « أستاذ الشعراء وشاعر الاساتذة » . توفي عام ١٩٣٩ تاركاً ثروة من المال وأخرى من الذرية الصالحة . وفي مأتمه لم يبق شاعر في سان باولو لم يشترك في تأبينه .

جورج مسرة

كاتب من اللغويين المتشدّدين . أنشأ جريدة «الحالية» في سان باولو عام ١٩١٠ ومجلة «البرازيل المصورة» في بونس ايرس عام ١٩٣٦ وترك مؤلفات لغوية وكتاب «تاريخ الجزار» . وقام برحلة إلى باريس عام ١٩١٥ وأنشأ فيها جريدة سمّاها «باريس» . أسهم في تحريرها برهةً نجيب طراد . وأخيراً عاد إلى سان باولو وتوفي فيها .

الياس مسرة

أنشأ جريدة «سورية» في سان باولو عام ١٩٢٢ ، وكانت قصيرة العمر . وهو الذي صرع زميله سليم لبكي بالرصاص فحكم عليه بالسجن عاماً واحداً .

سليم لبكي

الصحافي القتيل شقيق نعوم لبكي وصاحب جريدة «المقرعة» أعنف الجرائد لهجة في مناهضة الاستعمار وتحقير أذنابه . أصدرها عام ١٩١٤ وكان ضحيةً رخيصة لها .

اسطفان غلبوني

كاتب من الفحول . وُلد في « البترون » وتتلمذ على عبد الله البستاني وتعمّق في اللغتين العربية والفرنسية ، فكان عالي الرأس لما وصل إلى سان باولو عام ١٨٩٨ وفيها أنشأ جريدة « الميزان » عام ١٩٠٨ ونظم الشعر في المناسبات الانتهازية فعاش مترفاً في بادئ الأمر ، تعيساً في آخرته لأن داء القمار المزمن أفسد عليه حيلته الواسعة وأخرجه من طريق الاستقامة إلى أن قضى عليه .

نجيب قسطنطين حداد

صاحب جريدة « المؤدب » التي كانت تحمل على الشاعر القروي . أنشأها في سان باولو عام ١٩١٧ وجريدة « الرائد » عام ١٩١٩ . كان مغامراً عنيفاً . قتل اثنين في سان باولو وهرب إلى كولومبيا ثم عاد إلى سان باولو فصرعه شقيق القتيل .

اسكندر شاهين

أديب لبناني الأصل . عاش في مصر ، واشتغل محرراً في جريدة « الوطن » ، ثم أنشأ لنفسه جريدة « الرأي العام » . وبعد ذلك هاجر إلى البرازيل وأنشأ في سان باولو جريدة « اميركا » اليومية ، حوالي عام ١٩١٣ . كان في تحريرها يتعاون أو يتخاصم مع توفيق ضعون . (هذا الأخير يروي ان الشاهين كان يصيح كلما قرأ مقالاً لجبران أو الريحاني

أو نعيمه : « مين يأخذ روحي ويقول لي ايه عاوزين يقولوا ؟ دول الشوام ما اخترعوش غير اللبنة بزيت ومسبّة الدين ... ») .

جرجي الحداد

هو ابن ساره اليازجي ابنة الشيخ ناصيف . فيكون الشيخ ابراهيم اليازجي خاله . والشيخ نجيب الحداد ابن عمه . نشأ مغامراً متمرداً كثير الكارات قليل البارات ، لا يستقر في بلد أو في عمل . أمضى قسماً من شبابه في الترنسفال ومنها جاء إلى البرازيل . وأنشأ في سان باولو جريدة « القلم الحديدي » عام ١٩١٣ التي عاشت أربعين سنة . وقبلها كان اشترك مع ناصر شاتيلا في اصدار جريدة « الفجر » عام ١٩١١ . ترجم عن البرتغالية كتاب « المسيح لم يوجد قط » ، وكان يهاجم في جريدته الدين المسيحي ورجاله . وهو أحذق في صناعة الحفر منه في صناعة القلم . ولكن بضاعته على علاّتها كان مرغوباً فيها .

يوسف ناصيف ضاهر

أصدر في ريو دي جانيرو جريدة « البريد » عام ١٩٠٩ ثم جريدة « لبنان الكبير » في سان باولو عام ١٩٢٠ . وقد اشتهر بافتتاحياته « حظيات لقمان » التي وضعته في صف البارعين في النقد الاجتماعي . ويروي انه كان قبلاً يصدر صحيفة افرنسية اسمها « نجمة الجنوب » .

رواد الصحافة

من حق التاريخ علينا أن نذكر رجال الصحافة الروّاد الذين نجهل سيَرهم ولكن لا يسعنا أن نتجاهل وجودهم . فلا أقل من سرد أسمائهم مع أسماء صحفهم إن لم يصل علمنا إلى أكثر من ذلك .

في الفصل الأول من هذا الكتاب (هجرة الأدباء) أشرنا إلى خمس جرائد صدرت في البرازيل قبل أن يطلع الجيل العشرين . وهي « الفيحاء » لصاحبها سليم بالش ، و « البرازيل » لقيصر معلوف ، و « الأيـام » ليوسف نعمان المعلوف ، و « الرقيب » ثم « المناظر » لنعوم لبكي . والذين أسهموا في تحرير هذه الصحف هم : ميخائيل مراد . خليل عمون . الياس مسرة . يوسف رزق الله . أسعد خـالد . جورج مسرة . ميشال شاوول الحايك . فارس سمعان . توفيق ضعون . حبيب الخوري ، والشاعر نسيم الخوري .

في مطلع القرن العشرين صدرت جريدة « الصواب » لميخائيل مراد وأسهم في تحريرها حبيب الخوري وقبلان دميان . وجريدة « الاصمعي » لخليل ملوك ، حررها شكري الخوري ، و « المهجر » لعبد الكريم الخوري وعيسى شكور .

وفي الثلاثين سنة التي تلت صدرت طائفة من الجرائد والمجلات ذكرنا أكثرها في معرض الحديث عن أصحابها فلا نعود اليها . ولكننا نثبت ما فاتنا ذكره كجريدة « الفرائد » ثم « الوطن » لابراهيم شحاده، و « العدل » لشكري انطون ، و « سوريا الجديدة » لانطون سعاده ، و « الاحرار » لحبيب بشعلاني و مجلة « الرموز » لرشيد الخوري ؛ و « الفانوس » ليوسف ابي ليسيني ، و « الحارس » لأمين الغريب .

وهناك جرائد لم نهتم كثيراً باحصائها ولا تعمدنا إغفالها هي صحف الانتقاد والتشهير عن طريق الفكاهة أو الرقاعة كجرائد « المقرعة ، والكابوس ، والسهاد ، والقلم الحديدي » التي مرّ ذكرها . نضيف اليها هنا جريدة « المبرد » و « الهراوة الصفراء » لجورج حبيب صيداوي ، وجريدة « ابو النواس » لجورج يارد ، و « الصاعقة » لميخائيل دحروج ، و « الجحيم » لميشال جرجس الخوري ، و « الفانوس وحمارة بلدنا » ليوسف ناصيف جرجس . أما الذي ضرب الرقم القياسي في هذا المضمار فهو جورج شدياق الذي أصدر في عام واحد « التساهل والماشطة وسائق الحمارة » في سان باولو عام ١٩٢٠ بعد أن أصدر في ريو دي جانيرو « الغربال » عام ١٩١١ و « الشدياق » عام ١٩١٣ و «عكاظ» عام ١٩١٨ . وقد أفلح وأثرى من هذا الكار ، فتركه للفقراء الفاشلين من رجال الصحافة الكبار .

الفصل الرابع عشر

أدباؤنا في الأرجنتين

تدفقت قوافل المهاجرين على سهول الارجنتين تدفّق السيل المدرار ، تضيع في ضجيجه وتعاريجه جداول الأدب القليلة ، الجارية على غير هدى . قلّ الأدباء في ذلك المحيط الواسع فما لمعوا إلاّ كما تلمع الحباحب في الليل البهيم . وقلّ الشعراء ، في نزالة يزيد عددها على ثلاثمائة ألف عربي ، فما أغرى هذا العدد الكبير كاتباً بالكتابة ولا كفل الحياة الكريمة لأديب من الأدباء أو لصحيفة من الصحف . جاءها حملة الأقلام منذ مطلع هذا القرن ، نقاطاً في بحر ، عاجزة عن توجيه التيار ، فاضطرت إلى مجاراته . وظلّ المستوى الأدبي في الارجنتين دون مستواه في نيويورك وسان باولو . لم يحمل رايته عباقرة أفذاذ كجبران ونعيمه وأبو ماضي ، ولم يتعهده بالرعاية وجهاء وأغنياء تعلّموا وعلّموا قبل أن هاجروا ، كأبناء يافث ومعلوف ولبكي وطراد واليازجي .

لم نعرف أديباً واحداً أمّ الأرجنتين حاملاً شهادة جامعية أو متمكناً من اللغات الأجنبية أو ملمـاً بآداب الغرب . جلّهم لم تتجاوز دراساتهم الآفاق العربية اللغوية . وبعضهم وصل إلى المهجر أمّياً . وفيه درس العربية مع قليل من اللغة الاسبانية . والبعض منهم لم يزل مضرباً عن الكلام بأية لغة أجنبية . وفي سلوكهم هـذا تناقض عجيب مع الخطة التي رسموها لأنفسهم يوم هجروا وطنهم . فما هجروه ليحترفـوا الإنشاء باللغة العربية في البلد الغريب بل ليعايشوا سكانه ويلتمسوا رزقهم من خيراته .

في غمرة كل هذه الظروف المعاكسة ، وعلى الرغم منها ، نجد أن أدباء الأرجنتين انتجوا أدباً قوياً خيراً . في شعرهم ونثرهم من الصدق والسلاسة والإشراق ما جعله خير أداة بيانية للترفيه عن صدور المغتربين وللتعاون مع المتخلفين في ميدان الجهاد القومي . هو أدب السهل الممرع إن لم يكن أدب القمة . إن فاته الجبروت في مغامراته والعمق في محاولاته والاتساع في جولاته فما فاتته الرصانة والمتانة والأمانة للغة العربية وللرسالة الوطنية . مشى على هدى بين رواسب الجهود ونوازع الطموح في الطريق الملائم لبيئته وعصره . وإن إعجابنا بتحليق النسور لا يمنعنا من الاعجاب بسجع الحمائم وتغريد البلابل .

جروا في شعرهم مجرى القدامى ، ديباجة وأسلوباً ، وعنايتهم بالمباني فاقت عنايتهم بالمعاني ولكنها نزهتهم عن الهفوات ، إذ كان لهم من الأساتذة سيف الدين الرحال وحسني عبد الملك ويوسف الصارمي وشاكر سلوم سدنة واقفون بالمرصاد لكل من لحن أو رطن . في يقينهم ان الشعر القديم الجيّد يبقى جديداً أبداً . هو كالبيت القديم الراسخ البنيان — كما يقول مارون عبود — ما علينا إلاّ أن نوسع شبابيكه حتى تدخله الشمس ويصح البدن .

قال لي الأخطل الصغير في معرض الحديث عن شعراء الأرجنتين :

« إنكم ربطتمونا بخيوط من حرير – خيوط دقيقة ولكنها أمتن الخيوط وأجملها » .

الرابطة الادبية

شيخ الأدباء في الارجنتين هو الكاتب الشاعر جورج عساف ، وأبرزهم الياس قنصل وأخوه زكي قنصل ، وهناك العلاّمة المصري سيف الدين الرحال ، والكاتب السياسي جبران مسوح ، والأديب الألمعي حسني عبد الملك ، والكاتب البليغ يوسف الصارمي صاحب جريدة « المواهب » ، والصحافي اللبق عبد اللطيف الخشن صاحب جريدة « العلم العربي » ، والمؤلف المترجم يوسف الغريب ، والمجاهد الدكتور جورج صوايا ، والكاتب المؤرخ ملاتيوس خوري .

هذه المجموعة من الأدباء ضمّتْ عناصر قوية ذات مواهب أدبية أصيلة ، ولكنها كانت متباعدة متخالفة ، إلى أن عرضت ظروف أدّت إلى جمعها وتوحيدها : ١ – وصول وفد عربي مؤلف من ثلاثة أدباء أعلام : أكرم زعيتر ونصري المعلوف وتوفيق اليازجي . ٢ – وصول وفد آخر من « الكتائب اللبنانية » برئاسة الخطيب المعروف الياس ربابي . ٣ – قدوم بعثات عربية دبلوماسية اشتملت على أدباء بارزين : جبران تويني – عبد الله النجار – توفيق عواد – محمود حافظ . ٤ – حلول مطران العرب نيفن سابا وجورج صيدح وأحمد سليمان الأحمد في الارجنتين . ٥ – زيارة شعراء وكتّاب قدموا من الوطن : الدكتور جورج قدوم وعبد اللطيف اليونس والياس خليل زخريا وعبد المسيح حداد وكامل مروه وحسين الأمين وعبد الله حشيمي

وتوفيق وهبه ووليم صعب وغيرهم . فكان يتفرع من هذه الزيارات محاضرات ومجالس سمر وحفلات خطابية أرهفت قرائح الأدباء في بونس ايرس فأنتجوا مـا يليق بالزائرين من تحيات الترحيب والتكريم والتوديع . حتى إذا عـاد الزائرون إلى ديارهم بقيت الغبطة تغمر صدور الأدباء لقيامهم بالواجب نحو زملائهم ، وشعروا بنشوة روحية تحدوهم إلى المواظبة على تساقي كؤوس الأدب فيما بينهم ولو خلا المجلس من الزوار . فما دعاهم الأديب الزائر وليم صعب إلى تأليف رابطة أدبية تجمع شملهم وتعلي كلمتهم حتى لبّوا فرحين مستبشرين ، وأسسوا الرابطة عام ١٩٤٩ في منزل الشاعر صيدح وثابروا على الاجتماع في الاربعاء من كل اسبوع ، وأنتجوا في كل جلسة ما كان يملأ الصفحات من الجرائد المحلية . وكان لما نشروا أطيب الأثر في النفوس ، ففتحت الأندية صدورها لهم ، وأحسنت وفادتهم وامتزج الأدب بروح المجتمع بعد أن كان في عزلة عنه .

دامت هذه الحال عامين كاملين عادت بعدها الشهوات الراكدة في الصدور إلى الطغيان ، وعاد الشاعر صيدح إلى وطنه ، فانحلت الرابطة الأدبية انحلالاً غير طبيعي ، ينذر بأن أجل الأدب العربي في الارجنتين قريب .

قال زكي قنصل يوم أغلقت ندوة الرابطة أبوابها :

سألتك أيها القصر المنيف	أيبقى بعدك السمر اللطيـفُ
ستذكر عهدك الزاهي نفوس	وتبكي ظلك الضافي ضيوف
بروحي أربعاءك كم أطلت	علينا من روائعها طيـوف
غداً يسعى اليك بنا حنين	فيوصد دوننا باب عنيف
فمن نأوي اليه وقد تخلّـى	عن الأدباء شاعرك الظريف ؟

لم تجمع الرابطة الأدبية جميع أدباء الارجنتين بل ظلّ خارجها كثيرون نذكر منهم : خالد أديب — سعيد بدران — سليم مفرج — خليل نبوت — قاسم عبد الله — علي محمد معروف — جميل رزق سلوم — جاد ورور — محمود صارمي — خليل نادر — اولغا وزان — الياس ريشا — نديم عبود وميخائيل أورفلي . وهناك شخصيات فقدها الأدب العربي في الارجنتين : الشاعر ميشال الحلو — الأمير أمين ارسلان — والكاتب حسني عبد الملك .

وتوفي بعد صدور الطبعة السابقة الأدباء : نعمه النعمة وشاكر سلوم وروفائيل البستاني والدكتور جورج صوايا والصحافيان رشيد رستم ويعقوب غطاس ، فأحدثوا فراغاً في محيط تركناه فقيراً بالأدباء بالنسبة إلى محيط البرازيل . ولكن سرّنا أن نعلم ان مدداً عظيم الشأن جاءهم من الشرق عام ١٩٥٥ في شخص سيادة المطران ملاتيوس صويتي راعي الطائفة الارثوذكسية في الأرجنتين ووكيل البطريرك الانطاكي فيها ، جاء وفي جعبته ثروة من العلوم والآداب في مختلف اللغات ووراءه تاريخ حافل بالنشاط الأدبي الخيّر والانتاج العلمي اللاهوتي ، وشهرة ذاعت في سوريا ولبنان ومصر واميركا الشمالية قبل أن يحلّ في بونس ايرس . فلا يحق للادب المهجري أن يدّعيه الآن ولا يطمع في ان يطبع طابعه فيه . وما هذه الاشارة إلى سيادته إلاّ اقرار بفضله على الحركة الأدبية وعلى الصحافة العربية التي أولاها عنايته وما زال يواصلها باشعاعات فكره ونفثات قلمه ، هدىً للمغتربين واعلاءً لكلمة الحق والدين ، فلا عجب إذا لقبوه في الارجنتين بزعيم الأدب وسفير العرب في الارجنتين .

جورج عساف

(١٨٨٣ – ١٩٥٧)

عربي من لبنان . شيخ الأدباء في الارجنتين في النصف الأول من هذا القرن ، ومعلّم الصحافيين فنّ الإنشاء الأدبي في التعليق السياسي . وشاعر الوجدان الذاتي والوجدان القومي ووجدان كل أديب مهجري . عاش لقلمه يعطيه ويستعطيه ما يشبع الجمهور ، وعاش من قلمه يقنع منه بنقدة العصفور .

وُلد في « شبطين » (قرب البترون) ، وعاش في كنف أسرة فقيرة الحال وأولع بالأدب العربي فتقصّى ينابيعه وحفظ أوابد الشعر القديم مكتفياً من العلوم الأخرى بالدراسات الأولية في مدرسة القرية . وبهذا الزاد الضئيل عزم على الهجرة إلى العالم الجديد دفاعاً عن نفسه من العوز ، لا طماعة بالثراء المادي . وفي سن العشرين ، عام ١٩٠٢ ، غادر لبنان متجهاً إلى البرازيل وحلّ في سان باولو تابعاً فوج المثقفين الذين سبقوه اليها وبعثوا الأدب العربي فيها ، فكان رفيقهم في ندوة « رواق المعرّي » .

أقام في سان باولو ثلاث سنوات تنقل في خلالها من جريدة « المناظر »

لنعوم لبكي إلى جريدة «الجديد» لنجيب طراد، إلى مشاريع توفيق ضعون الصحفية، إلى التعليم في مدارس الجالية. كما جرّب كفاءته في العمل التجاري في محلات عزيز نادر فباءت بالفشل كل تلك المحاولات. وها هو يكتب عن معيشته في تلك الفترة. فنقرأ في مذكراته انه كان يتغذى بالجبن الطري والموز، أي بأرخص الأطعمة في البرازيل، لأن راتبه كمعلم في مدرسة الجمعية المارونية لم يكن كافياً. وقد عُرض عليه أن يعمل في رزم البضائع وخياطة أكياس الجنفيص فأبى استبدال المسلّة بالقلم. ولكنه ندم بعد ذلك على فوات الفرصة، وتمنّى لو مارس هذا العمل الشاق واخشوشن كغيره «في وسطٍ لا فوز فيه إلاّ للمصارعين» ...

انتقل إلى الارجنتين عام ١٩٠٦ وحرّر في جريدة «الاتحاد اللبناني» لصاحبها رشيد رستم. ثم ترأس تحرير جريدة «السلام» التي أنشأها وديع شمعون عام ١٩٠٢، وظلّ يكتب مقالاتها الافتتاحية خمسين عاماً بلا انقطاع. وفي عام ١٩٢٤ أنشأ مجلة أدبية راقية لحسابه الخاص «مجلة الحياة»، وعكف على تأليف الروايات والكتب التاريخية. ونشر باكورة شعره في ديوان صغير اسمه «النازح»، لا وجود له في المكتبات اليوم، من وحي عذاباته في البرازيل وان فيه قصيدته المشهورة «البوسفور» التي نظمها في سان باولو عام ١٩٠٥ في محضر من الأدباء أرادوا أن يمتحنوا شاعريته ففرضوا عليه الموضوع وحدّدوا له وقتاً للنظم ولبثوا يراقبونه إلى أن فرغ من القصيدة. وكان آخر ما نشره في بونس ايرس ديوانه الضخم «العناقيد» عام ١٩٥٢ الذي يضم مختارات من قصائده ويغفل قصائد الاخوانيات وكثيراً من القصائد الحماسية التي كان يلقيها في الحفلات، وجميع الرباعيات التي كان ينظمها في النقد الاجتماعي على نمط فرحات، هذا مثلٌ منها:

صلّى المرائي هاتفاً بصلاته لإلهه المعبود ملءَ الحنجره
قربانه ونذوره في شمعة وذبيحةٍ ، وبخوره في مجمره
طوراً يُقبّل صورةً ، طوراً يُرتّل
سورةً ، طوراً يُمرجح مبخره
حتى انثنى فاذا بربِّ العرش في علياه يصرخ قائلاً : ما أكفره!

تنظّمت حياته في الارجنتين بالعمل الرتيب والرزق الكافي والزواج الموفّق . فعرف الاستقرار في الجوّ العائلي للمرة الأولى . زوجه سيدة ارجنتينية مثقفة فاضلة ، رزق منها ثلاثة أولاد ولم يعلمهم اللغة العربية وقاية لهم من عدوى الأدب الفتّاك . ومنزله في ضاحية جميلة لا تبعد كثيراً عن ميدان سباق الخيل في « سان إيزدرو » فكان هذا الجوار سبباً لتردده على الميدان ولابتلائه بداء المراهنات التي ابتلعتْ قوت عياله ونغّصت حياته في ما بعد .

كان زواجه — بعد ان خدم الجالية بأدبه وبمساعيه أعواماً عديدة — مناسبةً انتهزها المغتربون فرصة لاظهار عواطفهم نحوه . فافتتحوا اكتتاباً جمعوا فيه ما يكفي لشراء منزل محترم في ذات الضاحية التي يسكنها . ولكنه أنفق المال المجموع في سباق الخيل وبقي في منزله المأجور الذي يعرفه جميع الأدباء تقريباً لأنه كان يدعوهم إلى مائدته . فلما دعا توفيق ضعون مرةً وسمع منه التهاني « ببيت الملك » أسرّ اليه أنه مستأجر البيت لا مالكه ، وانه متأخر عن دفع الاجرة سنة كاملة . فاستغرب ضعون صبر المالك عليه هذه المدة الطويلة ، ولكنّ عساف (وهنا النكتة التي يرويها ضعون في كتابه « ذكرى الهجرة ») برهن له ان المالك هو الرابح في هذه العملية ، لأنه لا يملك منازل كثيرة فخمة ، ايجار أي منها ثلاثة أضعاف ايجار منزل عساف ، وانه لو سكن واحداً منها لبلغت

خسارة المالك ثلاثة أضعاف . ألا يكفي انه وفّر على المالك ثلثي الخسارة ؟

هكذا مشى عساف في درب الحياة حاملاً صليبَيْن : غواية القلم وغواية سباق الخيل . ولم يبذل أي جهد لانقاذ نفسه منهما بل كان يبرّر النزعتَين فيقول :

لا شغل لي إلاّ الصبابة والكتابة والورقْ
يمشي بقلبي الشوق أو يمشي بعيني الأرق
صعبٌ اصطيادي بالظبا حتى تصيّدني الحدقْ
أنا إن هويت الخيل في الميدان تنضح بالعرق
فلأنني في كلّ ما يُرضي العلى أهوى السبَق !

ما أجمل هذا الشعر الذي يرنّ ويطن ، يذكّرنا بأسطورة الطائر الذي يغنّي أجمل ألحانه وهو يغرز منقاره في لحمه ليغذي صغاره بدمه . هكذا كان عساف يُغني وهو يقامر ويسفك بيده الرزق القليل الذي جناه حالماً بالغنم الكثير المعقود على كسب الرهان . وقد عرفتْ الجالية العربية كيف كان يُبدّد ماله فمنعتْ عنه رفدها وقصّرت في آخر الأمر بواجبها نحوه .

هذه الشؤون من حياته الخصوصية ذكرناها لتصوير شقاء حاله في الغربة ولتبرير الألم والانين النابضين في كل ما أنتج من شعر ونثر . ان الغربة قست على كل أديب رقيق المزاج شديد التعلق بوطنه وبأمته ولكن عساف كان بسلوكه عوناً مع الغربة على نفسه فزادت ضراوتها عليه . اسمعه يصف شجونه بهذه القصيدة :

ما في الصحاب إذا طلبتَ نبالة وأمانةً كيراعك المصداقِ

عذبٌ ترشّفه النفوس كأنه   من كوثرٍ أو سلسلٍ رقراق
جفّت كؤوسُ الشاربين ولم يزل   في الكأس طَوّافاً على العشـاق
طفحت موائده ، فمن متزوّد   منهن مدعواً ، ومن سرّاق ..
ساقٍ يُروّي الواردين وما له   ان راح يلتمس الموارد سـاق

إلى أن يرق ويصبو فيقول :

عرّج على تلك الديار فربمـا   ظلّت هناك عوازفٌ وسواقي
وانظر ! أفي الاكواب بعد ثمالة   أم في الزجاجة للسمير بواقي ؟
والمُغرياتُ من الشفاه ، ألم تزل   توّاقةً تهفو إلى تــوّاقٍ ؟
ما ضرّها لو أرجعتْ ندمانها   وكؤوسها .. وتلطفت بتلاقي

ومتى استعرض حياة الأديب في المهجر — حياة المتسولين — وقارنها بذكريات القرية في لبنان انبجست الدماء من جراح قلبه :

أشجاك باكٍ وهو من همٍّ خلـي   فذكرتَ عهدك بالغرام الأول
أيام تمرح فوق هاتيك الربى   والدهر يُغمض عنك مقلة أحولِ
يا ناشداً في الأرض مـا أهملتَـه   في حقلك المخضوضر المخضوضلَ
هُنّئتَ بالفوز الذي أحرزتَـه   فوُفيتَ حق يراعك المتفضـل
وسعدتَ حالاً بالذي أدركت من   مُتسيّد وأصبتَ من مُتمـول
هزأتْ بك الأيام يا متســولاً   يحتجّ وهو يعيش من مُتَسوّل ..

بهذه الديباجة المشرقة — على قدم عهدها — يعالج عساف شتّى المواضيع في شعره مع الاهتمام الخاص بالقضايا الوطنية . كان فؤاده يتفطر لحالة الوطن العربي المكبل بسلاسل العبودية والاقطاعية والطائفية والاستعمار

الخارجي . فكان في شعره لهيب الثورة والنقمة على الفاسدين والمفسدين من أبناء الوطن والمستعمرين . وقد أتينا في فصول سابقة على شواهد من هذا الشعر ، فلا نزيد عليها إلاّ الشواهد على شعره الوجداني الرقيق ، كما في قصيدة :

هل تذكرين

أيام كنا والهـــوى ... يُملي عليكِ وتكتبين
والحب يفتح شعره ... للعاشقين فتقــرأين

هل تذكرين ؟

ما مرّ من أيامنـــا ... متناثراً بين الكروم
ما طار من أحلامنـا ... متصاعداً نحو النجوم
ما قيل عنا في الثرى ... حسداً ونحن على الغيــوم
حيث الحياة مخـايلٌ ... والعمر فكرة شاعر
والحب يحدونا فنصعد ... في جناحي طائر

هل تذكرين ؟

في الروض أول قبلـة ... مثل السلافة ذقتُهـا
ضنّ الحياء بهـا عليَّ ... تكرّماً .. فسرقتُهـا
يا هند تلك صبابتي ... في وجنتَيك أرقتهـا
ورجعتُ مكتفياً بما ... ضمّتْ يدي وجنى فمي
وتركت في شفتيك بعد ... السرقة الكبرى دمي..

هل تذكرين ؟

أليس عجيباً أن يبلغ الشاعر هذه الدرجة النادرة من الرقة الآسرة وهو الذي عهدناه شاعر جزالة وبطولة يستلهم المتنبي في الديبـاجـة والفروسية ، وحافظ ابراهيم في هجو الزمان والشكوى من الحرمان ؟

كانت حياته سلسلة معارك مع الحظ المجمّد في شق القصبة أو الحظ المعلق بذنب الحصان . وكانت جميع خوالج نفسه ترتسم في شعره . فلمّا عيّروه بتواتر الاغلاط اللغوية والعروضية في شعره قال :

كتبتُ لهم خمسين سفراً ولم يزل	يراعيَ جوّاداً عوارفه تترى
وما الكاتب المحسان مَن يمنح اللغى	ولكنه من يمنح النفس والفكر
تكاد تراه صفحةً في كتابه	وتقرأه ما بين اسطرها سطرا

وقال لمّا ورد نبأ من بيروت مفاده ان الامير شكيب ارسلان قد جاء ليعود والدته المريضة فمنعته السلطات من النزول إلى البر :

وقفتَ على باب الجنان مسلّماً	تغالب شوقاً ينهش القلب أغلبا
وما أنت زنديق ولا أنت ملحد	لتُدفع عن باب الجنان وتشجبا
ولكنه لبنان صار لأهله	حراماً وأمسى للأجانب ملعبا
بوجه بنيه الصيد يوصد بابه	ويفتحه للفاتحين مُرحّبا
فلمّا اردت العيش في ظل أرزه	عليك — هداك الله — أن تترهبا
فتلثم كفاً تصفع الحق عنوة	وتتخذ التدليس ديناً ومذهبا

واليك هذا المثل الأخير من ديباجته البارودية ونزعته القحطانية :

ومثقّفين على الحروب صحبتُهم	يتجاذبون معاطف المرّانِ
فيهم حجازيٌ ونجديٌ كما	من كل مفتول الذراع يماني
عقدوا الخناصر ، كلهم عرب فما	علقت حمائل بيضهم بجبانِ
وتعصبوا يتطلبون المجد لا	للدين بل للأهل والاوطانِ

وجدير بالذكر ان هذا الأديب كان يطبع شخصيته في شعره ونثره

على السواء . فهو في النثر سلس الانشاء رشيق الأسلوب وضّاح المعاني . يعالج القضايا السياسية ويُعلق على الأحداث بأصالة رأي وبُعد نظر . ويسهم في كل مسعى وطني خيري تقوم بـه الجوالي العربية ، فاجتمع إلى اعجابها به محبتها له . ولما توفاه الله آخر عام ١٩٥٧ أقيم له مأتم حافل وتكرمت ذكراه بلسان جميع الأدباء الذين عايشوه في بونس ايرس ، وبينهم الشاعر زكي قنصل الذي رثاه بقصيدة جاء في ختامها قوله :

لبنان عاد اليك من تجواله ... وجهٌ أغرّ كوجهك الوضاح
أعرفتـَه أم غيّرتْه غربـةٌ ... ألقته بين مخالبٍ ورمـاح ؟
أطلقتـَه فرخاً فدونك قشعمـاً ... يطوي الذرى بجناحه السبّـاح
إن لم يكن مثواه فيك فروحه ... ركبتْ اليك مطية الاريـاح
أقبلْ على الحسّون تسمع صوته ... وابحثْ تجده في الشذا الفوّاح

الياس قنصل

(١٩١٤)

أقدم على الهجرة من « يبرود » إلى البرازيل عام ١٩٢٤ وهو في سن العاشرة من عمره . وبعد حين انتقل إلى الارجنتين وعمل متجولاً « بالكشة » . وبعد أعوام أخذ يحرر في الصحف مأجوراً ثم أنشأ لحسابه مجلة سماها « المناهل » عاشت ثلاث سنوات (١٩٣٧ — ١٩٤٠) وأخذ يطبع آثاره في كتب صغيرة متتابعة ، فالديوان يلحق بالقصة والقصة تتلو الرواية . والرباعيات تنتثر هنا وهناك . ولم يزل إلى الآن نصف نتاجه مخطوطاً . فهو بلا شك أخصب أديب عربي من أدباء المهجر الجنوبي . ألمّ بالإسبانية والفرنسية فترجم عنهما ، وعني بفنّ الخطابة فبرع فيه وكان يثير الحماسة والإعجاب في كل محفل تكلم فيه كما كان يثير السخط والنقمة في صدور الاثرياء بحملاته الشعواء عليهم في كل مقام . وأخيراً فتح متجراً لبيع الخردة وأمّن لنفسه الاستقرار والاستقلال المادي .

نقرأ آثاره الشعرية في ثلاثة دواوين : «على مذبح الوطنية ، والعبرات الملتهبة ، والسهام» ، فنعجب بالعاطفة الوطنية الملتهبة وبالفكرة المنطلقة

على الصراط المستقيم وبالبيان الكلاسيكي مع القليل من الصور الشعرية والإبداع الفني . أما آثاره النثرية فأغنى بالجمالات . فيها يسيطر الكاتب على البيان ، ويلبس المعاني ما شاء من الحلل والألوان ، ويشغف القارئ برشاقة الأسلوب وأناقة التصوير وحرارة الحوار وطرافة الحوادث والمفاجآت . تقرأ له قصة « صديقي أبو الحسن » فتتمنى لو طالت أضعاف ما هي لأنك تخرج من كل فصل بمتعة وعظة . وتقرأ حكاياته في « دولة المجانين » فتأخذك نشوة المرح حتى لتشد على خاصرتيك قبل أن يرضرضهما الضحك ، لا سيما عندما تصل إلى سائق الحافلة ذي الشاربين الطويلين العريضين اللذين لو باعهما بالكيلو لما احتاج إلى العمل بقية حياته . وإذا انتقلت إلى رواياته الجدية كقصة المسيح والعاثرة تجد أن منطق الكاتب البليغ وحجته القوية جعلاك تؤمن بعقيدة كنت من مخالفيها . أضف إلى هذه القدرة على حسن الاداء حاسةَ الملاحظة والنقد المرهفة إلى أبعد حد ، والمرتكزة على ذكاء وقّاد ، يخطف المرائي ويكشف الأعماق بطرفة عين .

من ناحية الملاحظة والنقد يجد الياس قنصل الجو الملائم لمزاجه فيتنفس ملء رئتيه ويضرب الفضاء بجناحيه ويصعد إلى الذروة كالنسر حاملاً فريسته في مخلبه . يتحمس للإصلاح فيؤثر معالجة الأمراض الاجتماعية بالجراحة ، وأحياناً يستعمل مباضع مسمومة .. ويغضب للحق فيخوض المعارك القلمية بجرأة نادرة ، ويقرع خصومه بالسوط بدلاً من أن يقرعهم بالحجة . هذا هو عيب أدبه . ولكن له عند القراء شفيعين هما ذوق دقيق ، وفن عريق .

ثار على المتشاعرين من أدباء المهجر ، فأصدر كتاباً أسماه « أصنام الأدب » سدد فيه السهام الحادة إلى صدور خمسة عشر شاعراً هم في اعتقاده الزوان الذي يجب عليه عزله عن قمح المهجر ، ولولاهم لما تجرأ الناقدون على الطعن بالأدب المهجري . حطّم بمعوله الهدام قصيدة

لكل صنم من الأصنام فأضحك القراء وساير بذلك غريزة الشرقي المولع بثل العروش وتحطيم التيجان . إن أدبه في النقد يصيب المرمى من أقرب الطرق – بالسخرية اللاذعة – عندما تعوزه الحجة الدامغة . على أن أسلوبه الساخر في أغلب الأحيان لا يشوّه حقيقة الأشياء بل يظهرها بلون جميل أخاذ . يؤخذ عليه في هذا الكتاب حملته الجائرة على الدكتور جورج صوايا وهو الطبيب الحاذق والصحافي القدير والزعيم الوطني المخلص . أنفق ثروة طائلة على القضايا الوطنية في جريدة « يقظة العرب » و « مجلة الاصلاح » اللتين أنشأهما . ولكنه مولع بنظم الشعر والاكثار منه دون أن تكون له الموهبة الأصيلة أو أن يسمح له الوقت بالتهذيب والتجويد . وإن الديوان الذي أصدره « همس الشاعر » هو دون قدره كأديب وطبيب ومجاهد عربي كبير .

لإلياس قنصل مخطوطة أسماها « أوراق مبعثرة » ، قرأنا منهــا ما يأتي :

« تظل المرأة من الجنس اللطيف إلى أن تتزوج .

أكبر برهان على حبك الموسيقى أن تنظر من خصاص الباب إلى فتاة تغني وهي تستحم .

وإذا ذهبت إلى حفلة راقصة برفقة زوجتك فكأنك ذاهب إلى وليمة وأنت شبعان .

الرجل المحدث هو من يحول دقيقة تفكير إلى ساعة كلام .

الصراحة دواء . قليله يشفي وكثيره يميت .

قد يهدي الرجل إلى المرأة ثوباً وغايته أن يراها عارية .

شعورك بأنك محسود ، فضل للحاسد عليك .

مهمة الأطباء شفاء المرض والقضاء على المريض .

من لا يحسن السباحة عليه أن يحسن الاستنجاد .

فوضى تحافظ على شخصيتك خير من نظام يهدد استقلالك .

إن أردت من الأحمق أن ينوب عنك بعمل ، قل له ان زنوده قوية » .

والياس قنصل شاعر واسع الآفاق ، عالج مختلف المواضيع ونبه في الشعر الوطني . اليكم نماذج من شعره :

سياسة :

في كل مؤتمر ينظّم وفدهم ... غلاً به عنق الضعيف يُطوّقُ
منحوا الشعوب علومهم وفنونهم ... وثيابها بنيوبهم تتمزق
يتفرقون مطامعاً فاذا علا ... صوتٌ من المغلول لم يتفرقوا
كانت ضحيتهم يدلّي رأسَها ... مسَدٌ فأمست بالحرير تُعلق
إن القتاد إذا عنيت بأرضه ... وبزرعه وبسقيه لا يعبق
هاتوا يهودياً به شرف وها ... عنقي حلال في يديكم فاخنقوا

حنين :

أبعد ربوع رضع المجد أرضها ... نرى لذة للعيش في وطن ثان ؟
وهل بعد سوريا تروق لشاعر ... بلاد ولو كانت كجنة رضوان

حيرة :

يا نفس لن تجدي السبيل فأطفئي ... هذا السراج فما الضياء بمسعفي
ما زلت أبحث ممعناً في حيرتي ... وأجدّ خلف الوهم جد تلهف
حتى رجعت إلى الشكوك مصدعاً ... ورأيت أني مصدر السر الخفي

حكمة :

والمرء بالإدراك والإحساس لا ... بالوجه يحمل صورة الرحمن
ما كل نفس بالحقيقة تهتدي ... بعض النفوس تقاد بالأرسان

من كان في جحر الأفاعي ناشئاً غلبت عليه طبائع الثعبـــان

وفي رباعياته نظرات اجتماعية صادقة .

قال في الشباب المائع :

خاب الرجا فيكم وكان شبابكـم أمل البلاد تحوطه الـدعوات
يا ذائبين من الميوعة إنكـم في دربنا نحو العلى عثرات
أيامكم تحت الفجور يسوقها سوط البلى وعتادكم مـرآة
يتبختر الطاووس في أثوابكم ونفوسكم في ذلهـا حشرات

وقال لأبطال الكلام :

أصيخ لقوله فتلوح دنيا وأشهد فعله فأرى خَواء
فأضحك من سخافته أسيفاً على عمر يقضّيه ريـاء
يحضّ على البطولة سامعيــه ويمتدح البســالة والإبـاء
وكم رجفت مفاصله ارتعاداً متى رمقته زوجته جفــاء

نصيحة :

كن قوياً لتجعل الحق فرضاً يتولى بقسـطه الاحكامـا
ظالم يفتح النواظر خــير من رحيم يغيث من يتعـامى
إن حق الضعيف حقٌ ضعيف عصَرَ الداءُ لحمه والعظاما
أسخف الناس ناعم بخمـول يتمنى من القوي احتراما

حكاية حال :

وقائلة : حتامَ ترعى تجـارة متاعبها للجسم أشبه بالقتـل ؟
ومثلك أولى العـالمين براحـة وأجدرهم بالعيش في المرتع السهل
فقلت : لقد حمّلت جسميَ فوق مـا
يطاوعه كيلا أجور على عقلي
واني لراضٍ أن يكون على اللظى مسيري ،ولا احتاج يوماً إلى نذل

في عام ١٩٥٤ يسّر الله له تحقيق أمنية العمر بالعودة إلى الوطن . وإلى داره في « يبرود » بنوع أخـص . فصفّى متجره في بونس ايرس وطار إلى دمشق الشام . وما أطلّ على غوطتها وبرَداها حتى صاح :

لو كان في الغبراء مثل جمالهـا ما فضّل الرحمن أرض الشـام
هذا التراب مقدّسٌ ، ذراته دفقـات مجد زاخر مترامي

وهناك التقيتُ به فوجدته كما عهدته في بونس ايرس حركة دائمة في قلب الاوساط الادبية يخطب في النادي ويتكلم في الاذاعة ويواصـل الصحف بخواطره السياسية والاجتماعية ويطبع مؤلفاته الفكاهية كتبـاً صغيرة باسلوب برنارد شو في النقد والسخرية . أذكر منهـا كتاب « دولة المجانين » الذي قرّظه كثيرون لأنه أصاب الوتر الحساس ، وكتاب « أدب المغتربين » الذي طبعته وزارة الثقافة والارشاد القومي . ثم التقيتُه في بيروت وطفنا معاً على نخبة من الأدباء والصحافيين فكتب ونشر صدى لكل جلسة جلسناها معهم . ولما عاد إلى دمشق حاول إنشاء صحيفة اسبوعية يحرّرها بأسلوبه المهجري الخاص فكانت محاولة فاشلة

زادته معرفة بمقامه بين قومه ، فشعر بالغربة في صميم وطنه . وأخذ أفق دمشق يتضايق في نظره وموجة التفاؤل التي حملته إلى الشرق تتراجع عن طريقه ، فتهاوت قصور خيالاته تحت ضربات الحقائق الحياتيّة اليومية . وعاش أربع سنوات في حيرة وقلق ، لا يجد نفسه في أي انسان وفي أي مكان ، فعوّل في سره على الانسحاب ، وأخذ يُعدّ عدة الإياب ، حتى كانت ليلة ليس فيها قمر ، ولا سمَر ، تسلل فيها الياس إلى المطار وولى الادبار عائداً إلى الارجنتين بلا بكاء ولا أنين ... كأنه لم يقل لبلاده يوم وصلها :

هذا غريبك يا بلادي عاد من — أرض الدراهم عودة استسلامِ
لا تعجبي لبكائه . ما دمعُه — إلاّ شعور سعادة وغرام
أملي ، وقد شاهدت بندك سيّداً — بالحق ، ان يطوي ثراك عظامي

شتّان ما بين أملك وعملك يا أخا العرب ، يا سابقي في الهرب !..

زكي قنصل

(١٩١٩)

عندما وصل زكي قنصل قادماً من « يبرود » إلى الأرجنتين عام ١٩٢٩ ، تبع الطريق التي عبّدها أخوه الياس منذ خمسة أعوام بالكشة وحرّر في الصحف وتاجر بالخردة . ولم يزل في متجره في بونس ايرس إلى اليوم ، يزرع ويحصد في حقلَي الأدب والنشب . لم يحمل هذا الشاب إلى المهجر علماً وثقافة ولكنه حمل توقاً إلى المعرفة وشغفاً بالتحصيل وميلاً جارفاً إلى عرائس الشعر . فدرس العربية والاسبانية على نفسه ، وأخذ يكتب دون أخطاء وينظم دون عثار حتى تمكّن من البيان وتفتحت مواهبه مع الايام فراح يتفنن ويتفوق ويسيرُ سيرةَ الأديب الحق : لطفٌ جم . وخلق أشم . ولسان عَف . وقدم لاتسعى إلا للخير .

أول ما سمعت من شعره قصيدة ألقاها في تكريم الزميل الزائر أحمد سليمان الأحمد :

شاعرَ الزهر والندى خشِع الركب فهلاّ وقفتَ فيه إماما
هاجنا الشوق للشآم فكبّر ثم كبّر إذا ذكرت الشآما

نحن من روضها حساسين ذرّتها رياح النوى فهامت يتامى
هيَ نجوى الفؤاد إن سهِدَ الجفن ورؤيا الخيال إن هو ناما

وقرأت له بعد ذلك قصيدة بائعة الزهر فطربت أيما طرب وأعجبت أيما إعجاب بفتى يمشي إلى الذروة بخُطى لا أوسعَ منها ولا أثبت . ورحت أتذكر حادثةً جرتْ منذ سنتين مع إيليا ابو ماضي . كنت في نيويورك آخر عام ١٩٤٧ أتأهب للرحيل إلى بونس ايرس وأتردد إلى منزل شاعر الجداول والخمائل . فسألته مرة إن كان يعرِفُ أدباء مقيمين في الارجنتين أستأنس بهم ، فسمّى لي أربعة : جبران مسوح وجورج عساف وحسني عبد الملك والياس قنصل . ثم استدرك وقال : إن هناك أديباً لمّا يزل طريّ العود اسمه زكي قنصل ينظم الشِعر ولا يُجيده ، أرسل لي ديوانه مخطوطاً لأكتب له المقدمة فاعتذرت وبقي الديوان عندي . خذه معك وردّه اليه ، فحملت الديوان إلى صاحبه وظللت متأثراً برأي أبي ماضي في الشاعر إلى أن قرأت قصيدة « بائعة الزهر » فآمنت بعبقرية هذا الشاعر وتمنيت لو كان أبو ماضي أمامي لأحجه بالقصيدة وأجذبه إلى إيماني .

إليكم حفنةً من الورد أختطفها من « بائعة الزهر » ، تتعرفون بها إلى سائر ما في الباقة :

رأيتها حيرى في زَحمة الأحلام
كأنها تقرا أسطورة الأوهام
تسير كالسكرى في موكب الأيام
وتُرقصُ الزَهرا بهذه الأنغام

* * *

الزهــر يا عشـــاق حيّ على الزهـــر
يزهو من الأوراقِ في ثوبه العطـــري
هديــةُ المشـــتاق للخـــد والنحـــر
وحليــة الأعناق أسنى من الــدر
سبحانَ مَنْ زانــه بوشـــيه الزاهـــي
وصاغ ألوانه آمنـــتُ بالله

* * *

مَن يشتري المنثور بالدمعِ نديّتُــه
كم قبّلَ العُصفور فاه وقبّلتـــه
هــذا إزارُ الحـور في الحلمِ أبصرتـه
مِنْ قصرها المسحور في الليلِ لملمتـه
سبحانَ مَنْ زانـه بوشـيه الزاهـي
وصــاغَ ألوانــه آمنــتُ بالله

* * *

مَن يشتري الريحان يمـوج بالعِطر
مزركشَ الألـوان منمنمِ الثغــر
أهزوجــةُ الرحمان رَفّتْ على النهـــر
يزفّهــا نيسـان في موكب الزهر
سبحانَ مَن زانــه بوشـيه الزاهي
وصــاغَ ألوانه آمنــتُ بالله

* * *

يا مبــدع الأكـوان يا خالقي من طـين
ألهمــنيَ الإيمان وقوّني بالــدين

مــا أصعب الحِرمان في ميعة العشريــن !
الزهر يا شــبان مَنْ يشتري النسرين
سبحانَ مَنْ زانه بوشــيه الزاهــي
وصــاغَ ألوانه آمنــتُ باللهِ

* * *

موسيقى ملائكية تنمّ عن طهارة الفم الذي يُنشدُها وبراءةِ القلب الذي استوحاها ، مقاطع قصيرة كعمر الزهور وألفاظ شفافة كندى الصباح ومعانٍ ساذجة كابتسامات العذارى . الفتاة الغضّة تعرض باقتها في السوقِ على المارة وتحاول بالنداءات المتوالية تحويل أنظـارهم عن جمال جسدها إلى جمال أزهارها . المنثور تندّى بدمعتها وتفتّح تحت قبلتها بعد أن لملمته في جنح الليل من قصر الحورية المسحور . والريحان المتماوج بالعطر المرفرف على النهر مـا هو إلاّ أهزوجة الرحمن يهدي بها بصائر الشبان لعلّهم يكفّون عن مغازلة الفتاة ويشترون منهـا ما يقيها غائلة الجوع . والصلاة في آخر القصيدة ضراعة إلى الله أن يقويها على التجارب بالدين والايمان ، فما « أصعب الحرمان في ميعـة العشرين » .

هذي هي القصيدة التي تمنيت أن يسمعها أبو ماضي ، شاعر الزهر والندى ، حتى إذا تخايلت ألوانها أمام عينه وتراقصت أنغامها في سمعه قال معي إن زكي قنصل شاعر مبدع كبير .

وقد تطوع شاعرنا لخدمة الجـالية العربية ، فكان لسان حالها الناطق بشكواها وأمانيها ، فإن تكلّم في مناسبة تخلص منها إلى موضوع اجتماعي ونثر الدرر والحِكَم . قال في مناسبة الاحتفاء بالوزير الشاعر عمر أبو ريشة :

أنا لست من يُغرى بشعوذة وثنية يدعونها حَسَبا
ماذا يفيد الناس أن أبي عال اليتامى وابنه نهبا ؟
مَن لم يكن في نفسه شرف هيهات يُجدي أن يهز أبا
ليس البطولة أن تكون لظى إن البطولة أن تكون صبا

وقال في وداع صديقه صيدح قولاً ينمّ على أخلاقه الصافية ونزعته الروحية السامية :

يا صيدح الشعر هبني منك قافية تفك في حلبات الشعر أغلالي
تشبثتْ قدمي بالطين يغمرها فابسط إليّ يداً من أفقك العالي
ويح التجارة ، من يركب مطيتها يركب مطية أخطار وأهوال
قضّتْ فراشي فلا والله ما انعقدت عيناي إلاّ على همّ وبلبال
وحجّرتني فما الأرقام في نظري إلاّ أراقم تسعى خلف أصلال
هبني فديتك هبني ندوةً خلصت للفنّ واذهب بما حصلتُ من مال

ومما قاله في حفلة الذكرى لأمير الشعراء شوقي ، وهي ذكرى عزيزة كما تعلمون ، قُدّر أن يحتفي بها المغتربون ويتناساها المتخلفون:

خشعت في مزارك الأرواح وتشذّت على ثراك الرياح
سيّد الدولة التي لا تغيب الشمس عنها وما حماها سلاح
لكَ دون النسور أفق فريد هو وقف علَيك لا يستباح
كلما امتدت العيون إليه ردّها عنه نورك اللمّاح
سيّد الشعر هل أتاك حديث النيل ماست في شطّه الأدواح
جرحت كبرياءه عضة القيد فثارت أسنة وصفاح
بعثت في النفوس ما خنق الجور وأذكت ما أخمد السفاح

سيّد الشعر إن ذكراك عيد تتلاقى في ظلّه الأرواح
المقيمون في السياسات غاصوا فتغنّى بذكرك النُــزّاح

ومن حسناته في الغزل قوله :

حديثك أم رقرقات الندى تهادت على قلبيَ الظـامئ
وصوتك أم دندنات النسيم على وجنة الجدول الهانئ
سأنساك لولا اختناقة آه ورفة جفن عـلى الشاطـئ
ولولا اختلاجة حلم نــديّ على برعميْ صدرك الناتـئ

أما آية شعره التي أذاعت شهرته في الأقطار العربية فهي مطولته في ابنته « سعاد » . تبدأ بأناشيد الحب الأبوي استبشاراً بمولد ابنته البكر ، وتنتهي بالزفرات الكاوية وبالصرخات الدامية لموت هذه الفلذة الوحيدة ولما تبلغ العام من العمر . لقد بكاها في كل حركة من حركاتها وفي كل أثر من آثارها : في السرير والثياب والدمى والآنية وكل ما لامسته في حياتها القصيرة . وألهمه الألم صوراً من الحياة العائلية قلما سبقه شاعر إلى وصفها .

قال في مقدم سعاد :

يا قرة العينين غنّي واضحكي وتهللـي
وتدللي مـا شئتِ يا أولى فراخ البلبلِ
إني اتخذتكِ كعبتي وجعلتُ مهدكِ هيكلي
ما الحب لو تدرين إلاّ للحبيب الأولِ

إني لأقرأ في جبينكِ سفر ماضيّ البعيـد
وأرى على عينيكِ بارقتين من حلمي الشريد
ضحكتْ ليَ الدنيا فوافرحي بمقدمكِ السعيد
اليوم أبعث من ترابي ، اليوم أولد من جديد

ثم يحول الضياء إلى قتام في حياة الشاعر الحساس وتنطلق الأنغام من صدره نبرات تتفتت لها الأكباد . لقد فجع البلبل بفرخه الوحيد واصطبغ شعره بلون الدم النازف من قلبه الجريح :

طويتُ بساط الشراب ووِدعت عهد الشباب
فلا يغرينّي رجـــاء ولا يخدعنّي ثواب
كتاب الحياة فصـول وهذا ختام الكتـاب
أأضحك بعد ســعاد ويروي غليلي سحاب ؟
كفرت إذاً بثراهـا وأرخصت أغلى شراب

ثم يعود إلى رشده أو نصف رشده حين يقول :

إن الذي أعطى استرد عطـاءه يا ليته استأنى فما أعطـاني
ما أبخل الساقي تغص بكأســه وتعود منه بحرقة الظمـآن

ما أبخل الساقي ! تجديف على الله الكريم الذي لحكمة عنده يجرب الصالحين فلا يجرحهم باليمين حتى يواسيهم باليسار . وها هو قد منّ على الشاعر الثاكل بنسل جديد يقشع عن عينيه غمامة الحداد ويضيء في بيته سراج الأمل :

نجل أعز من العيون النجل في الوجه الأغر

نجم يحل محل نجمتك الفقيدة يا قمـــر
عمرٌ . وحسبي مفخراً اني شقيق أبو عمر

هذه أبيات من قصيدة تهنئة وردته فردّ عليها بقوله :

هزت تحيتك الندية قلبَ زغلولي عمر
طالبته بالردّ فاستحيى وجمجم واعتذر
وهمتْ مآقيه فرد على اللآلئ بالدرر

وختم قصيدته بوصايا الوالد الراشد للنجل السعيد :

يا ابني طريق المجد محفوف الجوانب بالخطر
فحذار أن ينهاك عن غمراته ناهي الحذر
إن القناعة في الرجال لمن علامات الخور
ما أنت من لحمي ومن روحي إذا خِفت القدر

يوسف الصارمي

أديب سوري (من كفر جوابا – اللاذقية) ، يفيض الصفاء والنقاء من قلبه على قلمه . تتلمذ على العلاّمة الشهير الشيخ سليمان الأحمد ، وأخذ عنه فضائل التقوى والزهد مع الايمان بالعروبة والاخلاص للأدب. وصل إلى الأرجنتين عام ١٩٣٠ واستقر في مدينة توكومان . وهناك أصدر مجلة « المواهب » الراقية ، ثم انتقل بها إلى العاصمة عام ١٩٤٨ وما زال إلى اليوم يغذيها بالفيض ولا يستدرّها سوى الغيض ... وهو راض قانع ما دامت « النظافة » من واجبات المؤمن . يكفيه انه برّ بأمته وبرّ بلغته ، فجعل مجلته مدرسة للوطنية وجعل منزله مدرسة للغة العربية . ربّى أولاده الستة على الأخلاق والتقاليد العربية الفاضلة ، فهم يحسنون العربية قراءة وإعراباً وإنشاءً كالمتخرجين من مدرسة الحكمة في بيروت أو من الجامع الأزهر في القاهرة مع انهم من مواليد المهجر . أما من حيث الثقافة الغربية فقد بلغوا أعلى المراتب : الأنجال الثلاثة « زكريا وحسن وفؤاد » نالوا شهادة الطب مع التخصّص بالجراحة ، والآنستان « سعاد وسوسن » هما طبيبتا اسنان في دمشق ، الأولى ترئس قسم الاسنان في مستشفى المزة ، والثانية ترئس القسم ذاته في مستشفى المجتهد . واختهما الصغرى « سليمى » على وشك الانتهاء من دروسها

الجامعية في بونس ايرس . فكأن هجرة الأبوين إلى اميركا لم تكن نقمة على أبناء هذه الأسرة العربية بل كانت نعمة أضافت إلى ثقافتهم الأصليّة ثقافة الأجانب العالية لتمجّد بهم الذكاء العربي ، ولا عجب أن أصبحت دارهم في بونس ايرس قبلة الأدباء وسامرهم ، يتردد اليها الشاعر القروي كلما زار الارجنتين ، ويجتمع على مائدتها أعضاء الرابطة الأدبية التي اعتمدت منذ تأسيسها على أدبه وفضله . أذكر أبياتاً قلتها له مرة بعد ان نعمت بضيافته :

عجّتْ بجيش من الضيفان جرّار　　كأنها وكنةٌ غصت باطيار
دار لها سعة الآفاق في نظري　　ولم يزد حجمُها عن بضع امتار
شكرتها وشكرت النازلين بها　　لا يفضل الدارَ إلاّ صاحب الدار
وقلت للقلب : كن كالصارمي كرماً
　　وافتح منازلك الحسنى لزوّار
أجابني القلب : ما ناري بنار قرى
　　ولست أرضى لصحبي منزل النار

والأستاذ الصارمي يجيد الصناعتين . نثره بليغ وشعره رائق . قال ليلة تأسيس الرابطة الأدبية :

يا ليلة جمعتنا وحدة النسب　　فيها فطافت بها الأرواح كالشهب
كأننا في سماء كلّ حاشية　　منها أضاءت بمصباح من الأدب

وأنشد في الجلسة التالية التي ترأسها المطران نيفن سابا :

القنصلان　　وصيدح　　وسيادة المطران سابا

ركزوا القريض بمحفل عزّت به الفصحى جنابا
فترنّمت عذّباتُـــه تشدوه ألحاناً عِذابــا
أكرمْ بهم من معشر طابوا به ذكراً وطابــا
لولا شرابهمو المصفّى كانت الدنيا خرابا ..

وقال يمتدح شاعراً من أعضاء الرابطة الأدبية :

يا شاعراً فُتنت بسحر بيانه أمّ المفاتن والعبــاقر جلّـقُ
يتذوق النزّاح خمرة شعره والخير كل الخير ان يتذوقوا
يكفيك خصباً بل كفاك تفوقــاً ان العروبة في جنانك تشرق
العبقرية في حواشي بردها والنور من جنباتها يتدفّـــق
وأحقّ مرءٍ بالثنـاء مهـذب يـأبى المدائح والمدائح تلحق

وله في مناسبة مرور ثلاثين عاماً على قرانه السعيد :

ثلاثون عاماً من حياتي مقارناً
نقضت بما فيها من السعد والشقا
جثمت على صدر الزمان أروضه
بعزمة مَن بالله آمن واتقــى
وها انني من فضل ربي بمأمن
أجوز بنفسي مرتقى بعد مرتقى
حيالي زغاليلي وأهلي ومعشري
فما أجزل النعمى وما أجمل البقا

* * *

وله في الشيب :

تباعد عني الشيب فارتاب معشر
وقالوا يُنقّي شيبه ويحاربه
فقلت لهم والقلب في الصدر ضاحك
هنيئاً لانسان تُنقى شوائبه

وقال متشوقاً :

نشقتُ أريجاً هبّ من جانب الحمى فقلت وقلبي للحمى شدّ ما يصبو
سلامٌ عليها نفحة عربية إذا ما نشقنا عطرها انتعش القلب

عبد اللطيف الخشن

(١٩٠٤)

أحدّ سنان جرّدته الصحافة المهجرية في وجه الاستعمار والصهيونية والخيانات الوطنية هو قلم عبد اللطيف الخشن ، هذا القلم الظريف النظيف الذي يصول ويجول على صفحات جريدة العلَم العربي في بونس ايرس . قلمٌ سفّاك فتّاك متى غضب . جذاب مطراب متى رضي . تحوطه لعنات المارقين وصلوات المخلصين .

وُلد عبد اللطيف الخشن في قرية « سحمر » (البقاع) وتعلّم في دمشق برعاية المجتهد الكبير محسن الأمين وهاجر إلى بونس ايرس عام ١٩٢٤ . وفيها انصرف إلى مزاولة الصحافة العربية مجارياً طبعه ومعاكساً مجرى التيار المادي في المهجر الاعجمي . ترأس تحرير جريدة « الفطرة » عام ١٩٢٨ . وفي عام ١٩٣٤ تركها وأسس جريدته الخاصة « العلم العربي » ووضع فيها كل جهده وكل فنّه . فعاشت وراجت وأحدثت دوياً ترامى من المهاجر إلى الأوطان .

لأدبه طابع مستمد من اسمه « لطيف خشن » اجتمعت فيه خصائص الصحافي الحق : رشاقة الاسلوب وخفّة الروح ودقة الملاحظة وسرعة

الخاطر وبراعة الغمز وسهولة الكرّ والفرّ وبروز الشخصيـة الأدبية . ألّف كتاب «عروة الاتحاد بين أهل الجهاد» وتناساه . وأصدر ديواناً سمّاه «اصفار على اليسار» إمعاناً في التواضع . ينظم الشعر تفكهاً ، لا يدّعي منزلة بين الشعراء . وفي ذلك يقول :

يطالبني بنظم الشعر صحبي ... كـأني من بهاليل الزمـان
إذا خطرت لنفسي خاطرات ... تلجلج في إباحتها لساني
وكم شعر إذا أملاه قلبي ... توقّف عن كتابته بناني
حبست على ثمانيةٍ صغار ... شعوري والقريحة والمعاني

والحق ان في شعره عفوية تدل على اصالة ولكنها لا تلمع إلاّ في جوّ الفكاهة والسخرية كأن مسؤولية «الثمانية الصغار» جعلته يستخف بالمشكلات الأخرى ، وبالأخص مشكلة الشعر والشعراء . اسمعه يناجي المقصّ ويعدّد فضائله :

بجدّك قد (تأستذَ) كلّ لصّ ... وحاز العلم من ذنب المقص ..
فكم أعطيت ألقاباً لغـرٍّ ... له في كل عرس ألف قـرص
فهذا شاعر من غير شـعر ... وهذا كاتب من غير نـص
أيا شيخ الصحافة عش مديداً ... فأنت منزّهٌ عن كل نقـص .

ويؤلمه استهتار المواطنين بالصحافة فيقول :

ما للجرائد أمست بيننا هدفاً ... للطعن آناً وللتجديف أحيانا
هذا يراها بلا زهر ولا ثمر ... وذاك يحسبها زوراً وبهتانـا
وغيره يحسب الآداب شـعوذة ... وقادة الرأي والافهام (زعرانا)
ويلي على أمة ضاع الأديب بها ... وحقه صار (معروفاً واحسانا)

وكتب إلى زميله يوسف الصارمي في «موسم المآدب» :

رصيفي يا أخا العقل الحصيف … وجيبٍ قُدَّ من جيبي النظيف
ليسبحْ غيرنا بالمال سبحاً … كفانا منه تحصيل الرغيف
فتات الزاد تغني عن دجاج … وصحن الارز يغني عن خروف
تسيل على محابرنا دمانا … بصَفّ الحرف لا صفّ الألوف
على حَسَك البراعة قد مشينا … كما تمشي الكماة على السيوف

ونشر في «علمه» قصيدة «وداع وعتاب» قال في مقدمتها ان صيدح ترك الارجنتين دون أن يودّع زملاءه بقافية (أو بلا قافية ..) مع انهم عندما يغادرون البلد يودعونه ويقبلونه . وهذا مطلع القصيدة:

يا من تعشق دنيا غير دنيانا … ليقطف الورد من اغراس لبنانا
نقلت شيطانك الخناس من بلد … لمّا يجد بعده للشعر شيطانا

فأجبته بهذه الأبيات :

أتحسب البعد عن ناديك أسلانا ؟ … يا أعرف الناس لم تعرف طوايانا
نحن الألى حملوا أحبابهم فِكراً … يكاد يُغشى علينا حين تغشانا
في كل كاس رشفناها نناد‌مهم … ولا نبدّلهم بالغيد ندمانا
يقطّر الليل نجوى من سرائرنا … ويشرب الفجر معنى من تحايانا
ما طالعتنا وجوه الحسن في بلد … إلاّ حسبنا وجوه الحسن خلانا
وان نزلنا على لبنان ذكّرنا … انّا تركنا وراء البحر لبنانا
وكم عطفنا على الأطيار نسألها … ان لا تهيج بنا شوقاً وتحنانا
حتى أتانا رسول الشعر من «علم» … يُعيد تذكار ما كنا وما كانا

يفضي بشكواه ، لافظاً ولا (خشنا) كأن (عبداللطيف) استلّ شكوانا
يلومنا كيف نمضي لا نودّعه وقد نودّع أجلافاً (وزعرانا)
تُراه يضمن أن نقوى على سفر بعد العناق، ولا تصطكّ رجلانا ؟

في عام ١٩٥٨ قام بسياحة في الاقطار العربية مدعواً من حكومة المملكة العربية السعودية وحلّ ضيفاً عزيزاً على جميع الحكومات العربية الأخرى . فبعد الرياض زار دمشق وعمّان وبغداد وبيروت والقاهرة واتصل بالمسؤولين في كل عاصمة وسجل أحاديث صحافية هامّة مع ولاة الأمر وقادة الفكر في دنيا العرب ، وبنى على تلك المعلومات دراسات قيّمة بدأ بنشرها في جريدته بعد عودته إلى بونس ايرس عازماً على طبعها بعد ذلك في كتاب . ولكن صعوبات الطباعة باللغة العربية عرقلت مشروعه وأثرت على جريدته « العلم العربي » فلم تعد تصدر في مواعيدها بل تحتجب وتظهر تبعاً لمشيئة المنضد والطبّاع والورّاق ولمروءة المشتركين ... كان الله في عونه .

حسني عبد الملك

الأديب السامي ، روحاً وفكراً وبياناً . وُلد في « حماه » (سوريا) وتثقف في العلوم وآداب اللغة وهاجر إلى الأرجنتين في العقد الثاني من هذا القرن ، ولا نحدد العام لأن المرحوم شاء ان يبقى تاريخ مولـده وتاريخ هجرته سراً . وما استقر في بونس ايرس حتى أصبح محوراً تدور حوله الثقافة العربية في الارجنتين . فاعتز به الأدب وارتفع شأن الصحافة . ترأس تحرير الجريدة السورية اللبنانية في عهد صاحبهـا الأول موسى عزيزه وأنشأ مجلة « الراية » . وفي عام ١٩١٩ وكلت اليه الجامعة السورية إدارة مجلتها . وهي مؤسسة وطنية تحرّرية ، تمخضت بها أحداث الحرب العالمية الأولى في البرازيل والأرجنتين وشيلي ، وكان حسني عبد الملك أمينها في الارجنتين ويدها العاملة ولسانها الناطق . وفي عام ١٩٣٣ أصدر جريدة « الوطن » . ولما تألفت لجنة إغاثة فلسطين لجمع التبرعات بسعي من أكرم زعيتر ورفيقَيه تعيّن حسني سكرتيراً عاماً لها ودام عمله فيها إلى أن أدركته المنية عام ١٩٥٠ .

اقترنت حياة حسني في المهجر بحياة الجوالي العربية فيه ، دائراً معها في جميع أدوارها . واقترن اسمه بكل مظاهر النشاط الأدبي في أنديتها

ومحافلها . كان ذا شخصية قوية تفرض نفسها على الناس ، فعاش محترماً مترفعاً رغم فراغ يده . عرف بسعة المدارك وصفاء الفكر واباء النفس ، ولمع كاتباً وشاعراً وخطيباً . انشاؤه بليغ في النثر ومذهبه قديم في الشعر . يكتب وينظم كمن ينضد اللآلي ويطرحها على محيط لا يفرق بين الزائف والصحيح . ويتشبث بكبريائه فتضطره فروض العيش إلى الهبوط نحو المادة الدنيا . تلك هي المرارة التي غص بها طوال حياته حتى أورثته داءً في القلب وقضت عليه في آخر الأمر .

انضم إلى «الرابطة الأدبية» وعزّز مكانتها وترك فيها أطيب الأثر . وقد أقامت له في ذكرى الاربعين حفلة كبرى في النادي الحمصي حضرها السلك الدبلوماسي ورثاه فيها جميع أعضاء الرابطة الأدبية .

سيف الدين الرحال

كاتب وشاعر وعالِم مصري من طراز الاساتذة الجهابذة . عملاق بروحه وجسده . جبار في صبره على الجهد الطويل ، تأليفاً كان أو ترجمةً أو تحقيقاً أو جدالاً . يقول انه تلقّى العلوم في الأزهر الشريف وتلقّن فنّ الانشاء وأصول الدين من الإمام الشيخ محمد عبده ، وانه تخصص في علوم الكيمياء والكهرباء وفنون الجراحة الجمالية ولم يمارسها في مصر لأنه انصرف بكليته إلى التحرير في الصحف فأسهم في تحرير « اللواء » و « الدستور » و « المؤيد » بعنفٍ أثار عليه غضب السلطات المحتلة ، فاضطر إلى الرحيل عن مصر طلباً للسلامة في عام ١٩١٠ . وفعلاً وصل أستاذنا إلى عاصمة الارجنتين في عام ١٩١٠ وملأ المحيط بنتاجه الأدبي الغزير إلى ان أنشأ جريدة « العلم العثماني » في عام ١٩١٥ ومجلة « الفكاهة » في عام ١٩١٧ ، ومجلة « الشرق » في عام ١٩١٨ ، ورئس تحرير مجلة « الفطرة » منذ عام ١٩٢٠ . وسرعان ما تضلّع بالأدب الاسباني وأسهم في تحرير اربع صحف اسبانية فأتاح له هذا المران تضلّعاً كافياً لعمل طالما أعجز علماء العرب وعلماء الاسبان ، وهو ترجمة القرآن الكريم إلى اللغة الاسبانية ، ترجمة أمينة على المعاني ، حريصةً على جمال المباني يريدها ان تنتزع إعجاب شعوب اميركا

اللاتينية بالتراث العربي وتضفي على المغتربين العرب كرامة معنوية تشمل ذراريهم فينجو الآباء من ازدراء أبنائهم مواليد المهجر .

هذه رؤوس أقلام من سيرة فريدة بين السيَر ، نقف عندها طويلاً بنوع استثنائي لأنها حالة استثنائية ، فهي تثير فضول كل قارئ متى علم ان الرحال مصري ، والمصري لا يهاجر من وادي النيل إلاّ سائحاً عابراً . ومتى علم انه عمّر إلى ما بعد المائة عام ولم يزل في عافية ووعي يُحسد عليهما . ومتى علم ان له سلوكاً حياتياً غير مألوف جعل منه الرجل اللغز ، والأديب النكتة ، والمستشار العام لكل طالب معرفة أو نصيحة أو فتوى في عاصمة الارجنتين .

كنا في بونس ايرس من جلاّسه المقرّبين ونشهد ان الرجل موسوعة علوم وآداب عربية واختبارات صناعية وطرافات فكاهية ، وانه المهاجر الوحيد من رعايا الدولة المصرية في الارجنتين ، وانه الوحيد بين الكتّاب القدامى الذي يعيش عصره وعصر السلف الصالح معاً ، وانه الوحيد بين العلماء اللغويين الذي كانت تؤهله ثقافته العربية وثقافته الاسبانية إلى ترجمة الكتاب العزيز بتوفيق .

قرأنا شهادتين بحقّه . الأولى كتبها الياس قنصل في جريدة « الفطرة » عدد تشرين الأول عام ١٩٤٣ :

« إذا فرضنا ان معاجم اللغة العربية ضاعت جميعاً وأرادت حكومة من حكومات الضاد ان تعهد إلى رجل واحد بأن يضع قاموساً جامعاً لأم اللغات لاستطاع الاستاذ سيف الدين الرحال القيام بهذه المهمة . فقد وعى في صدره أسرار اللغة . فما تخفى عليه كلمة من الكلمات مهما صعبت ، ولا تفوته صيغةٌ من الصيغ وإن قلّ استعمالها » .

والشهادة الثانية من الامير شكيب ارسلان نشرتها جريدة « العلم العربي » في عدد ايلول عام ١٩٦٣ :

« ان الاستاذ الرحّال علاّمة في القواعد ، لا أجد أعلم منه في

الجوالي العربية الاميركية على الاطلاق ، وانه ذو القلم الساحر والبرهان الباهر . وانه السيف القاطع الباتر . وهو ذو فضل علينا ، اذ من القديم بمجرد اتفاقنا في المبدأ كان ينتصر لنـا ويناضل عنّا في كل موقف » .

لا نحتاج إلى شهادات أخرى لتأييد مكانة الاستاذ رحال كوطني مجاهد وكفقيه في دينه ولغته ، لا يعوزه العلم والفهم ان تصدى لترجمة معاني الكتاب المنزّل . ولكن الدكتورة « بنت الشاطئ » كتبت في جريـدة « الاهرام » ابحاثاً مطولة عن لغة القرآن الكريم أكّدت فيها رداءة جميع الترجمات التي صدرت حتى اليوم من العربية إلى اللغات الاجنبيـة ، وقالت ان جميع المترجمين كانوا من المستشرقين أو من العرب الذين لا يحسنون اللغة العربية . فهل سيف الدين الرحال من هؤلاء يا تُرى ؟

لقد حملنا إلى حضرة الدكتورة شهادة الامير شكيب ارسلان متمنّين عليها ان لا تُعمّم حكمها على جميع المترجمين ، لأن التعميم يُفسده ، ورجوناها أن تُنصف الاستاذ رحّال فلم تعبأ برجائنا .

إن سيف الدين الرحّال في غربته وفقره قد ضحّى بجهد السنين لعمل مرهق لا يكسب منه غير رضى ربه ورضى أمته عنه ، فكان يتوقّع غير هذا النكران من صحافة بلده ، وغير هذا الاهمال من الدول العربية جمعاء . كان يتوقّع أن تطبع الترجمة بمال المسلمين عامةً ومـال المهاجرين خاصة وان توزع على جميع معاهد الثقافة الاميركية ليطلعوا على حقيقة الدين الاسلامي — هدية الله إلى الانسان — (التعبير لالياس قنصل) ، وان تُكلل هامة المترجم بهالة المجد والشرف ، ويُرصع صدره بوسام الاستحقاق .

ما كان الرحّال يجهل ان نقل البيان المنزل إلى ما يضاهيه في السحر والابداع في اللغة الاسبانية أمر مستحيل . ولكنه لم يتصدّ الاّ لنقل المعاني مع تجويد البيان الاسباني قدر المستطاع . وقد قرأ ترجمة اسبانية سبقته فآنس في نفسه القدرة على الإتيان بأحسن منها فأقدم على العمل مستعيناً بألمعيـة

الدكتور « سانتياغو بيرالتا » محافظ العاصمة السابق وصديق العرب وصاحب كتاب « السوريون في الارجنتين » . ولمّا أنجز الترجمة وكتب مقدمة لها ١٧٠ صفحة وذيّل الآيات بشروح وتحاليل طويلة لا يسعها مجلّد واحد ، عزم على اصدارها في ثلاثة أجزاء . واستنفر رجال المبرّات لتأمين نفقات الطبع فلبّاه السيد الاريحي ابراهيم صالح ودفع وحـده تكاليف الجزء الأول . ولم يتقدّم بعد السيد صالح مَن يدفع تكاليف الجزء الثاني والثالث . فأهمل المشروع ومات منذ عشر سنوات . « لو أن الرحّال ترجم رواية « روكمبول » بدلاً من القرآن الكريم لتهافت عليه الناشرون وعاش من ريع الرواية أعواماً » . هذا ما يقوله الياس قنصل تعليقاً على هذه المأساة .

وهنا لا بدّ لنا من استطراد يضع الأمور في مواضعها ويُعطي ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ان الرحّال لم يكن أول من ترجم الكتاب العزيز إلى الاسبانية . فلقد سبقه المهاجر الغيور أحمد عبود صاحب المكتبة العربية الوحيدة في بونس ايرس . فعهد بالترجمة إلى أديب معروف اسمه « رافايل كاسنيّانو » ونقده اجرة العمل ثم طبعه على نفقته الخاصة طبعة فاخرة في مجلد واحد صفحاته ٦٤٨ . وكان الاستاذ الرحال أول المعجبين بهذه الطبعة ، إذ نشر في مجلة « التمدن الاسلامي »(١) تقريظاً لها قال فيه : « اني أوجه التهنئة إلى كل عربي كافةً وإلى الاستاذ عبود خاصة ، مع افتخاري به باعتباره من الرجال الافذاذ الذين يعملون لإشهار الاسم العربي بين الاجانب » . ويعود إلى التقريظ في مجلة « العرفان » (١٩٥٥ الجزء السابع) فيقول : « ان الاستاذ أحمد عبود قد نشر بلغة الاسبان عدداً من المؤلفات التي تخدم المدنية العربية والأدب العربي ولا تقل عن ١٨ سفراً كان فيها مثال الناشر الفذ المجتهد . وها هو اليوم يلقي على العاملين درساً جديداً في اصدار طبعة القرآن النفيسـة

---

١ ربيع الثاني ١٣٧٤ عدد ٥ — ٨ .

بالاسبانية » . وللتعريف بهذا الناشر الفاضل نقول ان أحمد عبود لبناني من قرية « عنقون » بالقرب من صيدا . وُلد عام ١٩١٠ وهاجر إلى الارجنتين في سن الشباب . فالرحال الذي أثنى على طبعة الاستاذ عبود لم يقل رأيه في الترجمة ، ولكنه تطوّع للقيام بترجمة غيرها فكأنه أعلن عن امكان الارتفاع بالترجمة إلى مستوى أعلى ، وذلك ليس بقلم أجنبي « لا يحسن العربية كما تقول بنت الشاطئ » بل بقلم عالم عربي فقيه لا تخفى عليه خافية من أسرار اللغة ولا يفوته أصل من أصول الدين الاسلامي .

أساساً يوجد فتوى بتحريم ترجمة القرآن الكريم . وما كنّا نصدّق انها موجودة لولا اننا قرأنا نص الفتوى في مجلة الازهر المصرية منذ شهور . ولا شك بأن الدكتورة بنت الشاطئ قد قرأتها أيضاً ولكنها لم تهتم بالتحريم بل حصرتْ همّها في البحث عن نوع الترجمة ودرجة التوفيق والامانة فيها . أما استاذنا الرحّال فما اخاله يرتعد من هذه الفتوى أو يحسبها عقبة تثنيه عن قصده فقد يكون حاملاً في جيبه فتوى تناقضها ، استعداداً لمعركة يخوضها مع أي إمام كان غير هيّاب ولاوجل. أما نحن فلسنا طرفاً في المعركة على أي حال من الأحوال .

ولنعد إلى سيرة الاستاذ رحّال لنقول ما نعرفه عنها مع الاشارة إلى ما نجهله ، أي ما يريد أستاذنا أن نجهله .

تاريخ مولده كان أول الأسرار التي لم يبح لنا بها . نذكر جوابه على سؤالنا في آخر اجتماع كان لنا معه عام ١٩٥٣ : « لماذا هذا الالحاح ؟ ألست ذاهباً إلى مصر ؟ هناك تسأل أبا الهول .. » . ولكننا فوجئنا بخبر ورد في رسائل أصدقائنا من بونس ايرس عام ١٩٦٢ وهو انهم احتفلوا ببلوغ الرحّال الكبير مابة سنة ، وكان الاحتفال بحضوره وحضور أصحاب الصحف . فارتحنا إلى هذه المظاهرة وصرنا على بينة من عمر الاستاذ اليوم . سنتان بعد المابة . قد يكون تاريخ مولده عام

١٨٦٢ ، ويكون عمره عند وصوله إلى الارجنتين ٥٣ عاماً ، أي عمر الرجل الشبعان من اختبارات الحياة وتجاريبها ، المتأصلة جذوره في المحيط الذي تربّى فيه وأنفق عليه قوى الشباب ، والذي لا تقتلعه منه نزوة طيش بـل هي القوة القاهرة الـتي اقتلعته وقذفت بـه إلى المهجر الاميركي .

فما هي الاحداث التي تصرفت بمجرى حياته على هذا الشكل ؟.. إنه يهذر في كل موضوع إلاّ هـذا . وقد أدركنا ان تكرار السؤال كان يزعجه ولا يُخرجه من التُقية . فصرنا نتحاشى العودة اليه .

ولكننا نلاحظ ونسمع ونستنتج . الرجل عاصر جمال الدين الافغاني ومدرسته الثورية ، وتتلمذ على الشيخ المجدد الإمام محمد عبده واشترك في المعارك السياسية العنيفة التي ثارت في ذلك العهد ، ثم غادر مصر في ذات السنة المشؤومة التي وقعت فيها حادثة بطرس باشا غالي واتّهم بها رجال حزب معيّن طاردتهم السلطات وقتئذٍ . أفلا يكون لخروج الرحال من مصر صلة بتلك المطاردة ؟

هناك حكاية جديرة بالتصديق رواها أحد رفاقه الفارّين من مصر على اثر تلك الحادثة إلى فلسطين ، هو السيد « امين العقاد » الذي لجأ إلى مدينة نابلس وتزوج وابتنى فيها . قال : ان سيف الدين كان من أعضاء الحزب المتهم وانه أبى الاقامة في فلسطين وآثر الهجرة إلى العالم الجديد في سنة الحادثة أي عام ١٩١٠ . وقوله هذا نقلته زوجته إلى صديقة لها هي قرينة أحد أصدقائنا الثقات في نابلس . فإن صحت الرواية كانت تفسيراً لحرص الرحّال على كتمانها . ونحن نُرجح صحتها بناءً على مستند آخر في يدنا ، هو قول الأمير شكيب ارسلان عن « الاتفاق في المبدأ وفي الموقف بينه وبين الاستاذ الرحّال » ، ففيه إشارة شفافة لا تختفي وراءها جوهر المبدأ ولا نوع الموقف اللذين كانا متفقين عليهما ، إذ لكل منهما في مناهج الدعوة الاسلامية تاريخ سابق واجتهاد لاحق .

وماذا على زعيم متزمت في سويسرا إن تعاون مع زعيم متزمت مثله في الأرجنتين ؟

ومستند ثالث يزيد في كفة الترجيح هو نكتة رواها الشاعر فرحات في مذكراته التي تنشرها مجلة « الشرق » في سان باولو ، وهي تُسلّط النور على عقيدة ثابتة وعلى عقدة مزمنة في نفس استاذنا الرحال . قال فرحات : « في عام ١٩٣٣ قمت برحلة إلى الارجنتين مع الشاعر القروي تلبيةً لدعوة الجوالي العربية التي نظّمت مهرجاناً رسمياً لتكريم ذكرى ملك العراق فيصل الأول وطلبتْ منّا الاشتراك به . فلمّا وصلنا إلى بونس ايرس استقبلتنا الجماهير بالهتاف ورحّبت بنا الصحف العربية ، وكان أجمل ترحيب هو مقال نشرته الجريدة السورية اللبنانية . ولكنها نشرت في الصفحة المقابلة للمقال بياناً بتوقيع سيف الدين الرحال هذا نصه :

« انذار وتحذير للمسلمين بألاّ يستقبلوا الشاعر فرحات وان لا يصافحوه ، لأنه يربّي الخنازير ويتاجر بها في البرازيل » .

اننا لا نأخذ هذا الانذار على محمل الجدّ بل نظن ان الرحّال كتبه وهو يضحك كما قرأه فرحات وهو يضحك . ولكن الفتنة بين شاعرين باسم المذهب لا يُبارَك من يوقظها في صدور الدهماء .

إن سيرة الرحّال في الارجنتين منذ أربع وخمسين سنة إلى اليوم هي سيرة أديب حق ، يرتزق من مؤهلاته ويفرض احترامه على كل من يتعامل معه . كان مورد التحرير في الصحف كافياً لأوده يوم كانت تلك الصحف في رواج وازدهار . فلما ساء حالها وشحّت مواردها عمل الرحال قليلاً في الصحف الاسبانية ولكنها لم تفِ بحاجته ، ولم تشغل جميع أوقاته . فأخذ يطيل جلسته في المقهى ويكرّس وقته الشاعر

من الصباح حتى الظهر للمنادمة والمناقشة في شؤون السياسة والادب مع طائفة من خلصائه . ودام هذا الحال سنين بعد سنين حتى أصبح ذلك الركن في مقهى شارع «كوربانتس» محل إقامته الوحيد المعروف في بونس ايرس . عنوانه عنوان المقهى . ورقم هاتف المقهى رقمه . أما منزله الخاص حيث يقطن ويبيت فسرّ من أعمق الأسرار لم يتوصل أحد إلى كشفه مهما تحرّى . وقد دار على الالسنة انه يتستّر على معصية في مساكنة غير زوجية ، وانه رغم سنّه رحال غزّال .. يتهتك في الجمال . أما هو فكان يسمع ولا يبالي . كالجبل لا تهزّه الريح .

تلك الندوات الحلوة حضرتُ عدداً منها بين عام ١٩٤٨ و ١٩٥٣ ، وسمعتُ الرحّال يحاضر فيفيد ويمازح فيُضحك وينقد فيصيب المرمى . إنما كان أحياناً يحابي ويجامل في الأحكام . قرأ مرة في مجلة برازيلية مقالاً لناقد معروف أخذ عليّ أخطاءً لغوية وقعتْ في ديواني الأول . فغضب وطلب ورقاً وقلم رصاص وأخذ يكتب بالحرف الكبير رداً على الناقد ، ولبثنا نحن نبري الاقلام وندفع اليه بالطلاحي حتى لا يتوقف عن الكتابة . هو يكتب منتصب الرأس والظهر وذراعاه مرفوعتان إلى مستوى العنق والطلحية منبسطة على راحته اليسرى في الهواء مستندة إلى كفّه . وقد استغرق ثلاث ساعات في كتابة سبعين صفحة . فأخذنا نقرأها إلى الصفحة العاشرة ثم انفضّت الجلسة وحملت الأوراق إلى منزلي دون أن أعود اليها فلم أقرأ بقية الصفحات إلى اليوم . ذلك لأني خجلت أمام سيبويه من أن يكون مقامي في السماء بينما هو يزحف على الأرض . قواعده أخطاء وأخطائي قواعد . وعلى النحو والصرف العفاء .

ومرة ألقى علينا المطولات من قصائده ، وهو في الشعر مكثار عيّار . وسألنا رأينا في القصيدة الأولى . فأجابه شاعر ناشئ كان بيننا : «انك لم تحلّق» وبعدما أنشدنا القصيدة الثانية والثالثة سمع الجواب نفسه «انك لم تحلّق» فصاح بالمعترض : «انت حلاّق والاّ إيه ؟.. تفهم بالحلاقة

أكثر مما تفهم بالشعر » .

وكان يباسط كل قادم جديد إلى ندوته بقوله : « ليكن بعلمك ان مجلسي « يُنقد » بالنقود لا بالانتقاد » . وفي الواقع كان أحياناً يفرض جزية على جلاّسه تختلف حسب حاجته ، فتكون فنجان قهوة أو وجبة طعام أو « تحية » للجيب . والسعيد منا من كانت الجزية تقع عليه . أما اليوم وقد جاوزت سنّه المائة ، فالمعقول انه تقاعد واعتزل الندوات في المقهى والخطب في الحفلات ، وان حاجاته مقضيّة بعناية خاصة من السفارة المصرية في بونس ايرس . لقد وفّى قسطه للعلى وهو أحق الناس اليوم بشيخوخة مطمئنة مكرّمة .

* * *

مضت شهور على كتابة هذا الفصل وعلى تقديمه إلى المطبعة ، ولكن قبل أن تتلقفه الآلة تلقّينا من صديقنا الشهم الأديب الشهير عبد اللطيف اليونس نزيل الارجنتين حالياً بياناً كتبه أستاذنا سيف الدين بخطه عن سيرة حياته نزولاً عند رغبة الاستاذ اليونس ، صديقه الحميم وضيف الجالية الكريم ، الذي نسجّل له هنا آية الشكر على هذا المسعى الحميد المفيد .

جاء في هذا البيان الثمين ما يأتي :

« وُلد سيف الدين رحّال في « بولاق » (القاهرة) في ٢٩ مايو عام ١٨٦٣ من والدَين ينتميان إلى أسرة السيوفي المشهورة في مصر وسوريا . وهو من نسل الحفيد الخامس للنبي العربي عبد القادر الجبلي الكيلاني (كذا) . وتلقى علومه العربية كالصرف والنحو والبيان والبديع وغيرها على المرحوم الاستاذ الكبير الشيخ محمد العدوي . وعلومه الدينية كالفقه وغيرهما على المرحوم الاستاذ الإمام الشيخ محمد عبده مفتي الديار المصرية سابقاً . ولم يكتف بهذه العلوم بل زاد عليها دروس الكيمياء

والطبيعة اللتين نبغ فيهما واستخرج منهما اختراعات شتى نال عنها شهادات من حكومة الارجنتين . وقد افرغ في مدة حياته مجهوداً في تعليم طبّ التماثل (هوبياتيه) وله فيه مؤلفات كثيرة لم يُسعده الزمان بطبعها . ولو حسنتْ نيته انه سيطبعها ويفيد جمهور المرضى بما فيها من طبٌ حقيقي . وقد زار عواصم بلاد الغرب وعواصم الجمهوريات الاميركية وختم الزيارات بالاقامة في الجمهورية الارجنتينية . ومن سوء الحظ أعلنت الحرب العمومية بين بريطانيا وحليفاتها والجرمان وكانت الدولة العثمانية بجانب الجرمان ولم يكن لها في الارجنتين جرائد تدفع عنها وتنهي إلى الشعب حقها بعدم الانحياز للحليفات ، فأسس صحيفة « العلم العثماني » التي كان يصدرها مرة بالعربي ومرة بالاسباني وأخذ يكتب المقالات عن تاريخ الحليفات الاسود المشحون بالاعتداءات على الشعوب الحرّة بقصد الاستبداد وبنيّة الاستعمار الخ ... »

لا نسترسل في نقل كلام صاحب السيرة قبل تنبيه القارئ إلى موضع العجب في هذه الرواية المبتورة . كيف قفز الراوي من عهد الدراسة في في مصر حوالي عام ١٨٨٠ إلى عهد الهجرة في الارجنتين حوالي عام ١٩١٤، وبين العهدين نشاط الشباب الناضج مدة اربعة وثلاثين عاماً قضاها سيف الدين في مصر ولم يشر بكلمة إلى سيرته مع انها أهم مراحل الحياة ، ولا إلى أسباب هجرته إلى اميركا وهي أكثر ما يُعنينا في هذه الدراسة . وقد كتبنا عن تلك الفترة في الصفحات السابقة المعلومات القليلة التي جمعناها من ابواب التحقيق والتخمين ، وتوقعنا دعمها الآن باقوال المترجَم ذاته فخاب الأمل .

أمّا عن سيرته في المهجر الارجنتيني خلال السنوات الخمسين التي قضاها فيه فقد توسّع في شرح أعماله المختلفة من تحرير جرائد ومجلات إلى تأسيس أحزاب وجميعات إلى عقد مؤتمرات قومية عربية ، إلى تأليف كتاب عن شؤون الحياة ، ولم يُشر إلى العمل الجبّار الذي توّج به

حياته إلاّ في السطر الأخير من البيان حيث قال : « وقد ترجم سيف الدين القرآن الكريم ترجمة عالية نشر منها الجزء الاول » . كأنه الآن بعد أن جاوز المائة عام لم يعدْ يقدر الاشياء بقدرها الحقيقي . فهو يفاخر بمقالات يدافع فيها عن سلطان بني عثمان أو يتحدى فيها دولة الاميركان كما يفاخر بانتخابه ناموساً لتلك الجمعية أو رئيساً لذلك المؤتمر أكثر مما يفاخر بترجمة القرآن إلى الاسبانية أي بالعمل الذي خلّد ذكره وفضله .

وليعذرنا القارئ إن لم ننقل بقية البيان بحروفه ، إذ إنّ في النقل الحرفي إساءةً إلى مقام الرجل الجليل وتشويهاً لماضيه المجيد ، فهو يكتب ذكريات يختلط فيها الواقع بالخيال ويذكر مواقف بطولة « دون كيشوتية » يفهم منها القارئ ان الكاتب في عتوّ سِنّه قد دخل في دور طفولة جديدة ، تشفع له وتنفي عنه سوء القصد وسهام النقد ، انه معذور على ما قال ومشكور على كل حال .

الامير امين مجيد ارسلان

(١٨٦٨ – ١٩٤٢)

هو من سلالة الامير ارسلان بن مالك اللخمي المنذري ومن الأسرة الاقطاعية التي أنجبت زعماء للبنان وامراءً للبيان[١] . وُلد في الشويفات (قرب بيروت) عام ١٨٦٨ وتعلّم في الكلية اليسوعية وفي مدرسة الحكمة في بيروت ، ثم أكمل التحصيل في العلوم السياسية في باريس وانتظم في سلك الوظائف الحكومية وتقلب فيها إلى أن بلغ الثلاثين من عمره . فاعترضته صعوبات مسلكية مع متصرّف ذلك العهد « نعوم باشا » ومشكلات عائلية تتعلق بزواجه من إحدى نسيباته الاميرات ، فآثر الابتعاد عن لبنان وشغل منصب قنصل عام للدولة العثمانية في بروكسل وبوردو ثم في باريس ، وتعاون مع الزعيم الشعبي ليون بلوم إلى أن آل الحكم في تركيا إلى حزب الاتحاد والترقي بعد اعلان الدستور عام ١٩٠٨

---

(١) كان صديقنا الأديب البحاثة عجاج نويهض قد نشر في جريدة « نهضة العرب » الصادرة في ديترويت ، متشيغن ، سلسلة فصول عن سيرة الامير أمين ارسلان . وعقبه نجله خلدون نويهض بثمانية فصول أخرى نشرها في الجريدة ذاتها عام ١٩٦٠ بعد أن زار الارجنتين وتحقق سيرة الامير من عشرائه ومعاصريه . وقد أتحفنا الاستاذ عجاج بخلاصة تلك الابحاث في رسالة تكرم علينا بها ، فكانت مرجعاً اعتمدناه في هذه الدراسة شاكرين .

وخشي عاقبة دعوتهم الطورانية فطلب نقله إلى الارجنتين حيث أنشئت العلاقات السياسية للمرة الأولى بين حكومتها والحكومة العثمانية . فحضر إلى بونس ايرس عام ١٩١٠ وتولى القنصلية العامة فيها ، وعندئذ عرفت الجوالي العربية فيه عميداً يحميها ويُحسن توجيهها وكاتباً ضليعاً في الأدب والسياسة والتاريخ يؤلّف وينشر كل ما يعزّز مكانتها ويرفع شأنها .

لم يطل به المقام في المنصب القنصلي حتى أعلنت الحرب العالمية عام ١٩١٤ وانحازت تركيا إلى المانيا فبادر للاستقالة من منصبه طوعاً لنزعته العربية وانصرف بكليته إلى حرفة الأدب . وكان قد تعلّم اللغة الاسبانية وملك ناصيتها فأنشأ مجلة « نوطا » وبعدها مجلة « القلم الازرق » بالاسبانية بين عام ١٩١٥ و١٩٢٥ وأخذ يكتب المقالات الافتتاحية في كبريات الصحف المحلية « لا برنسا . لا ناسيون . الموندو » وكلها ابحاث قيّمة في العلم والسياسة والاجتماع والتاريخ يتمجد فيها التراث العربي .

وفي عام ١٩٢٦ أصدر جريدة « الاستقلال » باللغة العربية لتكون لسان حال العرب المهاجرين في الدفاع عن العرب المقيمين ، قياماً بقسطهم من الجهاد في الثورات العربية التي اندلعت في سوريا وفلسطين منذ سنة ١٩٢٥ . وبعد عشر سنوات حوّل الجريدة إلى مجلة ووكل أمرها إلى جمعية درزية أسسها باسم « الجمعية الخيرية المعروفية » وبقي مشرفاً عليها إلى آخر حياته . وما زالت الجمعية تتولى اصدار المجلة من حين إلى حين بلا انتظام ، وفاءً بعهد موئسسها العظيم .

عاش الامير امين في الأرجنتين ثلاثة وثلاثين عاماً ، شيّد في خلالها هرماً خالداً للكرامة العربية بقلمه العربي وبقلمه الاسباني . وكان انتاجه الاسباني أكثر غزارة وفائدة للمهاجرين العرب من الانتاج العربي فهو لم ينشر بالعربية سوى ثلاثة كتب ألّفها قبل هجرته بين عام ١٨٩٠ و عام ١٩٠٠ « تاريخ نابوليون — أسرار القصور — حقوق الملل ، ومعاهدات الدول » ، ولم يتعرف المهجر إلاّ على رواية « أسرار

القصور » التي طبعت للمرة الثالثة في البرازيل وللمرة الرابعة في الارجنتين أما مؤلفاته باللغة الاسبانية فبلغ عددها اثني عشر ، منها خمس مسرحيات « السلطانة ، والمحرر سان مرتين ، الحب والسياسة ، كان مكتوباً ، حقوق المرأة المسلمة » ، وسبعة كتب هي مذكرات وروايات غرامية وابحاث تاريخية اشتهرت كلها وراجت وكانت الدعائم الأولى في بناء مجده الأدبي . فكتابه « الحقيقة حول حريم القصور » طبع سبع مرات في حياته وما زال يُطبع ، و « مذكرات شرقية » هي مذكراته السياسية الشخصية طبع بالاسبانية ثلاث مرات وبالبرتغالية مرةً مترجماً بقلم الاستاذ موسى كريم في سان باولو ، وكتابه « أسرار الشرق » لقي الرواج ذاته وطبع ثلاث طبعات ، ومثله كتاب « الثورة السورية على السلطة الفرنسية » . وله كتاب ثمين هو « ملخص تاريخ العرب » ، وكتاب طريف هو « حقيقة غرام بيير لوتي » ، وكتاب روائي هو « آخر الغرام » . وله كتاب واحد لم يزل مخطوطاً وهو خطير في بابه « أخبار تركيا الفتاة » ورد ذكره في المذكرات ، ولم يظهر إلى الوجود كأنه تاه مع بقية مخلفاته التي تاهت في بونس ايرس ، ومع مكتبته العظيمة التي تبعثرت بعد وفاته .

هذه المعلومات استقيناها من معين الاستاذ عجاج نويهض وهو البحاثة المحقق الذي يقول عن الامير امين : « انه اتصف بالعلم ودقة البحث واتقان التأليف . وكان رقيق الحاشية عالي النمط في الاخلاق ، وفياً لأصدقائه غيوراً على مناصرة الضعيف أيّاً كان . كريم النفس يُحب مجالسة العلماء ، فكان يعقد في بيته مجلساً كل اسبوع يحضره جلّة القوم ونخبة الأدباء . وكان خطيباً محاضراً من الطراز الأول تُذكر بالاعجاب محاضراته في جامعة لابلاتا الكبرى » . فلما حللنا في بونس ايرس آخر عام ١٩٤٧ سمعنا من أفواه المهاجرين جميعاً ما يزكّي قول الاستاذ نويهض ويزيد عليه في وصف المنزلة العالية التي كانت للأمير بين رؤساء

الحكومات واساطين السياسة وأعلام الأدب في الارجنتين ، وعرفنا ان الجالية العربية التي قامت وقعدت لوفاته ونظمت حفلاً كبيراً في مسرح استرال لرثائه ، لم تزل على ولائها لعميدها تجتمع كل عام في ذكراه حول قبره وتنثر عليه الرياحين والتآبين . وكان ذلك القبر عارة ألحدوا الفقيد فيه ريثما يتم بناء الضريح الخاص به ، وقد تأخر البناء خمس سنوات بسبب تلكؤ المتبرعين عن تغطية النفقات . ولما أنجزوه في مطلع عام ١٩٤٨ نقلوا اليه رفات الفقيد باحتفال مهيب فتجدد المأتم وتعاقب الخطباء في الكلام أمام الضريح الجديد . وكنا في عداد المتكلمين :

أرهفوا السمع عند نقل رفاته   هل أفاق الأمير بعد سباته ؟
ليس بدعاً إذا رآكم قياماً   حوله أن يمدّكم بعظاته
أيّ قبرٍ نقلتموه اليه   لا يضاهي قبراً بناه لذاته
من تراب الجهاد ، من صخرة الاخلاق ، من فيض قلبه وفُتاته
فاحملوه على الرؤوس رميماً   انه كان رأسكم في حياته
وادفنوه إذا ابتغيتم رضاه   بين أقلامه وبين دواته
فهناك الامجاد ترنو اليه   ويُطل الخلود من شرفاته
أذكرتم بلاءه وهو بالٍ   وخطبتم على عميق سكاته؟
لكم الاجرُ . إنّ ديناً وفيتم   قَبضتهُ مَظنّةٌ من رفاته
يا لهزء الاقدار ، تقسو على الحيّ ، وتحنو عليه بعد وفاته !
حين يطوي الحفيرُ مَن كان طوداً   يملأ العين من جميع جهاته

جبران مسوح

أديب سوري من حماه ، ومن روّاد الهجرة إلى الارجنتين . لأدبه شخصية تميزه عن سائر الأدباء . فهو من حيث الاسلوب ممتع ، ومن حيث الموضوع منطقي مقنع . له قدرة خاصة على تبسيط المعضلات أمام القارئ فما أن يلامس ذهنك بالكلمات البسيطة الناعمة حتى يسطو على فهمك ويستأثر بلبك . ويا لحظ القضية التي ينتدب نفسه أو يندبه غيره للدفاع عنها !..

قبل أن يطرق المهجر وتطير شهرته إلى الاقطار ككاتب عبقـري وكمعلق سياسي فذ ، كان معروفاً بأدبه في سوريا ، يصدر في حماه جريدة « الاخاء » . فلما وصل إلى الأرجنتين وحلّ في مدينة توكومان أعاد إصدار « الاخاء » عام ١٩٢٢ . ثم حرر في جريدة « الشبيبة المتحدة » في العام التالي . وعام ١٩٢٦ اشترك مع خطيب العصر المرحوم حبيب اسطفان في اصدار مجلة « التمدن » . وانتقل بعد ذلك إلى العاصمة وأصدر فيها جريدة « الزوبعة » وجريدة « المختصر » منذ عام ١٩٣٩ . وفي السنوات الأخيرة اعتزل الصحافة كمهنة ولم يعتزل التحرير فيها كمتطوع . وقد اختار جريدة السلام ميداناً لقلمه ، ينشر فيها مقالاته ثم يُعممها على الصحف الكبرى في الوطن والمهاجر . وفي تلك الأثناء عمد إلى التأليف

وأصدر الكتاب الأول عام ١٩٤٧ والكتاب الثاني عام ١٩٤٨ في موضوع العقيدة الماركسية .

لم يمنعه هذا الاتجاه الواقعي وهذا الانتاج الغزير من الاهتمام بالأدب الفنّي والشعر الخيالي . فانضم إلى اخوان « الرابطة الأدبية » تنشيطاً لهم وغيرة منه على سمعة الأدب المهجري ، ورافق نشاطهم بعين واع مختبر ، وذوق نقادة حصيف .

بعد ما صدر ديواني الأول « النوافل » في بونس ايرس عام ١٩٤٨ وبينما كان النقاد يغدقون عليه آيات الثناء ، جاءني منه هذا التعليق الصريح المنصف :

« إنك شاعر — كل الشاعر — . فلو صدر ديوانك من عشر سنوات لكان في مقدمة دواوين شعرائنا المعاصرين . غير ان هذه السنوات العشر كانت كلها ثورات وانقلابات تطور معها التفكير البشري ، وصار يجب ان ندرس الحياة من جديد لنفهمها كما نرى نحن لا كما يراها الأولون . واني أرجوك ان تقول الشعر الذي يبحث عنك لا الذي أنت تبحث عنه ، لكي تكون الشاعر الذي ينطق بلسان الأمة ويمثل ما في روحها من ثورة وما في صدرها من أمل » .

مباركة هي العقول المتحررة والالسنة المتطهرة التي لا تقول إلاّ ما تعتقد. لولاها لما كان نور يضيء سبيل الأدباء ، ويقشع الغرور عن عيون الشعراء .

احمد سليمان الاحمد

(١٩٢٦)

شاعر الشباب المجدد . لم نفرد لأدبه فصلاً خاصاً في الطبعة الأولى من هذا الكتاب لأننا آلينا قصر ابحاثنا على الأدباء الذين كوّنوا الأدب المهجري أو تكوّنوا منه . فأغفلنا نتاج الأدباء العابرين وهو كثير . فما بالنا اليوم نناقض الخطة المرسومة ونولي اهتمامنا شاعراً لم يستقر في الأرجنتين أكثر من عامين ولم ينشر إلاّ قصائد معدودة ؟

عذرنا هو أن أحمد سليمان الاحمد اندغم روحاً وذوقاً بأرواح الشعراء المهجريين وأذواقهم ، وأثّر فيهم كما تأثر بهم ، وعمل معهم يداً واحدة في « الرابطة الأدبية » على رفع مستوى الشعر المهجري ، وأحدث في محافل العاصمة حركة ونشاطاً . فان لم نُسجل أثره هذا في كتاب يؤرخ مراحل النهضة الأدبية في الأرجنتين عُدّ كتابنا ناقصاً مجحفاً . لا شأن لنا بما انتجه قبل الهجرة ، ولكن يعنينا ويشرّف أدبنا الالمام بالروائع التي نظمها بين ظهرانينا .

خلال عامين ، بين ١٩٤٩ و ١٩٥٢ ، أصدر شاعرنا جزءين صغيرين

من « الديوان الجديد » في بونس ايرس ، وهيـأ للطبع مجموعة « الشاطئ الأبيض » وتمثيلية « المأمونية » واوبرا غنائية « بياتريس » . وكان قبل ذلك قد نشر في سورية جزءين من ديوان « جبل الالهام » وتمثيلية « مم وزين » وبهذه الآثار الثلاثة بسط شهرته على الأقطار العربية . أما في المهجر فنقول لمن لا يعرفه انه ابن العلامة الشيخ سليمان الأحمد وشقيق الشاعر المشهور بدوي الجبل ، وانه سوري من قرية « السلاطه » في اللاذقية، وخريج الكلية العلمانية في مدينة طرطوس لعام ١٩٤٢ .

الشاعر أحمد يكتب بقلم ساحر ويرسم بريشة مسحورة . تنطلق شاعريته بجناحين : الخيال والموسيقى . جناح يغرّب في دنيا الاحلام ، متعالياً عن كل أفق معروف ، وجناح يشرّق في دنيا الانغام ، ضارباً على أوتار الحروف :

أنقّل قلبيَ بين الزهور   أعلّمه نَهَم النحلـــةِ
أغنّي لقمريّة الدوح شعر انطلاقي ، وأهديه للنسمة
واصفُر لحناً غنوج الظلال   فيرقص طيبٌ على وردة

كان الاستاذ عبد اللطيف اليونس نازلاً في الارجنتين حينما أصدر الشاعر الجزء الأول من « الديوان الجديد » فعلق عليه بما يأتي :

« أحمد سليمان الأحمد وثب بالشعر العربي من مستواه الحالي وثبة تخطى فيها تلك الأساليب القديمة السالفة التي كانت تكبل الفن بقيد من التقليد صفيق ، وطلع على العالم بشعر تضيء من حوله خيالات سابحة وضاء ، ينطلق بها الفكر إلى أبعد الأجواء ، فيقتنص المعاني البكر من مكامنها المجهولة الحصينة ويصوغها في قالب أنيق ، وأسلوب رفيق رشيق ، وتعبير مترف دقيق » :

يا ارتماءَ الاشواق تلتحف الدفْ ، ويا آهتَي رضى وحياءِ
يا اشتهاء العطور سوسنةَ الحقل ، ويا نفحة الشذا من دمائي !

* * *

تمشيتُ اعثر بالذكريات إلى روضنا مثقلاً بالشجن
فوسّدت حبك بين الزهور ومن ثوب عرسك صغتُ الكفن
وروحك عذراء . أمّا الشفاه فأقسم بالطهر .. لا تؤتمن
فيا يقظة الحس ، يا يقظتي ، هلمي ادخلي في ظلام الوسن!

نقول ما اعجب وأسمى هذا الحب الروحاني من فتى يغلي دم الشباب في اعراقه . ويتفجر ماء الحياة من كلماته . وما أبعده عن سرير الشهوات الذي يتمطى عليه شعراؤنا المعاصرون في كل قصيدة ينظمونها حتى خُيل للناس ان الشاعرية والعفاف ضدان لا يجتمعان . ان لكل شاعر أمانيه ، أما شاعرنا :

مناي ، في قلبي صلاة الهوى أذيعها ان ضمّنا معبد
أنتِ على ثغريَ بوح الظما وفي جفوني الحلم الأغيد
أمنية ، أذهلني طيبُها عن قطفها.. عن كل ما أنشد..

أمّا إذا تطرق الوهن إلى أعصابه وخاف مغبة التجربة أمام الحسن الطاغي فيقول :

رفقاً به يا حلوتي ، واخلعي على رؤاه ظلّ أهدابك !
مدّي له كفّكِ .. لا تنفري من وهنه الملقى على بابك

لا تجرحي الكبر على جبهة ما سجدت إلاّ بمحرابك ؟
ما حاجتي بالروض ان لم أصُغْ من ورده ازرار أثوابــك

مرحى لهذا الشعر ، ساحر الألباب ، آسر القلوب . انه اندى من الندى وأعطر من العطر . استمد جماله من الفن . أمّا فاعليته فقــد استمدها من فيض الاحساس الصادق الدافق عليه . ولولا شعورنا بصدق الشاعر في عاطفته ، ما استطاع الفن وحده ان ينقل إلى قلوبنا انفعالاته ويضعنا تحت رحمة ضحكاته وزفراته وانتفاضاته . لقد قرأنا له قصائد أخرى في موضوعات أخرى ، كلها مستغرقة في الفن والخيال ، ولكنها لا تلاقي عندنا تجاوباً يُذكر لأنها خلت من بساطة الحقيقة وحرارة الصدق . وله قصائد أخرى « قزحية الألوان » نرمقها بطرف العين كما نرمق قوس القزح ونعجب بلألائها وهي بعيدة عن قلوبنا وأفهامنا .

عاد إلى سوريا منذ خمسة عشر عاماً فغاب انتاجه فيها . ثم غــاب شخصه عنها .. هجرة ثانية بعيدة عن سماء الضاد أرادها قصاصاً لنفسه فكانت قصاصاً للشعر العربي المعاصر .

الدكتور جورج صوايا

وُلد في « كفر حاتا » (لبنان) وتلقّى العلوم العـالية في الجامعـة الاميركية في بيروت ونال شهادة الطب من جامعة « ماريلند » . وبينما كان يتابع الدراسة في جامعة « هارفرد » حمله ميله إلى الصحافة على إصدار جريدة باسم « سورية الجديدة » بالاشتراك مع نسيب له . وفي عام ١٩١١ اتجه إلى الارجنتين وحمل فيها لواء الثورة الفكرية القومية وأسس الحزب الوطني العربي عام ١٩١٨ وأصدر جريدة « يقظة العرب » عام ١٩٢٩ . وفي عام ١٩٢٨ أصدر جريدة « الاصلاح » ثم حوّلها إلى مجلة شهرية عاشت إلى ان استنفدت قواه وأمواله فحجبها عام ١٩٣٦ ، ولكنه ظل في جبهة الجهاد الوطني مناراً لابناء الجالية الأحرار وقائداً يوجّه خطاهم إلى طريق العزة والكرامة بمساعيه وخطبه ومقالاته . كانت له مواقف مشهودة على المنابر ، يخطب بالعربية والانكليزية والفرنسية والاسبانية وينظم القصائد الحماسية . وقد جمع شعره في ديوان « همس الشاعر » عام ١٩٢٩ وأتبعه بديوان « الأوراق المتساقطة » في العام الفائت . وقد امتدحه الشاعر القروي بما يستحقه حين قال :

ما نسينا لك الجميل ولن ننسى   تفانيك في سبيل بـلادك

كم مقال حبّرته ودم القلب ... على الطرس نابض في مدادك
جُدت بالثروتين من أجل ... سوريا وآثرتها على أولادك
ما لبسنا الهوان والذل لوكان ... لبعض الملوك بعضُ جهادك

وعندي من الذكريات المستحبة قصيدة داعبته بها عشية سفره إلى لبنان عام ١٩٥٠ وألقيتها في حفلة وداعه . جاء في ختامها :

يا طبيبي وحبيبي ليس في ... طبّك اليوم شفاء لحشايا
وصفةُ الهجران زادت ألمي ... لا تصف للمبتلي شربَ البلايا
لستُ موصيك بما أحتاجه ... حاجتي أنت ، فمالي والوصايا
عد الينا بعد تجديد الصبا ... إن في عودك تجديد صبايا
وردِ الخد بما تمتصه ... من دم الأعناب (أو ريق الصبايا)
ولديك المال بدّدْ شمله ... لا تصن عرض (الريالات البغايا)
طف بلبنان ومثّل أدباً ... مهجريّ الروح تمليه السجايا
واطرح الهمّ على شاطئه ... واعتمدْ في مائه تمح الخطايا
حيّ عنا الحسن في غاداته ... اننا في دولة الحسن رعايا

انتقل إلى رحمة ربه في صيف عام ١٩٥٩ في مدينة توكومان ، وقامت الجالية في بونس ايرس بواجب الوفاء لذكراه . فتألّفت لجنة من خمسة وثلاثين أديباً وصحافياً دعتْ إلى حفلة تأبين كبرى ووضعت لوحة تذكارية على قبره . رحمة الله عليه .

توفيق شماس

تاجر يتذوق الأدب . شاء كرمه أن يعطي أكثر مما يأخذ فأقل من التحصيل وأكثر من الانتاج . ولد في « دوما » (لبنان) وتخرّج في كلية عينطورا وهاجر يافعاً إلى الارجنتين . يستساغ نثره أكثر من شعره فهو في النثر يستجيب إلى سجيته فيجيد المقال . وقد أصدر كتاباً أسماه « المتمردات » فغلب عليه لقب صاحب المتمردات . انخرط في سلك الرابطة الأدبية فكان نعم الرفيق لزملائه ، يتقبل دعابتهم بصدر واسع . فإذا قال إن كتابه « المتمردات » قد نفق أجابه الياس قنصل مؤكداً أنه كان يهدي نسخة منه لكل زبون يشتري شفرة حلاقة جيليت من دكانه . شعره متمرّد من وجوه كثيرة ، يطغى على الصحف المحلية فيكاد لا يخلو منه عدد من أعدادها . على أن فيه رسالة وطنية صادقة ودعوة إلى الاصلاح الاجتماعي . ليس في يدنا الآن شاهد من شعره .

سليم مفرج

من مواليد « بشمزين » (الكورة في لبنان) ومن الرجال المقدّرين لعظائم الاعمال في ميادين العلم والمال ، دون أن يدخلوا مدرسة سوى مدرسة الحياة . لمّا حلّ في الارجنتين عام ١٩٣٠ كان عاجزاً عن حمل الكفتين والكفاح في الميدانين . فلكي يتعلم الأميّ يجب أن يحيا ولكي يحيا يجب أن يرزق . لذلك فُرض على المُهاجر سبيل التجارة أولاً . وكانت فاتحة تجارة صاحبنا في جبال كوردوبا الخضراء الشبيهة بجبال لبنان ، حيث الجو الطبيعي الهادئ يلائم الاجتهاد العقلي والانطلاق الفكري . هناك في إحدى القرى الشامخة أسس متجره الأول وراح يوسع

رقعة تجارته بالمساعي الحثيثة والمخططات البارعة بينما كان يبني ثقافته بالدرس والمطالعة والتأملات . فلم يمض زمن طويل حتى فاجأ الجالية العربية في بونس ايرس بقدوم أديب ناضج وتاجر ناجح ينضم إلى أسرتها ويتفانى في خدمتها .

في بونس ايرس طرق سليم مفرج المشاريع التجارية والصناعية والزراعية من بابها الواسع مستسلماً لطموح غريزيّ فيه ، فغرق في بحر الاشغال إلى أذنيه دون أن يسحب يده من المشاريع العامة . فهو في آن واحد على رأس شركات كبيرة عديدة وفي قلب كل لجنة تتألف لأغراض خيرية أو اجتماعية أو قومية ، وفي طليعة المواكب والمظاهرات الأدبية . هو الذي ترأس وفد الارجنتين إلى مؤتمر المغتربين في بيروت عام ١٩٦٠ وكان قد زار الاقطار العربية عام ١٩٥٤ ، وأسعدني الحظ بالاجتماع به في بيروت في الرحلة الاولى وفي باريس في الرحلة الثانية ، فوجدته كما عرفته مولعاً بالشعر إلى أقصى حد ، يتذوقه كثيراً وينظمه قليلاً . وأجود ما ينظمه هو الشعر المستوحى من وجدانه المنطلق مع سجيته ، لا ذاك الذي يطلب منه أو يفرض عليه في المناسبات . فلما وطئت قدمه تربة لبنان بعد الهجرة الطويلة قال القول البسيط ، العميق في التأثير :

يا ربّ حمدك قد جبرتَ فؤادي	فأريتني أهلي ووجه بلادي
لم يبق لي ربّاه من أمنيـــة	فالآن أطلقني .. بلغت مرادي
رافقتني وأعدتني من غربـــةٍ	وجعلت من خبز الفضيلة زادي
كم طفت في الدنيا وراء سعادةٍ	شدّ الغرور لجوّها منطـادي
واليوم في البلد الحبيب وجدتُها	وكـأنني منها على ميعـادِ
طال البعاد ولم يزل قلبي عـلى	ما كان عند الأهل قبل بعادي
يا نفس تيهي وافرحي وتهللي	أنا بينهم . أنا في حمى أجـدادي

وأثناء وجوده في لبنان كان منزله في بشمزين منتدى الشعراء ومضافة

الأدباء . ومرة راسلته بقصيدة فجاءني جوابه صندوق سفرجل هدية وأبيات شعر هدية :

جاءت رسالتك الّتي أضحتْ حديث المنزل
ما أمّ بيتي زائرٌ صاحٍ بها لم يثمل
أسقيه ذكرك خمرة وأطيل فيك تغزلي
أحببتُ من عهد الحداثة شِعرك الحلو الطلي
أيام كنتُ أرى الحياة قصيدةً لم تكمل
وسنابلَ الآمال لم تُحصد بجدّ المنجل
ما الحبّ يا مولاي إلاّ للحبيب الأول
بحر العلوم ومن رأى بحراً يلوذ بجدول
سأعيد ما رددتُه بالأمسِ وسطَ المحفل
لو ان صيدح زارني امسيةً في منزلي
بالروح كنت أجزْتُه لا قانعاً بسفرجلِ

وها ان مؤتمر المغتربين في بيروت يعود إلى الانعقاد في هذا الصيف ويعود معه أملنا بلقاء جديد في باريس .

ملاتيوس خوري

(١٩١٥)

وُلد في «أدلب» (سوريا) وهاجر إلى الأرجنتين عام ١٩٣١ . وهناك تفتحت مواهبه عن شعلة ذكاء تتأجّج بالعاطفة الوطنية ، وعن لهيب عزيمة يلتهم الأخضر واليابس من الأعمال الشاقة في حقول التجارة والأدب والخدمة العامة . أخلص لوطنه المختار فقسّم بينهما ثمرة جهوده

ومساعيه . فأغنى الخزانة العربية بمؤلّفات « إلى المجد يا أبناء النور — سان مارتين — قادة السلام العالمي » وبترجمات : « الف ليلة وليلة الأرجنتينية — غاية حياتي لايفا بيرون — وحبيب اسطفان في حياتي لارملته ماري موراندبرا » ، وأهدى الخزانة الاسبانية سبعة كتب بثّ فيها الدعاوة للأمة العربية ولقضية فلسطين . وقد أحسنت حكومة الارجنتين جزاءَه بتعيينه سفيراً ثقافياً يمثلها في الشرق العربي إلى جانب السفارات الدبلوماسية في عهد الجنرال بيرون ، وبعد هذا العهد استقال من المناصب وعاد إلى الاشغال الحرة وإلى الاعمال والاقوال في حقول الخدمة الانسانية العامة .

جواد نادر

سوري من قرية « برشين » . وصل إلى عاصمة الارجنتين صبياً وفيها تعلم وتثقف وخلق من نفسه كاتباً وأديباً وشاعراً . رئس تحرير الجريدة « السورية اللبنانية » وعمل موظفاً في المفوضية السورية ثم في محطة الأذاعة العربية . وكان من اركان « الرابطة الأدبية » . ألّف روايات انتقادية وسجل في كتبه تاريخ الجهاد العربي ومعركة فلسطين في المهجر وترجم ديوان الشاعر الاسباني الشهير مرتين فيرّو . ومنذ عامين أنشأ مجلة عربية اسبانية باسم « الحياة الجديدة » وصار يحرر في جريدة « السلام » . وله شعر رائق :

يا ناعم البال ما أقبلت تعذلني	لو ذقت طعم الهوى يا ناعم البال
لا ترج شكواي من عسف المنى فأنا	إذا شكوت فمن حالي إلى حالي
ما كنت أحسب والدنيا مهلهلة	للاربعين حساب القيل والقال
حتى إذا اقتربت غضبى على مضض	مني لتوقظني من حلميَ الغالي
أغضيتُ عنها ، لعلي في تجاهلها	أبقي على ومضة من عهديَ الخالي

يوسف الغريب

من «طرطوس» (سوريا) . أديب يجيد الانشاء بالعربية وينظم الشعر . ولكن آيته نزلت على آداب الغرب . فتمكن منها واتخذ من تضلّعه باللغات الأجنبية وسيلة لتعرف العالم الاسباني على حضارة العرب وحكمتهم وأدبهم . فقدّم اليه ترجمات لآثار ابن المقفع وابن حيان والريحاني وجبران ونعيمه وقدّم بذلك لأمته خدمة لا تثمّن . هو اليوم استاذ الكرسي العربي في جامعة قرطبا ورئيس جمعية الكتّاب والمؤلفين فيها والمترجم المجاز لدى المحاكم . وبالرغم من اندماجه في الأوساط الأرجنتينية الراقية ظل على صلة وثيقة بالجوالي العربية ، يكتب في صحفها ويخطب في حفلاتها ويقضي لها ما تلتمسه من حاجات . وكان أول المتحمسين لإنشاء «الرابطة الأدبية» وأول المنضمين إلى حلقتها . ولا أنسى ليلة حمل إلى جلستنا كتابه الرائع «حكمة العرب» الذي أحدث دوياً في أنحاء امبركا وأعيد طبعه مراراً ، فانتشينا بخمرة النصر الذي حققه المؤلف لاسم العرب المغتربين ، وشربنا الانخاب على سره . وقلت له بهذه المناسبة :

الشرق أهدى للمغارب كوكبا	يومَ الأديب (اليوسفيّ) تغرّبا
قسماً بمن خلق (الغُريّب) ما به	صغرٌ ولكن صغّروه تحببا..
ما كان أول فاتح من سوريا	شهد الاعاجم مجده في (قرطبا)
إنّ الكتاب وما به من (حكمة	عربية) سِفرٌ يشرّف يعربا

وتتمةً لكتاب «حكمة العرب» أصدر عام ١٩٥٤ تحفة جديدة هي «رسالة الاحلام» .

شاكر سلوم

(١٨٧٨ – ١٩٥٧)

رائد من الرعيل الاول ومن معلمي الجيل المحققين باللغة والمولعين بالشعر . وُلد في حمص وتعلم وعلّم فيها سنين طوالاً ثم هاجر منها عام ١٩٢٥ واستقر في ضاحية من ضواحي العاصمة وظل يعالج الأدب ويداعب الشعر ويعلم الطلاب إلى آخر أيامه .

سعاد مرهج

أديبة راقية حديثة العهد بالهجرة ولكن أدبها امتزج بالأدب المهجري متأثراً ومؤثراً به فأصبحت منذ عام ١٩٥١ ، أي منذ قدمت الارجنتين في صف الأدباء المهجريّين . نشأت وتعلمت في مدينة حمص . أبوها سوري من حماه وأمها لبنانية من بشمزين . واسلوبها في الانشاء العربي سهل شيّق ، يضاف اليه انها تجيد الاسبانية والفرنسية والانكليزية . وبهذه الكفاءات أسهمت بصورة فعّالة في المكتب الصحافي للجمهورية العربية المتحدة في بونس ايرس ، وانصرفت إلى ترجمة مؤلفات توفيق الحكيم إلى الاسبانية ابتداءً من « عصفور من الشرق » الذي ستوزعه دور النشر على مختلف الجمهوريات في اميركا اللاتينية ، وسيتبعه « أهل الكهف وشهرزاد » . وهي الآن تمثل مجلة « دنيا المرأة » البيروتية في الارجنتين وتنشر في الصحف ابحاثاً في شؤون المرأة .

كلمة في الصحافة العربية في الارجنتين

من يعش في جوّ الصحافة العربية في الارجنتين يتألم لظواهر ثلاث :

الأولى : قلة القراء . ففي جالية تبلغ اربعمئة ألف عربي عدداً لا يقرأ الصحف غير خمسة آلاف أو أقل .

الثانية : شح المغتربين على صحافتهم . فمهما أثروا وبذخوا ، يتوجعون من دفع بدل زهيد من بدلات الاشتراك في الصحف ويحسبون البدل المدفوع إحساناً لا واجباً ، كأن ما يأخذون من الصحافي مادة وروحاً لا يساوي ما يدفعون .

الثالثة : سرعة احتجاب الجرائد والمجلات . تلمع كالحباحب وتغيب عن الأنظار . صدر في هذا القرن سبعون جريدة ومجلة ثم تساقطت كأوراق الخريف . والسبع الباقية منها تتضاءل بتضاؤل الموارد . فان أدركها الفناء لا تشيعها كلمة أسف . مع ان مجلة كمجلة « الاصلاح » التي أصدرها الدكتور جورج صوايا أو كمجلة « الحياة » التي أصدرها جورج عساف ، تحدث فراغاً في أي محيط عربي لما لها من القيمة الأدبية والفائدة القومية .

لهذه الظواهر أسباب وجيهة ، أشرنا إلى بعضها في معرض الكلام

عمن ينتحلون الأدب ويحوّلون الصحافة إلى مهنة ابتزاز وتدجيل . ونجد في تقلص عدد المغتربين الذين يقرأون العربية وفي طغيان الثقافة الأجنبية عليهم ، سبباً آخر . أما السبب الثالث الذي نود ان نحوّل اليه الانظار فهو ان حكوماتنا العربية تتجاهل وجود الصحافة المهجرية وتتقاعس عن مساعدة أربابها مع أنها مدينة لفقرهم بالكثير الكثير .

مهما ساءت صحافة المهجر ، فالاسوأ هو زوالها من الوجود . وهي زائلة يوماً ان استمرت الحكومات العربية على موقفها منها . عرفت جريدة يومية في بونس ايرس يوم وصولي اليها عام ١٩٤٧ كانت تطبع ٤٥٠٠ عدد فأصبحت يوم بارحت الارجنتين عام ١٩٥٣ تطبع ١٨٠٠ وقس عليها بقية الجرائد .

لو لم توجد الصحافة العربية في المهاجر الاميركية منذ ستين عاماً [1] لكان المهاجرون اليوم غرباء عن لغتهم وعن وطنهم وعن تاريخهم . فهي التي كانت صلة الوصل بينهم وبين أمة الضاد . هي التي أبقت على الجذوة القومية في صدورهم وعلى اللهجة العربية في ألسنتهم . هي التي دمجت شعورهم بشعور المتخلفين ازاء المآسي والنكبات وفتحت جيوبهم لطلاب النجدة . هي مدارس نقّالة تعلّم وتوجّه وتربّي المواطن العربي في الأرض الغريبة ، بل هي متاحف تصون الميراث العربي من كل عبث وتحفظ روحه وتقاليدة حية . أو قل هي سفارات لا تتقاضى مرتبات من الحكومة التي تمثّلها . ولو لم تكن موجودة قبل وصول السفراء الدبلوماسيين ، لما أمكن لهؤلاء التفاهم مع رعاياهم إلاّ بواسطة ترجمان .

لا نفضح سراً إن قلنا ان الحكومات في كل قطر عربي تخصص للصحف المحلية باباً في ميزانيتها ، أو على الأقل تساعدها من طريق

---

١ أول جريدة صدرت في الارجنتين كانت لسليم بالش عام ١٨٩٤ وصاحبها نفسه أصدر جريدة الفيحاء في سان باولو في العام التالي .

الاشتراكات والاعلانات . مع ان هذه الصحف تعتمد على قوى مالية وأدبية متعددة وعلى شعب يفهم لغتها فيزداد عدد القراء فيه عاماً بعد عام بتكاثر النسل وانتشار العلم . فهل هي أولى بالمساعدة من صحافة المهجر القائمة على جهد فرد فقير الحال في محيط يناوئه ويستهزئ به؟

كم لفتنا نظر أولي الأمر في الوطن إلى هذه المشكلة فلم يعيروها إهتماماً . وكم عرضناها على الوزراء المفوضين في المهجر فلم نظفر ببادرة انصاف . « ليس في المفوضية مخصصات للصحف » ، هذا هو الجواب الذي كنا نسمعه مكرراً من أفواه الوزراء . ولا ريب في انهم صادقون فيما يقولون . هم مفوضون من الحكومة في كل شيء ، إلاّ بصرف مساعدة شهرية لصحافي يشيد بأعمال المفوضية وينقل للجوالي كل كلمة يقولها الوزير وكل حركة يقوم بها وينشر رسمه في مختلف المواقف والبزات . ونعترف ان بعض الوزراء الكرام كانوا يبذلون المال أحياناً بصفتهم الشخصية ومن جيبهم الخاص . أما الحكومات فلا حياة لمن تنادي . انها غائبة خلف ستار الميزانية ، حاضرة يوم تطلب نشر التصريحات والبلاغات والاعلانات وخطب الرؤساء والوزراء في الصحف العربية ... ما أحلاها لو اضطرت يوماً إلى ترجمة كل ذلك إلى لغات أجنبية لنشرها مأجورةً في الصحف الاسبانية ... كما تنشر الاعلانات التجارية .

اليوم كل مصالح الحكومات العربية وكل علاقات رعاياها بالاربعمئة ألف عربي المقيمين في الارجنتين رهينة ببقاء عشر دوريات بعضها باقٍ اسمياً وبعضها ينسى وننسى موعد صدوره ، وبعضها يُعتبر من الآثار الفينيقية ... وها هي :

١) الجريدة السورية اللبنانية — يومية لا تتخلف عن موعد صدورها يوماً ولا ساعة منذ أسسها السيد موسى عزيزة عام ١٩٢٩ . صاحبها اليوم أمين قسطنطين .

٢) جريدة « السلام » — نصف اسبوعية . مؤسسها وديع شمعون

(ابن عم رئيس جمهورية لبنان الاسبق) . تأسست عام ١٩٠٢ . فهي أقدم الجرائد المهجرية الحيّة بعد جريدة « الهدى » في نيويورك .

٣) جريدة « المرسل » — اسبوعية . يصدرها الآباء المرسلون . تأسست عام ١٩١٣ .

٤) جريدة « العلَم العربي » — اسبوعية . صاحبها عبد اللطيف الخشن أنشأها عام ١٩٣٤ .

٥) مجلة « الاستقلال » — فصلية . أنشأها الأمير أمين ارسلان عام ١٩٢٦ .

٦) جريدة « الاتحاد اللبناني » — اسبوعية . صاحبها رشيد رستم . تأسست عام ١٩١٥ ، وقد احتجبت غب وفاة صاحبها عام ١٩٦١ فأحرج احتجابها أصحاب الصحف العربية التي كانت تصدر من مطبعتها كجريدة « العلَم العربي » وراحوا يلتمسون من السفارة المصرية أن تشتريها من الورثة فلم تفعل . وأخيراً بيعت المطبعة وجميع معداتها بالمزاد العلني ، فاشتراها يهودي صهيوني ليُعطّلها وليكفّ عن جماعته شرّ الاقلام العربية .

٧) مجلة « المواهب » — شهرية . صاحبها يوسف صارمي . تأسست عام ١٩٤٥ .

٨) مجلة « الفطرة » — شهرية . صاحبها محمد محمود رمضان . تأسست كجريدة عام ١٩٢٢ .

٩) مجلة « أهلاً وسهلاً » — ظرفية فكاهية . صاحبها جبران طرابلسي تأسست عام ١٩٤٠ .

١٠) مجلة « الرفيق » — شهرية . صاحبها يوسف كمال .

١١) مجلة « الحياة الجديدة » — شهرية . صاحبها جواد نادر . تأسست عام ١٩٦١ .

هذه المجلة الأخيرة و الجريدة « السورية اللبنانية » تخصّصان نصف الصفحات للغة الاسبانية . أما بقية الدوريات فتكتفي بصفحة اسبانية واحدة في كل عدد .

الفصل الخامس عشر

أدباؤنا في المكسيك

مرّ الأدب العربي في المكسيك بعهد زاهر يوم كان محبوب الخوري الشرتوني وخليل ضاهر ويوسف صالح الحلو وفريد سليم على قيد الحياة أما اليوم فلم يبق من الأدباء غير الشيوخ المتقاعدين كناصيف الفضل الذي كان خطيب الجالية وهو في التسعين من عمره . ولم يبق من اثنتين وعشرين جريدة ومجلة غير جريدة « القسطاس » التي أنشأها محبوب الشرتوني و « الفرائد » التي كان يحررها الاديبان داود شرتوني وخليل نصر . ولا نعرف بالتحقيق ما صارت اليه اليوم . كانت الأقدار قاسية على أدباء المكسيك ففي الفترة التي تلت الطبعة الثانية من هذا الكتاب اخترمت المنية الأديب المشهور داود مجاعص وبعده الياس ملحم زخريا وبعدهما حنا بشارة الناصري صاحب مجلة « الغربال » . وقبلهم اكتسحت أصحاب الصحف جميعاً : كرم البشعلاني صاحب « الشرق » وسعيد عقل صاحب « المكاري » وبطرس طوبيا صاحب « صدى المكسيك »

ويوسف صالح الحلو صاحب « الخواطر » ويوسف مسلم صاحب « الصاعقة » ويوسف غسطين صاحب « الاعتدال » ومحبوب الخوري الشرتوني وبعده فريد سليم صاحبي « القسطاس » . وجدير بالذكر ان الأديب خليل ضاهر قتل اغتيالاً بيد مهاجر لبناني . وان بين المهاجرين عائلات مصرية راقية من أصل لبناني ترجع هجرتها إلى مطلع هذا القرن .

أما العائلات السورية واللبنانية فقد هاجرت قبل انتشار العلم والمدارس في أوطانها فانصرفت إلى تحصيل المال وقلّ فيها متذوقو الأدب حتى انها على ثرائها الفاحش وعددها الكثير لم تنشئ نادياً اجتماعياً أدبياً يحمل الاسم العربي بينما أنشأت الملاعب والمسارح والمصارف والمصانع وناطحات السحاب التي لا تجد لها مثيلاً إلاّ في نيويورك أو في سان باولو ، ومن المؤسف أن يُصبح اندماجها في البيئة الأجنبية تامّاً فلا تعيش بين المهاجرين إلاّ الصحيفة المكتوبة بالاسبانية كمجلة « الامير » لصاحبها الفونس عوّاد . هم يتفنّنون في تغيير أسمائهم العربية بأسماء اسبانية إخفاءً لأصلهم ، لذلك أكبرنا مجهود الاستاذ بدران الذي أنشأ في هذا الجوّ المناوئ للعروبة مدرسةً لتعليم اللغة العربية يُفني عمره في سبيل بقائها .

محبوب الخوري الشرتوني

(١٨٨٥ – ١٩٣١)

هو أبرز وأنصع وجوه الأدب في المكسيك . وُلد في « شرتون » (لبنان) وتعلّم في مدرسة الفرير ثم في مدرسة الحكمة . وعلّم في المدارس الكبرى في بيروت مدة سبع سنوات . ولما رزئ بفقد والديه ، ضاق لبنان في عينيه وعوّل على اللحاق بعمه جرجس الشرتوني في كولومبيا فتوجه اليه ، وما لبث أن غادره قاصداً المكسيك عام ١٩١٣ . وكانت قصائده قد سبقته إلى المهجر فطاب له أن يرى نفسه – ككثيرين من أبناء الأسرة الشرتونية العريقة في أدب اللغة – مشهوراً بشعره اشتهار والده قبله بالزجل . ولم يدر ان النكبات كانت تترصده . نُكب متجره في المكسيك بالحريق مرة وبالغرق مرة وبالسرقة مرة ثالثة . وأصيب بجراح من يد لص مغتال وبداء عضال في المرارة ، فضلاً عن عاهة في السمع أصيب بها منذ حداثته على أثر التهاب اللوزتين . ولمّا فرغت يده من التجارة أنشأ جريدة الرفيق عام ١٩٢٥ وعاش من موردها الضئيل . وفي عام ١٩٢٩ اضطر لاستئصال المرارة من كبده ولكن العملية الجراحية لم تنجح ، فأجريت له عملية ثانية في مستشفى مايو عام ١٩٣١ وتوفي

على أثرها . وله هذا البيت المشهور :

يا حصاة في المـرارة صيّرت عيشي مراره

صدر ديوانه بعد وفاته بسبع سنوات . واننا نتصفحه فنجد الشعر العالي الرصين مهدوراً في المناسبات العادية ، إلاّ في مواقف نادرة كموقفه في رثاء نسيبه الأديب رشيد الشرتوني :

لم تزدحم من حول نعشك ألسنٌ ألفتْ بغير مماتك التأبينـا
وتراجع الأدباء عنك لأنهم رهبوك يا أسد العرين طعينـا
خافوا سماعك ضعف قولهم وقد كان الكلام إذا نطقتَ سمينـا
مسكينٌ القلم الذي أيتمته مَنْ سوف يرحم ذلك المسكينا ؟

ونحن نؤاخذه على الاكثار من شعر المجاملات قدر ما نؤاخذ محيطه وظروفه القاسية . إنه لو خُيّر لما أرخص الجواهر النفيسة التي كـان ينضدها بفنّ أصيل . في شِعره ابتكارات فكرية رائعة بينما نزعته في المبنى ظلت تقليدية . وقصائده تتفاوت في سمو الخيال والمعاني ولكنها على نمط واحد من انسجام الموسيقى ومتانة الصياغة ورقة العاطفة . له قصيدتان دعمتا شهرته . الأولى في الحريق الذي التهم متجره بجوار مضارب النفط :

حلم جميل من ذهب ما زارني حتّى ذهب
أمسيت ذا نشب وقد طلع الصباح ولا نشب
هجم السعير على المضارب واللصوص على السلب
فوقفت أنظر ما الجحيم وما الأبالس عن كثب

والقصيدة الثانية في رثاء والده :

لم أدرِ مصرع والدي أم مصرعي
هو لا يعي وأنا المعذب لا أعي
أنا مت فيه ولم أزل متوجعاً
هو مات لكن ليس بالمتوجعِ

ومن شعره الرقيق المؤثر مناجاته للحمامة التي كانت تحط على نافذة غرفته في المستشفى كل صباح فلما تعافى اختفت :

أنابك خطب فلم ترجعي أم الطير تنبو عن المرتع ؟
أسى يا حمامة في جانحي وحزن تغلغل في أضلعي
ولو لم يعذّب جفوني السقام لجللت ذكرك بالأدمعِ
غداة تركت فراش الضنى طلبتك في ذلك الموضع
وساءلت عنك جهات الفضاء فضاع السؤال ولم ينفع
هو الفجر عوّدني أن أراك هناك على الحائط الأرفع
إذا كنت في قيد هذي الحياة تعالي إليّ وعيشي معي

وفي جميع شعره جزالة وحنان وحب صادق للعروبة :

بلادي ، إلـه العرش فاستبق أهلها
وصن صدرها المكشوف من كل باشق
وزحزح ثقال النائبات وهاتها
ليحملها عن عاتق الشعب عاتقي
إذا مت عن قومي وعن وطني فدى
فإني أعد الموت نعمة رازقِ

* * *

قالوا تحب العرب ، قلت أحبهـــم   يقضي الجوار عليّ والأرحـام
قالوا لقد بخلوا عليك ، أجبتهم   أهلي وإن ضنوا عليّ كرام
قالوا البداوة ، قلت أطهر عنصر   صفت القلوب هناك والأجسام
ومحمد بطل البرية كلهـــا   هو للأعارب أجمعين إمام

* * *

حوالي عام ١٩٢٠ تعرّف بشمّاس من الاكليروس الماروني زار المكسيك زيارة طائفية وخطب في حفلات الجالية العربية فخلب الألباب بفصاحته وعلمه ورجاحة عقله على حداثة سنه وطراوة شبابه ، فأحبه محبوب وأنشده قصيدة ورد فيها هذا البيت :

ولسوف يذّكر الرواةُ نبوءتي   أيامَ أنت على الرعية بطرك

ومات شاعرنا قبل أن يعرف ان نبوءته صدقتْ وان الشماس المدعو بولس المعوشي أصبح بطريرك الطائفة المارونية في لبنان وهو مار بطرس وبولس المعوشي الذي روى لي هذا الخبر في حديث عن شعراء المهجر خلال اجتماع مع غبطته في بكركي .

الفصل السادس عشر

أدباؤنا في فنزويلا

جالية قليلة العدد متفرقة في بلاد شاسعة ، غنية بالموارد الطبيعية ، فقيرة بالسكان . دانت للنفوذ اليانكي وعاشت وازدهرت على ما تلفظه المضخات من سيول النفط فكرعت منه حتى انتفخت ، وأفسحت مجالات الاثراء للمهاجرين العرب ، فجاؤوها حوّماً على مضارب الذهب الاسود ، يجمعون فضلاته من المسرفين المترفين فتصبح في أيديهم أكواماً من الذهب الأصفر الرنان ، إلى أن غزاها في المدة الأخيرة سرب من الجراد اليهودي وأخذ يلتهم الأرزاق ويزحزح العرب عن مواقعهم بنفوذه ودهائه ودعاوته القوية .

في هذا المحيط المادي لم يتنفس الأدب العربي عن نسمة حياة طوال عشرين عاماً قضيتها في تلك الديار ، فكدت أنسى حروف الهجاء العربية لولا اجتماعات نادرة كانت تجمعني بمواطنين مثقفين يتذوقون الأدب ،

كسليمان أبي فخر ويوسف عساف ونجيب جرجوره حداد وحنا دنيا والدكتور جورج طحان وأمين عنداري وتوفيق عبد الخالق ...

القول للغربان تحت سمائهــا والفعل للاظفار والأنياب
واهاً لصدّاح شدا في غابها ماذا شدا من شدوه في الغاب ؟
عشرون عاماً ليتني ما عشتها كيلا تعد عليّ في الأحقاب

قلت هذا القول فعيبَ عليّ وشبهوني بمن يشرب من البئر ويلقي فيها حجراً . فأجبت :

يا غازيَ الدولار وهو محصن دون الوصول اليه خط النـار
إن الغنيمة في إيابك سالماً قبل انصهار الروح في الدينـار
شرّ التغرب أن تعيش مغرّباً بالعقل والإحساس والأفـكار
وتظن نفسك في السحاب مصونة فإذا بها سقطت مع الأمطار
تجري ، على أمل التراجع خلسة عند اصطدام المـاء بالأحجار
حتى إذا كلّت ولاح المنحنى ألقت أعنتها إلى التيـار .
هذا مكانك بين طلاب الغنى امّا فريستهم وامّا الضـاري
إن شرّق الأصحاب غرِّب ، إنهم كالدهر في الإقبال والإدبار
لا خير من حساد فضلك يُرتجى إلاّ متى عجزوا عن الإضرار
وامسحْ علومك والثقافة ، انها ذنبٌ يُثير حفيظة التجار
سوق التناحر حول أذيال المنى بارت بها الأخلاق أيّ بوار
لو عاد بي يومي إلى أيامهـا ما بعت فقري واشتريت يساري

لا أثر للصحافة العربية في فنزويلا ولا لمنبر عربي . حتى في الاجتماعات العائلية الخاصة لا تستعمل العربية لغة للحديث . فالجالية تتنسم أخبار الديار

العربية من مجلة كان يصدرها النادي اللبناني السوري اسمها « الأرزة » ومن مجلة ثانية « صوت الشرق » يصدرها عزيز موسى ابراهيم ، ومن ثالثة « الأندلس الجديدة » يشرف عليها خلدون نويهض في مراكايبو ، ورابعة اسمها « صوت لبنان » أصدرها جوزيف لبكي . وكلها تعتمد على أقلام الأدباء من أبناء العرب (كالكاتب المؤرخ اسطفان فياض) الذين يكتبون بالاسبانية ويجهلون العربية . وقد علمت أن قافلة كبيرة من الشبان اللبنانيين المثقفين هاجروا اليها بعد سفري منها في السنوات الأخيرة مجذوبين برائحة النفط وأخذوا يذكّرون القدامى باللغة العربية المنسية . من هؤلاء الشبان الناهضين فؤاد الخشن والدكتور مانويل يونس .

الدكتور مانويل يونس

لبناني الأصل من « تنورين » ولكنه وُلد في عاصمة فنزويلا ، وأرسله والده إلى بيروت ليتلقى علومه فيها . فتلقاها وعاد إلى فنزويلا ليفتح متجراً ومصنعاً للورق ، وفي الوقت نفسه عكف على الدراسات العالية ونال شهادة دكتور في الفلسفة باطروحة رائعة موضوعها « فلسفة الثقافة » نشرها بالاسبانية ثم ترجمها للعربية في كتاب صدر حديثاً في بيروت وأحدث صدى بعيداً في الأوساط العلمية .

وكانت جامعة كاراكاس قد عيّنته أستاذاً للآداب الشرقية فقبل المنصب لغاية وطنية هي إذاعة روائع الآداب العربية وبعث شعور الاعتزاز في نفوس المغتربين وإيقاظ الوعي القومي فيهم . وقد تركناه يحاضر ويكتب ويخطب ببيان عربي ناصع كأنه لم يغترب ولم يرطن في حياته . ثم وجدناه

أخيراً في بيروت قانعاً من الغنيمة بالاياب ، طارقاً أبواب الثراء الكبرى ، وقد حلّ محله مهاجر لبناني جديد من أهل الثقافة هو جوزيف لبكي وأخذ يذيع رسالة لبنان بلغة الاسبان ، فأصدر جريدة اسبانية باسم « صوت لبنان » .

وكان للجالية العربية في عهدي عدد من المؤسسات ، أقدمها « نادي الاتحاد السوري اللبناني » وهو اجتماعي الصبغة يضمّ العناصر الشابة من الجيل الجديد ، وجمعية « الاخاء العربي » القائمة في بلدة « التغري » لأغراض وطنية بحتة ، وجمعية « الاسعاف الوطني » التي تأسست في العاصمة وجمعت أموالاً طائلة أرسلت نصفها إلى لبنان وسوريا لإنشاء مدارس قروية فيهما ، وبنَت بالنصف الآخر منازل للعمال الفنزويليين أهدتها إلى السلطات المحلية . وعلمت بعد أن غادرت البلاد ان نادياً جديداً انشئ في كاراكاس باسم « النادي العربي الفلسطيني » غايته الوقوف في وجه الدعاية الصهيونية وارسال النجدات المالية إلى المنكوبين من بني فلسطين . وآخر في مراكايبو اسمه « معهد كونكوردي » لتعليم اللغة العربية بادارة خلدون نويهض .

فؤاد الخشن

(١٩٢٥)

وُلد في « الشويفات » وتخرج من دار المعلمين اللبنانية عام ١٩٤٦ ثم مارس التعليم سبع سنوات (عجاف ..) قبل أن يهاجر من لبنان إلى فنزويلا عام ١٩٥٣ ويتاجر في عالم النفط سبع سنوات (سمان ..) . في هذه المدة القصيرة حقق أغراضه المادية من المهجر بفضل نشاطه وذكائه ، ولم يُغره التوفيق بالاستمرار على الكفاح في غربته بل كان حكيماً رشيداً ، فوضع حداً لأطماعه زاهداً بالثراء الفاحش الذي سمّر غيره من المهاجرين على صليب الجهاد مدى حياتهم وحرمهم فرصة التمتع بما جنوا قبل وفاتهم .

عاد شاعرنا إلى الوطن عام ١٩٦٠ ليستقر فيه مطمئناً على معاشه ولينصرف إلى العمل الذي خُلق له في دنيا الانغام أي إلى الشعر الذي ينبض في دمائه ويلهث في عروقه ويملك عليه مشاعره منذ كان يافعاً ، دارساً أو مدرّساً . ولم يمض عام واحد على إقامته في بيروت حتى بدأ يكشف عن كنوزه المكنونة وينثر لآلئه المصونة ، في شعر قال عنه بدر شاكر السياب : « انه شعرٌ غنيّ بموسيقاه ، متدفق بالصور والعاطفة والخيال كجدولٍ من جداول الشويفات » .

صدر ديوانه الأول « سوار الياسمين » عام ١٩٦١ وديوانه الثاني

« غابة الزيتون » في ١٩٦٣ ، ولم تزل في جعبته مجموعة « أشعار من فنزويلا » و « هنيهات هاربة » وملحمة « ادونيس وعشتروت » التي أصبحت على طريق المطبعة . وقد آلى ان لا ينشر مجموعة شعرية ذات لون واحد بل ان يجعلها حدائق متنوعة الاشجار والازهار ، تتناوب فيها قصائد الحنين إلى الوطن والتشوق إلى الريف مع قصائد الغزل الرقيق والوصف الفني . وهكذا اختلط نتاجه المهجري بنتاجه الجديد . ولولا اننا قرأنا له عشرين قصيدة في شكوى الاغتراب وفي الحنين إلى الديار والاحباب لما جاز لنا الحكم على انها من نتاج المهجر وعلى انه شاعر مهجري ، من الطراز الرفيع :

ضيعتي هل أعود من غربة جدّ نائيه ؟
ويدوّي بمسمعي مائجاً صوت راعيه
الشويفات ، اين يا مركب العَود ساجيه ؟

* * *

صورُ الماضي تحوم فوق هدبي
ان في هذه الرسوم بعض قلبي
يا شويفاتي الحبيبه
ان في نفسي لذكراك عبيراً كعبير الترب بعد المطر
لهف نفسي مات أمسي
وتلاشى صوته في مسمعي
خبئيه — اطمسيه — كفنيه — يا سواقي

* * *

حنينٌ هزّ أعماقي.. وحرّك جمر اشواقي
إلى دنيا من السحر وراء الغيم والبحر .
أنا في غربتي الخرساء مشبوب المرارات

توقرني مناجاتي

لدُنيا قد هجرناها وجنّاتٍ أضعناها

هنا في هذه الأرض

نُضيّع زهرة العمُرِ وراء الدرهم القذر

رفاقي آه كم أهفو ، إلى خلوة

تسلسل خمرة الذات ، وتملأ اضلعي نشوة

وكم أهفو إلى غفوة

بها أذرو ضباباتـــي وأسبح في خيـالاتي

وبي شوق إلى غــابة زيتونِ

تلامس زرقة البحرِ ، وتغويني

بأزهار شـــــذيّـــات

تهزّ مباخراً ثملى بصحراء الشويفات !

هذا الحنين الرقيق الصادق في نبرته ، الدافق بعاطفته ، العابق في « غابة الزيتون » قد تحدى بنشره كل « زيتون » في بساتين المهاجر ، حتى انه أذهل « نظير زيتون » عما في نفثات أصحابه الحنّانين الأحياء والراحلين ، (أمثال شفيق معلوف ورشيد ايوب وندره حداد ونسيب عريضة وشكر الله الجر) من عمق وحرارة ، ومن لبّ يأخذ بالالباب وشجوٍ ينفذ إلى الاكباد . فكتب النقادة الالمعي في مجلة الأديب (عدد ايلول) تقريظاً « لغابة الزيتون » فيه هذه الشهادة :

« لقد تميّز حنين فؤاد الحشن بطابع الجمال الريفي الذي قلما توغّل في أعماقه الشعراء المهجريّون ، وكأنهم وقفوا في حنينهم على الشاطئ وقد عبّ بحر الحنين عبابه واشتد اصطخابه ، فكانت لهم الزفرات والآهات ، والوقوف على الجنبات . أما اللآلئ المتلألئات فما ركبوا لها لجج البحر ،

ولا غاصوا لانتشالها من القعر ، ولا ترجموها بحروفٍ من الجمر »[1]

في رأيي المتواضع ان النجاح الكاسح الذي أصابه شِعرَ الخشن راجعٌ في الدرجة الأولى إلى الغنائية الرخيمة في اسلوبه . إلى تلك الموسيقى الشجية النابعة عفواً من كينونته المترقرقة شدواً على ديباجته . إنها عصا السحر في يده ، يفتح بها مغالق القلوب ويلج شغافها بالتلحين والتطريب ، متفنّناً ما شاء له الهوى ، قطعاً ووصلاً ، مداً وجزراً ، همساً وجهراً . فيهزّك بوقع الانغام قبل أن يهزّك بمعنى الكلام .

أما الميزة الكبرى الغالبة على شعره فهي المسحة الريفية الطبيعية المتلونة بألف لون من ألوان الجمال الفني الوهاج والشعور البنويّ اللاهف . فلا تندفع شاعريته على سجيتها في مجال ، كاندفاعها في مناجاة العرزال :

عرزالنا المعلّقُ يموج فيه العبق
صنوبرات المنحنى تضمّهُ وتشفق
أغصانها ميّادة من فوقه تعتنق
مراوحٌ من مخمل تظلّه وتخفق !

أو في استذكار ساعات المرَح مع رفاق الطفولة :

وهتافات لصبيان مضوا في دروب الريف خلف المطحنة
يوقظونً الوردة السكرى ضحىً ويلمّون دموع السوسنة

وكم رقّ قلبه وذاب شعره أمام « عين البئر » و « سنديانة الحلوة » و « صنوبرة المقبرة » وأمام الصبايا حاملات السلال والجرار .

أعينَ البئر أين جرارهنّه وقاماتٌ تميل مع العشايا ؟
وأهدابٌ ترفرف مطمئنه فتُمطرنا بألوان الحكايا

١ حقاً ان البعد جفاء .. يا أخي نظير . وحمص بعيدة عن سان باولو .

انه ابن الريف وعاشق الريف فلما سلخته الهجرة عن معشوقه ألهبت الشوق في صدره وأطلقت الزفرات من شعره :

أنا من ريفٍ على تلك الربـى — أسبغ الله عليه فتنـه
نثر الضوء على تربته — وبأزهار الاماني زينه
أنا من أرض رعاةٍ جرّحوا — سحبة الناي الحنون المحزنه
من جدود عصروا الكرم دماً — سكرتْ منه الخوابي المزمنه
وعلى سمر الدوالي كتبوا — شرعة الحب وخطوا سُننه

فلما أتيحت له العودة هدأت لواعجه وتحولت الشكاوى إلى تحايا كأنها صلوات الشكر وترانيم الغبطة :

هوذا الريف وهذي السنديانه — وغديرٌ عرف القلب مكانه
ها هنا وادي الهوى يا خافقي — وغرامٌ أرجع الله زمانه
ها هنا تغفو شويفاتي الحبيبة — بين زهرٍ نشرَ الفجرُ طيوبه
وهنا يا قلب تغفو عندما — تنتهي دقاتك الثكلى الرتيبه
تحت زيتونة سفح هادىءٍ — سوف تبكينا بدمعاتٍ خضيبه

* * *

قد عدتُ بعد الهجر يا جدولي — أعيش في ظل الهوى الأول
قد عدت مخموراً ، على جبهتي — نور المغيب الاصفر المشعل
أنام في ظل الغصون التي — عن ذكرنا المعطار لم تغفل

* * *

على اننا نظلم هذا الشاعر المبدع ان حصرنا شاعريته في نطاق الحنين إلى الريف ولم نلتفت إلى غزواته وفتوحاته في ميادين الهوى والشباب ، ان فيها روائع كثيرة ، وان كثرتها هي التي تعجزنا عن دراستها في هذا المقام المحدود ، فنكتفي بالاشارة إلى « الحبيبة الصغيرة » وحكايتها

الساذجة ، وإلى « السمراء الأندلسية » التي واصلها بحكم القضاء والقدر ...

وتلهّفُ الشوق القديم على فمي قدرٌ تغلغل في الدماء رهيبُ
الإثم في شفتيك حين تمسّهُ شفتايَ يا بنتالشموس يتوب .

وإلى جارته الحسناء حين داعبها من شرفة الدار :

لا تلبسي فستانكِ النـاري أخشى على زنديكِ من ناري
وجنون تياري
يا وردةً بيضـاء طالعـةً في فجر أيار
يا لون قرميد بضيعتنـا سالت عليه دموع آذار
يا فتنةً تغري بما تُبـدي من بعض ازرار
فاترك يدي للغلغلات هنا
وهناك ، يا ضوءاً يؤرقني يا حوض ازهارِ
في دار من تهفو له داري

وفي المجموعتين « سوار الياسمين وغابة الزيتون » قصائد وصفية : « فم . إلى باكية . شعر . ملهمتي الاولى . ذكرى ليلة » وقصائد ذاتية : « انطواء . كاس الظلام . نقمة . كآبة . انانية . خمرة الذات » ؛ وقصائد وجدانية : « أمومة . إلى صغيري . سنديانة الخلوة . بلادي الصغيرة » وأخيراً قصائد وطنية وانسانية تعالج ملحمة الجزائر والجوع في الكونغو وتناجي غرناطه وشهرزاد وجورج صاند . هذه كلها وضعتْ ناظمها في مرتبة عالية من مراتب الشعراء المعاصرين ولكنها لا تحتمل التجزئة حتى نستشهد ببعض أبيات من كل قصيدة دون أن نشوّه محاسنها القائمة على التماسك والتناسق في الابيات وعلى الوحدة في الموضوع. فنكتفي باستلفات القارئ اليها .

خلدون نويهض

(١٩٢٩)

هو* اليوم في الخامسة والثلاثين .

خطيب ، كاتب ، مؤلف ، صحافي ، وله عدة رحلات استطلاع ودراسات عربية . يتقن من اللغات ما عدا العربية : الانكليزية ، والاسبانية ، وهذه يحذقها كالعربية ، وبعض الالمانية التي درسها في الصغر .

واليوم هو صاحب «معهد كونكورديا» للتربية الحديثة ، ومجلة «الاندلس الجديدة» بالاسبانية في مراكايبو .

وُلد في القدس سنة ١٩٢٩ [١] ونال تحصيله الابتدائي في مدرسة المانية ، وأكمل التحصيل في «كلية الأمة» العربية لرئيسها وقتئذٍ المربي

* والداه عجاج نويهض والسيدة جمال سليم شقيقة الشهيد فؤاد سليم من رجال الثورة العربية عام ١٩١٦ وثورة عام ١٩٢٥ التي كان فيها استشهاده . وله اربع شقيقات : السيدة نور حلواني (زوجة السيد فؤاد حلواني المغترب في فنزويلا) وهي صاحبة مجلة « دنيا المرأة » في بيروت ؛ والسيدة بيان الحوت (زوجة الاستاذ شفيق الحوت مدير مكتب منظمة التحرير الفلسطينية في بيروت)، والمحررة في مجلة « الصياد » الاسبوعية؛ والسيدة سوسن زوجة السيد زهير العجلوني في عمان (الاردن) والآنسة جنان تدرس اليوم في الجامعة اللبنانية وتتعاطى عملا في « بنك بيروت والرياض » . وللسيدة جمال والدة خلدون رواية « مواكب الشهداء » ، صدرت سنة ١٩٦٠ في عمان .

المشهور خليل السكاكيني وتخرّج من هذه الكلية سنة ١٩٤٦ وفلسطين في طريقها إلى فم العاصفة . ثم عمل مدة قصيرة في بنك باركليس . كل هذا في القدس .

* * *

سنة الانهيار في فلسطين خلقت من خلدون نفساً جديدة ، كشأن الكثيرين من شباب العرب ، ورأى بعينه عن كثب أعظم المشاهد المروّعة في القدس في « ١٥—٥—١٩٤٨ » والقيامة قائمة .

سنة ١٩٤٩ انتقل إلى العراق ثم إلى باكستان ، حيث عمل معلقاً سياسياً في دار الاذاعة الباكستانية في القسم العربي منها حتى سنة ١٩٥١ .

وهاجر إلى فنزويلا في هذه السنة . وعمل في التجارة بضع سنين ثم رغب عنها وتحوّل بكل قواه إلى العمل القومي . وفي السنوات الأخيرة قام بعدة رحلات للاستطلاع والدراسة العربية فزار الجمهورية العربية المتحدة ولبنان والشمال العربي الافريقي (ما عدا الجزائر إذ وضعت في طريقه العراقيل والثورة كانت لم تزل مشتعلة) والاندلس ، والارجنتين ، والمكسيك ، والبرازيل حيث زار عمه السيد جميل نويهض المهاجر منذ عام ١٩١٠ ، والتشيلي ، والولايات المتحدة حيث زار خاله السيد نسيب سليم المهاجر منذ عام ١٩٠٢ .

له كتابان بالاسبانية : كتاب Arabia ضخم في أكثر من ٤٠٠ صفحة أصدره سنة ١٩٥٩ أجمل فيه صفوة تاريخ النهضة العربية في آسيا وافريقيا . فانتشر هذا الكتاب انتشاراً واسعاً في الاقطار اللاتينية ، وجرى فيه على أسلوب واقعي علمي ، وكتاب « عشر سنوات ازدهار » أصدره سنة ١٩٦٣ أجمل فيه الخطوات العمرانية وانقلاباتها في العالم العربي متخذاً من التقدم في الجمهورية العربية المتحدة المدار الأول لمقاصد الكتاب ، فانتشر هذا انتشار الأول .

الفصل السابع عشر

أدباؤنا في الاكوادور

ما خطر لنا ان للأدب العربي أثراً في جمهورية الاكوادور لولا اجتماعنا بالدكتور جورج قدوم في احد اسفاره إلى الارجنتين . فعرفنا انه في رحلة غايتها القاء محاضراته وبيع كتبه التي تبلغ الخمسين عدداً بين عربية واسبانية . وان شاعراً لبنانياً آخر كان يقيم في عاصمة الاكوادور هو أمين مشرق . فأخذنا نتتبع سيرة هذين الاديبين وندرس آثارهما الأدبية .

الدكتور جورج قدوم

(١٨٩٧ – ١٩٥٩)

لبناني من قرية « الكفر » . درس الطب في جامعات بيروت وليون .

ثم اندفع في تيار السياسة في ركاب الملك فيصل الأول فأصبح من مستشاريه في دمشق . واضطر إلى الفرار لاجئاً إلى جبل الدروز ومنه إلى مصر فأميركا . فهو من القلائل الذين حملوا إلى أرض الاغتراب ثقافة واسعة وعلماً غزيراً ونفساً صهرتها تجارب الحياة وذهناً أنضجته التأملات الطويلة . ما كاد يستقر في كيتو حتى جمع أبناء الجالية العربية تحت لواء الأدب العربي والفنّ وأنشأ مجلة تشترك أقلامهم في تحريرها وندوة تجمع شملهم وترفه عنهم . ثم أخذ بالمطالعة والتأليف ، وتحوّل من الطب الجسماني إلى الطب النفساني وراح يعالج المرض بوسائل الايحاء والتأثير وبقوة المنطق والإرادة فعُرف بالطبيب الفيلسوف . جميع مؤلفاته تستمد موضوعاتها من حياة الشرق ومن مذهب روحاني انتمى اليه وبلغ فيه رتبة المعلم هو مذهب الهيكليين . ثم أخذ بالطواف على الجمهوريات الاميركية مبشراً بعقيدته وناشراً رسالة الحب الإنساني في محاضراته . شعاره : رايتي الشمس . وطني الكون . ديني الحب . أسرتي البشر . ويجيد الانشاء بالعربية ويتذوق الشعر بحسّ رهيف وينظمه في تحجب وتواضع . كان في بونس ايرس منهمكاً بطباعة بعض كتبه حين زلزلت الأرض في الاكوادور ونمي اليه أن بيته – بيت العائلة – قد تهدم فقال :

دغدغ الزلزال بيتي فانحنى   هكذا نبني بيوتاً للفنا
إنني بالحب أبني منزلي   جاعلاً من كل قلب مسكنا
فأنا من أولٍ في أبد   كل شيء زائل إلاّ أنا

هذا الأديب المثالي يعيش أدبه فيجد في المصيبة عظة وفي الايمان سلوى . لم يفتقد البيت الذي خسره ما دام يبني بالحب بيوتاً له في قلوب مواطنيه . بوركت الرسالة وبورك بالرسول !

عاش في البرازيل السنين العشر الأخيرة من حياته للتأليف ولالقاء المحاضرات . وتوفي في سان باولو .

امين مشرق

(١٨٩٨ - ١٩٣٧)

أديب لبناني هاجر من قرية « غرزوز » عام ١٩١٤ إلى الولايات المتحدة وأقام فيها سنتين ثم توجه إلى الاكوادور واستقر فيها. هو أديب مجدد وشاعر رقيق متدفق العاطفة. وقد أحرز - على إقلاله في النظم - مكانة عالية بين الشعراء. وقعنا على قصيدة مؤثرة نظمها مناجياً أمّه المقيمة في لبنان بينما كان جمال السفاح ينكّل بأهله تجويعاً :

يا نسمة الصبح لامسيها	وبرّدي قلبي الحزين
يا نسمة الصبح قبّليها	في الخد عني وفي الجبين
أمّاه بالله ما دهاك	وما دهى إخوتي الصغار
هل أوقعتهم يد الهلاك	ما بين نار وبين عار ؟
وهل طغى فيكم الأعادي	وطاردوكم إلى البوادي
وحولكم خيّم السكون	وأغمضت في الدجى عيون
ومرّ في بالكم أمين ؟	أمّاه - ردّي - أنا أمين

ونقتبس من قصيدة « نجوى القمر » هذه الأبيات :

أنت ماقٍ على بساط الأثير طرزته النجوم صفاً فصفا
فوق فلك من الهوا والنور في عباب من اللجين المصفى
أيّ شط تبغي بهذا المسير في أقاصي المدى يبين ويخفى ؟

مذ بدا الليل والنهار في بحار الفضا تهيم
سفرة ، هل لها قرار أم لها منتهى حكيم ؟

* * *

ايه يا بدر كيف تبقى سعيداً بين شدو الدجى ونجوى الدراري
وفؤادي يبقى شريداً طريداً بجرع البؤس ؟ لا وحق الباري !
رب يوم تحيل هذا الوجودا حكمة الله ذرةً من غبار

أنت تمضي فلا أثر وأنا خالد مقيم
أنت يا بدر من حجر وأنا الروح في السديم

الفصل الثامن عشر

أدباؤنا في شيلي

في جمهورية شيلي جالية عربية ذات شأن ، معظمها من أهل فلسطين ، تملك الأندية الكثيرة إلى جانب المصانع الكبيرة ، وفيها عصبة من ملوك المال الحاكمين بأمرهم كآل جارو ، وآل سعيد وحافظ لبّان الحمصي الذي عيّنته الحكومة سفيراً لها في سوريا ولبنان . وهناك جمهرة من الأدباء يعتلون المنابر ويلقون منها الخطب والقصائد باللغة العربية . في طليعتهم الأديبة الشهيرة السيدة ماري يني عطا الله ، صاحبة مجلة « مينرفا » وإحدى زعيمات النهضة النسائية ، وسفيرة الأدب العربي في شيلي . هي التي سعت إلى تأليف « الندوة الأدبية » في عاصمة شيلي على غرار « العصبة الأندلسية » في سان باولو ، كما سعتْ إلى إنشاء جناح عربي في مكتبة سانتياغو الأهلية . فإليها يرجع الفضل ببعث اللغة العربية في محيط لا أثر فيه لآداب الضاد ، كل أهله تجار وعمّال وصنّاع وزرّاع . وكان من عوامل التوفيق في مهمتها زواجها من التاجر الفاضل ابراهيم

عطا الله الذي بخلقه الطيب وبنزعته الانسانية أدرك منزلة أدبية يُحسد عليها ، إذ كان همّه رفع شأن محيطه العربي أدبياً واجتماعياً .

ويليهما في الفضل جميل شوحي . أديب حمصي تخرج من مدرسة روسية بعلوم ابتدائية ، ثم أصبح بالمطالعة والمران أميراً من أمراء القلم . اقتنى مطبعة في عاصمة شيلي وأنشأ جريدة سمّاها « جريدة الشبيبة » وأصدر ستة عشر كتاباً ألّفها بالعربية والاسبانية . منها كتابان « ثلاثة وثلاثون شاعراً — وصورٌ من الشعر العربي » ، نقل فيها إلى الاسبانية مختارات من الشعر العربي القديم . وهو اليوم رئيس جمعية الكتّاب الشيلانيين .

وفي سنتياغو ، شيلي ، يقيم توفيق بالش ، أديب عالي الثقافة ، وجورج حزبون المعروف بآثاره الأدبية ، والكاتب نصرالله مسوح ، والشاعر فهد ابراهيم ، والأديب جبران عطا الله ، والقاص وحيد شاوربة والصحافي جرجس أبو صباح صاحب جريدة « الاصلاح » العربية وبعدها جريدة « العالم العربي » الاسبانية ، وهو العدو رقم واحد للصهيونية ، ومثله سليمان عويس صاحب « النشرة العربية » . وبالنظر لكرامة الجالية لدى الحكومة الشيلانية أنشئ كرسي للآداب العربية في جامعة سانتياغو يدرّس فيه العلاّمة جورج زهرور .

جان زلاقط

شاب نابه وشاعر مجيد . غامر في الأدب وفي التجارة وأصدر جريدة « الوطن » على مستوى راق عام ١٩٤٤ . ثم ضاقت به الحال فباع الجريدة من طلبة الجامعة فتحوّلت إلى اسبانية تحولاً طبيعياً ، فرَضَه

ذهاب الفوج القديم من القراء وظهور فوج جديد من مواليد المهجر لا يقرأ العربية . وللسبب ذاته احتجبت كل الجرائد والمجلات التي صدرت قبلها وعددها خمس عشرة . وللأديب زلاقط حسنات شعرية نذكر منها قوله في المصدور :

صفرة الداء على خدّيـه تنعـاه لنفسـه
فـيرى في غده ما كان يخشاه لأمسه
وإذا غرغرة الصدر تنـاديه لرمسه

كلما مج دماً من رئتيه شاهد القـبرا
فبكى من صدره دمعاً عليه قطعاً حمرا
وإذا يلفظها بين يديـه يلفظ العمـرا

وقوله في الحنين إلى الوطن البعيد :

صوت الديار بمسمعي ملءُ الفضاء الأوسعِ
أسعى النهارَ مجاهـداً وكأنها تسعى معـي
وإذا أويت لمضجعـي ألفيتُها في مضجعي
والشوق طيّ جوارحي وجوانحي لم يهجع
ما لذة الدنيا سـوى يوم اللقاء المزمـع

الفصل التاسع عشر

في الجمهوريات الأخرى

في بوليفيا

جورج كعدي

عرّفتنا الصحف والمراسلات الخصوصية بأديب يقيم في «لاباس» عاصمة بوليفيا هو جورج كعدي اللبناني. وُلد في «بسكنتا» عام ١٩١٢ واقتصرت دراسته على عامين، وهاجر حديث السن إلى البرازيل (١٩٢٥) حيث أكمل التحصيل قدر المستطاع وشرع بالمتاجرة والتحرير في الصحف وإلقاء القصائد القديمة المتداولة في المجتمعات فلم يعجب ولم يطرب فغادر البرازيل متجهاً إلى جمهورية شيلي عام ١٩٤٨ وغذى أدبه بالمطالعات الجدية وأصدر مجموعة شعرية باللغة الاسبانية بعنوان «أحلام»، وفي

تلك الأثناء أصيب بأمراض وقاسى عمليات جراحية شوّهتْ حاسة السمع فيه ، ونُكب في ماله فانتقل من شيلي إلى بوليفيا وانصرف فيها إلى التجارة في عاصمتها . ولم يزل يرسل منها اشعاعاتفكره وقلمه إلى مجلات الوطن. قرأنا له في قصيدة التاجر المحروم :

إني أعيش غريب الوجه في بلد   هيهات يحكي جنان الخلد في الشام
أذرذر الشعر فرغاً في مرابعه   وأهدر العمر بين الشيت والخام
فالشعر ينظمني . لا لست أنظمه   إني نشرت بساح الوحي أعلامي

وقال يوم رُزِق ابنته البكر « ثريا » :

قصيدة روحي ونبض فؤادي   لأنتِ منى الشاعر الوالد
وكنتِ بسرّيَ لحناً يجول   فأصبحت من شعري الخالد
فكوني « ثريا » مكان الثريا   ارتفاعاً بأفق السنا الصاعد
وكوني محط رجا والد   غدا هدف الحاسد الحاقد
رمته الليالي بأحداثها   فأصبح في شغل جاهد
ولكن تعزّى على همّه   بفرخ يزقزق للوالد

ولكن لم تبلغ « ثريا » عامها الثالث حتّى اختطفتها يد الموت فزفر الشاعر وصاح :

قد كدت أكفر بالوجود وبالحياة وبالبشر
ماذا جنَتْ بنتي الصغيرة كي يفاجئها القدر
حسونة العش الدفيء ، رجاء والدك الأبر
ريحانة القلب الكسير ، قضيتِ في عمر الزهر

ربّاه إني حائر فارفع عن النفس الحيَر
حطمتَ عودي بعدما دوزنت للشدو الوتر

وفي عام ١٩٥٨ عاوده المرض ولزم المستشفى شهوراً ، ولمّا بارحه نشر قصيدة البعث والأمل :

« طال صمتي »

ثلاثون عاماً بهذي القفار غدوت كشعر بلا قافيه
فقد هاض مني الزمان الجناح وحطّم قيثارتي الشاديه
لئن طال صمتي كطير جريح فروحي في يقظة ساميه
سأرجع أشدو كما كنت قبلاً كبلبل روض على رابيه
فان الحياة نشيد طويل أغنيه في وحدتي الساجيه

في الاورغواي

زالت معالم الأدب العربي في هذه الجمهورية الراقية وكان فيها صحافة عربية مرموقة . نذكر منها جريدة « العروة الوثقى » لصاحبها الياس قطان ، صدرت عام ١٩٠٧ . وجريدة « الوطن » أسسها سليمان عقيقي . وكنا قرأنا شعراً جيداً لميشال نعمه (نزيل مدينة بيفارا منذ عام ١٩١٣) حمل به على مجلس النواب اللبناني فقال :

عيل صبر البلاد يا نائبيه ومللنا ، وما بلغنا المراما
قد حشدنا الأقلام جيشاً ينادي محّصوا الحق ، عدّلوا الاحكاما
إن بلغنا المنى سكتنا ، وإلاّ رنّة السيف تعقب الاقلاما

واليوم لا نقرأ أدباً عربياً إلاّ للآنسة نسيمه نصر (من الشويفات) ، وهي كاتبة بارعة ، جميلة الأسلوب . ونعتز بأدب الشاعرة ليلى نفاع (ابنة رزق الله نفاع قنصل لبنان الفخري في الاورغواي) ، ولكنها تكتب وتنظم بالاسبانية ، وإن كانت لا تجهل العربية بدليل انها ترجمت كتباً لجبران .

في كندا

محمد سعيد مسعود

جالية عربية كبيرة لها أندية وكنائس كثيرة ، وعظمة مالية كبيرة ، ولكن ليس للأدب العربي وللصحافة العربية معالم في أرجائها . فهي تتكل على صحافة نيويورك العربية لنشر أخبارها والتعليق عليها ، وفي كل مناسبة اجتماعية كتدشين كنيسة أو تأسيس منتدى تحتفل بـه الجالية كانت تدعو ايليا أبو ماضي من نيويورك لكي تسمع منه الشعر العربي وتصفق له . فهي تتذوقه كفاكهة طيبة نادرة لا كغذاء ضروري للروح . وكان لجريدة « السمير » مراسل فيها يتذوق الأدب هو ميخائيل درويش

الملقب بـ « شاعر وادي التيم » وهو اليوم مراسل جريدة « البيان » . هذا حالها لولا وجود فرد بمقام ألفٍ بينها . تفرد بالمروءة الانسانية والحمية الوطنية ولم يخلع عن نفسه رداء العروبة هو محمد سعيد مسعود المقيم في « منتريال » ، الذي حمل وحده اعباء القضية العربية وجاهد في سبيل فلسطين بكل قواه الروحية والمادية . فهو المحامي الدائم عنها في صحافة كندا بمقالاته ونشراته المتوالية ، وهو المتطوع للمحاورات مع أنصار اسرائيل ، وهو رافع المذكرات إلى المسؤولين في الشرق والغرب وهو الباذل المال بسخاء لنجدة المشرّدين . واليكم شهادة الاستاذ يوسف ابراهيم يزبك تُعرف به من لا يعرفه :

« الدرزي المثالي »

« هو الوطني المقدام الذي يرفع الصوت في كندا ، في كل مناسبة — وما أكثر المناسبات — دفاعاً عن القضايا العربية عامة والقضية الفلسطينية خاصة .

وإذا قيست كتابات محمد سعيد مسعود ومساعيه ومساعداته المادية والمعنوية بالنسبة إلى ما قامت به جامعة الدول العربية في هذه الميادين عينها لفاق فضله عمل الجامعة وحق للذين خبروا جهده وعرفوا جهاده أن يذكروه قبلها .

في العقدين الاخيرين أتيح لي أن أقرأ الكثير من مقالات محمد سعيد مسعود في المعارك السياسية التي خاضها العرب ، فكنت أعتز دائماً

بأن أرى عصامياً من لبنان ، حرمته أوضاع المجتمع القائم في وطنه من الدرس في المدرسة ، واضطرته لأن يغترب في سبيل الرغيف ، تستيقظ فيه المروءة العريقة في قومه فيتقدم الصفوف ، في مجالات الوطنية والمعروف ، ويبذل في سبيلهما ، وبمفرده ، فوق ما يبذله العرب المغتربون جميعاً في كندا .

في كـوبا

كان للجالية العربية جريدة اسمها « الاتحاد » أنشأها شكري بعقليني ، احتجبت في السنوات الأخيرة وخلا الميدان لمجلة « الشرق الأوسط » التي يصدرها بالاسبانية الدكتور خليل فارس الياس .

في كولومبيا

لا يوجد صحافة عربية . في بارانسكيا جمعية لإغاثة فلسطين تتفاهم بالعربية كتابة وخطابة مع أبناء الجالية فنقرأ مقالات قيمة لفرنسيس سليم جابر وقصائد وطنية لعقل أمين . وفي بوغوتا مؤسسة كولومبيانية لبنانية تعتمد في نشاطها على الاسبانية .

في سانتو دومينغو

يوجد في العاصمة « تروخيو » صحافة ومحطة إذاعة يديرهما من أبناء الجالية العربية الصحافي سليمان أبو شاكر والمذيع نقولا هزيم ، ولكن بالاسبانية .

في بقية الجمهوريات الوسطى

حيث الجوالي المغتربة كلها تقريباً من فلسطين ، لا أثر للصحافة العربية ولا لمجهود أدبي بلغة الضاد .



فهرست الاعلام

أ

ب

ت

ج

ح

خ

س

ش

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ن

هـ

و

ي



فهرست



عنوان المؤلف

GEORGES SAIDAH

72 bis. Rue Michel Ange

Paris (16e)

FRANCE

٦٥ / ١ / ٥٠٣